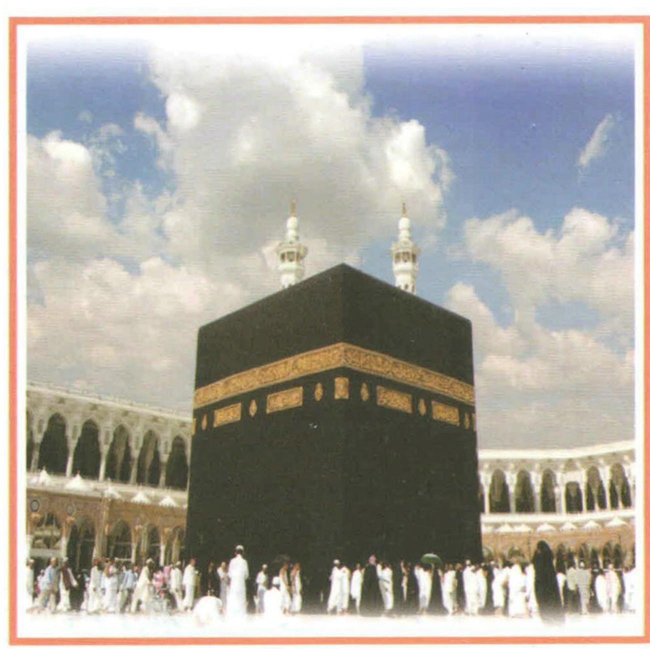
كيف تخشع في صلاتك

رؤية جديدة وطرق عمليّة







بسم الله الرحمن الرحيم



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1442هـ / ٢٠٢٠

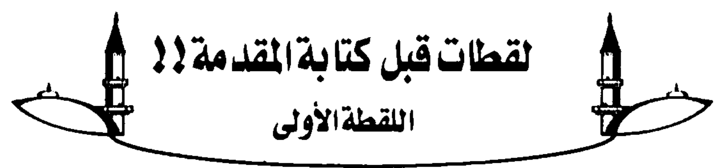
رقم الإيداع: ١٩٥١٥ / ٢٠٢٠

الترقيم الدولي: 978-977-763-139-6

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر أمام الجامع الأزهر القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٢٩٧٤



أسرف على نفسه كثيرًا..

عصى الله بسمعه وبصره..

وبيده ورجله..

وبقلبه وعقله..

وعصى الله بلسانه!

لا يذكر لنفسه حسنات..

سئم المعاصي والذنوب..

وأراد أن يتوب!

توضَّأ..

أحسن الوضوء..

أسبغ الوضوء..

ثم صلَّى ركعتين..

فقط ركعتين!!

أقبل على الله بوجهه..

أقبل على الله بقلبه..

لحظتها.. غاب عن الدنيا..

لم تُحدِّثْه نفسُه بشيء من زخرفها وزينتها..

اسْتَغْفَرَ.. ثم اسْتَغْفَرَ.. ثم اسْتَغْفَرَ..



دقائق وأنهى الصلاة..

سلَّم عن يمينه وشماله..

أنا.. مَنْ أنا؟!

أنا لست أنا!!

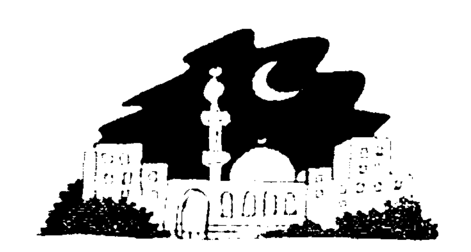
صَدَقْتَ!

أنت عبد جديد!

أَبْشِر...

لقد صِرتَ كيوم ولدتك أمُّك..

بلا ذنب.. أو خطيئة[1]!



(١) سيأتي حديث عن عمرو بن عبسة ﷺ انظر ص٧٢.

اللقطة الثانية

في ظلام الليل، وسكون الصحراء..

كانت عينه ساهرة تحرس جيشًا في سبيل الله..

نظر إلى السماء.. إلى النجوم والقمر..

ما أجمل هذا الكون!

اشتاقت روحه إلى خالقه..

وقف يناجي ربَّه..

يُصَلِّي.. يقرأ القرآن.. يستمتع.. يبكي..

تمنَّى لحظتها ألَّا ينقضي الزمن..

شعر بلسعة خفيفة في كتفه، ولزوجة تُغَطِّي بدنه!

وضع يده برفق على كتفه، وهو مسترسل في قراءة القرآن..

وجد سهمًا حادًّا قد اخترق جسده!

مزَّق جلده.. لحمه.. أعصابه!

تفجَّر الدم يُغَطِّي الجسد والمكان..

نزع السهم.. وأكمل الصلاة! أكمل قراءة القرآن..

ما أجمل هذه الآيات! ما أروع هذه الرسالة! ما أرقَّ هذه المعاني!

جاءه سهم ثانٍ..

ازداد الجسد تمزُّقًا.. والدم تفجُّرًا..

نزع السهم.. وأكمل الصلاة! أكمل القرآن..

سهم ثالث يخترق!

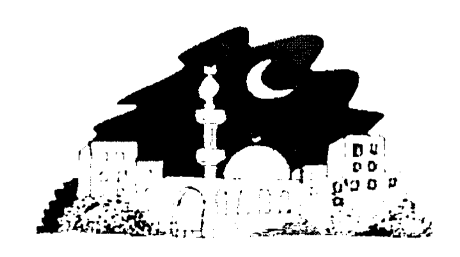
خاف على الجيش الذي يحرسه..

نزع السهم الثالث..

ركع مضطرًّا.. رفع.. سجد سجدة أولى.. ثم ثانية.. تشهَّد.. سلَّم تسليمة أولى.. وثانية!

وبعدها أيقظ صاحبه!

قُمْ.. هناك عدوٌّ(١)!



(١) انظر موقف عباد بن بشر رضي الله عنه في ص٩٤.

اللقطة الثالثة

ختم صلاة المغرب في خشوع..
في خضوع..
كانت نَفْسُه ساكنة..
وروحه مطمئنَّة..
بعد صلاته.. قال كلمات قليلات.. قليلات.. قليلات..
استغرقت دقيقة وعشرين ثانية!
اهتزَّت الأرض والسموات!
صدرت أوامر قاطعة من الملك.. العزيز.. الرحيم..
سبحانه!
فلتذهب فرقةٌ مسلَّحةٌ من الملائكة لحماية هذا الرجل..
امكثوا معه حتى الصباح..
احرسوه من الشيطان اللعين..
وادفعوا عنه كل مكروه..
يا حفظة اليمين: اكتبوا له عشر حسنات عظيمات..
بل اكتبوا له كذلك ثواب عتق عشر رقاب مؤمنات!
يا حفظة الشمال: امسحوا عنه عشر سيئات مهلكات..
يا خازن الجنة: ارفعه عشر درجات!
أيتها الملائكة:
انظروا إلى هذا العبد..
إنه من أفضل الناس عملًا[1]!!

---

(١) سيأتي ما يوضح ذلك عند الحديث عن «التهليل عشر مرات بعد صلاتي الصبح والمغرب» انظر ص٤٠٠.

اللقطة الرابعة
أثناء صلاتك!

هل تُفَكِّر أثناء الصلاة فيما ستفعله بعدها؟

هل تتجوَّل بذهنك شرقًا وغربًا أثناء الصلاة؛ فتُفَكِّر في مشاكلك ومشاكل الآخرين؛ ومن ثَمَّ تجد لها حلولًا ومقترحات؟

هل تفقد الاتصال مع القرآن الكريم أثناء صلاتك فلا تُدرك المقصود من كلِّ آية؟

هل تقول: «الله أكبر»، أو «سمع الله لمن حمده»، أو «سبحان الله». دون استيعاب لمعانيها أثناء الصلاة؟

هل تُكثر من الحركة أثناء الصلاة، كأنْ تُبادِل الارتكاز على الأقدام، أو تَدْعَك شعرك أو جلدك؟

هل يتجاوز بصرك أثناء الصلاة موضع سجودك؛ فتستطيع تحديد مُكَوِّنات المسجد أو الغرفة، أو صفة المُصَلِّين أمامك؟

هل تتثاءب أثناء الصلاة؟

هل إذا تكلَّم أحدهم إلى جوارك أثناء الصلاة استطعتَ تمييز ما يقول؟

هل حاولتَ أن تبكي أثناء الصلاة ففشلت؟

هل تَتَّهم الإمام كثيرًا أنه يُطيل في الصلاة؟

هل تُعاني من السهو في عدد الركعات؟

هل تنسى بعد الصلاة بأي السور قرأتَ أو قرأ الإمام؟

هل تُصَلِّي بسور معيَّنة محدودة، وتدعو في سجودك بأدعية ثابتة لا تتغيَّر؟

هل تشعر بأن شيئًا ثقيلًا قد رُفِع من على كتفك إذا صَلَّيْتَ العشاء؟

أخي الكريم.. وأختي الكريمة..

إذا أجبتَ «بنعم» على غالب هذه الأسئلة.. فلا أُخفيك سرًّا..

هذه بعض علامات غياب الخشوع! ووضعك خطير!.. جدًّا!

أدرِكْ نفسك قبل أن تذهب في رحلة طويلة.. لا عودة منها!!



وقف يشكو لي حاله في الصلاة.. قال: إن ذهنه ينصرف دومًا عن تدبُّر القرآن، وبمجرَّد دخوله في الصلاة يذكر عشرات الأشياء، التي يغرق فيها تمامًا حتى تنقضي الصلاة.. بل إنه يذكر أشياء اجتهد كثيرًا قبل الصلاة في تذكُّرها ولكنه فشل، فإذا به يذكرها في صلاته.. قال لي: هذه مشكلة مزمنة أعاني منها في معظم الأوقات!

قلتُ له في هدوء: أخي؛ هذا عَرَضٌ لمرض خطير! فمشكلتك الحقيقية ليست في الصلاة ذاتها -مع الأهمية العظمى للصلاة- ولكنها أعمق من ذلك -يا للأسف- وعَرَضُك هذا بالغ الخطورة؛ ومع ذلك فأنا أحمد الله أنك تشكو! فهذا يعني أنك مهتمٌّ، وهذا بداية الحلِّ إن شاء الله.

حاوَلَ أن يُجادل قليلًا، ويقول: أيُّ مرض يا دكتور؟ أنا -الحمد لله- بخير.. وعلاقتي بالله على أفضل ما تكون، وربي يُكْرِمني دائمًا.. لكنها فقط مشكلة «السرحان في الصلاة»! أعتقد أنني أحتاج بعض التركيز.. لا أُريد تهويل الموقف!

قلتُ له: دعنا نترك هذا الموضوع، ولنتدبَّر في مَثَلٍ مُعَبِّر قد تتَّضح به الصورة: هل إذا دخلتَ على رئيسك في العمل تطلب علاوة، أو تستأذنه في قضاء مصلحة لك، أو تطلب عفوه على خطأ بدر منك يستوجب العقاب أو الطرد.. هل في هذه الحالة تطلب طلباتك وأنت لاهٍ غافل، أم تكون في قمَّة التركيز؟!

سكت صاحبي، ولاحظتُ عليه بعض مظاهر الارتباك!

قلتُ له: دعك من المثال السابق، وتعالَ معي نحلُّ المعضلة التالية! رجل كريم له أفضال كثيرة عليك.. لسبب أو لآخر وقعتَ في حقِّه، وخالفتَه فيما يحبُّ، وأتيتَ ما يكره.. ثم مرَّت الأيام واحتجتَ أن تقترض منه مبلغًا من المال! ولم تجد غيره، فكيف ستُرَتِّب كلماتك حتى يقبل أن يُعطيك بعد خطئك في حقِّه؟!

بدت على صاحبي أمارات الحيرة، ولم ينطق.. أو لعلَّه تمتم بحروف لم أفهمها!

قلتُ له: لا داعي للحيرة.. لنكن عمليين.. هذا موقف وارد جدًّا.. وكلنا مُعرَّضٌ لمثله.. تعالَ نفكِّر معًا في أنسب طريقة للطلب منه:

لعلَّنا نبدأ بالاعتراف له بأفضاله السابقة..

ثم نُثني على كرمه الذي يعرفه الجميع..

ثم نعتذر صراحة عن أخطائنا في حقِّه..

ونَعِدُ ألَّا نعود لمثلها..

فإذا غلب على ظننا أنه رضي عنَّا تشجَّعنا فطلبنا القرض الجديد..

فإن أعطانا شكرناه كثيرًا أنه قَبِل أن يسمع منَّا؛ بل أن يُعطينا، على الرغم من خطئنا السابق في حقِّه..

وإن لم يُعطنا قلنا له: معك كل الحقِّ؛ فالمال مالك، ونحن مخطئون، ونحن لم نطلب القرض استحقاقًا له، إنما طمعًا في كرمك.

ثم قلتُ لصاحبي: هل فهمت المثال والمعضلة؟!

قال: نعم.. وما الحيلة؟!

قلتُ: يسيرة! فلنُسْقِط هذا المثال، وهذه المعضلة على علاقتنا بالله ﷻ، نخرج من الأزمة بإذن الله..

لو دخلنا في الصلاة بشعورٍ قريبٍ من شعورنا عندما ندخل على رئيسنا في العمل، عندما نُريد منه طلبًا، أو إذنًا، أو عفوًا لكان خشوعنا في الصلاة كبيرًا، ولو دخلنا في الصلاة ونحن نُريد من ربنا أن يُحقِّق لنا أمانينا في الدنيا والآخرة، مع علمنا أننا أخطأنا كثيرًا في حقِّه، وأنه سَتَرَنا طويلًا، وحَلُمَ علينا كثيرًا، وأعطانا أكثر مما طلبنا منه، وليس لنا غيره.. لو دخلنا بهذه الروح عليه فإن الخشوع سيأتي لا محالة..

إن الغريق لا يمدُّ يده لمن يُنقذه وهو لاهٍ غافل!

إن غفلتنا في واقع الأمر لا تعني إلَّا شيئًا واحدًا: هو أننا لا نَقْدِرُ الله قَدْرَه!

أليس هذا شيئًا خطيرًا؟!

إن هذا هو المرض الذي تعدَّدت أعراضه!

من أعراضه قلَّة الخشوع في الصلاة، أو في الدعاء، أو عند قراءة القرآن..

ومن أعراضه حبُّ الدنيا، والتعلُّق بزينتها، وغلبتها على القلب..

ومن أعراضه استصغار الذنوب ورؤيتها بسيطة..

ومن أعراضه نسيان الموت، وعدم الاستعداد له..

ومن أعراضه الفتور عن أعمال الخير..

ومن أعراضه قلَّة الهمَّة لقيام الليل..

ومن أعراضه هجر القرآن، فلا نختمه إلَّا في رمضان..

ومن أعراضه الحذر من الجهاد؛ بل تجنُّب ذِكْره..

ومن أعراضه السكوت عن الحقِّ..

ومن أعراضه.. ومن أعراضه.. ومن أعراضه..

لقد وَضَحَت الرؤية فيما أعتقد!

إننا ينبغي ألَّا ننظر إلى الخشوع في الصلاة على أنه مجرَّد «تجميل» للأداء! ولكن علينا أن ننظر إليه على أنه «توقير» لله رب العالمين.. وبالتالي فكلما زاد توقيرنا لله ﷻ زاد خشوعنا في الصلاة؛ ومن ثَمَّ صار طلبنا من الله أن يُعطينا ويغفر لنا، ويُكرمنا، ويرزقنا أمرًا منطقيًّا، أمَّا أن ندخل في الصلاة بقلوب غافلة، وعقول لاهية، وأجساد متهالكة لا تقوى على قيام سليم، أو سجود مطمئنٍّ، ثم نطلب ونطلب ونطلب.. فهذه والله حماقة!

ليسأل كلٌّ منَّا نفسه: لماذا كان أرجى الدعاء هو دعاء السجود؟ ولماذا قال رسول الله ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[1]؟

إنني أرى في ذلك حكمة عظيمة تُفَسِّر لنا طبيعة الصلاة، وطبيعة العلاقة بين العبد والربِّ..

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٢) عن أبي هريرة ﷺ، وأبو داود (٨٧٥)، والنسائي (٧٢٣)، وأحمد (٩٤٤٢).



لكن قبل عرض هذه الحكمة دعونا نقف مع مشكلة متكرِّرة!

إن بعض المُصَلِّينَ يعتبر أنه قد أدَّى ما عليه إذا وقف دقائق أمام الله يُؤَدِّي بعض الحركات التي يُسَمِّيها صلاة! وأنه صار من «حقِّه» حينئذٍ أن يطلب ما يشاء!

أخي الحبيب: مَنْ أنت؟

هل تعرف معنى العبودية للربِّ؟

فلنتدبَّر مليًّا في هذه النصوص، وأمثالها؛ فإنها ستقودنا إلى المعرفة بإذن الله:

عن أبي ذرٍّ ﷺ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: «يَا عِبَادِي؛ إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي؛ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[1].

من فضلك أعد قراءة الحديث القدسي السابق مرَّة ثانية بتمهُّل شديد.. بل أعد قراءته مرَّة ثالثة أو رابعة!

هل تعلم أن أبا إدريس الخولاني[2] كان إذا حدَّث بهذا الحديث جَثَا على

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٢٥٧٧) واللفظ له، والترمذي (٢٤٩٥)، وابن ماجه (٤٢٥٧)، وأحمد (٢١٤٠٥)، والبخاري: الأدب المفرد، ص١٧٢ (٤٩٠).

(٢) هو: أبو إدريس الخولاني عائذ الله بن عبد الله بن عمرو العوذي الدمشقي (٨-٨٠هـ=٦٣٠-٧٠٠م) من كبار التابعين، فقيه، كان واعظ أهل دمشق، وقاصهم، وقاضيهم بعد فضالة بن عبيد لمعاوية وابنه إلى أيام عبد الملك بن مروان. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/ ٢٧٢-٢٧٧، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٦/ ٣٤٠، وابن عبد البر: الاستيعاب، ٢/ ٨٠٠، ٤/ ١٥٩٤.

رُكبتيه[١] من شدَّة توقيره لله ﷻ؟!

هل أدركتَ معنى العبد ومعنى الربِّ؟ وهل فهمت مغزى الصلاة؟

نصٌّ آخر يحتاج منَّا إلى وقفات: عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لَا، وَلَا أَنَا؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ؛ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ[٢]»[٣].

كم تُمثِّل أعمالنا بالقياس بأعمال رسول الله ﷺ؟ نتَّفق جميعًا أنه لا مقارنة بين رسول معصوم -بل هو خير الرسل جميعًا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٤]- وبين عباد يُخطئون بالليل والنهار.. فإذا كان الرسول ﷺ -وهو أعرف الخلق بربِّه- يرى أنه لن يدخل الجنَّة إلَّا برحمة الله ﷻ؛ ومن ثَمَّ كان يرجو بكل ذرَّة في كيانه هذه الرحمة، فلماذا ندخل نحن في صلاتنا بشعور المستكفي، الذي ضمن الجنَّة، ولكنَّه يُريد فوقها أشياء!

ثمَّ وقفة مع هذا النصِّ: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا؛ رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْوًا، فَيَقُولُ اللهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ. فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى. فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ. فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى. فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا. أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا. فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي، أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ المَلِكُ». فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وكان يُقَالُ ذلك أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً[٥]. وفي روايةٍ أن الله ﷻ أجاب العبد

---

(١) انظر: مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٢٥٧٧)، وابن حبان (٦١٩)، والبخاري: الأدب المفرد، ص١٧٢ (٤٩٠).

(٢) يستعتب؛ أي: يسترضي الله بالإقلاع والاستغفار. والاستعتاب طلب الإعتاب؛ أي يطلب إزالة العتاب. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٣/ ٢٢٢.

(٣) البخاري: كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، (٥٣٤٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، (٢٨١٦).

(٤) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ». ابن ماجه (٤٣٠٨)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٧١).

(٥) البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٦٢٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، (١٨٦).

بقوله: «إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1].

إن كان هناك من البشر مَنْ يَدَّعي أنه يستطيع أن يقضي لك حاجتك، ويُحَقِّق لك آمالك، ويُعطيك ما تتمنَّاه في الدنيا، فمَنْ هذا الإنسان الذي يدَّعي أنه يملك شيئًا في الآخرة؟ إننا جميعًا نُقِرُّ ونعترف لله ﷻ بالتصرُّف الكامل في هذا اليوم الرهيب دون أدنى ادِّعاء من أي مخلوق بالمشاركة.. قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].. فانظر إلى كرمه وقدرته؛ حيث لا يملك أحدٌ أن يُعطي إلَّا هو، ولو أعطى القليلَ لقَبِلَ الناس راضين، فإذا به يُعطي أقلَّ أهل الجنة نعيمًا مِثْلَ عشرة أمثال الدنيا! قدرةً.. وكرمًا.. وربوبيةً!

وأخيرًا، وقبل العودة إلى مسألة الدعاء في السجود، لِنَعِشْ قليلًا مع خشوع وخضوع الرسول ﷺ في مناجاته لربِّه؛ لنعرف المستوى الذي ينبغي أن نقارن به، والمعيار الذي يجب القياس عليه: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا». قال: فقيل: يا رسول الله؛ ألا نَتَعَلَّمُهَا؟ فقال: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»[2].

عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[3].

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، (١٨٧)، وأحمد (٣٨٩٩).

(٢) أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان (٩٧٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٠٣٧٤). وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني... ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان. انظر: مجمع الزوائد ١٠/ ٢٩٩، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (١٩٩).

(٣) البخاري: كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ». (٦٠٣٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل، (٢٧١٩).

وأرجو أن نُعيد قراءة الأدعية السابقة؛ لنُدرك مدى احتياج الرسول ﷺ لله ﷻ، فكيف بنا؟!

وعودة مرَّة أخرى إلى السؤال: لماذا كان الدعاء في السجود أرجى من غيره، وما الحكمة فيه؟

واقع الأمر أن وضع السجود هو أكثر أوضاع الصلاة خضوعًا لله ﷻ، وأكثر المواطن ذلًّا له ﷻ؛ ففيه تخضع الجبهة التي يعتزُّ بها الإنسان، ويسجد الأنف الذي يشمخ به الناس.. إنه المقام الذي لا يَقْبَل أحدٌ سَوِيُّ الفطرة أن يفعله إلَّا لله ﷻ؛ ومن هنا كان هذا أعظم إعلان للعبودية لربِّ العالمين، وإذا أدرك العبد طبيعة هذه العلاقة فإن إجابة دعائه تكون قريبة؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فالله قريبٌ من «عباده»، أما الذي لا يُدرك كُنْه هذه العلاقة فكيف يقترب من الله؟!

غير أن هناك حكمة أخرى جميلة ودقيقة أراها من وراء جعل السجود هو موطن الإجابة الأقرب في الصلاة.. وهي أن السجود هو آخر عمل في الركعة، فكأنَّ كلَّ الركعة في تكبيرها وفاتحتها وقرآنها وركوعها وحمدها، ما هي إلَّا مقدِّمة مجَّدْتَ فيها الله وعظَّمْتَه حتى وَصَلْتَ في نهايتها إلى السجود الذي تطلب فيه من الله بغيتك.. وإذا رجعنا إلى المثال الذي ضربناه قبل ذلك، وفيه نطلب قرضًا من صاحب فضلٍ وقعنا في حقِّه، تُصبح الركعة كلها هنا كالمحاولات التي نبذلها للاعتذار عن خطئنا، ولتقديم التبجيل والتعظيم، وإظهار الانكسار والضعف، لنصل في النهاية إلى الموضع الذي نطلب فيه على استحياء ما نُريده من صاحب الفضل.

ومن هنا جاء حثُّ رسول الله ﷺ لنا على كثرة الدعاء في السجود، وعلى الاجتهاد فيه؛ فقد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «.. فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ ﷻ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنٌ[1] أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[2]. فنحن لا ندعو في الركوع؛ حيث إننا لم نستكمل بعْدُ المقدمات التي تكفل لنا الإجابة، أمَّا إذا قُمْنَا في الركوع وغيرِه من أركان الركعة

---

(١) قمن: حقيق وحريٌّ وجدير. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ٢/ ٣٠٠، والنووي: المنهاج، ٤/ ١٩٨.

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، (٤٧٩)، وأبو داود (٨٧٦)، والنسائي (٢١٨)، وأحمد (١٩٠٠).

بتعظيم الله وتمجيده والاعتذار له، فإن إجابة الدعاء في السجود تكون أقرب، ومن المفيد أن تعرف أن هذه الوصية كانت في أخريات حياة رسول الله ﷺ، وفي مرضه الذي تُوُفِّيَ فيه[١]؛ مما يدلُّ على أهمِّيتها القصوى، وحِرْصِ الرسول ﷺ على إيصال الخير لنا حتى مع شدَّة ألمه وتعبه.

ولعلَّ هذا هو السبب كذلك في مشروعية الدعاء بعد التشهُّد الأخير في الصلاة؛ فمن السُّنَّة النبوية أن ندعو في موضعين رئيسين في الصلاة: السجود، وبعد التشهُّد قبل التسليم[٢]. فكما أن السجود هو آخر أعمال الركعة، وجدير أن يُستجاب لنا كما وعد رسول الله ﷺ، فإن التشهُّد هو آخر أعمال الصلاة كلها، وقد عظَّمْنا اللهَ كثيرًا في كل أركانها، فحان وقت الطلب من الله ﷻ؛ لذلك وردت في السُّنَّة النبوية أدعية كثيرة للغاية يقولها المُصَلِّي بعد التشهد وقبل أن يُسَلِّم، وسنعرض لها بإذن الله في ثنايا الكتاب عند حديثنا عن التشهُّد والتدبُّر فيه.

وكذلك يمكن أن نفهم لماذا جعل الله ﷻ القنوت في صلاة الوتر[٣].. فبعد أن صَلَّيْتَ كثيرًا من الليل، وعظَّمت الله ﷻ طويلًا في هذه الركعات جاء وقت الطلب والمناشدة.. وتأمَّل صورةً من الطلب الذي تُقَدِّمه إلى الله ﷻ كما رواها لنا الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما فقال: علَّمني رسول الله ﷺ كلماتٍ أقولهنَّ في قُنُوتِ الْوِتْرِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ**»[٤].

---

(١) قال ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، في بداية روايته: كَشَفَ رَسُولُ الله ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ... الحديث السابق، وهذا كان في الأيام الأخيرة في حياة رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه يصلي بالناس.

(٢) لقوله ﷺ بعد التشهد: «ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ فَيَدْعُو». البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، (٨٠٠). وفي رواية قال ﷺ: «ثم يَتَخَيَّرُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ المَسْأَلَةِ مَا شَاءَ». مسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة. (٤٠٢).

(٣) القنوت هو اسم للدعاء في الصلاة في محلٍّ مخصوص من القيام، والوتر صلاة مخصوصة بعد فريضة العشاء، وسُمِّيَتْ بذلك لأن عدد ركعاتها وتر (أي فردية)، وهي آخر الصلاة بالليل. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ٢٨٩- ٢٩٩، ٣٤/ ٥٧، ٦٨، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ١/ ٨٠٩-٨٢٨، وعبد الرحمن الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٣٠٥-٣٠٨.

(٤) الترمذي: أبواب الوتر، باب ماجاء في القنوت في الوتر (٤٦٤) وقال: هذا حديث حسن. وأبو داود (١٤٢٥)، والنسائي (١٤٤٢)، وابن ماجه (١١٧٨)، وأحمد (١٧١٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات. وقال ابن الملقن: هذا الحديث صحيح. انظر: البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ٣/ ٦٣٠، وقال النووي: رواه الثلاثة (أبو داود والترمذي والنسائي) بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام ١/ ٤٥٥.

فهنا بعد صلاة الليل كلها، أو حتى بعد صلاة اليوم كله، نختم عبادة اليوم الطويل بدعاء طويل! نطلب الهداية والمعافاة والموالاة والبركة، ولم يكن ذلك إلَّا بعد تمجيد الله في كل الصلوات السابقة.

والفكرة نفسها في الدعاء المعروف بسيد الاستغفار: فعن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[١].

والسؤال: لماذا هذا النصُّ خاصَّة هو سيد الاستغفار؟

والإجابة: لأنه أفضل الصيغ التي تطلب فيها المغفرة من منعم أنعم عليك، وأخطأت في حقِّه!

لقد بدأ بتوحيد وتمجيد

ثم وَعْد بالبقاء على الوفاء

ثم اعتراف بالخطأ

واعتراف بالنعمة

ثم طلب للمغفرة

وأخيرًا إبراز مبرِّر اللجوء إليه مع أن العبد أخطأ في حقِّه، وهو أنه لا يغفر الذنوب إلَّا هو، فلا مناص من الطلب منه دون غيره!

هنا نتوقَّع أن يغفر الله ﷻ لنا؛ لذلك عُرِفَ هذا الدعاء بسيد الاستغفار، وجعل الله ثواب قوله الجنة، دلالة على أنَّ طلب المغفرة قد قُبِل.

مما سبق يتبيّن أن الصلاة من هذا المنظور تختلف عن الصلاة التي يُصلِّيها معظمنا! فكثير من المسلمين يُصَلِّي لا لشيء إلَّا لأن الله ﷻ فَرَضَ عليه الصلاة؛ فيشعر أنها أداءُ واجبٍ،

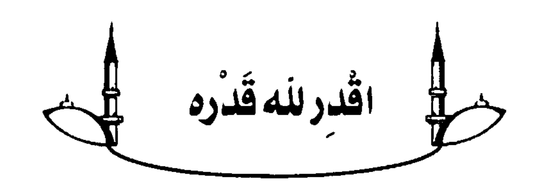
---

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، (٥٩٤٧)، والترمذي (٣٣٩٣)، والنسائي (٧٩٦٣)، وأحمد (١٧١٥٢).

فيُؤَدِّيها ليستريح «منها»، ويتفرَّغ بعدها لأعماله، وهذا لا يُمكن أن يخشع في صلاته، وقد يخشع أحيانًا عندما تكون له حاجة شديدة عند الله ﷻ؛ ولكنه لا يخشع غالبًا إلَّا في السجود حين يطلب بضراعة من الله تعالى أن يُحقِّق له أمله وطلبه، وهو لا يُدرك أن قوَّة الإجابة مقرونة بقوَّة التعظيم لله ﷻ في أثناء الصلاة، وهذا بدوره مقرون بمدى تقدير الله تعالى في القلب، وكل هذا ينعكس بالتبعية على الخشوع.

لقد كان البعض يتصوَّر أنني سأبدأ في حديثي عن الخشوع في الصلاة من لحظة تكبيرة الإحرام، ثم أتحدَّث عن أركان الصلاة وأعمالها.. إن هذا في الواقع مهمٌّ جدًّا، لكنه ليس البداية! إنما أول طريق الخشوع هو أن نُقَدِّر لله قدره، وبعدها يُمكن أن ندخل إلى الصلاة!





فلنَتَخَيَّلْ..

جاءتك دعوة من ملك البلاد لحضور حفل كبير، والدعوة خاصة، فلن يحضر الشعب كله.. إنما هي مجموعة منتقاة فقط! وأنت منهم!

ما شعورك؟

فرح!

رهبة!

خشية!

قلق!

أبْشِرْ..!

قد جاءتك الدعوة فعلًا!

لكنها ليست من ملك البلاد!

إنما من ملك السموات والأرض!

ما شعورك؟!

....

....

أقول لك:

لو لم نشعر بالفزح.. بالرهبة.. بالخشية.. بالقلق.. فنحن لا نعرف الله ﷻ!

الصلاة دعوة خاصة للقاء ملك السموات والأرض..

ليس كل الشعب معك..

كثير غافلون..

لاهون..

بعيدون.. بعيدون..

بلا عنوان..

قد جاءتك الدعوة..

فلْتَعْرِف الملك قبل أن تدخل عليه!

فإنَّ مَنْ رضي عنه الملك سَعِد..

ومَنْ سَخِط عليه الملك فلن يسعد.. أبدًا!.. أبدًا!

هل تعرف مَنْ هو الله ﷻ؟!

قد يعتقد المسلم المُصَلِّي أن هذا السؤال لا معنى له بالنسبة إليه، فكلنا -ما دمنا نصلِّي- فإننا لا شكَّ نعرف الله ﷻ الذي نُصَلِّي له! لكن واقع الأمر أننا لا نعرفه حقَّ المعرفة.. وإلَّا فكيف لا تخشع قلوبنا عند لقائه، بينما تخشع قلوبنا عند لقاء الملوك والزعماء والقادة؟!

إننا نحتاج أن نقف مع أنفسنا وقفات لنُجيب عن هذا السؤال بطلاقة..

ولنذكر أن هذا هو أحد الأسئلة التي ستسألها لنا الملائكة في قبورنا! مَنْ ربك؟!

إنها قضية المحيا والممات.. قضية الدنيا والآخرة..

قضية الإنسان.. كل إنسان..

الله هو رب العالمين..

هكذا عَرَّف نفسه ﷻ في فاتحة الكتاب، التي لا تصحُّ الصلاة دونها.. فنحن عندما نقرأ هذه الآية نُعلن أننا قد عرفناه بهذه الصفة العظمى: ربّ العالمين..

وكلمة العالمين تشمل كل ما سوى الله ﷻ[1]؛ ومن ثَمَّ فهي تشمل جميع الإنس والجنّ

---

(١) انظر: ابن عجيبة: البحر المديد ١/ ٢٤، ومحمد بن عبد الوهاب: تفسير آيات من القرآن الكريم ص١١، والسعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص٣٩، والجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ١/ ١٢.

والملائكة، وتشمل عوالم الحيوان والطير والأسماك والحشرات والنباتات، وتشمل الكائنات الدقيقة التي لا حصر لها، وتشمل الأجرام والأفلاك، والنجوم والكواكب، وتشمل الجبال والبحار والسهول والقفار.. وتشمل أهل الأرض وأهل السماء، وتشمل ما نعرف وما لا نعرف!

ذلك ربُّ العالمين!

المتصرِّف في كل ذلك بما يُريد، للذي يحكم ولا مُعَقِّب لحُكمه، الذي له الخلق والأمر، الذي بيده ملكوت السموات والأرض، الذي يُجير ولا يُجار عليه..

ربُّ العالمين..

عالِم الغيب والشهادة..

فاطر السموات والأرض..

ربُّ كلِّ شيء ومليكه..

لو قدرنا الله قَدْره ما شُغِلْنا إلَّا بعبادته، ولهذا خَلَقَنا سبحانه..

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

عندما نفهم هذا المعنى ستتحوَّل كلُّ لحظة من لحظات حياتنا إلى عبادة ربِّ العالمين، وسيشمل الخشوعُ له ﷻ كلَّ أوقاتنا وأعمالنا، وسنراقبه في سرِّنا وعلننا، وفي عباداتنا ومعاملاتنا، وسيشمل ذلك الصلاة وغيرها؛ بل ستُصبح الصلاة دُرَّةَ هذا الخضوع والخشوع لله ربِّ العالمين.

إننا نحتاج أن نعرف ربَّ العالمين!

ولو عرفناه.. لخشعت قلوبنا وعقولنا وجوارحنا، وكل ذَرَّة في كياننا..

كيف نعرفه حقَّ المعرفة؟

إن لهذا الأمر طرقًا عدَّة، وأساليب شتى، ولكنني في هذا المقام لن أتحدَّث إلَّا عن أمرين فقط! أحسب أن لهما أبلغ الأثر في معرفة الله ﷻ، وفي تقديره قَدْرَه؛ ومن ثَمَّ فلهما أكبر الأثر في الوصول إلى درجة الخشوع التي نُريدها.. وهذان الأمران هما: قراءة القرآن الكريم، والتفكُّر في خلق الله ﷻ.

أولاً : فلنقرأ القرآن الكريم:

من أوثق الطرق لمعرفة ربِّ العالمين أن نقرأ رسالاته إلى البشر، وفيها عرَّفهم بنفسه، وذكر لهم فيها ما يُريده منهم ويحبُّه لهم.. وقد جعل الله ﷻ هذه الرسالات دليلًا عليه ﷻ؛ ومن ثَمَّ فهي أقرب الطرق لتقديره وتوقيره؛ لذلك قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۞ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢]. فذكر ﷻ حال الكفار، وأنهم لا يقدرون الله قدْرَه، وذكر ردًّا عليهم أنه هو ﷻ الذي أنزل التوراة على موسى ؈، ثم أنزل الإنجيل، فالقرآن، وحيث إن التوراة والإنجيل تم تحريفهما، فإنه لم يَعُدْ هناك طريق سليم من هذه الرسالات لمعرفة الله تعالى إلَّا القرآن الكريم، والذي تكفَّل الله بحفظه.. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وذكر ﷻ أن هذا الكتاب مبارك، وأنه جمع ما جاء في الكتب السابقة، وأنه أبلغ وسيلة لإنذار القرى والناس، كما ذكر أمرًا مهمًّا يخصُّنا في موضوعنا، وهو أن الذين يعتبرون بهذا الكتاب يُحافظون على صلاتهم؛ فالعلاقة وثيقة بين قراءة القرآن وبين تقدير الله ﷻ والصلاةِ؛ ومن ثَمَّ فهي دعوة مباشرة لمَنْ يُريد أن يخشع في صلاته أن يقرأ القرآن الكريم، ويتدبَّر فيه.

والقرآن الكريم كلام الله ﷻ، وهو معجز غاية الإعجاز، ومؤثِّر غاية التأثير، وفيه أسرار عجيبة، ظهر لنا طرف بسيط منها فأذهَلَنا، ولم تظهر لنا غالب أسراره، وكلُّ يوم يمرُّ علينا نكتشف فيه الجديد والجديد.. ونحن نقرأ هذا القرآن العظيم في صلاتنا، ولكن ليست هذه هي القراءة التي أقصدها في هذه النقطة؛ إنما أقصد المحافظة على وِرْد ثابت لقراءة القرآن الكريم أثناء اليوم والشهر خارج الصلاة المكتوبة، أو في صلاة الليل، وهذا الورد الثابت سيرفع من قَدْر الله ﷻ في القلب، وهذا سيقود بدوره إلى الخشوع التلقائي في الصلاة، وأقلُّ وِرْد مناسب في رأيي هو قراءة جزء واحد من القرآن يوميًّا؛ فتختم القرآن كاملًا في شهر، وأخشى أن يكون ختم القرآن في أكثر من ذلك نوعًا من هجر القرآن! وأنَّى لهاجر القرآن أن يخشع في صلاته؟! وقد نصح رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص ﭭ أن يختم

القرآن في شهر، فقال له: «اقْرَأ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ». قال: إنِّي أُطِيقُ أكثر. فَمَا زَالَ حَتَّى قَالَ: «فِي ثَلَاثٍ»[1].

فالرسول ﷺ وضع المقياس في هذا الحديث، فجعل أعلاه أن تختم القرآن في ثلاثة أيام، وأدناه أن تختمه في شهر، ولنا فيه ﷺ أسوة حسنة، ونحن بمجرَّد طاعته نرشد ونهتدي؛ بل جعل الله ﷻ اتِّباع رسول الله ﷺ علامة على حبِّ العبد لله ﷻ؛ فقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذا اتِّبَاع في عمل من أشرف الأعمال وأجلِّها، وهو قراءة القرآن الكريم.. فحِرْصُنَا على هذا الهدي النبوي دليلٌ على حُبِّنا لله ﷻ وتقديرنا له، والذي يُحافظ على قراءة القرآن يصل إلى منزلة راقية قد لا يتخيَّلها أبدًا! وقد عَرَّفنا رسول الله ﷺ بهذه المنزلة العجيبة فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إِنَّ لله أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ». قالوا: يا رسول الله؛ مَنْ هُمْ؟ قال: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ»[2]. فانظر إلى الفضل الجليل، عندما تُصبح من أهل الله وخاصَّته! فكيف لهؤلاء أن يغيب عنهم الخشوع في الصلاة؟!

ثم إن الله ﷻ ذكر لنا أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين قراءة القرآن والخشوع، فقال ﷻ: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، فالآية تذكر بوضوح أن تلاوة القرآن تزيد الخشوع، وقال ﷻ في موضع آخر وهو يصف حال المؤمنين: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال ﷻ أيضًا: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، ومثل ذلك كثير في القرآن الكريم؛ فالعلاقة متناسبة تناسبًا طرديًا واضحًا؛ بل يتجاوز ربُّ العالمين حدود البشر ويذكر أن أثر القرآن الكريم يتعدَّى إلى الجمادات الصمَّاء!! فيقول ﷻ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب صوم يوم وإفطار يوم، (١٨٧٧)، وعند مسلم: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ». مسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرَّر به أو فوَّت به حقًّا أو لم يفطر، (١١٥٩).

(٢) ابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل مَنْ تعلَّم القرآن وعَلَّمه (٢١٥)، وأحمد (١٢٣٠١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والدارمي (٣٣٢٦)، والحاكم (٢٠٤٦)، وصحَّحه الوادعي، انظر: الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين، ١/ ٤٣، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ١/ ٤٣٢.

مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فإذا كان هذا الجماد القاسي يخشع إذا تُلي عليه القرآن، فكيف بقلب المسلم؟!

مِنْ كل ما سبق نعلم أن مجرَّد قراءة القرآن يقود تدريجيًّا إلى أن نَقْدِرَ لله قَدْره، فإذا قرأناه بتدبُّر زاد تقديرنا لله ﷻ، ويتبع ذلك بشكل تلقائي زيادة في الخشوع بشكل عامٍّ، وفي خشوع الصلاة بشكل خاصٍّ، فضلًا عن تحصيل الأجر العميم لقراءة القرآن الكريم، وهو أجر يفوق تخيلاتنا بكثير!

ثانيًا: التفكر في خلق الله:

تَدَبَّرْتُ في آية في سورة الحجِّ تعتب على الناس أنهم ما قدروا لله حقَّ قدره.. قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]، وصرتُ أقول: وكيف يمكن لنا أن نَقْدِر له ﷻ قدره، وهو القوي العزيز؟ فوجدتُ أنه ﷻ قد ذكر قبل هذه الآية آيةً أخرى تفتح لنا الباب الذي يُساعدنا على أن نَقْدِر لله قَدْره! فقد قال الله العزيز قبلها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، وهو بذلك يفتح لنا بابًا واسعًا، لو ولجنا منه لكنَّا إلى تقدير الله أقرب! وهو باب التفكُّر في خلق الله! وفي الآية ضرب الله لنا مثلًا بمخلوق ضعيف بسيط للغاية ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾، ومع ذلك فهو معجز، وهو وسيلة من وسائل التحدِّي للبشر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، فالله يتحدَّى البشر بكل إمكانياتهم أن يخلقوا ذبابة! فكيف ببقرة أو جمل أو فيل أو نسر؟ ثم يزيد في التحدِّي ويستحثُّهم على «الاجتماع» لذلك الأمر العسير، فيُعلن لهم أن اجتماع العلماء من الشرق والغرب، ومن الحضارات المختلفة، وعلى مرِّ الأزمان، لن يُجدي شيئًا في هذا المجال! بل يسخر منهم سخرية مُرَّة فيقول: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾، فهذا الكائن الضعيف لو سلبهم ذرَّة سكر أو قطرة ماء، فإنهم يفشلون في استردادها! ثم التعليق الختامي الكاشف: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾!!

مَنْ هؤلاء الذين يُنكرون قدرة الله وحكمته وقوَّته؟

ونحن؟!

هل خشوعنا بعد أن استمعنا لهذا المثل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾

كخشوعنا قبل الاستماع إليه، أم أنه ازداد وارتقى؟

إننا «أَلِفْنَا» -يا للأسف- رؤية مخلوقات الله، فلم نَعُد ننبهر أو نخشع، ولو تدبَّرنا في أيِّ من هذه المخلوقات لازددنا تقديرًا لله ﷻ، ولزاد خشوعنا بعد ذلك بلا جدال.. ولذلك حَفَلَ القرآن الكريم بالآيات التي تحثُّ على التدبُّر في الكون بشتَّى مكوِّناته؛ التدبُّر في السماء والأرض.. في البحار والأنهار.. في الجبال والصخور.. في النجوم والكواكب.. في الإنسان والحيوان.. في الطيور.. في الأسماك.. في الحشرات! مُلْكٌ فسيح.. وكون هائل.. وقدرة خارقة.. وعجائب لا تنتهي! لا تملك حينها إلَّا أن تقول: سبحان الله!

اقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۞ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١]..

ما رأيكم بعد قراءة هذه الآيات في رحلة خلوية صباحية مُبَكِّرة إلى مزرعة من المزارع، أو إلى قرية بسيطة، أو إلى حديقة عامَّة؟! ننظر إلى الزروع البهيجة مختلفة الأشكال والألوان والروائح.. نستمتع بنخلة باسقة، أو شجرة وارفة.. أو جدول رقراق.. أو بعض قطرات الندى تسيل من فوق زهرة! ويا للروعة لو كان في عمق الصورة جبل شامخ، أو سهل منبسط، ثم نظرةٌ إلى الشمس المشرقة، أو إلى جبال السُّحُب!

أو ما رأيكم في رحلة ليلية إلى مكان بلا أضواء، نستلقي على ظهورنا، ونغوص بعيوننا في أعماق الفضاء! نجوم كثيرة.. كثيرة.. كثيرة.. وقمر منير.. سحر وخيال.. أشكال وهيئات ما تغيَّرت على مدار الأعوام والقرون حتى صارت دليلًا للناس في الصحارى والبحار.. نظامٌ بديعٌ لا اصطدامَ فيه ولا ارتطام.. ونسمة رقيقة تأتي من الشمال.. يا الله.. ما أجملها!

أو رحلة ثالثة إلى ساحل البحر والشمس تسقط في منتهاه.. تُوَدِّع الدنيا إلى أجل قريب.. غدًا سأشرق في موعد تعرفونه.. لا يتبدَّل.. لا يتغيَّر.. وبحر عميق.. عميق.. فلنخترق البحر بعقولنا.. لننظر إلى لؤلؤ ومرجان.. وأسماك وحيتان.. وعلى الشاطئ رمل بلا عدد، وصدف بلا إحصاء.. وطفل يجري.. يقفز.. يضحك.. وصياد على مركب صغير يرزقه ربُّه من فوق سبع سموات!

أتظنون أن أمثال هذه الرحلات لعبٌ ولهو؟!

أبدًا والله..

إنها عبادة! وأيُّ عبادة!

كان الصحابي الجليل أبو الدرداء ﷺ يفهم ذلك جيدًا؛ لذلك كان يُكثِر من أمثال هذه اللحظات التي يخلو فيها بنفسه، ويتفكَّر في خلق الله، حتى وصفت زوجته أم الدرداء ﵂ حياتَه فقالت: كان أكثر شأنه التفكُّر[1]. بل إنَّ الناس سألوا أبا الدرداء ﷺ عن ذلك التفكُّر الطويل صراحةً! فقالوا متعجِّبين: أفترى التفكُّر عملًا من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين[2]. وانظر إلى إجابته العميقة، التي تُؤَكِّد لنا أننا سلكنا الطريق القويم.. إن التفكُّر يقود إلى اليقين في الله ﷻ وقدرته وحكمته وقوَّته، وهنا -لا محالة- ستقدر الله قدره، وتخضع له بكل ذرَّة في كيانك.

إنني لا أشكُّ قِيد أنملة أننا سنعود من أمثال هذه الرحلات أكثر خشوعًا في صلاتنا وعباداتنا، بل سنعود أكثر نشاطًا في العمل لله ﷻ، وأشدَّ إقبالًا عليه.. كيف لا؟ وهو الذي مدح ﷻ المتفكِّرين في كونه، والمتدبِّرين في آلائه.. فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]..

كلُّ هذا العلوِّ في العبادة، والترقِّي في الخشوع؛ جاء مِنْ تَفَكُّرٍ لا يعتمد على علوم متبحِّرة، أو إحصائيات معقَّدة.. إنما فقط نظرة متدبِّرة إلى سماء أو بحر، أو إلى زهرة أو نهر، فكيف لو استخدمنا علومنا -الفلكية، والجغرافية، والطبية، والجيولوجية، والنباتية، وغيرها من

---

(١) أبو الوليد بن رشد: البيان والتحصيل، ١٧/ ٥٨٠، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٣١٤، والثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٢/ ١٥١، والطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٤/ ١٩٧. وعن أم الدرداء ﵂ عن أبي الدرداء ﷺ قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة». البيهقي: شعب الإيمان، (١١٧)، وابن المبارك: الزهد، ص ٣٣٢ (٩٤٩) (٨٧٢)، وأبو داود السجستاني: الزهد، (١٩٩) ص١٩١. وقيل لأم الدرداء ﵂: ما كان أفضل أعمال أبي الدرداء ﷺ؟ قالت: التفكر». البيهقي: شعب الإيمان، (١١٨).

(٢) أبو الوليد بن رشد: البيان والتحصيل، ١٧/ ٥٨٠، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٣١٤، والثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٢/ ١٥١، والطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ٤/ ١٩٧.

علوم- في الدراسة المتفحِّصة، والقراءة المتعمِّقة لمحتويات هذا الكون العجيب؟! دعوني أقُوم معكم بتجربة لطيفة: قُمْ هذه الليلة لصلاة ركعتين لله ﷻ.. ثم اجلس هنيهة بعد هاتين الركعتين، واقرأ بعض الأرقام والإحصائيات عن الكون، التي سأسردها لك بعد قليل - بإذن الله- وتعمَّق بخيالك في كل رقم، وتجوَّل بحُرِّيَّة في أرجاء الأرض والسماء، وفي أعماق البحار، ودروب الأدغال، ثم قُمْ مرَّة ثانية، وصَلِّ ركعتين جديدتين لله ﷻ، وقِسْ مستوى خشوعك في كل صلاة! هل خشوعك قبل قراءة الأرقام، كخشوعك بعدها؟! إن الإجابة ستضع قدمك على أول الطريق!

وهذه هي مجموعة الأرقام:

١) يعتقد علماء الفلك أن الكون المرئي عام ٢٠١٠ يحتوي أكثر من (٣٠٠ سكستيليون = ٣ × ١٠^٢٣) ٣٠٠ ألف مليون مليون مليون (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) نجم[١]! وكلُّ نجم من هذه النجوم كالشمس بالنسبة إلينا، ويدور حوله عدد من الكواكب، ويُكَوِّن كل نجم بذلك مجموعة تُشبه مجموعتنا الشمسية، علمًا بأن مجموعتنا الشمسية متوسطة الحجم بالقياس إلى غيرها من المجموعات!

وقفة وتدبُّر: نحن نعيش على كوكب الأرض الذي يدور حول شمس من ٣٠٠ ألف بليون بليون شمس تدور في الدنيا!! مَنْ نحن؟!

كلمة في سرِّك: يبلغ حجم الشمس ١,٣٠٠,٠٠٠ مرَّة حجم الأرض، ودرجة الحرارة في مركزها تزيد على ١٥,٧٠٠,٠٠٠ كلفن[٢]، ومعدَّل الطاقة المنبعثة من الشمس ويمتصها الغلاف الجوي والمحيطات والكتل الأرضية يعادل ٣,٨٥٠,٠٠٠ مليون مليون مليون جول في العام[٣]!

قل: سبحان الله!

٢) يحتوي جسم الإنسان على أكثر من ٦٠٠ عضلة، تمثِّل حوالي ٤٠٪ من وزن

---

(١) انظر: «نجم» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٢) انظر: «الشمس» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٣) انظر: «طاقة شمسية» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

الجسم[١]، وعلى أكثر من ٢٠٠ عظمة؛ تمثِّل حوالي ١٨٪ من وزن الجسم[٢]، وتُمَدُّ كل عضلة بأعصاب وشرايين وأوردة بشكل كثيف، يجعلها في حالة نشاط وشدٍّ حتى في أثناء النوم! وهي والعظام كثيرة لتجعل حركة الجسم ناعمة ودقيقة..

وقفة وتدبُّر: كم عضلة من عضلاتك تعرف اسمها؟! نحن لا نعرف معظمها، ولكنها تعمل بكفاءة! دون رعاية منَّا.. ولا صيانة!

كلمة في سرِّك: يوجد في جسم الإنسان نحو ٣٢ بليون خلية، منها نحو ١٣٥ مليون خلية حسية في شبكة العين مسئولة عن التقاط الصور وتمييز الألوان، ومنها نحو ٣٥ مليون غدَّة هضمية في معدة الإنسان، ومنها أكثر من مليوني غدَّة عرقية تفرز كمية من العرق تتراوح ما بين نصف لتر إلى لتر ونصف كل ٢٤ ساعة بلا توقُّف صيفًا وشتاءً[٣]!

قل: سبحان الله!

٣) يضخ القلب حوالي ٤,٧ لترات من الدم في الجسم كل دقيقة[٤]، وحوالي ٧,٦٠٠ لتر يوميًّا، وإذا قُدِّرَ لإنسان أن يعيش سبعين عامًا فإن قلبه يضخُّ ١٩٣ مليون لتر في حياته! ويُحقِّق في هذه الفترة ٢,٥ بليون دقَّة!

وقفة وتدبُّر: كم جَبَّار في الأرض يملك من أمر دقَّات قلبه شيئًا؟! فإذا كنا نخشع ونصمت أمام هؤلاء «البسطاء»، فكيف يكون حالنا أمام الذي يأمر قلوبهم بالدقِّ أو التوقُّف؟!

كلمة في سرِّك: نبضات القلب تتأثَّر بحجم الجسم، فعدد ضربات قلب الإنسان العادي حوالي ثمانين ضربة في الدقيقة[٥].. أمَّا قلب الفيل فيضرب ٢٥ ضربة في الدقيقة.. ويضرب قلب الفأر ٧٠٠ ضربة في الدقيقة.. أمَّا قلب العصفور فعدد ضرباته ١٠٠٠ ضربة في الدقيقة[٦]!! وهل تعلم أن وزن قلب الحوت الأزرق يزيد على ستمائة كيلو جرام[٧]؟!

---

(١) انظر: «علم الأنسجة» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٢) انظر: «عظم» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٣) انظر: «هل تعلم» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٤) انظر: «حجم الدم» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٥) انظر: «نبض» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٦) انظر: «هل تعلم» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٧) انظر: «حوت أزرق» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

قل: سبحان الله!

٤) لا يعرف أحدٌ بالضبط كم عدد أنواع الحيوانات الموجودة في العالم، ولكن تمكَّن العلماء حتى الآن من تصنيف أكثر من مليون ونصف مليون نوع من الحيوانات، وما يزال يُكتشف كل عام من ٧٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ نوع جديد[١]، وربما تبلغ الدهشة مداها عند القارئ إذا علم أن العلماء اكتشفوا أن شجرة واحدة في غابة مدارية في بيرو يعيش عليها ٤٣ نوعًا جديدًا من عصفور النمال[٢]، ويساوي هذا العدد عدد أنواع هذا العصفور في المملكة المتحدة كلها[٣].

وقفة وتدبُر: اذكر مائة نوع فقط من الحيوانات من المليون نوع التي تعيش معنا على ظهر هذا الكوكب!

كلمة في سرِّك: يُرَجِّح العلماء أن غالبية أنواع الحشرات لم تُكتشف بعد! وبخاصة الأنواع التي تعيش في مناطق الغابات المداريَّة الدافئة الرطبة، وربما تصل قائمة أنواع الحشرات إلى أكثر من عشرة ملايين نوع[٤]! ونتيجة للدَّمار الجاري في البيئات الطبيعية وبخاصة في مناطق الغابات المطيرة، فمن المحتمل أن ينقرض يوميًّا نوع غير معروف من النباتات أو من الحيوانات!

قل: سبحان الله!

٥) يعرف العلماء حتى الآن أكثر من ٢٦٠,٠٠٠ نوع من النباتات[٥]!

وقفة وتدبُر: كم نوع من هذه الأنواع زرعها البشر؟ قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا

---

(١) انظر: «تدمير البيئة» موقع ويكيبديا: http://ar.wikipedia.org.

(٢) عصفور النمال: اسم لنوعين من الطيور الصغيرة، تشبه الطائر الذي يسمى أبو تمرة، الذي يقطن أميركا الجنوبية، ويبلغ طوله نحو ١٥ سم، وله ذيل طويل دائم الحركة ارتفاعًا وانخفاضًا، ولونه أخضر زيتي مائل إلى البُني، مع بياض في الجزء الأسفل، وخطوط داكنة بطول صدره، وتسكن هذه الطيور في الغابات التي تُغطِّي التلال القريبة من مجاري المياه، وتتغذى بالحشرات التي تلتقطها من أرض هذه الغابات.

(٣) انظر: «حيوان» موقع معرفة: www.marefa.org.

(٤) انظر: «حشرة» موقع ويكيبديا: http://ar.wikipedia.org.

(٥) انظر: «علم النبات» موقع ويكيبديا: http://ar.wikipedia.org.

أَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

كلمة في سرِّك: هناك أنواع من نبات السحلبية[١] لها براعم، يحوي كل برعم منها بذورًا صغيرة، يبلغ عددها ما يقارب ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ (٧٠ مليون) بذرة صغيرة[٢]! وهناك زهرة تنمو في الأمازون اسمها زهرة السوسن العملاقة تبلغ طول مساحة الورقة الواحدة من أوراقها ٣ أمتار مربعة ويمكن لطفل صغير أن يقف عليها بكل أمان[٣]!

قل: سبحان الله!

٦) يُقَدِّر العلماء أن متوسط عدد الحشرات في مساحة ٢,٦كم٢ من الأرض، يعادل عدد كلِّ البشر على كوكب الأرض[٤].

وقفة وتدبُّر: راجع الرقم مرَّة أخرى! متوسط عدد الحشرات في مساحة ٢,٦كم٢ من الأرض تُعادل عدد البشر في الدنيا! ماذا لو سَلَّطَ الله علينا بعضها؟ قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].. ماذا لو أرسلهم مرَّة أخرى؟!

كلمة في سرِّك: سرب الجراد من الحجم المتوسط يبلغ عدد الجراد فيه حوالي مليون جرادة، يستهلكون حوالي ٢٠ طنًّا من الطعام يوميًّا[٥]!

قل: سبحان الله!

٧) أصغر الحشرات هي الخنفساء القزمة شعرية الأجنحة؛ إذ يبلغ طولها ربع المليمتر؛ أي إنها يمكن أن تزحف بسهولة عبر ثقب إبرة صغيرة! وهذه الحشرة لها أجنحة، وسيقان، وعيون، ودروع، وفكَّان علوي وسفلي[٦]!

وقفة وتدبُّر: رأيتُ نملة صغيرة تزحف على المكتب.. طولها لا يتجاوز المليمترين.. أدركتُ أنها عملاقة! إذا قورنت بهذه الخنفساء الرقيقة الدقيقة!

كلمة في سرِّك: اكتشف العلماء حتى الآن أكثر من ٣٥٠,٠٠٠ نوع من الخنافس، وهي

---

(١) الفصيلة السحلبية: فصيلة نباتية من وحيدات الفلقة.

(٢) انظر: «هل تعلم» ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٣) انظر: «بنك المعلومات» مجلة همس الثقافية المنوعة www.hmselklob.com.

(٤) انظر: مقال «مهارات الحياة في عالم الحشرات» صحيفة الأنباء: www.alanba.com.kw.

(٥) انظر: «هل تعلم» موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٦) انظر: «عالم الحشرات» موقع ستار تايمز: www.startimes.com.

بذلك تُمثِّل أكبر عائلة من الحيوانات في الدنيا[١]!

قل: سبحان الله!

٨) يستعمل علماء الفلك «السَّنَة الضَّوئية» كوحدة قياس؛ لأن المسافات شاسعة جدًّا جدًّا، فالضوء يقطع مسافة ٣٠٠,٠٠٠كم في الثانية الواحدة؛ أي إنه يقطع في السنة الضوئية مسافة تعادل ٩,٤٦ مليون مليون كم، بحيث تحتاج الطائرة وهي تطير بسرعة ٨٠٠ كم/ ساعة إلى ١,٣٤ مليون سنة لتقطع مسافة سنة ضوئية واحدة! ومن الملاحظ أن الأبعاد الفلكية كبيرة لدرجة أن أقرب نجم للأرض -غير الشمس- يبعد عنها ٤,٢٢ سنة ضوئية[٢].

وقفة وتدبُّر: ما حجم الجنَّة التي قال الله في حقِّها: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؟!

كلمة في سرِّك: هل تعرف أن حجم المجرة التي تنتمي إليها الشمس ونظامها الكوكبي يزيد على مائة ألف سنة ضوئية[٣].

قل: سبحان الله!

٩) لدى كثير من الحشرات قوَّة كبيرة إذا قورنت بحجمها؛ إذ يمكن لنملة أن ترفع بفمها حملاً أثقل من وزنها بخمسين مرَّة! وإذا قارنَّا ذلك بشخص وزنه ٨٠ كجم؛ ففي هذه الحالة يتعيَّن عليه أن يرفع أربعة أطنان بأسنانه! ويستطيع البرغوث أن يقفز لمسافة ٣٥سم، فإذا قارنَّا ذلك بإنسان فمعنى ذلك أن عليه القفز مسافة تعادل ٢٠٠م[٤]!

وقفة وتدبُّر: فهمتُ الآن قوله ﷻ: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]!

كلمة في سرِّك: تمتلك الجرادة تسعمائة عضلة مستقلَّة تقريبًا؛ أي بزيادة أكثر من مائتي عضلة عن الإنسان، ولبعض الديدان أكثر من أربعة آلاف عضلة مستقلَّة! وتستطيع الذبابة أن ترى في كل الاتجاهات وهي تقف ثابتة دون حركة؛ لأن عينها مكونة من ٤,٠٠٠ مُسطَّح

(١) انظر: «خنافس» موقع ويكيبديا: http://ar.wikipedia.org.

(٢) انظر: «سنة ضوئية» موقع ويكيبديا: http://ar.wikipedia.org.

(٣) انظر: «كون» موقع ويكيبديا: http://ar.wikipedia.org.

(٤) انظر: موقع ستار تايمز: www.startimes.com.

صغير موجَّهة إلى كل ناحية[١]!

قل: سبحان الله!

١٠) يبلغ طول الأوعية الدموية في الجسم -إذا جُعِلَت في خطٍّ مستقيم- نحو ١٦١ ألف كيلو متر! أي إنها كافية لتلفَّ العالم أربع مرَّات من منطقة خطِّ الاستواء[٢]!

وقفة وتدبُّر: لا تتوه الموادُّ الغذائية أبدًا في رحلتها إلى كل خلية من خلايا الجسم، على الرغم من كونها تسير في شبكة هائلة بهذا الحجم! ماذا لو تاهت؟!

كلمة في سرِّك: يسير الدم مسافة ١٩,٠٠٠ كيلو متر كل يوم[٣]، وهذا يُعادل طول المسافة من الشاطئ الشرقي إلى الشاطئ الغربي لأميركا أربع مرات! ويموت مليونا خلية دم كل دقيقة[٤]، ويُنْعِم الله علينا بغيرها فورًا!

قل: سبحان الله!

الآن.. بعد هذه الرحلة السريعة..
تحت الأرض وفوقها..
في أعماق الفضاء والبحار..
مع الحشرات والحيوانات.. وفي داخل الإنسان..
بعد هذه الرحلة السريعة..
وبعد أن عرفتَ مَنْ هو الله..
الخالق.. الرازق..
الحكيم.. القدير..
بعد هذه الرحلة السريعة..
قمْ وصلِّ ركعتين.. طويلتين..
قلْ فيهما.. بلسانك..
بفؤادك: سبحان الله وبحمده.. سبحان الله العظيم!
وأبشر.. ستَجِدُ قلْبَك!

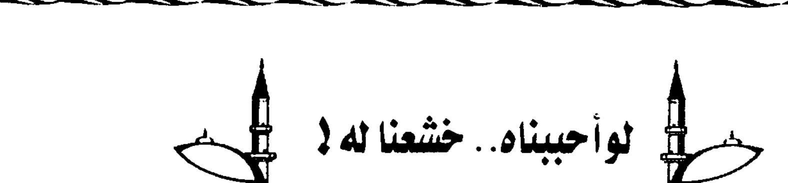
---

(١) انظر: «هل تعلم» ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

(٢) انظر: مركز الدراسات والبحوث البيئية: www.aun.edu.eg.

(٣) انظر: الموسوعة العلمية على موقع: www.msoms-anime.net.

(٤) انظر: «خلايا الدم: بحث كامل عن أنواع ووظائف خلايا الدم»: www.3rbdr.net.



لو أحببناه.. خشعنا له!

من أروع الوسائل للوصول إلى الخشوع الحقيقي في الصلاة هو أن نزرع في قلوبنا حبَّ الله ﷻ.. فإن من طبيعة الإنسان أنه يسعد بلقاء مَنْ يُحِبُّ؛ بل يبحث عن لقائه ملهوفًا، وإذا اقترب موعد اللقاء تراه ينظر إلى عقارب الساعة يُريد لها أن تتحرَّك أسرع، وإذا التقاه أقبل عليه بكلِّ جوارحه، ومهما طال اللقاء فهو لا يُريد له أن ينتهي؛ بل يُريد للزمن أن يتوقَّف، وعند انتهاء اللقاء يحرص على الارتباط معه بموعد جديد..

هذه طبيعة اللقاء مع مَنْ نحبُّ..

فهل إذا حان وقت الصلاة نشعر بهذه المشاعر؟

إن كانت الإجابة: نعم. فلِلَّه الحمد والمِنَّة.. فنحن نحبُّ الله..

وإن كنا نتردَّد في الإجابة، ونلتمس الأعذار والمبرِّرات، فنحن لا نحبُّ الله حبًّا حقيقيًّا - ويا للفاجعة-!

إنها كارثة!

وأيُّ كارثة!

قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]..

هل نسعد بلقاء والدينا وأبنائنا وإخواننا وأزواجنا وعشيرتنا أكثر من سعادتنا بالصلاة؟

هل نشعر باللهفة للقاء الله ﷻ كما نشعر باللهفة للقاء أحبابنا بعد عودة من سفر بعيد؟

هل نسعد بالصلاة كسعادتنا بدخول مال كثير إلى خزانتنا؟

هل نخشى عدم قبول الصلاة كخشيتنا من كساد تجارة كبيرة عندنا؟

هل نسعد بركعتين في جوف الليل كسعادتنا بانتهاء بناء مسكن لطيف جميل قضينا دهرًا في إعداده وتجهيزه؟ مسكن «نرضاه» كما وصف ربنا ﷻ..

هذه هي المعايير التي وضعها الله ﷻ لقياس درجة الحبِّ له سبحانه.. وقد وضع هذه المعايير الواضحة والصارمة حتى لا يَدَّعِيَ أحدٌ شيئًا باطلًا، ولكي لا يعيش الإنسان في وهمٍ كبير: أنه يُحِبُّ الله أكثر من كلِّ شيء؛ بينما واقع حياته يُخالف ذلك ويُكَذِّبه..

قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].. فالجميع «يقول»، ولكن القليل هو الذي «يُؤمن»، و«يحبُّ»، و«يُطيع»، و«يُجاهد»..

فلنقف وقفة مصارحة!

ولْنُجِبْ على هذه الأسئلة السابقة بشفافية وحرص..

مرَّة ثانية.. إن كنا -بهذه المعايير- نحبُّ الله فلِلَّه الحمد والمِنَّة..

وإن كانت الأخرى فالعَجَل.. العَجَل!

العَجَل إلى حبِّ الله..

قبل أن يأتي ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]..

ولا تنسوا أن القضية قضية إيمان.. ومَنْ قَدَّم حبًّا على حبِّ الله ﷻ فهو منقوص الإيمان، وعلى شفا حفرة، ولن يذوق حلاوة الإيمان؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1].

بل في رواية أخرى ينفي كلية أن يجد حلاوة الإيمان؛ فقد قال ﷺ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَحَتَّى أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١٦) عن أنس بن مالك ﵁، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (٤٣).

الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ، وَحَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»(١). فهو هنا يقول: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ..». والكلام قاطع وصارم، وكيف لِمَنْ لا يجد حلاوة الإيمان أن يخشع في صلاته؟!

والسؤال الخطير: كيف نحب الله سبحانه؟

إن هذا السؤال لا يمكن أن نُحيط بالإجابة عليه في كتاب، أو في عدَّة كتب! إنه منهج حياة.. إنها طريقة متفرِّدة في التعامل مع كل الأمور، إنها أبواب رحمة لا إحصاء لها! لذلك فإنني في هذه السطور القادمة سأفتح ثلاثة أبواب فقط لحبِّه سبحانه.. ولو ولجناها بصدق فَتَحَ اللهُ لنا غيرها وغيرها.. وصِرنا نرتقي من حال إلى حال أعظم، ومن حبٍّ إلى حبٍّ أعمق.

الباب الأول: تَدَبُّر في نِعَمِ الله علينا:

هذا منهج نبوي أصيل.. فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ(٢)، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي»(٣). فالنفس جُبِلَت على حبِّ مَنْ أسدى إليها معروفًا، ويكون هذا الحبُّ فطريًّا تلقائيًّا دون تصنُّع أو تكلُّف.. فلو تدبَّرْنَا في المعروف الذي أسداه الله ﷻ إلينا، وفي النعم التي يغذونا ويرزقنا بها، لأحببناه حبًّا جمًّا؛ بل سيملك حبُّه قلوبَنَا، وكيف لا ونعمه لا تُحْصَى، وآلاؤه لا تُعَدُّ؟!

إننا لا نَقْدِرُ بحالٍ من الأحوال على إحصاء نِعَمِ الخالق ﷻ، وكذلك فنحن لا نقدر بحالٍ من الأحوال على تأدية شكر هذه النعم الهائلة؛ لذلك قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].. فالله ﷻ يصف الإنسان في هذه الآية بصِيَغِ المبالغة! فيصفه بأنه شديد الظلم شديد الكفر! لماذا؟ لأنه يلجأ إلى غير الذي أنعم عليه؛ بل ويجحد هذه النعم وينسبها إلى نفسه أو إلى البشر.. فهو يظلم نفسه في الأساس عندما «يُشرك» بالله، وليس بالضرورة أن يكون الشرك سجودًا لصنم، أو عبادةً لنجم؛ إنما يكون بالتوكُّلْ على الناس، والخوف منهم، وتقديم حُبِّهم

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب الحب في الله، (٥٦٩٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وأبو يعلى (٣٢٥٩)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٢٠٨٥٢).

(٢) أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه: هذا يحتمل أن يكون عامًّا لأنعمه كلها، وأن يكون اسمًا لغذاء الطعام والشراب حقيقة، ولما عداهما من التوفيق والهداية وخلق الحواس.. انظر: السيوطي: قوت المغتذي على جامع الترمذي، ٢/ ١٠٢٢.

(٣) الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أهل النبي ﷺ (٣٧٨٩)، وقال: وهذا حديث حسن غريب. والحاكم (٤٧١٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وتأخير شرع الله.. فهذا ظلم في صورة شرك، وهو ظلم كبير هائل.. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ثم هو يكفر بالنعم التي لا تُحصى، التي أعطاها الله له، فينسبها إلى نفسه تارة، وإلى مَلِك أو وزير تارة أخرى، وإلى الظروف تارة ثالثة، وإلى الصدفة تارة رابعة! ومن ثَمَّ يتوجَّه بالشكر إلى هؤلاء، وينسى أن يشكر الله ﷻ!

ومع هذا الظلم والجحود من الإنسان فإنَّ الله لا يُمسِك نعمه عن الظالمين والجاحدين؛ بل ما زال يرزق ويرزق.. وأكثر من ذلك فهو يغفر لنا تقصيرنا في شكر النعم، ويعذرنا في عدم قدرتنا على ردِّ جميله، أو تأدية حقِّه، فيُعيد في سورة النحل ذِكْرَ مسألة كثرة النعم، لكن يُتْبِعها بالمغفرة للإنسان الظلوم الكَفَّار! فيقول: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، فهذا فضل كريم، وعطاء سخيٌّ؛ حتى تقصيرنا في شكره ﷻ يتجاوز عنه، ويغفره لنا؛ ألا يدعونا ذلك إلى حُبِّه؟

ولو أردنا أن نضرب أمثلة على نعمه علينا فإن هذا أمر مُحَيِّر! مجرَّد ضرب الأمثلة أمر مُحَيِّر! فأي شيء سنذكر؟ وأي شيء سنترك؟ ولو ذكرنا شيئًا فكيف سنستوعبه؟ فالنعم -ويا للعجب- مُرَكَّبَة! ففي داخل النعمة الواحدة آلاف النعم؛ بل ملايين النعم، بل ما «لا يُحصى» منها!

ودعوني أهرب من هذه المهمَّة المستحيلة بأن أكتفي بسرد بعض الآيات القرآنية من إحدى السور! وأترك القارئ يغوص بفكره في كل نعمة، وما ينبثق منها من نعم أخرى تتوه في عددها العقول! ولنقرأ بعض الآيات من سورة النحل.. نقرأ بهدوء.. ونعطي عقولنا فرصة السباحة في النصِّ القرآني المعجز، والذي يُعَبِّر بكلمات قليلة عن معانٍ تخرج عن حدِّ الإحصاء:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].. تفكَّر في نعمة الإسلام، والهداية، والتقوى، و..

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨].. تخيَّل

حياتنا بلا بقر أو غنم.. بلا جلود أو لحوم أو شحوم.. بلا نقل ولا مواصلات!

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].. وحياتنا بلا نبات؟ هل تستقيم؟!

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].. وتدبَّر في كلمة «سَخَّرَ»، وراجع أحجام الشمس والقمر والنجوم، وراجع هيبتها في قلوبنا، واعلم أن الله لحُبِّه لنا «سَخَّرَ» لنا هذه المخلوقات العظيمة!

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].. اسْتَعْرِضْ أنواع الأسماك التي تُحِبُّها، أو يُحِبُّها غيرك، ولو شاء الله لجعلها نوعًا واحدًا، أو منعها من الوجود أساسًا! وتدبَّر في نفع السفن والمراكب، وماذا لو كان الماء لا يقوى على حملها؟!

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].. وهذه أرضٌ ثابتة بجبال رواسٍ، وممهَّدة بطرق وسبل، وظمأٌ يُرْوَى بنهر وشلال!

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].. وتائهٌ في الصحراء أو في البحار، فَقَدَ ورقه وبوصلته، فيضع له اللهُ دليلَه في السماء! لا يضيع.. ولا يغيب.. ولا يُبَدَّل مكانه على مرِّ الدهور!

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].. ولبنٌ عجيب ينفع الصغار والكبار.. ويُشَكِّله الإنسان.. فيأكل جبنًا، ويصنع حلوى، ويُجَمِّل طعامًا، ويُعالج مريضًا!

﴿.. يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].. وعسلٌ تحيَّر الأطباء في مفعوله.. ما من مجال إلَّا وله فيه إسهام.. يخرج من نحلة لا تملك من أمرها شيئًا، ولو رآها إنسان فزع وهرب!

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].. وحياتنا بلا زوجة



وأولاد وأحفاد.. كيف تكون؟!

﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].. وهل نَعُدُّ العينَ نعمة واحدة؟ أم هل نتدبَّر في تمييزها للألوان؟ وللقريب والبعيد؟ ورؤيتها في النور والظلمة؟ وحمايتها بالأجفان والرموش؟ وغسيلها بالدموع؟ وجمالها وسحرها؟ وروعتها وصفائها؟!! والآذان والقلوب، وبقية الأعضاء.. أنفٌ وفمٌ.. ويد ورجل.. وكبد وطحال.. ومعدة وأمعاء.. وشرايين وأوردة.. وما نعجز عن حصره من أجهزة دقيقة وأعضاء عجيبة.. وبلايين الخلايا تعمل بلا توقُّف ودون انقطاع.. كيف تَسير؟ وكيف تُدار؟! وقد خرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا؟!

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ۝ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠، ٨١].. وكيف تكون صورة الحياة بغير بيوت في حِلٍّ أو ترحال؟ وبغير أثاث ومتاع؟ وكيف نتحمَّل شمسًا بلا ظلٍّ؟ أو نعيش في جبلٍ بلا كِنٍّ(١)؟ وكيف نعيش عرايا بلا لباس أو سرابيل؟ وكيف ندخل حربًا بلا تروس ولا دروع؟!

و... و...

و... و...

هل يمكن أن نُحصِيَ؟!

محالٌ.. محالٌ!..

هكذا تحدَّى ربي!.. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]..

إلهي وخالقي..

تباركتَ وتعاليتَ..

(١) الكِنُّ: الغطاء وكل شيء يقي شيئًا يستره وكل ما يردُّ الحرَّ والبرد من الأبنية كالكهف أو المغارة أو نحو ذلك. ابن منظور: لسان العرب، مادة (كنن) ١٣/ ٣٦٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٨٠٢.

لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ.. أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ[١]!

والسؤال بعد التجوال في آيات سورة النحل، وفي آيات صورة الكون!

هل ازداد حبُّنا لله؟!

اللهم نعم!

صدق حبيبي ﷺ: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ..».

الباب الثاني: التدبُّر في حفظه لنا:

ألم تقف يومًا أمام قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد: ١١]؟

إننا -واقع الأمر- نعيش على حافة هاوية! بل هاويات!

في كل لحظة من لحظات حياتنا نتعرَّض لخطر قاتل، ولمصيبة مُهلِكة.. لكننا نعيش عامًا وأعوامًا! إن هذه -لعمري- معجزة هائلة، ورحمة بالغة!

طائرةٌ معلَّقة بين السماء والأرض.. سيارة طائشة.. حريق أو فيضان.. زلزال أو بركان.. سكتة قلبية.. جلطة دماغية.. قاتلٌ.. ظالمٌ.. وعربيد مخمور.. أو كلبٌ مسعور!

مَنْ يحفظنا من كل هذه المصائب والمهلِكات؟

ألا تعلمون أن الأصل أن نموت في كل لحظة! لولا أن الله ﷻ -تناهت قدرته، وعظمت إحاطته- يحفظنا إلى أن يحين أجلُنا الذي أجَّلَنا سبحانه له؟

عَرَفْتُ ذلك من حبيبنا ﷺ!

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، وَقَالَ: هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا»[٢].

---

(١) جزء من دعاء النبي ﷺ وهو ساجد في الصلاة، رواه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٦)، وابن ماجه (٣٨٤١)، وأحمد (٢٥٦٩٦).

(٢) البخاري: كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، (٦٠٥٤) واللفظ له، والترمذي (٢٤٥٤)، وابن ماجه (٤٢٣١)، وأحمد (٣٦٥٢).

فالأعراض التي يذكرها رسول الله ﷺ هي الكوارث وأسباب الموت التي «تعترض» حياتنا كل لحظة، ونحن في كل لحظة معرَّضون للإصابة بإحداها، لكن الله ﷻ -من رحمته بنا، وحبِّه لنا- سَخَّر ملائكة كرامًا يقومون بحمايتنا بشكل دائم من هذه الكوراث! يقول ابن عباس رضي الله عنهما تعليقًا على هذه الآية: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خَلَّوا عنه»[1].. فهل هناك زعيم أو سلطان، أو مَلِك أو وزير، يُوَفِّر مثل هذه الحماية؟ أو يملك أصلًا مثل هذه الحماية؟ بل هل يُوَفِّر لنا آباؤنا وأمهاتنا مثل هذه الرعاية والحفظ في حياتنا؟ إن الله يحبُّنا أكثر من حبِّ أمهاتنا وآبائنا لنا.. لا نشكُّ في ذلك أبدًا.

تَدَبَّروا معي في هذا الموقف المؤثِّر الذي يحكيه لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قَدِمَ على رسول الله ﷺ بِسَبْيٍ فإذا امرأة من السَّبْيِ تَبْتَغِي[2]، إذا وَجَدَتْ صبيًّا في السَّبي أخذتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ ببطنها وأرضعَتْهُ، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[3]. فهذه امرأة ملهوفة ضاع ولدها الرضيع، فإذا هي تبحث عنه وقد ذهل عقلها؛ فبينما هي كذلك إذا بها تجد ابنها! فتحمله مغتبطة، وتلصقه ببطنها، وتلقمه ثديها! تأمَّل هذه الصورة الرحيمة.. ثم أجبْ سؤال رسول الله ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» والإجابة البديهية: لا والله!.. ضَعْ هذه الدرجة من الرحمة في ذهنك، ثم اعلم أن حبَّ الله لنا، ورحمته بنا أعلى من حبِّ هذه المرأة لابنها، ورحمتها به!

هذا هو الله ﷻ الذي نُصَلِّي له..

الذي يحفظنا من المكروه أكثر مما تحفظ الأمُّ ولدَها من الجوع أو النار أو أي مكروه..

ثم اسرحْ بفكرك في ما حولنا من أحداث!

مَنْ يحفظ النطفة والعلقة والمضغة في رَحِم الأم؟

مَنْ يحفظ الجنين من الأمراض ونقص الغذاء والبكتيريا والفيروسات؟

---

(١) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ١٦/ ٣٧١، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤٣٨، والسيوطي: الدر المنثور، ٤/ ٦١٤.

(٢) تبتغي؛ أي: تبتغي ولدها المفقود، فهي ساعية وطالبة لولدها. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ١٠/ ٤٣٠، والنووي: المنهاج، ١٧/ ٧٠.

(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (٥٦٥٣)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، (٢٧٥٤).

مَنْ يحفظ الأم من الموت حين تدفع المولود إلى الدنيا، وقد تعرَّضت لكل أسباب الهلاك؟

ومَنْ يحفظ الطفل الصغير، وهو يقفز هنا، ويعدو هناك؟..

مَنْ يحفظنا في نومنا؟..

في سفرنا إلى بلاد غريبة.. بعيدة..

في حرب ضروس..

في ليلة مطيرة..

مَنْ يحفظنا من الشياطين؟!

مِن كلِّ أفَّاكٍ أثيم!

بل مَنْ يحفظ لنا الكون الفسيح..

تُشرق شمسُه، ويُنير قمرُه، وتتلألأ نجومه..

رياحٌ تهبُّ، وسحابٌ يتحرَّك، ومطرٌ ينزل..

وأرضٌ تُروى بعد ظمأ، وتُحيا بعد موت!

﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]..

لو فَقِهنا كيف يحفظنا ﷻ لأحببناه!

ولو أحببناه خشعنا له!

وهذا هو أول الطريق!

الباب الثالث: التدبُّر في ستره ومغفرته لنا:

مَنْ مِنَ البشر لا يُخطئ؟!

إننا لسنا ملائكة.. لم نُجبَل على الطاعة مثلهم.. إنما نملك الاختيار بين موقفين.. بين قرارين.. بين منهجين من مناهج الحياة.. نملك الاختيار بين الخير والشرِّ، وبين الحقِّ والباطل.. وحيث إننا غير كاملين، وغير معصومين، فإننا كثيرًا ما نختار الاختيار الأسوأ! ليس فقط عن غير دراية أو علم، إنما -للأسف- عن عمدٍ! ذنبًا.. معصيةً.. تَرْكًا لمعروف.. أمرًا بمنكر..

يحدث هذا معنا جميعًا..

ولا غرابة..

فنحن في النهاية بشرٌ! لنا شهوات ورغبات وطموحات.. وكثيرًا ما تتعارض هذه النزعات الداخلية مع شرع الله ﷻ، فنعصي ونحن نعلم، ونُخالف على الرغم من إدراكنا..

بل إن أخطاءنا هذه كثيرة كثيرة.. قد لا نستطيع إحصاءها: أخطاء بالجوارح وأخطاء بالقلوب.. أخطاء بالأقوال وأخطاء بالأعمال.. أخطاء نعرفها وأخرى لا نعرفها! بل قد تصل أخطاؤنا إلى درجة فادحة من الشناعة فنُشرك بالله ﷻ!

والله ﷻ هو الذي خلقنا، ويعلم باطننا وظاهرنا، وسرَّنا وعلننا، وجهلنا وعمدنا، ويعلم متى نُعْذَر بالظروف والاضطرار والقهر، ويعلم -كذلك- متى تكون أعذارنا واهية، وحججنا لا معنى لها! فهو إذن يُدْرِك كلَّ شيء عن أعمالنا وأقوالنا وقلوبنا.. إننا صفحة مفتوحة أمامه سبحانه!

في هذه الحالة نتوقَّع أن يكون الحساب عسيرًا! فاحتمال الحكم الخطأ على أعمالنا معدوم، وهو ﷻ كذلك يملكنا ويملك الدنيا؛ ومن ثَمَّ فهو يتصرَّف في كونه كما يشاء، ولا يُسأل عما يفعل؛ لذلك فخطؤنا في حقِّه قد يعني عقابًا لا رادَّ له!

ومع ذلك فليس هذا هو الذي يُعاملنا به ربُّنَا!

إنه لا يُعاملنا بعدله! إنما يُعاملنا بفضله!

ولو عاملنا بعدله هلكنا جميعًا، فكلنا مقصِّرون..

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ..﴾ [فاطر: ٤٥]

إنه كريم سبحانه!

لا يُؤاخذنا بما كسبنا..

إنما يسترنا..

يغفر لنا..

يعفو عنَّا..

يقبلنا مهما بعدنا..

دعوني أُسِرُّ لكم أمرًا جميلًا!

إن التوبة على العباد إرادة إلهية!

نعم!

يعلم الله ﷻ أن الإنسان خَلْقٌ ضعيفٌ.. ﴿.. وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ لذا قضى الربُّ الرحيم أن يقبل كلَّ مَنْ عاد إليه بعد خطأ أو جريمة، مهما كان الخطأ، ومهما عظمت الجريمة..

تدبَّر في هدوء قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ..﴾ [النساء: ٢٧]!

هذه التوبة -بنصِّ الآية- إرادة إلهية.. إنه «يُريد» أن يتوب على العصاة والمجرمين، «ويُريد» لهم الهداية والنجاة، «ويُريد» أن يعفو عمَّا سلف.. هو «يُريد» ذلك.. لكن ماذا «يُريد» الإنسان؟!

إن الإنسان قد يُعرض عن هذا الباب المفتوح -ويا للعجب- ويُهمل العودة إلى الله الرحيم التواب! ويتعامل «بِنِدِّيَّة» غير مفهومة، وصَلَفٍ غير مبرَّر!

ومع ذلك فالله ﷻ يستره!

العبد يعصي، والربُّ يستره!

هل يمكن أن نفهم هذا بمقاييس البشر؟!

لا يحدث هذا أبدًا في عالم البشر، ولا يستر مَلِكٌ من ملوك الأرض أحدًا من رعاياه أخطأ في حقِّه، وبالغ في الخطأ..

يُخطئ الإنسان في حقِّ الله عشرين سنة.. ثلاثين سنة.. ستين سنة.. ثم يعود إليه في لحظة، فيقبله ويُقَرِّبه، ولو لم يتبقَّ له في الدنيا إلَّا سويعات معدودات!

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ[1]»[2].

---

(١) ما لم يُغَرْغِر: أي: ما لم تبلغ روحه حلقومه، فيكون منزلة الشيء الذي يتغرغر به المريض. السيوطي: قوت المغتذي على جامع الترمذي، ٢/ ٩٥٥.

(٢) الترمذي: كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذُكر من رحمة الله لعباده (٣٥٣٧) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وقال الترمذي: حديث حسن غريب. وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والحاكم (٧٦٥٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال ابن القطان تعليقًا على حديث الترمذي: وهو عندي محتمل أن يُقال فيه: صحيح. بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، ٥/ ٤١٢، ٤١٣.

بل تدبَّر فيما يقوله الله الكريم في حديث قدسي عظيم:

«مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ،
وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ،
وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا،
وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا،
وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً[١]،
وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»[٢].

اقرأ الحديث السابق مرَّة ومرَّتين وعشرًا!

ألم تحب اللهَ بعدُ؟

أما زلت معرضًا عنه؟

أما حان وقت الخشوع في الصلاة والقرآن، والدعاء والخلوات؟!

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]..

لو لم يزدد حبُّك لله بعدُ فتَدَبَّر في كلامه هذا[٣]:

«يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَسَلُونِي الهُدَى أَهْدِكُمْ،
وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ؛ فَسَلُونِي أَرْزُقْكُمْ،
وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ، فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى المَغْفِرَةِ، فَاسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي،

---

(١) وَصْفُ العبدِ بالتقرُّب إليه شبرًا وذراعًا وإتيانه ومشيه معناه: التقرُّب إليه بطاعته وأداء مفترضاته ونوافله، ويكون تقرُّبه سبحانه من عبده وإتيانه والمشي عبارة عن إثابته على طاعته، وتقرُّبه من رحمته، ويكون قوله: «أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً». أي: أتاه ثوابي مسرعًا، وصببتُ عليه الرحمة وسبقته بها، ولم أُحوِجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ١٣/ ٥١٣، والنووي: المنهاج، ١٧/ ٣.

(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، (٢٦٨٧) واللفظ له، عن أبي ذرٍّ ﷺ، وابن ماجه (٣٨٢١)، وأحمد (٢١٣٩٨).

(٣) آثرت أن آتي برواية الترمذي وابن ماجه مع أن الحديث في صحيح مسلم بألفاظ مقاربة (انظر: ص ١٢)؛ وذلك حتى أكسر حاجز الرتابة عند القارئ؛ فأساعده على التدبُّر، فبعض القرَّاء عندما يجد حديثًا يحفظه فإنه يقفز فوق السطور دون قراءته، فيفوته خير كثير!

وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ،

وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ، اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ،

وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمُ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ،

ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ،

أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ[1]،

إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[2].

هل قرأتَ بإمعانٍ؟

كيف قلبك الآن؟

أما زلت تحتاج إلى توددٍ أكثر من الخالق القادر؟!

إذًا فاسمع إلى ربِّ العزة يتلطَّف إليك!

«يَا ابْنَ آدَمَ؛ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي،

يَا ابْنَ آدَمَ؛ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي،

يَا ابْنَ آدَمَ؛ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[3].

---

(١) أي أن الله ﷻ إذا أراد شيئًا فإنه يقول له كلمة: «كُنْ»، ومن ثم يتحقق هذا الشيء، وهو ما فسَّرته الجملة التالية في الحديث مباشرة.

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥) واللفظ له، عن أبي ذرٍّ ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن. وابن ماجه (٤٢٥٧)، وأحمد (٢١٤٠٥)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح.

(٣) الترمذي: كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذُكِرَ من رحمة الله لعباده، (٣٥٤٠) عن أنس بن مالك ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن. وأحمد (٢١٥١٠)، والدارمي (٢٧٨٨)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (١٢٧).

تُريد أكثر وأكثر؟!

دعني أُخبرك بأمر عجيب!

هل تعلم أن الله «يفرح» بك إذا عُدْتَ إليه بعد بُعْدٍ وعصيان؟!

سَلْ نفسك: مَنِ الذي ينبغي أن يفرح؟ نحن أم هو ﷻ؟!

مَنْ يحتاج مَنْ؟!

مَنْ يشقى بغير رضى الآخر؟ العبد أم الربُّ؟!

تدَبّر في هذا المثل النبوي:

قال رسول الله ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**»[1].

أَلَا ينبغي لنا أن نُقَدِّم حبَّ هذا الإله الرحيم الكريم على حبِّ الدنيا وما فيها؟

بل دعوني أقول لكم: إن هذه الدرجة الرفيعة من التوبة والمغفرة جعلت كبار الصحابة، وأعلام الأُمَّة لا يستوعبونها! على الرغم من سعة علمهم، ودقَّة أفهامهم!! لماذا؟! لأن الوصف يفوق الخيال، ويتجاوز إدراك العقول! ولتنظر -مثلًا- إلى هذا الموقف اللطيف يحكيه الصحابي القدير أبو ذرٍّ الغفاري ﷺ.. يقول: أتيتُ النبي ﷺ وعليه ثوبٌ أبيضُ وهو نائمٌ، ثم أتيتُه وقد استيقظ، فقال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**». قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**». قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**». قلتُ: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ**[2]»[3]!

فهذا أبو ذرٍّ ﷺ يتعجَّب من هذه المغفرة التي تجاوزت حدَّ إدراكه، فسأل ثلاث مرَّات

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب التوبة، (٥٩٤٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في الحضِّ على التوبة والفرح بها، (٢٧٤٤) واللفظ له عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) رغم أنف أبي ذرٍّ: أي على ذلٍّ منه؛ لوقوعه مخالفًا لما يُريد، وقيل: معناه على كراهة منه. النووي: المنهاج، ٢/ ٩٦.

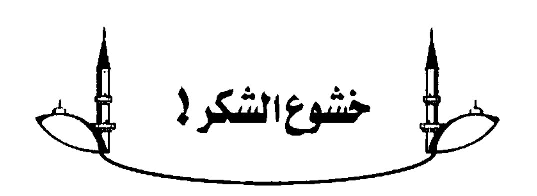
(٣) البخاري: كتاب اللباس، باب الثياب البيض، (٥٤٨٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب مَنْ مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومَنْ مات مشركًا دخل النار، (٩٤).

السؤال نفسه، وكأنه لم يفهم الإجابة، حتى قال له رسول الله ﷺ: «عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ»! وكان أبو ذرٍّ ﷺ إذا حدَّث بهذا الحديث قال: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ!

يعجز اللسان عن البيان..
وإني أحمدُ اللهَ حقًّا أن هدانا للإسلام، وأن عرَّفنا به سبحانه..
فعودٌ حميدٌ -أيها المؤمنون- إلى الله الكريم..
خشوعٌ..
وخضوعٌ..
وتسليمٌ..
وإنه والله لَعزُّ الدنيا والآخرة!

* * *





خشوع الشكر!

اقرأ الفصل السابق مرَّة ثانية!

صدِّقني.. هذا أفضل!

......

......

فعلتَ؟!

إن لم تفعل -ولا أنصحك!- فهاك ملخَّصه:

لا نخشع في صلاتنا حتى نُقَدِّم حبَّ الله ﷻ على كل حبّ في حياتنا، والمسألة مسألة إيمان، وزرعُ حُبِّ الله في القلب سهل ميسور، وأبوابه كثيرة؛ ذكرنا منها في فصلنا السابق ثلاثة:

الباب الأول: التدبُّر في نعم الله علينا
الباب الثاني: التدبُّر في حفظ الله لنا
الباب الثالث: التدبُّر في ستره ومغفرته لنا

وهناك أبواب أخرى كثيرة لزرع هذا الحبِّ في القلب، ولا يَتَّسع المقام لشرحٍ مُفَصَّل، وإلَّا احتجنا إلى عدَّة مجلدات!

والآن بعد إعادة قراءة الفصل السابق أو ملخَّصه:

ما انطباعاتك؟

هل ازداد حبُّك لله؟

لا شكَّ حَدَثَ!

إلهٌ يغذونا بالنعم..

يحفظنا من كل مكروه..

يستر علينا، ويغفر لنا..

كيف لا نُقَدِّم حبَّه؟!

والسؤال: كيف ستكون صلاتنا الآن؟

لا أبالغ إن قلتُ لكم: إنني اختَلَفَتْ رُؤيتي للصلاة بشكل جذري بعد كتابة هذا الفصل!

إنَّ أكْثَرَنا -وكنتُ كذلك- ينظر إلى الصلاة على أنها واحدة من هذه الأمور:

- تكليف من الله لا بُدَّ من فعله
- اتِّباع لرسول الله ﷺ
- تيسير لحساب الآخرة؛ فإنها أول ما نُسأل عنه
- ميدان واسع للطلب من ربِّ العالمين؛ فأقربُ ما نكون لله حين نسجد
- رؤًى أخرى في المضمار نفسه!

إن هذا يعني أن الصلاة في وجهة نظرنا لا تخرج عن كونها «فرضًا» فرضه الله علينا، أو فرصة لتحقيق «مصالحنا» عند الله ﷻ.. وهذا في حدِّ ذاته ليس عيبًا؛ فهي كذلك بالفعل، لكن في الواقع إنَّ هذه نظرة قاصرة تُضعِف كثيرًا من مغزى الصلاة الحقيقي، الذي أدركتُه -فيما أعتقد- بعد كتابة الفصل السابق!

ما هذا المغزى؟

المغزى هو أن الصلاة وسيلة من وسائل «الشكر» لله ربِّ العالمين!

إننا لو تَدَبَّرْنَا في الأمر حقَّ التدبُّر لوجدنا أننا في الحقيقة مدينون لله ﷻ بالشكر في كل لحظة من لحظات حياتنا..

يُنعم علينا -ولا حدَّ لنِعَمِه- فله الحمد، وله الشكر..

يحفظنا -ولا حدَّ لحفظه- فله الحمد، وله الشكر..

يسترنا ويغفر لنا -ولا حدَّ لتقصيرنا- فله الحمد، وله الشكر..

وهذا يعني أننا يجب أن نشكره دومًا وأبدًا.. ولن نُوَفِّيَه حقَّه أبدًا أبدًا!

إذًا نحن لا نُقَدِّم «فضلًا» إذا قمنا بالصلاة، ولكن واقع الأمر نحن نقضي «دَيْنًا»!

عندما يُسدي إليك أحد عظماء الناس معروفًا ومعروفًا ومعروفًا.. وتزايد فضله حتى

شمل كل جوانب حياتك، وقرَّرْتَ أن تقوم بزيارته، فماذا يكون مغزى الزيارة؟!

هل تزوره لأن أباك أو عمَّك قد أمرك بذلك! فتذهب مضطرًّا؟!

هل تزوره لأنك رأيت كرام الناس يفعلون ذلك؟!

هل تزوره لأن عندك حاجةً جديدةً تُريدها منه؟!

هل تزوره لتتجنَّب عقابه مستقبلًا؟!

واقع الأمر أن هذه الأمور جميعًا من الممكن أن تكون موجودة، بمعنى أن أباك أمرك، وكرام الناس يفعلون، ولك حاجة عنده، وتخشى عقابه.. لكن المغزى الرئيس للزيارة هو تقديم «الشكر» على أفضاله، التي لم تنقطع عنك قطُّ.. هذا ما يشغل فكرك.. ولو وُجِدَت الأمور الأخرى فلا ضير، ولكن هذا لا يُلغي مهمَّتك الأولى التي من أجلها ذهبتَ إليه.. مهمَّة «الشكر»..

الآن تعالَ نُفَكِّر في موقفنا ونحن في زيارة هذا الرجل العظيم الكريم «لنشكره»..

نذهب إليه في الموعد الذي حدَّده..

في المكان الذي حدَّده.. حبَّذا لو كان بيته..

هيئتنا.. لباسنا.. رائحتنا.. كلها طيب وحسن..

نقف أمامه في تواضع..

نُثني عليه، ونشكر صنيعه..

لا نلتفت عنه، ولا ننظر إلى غيره..

نطلب منه أن يُسامحنا على تقصيرنا في شكره..

ولو كان عندنا طلب جديد فإننا نتقدَّم به في هدوء وتواضع وأدب..

هكذا نفعل مع عظماء الدنيا إذا أَسْدَوْا إلينا معروفًا..

فماذا نفعل مع الله ﷻ؟!

واذْكُرْ أن نِعَمَه وحِفْظَه ومغفرته لا حدَّ لها..

لقد شرع الله ﷻ لنا عدَّة وسائل لشكره، وكان في مقدمة هذه الوسائل «الصلاة»!

نحن لا نستطيع أن نشكر الناس بالطريقة التي نُريدها نحن إذا كانت تُغضبهم! فهذا

ليس شكرًا؛ إنما هو في الواقع خروج عن قواعد الأدب! هبْ أن جارك أسدى إليك معروفًا، وتأَخر شكرك له فعلمتَ أنه غضب منك، فأردتَ أن تتدارك الأمر وتُقَدِّم له هدية لتشكره بها.. فهل تأتي إليه بطعام فاسد، أو قميص مهلهل، أو وردة ذابلة أو ميتة؟ ألا يعني هذا الفعل قلّة الاكتراث، ونقص الأدب؟ وأليس من الممكن أن تُؤَدِّيَ هذه الهدية إلى زيادة غضبه عليك؟

قِسْ هذا المثال على علاقتك بالله ﷻ، وعلى الصلاة..

ربٌّ كريم سبحانه.. أغدق علينا، وحَفِظَنا، وسترنا، وغفر لنا.. وتأخَّرنا في شكره كثيرًا.. وقصَّرنا كثيرًا كثيرًا.. وخشينا أن يكون قد غَضِب علينا، فأردنا أن نُقَدِّم له شكرًا ممزوجًا باعتذار.. فماذا ينبغي أن نفعل؟!

لقد قَرَّرنا أن نُصَلِّيَ له!

هذا جميل..

ولكن..

هل نُصَلِّي في الوقت الذي يحبُّه هو؟ أم في الوقت الذي يُناسبنا ولو كان يُغضبه؟

هل نُصَلِّي في بيته هو -وهو المسجد- أم في بيوتنا مع علمنا أن هذا لا يُرضيه؟

هل نهتمُّ بطهورنا وهيئتنا ورائحتنا فنخرج له كخروجنا لأقلِّ الناس وأبسطهم؟

هل نُقْبِل عليه بوجوهنا وقلوبنا، أم نُحادثه وذهننا شارد، وعقلنا لاهٍ، وجوارحنا منصرفة إلى غيره؟

خَبِّروني بالله عليكم: كيف سينظر إلينا الله ﷻ إذا جئنا إليه في موطن الشكر والاعتذار -في صلاتنا- فإذا بنا نُضيف ذنبًا إلى ذنوبٍ، وجريمة إلى جرائم!

لقد جئناه ببضاعة مزجاة!

حملنا طعامنا الفاسد، وأقمصتنا المهلهلة، وورودنا الذابلة الميتة..

وقلنا له في شرود: هذا ما عندنا.. خذه.. ونُريد منك كذا وكذا.. وكذا وكذا.. وكذا وكذا..!!

﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]؟!

أعيدوا النظر إلى مغزى الصلاة..

إنها ببساطة وسيلة «شكر»..

والشكر له أصول، وله قواعد.. أبسطها أن يُرضِيَ المشكورَ!

والآن بعد أن فَقِهنا هذا المغزى وَضَحَت لنا أمور كثيرة في القرآن والسُّنَّة وحياة الرسول ﷺ..

تَدَبَّر في هذا الموقف:

عن عائشة ﵂ أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تَتَفَطَّرَ(١) قدماه! فقالت عائشة ﵂: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟!**». فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صلَّى جالسًا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثمَّ ركع(٢).

أتوقَّع أن الصورة واضحة الآن..

إن رسول الله ﷺ لم يُبَرِّر صلاته الطويلة بأنها تكليف أو اضطرار.. إنما فَسَّرها بوضوح على أنها نوع من الشكر لله ﷻ، ووَصَفَ نفسَه بالوصف الذي يُناسب المقام، فقال: «**عَبْدًا**». لأنه يشعر بجزيل عطاء «الربِّ» سبحانه، فكان لا بُدَّ من إعلان العبودية، وكذلك كان لا بُدَّ من «شكر» النعمة.. وكانت وسيلته في الشكر هي الصلاة الطويلة..

وتكرَّر منه ذلك الموقف مع صحابة آخرين..

فعن المغيرة بن شعبة ﵁ قال: صلَّى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتتكلَّف هذا وقد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**»(٣).

---

(١) تتفطر: أي تتشقَّق، وفي رواية للبخاري: «حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ». انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ٣/ ٢٨٢٠، والمباركفوري: تحفة الأحوذي، ٢/ ٤٦١، وابن منظور: لسان العرب، مادة (فطر) ٥/ ٥٥.

(٢) البخاري: كتاب التفسير، سورة الفتح، (٤٥٥٧)، واللفظ له، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، (٢٨٢٠).

(٣) البخاري: كتاب التفسير، سورة الفتح، (٤٥٥٦)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، (٢٨١٩) واللفظ له.

والموقف نفسه حدث مع أبي هريرة ﷺ[١]..

وتكرَّر كذلك مع بلال ﷺ..

فقد دخل بلال ﷺ على النبي ﷺ ذات ليلة فوجده قائمًا يُصَلِّي صلاة الليل وهو يبكي، فقال بلال ﷺ: يا رسول الله؛ لِمَ تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!»[٢].

وتدبَّر كذلك فيما نعرفه بسجدة الشكر:

«عَنْ أَبِي بَكْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ أَمْرُ سُرُورٍ أَوْ بُشِّرَ بِهِ خَرَّ سَاجِدًا شَاكِرًا لله»[٣].

فهذا موطن شكر! لقد جاءه ﷺ أمرٌ يَسُرُّه.. فما الوسيلة التي اختارها رسول الله ﷺ للتعبير عن شكره لله ﷻ؟ لقد اختار أكثر أعمال الصلاة خضوعًا لله ﷻ وعَبَّرَ بها عن شكره.. إنه اختار السجود ليُؤَكِّد لنا المعنى: إن مغزى الصلاة هو الشكر لله ﷻ.. وقد صار هذا الأمر سُنَّة نبوية؛ خاصَّة أنه تكرَّر منه ﷺ..

عن أبي بكرة ﷺ: «أَنَّهُ شَهِدَ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُ بَشِيرٌ يُبَشِّرُهُ بِظَفَرِ جُنْدٍ لَهُ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِ عَائِشَةَ، فَقَامَ فَخَرَّ سَاجِدًا»[٤].

وعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَتَوَجَّهَ نَحْوَ صَدَقَتِهِ[٥]، فَدَخَلَ

---

(١) ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها، باب ما جاء في طول القيام في الصلوات (١٤٢٠)، وابن خزيمة (١١٨٤)، والبيهقي: شعب الإيمان، (١٤٩٥)، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته. انظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ٢/ ١٧.

(٢) ابن حبان: كتاب الرقائق، باب التوبة (٦٢٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٦٨).

(٣) الترمذي: كتاب السير، باب ما جاء في سجدة الشكر (١٥٧٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وأبو داود (٢٧٧٤) واللفظ له، وابن ماجه (١٣٩٤)، والحاكم (١٠٢٥) وقال: هذا حديث صحيح وإن لم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح ١/ ٤٧٢.

(٤) أحمد (٢٠٤٧٣)، والحاكم (٧٧٨٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٥) قوله: «نحو صدقته» تفسره رواية: «فوجدته قد دخل حائطًا من الأسواف». والأسواف موضع بالمدينة، ولا يمتنع أن يكون بعض حوائط الأسواف كان من صدقة النبي ﷺ مع أن بالقرب منها موضعًا يُعرف قديمًا وحديثًا بالصدقة، أو أن القصة متعدِّدة. انظر: السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ٣/ ٨٥٢، وأحمد بن عبد الحميد العباسي: عمدة الأخبار في مدينة المختار، ص١٥٠. وقال الشوكاني: صدقته: بفتح الصاد =

فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَخَرَّ سَاجِدًا، فَأَطَالَ السُّجُود، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي فَبَشَّرَنِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ لَكَ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ. فَسَجَدْتُ لله شُكْرًا»[(١)].

وعن طارق بن زياد[(٢)]، قال: خرجنا مع علي ﷺ إلى الخوارج فقتلهم، ثم قال: «انظروا فإن نبي الله ﷺ قال: «إِنَّهُ سَيَخْرُجُ قَوْمٌ يَتَكَلَّمُونَ بِالحَقِّ لَا يَجُوزُ حَلْقَهُمْ، يَخْرُجُونَ مِنَ الحَقِّ كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، سِيمَاهُمْ أَنَّ مِنهُمْ رَجُلًا أَسْوَدَ مُخْدَجَ الْيَدِ فِي يَدِهِ شَعَرَاتٌ سُودٌ». إن كان هو فقد قتلتم شرَّ الناس، وإن لم يكن هو فقد قتلتم خير الناس». فبكينا، ثم قال: «اطلبوا». فطلبنا فوجدنا المُخْدَج، فخررنا سجودًا وخرَّ عليٌّ معنا ساجدًا[(٣)].

وعن أبي عون، قال: سَجَدَ أَبو بَكْرٍ ﷺ حِينَ جَاءَهُ فَتْحُ الْيَمَامَةِ[(٤)].

لقد صار السجود وسيلة واضحة من وسائل الشكر..

واختار الرسول ﷺ أن يسجد سجدة واحدة عند الشكر، ولا يُصَلِّي صلاة كاملة، حتى يُيَسِّر الأمر على المسلمين؛ فالأخبار السارَّة قد تتكرَّر في اليوم والليلة مرَّات، وقد تكون هناك مشقَّة في الصلاة الكاملة؛ بل إن عددًا كبيرًا من الفقهاء[(٥)] لا يشترط الوضوء لهذه السجدة؛ تيسيرًا لأدائها في أي وقت أو ظرف..

وليست سجدة الشكر فقط هي التي نُعَبِّر بها عن شكرنا لله ﷻ؛ فقد جعل رسول الله

=والدال المهملتين والفاء، والصدفة من أسماء البناء المرتفع، وفي النهاية ما لفظه: كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشي. قال: الصدف بفتحتين وضمتين كل بناء عظيم مرتفع تشبيهًا بصدف الجبل؛ وهو ما قابلك من جانبه. انظر: نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، ٣/ ١٢٧.

(١) أحمد (١٦٦٤)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. وأبو يعلى (٨٤٧)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد، ٢/ ٥٧٨، وقال ضياء الدين المقدسي: إسناده حسن. انظر: الأحاديث المختارة، ٣/ ١٢٦.

(٢) هو: طارق بن زياد الكوفي، من الطبقة الثالثة من الوسطى من التابعين، شهد مع علي بن أبي طالب ﷺ الحرب بالنهروان، وروى عنه قصة المخدج. انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/ ٥٠١.

(٣) النسائي (٨٥٦٦)، وأحمد (٨٤٨) وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. والحاكم (٢٦٥٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بذكر سجدة الشكر وهو غريب صحيح في سجود الشكر. ووافقه الذهبي.

(٤) عبد الرزاق: المصنف، ٣/ ٣٥٨ (٥٩٦٣)، وابن أبي شيبة: المصنف، ٢/ ٤٨٢.

(٥) هذا قول كثير من السلف، واختاره بعض المالكية، وكثير من المحققين؛ كابن جرير الطبري، وابن حزم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والشوكاني، والصنعاني، ومن المعاصرين ابن باز وابن عثيمين وابن جبرين وغيرهم. انظر: مجلة البحوث الإسلامية، ٣٦/ ٢٨٧.

ﷺ صلاةً كاملة يُؤدِّيها العبد كل يوم تعبيرًا عن شكره لله ﷻ على نعمه الكثيرة، وهي صلاة الضحى..

فعن أبي ذرٍّ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ؛ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»[1].

فهذا يُؤَكِّد الرؤية التي ذكرناها؛ وهي أن الصلاة نوع من الشكر لله ربِّ العالمين..

ولنتدبَّرْ في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٢، ١٥٣].. فهنا يطلب الله ﷻ من المؤمنين في آية أن يذكروه ويشكروا له، ثم يُوَضِّح لهم في الآية التي بعدها كيف يشكرونه؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، فالتعبير القرآني يُشير إلى أن الصلاة وسيلة من وسائل الشكر لله ربِّ العالمين..

ونجد أن أمر الاستعانة بالصلاة مربوط مرَّة أخرى بالشكر في موضع آخر في القرآن الكريم؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۞ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، فهو هنا يذكر الصلاة كأمر لا بُدَّ للمؤمنين أن يستعينوا به، ثم يأتي في الآية التالية مباشرة ويُذَكِّر بني إسرائيل بالنعم التي أنعمها عليهم.. في إشارة واضحة أن الاستعانة على شكر هذه النعم إنما يكون بالصلاة.. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]..

ويربط الله ﷻ الشكر بالصلاة في آية مُفَصِّلَة للوضوء والتيمُّم، ويُؤَكِّد أن الوضوء والتيمُّم نوع من النعمة.. ووجه النعمة أنهما يقودان إلى الصلاة، التي بها تشكر الله تعالى.. قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى... (٧٢٠)، وأبو داود (١٢٨٥)، وأحمد (٢١٥١٣)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٦٧٧).

سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، فلاحظ خاتمة الآية، التي قال فيها تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فغرض إتمام النعمة بالوضوء والتيمُّم هو تيسير الدخول في الصلاة التي هي باب الشكر.

بل دعونا نتدبَّر في الصلاة نفسها، فننظر إلى بعض الأمور التي تُوَضِّح لنا الرؤية أكثر وأكثر..

إنه لا بُدَّ لنا من قراءة الفاتحة في كل ركعة، وأول ما نقرأ في الفاتحة نقرأ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]! فهذا إعلان واضح أننا الآن في موقف الحمد والشكر لله ﷻ؛ ولذلك عَلَّمنا ربُّنا أن نقول ذلك -أول ما نقول- ما دمنا قد جئنا لنقف بين يديه نشكره.. بل هناك معنًى آخر بدا لي، وهو في الحقيقة في غاية اللطف! إننا في الصلوات الجهرية -الصبح والمغرب والعشاء، وكذلك في التراويح- نسمع صوت الإمام أول ما نسمع يقول: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾! فكما نعلم أنه بعد تكبيرة الإحرام نقول دعاء الاستفتاح، ويكون هذا سرًّا دون جهر، وبعده نقول الاستعاذة من الشيطان الرجيم، وتكون سرًّا كذلك، ثم نقول البسملة، وفي رأي غالب الفقهاء أنها تكون سرًّا[(١)]؛ لحديث أنس ﷺ قال: «صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِـ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لَا يَذْكُرُونَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلَا فِي آخِرِهَا»[(٢)]. فتدبَّر أيها المسلم في هذا الموقف المهيب:

المصلُّون يقفون خاشعين صامتين خلف الإمام، بعد أن كَبَّر تكبيرة الإحرام، فقطعهم عن الدنيا بهذه التكبيرة، وأعلن لهم أننا الآن في حضرة الملك العزيز الوهاب.. ثمَّ لحظات من الصمت لا يسمع فيها المصلُّون إلَّا همسًا.. يقرأ الإمام في هذه اللحظات دعاء الاستفتاح

(١) عبد الرحمن الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٣٢، ٢٣٣، وأبو مالك كمال بن السيد سالم: صحيح فقه السنة وأدلته وتوضيح مذاهب الأئمة ١/ ٥٤١-٥٤٤، والموسوعة الفقهية الكويتية ٨/ ٨٦-٨٨، ومحمد نعيم محمد هاني ساعي: موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي ١/ ١٥٨.

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما يقول بعد التكبير، (٧١٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: لا يجهر بالبسملة. (٣٩٩) واللفظ له.

والاستعاذة والبسملة، ثم فجأة يقطع صوتُ الإمام الصمتَ المهيب بقوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾!!

أيُّ هيبةٍ! وأيُّ عظمةٍ! وأيُّ خشوعٍ!

وأيُّ وضوحٍ في المقصد!

إننا ما وقفنا الآن يا رب إلَّا لنشكرك!

ما جئنا إلَّا لنحمدك!

هذا أول ما نجهر به في حضرتك!

هل يمكن إلا أن نكون خاشعين في هذا الموقف الجليل؟!

وإذا كنا قد جهرنا بهذا الإعلان الصريح في بداية صلاتنا، فإننا لا نكتفِي بهذا؛ بل علَّمنا رسولنا ﷺ أن نُذَكِّر أنفسنا أننا في مقام حمدٍ وشكر لله ﷻ، فيقول الإمام عندما يرفع من الركوع: «سمع الله لمن حمده». فيقول المصلُّون جميعًا: «اللهم ربَّنا لك الحمد». بل يُرَغِّبنا رسول الله ﷺ في عدم الشرود في هذا الموقف، فيُنَبِّهنا إلى ضرورة الجهر بالحمد في توقيت مُعَيَّن لا يتقدَّم ولا يتأخر حِرْصًا على تحقيق مغفرة الله ﷻ له، فقد روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَالَ الإِمَامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ. فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1].

حتى بعد الصلاة أمرنا رسول الله ﷺ أن نحمد الله ثلاثًا وثلاثين مرَّة[2]، أو خمسًا وعشرين مرَّة[3]، أو على الأقل عشر مرَّات[4]، وبذلك يظلُّ وجداننا معلَّقًا بمسألة الحمد، فلا

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب فضل اللهم ربنا ولك الحمد، (٧٦٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين، (٤٠٩).

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب مَنْ لم يَرَ ردَّ السلام على الإمام واكتفى بتسليم الصلاة، (٨٠٧)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذِّكْر بعد الصلاة وبيان صفة، (٥٩٥).

(٣) الترمذي، كتاب الدعوات، باب منه (التسبيح والتكبير والتحميد عند المنام)، (٣٤١٣)، وقال: هذا حديث صحيح. والنسائي (١٢٧٣)، وأحمد (٢١٦٤٠)، والدارمي (١٣٥٤)، وابن حبان (٢٠١٧)، والطبراني: المعجم الكبير، (٤٩٠٤)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (١٠١).

(٤) البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصلاة، (٥٩٧٠) عن أبي هريرة ﷺ، وأبو داود (٧٦٦)، والترمذي (٣٤١٠)، والنسائي (١٢٧١)، وابن ماجه (٩٢٦)، وأحمد (٨٣٨).

نسى أننا قمنا للصلاة لنشكر الله ﷻ..

ايها الخاشعون والخاشعات..

يقول تعالى وهو يُهذِّب أخلاقنا ويُعَلِّمنا: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]..

إننا لا نقبل أن يشكرنا الناس على معروف أسديناه إليهم إلَّا أن يكون هذا الشكر مناسبًا ولائقًا، تمامًا كما لا نقبل أن نأخذ شيئًا خبيثًا من الناس على سبيل الهدية أو الصدقة، إلَّا أن نأخذه على مضض ﴿إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾.. فكيف نذهب إلى الله نشكره بشكرٍ لا نقبله لأنفسنا من الناس؟! كيف نشكره بصلاة لا روح فيها ولا خشوع؟!

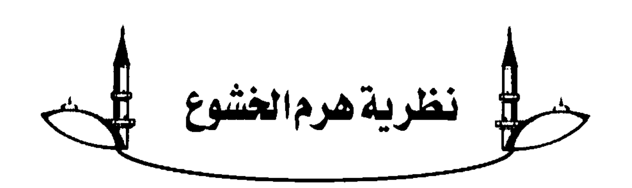
كل هذا يجعلنا نُعيد النظر من جديد في مغزى صلاتنا، وكيفية خشوعنا..

إننا لا نُصَلِّي مضطرِّين أو مقهورين..

حاش لله..

إنما كنَّا وكأننا نبحث بكل جهد عن وسيلة نشكر بها الإله العظيم الكريم، الذي أنعم علينا نعمًا لا تُحصى، وحَفِظنا وسترنا، وغفر لنا، فهدانا سبحانه إلى الطريقة المثلى لهذا الشكر؛ وهي الصلاة الخاشعة، وطبَّق رسوله الكريم ﷺ هذه الطريقة في كل قصته، حتى صارت منهجًا لحياته: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!». فلمَّا عرفنا هذه الطريقة فرحنا أيما فرح، واطمأنَّت قلوبنا إلى ما هدانا الله إليه، وأسرعنا إلى الصلاة بهذه الروح، منشرحين.. مسرورين.. راغبين..

لو فهمنا هذا المعنى رَشَدْنا!
لو فَقِهنا هذا المغزى وَصَلْنا!
ليس فقط إلى الخشوع..
ولكن إلى رضا المُنعِم، الحافظ، الغفَّار..
سبحانه!



نظرية هرم الخشوع

كثيرًا ما نقرأ عن خشوع النبي ﷺ، أو خشوع الصحابة والتابعين والسلف الصالح فنشعر أننا نقرأ عن عالم خيالي غير قابل للتحقيق في زماننا! أو أن ما نقرؤه عن خشوعهم قد شَابَهُ شيءٌ من المبالغة؛ حتى صار غير مقبول لعقولنا؛ لكن عند التحقيق نرتطم بصحَّة كثيرٍ من الأحاديث والآثار التي نقلت لنا صفة خشوع هؤلاء الأخيار، وهذا يزيد من حيرتنا وارتباكنا! وقد تتعدَّد الأسباب وراء هذه الحيرة؛ لكن يبقى السبب الأكبر -في رأيي- وراء ذلك أننا نُريد أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون في مسألة الخشوع! والبداية من حيث انتهى الآخرون تصلح -بل تُفضَّل- في تجارب الحياة المادية؛ مثل: الطبِّ والهندسة، والإدارة والقيادة، وفنون الحوار أو القتال.. لكن في الأمور القلبية والإيمانية نجد أن الأمر مختلف أشدَّ الاختلاف! فالتدرُّج في هذه الأمور مطلوب، والرفق محمود.. بل إنَّ محاولة الوصول إلى القمَّة بشكل سريع ومفاجئ قد تُؤدِّي إلى سقوط وانهيار؛ لذا أقول: إنه إذا كانت البداية من حيث انتهى الآخرون أمر محمود في أمور الدنيا، فإن البداية من حيث «بدأ» الآخرون أمر لازم في أمور الآخرة! ولهذا يُحذِّرنا رسول الله ﷺ من هذا السلوك، فيقول -فيما يرويه أنس بن مالك ﵁-: **«إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ»**[1]. وفي رواية أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ[2]»**[3]. وأمثال هذا المبدأ في حياة الرسول ﷺ كثير، وهذا كلُّه يعني أن الناس تتفاوت في خشوعها، وأنه ليس من الصواب أن تحاول أن

---

(١) أحمد (١٣٠٧٤). وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله موثقون إلا أن خلف بن مهران لم يُدرك أنسًا والله أعلم. انظر: مجمع الزوائد، ١/ ٢٢٩، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٢٢٤٦).

(٢) واستعينوا بِالْغَدْوَةِ؛ أي: استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المُنَشِّطَة، والغَدْوَة: سَيْرُ أوَّل النهار. وقيل: ما بين صلاة الْغَدَاةِ وطلوع الشمس. والرَّوْحَة: السَّيْرُ بعد الزوال. وَالدُّلْجَة: سَيْرُ آخر الليل. وقيل: سَيْرُ الليل كله: ولهذا عبَّر فيه بالتبعيض، ولأن عمل الليل أشقُّ من عمل النهار. ابن حجر: فتح الباري ١/ ٩٥.

(٣) البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (٣٩)، والنسائي (١١٧٦٥)، وابن حبان (٣٥١)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٥١٨).

تخشع خشوع أبي بكر وعمر ﷺ من أول محاولات خشوعك؛ إذ إن النتيجة في الغالب ستكون الفشل! أو على الأقلِّ عدم القدرة على الاستمرار والمداومة، وهذا قد يُورث إحباطًا؛ ومن ثَمَّ ترك العمل بالكلية! وهنا ينتكس الفرد من حيث كان يُريد النجاح!

وتفاوُتُ الناس في درجة خشوعها يعني أن هناك درجاتٍ للخشوع، فليس خشوع الرسول ﷺ أو إخوانه من الأنبياء المعصومين كخشوع بقية البشر.. نعم جُعِل الرسول ﷺ قدوةً لنا، وأمرنا الله باتِّباعه، لكنَّ ارتقاءنا إلى درجته مستحيل؛ خاصَّة في الأمور القلبية والإيمانية، حتى لو قلَّدنا الظاهر تمامًا فإنَّ بواطننا ليس كباطنه، وقلوبنا ليست كقلبه، كما أن المداومة على الحالة التي كان عليها ضرب من المستحيل كذلك! ولا نقول هذا الكلام لنمنع الناس من تقليده واتِّباعه.. حاش لله.. إنما أقصد أن المؤمن يجتهد ليُحَقِّق أقصى ما يستطيعه من المثال «الكامل» الذي ضُرِب له، وقد ينجح أحدنا في الارتقاء جدًّا في أحد المجالات، وينجح آخر في الارتقاء في مجالٍ ثانٍ، وهكذا يُحَقِّق كلٌّ واحد منَّا القدوة «شبه الكاملة» في مجال من المجالات؛ بينما لا يستطيع في مجال آخر إلَّا تحقيق الحدِّ الأدنى المطلوب، وتبقى العصمة للأنبياء فقط صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

حتى الأمثلة التي نطَّلع عليها من حياة الصحابة والتابعين والعلماء والمجاهدين تعرض لنا صورًا متفاوتة من الخشوع في الصلاة؛ فليسوا جميعًا صورة واحدة، إنما يَفْضُل بعضُهم بعضًا، وكان بعضهم يبرز بقوَّة في مجال الصلاة، وآخر في مجال الصيام، وثالث في مجال الجهاد، ورابع في مجال الإنفاق، وهكذا.. ونحن نتَّخذ بعضهم قدوة في مجال، ونتَّخذ آخرين قدوة في مجال آخر، لكن يبقى هناك حدٌّ أدنى في كل العبادات والمعاملات يقوم به الجميع، وهو أقلُّ ما يُطلب من المؤمن، كما يبقى هناك حدٌّ أعلى في بعض الأمور ينبغي للمسلم ألَّا يتعدَّاه، وإلَّا بلغ الشطط والإسراف، وكلا الحدَّيْن الأدنى والأعلى تُحَدِّدهما السُّنَّة المطهَّرة.

وكان رسول الله ﷺ يُراعي الفوارق بين الناس ومدى استعدادهم، ودرجة إيمانهم، وتدرُّجهم في سُلَّم الإسلام، ولنأخذ مثالًا على ذلك في مسألة الصلاة التي نحن بصدد الحديث عنها؛ فنرى أنه -ﷺ- كان يقبل من أحد الصحابة شيئًا بسيطًا من العبادة؛ بينما لا يقبل من آخر إلَّا الأعلى والأجود، فعن طلحة بن عبيد الله ﷺ أنه قال: جاء رجل[1] إلى

(١) هو: ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ ﷺ وَافِدُ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ١٠٦.

رسول الله ﷺ من أهل نَجْدٍ، ثَائِرَ الرأس، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ[١]، ولا يُفْقَهُ ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ». فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قال رسول الله ﷺ: «وَصِيَامُ رَمَضَانَ». قال: هل عليَّ غيره؟ قال: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قال: وَذَكَرَ له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله! لا أزيد على هذا ولا أَنْقُصُ. قال رسول الله ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»[٢]. فالرسول ﷺ يقبل من هذا الأعرابي مجرَّد أداء الفرائض؛ بل ويُبَشِّره بالفلاح، وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك ﷺ قال: «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ»[٣]. ولكنه ﷺ في موقف آخر يُحَذِّر عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ مِنْ تَرْك قيام الليل مع كونه نافلة! فيقول له: «يَا عَبْدَ اللهِ؛ لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»[٤]. فالرسول الحكيم ﷺ يُفَرِّق في المطلوب من المسلم بين الأعرابي حديث الإسلام، وبين عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ الذي قطع شوطًا طويلًا في طريق الإيمان، وتمرَّس على الصلاة والقيام والقرآن، ولعلَّه بعد ذلك يطلب من الأعرابي ترقِّيًا في العبادة، وطولًا في الصلاة إذا رأى منه اجتهادًا وتفوُّقًا.

كلُّ هذا يُؤَكِّد أن الخشوع في الصلاة درجات، وإن كُنَّا جميعًا مطالبين بالخشوع لكنَّ درجاتنا فيه ستتفاوت حتمًا، ويبقى الدور الأعظم الذي نحرص عليه في هذا الطرح أن نُبَيِّن الحدَّ الأدنى الذي ينبغي للمسلم أن يُحَقِّقَه حتى يُسَمَّى خاشعًا، الذي إن فاته صار مُقَصِّرًا محاسَبًا، ثم نطَّلع بعد ذلك على الدرجات الأعلى؛ حتى نتمكَّن من تحقيق التدرُّج المسنون، الذي يضمن لنا استمرارية ودوامًا.

وهناك تصنيفات كثيرة لدرجات الخشوع؛ ولكني وجدتُ أن هذه التصنيفات لم

---

(١) قال بدر الدين العيني: قال الخطابي: الدوي: صوت مرتفع متكرِّر لا يُفهم، وإنما كان كذلك لأنه نادى من بُعد، ويُقال الدَّوِيُّ: بُعد الصوت في الهواء وعُلُوُّه، ومعناه: صوتٌ شديدٌ لا يُفهم منه شيء كدَوِيِّ النحل. انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١/ ٢٦٦.

(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، (٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، (١١).

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام، (١٢)، والنسائي (٢٤٠١)، وأحمد (١٢٤٧٩)، والدارمي (٦٥٢)، وابن حبان (١٥٥).

(٤) البخاري: أبواب التهجد، باب ما يُكره من ترك قيام الليل لِمَنْ كان يقومه، (١١٠١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لِمَنْ تضرَّر به أو فوَّت به حقًّا أو لم يُفطر، (١١٥٩).

تستوعب كل الحالات النفسية التي يمرُّ بها المُصَلِّي في صلاته عندما يتنامى خشوعه مع الوقت، كما وجدتُ أن هذه التصنيفات لا تجمع كلَّ صور الخشوع التي نراها عند المُصَلِّين، كما أنها -للأسف- لم تُوَضِّح طريقًا جليًا ثابتًا للانتقال من مرحلة إلى مرحلة؛ ومن ثَمَّ عَكَفْتُ على دراسة الآيات والأحاديث المتعلِّقة بموضوع الخشوع خاصَّةً والصلاة عامَّةً، ودرست كذلك صور الخاشعين في مسيرة الأُمَّة الإسلامية؛ بداية من القدوة الأعظم والرسول الأكرم ﷺ، ومرورًا بالصحابة ﷺ، والتابعين والعلماء والعبَّاد رحمهم الله جميعًا، وأضفت تجاربي الشخصية، وما مررتُ به من مواقف، وما تعرَّضْتُ له من أسئلة واستفسارات من المسلمين بخصوص هذه المسألة المهمَّة، وفي النهاية خَرَجْتُ بهذه النظرية التي تُبَيِّن لنا درجات الخشوع بشكل مبتكر وواضح، كما أنها تضع اليد بسهولة على الوسيلة العملية للانتقال من درجة إلى درجة دون تكلُّف أو تعنُّت.. وقد وجدتُ أن وصف الأمر بالهرم أقرب إلى الحقيقة، ليس فقط لأن المُصَلِّي يصعد من درجة إلى درجة بالترتيب؛ ولكن لأن عدد المُصَلِّين في الدرجة الدنيا كثير جدًّا؛ بينما يقلُّ عددهم تدريجيًّا كلما صعدنا إلى أعلى، وهذه طبيعة الهرم، والواقعُ أن الذي يصل إلى الدرجة الأخيرة في هرم الخشوع قليل للغاية!

وهذا الهرم -فيما أراه- مكوَّنٌ من خمس درجات:

الدرجة الأولى: الوعي:

وأعني بها أن تعي ما تقول، وتفهم المعنى المقصود من الآيات والأذكار والدعاء، وهي أدنى درجات الخشوع، وإن لم تتوفَّر فَقَدَت الصلاة رُوحها تمامًا، ولا يُطلَق على صاحبها خاشع!

والمُصَلِّي في هذه الدرجة يفهم معنى الأمر الإلهي الوارد في الآيات ويستوعبه، ويُدرك العبرة من القصَّة التي يقرؤها، ويُمَيِّز الذِّكر الذي يُعَظِّم الله به، ويتفهَّم كلمات الدعاء التي يُرَدِّدها، وليس المقصود هنا أن يستوعب المصلِّي دقائق التفسير، أو لطائف اللغة، ولكن المقصود أنه يفهم المعنى فهمًا إجماليًّا الذي بدوره يدفعه إلى عمل صالح.. فإذا قرأ مثلًا: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، استوعب أن المقصود هو الحثُّ على الإنفاق، وأن الله هو الرزاق، وأن الموت يأتي بغتة، وأنه لا أحد يعود بعد الموت، وما إلى ذلك

من معانٍ إجمالية عامَّة واضحة، وإذا قرأ مثلًا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٢]، أدرك أن المقصود أن نوحًا ﷺ دعا الله ﷻ أن ينصره على الكفار، وأن الله استجاب له، وأن طريقة الإهلاك لقوم نوح كانت عن طريق الطوفان، الذي نتج عن انهمار الماء من السماء، وتفجير ينابيع الماء من الأرض، وهكذا.

ولقد بكى النبي ﷺ ذات ليلة وهو يُصَلِّي صلاة الليل، فقال بلال ﷺ: يا رسول الله؛ لِمَ تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟! لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[(١)]. ولعلَّ سبب الويل هنا أن الذي قرأها ولم يتفكَّر فيها لم يُحَقِّق أدنى درجات الخشوع؛ فهو وإن قرأ القرآن فإنه لم يُحَقِّق المراد منه؛ وهو التدبُّر والفهم والعقل، وقال عبد الرحمن بن سليمان[(٢)]: سألتُ الأوزاعي عن أدنى ما يتعلَّق المتعلِّق ويُنجيه من هذا الويل؟ فأطرق هُنَيَّة[(٣)]، ثم قال: «يقرؤهنَّ وهو يعقلهنَّ»[(٤)].

وفي هذه الدرجة لم تتحرَّك هِمَّة المُصَلِّي للعمل بعدُ، ولم تحثُّه نفسه على تنفيذ الأوامر الربانية؛ لكنه يفهم المراد فقط، أمَّا عندما تتحرَّك النفس للعمل فهذا يعني الارتقاء إلى الدرجة الثانية؛ وهي درجة الطمع كما سيأتي.

والذي لا يُحَقِّق هذه الدرجة لن يرتقي بالتأكيد في الدرجات التالية؛ فكل درجات هرم الخشوع مبنية على هذه الدرجة، وهي درجة الفهم والوعي والإدراك، وهذا قد يُفَسِّر لكثيرٍ من المصلِّين عدم قدرتهم على الوصول إلى الدرجات العالية من الخشوع، التي يَقرأ عنها في

---

(١) ابن حبان: كتاب الرقائق، باب التوبة، (٦٢٠)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٦٨).

(٢) هو: عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الله بن حنظلة (٦٦هـ تقريبًا - ١٧١هـ)، الفقيه، المحدِّث، الثقة من رجال الحديث عند البخاري ومسلم، وهو حفيد حنظلة غسيل الملائكة ﷺ. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٧/ ٣٢٣-٣٢٥، والمزي: تهذيب الكمال، ١٧/ ١٥٤، وابن حبان: الثقات ٥/ ٨٥.

(٣) الهُنَيَّة: القليل من الزمان. ابن منظور: لسان العرب، مادة (هنا) ١٥/ ٣٦٥، والمعجم الوسيط، ٢/ ٩٩٨.

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ١٩٠، وأخرجه ابن أبي الدنيا في التفكُّر كما ذكر السيوطي في الدر المنثور، ٢/ ٤٠٩، والمناوي: الفتح السماوي، ١/ ٢٠٥.

الكتب عن السلف الصالح؛ ذلك أن المُصَلِّي يتمنَّى أن يصل إلى هذه الدرجات بشكل مباشر دون بذل الجهد أو الوقت في الدرجات الأولى، وهذا -في رأيي- محال، والأمور تجري بالسُّنَنِ، وليس من المعتاد أن ننجح دون فهم، ولا أن نُنتِج دون إدراك.

ولعل السؤال الذي ينبغي أن يشغلنا في هذه الدرجة الأولى من الهرم هو: لماذا لا نُحَقِّقُها أحيانًا -أو كثيرًا- على بساطتها؟! والإجابة تشمل عناصر كثيرة؛ لكن من أبرزها عنصران:

أمَّا العنصر الأول: فهو الجهل! فعدم إدراك معنى الآية، أو معنى بعض الكلمات فيها، يكون سببًا في عدم الخشوع فيها؛ فعلى سبيل المثال إذا قرأنا قول الله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۞ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۞ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا...﴾ [العاديات: ١-٥]، إذا قرأنا هذه الآيات دون إدراك معنى العاديات أو الضبح، أو الموريات أو القدح، أو المغيرات أو النقع فإنَّ خشوعنا لا بُدَّ أن يتأثَّر بهذا النقص في المعرفة، وعلاج هذه النقطة ببساطة هو العلم! فكلَّما تَعَلَّمنا أكثر زاد خشوعنا حتمًا، والأمر في الحقيقة نسبي؛ فالعلم واسع، وهو بحر لا ساحل له، وكلَّما ازددتَ علمًا ازددتَ خشوعًا؛ ولذلك أمر اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يطلب دومًا الاستزادة من العلم؛ فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وأمَّا العنصر الثاني: فهو انصراف الذهن! فالمُصَلِّي هنا يعرف تمامًا معنى الآيات؛ لكن ذهنه منصرف عنها بالكلية؛ فهو يُفَكِّر في عشرات ومئات الأشياء، التي تسحب روحه بعيدًا عن محراب الصلاة! فالذي يقرأ مثلًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، ثم لا يخشع فيها فهذا لا يفتقر إلى العلم؛ فالمعنى واضح للعوامِّ، ومدلول الآية جليٌّ؛ لكنَّ المُصَلِّي منصرف عنه إلى غيره، وهذا علاجه يتضمَّن أمورًا كثيرة لا يمكن حصرها في هذا الفصل؛ بل هو موضوع الكتاب بالكامل! فهو يحتاج بداية إلى أن يقدر الله قدره، ثم إلى تغيير منهج حياته تبعًا لذلك، ويحتاج إلى التوبة من الذنوب؛ التي أغلقت القلب وعزلته عن كلام الله ﷻ، وكذا يحتاج إلى محاربة الشيطان في الصلاة وخارجها، كما يحتاج إلى اتِّباع السُّنَّة في صلاته من أولها إلى آخرها، أو قُلْ بالأحرى: هو يحتاج إلى أن يقرأ هذا الكتاب كلَّه بإمعانٍ؛ ليصل بنجاح إلى هذه الدرجة الأولى من هرم الخشوع، ومنها يصعد -بإذن الله- إلى ما بعدها من درجات.

الدرجة الثانية: الطمع:

والطمع هنا ليس مذمومًا؛ بل أقصد به هنا الرغبة الكبيرة في الشيء؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ حيث إن الطمع المقصود هنا هو الطمع فيما عند الله ﷻ، ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ [الشعراء: ٥١]، وكذلك: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦]، وهذا المعنى كثير في القرآن والسُّنَّة.

ومعنى الطمع في هذه الدرجة هو أن تطمع فيما عند الله ﷻ من نعيم تقرأ عنه في الآيات، وأن تطمع في أن تنجو من العذاب الذي تجد وصفه في القرآن، وأن تطمع أن تتَّصف بالصفات التي وُصِف بها المؤمنون؛ مثل: الصدق، والأمانة، والخشوع، والتوبة، والإنابة، وأن تطمع ألَّا تتَّصف بصفات الكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين؛ مثل: الظلم، والكبر، والحسد، والعدوان، وإذا قرأت قصَّة من قصص القرآن طمعت أن تُحشر مع المؤمنين فيها، وطمعت كذلك ألَّا تُصاب بما أُصيب به الظالمون فيها.. إن المُصَلِّي في هذه الدرجة يتفاعل مع كل آية يقرؤها، وليس هذا بقلبه فقط؛ بل يتحرَّك لسانه ليطلب من الله ﷻ، فيقف عند آية ويقول: ربِّ اجعلني من هؤلاء. ويقف عند أخرى فيقول: ربِّ لا تجعلني من هؤلاء. وهو متقلِّب دومًا بين الرجاء والخوف.. الرجاء فيما عند الله من ثواب، والخوف من عقاب الله وعذابه، وإن كان رجاؤه -وهو في هذه الدرجة من هرم الخشوع- أعلى من خوفه؛ فهذه قراءة يترقَّب فيها المُصَلِّي الآية القادمة حتى يطلب فيها من ربِّه، والقراءة بهذه الصورة قراءة ممتعة، ويغلب عليها الخشوع والتركيز؛ حيث «يطمع» المُصَلِّي في كل خير يمرُّ به، و«يطمع» في النجاة من كل شرٍّ يقرأ عنه.

ويُساعد على الدخول في هذه الدرجة أن تعرف ثواب الشيء الذي «تطمع» فيه؛ فإنَّ أداءك يكون بدرجة مُعَيَّنة من الحماس لو كنتَ تعرفُ الثواب بشكل عامٍّ مُجْمل، ولكن درجة الحماس هذه تزداد جدًّا عند معرفتك للتفاصيل، وهذا هو حال الإنسان بشكل عامٍّ، فعندما يطلب منك رئيسك في العمل -مثلًا- مهمَّة معيَّنة، ويذكر لك أن مكافأة إتمام هذه المهمَّة ستكون مجزية، ولم يُحَدِّد لك مقدار المكافأة أو طبيعتها؛ بل تركها مبهمة، فإنك تعمل بدرجة مُعَيَّنة «محدودة» من الحماس؛ لكنه إذا ذكر لك أن المكافأة ستكون عشرة آلاف جنيه -مثلًا- فإن درجة حماسك ستكون أعلى؛ لأن الإبهام زال، وستتحرَّك كلُّ حواسك وجوارحك وعقلك لتحقيق المكافأة المحدَّدة، وإذا أراد رئيسك أن يُحَفِّزك أكثر فإنه يذكر لك أن المكافأة

ستزيد بزيادة الإتقان، ويا حبَّذا لو ذكر لك معدَّل الزيادة! بحيث تعرف أن الجهد والوقت اللذين ستبذلهما في سبيل تحسين العمل لن يضيعا هباءً منثورًا..

واللهُ هو الذي خلق الإنسان، ويعلم ما تُوسوس به نفسه، ويُدرك تمام الإدراك ما يُحَفِّزه ويُشجعه.. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؛ لذا فإنه سبحانه لم يذكر لنا الثواب إجمالًا فقط؛ إنما أوضح لنا التفاصيل، فهو لم يكتفِ بذكر حُسْن الجنة وروعتها بشكل عامٍّ، إنما فصَّل لنا أمورًا كثيرة بها؛ فتحدَّث عن بيوتها وتربتها وأنهارها وأشجارها وطيورها، وداخل كل أمر منها كان يذكر تفاصيل كثيرة؛ ولنأخذ مثالًا على هذا التفصيل: روى ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن حَبْرًا من أحبار اليهود جاء يسأل رسول الله ﷺ عن بعض الأمور ليستوثق من نبوَّته، فكان مما سأل بعض الأمور الخاصة بالجنة؛ فقال: «.. فَمَنْ أول الناس إِجَازَةً؟ قال: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ». قال اليهودي: فما تُحْفَتُهُمْ[1] حين يدخلون الجنة؟ قال: «زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ[2]». قال: فما غذاؤهم على إِثْرِهَا؟ قال: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا». قال: صدقتَ[3]. كل ذلك مع علمنا أن الحوت والثور والماء في الجنة مختلف عنها في الدنيا؛ ولكن هذا لتحفيز المؤمنين على العمل.

ومثال آخر يُوَضِّح الصورة رواه أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]»[4]. فهو هنا لا يترك لخيالك تحديد الظلِّ الممدود الذي تقرأ عنه في القرآن؛ إنما «يُحَدِّد» لك طوله بما يمكن أن تستوعبه، فيذكر أن الراكب، وفي رواية يقول: «.. الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ[5].

(١) تحفتهم: التحفة هي ما يُهدى إلى الرجل ويُخَصُّ به ويُلاطف. النووي: المنهاج ٣/ ٢٢٧.

(٢) زيادة كبد النون: النون هو الحوت، وزيادة كبد الحوت هي القطعة المنفردة المعلقة في الكبد، وهي في المطعم في غاية اللذة، ويقال: إنها أهنأ طعام وأمرؤه. ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٢٧٣، والنووي: المنهاج ٣/ ٢٢٧.

(٣) مسلم: كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما، (٣١٥)، وابن حبان (٧٤٢٢)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٧٦٩).

(٤) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٣٠٨٠) واللفظ له، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، (٢٨٢٦).

(٥) الجواد: الفرس السريع. والمضمر: تضمير الخيل أن تشدَّ عليها سروجها وتجلَّل (تغطَّى وتُلْبَس) بالأجلة وتجري حتى تعرق، ويُكَرَّر ذلك عليها حتى تعتاده فيقوى لحمها، ويذهب رهلها، وتخفُّ حركتها. ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ص٤٨٠.

السَّرِيعَ»(١). لا يقطع هذا الظلَّ في مائة عام من الجري! وهو «يُحَدِّد» لك كذلك أن هذا الراكب يركب جوادًا مضمَّرًا سريعًا، والمُضَمَّر هو المُعَدُّ للجري، فهو يُتقن الجري ولا يتعب منه! هذا التفصيل يُعطي حماسة كبيرة في العمل؛ ومن ثَمَّ زيادة التركيز والاهتمام.

وما قلناه آنفًا ينطبق بقوَّة على الصلاة وأعمالها، فلو عرفنا الأجر المُفَصَّل لكلِّ عمل من أعمال الصلاة لأقدمنا عليه بإقبال وخشوع أكبر بكثير لو عرفنا ثوابه إجمالًا، ولصار خشوعنا في هذا العمل طبيعيًا غير متكلِّف، ولْنَضْرِب على ذلك عدَّة أمثلة، سنمرُّ عليها بالتفصيل بعد ذلك -بإذن الله- في ثنايا الكتاب، وعلينا أن نقيس خشوعنا قبل معرفة أجر العمل، وخشوعنا بعد معرفة الأجر، حتى نلمس الفرق، وهو في الحقيقة كبير..

فعلى سبيل المثال نحن نقرأ القرآن في صلاتنا في كل ركعة.. نقرأ الفاتحة، وفي الركعتين الأوليين من كل صلاة نقرأ سورة بعد الفاتحة.. وبصرف النظر عن السورة التي نقرؤها، أو عن الأجور الخاصَّة المتحقِّقة نتيجة قراءة بعض السور، فإن لنا بكل حرف نقرؤه من القرآن حسنة! والحسنة بعشر أمثالها.. يقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ. وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»(٢). ويبدو هنا أن الرسول ﷺ خشي علينا من تأويل النصِّ؛ فيعتقدَ بعضهم أن الحرف في الحديث يعني كلمة، وقد يُؤَوِّل بعضنا الأمر كذلك إذا شعر بالمبالغة في الأجر؛ لذلك فَصَّل رسول الله ﷺ في الأمر، وقال: «**لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ. وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**». وعلى هذا فقراءة الفاتحة فقط تعني قراءة مائة وتسعة وثلاثين حرفًا(٣)؛ أي: ما

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٦١٨٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، (٢٨٢٨).

(٢) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر (٢٩١٠)، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، وقال الترمذي: حسن صحيح. والبيهقي: شعب الإيمان، (١٩٨٣)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٤٨٥٠)، والمعجم الأوسط، (٣١٤)، وقال الألباني: إسناده جيد. انظر: السلسلة الصحيحة، (٣٣٢٧).

(٣) هناك طرق كثيرة لإحصاء الحروف في القرآن الكريم، ومن ثم فقد يختلف العدد من إحصاء إلى آخر، فالبعض يكتفي بعدِّ الحروف الموجودة في الرسم العثماني، أي يُغْفِل مثلًا الألف في قوله «مالك» إذا كُتِبَت: «مَٰلِكِ»، والبعض يحصي الرسم الإملائي، فيحصي كلمة «الرحمان» سبعة حروف، ولا يحصيها: «الرحمن»، أي ستة حروف فقط، والبعض يحصي الحروف المشدَّدة، فتكون كلمة «همَّاز» خمسة حروف وليس أربعة، لأن الميم مشدَّدة، أي بمقام حرفين، وقد اعتمدتُ في هذا الكتاب عدَّ الرسم العثماني لسهولته، ولانتشار التعامل به، وهو يعطي أقل حساب للحروف، فالأجر سيكون كما وصفناه أو أكثر، والله أعلم.

يُعادل ألفًا وثلاثمائة وتسعين حسنة! هذا في الفاتحة فقط! فإذا قرأنا بعدها سورة قصيرة جدًّا كسورة الإخلاص -مثلًا- فإننا نقرأ سبعة وأربعين حرفًا، وهذا يوازي بالحساب النبوي أربعمائة وسبعين حسنة! فماذا لو قرأنا سورة الليل أو الأعلى؟! وماذا لو قرأنا سورة السجدة أو الإنسان؟ وماذا لو قمنا الليل وقرأنا الأنعام أو الأعراف؟ بل البقرة أو آل عمران؟! أليس العمل الذي نستصعبه ونستثقله سيصير سهلًا محبوبًا؟!

بل في حديث آخر يُعطي مثالًا يُوَضِّح به الأجر، ويبدو أن الأجر في هذا المثال أعظم من حساباتنا بكثير! قال رسول الله ﷺ: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ؟» قلنا: نعم. قال: «فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ»[1]. والخَلِفَات هي النوق الحوامل؛ فالآية الواحدة خيرٌ من ناقة حامل! فأيُّ خيرٍ سنُحَقِّقه إنْ أَكْثَرْنا من قراءة القرآن في صلاتنا كما علَّمنا رسول الله ﷺ؟!

ثم تَدَبَّر في هذا المثال الآخر: لو قال لنا صاحب مزرعة عنب مثلًا: ادخلوا إلى مزرعتي، واجمعوا العنب، ولكم بكل عنبة عشرة جنيهات! فماذا سنفعل؟ غالب الأمر أننا لن نخرج من المزرعة أبدًا! بل سنقاوم التعب والنوم والجوع وكل العوارض، وذلك «طمعًا» في استغلال كلِّ لحظة في تحصيل الأجر الخيالي!

فلنعرف -إذًا- أن المؤمنين الذين استوعبوا هذه الأجور الهائلة في الصلاة كرهوا أن يخرجوا من هذه الصلاة، وأرادوا استغلال كلِّ لحظة من لحظات عمرهم فيها؛ لذلك وصفهم الله ﷻ في كتابه قائلًا: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، وفي موضع آخر يقول عنهم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، فهذه حالة نفسية عجيبة، نجد فيها جَنْبَ المؤمن لا يطيق الفِراش! وكلَّما نام هبَّ واقفًا يُريد أن يستكمل الصلاة، ويشعر بمدى الحسرة في قلبه على ضياع لحظات عمره دون تحصيل؛ خاصَّة إذا كان يُتابع جهود الآخرين، ويرى الكمَّ الذي حَصَّلوه بطول قيامهم، فيرغب في منافستهم، والتفوُّق عليهم، وهذا تنافس محمود مدحه ربُّ العالمين؛ إذ قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، (٨٠٢)، عن أبي هريرة ﵁، وابن ماجه (٣٧٨٢)، وأحمد (١٠٤٥٠).

وهذه الحالة قد تقود أحيانًا إلى المبالغة في الصلاة! حتى يجور وقت الصلاة على بقية أعمال الإنسان في الحياة، ويُصبح هنا دور المُرَبِّي أن «يُقَلِّل» من صلاة تلميذه! وهذا ما رأيناه على سبيل المثال في موقف النبي ﷺ عندما دخل المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين؛ فقال: «مَا هَذَا الحَبْلُ؟» قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ. فقال النبي ﷺ: «لَا حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[1]. فهذه أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها لا تطيق النوم، وترفض التعب الفطري الذي يأتي من كثرة الوقوف، ورأت أن هذا عوارض تمنعها من التحصيل، وهي في منافسة شديدة مع أكابر الصحابة والصحابيات في تحصيل الأجر والثواب؛ فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يختم القرآن يوميًّا[2]! ومثله عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما[3]، ومثلهما الكثير، وهذا يجاهد، وذاك يُنفق، وثالث يذكر، ورابع يتفكَّر.. منافسة صعبة عسيرة لا يقوى عليها إلَّا أصحاب الهمم، فإذا بأم المؤمنين تبتكر هذا الاختراع الذي يُبقيها في مضمار التسابق! فتُغالِب فطرتَها، وتتحدَّى آلامها، وتقتل رغبات النوم والراحة! ولكن رسول الله ﷺ يرفض هذه الصورة من المبالغة، ويُهَوِّن عليها الأمر، ويأمرها بالنوم!

والسؤال: ما الذي دفعها إلى هذه المصابرة العجيبة؟ إنه «الطمع» في الأجر الهائل المتحقِّق من قراءة كل حرف، ومن قول كل ذِكْرٍ، ومن التلفُّظ بكل دعاءٍ، ومن أداء كل حركة.. إن الصلاة من هذا المنظور ميدان هائل للعمل، وهي مزرعة ثريَّة لجني ثمار نفيسة؛ بل شديدة النفاسة.

---

(١) البخاري: أبواب التهجد، ما يكره من التشديد في العبادة، (١٠٩٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر مَنْ نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذِّكر بأن يرقد، (٧٨٤).

(٢) قال الترمذي: ورُوي عن عثمان بن عفان أنه كان يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها. انظر: سنن الترمذي، ٥/ ١٩٦ (٢٩٤٦)، وقال ابن حجر: وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم، فمنهم عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير. انظر: نتائج الأفكار ٣/ ١٥٨، وكانت امرأة عثمان بن عفان رضي الله عنه تقول عند حصاره وقتله: إن شئتم قتلتموه، وإن شئتم تركتموه! فإنه كان يختم القرآن كل ليلة في ركعة. انظر: ابن حبان: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ٢/ ٥١٩، والطبراني: المعجم الكبير (١٣١)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩/ ٩٤، وقال الذهبي: وصح من وجوه أن عثمان قرأ القرآن كله في ركعة. انظر: سير أعلام النبلاء (سير الخلفاء الراشدون) ص١٥٧.

(٣) قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو: «.. وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟». قال: كل ليلة... فقال له: «.. وَاقْرَإِ القُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ»... فما زال حتى قال: «فِي ثَلَاثٍ». فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ. البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، (٤٧٦٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمَنْ تضرَّر به أو فوَّت به حقًّا أو لم يُفطر، (١١٥٩).

ومثال آخر.. نحن في ركوعنا نقول: «سبحان ربي العظيم».. فهل نقولها وفي أذهاننا قول النبي ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»(١)؟ فهذا الذِّكْر الخفيف ثقيل في الميزان، وحبيبٌ إلى الرحمن، فكيف سيكون خشوعنا إذا استحضرنا هذا الأجر عند قول هذا الذِّكْر؟ وهل عندما نرفع من الركوع ونحمد الله ﷻ نُدرك أن «الحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ»(٢)؟ وإذا سبَّحنا وحمدنا هل نستوعب أن «سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»(٣)؟ هل نُدرك المسافة بين السماء والأرضِ؟! إن هذه المسافة الهائلة تُملأ بهذه الكلمات الخفيفة! تُرى ما حماستنا الآن للصلاة ونحن نعرف هذا الأجر، أو نستحضره عند صلاتنا؟! لا شكَّ أن الأمر مختلفٌ.

بل دعوني أُوَسِّع دائرة التفكُّر في عملية الصلاة لننظر إلى ما أعطانا الله ﷻ ونحن «نستعدُّ» للصلاة! إننا لم ندخل في الصلاة بعدُ، ولكنَّ عدَّاد الحسنات بدأ في العمل! والأحاديث في ذلك كثيرة وعجيبة، وسأحدِّثُكم عن تجربة شخصية لي مع هذه الأحاديث!

نحن -للأسف- قد لا نهتمُّ كثيرًا بالخشوع أثناء الوضوء، وقد يتكلَّم أحدنا مع مَنْ حوله في أي موضوع، وعادةً ما يشرد الذهن هنا وهناك، ونبدأ في التركيز في مسألة الخشوع عندما نبدأ في الصلاة.. وكنتُ على هذه الحالة فترة من الزمن! لكني بدأتُ في التفكُّر في «أجر» الوضوء، «فطمعْتُ» فيه! وصدِّقوني.. شتَّان بين خشوعي بعد أن استحضرتُ الأجر المتحقِّق من الوضوء وخشوعي قبل ذلك! ولْتُراجعوا معي حديثًا لرسول الله ﷺ غيَّرَ خشوعي تمامًا أثناء الوضوء.. قال رسول الله ﷺ: «.. مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْبِغُ- الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»(٤)! فصِرْتُ أتخيَّل دومًا أبوابَ الجنة الثمانية وهي تُفتح لي، وأنا أختار الباب الذي أدخل منه! وكنتُ أشعر أن الأجر مشروط بالخشوع في الوضوء،

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، (٦٠٤٣) عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٢٦٩٤).

(٢) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري ﷺ، والترمذي (٣٥١٧)، والنسائي (٢٢١٧)، وأحمد (١٨٣١٣).

(٣) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري ﷺ، والترمذي (٣٥١٧).

(٤) مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، (٢٣٤) عن عمر بن الخطاب ﷺ، والترمذي (٥٥)، وأبو داود (١٦٩)، والنسائي (١٤١)، وابن ماجه (٤٧٠)، وأحمد (١٢١)، والدارمي (٧١٦).

ومشروط كذلك بإحسان الوضوء، وكذلك بالدعاء بعد الوضوء كما ذكر رسول الله ﷺ، وهذا دفعني إلى حرصٍ شديد على كل هذا، وصرتُ «أستمتع» استمتاعًا حقيقيًا بالوضوء والدعاء! بل صار هذا الاستمتاع يقودني كثيرًا إلى الفرح إلى حدِّ الابتسام! كما أَصْبَحْتُ -على الناحية الأخرى- أُصاب بحالة من الندم والأسى إذا توضَّأْتُ يومًا ساهيًا شاردًا، أو إذا نسيتُ أن أقول الدعاء.

وفوق ذلك فإن هذا الإحساس المرهف جعلني لا أستثقل الوضوء أبدًا؛ فقد كنتُ -مثل كثير من الناس- أجد صعوبة في الوضوء في بعض الأماكن العامَّة أو المزدحمة، فأحاول المحافظة على الوضوء أطول فترة ممكنة؛ ولكن الآن صار الوضوء مُحَبَّبًا حتى لو كان في ظروف صعبة، وما أجمل أن تستحضر عند وضوئك الصعب هذا حديثَ رسولِ الله ﷺ الذي قال فيه: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**[1]»[2]. فيُصبح هذا الوضوء الصعب (على المكاره) بماء بارد، أو في مكان مزدحم، أو في مكان غير نظيف، أو وأنت في كامل لباسك الأنيق.. يُصبح كل ذلك ماحيًا للخطايا.. رافعًا للدرجات.. بل هو رباط في سبيل الله! ما أروع هذا! لا شَكَّ أننا سنكون في حالة خشوع عميق ونحن نتوضَّأ وفي أذهاننا هذا الأجر.

ولقد ازداد خشوعي أكثر وأكثر في الوضوء؛ ومن ثَمَّ في الصلاة، بعد أن قرأتُ حديثًا مهيبًا جليلًا لرسول الله ﷺ يُفَصِّلُ فيه في فضل كل جزء من أجزاء الوضوء! حيث قال الرسول الرحمة المهداة ﷺ -كما رَوى عمرو بن عبسة رضي الله عنه-: «.. **مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ؛ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ المَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى المِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ المَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ**

---

(١) فذلكم الرباط؛ أي: الرباط المرغَّب فيه، وأصل الرباط الحبس على الشيء، كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة، قيل: ويحتمل أنه أفضل الرباط، كما قيل: الجهاد جهاد النفس. ويحتمل أنه الرباط المتيسِّر الممكن؛ أي أنه من أنواع الرباط. النووي: المنهاج، ٣/ ١٤١.

(٢) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، (٢٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي (٥١)، والنسائي (١٣٩)، وابن ماجه (٤٢٧)، وأحمد (٧٩٨٢)، وابن حبان (١٠٣٨).

أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ المَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ المَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ للهِ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1]! قل لي بالله عليك: هل يمكن أن تتصوَّر هذه الحالة من خروج الخطايا من كل جزء من أجزاء الجسم أثناء الوضوء ثم لا تخشع فيه؟! وهل يمكن أن تُضَيِّع فرصة صلاة خاشعة بعد هذا الوضوء تخرج منها كيوم ولدتك أمُّك، بلا ذنب أو خطيئة؟!

دعوني أقول بلا مبالغة: إننا لو استوعبنا ذلك الأجر المُفَصَّل فإننا سنتوضَّأ دومًا، حتى لو لم يكن الوقت وقت صلاة! فإذا توضَّأنا في غير وقت الصلاة فلعلَّنا نتذكَّر بلال بن رباح ﷺ، والذي حدث معه موقف غريب عجيب؛ بل في غاية العجب! فقد أصبح رسول الله ﷺ يومًا فدعا بلالًا، ثم قال له: «يَا بِلَالُ؛ بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الجَنَّةِ؛ مَا دَخَلْتُ الجَنَّةَ قَطُّ إِلَّا سَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ[2] أَمَامِي...؟!» فقال بلال: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا أَذَّنْتُ قَطُّ إِلَّا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، وَمَا أَصَابَنِي حَدَثٌ قَطُّ إِلَّا تَوَضَّأْتُ عِنْدَهَا، وَرَأَيْتُ أَنَّ للهِ عَلَيَّ رَكْعَتَيْنِ. فقال رسول الله ﷺ: «بِهِمَا»[3]. ومعنى هذا الحديث أن رسول الله ﷺ يرى بلالًا ﷺ في الجنة كلَّما دخلها رسول الله ﷺ في منامه، ولقد قال ابن عباس ﷺ: «رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ»[4]. والشاهد من الموقف أن استحضار بلال ﷺ لأجر الوضوء جعله يتوضَّأ عند كلِّ حَدَث؛ أي عند كل غائط أو بول أو ريح أو نوم، أو غير ذلك من نواقض الوضوء حتى لو لم يكن وقت صلاة، ثم يُصَلِّي ركعتين؛ لأنه يستحي أن يكون متوضِّأ ثم لا يُصَلِّي، ثم هو يعلم أنه قد يخرج من صلاته كيوم ولدته أمُّه، فلا يُضَيِّع الفرصة؛ بل قد يُصَلِّي كثيرًا كثيرًا، وهذا ما ورد عنه في رواية أخرى؛ حيث قال ردًّا على استفهام رسول الله ﷺ: «مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةِ

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة، (٨٣٢) واللفظ له، والنسائي (١٧٧)، وأحمد (١٧٠٦٠)، والحاكم (٤٥٤).

(٢) الخشخشة: صوت الحركة أو المشي اليابس إذا حكَّ بعضه بعضًا. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ٣/ ٣٤، والنووي: المنهاج، ١٦/ ١١، والمباركفوري: تحفة الأحوذي، ١٠/ ١٢٠.

(٣) الترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٦٨٩) واللفظ له، وقال: حديث صحيح. وأحمد (٢٣٠٩٠)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره وهذا إسناد قوي. والحاكم (١١٧٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) الترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٦٨٩).

لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ»(١). وقد أقرَّ رسول الله ﷺ ما فعله بلال ﷺ؛ ومن ثَمَّ صار ذلك الفعل سُنَّة نبوية تقريرية، وهي ما تُعرف بركعتي سُنَّة الوضوء!

وهذه مجرَّد أمثلة، والدِّين كله يقوم على هذا المبدأ، فليس هناك عملُ برٍّ إلَّا وعليه أجر وثواب من الله تعالى، وكذلك ليس هناك عملُ شرٍّ إلَّا وعليه عقوبة إلَّا أن يعفو الله سبحانه.. قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة للغاية.

وقد يلحظ القارئ أن المصلِّي في درجة الطمع ينظر إلى صفات الرحمة عند الله ﷻ أكثر من نظره إلى صفات العقاب؛ لأنه يخشع في هذه الدرجة لهدف مُعَيَّن وهو تحقيق الثواب الأعلى، فهو «يطمع» في مكافآت وجوائز، ويرى أن كلَّ عملٍ يعمله يُساوي كذا وكذا من الحسنات، وقد لا يلتفت كثيرًا إلى أن الإهمال في أمور الصلاة يستوجب من الناحية الأخرى عقابًا وعذابًا، وهذه نقطة خطيرة؛ لأن العبد إذا استغرق في صفات الله الرحيمة كالعفو والكرم والحلم والستر والمنِّ، ونسي صفات العقاب كالقهر والعزة والأخذ والانتقام، فإن هذا الشعور يفتح له أحيانًا مجالَ التهاون في شأن العبادة، ويدفعه إلى استصغار الذنوب، وعدم الاكتراث بالترقِّي في سُلَّم الطاعات.. إنه يقول كثيرًا ما يقوله عامَّة المفرِّطين من أن الله غفور رحيم، وأن الله عفا عن جرائم أكثر مما نفعل بكثير، وقَبِلَ توبة عصاة تجاوزوا حدَّ الإسراف، وهكذا يفتح له الشيطان باب الثقة الوهمية، التي قد تُقْعِده عن العمل، وتقوده تدريجيًّا إلى الفتور والكسل.. فهذه نقطة في غاية الأهمية على المصلِّي الذي وصل إلى درجة الطمع أن ينتبه إليها، حتى لا يسحبه الشيطان إلى ما لا يُحْمَد عقباه من التقصير.

يتَّضح لنا بهذه الأمثلة أن فرصتنا في دخول درجة «الطمع» في هرم الخشوع أكبر إذا ازداد علمنا بثواب كل فعل أو كلمة في الصلاة؛ ومن هنا فعلينا أن ننشر هذه الثقافة المهمَّة.. ثقافة معرفة الفعل وأجره؛ لأن كثيرًا منَّا يذكر الفعل -خاصَّة عند تعليم الأطفال أو مَنْ لا يعرفون الصلاة- دون أن يذكر أجره المُفَصَّل؛ وذلك من قبيل الاختصار أو التسهيل، وهو لا يدري أنه بذلك ينزع رُوح الصلاة منها، ويُخالف سُنَّة الرسول ﷺ في التعليم، ويجعل الصلاة جافَّة

---

(١) البخاري: أبواب التهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل، (١٠٩٨)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل بلال ﷺ، (٢٤٥٨).

صعبة، وهذا كله يجعل الوصول إلى درجة الخشوع الحقيقي أمرًا عسيرًا؛ بل لعلَّه في هذه الظروف مستحيل، فلْيُحْذَرْ من ذلك، والله المستعان!

وفي النقطة نفسها ينبغي أن نُحَذِّر الدعاة والمربِّين من استخدام الأحاديث الموضوعة، أو المنكرة، أو شديدة الضعف في تحفيز الناس على أعمال الصلاة؛ ففي الصحيح غنًى -إن شاء الله- واختلاط الصحيح بالضعيف يُشَوِّه الأمر، ويضرُّ أكثر مما ينفع، والمسألة لا تحتاج أصلًا إلى مبالغات؛ لأن الأجر الذي ثبت عن رسول الله ﷺ هائل في الأساس، ولا يحتاج إلى تهويل أو تضخيم، فليحرص كلُّ مُرَغِّبٍ في الصلاة على التوثُّق من صحَّة الأحاديث التي ينقلها، فلا نُحدِث ضررًا من حيث نُريد النفع، والله الموفق.

وأخيرًا ينبغي أن نعلم أننا إذا عشنا في درجة «الطمع» فترة من الزمن، وواظبنا عليها في غالب صلواتنا، فإننا سنصعد تلقائيًا -بإذن الله تعالى- إلى الدرجة التي فوقها في هرم الخشوع، وهي الدرجة الأروع: درجة «الوجل»!

الدرجة الثالثة: الوجل:

هذه حالة قلبية يضطرب فيها القلب ويقلق! ويشعر فيها بخوف يقوده إلى عدم استقرار؛ بل إلى حالة من الألم! وقد يستغرب القارئ من وصول المُصَلِّي إلى هذه الحالة غير المستقرَّة؛ بينما نحن نتحدَّث عن درجة عالية في الهرم! فالمُصَلِّي في الدرجة الأولى أو الثانية لا يجد في قلبه هذا الوجل أو الألم، وكنا نتصوَّر أن المُصَلِّي كلَّما ارتقى ازداد اطمئنانًا؛ لكن واقع الأمر أن هذا الوجل الذي يشعر به المُصَلِّي في هذه الدرجة مردُّه إلى أمرين اثنين..

أمَّا **الأمر الأول** فهو استشعار المُصَلِّي أنه يقف بين يدي ربِّ العالمين، وهو شعور يدفع إلى الرهبة لا محالة، وهو لا يصل إلى هذا الشعور إلَّا إذا مرَّ بالدرجتين السابقتين من الهرم؛ لأنه إذا كان لاهيًا عن فهم معاني الآيات والأذكار، أو كان غير طامع فيما عند الله ﷻ، ولا راغبًا في نعيمه، ولا خائفًا من بطشه، فإنه لا شَكَّ غير مُقَدِّر لمقامه بين يدي الجليل الذي يملك السموات والأرض، ويملك الدنيا والآخرة. ومن هنا فالقراءة الواعية للقرآن، والمتفاعلة معه، تقود تلقائيًا إلى هذه الدرجة من «الوجل»، وكلَّما ازداد المصلِّي فهمًا وتفاعلًا زادت درجة الوجل، وهذا علامة على الإيمان، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

وأمَّا **الأمر الثاني** الذي يدفع إلى الوجل هو شعور المُصَلِّي أن أعماله لا ترقى إلى أعمال المؤمنين الذين يقرأ عنهم في القرآن الكريم؛ فإخلاصه ليس كإخلاصهم، وإيمانه ليس كإيمانهم، وإنفاقه ليس كإنفاقهم، وهكذا.. إنه يَتَّهم نفسه دومًا، ويشعر أن ما قدَّمه قليلًا وزهيدًا، وأن هذا القليل لن يُنجيه؛ بل قد لا يُقْبَل أصلًا من الله تعالى! وهذه الحالة النفسية تُصيبه بالوجل والاضطراب والقلق، وهي ما جاءت في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. ولقد أكَّد رسول الله ﷺ هذا المعنى عندما سألته أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن معنى هذه الآية، فقد قالت: سَأَلْتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾. قالت عائشة: أَهُمُ الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ»[1]. فهي درجة -وإن كانت مؤلمة- فإنها محمودة.

والخشوع في هذه الدرجة خشوع «قهري» لا يملك المُصَلِّي أن يدفعه، ولا يستطيع في صلاته أن ينصرف بذهنه بعيدًا عن الصلاة حتى لو أراد! وهذه حالة مختلفة -لا شَكَّ- عن حالة المُصَلِّي في الدرجتين السابقتين من هرم الخشوع؛ فالمُصَلِّي في درجة «الوعي» يُجاهد نفسه ليظلَّ مربوطًا بحبل القرآن، «واعيًا» لما يقرأ، وهو في درجة «الطمع» يتمسَّك بالخشوع «طمعًا» في أجرٍ أكبر، وثوابٍ أعظم، وحاله -كما مرَّ بنا- شبيه بحال العامل الذي يعمل في مزرعة، وهو يأخذ أجرًا على عمله، وكلَّما أتقن عملَه زاد أجره؛ ومن ثَمَّ فهو حريصٌ على زيادة الإتقان؛ أي زيادة الخشوع، ليزيد أجره، أمَّا هنا في درجة «الوجل» فالمُصَلِّي حاله مختلف تمامًا، فحاله كحال المتَّهم الذي يقف في قضية كبرى أمام قاضٍ عظيم! فهو يشعر بموقفه الخطير، خاصَّة إن كان يُدرك أنه مخطئ فعلًا، وأنه مستحقٌّ للعقاب، ولكن من المحتمل أن يُقَدِّر القاضي موقفَه ويعذره، وبالتالي قد يُخَفِّف الحكم الصادر عليه، أو قد يعفو عنه بالكلية! فالمتهم هنا متعلِّقٌ تمام التعلُّق بالقاضي، ولا يستطيع ذهنه أن ينصرف عنه، وهو لا يشعر بالناس حوله، ولا بالحوادث والعوارض.. إنه مشغول تمام الانشغال بمسألته الخطيرة،

---

(١) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون (٣١٧٥)، واللفظ له، وابن ماجه (٤١٩٨)، وأحمد (٢٥٣٠٢)، والحاكم (٣٤٨٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (١٦٢).

ومستقبلُه يعتمد على هذه الدقائق القادمة، فكيف يشرد بذهنه؟! وكذلك المُصَلِّي في هذه الدرجة يتعلَّق قلبه تمام التعلُّق بربِّه ﷻ الذي سيحكم في قضيته الخطيرة جدًّا، والعفو هنا يعني جنة، والعقاب يعني نارًا، فكيف يلتفت أو يشرد؟! إنه وَجِلٌ تمام الوجل، ومضطربٌ تمام الاضطراب.. وأمنيته القصوى هنا ليست رفع الدرجات، أو تكثير الحسنات، إنما هي باختصار العفو والقبول!

وقد ذكرنا في درجة «الطمع» أن المُصَلِّي يُغَلِّب صفات الله الرحيمة على صفاته الشديدة؛ ومن ثَمَّ قد يدخل في دائرة «عدم الاكتراث» بالتقصير أو النقص في العبادة؛ لكنه إذا استمرَّ في درجة «الطمع» ثابتًا، ولم يتراجع عنها، فإنه يتعرَّف على الله بشكل أكبر، خاصَّة مع دوام الخشوع والتركيز؛ ومن ثَمَّ يبدأ في الالتفات إلى صفاته الأخرى المُخَوِّفة؛ كالبطش والأخذ والقهر، وهنا يبدأ رحلة التوازن المحمودة.. لقد كان سابقًا يقرأ فقط قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، «فيطمع» في عفو الله تعالى ومغفرته حتى مع التقصير الكبير للعبد، ولا يلتفت المُصَلِّي في درجة «الطمع» إلى الآية التالية لهذه الآية المُرَجِّية في الله؛ لكنه الآن في درجة «الوجل» يلتفت -وبقوة- إلى الآية الثانية بعد الآية السابقة، فيجد فيها: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]، فهنا يحدث له الوجل والاضطراب؛ لأنه لا يدري ما يُفعل به، فإن كان الله ﷻ سيُبرِز صفات رحمته مع فريق من البشر، فإنه في الوقت نفسه سيُبرِز صفات بطشه مع فريق آخر، وإلَّا فلا معنى لوجود النار.

فإذا فَقِهنا هذه الحقيقة انتبهنا إلى أن القرآن الكريم يحوي الكثير من الآيات التي تجمع في سياقها بين الرحمة والعذاب، وبين الثواب والعقاب؛ وذلك مثل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، ومثل: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، ومثل: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، [المائدة: ١٨]، [الفتح: ١٤]، ومثل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وهكذا.. كما أنه مُلِيء كذلك بالتحذير المباشر من الله ﷻ، فنجد فيه مثلًا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ونجد: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، ونجد: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧]، ونجد: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وغير ذلك مما يصعب حصره؛ بل عندها سنلتفت إلى

ملاحظات مهمَّة في القرآن الكريم؛ منها على سبيل المثال ما يقوله بعض الصحابة والعلماء[1] من أن أرجى آية في القرآن هي آية سورة الزمر، التي فتح فيها الله تعالى الباب على مصراعيه لكلِّ التائبين من أي ذنب كان؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهو هنا لم يُحَدِّد نوع الإسراف؛ فشمل ذلك الصغائر والكبائر، وشمل ذلك القديم والحديث، بل شمل ذلك الشرك بالله إذا تاب العبد منه، ورجع إلى الله بعقيدة سليمة.. فهذه أرجى آية في القرآن الكريم، بمعنى أنها أكثر آية حفَّزت البشر على الرجاء في الله الرحيم سبحانه، وكنا في درجة «الطمع» ننظر إلى هذه الآية وكأنها نزلت بمفردها ليس معها آيات تُوازِنها! أمَّا الآن ونحن في درجة «الوجل» فإننا ننظر إلى الصورة كاملة، فننتبه إلى الآيات التالية التي تُوَضِّح معنًى إضافيًّا مهمًّا للغاية! إننا فوجئنا أن أرجى آية في القرآن الكريم متبوعة بسبع آيات كلها تُحَذِّر من عواقب قراءة آية المغفرة والرجاء منفصلةً عن السياق القرآني المتوازن! إننا وجدنا سبع آيات من الآيات القوارع التي تُزلزل كيان أيِّ متهاونٍ في حقِّ الله ﷻ.. قال تعالى بعد أرجى آية: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ۞ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۞ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۞ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۞ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٦٠]..

إن المُصَلِّي في درجة «الوجل» لا يثق كثيرًا في عمله، فيرى نفسه مستحقًّا لكلِّ ألوان العقاب التي قرأها في هذه الآيات القوارع، وهذا يقوده دون أن يشعر إلى النسيان النسبي لآية الرجاء، والتركيز الشديد في آيات العذاب! ومن ثَمَّ يشعر «بالوجل»! والحقُّ أنني أرى أن المُصَلِّي في هذه الدرجة الثالثة -وهي درجة «الوجل»- أكثر أمانًا، وأقرب إلى النجاة منه وهو

---

(١) من هؤلاء علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو ﭫ. قال ابن مسعود ﭬ: أرجى آية في كتاب الله هذه الآية. وهكذا قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﭭ. انظر: السمرقندي: بحر العلوم، ٣/ ١٩١. وقال علي بن أبي طالب ﭬ: ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية... وقال عبد الله بن عمر ﭭ: وهذه أرجى آية في القرآن. انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٢٦٩.

في الدرجة الثانية، وهي درجة «الطمع»؛ لأن هذا الشعور بالقلق والخوف سيدفعه دومًا إلى العمل، وسيضطره إلى الإتقان والتحسين، وسيقوده إلى التوبة من ذنوبه باستمرار؛ لذلك جَعَلْتُ في هرم الخشوع درجةَ «الوجل» أعلى من درجة «الطمع»؛ فهي مرحلة متطوِّرة في الإيمان، يكون صاحبها قد «ارتقى» إليها بعد فترة من الزمن عاشها في درجة «الطمع».

وقد يلفت النظر أن أهل هذه الدرجة مُعَرَّضون لليأس من رحمة الله ﷻ، أو القنوط من النجاة من عذاب الله، ولكن هذا في رأيي قليل للغاية! فالإنسان مجبول على تغليب صفات الرحمة الإلهية على صفات العذاب والبطش، ونحن في غالب الأحوال نخاف على أنفسنا -وعلى الناس- من الإهمال نتيجة «الطمع» أكثر من الإحباط نتيجة «الوجل»؛ ومن ثَمَّ فإن العبد لو دخل في يأس أو إحباط فإن هذا غالبًا يكون بشكل مؤقَّت، ولا يمكث فيه المؤمن فترة طويلة.. إنني أقول هذا الكلام لأنني أرى أنه علينا أن ندفع أنفسنا بقوَّة من درجة «الطمع» الهادئة إلى درجة «الوجل» المضطربة! إن هذا الكلام قد لا يُعجب الناس! فالناس تسعى إلى الراحة، والنفس تكره ما يُؤذيها، لكن صدِّقُوني.. ليس هناك مخاض بلا ألم، وليس هناك نعيم بلا تعب، ومَنْ سعى إلى الراحة في الدنيا فقد يشقى في الآخرة! ولئن «تَوْجَل» الآن وتسعد غدًا أفضل من أن تسعد الآن وتَوْجَل غدًا! ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]! وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: **«وَعِزَّتِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[1]. وعليه فإنه علينا أن نبحث عن أقوى الطرق لدفعنا «مختارين» إلى درجة «الوجل»!

وأنا أرى أن أفضل وسيلة للترقِّي إلى هذا المستوى، ودخول درجة «الوجل» هي استحضار الذنوب التي ارتكبها العبد خلال سنوات عمره المختلفة؛ فعند رؤية هذه الجبال من السيئات فإن القلب «يوجل» لا محالة، ويُصبح همُّنا في الصلاة أن يَقْبَل اللهُ ﷻ معذرتنا، ويعفو عنا، ولو زاد على ذلك أن أدخلنا الجنة فهذا كرمٌ ما بعده كرم! وهذا الشعور مختلف بطبيعة الحال عن شعورنا في درجة «الطمع»؛ حيث كنَّا «على يقين» -وهمًا- أننا من أهل

---

(١) ابن حبان (٦٤٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وقال الألباني: حسن صحيح. انظر: التعليقات الحسان ٢/ ٩٥.

الجنة! ونحاول فقط الترقِّي والصعود في الدرجات، وهذا وهم خطير، فبعض الذنوب تطيش تمامًا بكفَّة الحسنات! إننا سنُدرك عند استحضار ذنوبنا الكثيرة قيمة الآية القرآنية التي تُحدِّد معنى الفوز الحقيقي، الذي يمكن أن يُحقِّقه الإنسان؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فمجرَّدُ الزحزحةِ عن النار ودخول الجنة فَوْزٌ، دون النظر هنا إلى الدرجة في الجنة، فكلُّ أهل الجنة سعيد بلا تعاسة؛ لكن المشكلة التي لا تخطر على بال «الطامعين» أنهم قد لا يكونون -بسبب ذنوبهم- من أهل الجنة أصلًا! فالذي يُدرك ذلك «يوجل»، وأيُّ وَجَل!

فلتعقد لنفسك -أخي- جلسات محاسبة دقيقة قبل أن تُعْقَد لك! ولتتدبَّر قول الفاروق عمر ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم، وتزيَّنوا ليوم العرض الأكبر»[1]. ولنراجع قصة حياتنا.. ماذا ارتكبنا في فترة شبابنا الأولى؟ إننا محاسبون منذ البلوغ.. ماذا عملنا في العام الماضي، والذي قبله، ومنذ عشر سنين؟ كيف كانت علاقتنا بآبائنا وأمهاتنا ورَحِمِنا وجيراننا وأصدقائنا، وبمَنْ نعرف ومَنْ لا نعرف؟ ماذا عملت عيوننا وآذاننا؟ ماذا أكلنا في بطوننا؟ وماذا اقترفت أيدينا؟

وهنا نقطة مهمَّة لا بُدَّ أن ننتبه إليها! هل حالنا أمام الناس كحالنا ونحن في خلواتنا؟ إن كنا لا نُدرك خطورة ذلك فلنرجع إلى تحذير رسول الله ﷺ لنا جميعًا حين قال -كما روى ثوبان ﷺ-: «لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا». قال ثوبان: يا رسول الله؛ صِفْهُمْ لنا، جَلِّهِمْ لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»[2]. ولاحظ هنا أن هؤلاء الذين يصفهم رسول الله ﷺ «يَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ» كما يأخذ الصحابة! أي إنهم لا يكتفون بأداء الفرائض؛ بل يقومون الليل كذلك! وهذا ما يخلع قلوب العارفين، فيدخلون في درجة «الوجل» خشية أن يكونوا من

(١) ذكره الترمذي في سننه (٢٤٥٩)، وابن المبارك: الزهد ص١٠٣ (٣٠٦)، وابن أبي شيبة: المصنف، ٧/ ٩٦ (٣٤٤٥٩)، وأحمد بن حنبل: الزهد، ص٩٩ (٦٣٣)، وابن أبي الدنيا: محاسبة النفس ص٢٢، وابن الجوزي: صفة الصفوة، ١/ ٢٨٦.

(٢) ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب. (٤٢٤٥)، والطبراني: المعجم الأوسط، (٤٦٣٢)، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. انظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ٤/ ٢٤٦، وقال المنذري: رواه ابن ماجه ورواته ثقات. انظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ١٧٠، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٥٠٥).

هؤلاء، وتُصبح عندها صلاتهم وقيامهم وعبادتهم هباءً منثورًا!

وألْسِنَتنا! هل نذكر ما قالته ألسنتنا على مرِّ الأيام والسنوات؟! فلقد روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ»[1]. وسأل معاذ بن جبل ﷺ رسول الله ﷺ فقال له: يا نَبيَّ الله؛ وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلَّم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»[2] فكم كلمة قلناها لا ندري ما فعلت بنا؟!

وأشنع من كل ذلك ما حكاه لنا رسول الله ﷺ واصفًا حال أول الذين تُسَعَّر بهم جهنم! إنهم ليسوا سفكة الدماء، أو آكلي الربا، أو مرتكبي الزنا؛ بل هم علماء قارئون لكتاب الله تعالى مجاهدون متصدِّقون!! اسمع إلى الوصف الذي يشيب له الولدان! فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[3]! إننا لو تدبَّرنا في هذا الموقف

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، (٦١١٢)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار... (٢٩٨٨). وفي رواية: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ». الترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس (٢٣١٤)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٣٩٧٠)، وأحمد (٧٢١٤)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح وهذا إسناد حسن. وابن حبان (٥٧٠٦)، والحاكم (٨٧٦٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢١٢١)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح. والحاكم (٣٥٤٨)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

(٣) مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحقَّ النار، (١٩٠٥)، والنسائي (٤٣٤٥)، وأحمد (٨٢٦٠)، والحاكم (٣٦٤).

ما طابت لنا حياة! ولصار «الوَجَلُ» شعار حياتنا! فمَنْ منَّا يستطيع أن يجزم أنه يعمل مخلصًا لله تمامًا، دون أن يكون للناس نصيب في عمله؟! إن النية تتقلَّب علينا كثيرًا؛ ومن ثَمَّ فقد تكون هناك أعمالُ خيرٍ كثيرة عملناها لكنها لم تكن لله ﷻ؛ إنما كانت فقط ليقول الناس عنَّا كذا أو كذا! فهذه الأعمال لم تَضِعْ فقط، ولكنها صارت من مؤهلات دخول جهنم! لأن العبد استهان بالله ﷻ؛ بينما اعتبر بعباده وخلقه! إن القضية خطيرة للغاية، ومراجعة ذنوبنا -أو ما «نشكُّ» في أنها ذنوب- سيقودنا -بإذن الله- إلى الدخول في درجة «الوجل»، وهي وإن كانت درجة مؤلمة فإنها مفيدة للعبد، ودافعة للخيرات، فيجب علينا أن نحرص على دخولها، بل والاستفادة القصوى منها، والله المستعان.

ولعلَّنا هنا نفهم لماذا حرص رسول الله ﷺ على تعليمنا تذكُّر الذنوب في كل مرحلة من مراحل الصلاة، وتذكُّر الاستغفار منها، وبشكل لافت للنظر جدًّا، حتى يُصبح الأمر وكأنه هو القضية الوحيدة التي ينشغل بها المُصَلِّي في صلاته، وسنمرُّ في صفحات الكتاب المختلفة على مثل هذه الأدعية والأذكار، ولكن لنأخذ هنا عدَّة أمثلة تُقَرِّب الصورة..

في دعاء الاستفتاح -وهو أول ما نقوله بعد تكبيرة الإحرام- علَّمنا رسول الله ﷺ أن نقول: **«اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ[(١)]»**[(٢)]. فهكذا من أول الصلاة ونحن نتذكَّر ذنوبنا، ونتوب منها.

وفي الرفع من الركوع كان يقول أحيانًا دعاءً مشابهًا لدعاء الاستفتاح، فيقول: **«اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي بِالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ»**[(٣)].

---

(١) ذكر الثلج والبرد تأكيدًا، أو لأنهما ماءان لم تمسهما الأيدي ولم يمتهنهما الاستعمال، وقيل: عبَّر بذلك عن غاية المحو؛ فإن الثوب الذي يتكرَّر عليه ثلاثة أشياء منقية يكون في غاية النقاء. ويُحتمل أن يكون المراد أنَّ كل واحد من هذه الأشياء مجاز عن صفة يقع بها المحو وكأنه كقوله تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود، ٢/ ٣٤٤.

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما يقول بعد التكبير، (٧١١) عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، (٥٩٨).

(٣) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، (٤٧٦) عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ، وأحمد (١٩١٤١)، وابن حبان (٩٥٦).

وكان أحيانًا يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»(١).

وكان يقول في الجلسة التي بين السجدتين: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي»(٢).

ولَمَّا جاءه أبو بكرٍ الصديق ﷺ يطلب منه أن يُعَلِّمه دعاءً يدعو به في صلاته، قال له: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(٣). ورجَّح بعض العلماء أن هذا الدعاء يُدعى به بعد التشهد(٤)، ورجَّح آخرون أنه عام في السجود وبعد التشهد(٥).

أمَّا السجود فميدان فسيح للدعاء، والدعاء فيه متنوِّع، ولكن يأتي في مقدمته الدعاء بالمغفرة من الذنوب.. وعلى سبيل المثال كان من أدعيته ﷺ في سجوده: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»(٦).

وليس في الصلاة فقط، بل قبلها! فقد كان رسول الله ﷺ يقول بعد وضوئه: «اللَّهُمَّ

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء في الركوع، (٧٦١) عن عائشة ﵂، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٤).

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٤) عن حذيفة اليمان ﷺ، والنسائي (٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٤٢٣)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٤/ ٢٨.

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، (٧٩٩)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، (٢٧٠٥).

(٤) قال ابن الجوزي: وَهَذَا الدُّعَاء مِمَّا يسْتَحبُّ أَن يُدْعَى بِهِ فِي الصَّلَاة قبل التَّسْلِيم. انظر: ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ١٣، وقال الملا الهروي: عَقِبَ التَّشَهُّدِ كَمَا قَيَّدَهُ بَعْضُ عُلَمَائِنَا. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢/ ٧٥٣. وقال العيني: ظاهر الحديث عموم جميع الصلاة، ولكن المراد بعد التشهد الأخير قبل السلام. انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٦/ ١١٩، ورجَّحه ابن دقيق العيد، انظر: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ص٢٠٨.

(٥) قال ابن دقيق العيد: هذا الحديث يقضي الأمر بهذا الدعاء في الصلاة من غير تعيين لمحله ولو فعل فيها -حيث لا يُكره الدعاء في أي الأماكن كان- لجاز ولعلَّ الأولى: أن يكون في أحد موطنين: إما السجود وإما بعد التشهد؛ فإنهما الموضعان اللذان أُمِرْنَا فيهما بالدعاء، قال عليه الصلاة والسلام: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ». وقال في التشهد: «وليَتَخَيَّرْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ مَا شَاءَ». ولعلَّه يترجَّح كونه فيما بعد التشهد: لظهور العناية بتعليم دعاء مخصوص في هذا المحل. ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ص٢٠٨، وقال الفاكهي: الأولى الجمع بينهما في المحلين المذكورين. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٣٢٠.

(٦) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٣) عن أبي هريرة ﷺ، وأبو داود (٨٧٨)، وابن حبان (١٩٣١)، والحاكم (٩٦٩).

اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»[(١)].

وكذلك بعد التسليمة الثانية، والخروج من الصلاة، يكون أول أعماله أن يستغفر الله ﷻ، فقد قال ثَوْبَان ﷺ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا..»[(٢)].

وكان يبدأ صلاة الليل بدعاء طويل، ثم يختم هذا الدعاء بالاستغفار فيقول: «.. فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[(٣)].

فكما نلاحظ فالشغل الشاغل له ﷺ في كل أعمال الصلاة -وكذلك قبلها وبعدها- هو الاستغفار من الذنوب، والإنابة إلى الله ﷻ، وكلُّ هذا ليُعَلِّمنا الأسلوب المؤدِّي إلى «الوجل»، وبالتالي الخشوع الحقيقي غير المتكلَّف.

وهناك ملاحظة في غاية اللطف! وهو أنه أحيانًا يقود أحدُ الذنوب الكبرى العبدَ إلى التوبة النصوح، وإلى الالتجاء الخاشع لله ﷻ لكي يقبل التوبة؛ ومن ثَمَّ ينتقل المُصَلِّي من صلاة غير خاشعة إلى الدرجة الثالثة مباشرة في هرم الخشوع، وهي درجة «الوجل»، ويكون السبب هنا ذنبًا أو خطيئة! ولهذا قال ابن عطاء السكندري[(٤)]: «معصيةٌ أورثت ذلًّا وافتقارًا خيرٌ من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا! »[(٥)]. وهو هنا لا يقصد أن المعاصي مفيدة، وأن الطاعات مضرَّة، ولكنه يُرَغِّب العاصين في الإنابة إلى الله تعالى، ويُحَذِّر الطائعين من التكبُّر بطاعاتهم على العصاة، أو الظنِّ أنهم يدخلون الجنة بأعمالهم لا برحمة الله ﷻ! وكأنني أتخيَّل أنه لو كان الشيطان يعلم أن هذه هي الخاتمة للمعصية ما دفع إليها العبد! ولكن هذا تقدير اللطيف الخبير سبحانه.. ومثل هذه الاستثناءات لا

---

(١) الترمذي: أبواب الطهارة، باب فيما يقال بعد الوضوء، (٥٥) عن عمر بن الخطاب ﷺ، والبيهقي: السنن الكبرى، (٣٧٥)، والطبراني: المعجم الأوسط، (٤٨٩٥)، وحسنه ابن عساكر، انظر: معجم الشيوخ، ٢/ ١٠٤٨، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٦١٦٧).

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفة، (٥٩١)، والترمذي (٣٠٠)، وأبو داود (١٥١٣)، والنسائي (١٢٦٠)، وابن ماجه (٩٢٨)، وأحمد (٢٢٤١٩)، والدارمي (١٣٤٨).

(٣) البخاري: أبواب التهجد، باب التهجد بالليل وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، (١٠٦٩) عن عبد الله بن عباس ﷺ، والنسائي (٧٧٠٥)، وابن ماجه (١٣٥٥)، وأحمد (٣٣٦٨).

(٤) هو: تاج الدين ابن عطاء الله أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الكريم الإسكندراني، الإمام المتكلم على طريقة الشاذلي، كان جامعًا لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه مالكي، وصحب في التصوُّف الشيخ أبا العباس المرسي -وكان أعجوبة زمانه فيه- وله الكلمات البديعة دوَّنها أصحابه في كتب جمعوها من كلامه، ومن تصانيفه: التنوير في إسقاط التدبير، ومختصر تهذيب المدونة للبرادعي في الفقه، توفي بالقاهرة سنة (٧٠٩هـ=١٣٠٩م). السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/ ٥٢٤.

(٥) ابن عطاء السكندري: حكم ابن عطاء الله السكندري، ص١٤١.

تُلغي القاعدة الأصيلة؛ وهي التدرُّج في درجات الهرم، ولكن الله ﷻ أوجدها ليجعل الباب مفتوحًا دائمًا للعصاة كي يعودوا إليه، ويقترَبُوا منه.

أيضًا ينبغي أن نلاحظ أن المُصَلِّي الذي يَصِل إلى هذه الحالة الشعورية الوَجِلَة بشكل عابر غير متكرِّر؛ وذلك لارتكابه ذنبًا ما -كما مرَّ بنا- جعله على وجل، أو لسماعه درسًا أو موعظة أثَّرت فيه، أو لمعايشته لحدث كبير؛ كموت صديق، أو مرض حبيب، قد يترك هذه الدرجة بسرعة، ويعود إلى مستواه الأول، فهذا الوجود العابر في هذه الدرجة لا يُعتبر بهذه الصورة وصولًا إلى الدرجة الثالثة من هرم الخشوع؛ إنما الوصول الحقيقي يعني الثبات، وهو أن تكون غالب صلاته على هذا الوصف الذي شرحناه؛ ودليل ذلك أن كثيرًا من الناس يشعر بهذا الوجل والاضطراب مرَّة أو مرَّات يذكرها، ومع ذلك فصلاته لا تتسم بالخشوع، وأعماله لا يغلب عليها المراقبة لله ﷻ؛ فهذا عليه أن يبدأ الصعود من أول الهرم بشكل منتظم ورصين، وإلَّا فقد يضلُّ الطريق بالكلية!

وأخيرًا -في أحيان نادرة، ولكنها موجودة- قد يصل إلى هذه الدرجة من الخشوع إنسان غيرُ مسلم أصلًا! وذلك من وَقْع الآيات القرآنية التي سمعها، وشدَّة انبهاره بها؛ خاصَّة إذا تدبَّر في معانيها، وفَقِهَ مرادها، وهذا ما حدث مثلًا مع جبير بن مطعم ﷺ قبل أن يُسْلِم، مع أنه كان يسمع القرآن للمرَّة الأولى تقريبًا! فقد قال: «سمعتُ النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطُّور، فلمَّا بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، كاد قلبي أن يطير»[١]. وفي رواية: «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»[٢]. وهو في هذه الحالة إمَّا أن يلتقط الفرصة ويتقرَّب من الله ﷻ، ويصير عبدًا خاشعًا (مثلما فعل جبير بن مطعم ﷺ)، وإمَّا أن تضيع عليه الفرصة، ويرجع إلى دركات الكفر غير عابئ بما سمع من آيات أوصلته إلى هذه الدرجة العالية من الخشوع! ولعلَّ مراجعة موقف عتبة بن ربيعة [٣] القائد القرشي المشرك عند سماعه صدر سورة «فُصِّلت» يُفَسِّر لنا هذا الموقف؛ فقد انبهر الرجل انبهارًا كاملًا، وخشع خشوعًا لا

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، سورة والطور، (٤٥٧٣).

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا، (٣٧٩٨).

(٣) هو: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف من حكماء قريش، وكان سببًا في إنهاء حرب الفجار، لكنَّه اتَّبع هواه ولم يُسْلِم، وكان ممن آذى النبي ﷺ وأصحابه إيذاءً شديدًا، وضرب أبا بكر يومًا ضربًا شديدًا، حتى إن بني تيم (قبيلة أبي بكر) قالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة. قُتل كافرًا في بدر ومعه ابنه الوليد، وأخوه شيبة. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٣٨/ ٢٣٨-٢٦١.

يصل إليه كثير من المؤمنين! ووضع يده على فم رسول الله ﷺ يُناشده أن يكفَّ عن القراءة «وَجَلًا» من نزول العذاب الذي نزل على عادٍ وثمود[1]! مما يعني أنه موقِن بصدق الآيات، لكنه ما لبث أن انتكس، ونسي خشوعه المؤقَّت، وعاد إلى حالته الكفرية الأولى، ونسأل الله العافية.

الدرجة الرابعة: الخشية:

وهي تطوُّر تلقائي لدرجة الوجل؛ وسببها زيادة المعرفة بالله ﷻ، وقد أشار السعدي ﷺ في تفسيره إلى هذا المعنى فقال: «فالخوف يمنع العبد عن محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله»[2]. وفي القرآن الكريم نجد قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فينسب الخشية للعلماء؛ لأنهم هم الذين يعرفون الله حقَّ المعرفة.

وأهمُّ ما يُمَيِّز هذه الدرجة هو ظهور آثار خارجية على الجسم تُعَبِّر عن حالة القلب الخاشع، فهو ليس اضطرابًا في القلب لا يشعر به إلَّا المُصَلِّي، ولكنه خشية شاملة لا يستطيع المُصَلِّي أن يُخفيها؛ فتظهر لها علامات بارزة تدلُّ على شدَّة الخشية؛ من هذه العلامات على سبيل المثال قشعريرة تُصيب الجلد حتى يقف شعر الإنسان! وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]، ولاحظ هنا أن الله ﷻ جعل هذه القشعريرة في حقِّ الذين ﴿يَخْشَوْنَ﴾ ربهم.

ومنها انهمار الدموع من العيون كما وصف الله ﷻ في كتابه؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. وكما جاء في قوله ﷻ: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

---

(١) راجع القصة كاملة: ابن كثير: السيرة النبوية، ١/ ٥٠٢، والأصبهاني: دلائل النبوة، ص٢٢١، وصححه الألباني، انظر: صحيح السيرة النبوية، ص١٦١، وابن أبي شيبة: المصنف ١٤/ ٢٩٦، وفي مسند أبي يعلى ٣/ ٣٤٩، وابن إسحاق: السيرة النبوية، ١/ ٧٢.

(٢) السعدي: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ص٣٦١، ٣٦٢.

بل قد يسقط المصلِّي مغشيًّا عليه من شدَّة الخشية! وهو ما رُوِيَ عن عمر بن الخطاب ﷺ عندما سمع قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨](١).

ودرجة الخشية هذه درجة عظيمة مدحها ربنا ﷻ في كتابه كثيرًا؛ فقال على سبيل المثال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]. ولقد بَشَّرنا رسول الله ﷺ -فيما رواه ابن عباس ﷺ- فقال: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ»(٢).

وقد ذكرنا في درجة «الوَجَلِ» أن المصلِّي يرتقي تدريجيًّا من درجة «الطمع» -التي كان يُغَلَّبُ فيها صفات الرحمة الإلهية على صفات العقاب والقهر- إلى المستوى الذي يتوازن فيه نسبيًّا، فيبدأ في الالتفات إلى صفات البطش والقهر، ويستحضر ذنوبه؛ «فيوجل» لذلك ويضطرب، وهنا في درجة «الخشية» يزيد هذا الأمر حتى يُؤَثِّر على كل الجوارح؛ فيرتعد الجسم، وتفيض العين، وينتفض القلب.. لقد غلب على القلب هنا جانب الخوف على جانب الرجاء، فصار الهلع أكبر، وذَهَل الإنسان عن متاع الدنيا؛ لهذا فإن درجة «الخشية» لا تخصُّ وقت الصلاة فقط، إنما هي حالة عامَّة يعيش فيها المؤمن المرتقي إلى هذه الدرجة الرفيعة، وتكون أشدَّ ما تكون أثناء الصلاة، وكذلك أثناء أوقات الخلوة بالله ﷻ؛ سواء في دعاء، أو في قراءة قرآن، أو في ذِكْر، أو في تفكُّر، وهي إحدى الحالات العظيمة التي يُكافئنا فيها ربنا بالنعيم بظلِّه يوم القيامة! قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ...». وذكر منهم:.. «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(٣). فهذا رجل كان «يخشى» الله في الدنيا، فهو «آمِنٌ» يوم القيامة.

ولكون هذه الدرجة عظيمة للغاية فإن رسول الله ﷺ كان حريصًا على ترغيب الصحابة

---

(١) انظر القصة عند: ابن كثير: مسند الفاروق ٢/ ٦٠٧، وتفسير القرآن العظيم، ٧/ ٤٣٠، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٠٨، والسيوطي: الدر المنثور، ٧/ ٦٣١، وضعفه السقاف، انظر: تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن ص٤١٧.

(٢) الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، (١٦٣٩) واللفظ له، وقال: حديث حسن. وأحمد (١٧٢٥٢)، وأبو يعلى (٤٣٤٦)، والحاكم (٢٤٣٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى... ورجال أبي يعلى ثقات. انظر: مجمع الزوائد، ٥/ ٥٢٣.

(٣) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب مَنْ جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، (٦٢٩) عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

ﷺ فيها، وحرص كذلك على أن يُعَلِّمهم كيفية الوصول إليها؛ فقال لهم يومًا: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ؛ أَطَّتِ السَّمَاءُ[1] وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ، وَاللهِ! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ[2] لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ»[3]. إن هذه هي الحالة الشعورية التي كان يتمنَّاها رسول الله ﷺ للمؤمنين؛ لأنه كان يعلم حقيقة الدنيا الزائفة، ويعلم أهوال يوم القيامة، ويعلم قدرة الله ﷻ على الناس، ولو عَلِم الناس هذا العلم لقلَّ ضحكهم، ولكثر بكاؤهم، ولفقدوا بالكلية حلاوة الدنيا ولذَّتها، ويقول أبو ذرٍّ الغفاري ﷺ تعليقًا على هذا الكلام من رسول الله ﷺ: «لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ»[4]! فهو -مع بلوغه الدرجات العالية في العبادة- صار في حالة «خشية» كبيرة للغاية؛ حتى إنه تمنَّى أن يكون مجرَّد شجرة! يقطعها الناس وتفنى، ولا حساب عليها! وأمثال هذه التعبيرات من الصحابة كثيرة[5].

---

(١) أطَّت؛ أي: صَاحَتْ مِنْ ثِقَلِ مَا عَلَيْهَا وَأَطَّ مِنَ الأَطِيطِ: وَهُوَ صَوْتُ الرَّحْلِ وَالإِبِلِ مِنْ ثِقَلِ أَحْمَالِهَا وَهَا هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ ازْدِحَامِ سُكَّانِهَا وَكَثْرَةِ السَّاجِدِينَ عَلَيْهَا. البيضاوي: تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ٣/ ٣٠٧.

(٢) لو تعلمون ما أعلم؛ أي من عقاب الله للعصاة وشدَّة المناقشة يوم الحساب. ولبكيتم كثيرًا؛ أي: بكاءً كثيرًا أو زمانًا كثيرًا؛ أي من خشية الله ترجيحًا للخوف على الرجاء، وخوفًا من سوء الخاتمة. وقيل: والمراد بالعلم هنا ما يتعلَّق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه، والأهوال التي تقع عند النزاع والموت وفي القبر ويوم القيامة. المباركفوري: تحفة الأحوذي، ٦/ ٤٩٦.

(٣) الترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا» (٢٣١٢) عن أبي ذرٍّ ﷺ، وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٥٥٥)، والحاكم (٨٧٢٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. والبيهقي: السنن الكبرى، (١٣١١٥)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٧٢٢).

(٤) التخريج السابق، وقال السندي: قَالَ الْحَافِظُ: هَذَا مِنْ قَوْلِ أَبِي ذَرٍّ مُدْرَجٌ فِي الْحَدِيثِ. حاشية السندي على سنن ابن ماجه ٢/ ٥٤٨.

(٥) كقول أم المؤمنين عائشة ﵂: «وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا». البخاري: كتاب التفسير، سورة النور، (٤٤٧٦). وكقول عمر بن الخطاب ﵁ فيما يرويه عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض؛ فقال: يا ليتني هذه التبنة.. ليتني لم أكن شيئًا! ليت أمي لم تلدني! ليتني كنت منسيًّا! البيهقي: شعب الإيمان، ١/ ٤٨٦ (٧٨٩)، وضعفه البوصيري، انظر: إتحاف الخيرة المهرة ٧/ ٣٦٨ (٧٠٨٥)، وروي عن الضَّحَّاكِ، أنه قَالَ: رَأَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ طَيْرًا وَاقِعًا عَلَى شَجَرَةٍ فَقَالَ: «طُوبَى لَكَ يَا طَيْرُ! وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ مِثْلَكَ أَتَقَعُ عَلَى الشَّجَرَةِ، وَتَأْكُلُ مِنَ الثَّمَرِ، ثُمَّ تَطِيرُ وَلَيْسَ عَلَيْكَ حِسَابٌ وَلَا عَذَابٌ! وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ مَرَّ عَلَيَّ جَمَلٌ، فَأَخَذَنِي فَأَدْخَلَنِي فَاهُ فَلَاكَنِي، ثُمَّ ازْدَرَدَنِي، ثُمَّ أَخْرَجَنِي بَعْرًا وَلَمْ أَكُنْ بَشَرًا». ابن أبي شيبة: المصنف (٣٤٤٣٢)، والبيهقي: شعب الإيمان (٧٦٨)، وهناد بن السري: الزهد (٤٤٩).

وأراد رسول الله يومًا أن يرفع الصحابة إلى هذه الدرجة فقال لهم -وهو يصف لهم أحد مواقف يوم القيامة: «يَقُولُ اللهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ. يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ؛ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]»(١). لقد وصف لهم حالة مُخَوِّفة للغاية، فإذا كان الوضع كذلك يوم القيامة فإن النجاة عسيرة؛ بل تكاد تستحيل! يقول أبو سعيد الخدري ﷺ راوي الحديث -وهو يصف حال الناس بعد هذا الكلام: «فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ»! وفي رواية أنهم قالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟»(٢).

لقد دخل السامعون هنا في الدرجة التي أرادها رسول الله ﷺ، وعَلِمَ كل واحد منهم أن عمله لن يُنجيه، فهنا فتح لهم رسول الله ﷺ باب الأمل بعد أن اطمأنَّ لارتقائهم إلى درجة «الخشية»؛ قال النبي ﷺ مبشرًا لهم: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ». ثم زاد في بشراه ﷺ فقال: «وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثمَّ قال: «ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثمَّ قال: «شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. وما فعله رسول الله ﷺ في نهاية الموقف هو وقاية لهم من الدخول في الخشية المذمومة، وهي الخشية التي تقود إلى إحباط ويأس، وتُقْعِد عن العمل؛ لأن اليأس في كل الأحوال ليس من شيم المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وإذا كُنَّا قد عرفنا أن هذه درجة محمودة للغاية من درجات هرم الخشوع؛ فإنه ينبغي لنا أن نعرف أقرب الطرق للوصول إليها.. وأنا أرى أن أفضل هذه الطرق وأنسبها هو التدبُّر في أحوال الميت في قبره، ثم التدبُّر في أهوال يوم القيامة والحساب! ولقد لاحظنا في المثال الذي ذكرناه في الفقرة السابقة، ووضَّحنا فيه طريقة الرسول ﷺ في دفع المؤمنين إلى درجة «الخشية»؛ أن الرسول ﷺ ذكر لهم موقفًا واحدًا من مواقف يوم القيامة، فكان له أكبر الأثر

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، سورة الحج، (٤٤٦٤) واللفظ له عن أبي سعيد الخدري ﷺ، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يَقُولُ اللهُ لآدَمَ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ». (٢٢٢).
(٢) البخاري: كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، (٣١٧٠).

في نقل السامعين نقلة نوعية إلى درجة «الخشية»! وسأنقل هنا بعض النصوص دون شرح كبير أو تعليق؛ وهي مجرَّد أمثلة تُوَضِّح لنا الأهمية التربوية لهذا المنهج.

دعوني في البداية أسوق لكم حديثًا طويلًا جدًّا من أحاديث رسول الله ﷺ يصف فيه بدقَّة اللحظات الأولى للميت في قبره، ولي رجاء من القرَّاء هو أن يقرءوا هذا الحديث بتمهُّل، ولا يستخدموا طرْق القراءة السريعة في المرور عليه! فإن الغرض هو المعايشة للحالة، ورؤيتها كأننا فيها تمامًا؛ بل إنني أرجو من القرَّاء أن يُعيدوا قراءة الحديث مرتين أو ثلاثًا أو أكثر، حتى مع معرفتهم الكاملة له، وأعِدُكم أنكم ستجدون أثرًا ملموسًا له في قلوبكم!

عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر وَلَمَّا يُلْحَدْ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، وكأنَّ على رءوسنا الطير، وفي يده عُودٌ يَنْكُتُ في الأرض، فرفع رأسه، فقال: «اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». مرَّتين أو ثلاثًا، ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ؛ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ الله وَرِضْوَانٍ». قال: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ».

قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ -يَعْنِي بِهَا- عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ بِهِ

وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ». قال: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قال: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ؛ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؛ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».

قال: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ؛ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ». قال: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ المَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ». ثُمَّ قَرَأَ رسولُ الله ﷺ: «﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى. فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا». ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ! لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ! لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ! لَا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ؛ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؛ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ. فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»[1]. فكيف حالك بعد تصوُّر هذا الموقف، ولو

---

(١) أحمد (١٨٥٥٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد، ٣/ ١٧٠.

نظرنا إلى صلاتنا على أنها المُرَجِّحة لإحدى الكفتين فكيف سيكون خشوعنا فيها؟

مثال آخر يصف بعثنا يوم النشور: عن المقداد بن الأسود ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ» - قال سُلَيْمُ بن عامر ﷺ، وهو أحد رواة الحديث: فوالله! ما أدري ما يعني بالميل؛ أمسافة الأرض أم الميل الذي تُكْتَحَلُ به العين- قال: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ[١]؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ[٢]، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا». قال: «وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ»[٣]. فهل تَصَوَّرتَ جيدًا هذا الموقف، ولو خطر على بالك أثناء صلاتك فكيف سيكون خشوعك؟!

ومثال ثالث يصف موقفنا بين يدي الجليل ﷻ: عن عدي بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ؛ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ؛ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[٤]. وفي رواية عن عدي بن حاتم ﷺ -أيضًا- أنه قال: قال النبي ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ». ثمَّ أعرض وأشاح، ثمَّ قال: «اتَّقُوا النَّارَ». ثمَّ أعرض وأشاح ثلاثًا، حتَّى ظننَّا أنَّه ينظر إليها، ثمَّ قال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[٥]. فلا شكَّ أن إدراكنا لخطورة النار، ولقربها منا، وإدراكنا لقيمة العمل الصالح ولو كان شقَّ تمرة، أو كلمة طيبة، سيدفعنا إلى «خشية» كبيرة لله ﷻ، وبالتالي سيدفعنا إلى خشوع تامٍّ في الصلاة؛ وأيُّ كلمة طيبة أفضل من كلام الله ﷻ وذِكْرِه الذي نذكره به في الصلاة؟!

---

(١) فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق؛ قيل: يحتمل أن المراد عرق نفسه وغيره، ويحتمل عرق نفسه خاصة، وسبب كثرة العرق تراكم الأهوال ودنو الشمس من رءوسهم وزحمة بعضهم بعضًا. النووي: المنهاج، ١٧/ ١٩٥.

(٢) حقويه؛ مثنى الحقو: وهو الخصر ومعقد الإزار. انظر: النووي: المنهاج، ١٧/ ١٨٠، ١٨١، والمباركفوري: تحفة الأحوذي، ٧/ ٨٩.

(٣) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة، (٢٨٦٤)، واللفظ له، والترمذي (٢٤٢١)، وأحمد (٢٣٨٦٤)، وابن حبان (٧٣٣٠).

(٤) البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، (٧٠٧٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشقِّ تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، (١٠١٦) واللفظ له.

(٥) البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عُذِّب، (٦١٧٤) واللفظ له، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحثّ على الصدقة ولو بشقِّ تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، (١٠١٦).

ومثال رابع وأخير في هذا الصدد يحتاج مِنَّا إلى قدرة كبيرة على التصوُّر، وإلى استغراق عميق بين الحروف والكلمات؛ حتى نقترب من المراد وصفه! ولن نستطيعه! عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ[1] مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»[2]! فهل جال بخاطرك صورة قرابة الخمسة مليارات ملك الذين يَجُرُّون النار؟!

إنَّ ما ذكرناه هو مجرَّد أمثلة، وهي وشبيهاتها كفيلة -لو تدبَّرناها- بنقلنا إلى درجة «الخشية»، وهي كما ذكرنا درجة راقية من درجات الإيمان، ولو صبرنا عليها فإن لدينا فرصة أن نحصل على الجائزة الكبرى في الدنيا قبل دخول الجنة في الآخرة، وهي الدخول في الدرجة الخامسة من درجات هرم الخشوع، وهي درجة «الاطمئنان»! وواقع الأمر هي جنة في نفس المؤمن يشعر معها أنه لا يعيش في الدنيا إلَّا بجسده! أمَّا روحه فهناك.. هناك.. في أعلى عليين!!

الدرجة الخامسة: الاطمئنان:

أهل هذه الدرجة قليل! لكن يا لسعادتهم! ويا لسعادة الدنيا بهم!

هذه هي قمَّة الهرم؛ حيث يطمئنُّ القلب ويسكن، ويذهب الوجل الذي كان يُقلقه.. ما زالت الخشية موجودة؛ لكنها توازنت توازنًا عجيبًا مع الرجاء في الله!

صار حبًّا في خشية!

صار رجاءً في خوف!

صار المُصلِّي يستمتع بكل حرف من حروف القرآن، وبكل لحظة من اللحظات بين يدي الرحمن، وهو الوصف الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وجاء كذلك في قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) الزمام: وهو ما يُشَدُّ به، وقيل: ما يُجعل في أنف البعير. وقيل: ما يُشَدُّ به رءوسها من حبل وسير. المباركفوري: تحفة الأحوذي، ٧/ ٢٤٨.

(٢) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حرِّ نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، (٢٨٤٢)، والترمذي (٢٥٧٣)، والحاكم (٨٧٥٨).

لقد اطمأنَّ القلب وسكن، وهذا -فيما أعلم- قمَّة السعادة!

في هذه الدرجة الرفيعة لا يشعر المُصَلِّي أن الصلاة مجرَّد تكليف يُريد أن يُؤَدِّيَه ثم يستريح، إنما يشعر أن الصلاة هدية من الله ﷻ له، يُطمئِن بها قلبه، ويُسْعِد بها نفسه؛ ومن ثَمَّ فالمُصَلِّي في هذه الحالة يشعر بأحوال عجيبة لا يَفْقَهها إلَّا مَن وصل إلى قمَّة الهرم!

من هذه الأحوال -مثلًا- انتظار الصلاة؛ فهو دائم الترقُّب للموعد الذي سيدخل فيه في مناجاة ربِّه، وهو في شوق دائم، إلى الدرجة التي يعشق فيها الليل؛ لأنه يُعطيه فرصة أكبر لصلاة طويلة يقف فيها بين يدي حبيبه، وتجده يحبُّ ليالي الشتاء -على برودتها- أكثر من ليالي الصيف؛ لأنها أطول، وفيها ستتحقَّق أمنيته بطول اللقاء بشكل أعظم!

ومنها أنه لا يُريد أن يخرج من صلاته؛ لذا تجده يُطيل فيها جدًّا، حتى يعجز الناس عن فهم درجة تحمُّله، وهم يظنُّونه يُعاني؛ بينما هو «يستمتع»!

ومنها أنه لا يشعر بمَنْ حوله البتة، فلا يسمع أصواتًا، ولا يرى مشاهد، ولا يتأثَّر بما يجري في الدنيا ولو كان حريقًا أو زلزالًا!

وهو ذاهل فعلًا عن الشعور بالألم أو الضيق، وقد يُصاب بسهم، أو يُلدغ بعقرب، أو يُكْوَى بنارٍ، فلا يشعر بكلِّ ذلك أبدًا!

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، فَأُصِيبَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَافِلًا، وَجَاءَ زَوْجُهَا وَكَانَ غَائِبًا، فَحَلَفَ أَنْ لَا يَنْتَهِيَ حَتَّى يُهْرِيقَ دَمًا فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْزِلًا، فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا[1] لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟» فَانْتَدَبَ[2] رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ[3]، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ[4]، فَقَالَا: نَحْنُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «فَكُونُوا بِفَمِ الشِّعْبِ». قَالَ: وَكَانُوا نَزَلُوا إِلَى

(١) يكلؤنا؛ أي: حفظنا ويحرسنا. انظر: السندي: حاشية مسند الإمام أحمد ٨/ ١٣١، وبدر الدين العيني: شرح أبي داود ١/ ٤٥٤.

(٢) انتدب: أجاب وأسرع، نَدَبَ القومَ إلى الأَمْر يَنْدُبهم نَدْبًا دعاهم وحَثَّهم وانْتَدَبُوا إليه أَسْرَعُوا، وندَبَه للأَمْر فانْتَدَبَ له أي دَعاه له فأَجاب. ابن مَنظور: لسان العرب، ١/ ٧٥٣.

(٣) هُوَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، كما جاء في رواية البيهقي: دلائل النبوة ٣/ ٣٧٨، وانظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٨١، والعظيم آبادي: عون المعبود ١/ ٢٣٠.

(٤) هُوَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ. كما جاء في رواية البيهقي: دلائل النبوة ٣/ ٣٧٨، وانظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٨١، والعظيم آبادي: عون المعبود ١/ ٢٣٠.

شِعْبٍ مِنَ الْوَادِي، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ، قَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيَكَهُ؟ أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ؟ قَالَ: اكْفِنِي أَوَّلَهُ. فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ، وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي، وَأَتَى الرَّجُلُ، فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ[١] الْقَوْمِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِمًا، ثُمَّ عَادَ لَهُ بِثَالِثٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ أَهَبَّ[٢] صَاحِبَهُ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَقَدْ أُوتِيتَ. فَوَثَبَ، فَلَمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ فَهَرَبَ، فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ مِنَ الدِّمَاءِ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! أَلَا أَهْبَبْتَنِي؟! قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا، فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا، فَلَمَّا تَابَعَ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَأُرِيتُكَ، وَايْمُ اللهِ، لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ، لَقَطَعَ نَفْسِي. قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا، أَوْ أُنْفِذَهَا[٣].

إن التغيُّر الذي لحق بالمُصلِّي في هذا الموقف لم يكن في قلبه فقط؛ بل تَغَيَّر جسده كذلك، وما عاد يشعر بها يشعر به عامَّة الناس!

هل هذا كلام عجيب؟!

أقول لكم: نعم.. عجيب!

إن الذي لم يرتقِ في الهرم ليصل إلى الدرجة الرابعة -وهي درجة الخشية- يستحيل عليه أن يفهم طبيعة هذه الدرجة الأخيرة ومعناها، ويُصبح الشرح الذي شرحناه طلاسمَ في حقِّه، وتُصبح الصلاة التي وصفناها مبالغة في تقديره، وهو معذور في الحقيقة، فليس مَنْ رأى كمَنْ سمع!

وهذه الدرجة هي التي كان يعيش فيها رسول الله ﷺ، وما كان يخرج منها قطُّ، وكذلك

---

(١) الرَّبِيئَة: هو العين والطليعة؛ الذي ينظر للقوم لئلَّا يدهمهم عدوٌّ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه، من رَبَأَ يَرْبَأُ، من باب فتح يفتح، يقال: يَرْبَأُ أهله؛ أي: يحفظهم من عدوِّهم. انظر: بدر الدين العيني: شرح أبي داود ١/ ٤٥٥.

(٢) أَهَبَّ؛ أي: أيقظ. انظر: السندي: حاشية مسند الإمام أحمد ٨/ ١٣١.

(٣) أبو داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء من الدم (١٩٨)، وأحمد (١٤٧٤٥)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن. وابن حبان (١٠٩٦)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود، ١/ ٣٥٧ (١٩٣)، والتعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ٢/ ٣٧٣.

إخوانه من الأنبياء والمرسلين.. ومن هنا نفهم قوله ﷺ: «.. وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(١). ونفهم كذلك قوله: «يَا بِلَالُ، أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»(٢). ونفهم طول صلاته وقيامه حتى تفطَّرت قدماه.

وهذه الدرجة تُفَسِّر لنا موقفًا عجيبًا حكاه لنا الرسول ﷺ وهو في رحلة الإسراء والمعراج، حيث قال ﷺ فيما رواه عنه أنس بن مالك ﷺ: «مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ»(٣). فموسى ﷺ يُصَلِّي في قبره مع أن التكليف انقطع بموته، ولكن صلاته هنا نوع من المكافأة والجائزة؛ فهو في كامل الاطمئنان والسعادة بهذه الصلاة، وهو فَرِحٌ أيما فرح بمناجاة ربِّ العالمين!

ويصف لنا الصحابي الجليل عدي بن حاتم(٤) ﷺ هذه الدرجة فيقول: «ما جاء وقت صلاةٍ قطُّ إلَّا وقد أخذتُ لهَا أُهْبَتها، وما جاءت إلَّا وأنا إليها بالأشواق»(٥).

هذه الدرجة وإن كانت قد جاءت نتيجة جهد طويل مبذول في الصعود في الدرجات السابقة، فإنها في واقع الأمر جائزة تُعْطَى من الله ﷻ لعباده المقرَّبين، بمعنى أنها لا «تُنال» بمجرَّد الأعمال، ولكنها «تُمنح» للمتفوِّقين فوق ما هم من أجر وثواب! وذلك لأن الذين اجتهدوا في صعود الهرم سيكونون جميعًا من أهل الجنة بإذن الله تعالى، إن هم ماتوا على ذلك؛

---

(١) النسائي: كتاب عشرة النساء، حب النساء (٣٨٨٧) عن أنس بن مالك ﷺ، وأحمد (١٤٠٦٩) واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وأبو يعلى (٣٥٣٠)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. والحاكم (٢٦٧٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ١/ ٥٩٩.

(٢) أبو داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، (٤٩٨٥)، وأحمد (٢٣١٣٧)، وقال شعيب الأرناءوط: رجاله ثقات لكن اختلف على سالم بن أبي الجعد في إسناده. والطبراني: المعجم الكبير، (٦٢٢٩)، وصححه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح، (١٢٥٣).

(٣) مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، (٢٣٧٥) واللفظ له، والنسائي (١٣٣١)، وأحمد (١٢٢٣١)، وابن حبان (٤٩).

(٤) هو: عدي بن حاتم بن عبد الله، أبو طريف، ابن الجواد المشهور حاتم الطائي، صحابي أسلم في سنة تسع، وقيل: سنة عشر. كان رئيس طيئ في الجاهلية والإسلام، ثبت على إسلامه في الردَّة، حتى قال ابن الأثير: خير مولود في أرض طيئ وأعظمه بركة عليهم. شهد فتح العراق، والجمل، وصفين، والنهروان مع علي ﷺ، توفي سنة ٦٧هـ، وابن عبد البر: الاستيعاب، ٣/ ١٠٥٧-١٠٥٩. وابن الأثير: أسد الغابة، ٤/ ١٠-١٣، وابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ٤/ ٤٦٩-٤٧١ (٥٤٧٩).

(٥) ابن أبي شيبة: المصنف، ٧/ ١٩٣، وابن المبارك: الزهد ص٤٦٠ (١٣٠٢)، وأحمد بن حنبل: الزهد، ص١٦٥ (١١٢١)، وابن عساكر: تاريخ دمشق، ٤٠/ ٨٦، ٨٧، والمزي: تهذيب الكمال، ١٩/ ٥٢٩.

فهم جميعًا خاشعون لله ﷻ، ولو كانوا بدرجات متفاوتة، وهذا يعني أن النهاية الطبيعية للمجاهدة والمحاولة والمصابرة أن نصل إلى الدرجة الرابعة من الهرم، وهي درجة الخشية لله ﷻ، التي تتحقَّق لنا فيها كما وعد ربنا المغفرة والأجر الكريم، ثم تأتي هذه الدرجة الخامسة كعَطِيَّة زائدة، ومكافأة إضافية، تكرُّمًا من الله ﷻ ومِنَّة.

ومثل هذه الدرجة تأتي مسألة «السكينة» التي يُنعم الله بها على بعض عباده؛ فتستريح قلوبهم وتطمئن وتسكن، حتى في الظروف الحالكة، والأزمات الطاحنة؛ فالسكينة هنا هديَّة من الله لعباده المتفوِّقين، وهي نوعٌ من الإنعام على العابدين، وقد كان هؤلاء العابدون في عمل دءوب، وجهد متواصل حتى في غياب هذه السكينة، فلمَّا رأى الله ﷻ منهم هذا الاجتهاد في العبادة رزقهم السكينة تفضُّلًا منه ومِنَّة، وهذا واضح في آيات القرآن الكريم، وفي مواقف السيرة المختلفة.

من هذه المواقف على سبيل المثال ما قاله الله ﷻ في حقِّ أهل بيعة الرضوان، الذين بايعوا رسول الله ﷺ أيام الحديبية؛ فالصحابة هنا بذلوا ما عليهم، وجاهدوا في ظروف صعبة، وأطاعوا الله ﷻ ورسوله ﷺ، وثبتوا في الميدان، وصدقوا مع الله، فوعدهم الله بالجنة، وهي منتهى أحلام المجتهدين؛ لكنه فوق ذلك أنعم عليهم بهدية دنيوية «يستمتعون» بها في جهادهم وتعبهم، وهي نعمة «السكينة»؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، فقلوب الصحابة قبل نزول السكينة كانت كقلوب عامَّة البشر تضطرب وتوجل لشدَّة الموقف، ولاقتراب لحظة الموت، ولقاء العدوِّ، ومع ذلك فهذا الاضطراب والوجل لم يدفعهم إلى الفرار أو النكوص، بل ثبتوا وبذلوا، فكانت الهدية الجميلة هي إفراغ السكينة والطمأنينة في القلب، حتى لا يشعر المجاهد بأي ضغط نفسي من وجوده في ساحة القتال، أو من قربه من عدوٍّ شرس كبير!

ومثل ذلك -أيضًا- ما حدث في غزوة بدر؛ حيث قال الله ﷻ في حقِّ المجاهدين الذين بذلوا وقدَّموا وثبتوا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠]، فالله ﷻ «يمنحهم» هنا درجة اطمئنان القلب؛ حتى يُرفَع عنهم أي ضغط عصبي أثناء الجهاد؛ بل يصل الأمر إلى السكينة التامَّة، التي تقود إلى نعاس في أرض الجهاد! قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ..﴾ [الأنفال: ١١].. فلا يلتفت المجاهد إلى السيوف أو السهام، ولا إلى الرجال

أو الخيول، إنما -في بساطة- يأخذ جانبًا من أرض القتال، فينام قليلًا ليتقوَّى على بقية القتال! إنها منحة إعجازية لا تُعطَى إلَّا للمُبرَّزين في ساحة الجهاد!

وهذه النعمة هي ما شاهدناها كذلك في الهجرة في قلب رسول الله ﷺ، وذكرها الله ﷻ في كتابه حين قال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ..﴾ [التوبة: ٤٠]، فبعد أن ثبت رسول الله ﷺ وقدَّم وجاهد، وأظهر يقينه الكامل بمعية الله للمؤمنين، بعد هذا الجهد أنزل الله سكينته في قلب رسوله ﷺ، فصار لا يتأثَّر مطلقًا بما تتأثَّر به قلوب البشر عامَّة، فالأعداء فوق رأسه، وهو لا يشعر بأي قلق، أو ضيق، أو حيرة!

والكلام نفسه ينسحب على السكينة التي نزلت في قلب رسول الله ﷺ يوم حنين، عندما فرَّ القوم ولم يفر؛ فقال تعالى حينئذٍ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

ومثال ذلك في حوادث السيرة كثير..

وكما تنزل هذه السكينة في قلوب المجاهدين في أرض الجهاد مع ضراوة الجهاد وشدَّته، فإنها تنزل كذلك في قلوب المُصَلِّين الخاشعين إذا اجتهدوا في صلاتهم وخشوعهم؛ بل إنها قد تأخذ شكلًا ماديًّا محسوسًا ومُشاهَدًا! وهذا ما حدث مع الصحابي الجليل أُسيد بن حضير ﷺ، فعن البراء بن عازب ﷺ «أن رَجُلًا (وهو أسيد بن حضير ﷺ) قرأ الكهف وفي الدَّار الدَّابَّةُ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ فَسَلَّمَ، فَإِذَا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَهُ للنبي ﷺ فقال: «اقْرَأْ فُلَانُ فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ نَزَلَتْ لِلْقُرْآنِ، أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ»[1].

ومن هذا المنطلق فإنَّ السكينة والطمأنينة تُوهب لكلِّ مجتهد بلغ الغاية في اجتهاده؛ فهي تنزل في قلوب المنفقين في سبيل الله، الذين أكثروا من الإنفاق واعتادوه، فمنحهم الله نعمة الاطمئنان والسكينة عند الإنفاق، فلا يجدون في أنفسهم حرجًا من بذل المال الكثير، وهذه السكينة تنزل كذلك في قلوب الحجَّاج والمعتمرين المجتهدين؛ «فيستمتعون» بعبادتهم مع كونها في غاية المشقَّة والإرهاق، وهي تنزل في قلوب الكاظمين الغيظ، وتنزل في قلوب المكرمين لليتامى، وتنزل في قلوب المتواضعين للناس، وهكذا في كلِّ العبادات والقربات..

---

(١) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٣٤١٨) واللفظ له، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، (٧٩٥).



إنها سرور وراحة وسعادة يشعر بها العابد في دنياه تمهيدًا للأجر الأكبر، والثواب الأعظم في الآخرة، وهذا ما وصفه الله ﷻ في كتابه حين قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

وكملخَّص للنظرية؛ فإنها تُرتِّب الخشوع في الصلاة في شكل هرمي، له خمس درجات: الأولى هي درجة «الوعي»؛ وتتحقَّق عن طريق العلم والدراسة، والثانية هي درجة «الطمع»؛ وتتحقَّق عن طريق معرفة ثواب الفعل أو القول في الصلاة، والثالثة هي درجة «الوجل»؛ وتتحقَّق بتذكُّر الذنوب، والرابعة هي درجة «الخشية»؛ وتتحقق بالتدبُّر في حياة القبر ويوم القيامة والآخرة، أمَّا الدرجة الخامسة والأخيرة فهي درجة «الاطمئنان»، وهذه هبة من الله يهبها للمجتهدين الذين صبروا وصابروا، وخلصت قلوبهم تمامًا لله ﷻ، فما عادوا يَرَوْنَ غيره، فكانت هذه الدرجة مكافأة دنيوية لهم، تمهيدًا للمكافأة الأعظم يوم القيامة.

ويبقى في نهاية النظرية أن أُؤكد أن التدرُّج في صعود الهرم أمر ضروري، ولو سعينا للوصول إلى الدرجة الثالثة أو الرابعة فجأة فإنَّ هذا قد يضرُّ أكثر مما يفيد؛ فالدرجة الثانية تُورِث حبَّ الله ﷻ في القلب، والدرجة الثالثة والرابعة تُورِث الخشية والخوف منه، وليس من المصلحة أن يسبق الخوفُ الحبَّ، فإن هذا يُفقِد العبد لذَّة الطاعة، وهذا يُؤَثِّر على خشوعه؛ بل على إيمانه بالكامل، أمَّا الدرجة الأولى فهي تسبق الجميع بلا جدال؛ فهي درجة الوعي والعلم والإدراك، ومحال أن يُبنى خشوع على جهل أو إبهام؛ لذا وجب على المؤمن أن يمرَّ بها أولًا، ثم يتجاوزها إلى ما بعدها، والله ولي التوفيق.



هل نقص الخشوع ظاهرة؟!

قليل أم كثير..

أولئك الذين يُعانون من نقص الخشوع؟!

من الممكن أن نختلف في البداية في الإجابة على هذا السؤال.. لكن إذا عدنا إلى نظرية هرم الخشوع، ووعينا الدرجات الخمس للهرم، وجدنا أن معظم المسلمين الآن لا يُحَقِّقون أدنى درجات الهرم!! وليس هذا تشاؤمًا، إنما هو محاولة للبحث عن حجم المشكلة، حتى يمكن أن نصرف لها من أوقاتنا وجهدنا ما يُناسبها، فلو كانت القضية قضية حالات فردية متناثرة هنا وهناك لهان الأمر جدًّا، ولأوصينا المربِّين أن يبحثوا بدقَّة عن أولئك الذين يحتاجون إلى علاجها، أمَّا إذا كانت المشكلة عبارة عن ظاهرة متفشِّيَة فهذا يحتاج إلى جهود وطاقات، ويحتاج إلى تفريغ وقت كافٍ من العلماء والدعاة والمربِّين لهذه المشكلة، كما يحتاج إلى ابتكار وسائل تُناسب طبيعة الناس، وتُناسب الزمان والمكان، حتى يمكن أن نُواجه هذه الظاهرة..

إن نقص الخشوع -فيما أرى- أصبح ظاهرة حقًّا!

كيف أخشع في صلاتي؟!

إنه السؤال الأشهر في حلقات العلم والدروس..

إنه سؤال الرجال والنساء، والشباب والشيوخ..

حتى الكثير من العلماء وطلاب العلم صاروا يسألون السؤال ذاته!

لقد أصبح ظاهرة..

وقد تنبَّأ بهذه الظاهرة رسول الله ﷺ، فعن جبير بن نفير[1] ﷺ عن أبي الدرداء ﷺ قال:

---

(١) هو: جبير بن نفير بن مالك بن عامر الحضرمي، أبو عبد الرحمن، ثقة من كبار التابعين، أدرك حياة النبي ﷺ ولم يره، توفي سنة ٧٥ أو ٨٠هـ. ابن عبد البر: الاستيعاب، ١/ ٢٣٤، وابن الأثير: أسد الغابة، ١/ ٣٩٩، وابن حجر: الإصابة، ١/ ٥٣١ (١٢٧٦)، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/ ٧٦-٧٨.

كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: «هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ[(١)] الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ». فقال زياد بن لبيدٍ الخزرجي الأنصاريُّ ﷺ[(٢)]: كيف يُخْتَلَسُ مِنَّا وقد قرأنا القرآن؟! فوالله! لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نساءنا وأبناءنا. فقال رسول الله ﷺ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ! إِنْ كُنْتُ لأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!» قال جبيرٌ: فلقيتُ عبادة بن الصامت ﷺ، قلتُ: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرتُه بالذي قال أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئتَ لأُحَدِّثَنَّكَ بأوّل علمٍ يُرْفَعُ من الناس: الخشوع؛ يُوشِكُ أن تدخل مسجد جماعةٍ فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا[(٣)].

فالرسول ﷺ يتنبَّأ باختلاس العلم ونقصه، ويأتي الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ﷺ، فيُفَسِّر لنا أن أول العلوم اختلاسًا هو الخشوع، والمفزع أن رسول الله ﷺ قد قال: «هَذَا أَوَانُ..». بمعنى أن نقص الخشوع بدأ من زمانه ﷺ! ونحن جميعًا نعلم أن الحالة الإيمانية بصورة عامَّة تقلُّ بشكل مُطَّرِد كُلَّما تقدَّم بنا الزمان، وأن خير القرون كانت القرون الثلاثة الأولى، وهذا يعني أن المسألة قد تكون متدهورة جدًّا الآن، وتحتاج منَّا إلى وقفات ووقفات.

وقد آثرتُ أن أفتح هذه المسألة الآن، وليس في أول الكتاب كالمعتاد بالنسبة إلى هذه المسائل؛ لأن الاختلاف الكبير على تعريف الخشوع كان سيُؤَدِّي إلى اختلاف كبير كذلك في تقدير انتشار الظاهرة، خاصة أن بعضهم يُحَدِّد درجة الخشوع بالمظهر الخارجي للمُصَلِّي! فيجد هيئته الخارجية تُوحي بالخشوع، فينخدع بالظاهر، بينما يكون المُصَلِّي أبعد ما يكون عن الخشوع الحقيقي.

---

(١) يختلس؛ أي: يختطف ويسلب. المباركفوري: تحفة الأحوذي، ٧/ ٣٤٥.

(٢) هو: زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان الأنصاري الخزرجي، خرج إلى رسول الله ﷺ بمكة فأقام معه حتى هاجر، فكان يقال له: أنصاري مهاجري. شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، واستعمله ﷺ على حضرموت، وولاه أبو بكر ﷺ بقتال أهل الردة من كندة، وهو الذي ظهر بالأشعث بن قيس فسيره إلى أبي بكر ﷺ، مات في أول خلافة معاوية ﷺ، انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب، ٢/ ٥٣٣، ٥٣٤، وابن الأثير: أسد الغابة، ٢/ ٣٢٥، وابن حجر: الإصابة، ٢/ ٥٨٦ (٢٨٦٦).

(٣) الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم (٢٦٥٣) واللفظ له، وقال: حديث حسن. والنسائي (٥٩٠٩)، وأحمد (٢٤٠٣٦)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح وهذا إسناد قوي. وابن حبان (٤٥٧٢)، والحاكم (٣٣٧)، وقال: هذا صحيح وقد احتج الشيخان بجميع رواته. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٥٩ (٢٦٥٣).

والآن بعد أن استعرضنا نظرية «هرم الخشوع» بدرجاته الخمس، نستطيع أن نقول: إن كلَّ درجات الهرم مبنيَّة على الداخل وليس على الخارج؛ أي على الباطن وليس على الظاهر؛ أو إن شئتَ فقُلْ: مبنيَّة على القلب والعقل، وليس على الجسد والجوارح. حتى الدرجة الرابعة في الهرم؛ وهي درجة «الخشية»، التي ذكرنا أن فيها علامات كثيرة تظهر على الجوارح، كانت كل هذه العلامات نتيجة تأثُّر القلب في الأساس، ولولا تأثُّره لما وجدنا تغيُّرًا في الجوارح.

إذًا الخشوع الذي نقصده هو خشوع القلب في الأساس؛ وهو يعني لين القلب ورقَّته، وسكونه، وخضوعه، وانكساره، وهذا سيتبعه لاحقًا خشوع جميع الجوارح؛ مثل العين فتبكي، والأذن فتُنصت، واللسان فيهمس، حتى لنجد أن الخشوع يُؤَثِّر في الجسد كله فيرتجف.. إنه تغيُّر كامل في الجسم كله، ولعلَّنا في ضوء هذا نفهم ما قاله النبي ﷺ: «... **أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[(١)].

أمَّا الخشوع الذي يظهر على الجوارح دون أن يكون له مصدر في القلب فهو خشوع مزيَّف؛ بل إنه علامة من علامات النفاق، كما وضَّح لنا الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان[(٢)] رضي الله عنه، وهو خبير في أحوال المنافقين؛ حيث قال: «إيَّاكم وخشوع النفاق! فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[(٣)]. ورُوِي نفس المعنى عن صحابة آخرين بألفاظ مقاربة[(٤)]، لذا استنكرت عائشة رضي الله عنها منظرًا لشباب يمشون منكسرين، فقالت لِمَنْ معها: مَنْ

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، (٥٢)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (١٥٩٩).

(٢) هو: حذيفة بن اليمان أبو عبد الله العبسي، من كبار الصحابة، وصاحب سرِّ رسول الله ﷺ، أسلم هو وأبوه وأرادا شهود بدر فصدَّهما المشركون، شهد أُحُدًا، وبعثه رسول الله ﷺ يوم الخندق ينظر إلى قريش فجاءه بخبرهم، وشهد نهاوند، وكان فتح همذان والري والدينور على يده، واستعمله عمر رضي الله عنه على المدائن فلم يزل عليها حتى مات بعد بيعة علي بأربعين يومًا، مات سنة ٣٦هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب، ١/ ٢٧٧، وابن الأثير: أسد الغابة، ١/ ٢٩٠، وابن حجر: الإصابة، ٢/ ٤٤ (١٦٤٩).

(٣) قال ابن القيم: وَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنه وَهُوَ حُذَيْفَةُ، يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَخُشُوعَ النِّفَاقِ... ابن القيم: مدارج السالكين، ١/ ٥٢١، وابن رجب الحنبلي: الخشوع في الصلاة، ص١٣.

(٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «الْخُشُوع خشوعان؛ خشوع يخشع لَهُ الْجَسَد وَلَا يخشع لَهُ الْقلب بالخشية؛ فَذَلِك النِّفَاق، وخشوع على الْقلب يظْهر فِي الْجَسَد وَالْقلب والسمع وَالْبَصَر وَاللِّسَان وَالْيَد وَالرجل والفرج فَذَلِك خشوع الْإِيمَان». أخرجه الديلمي في مسند الفردوس، ٢/ ٢٠٤، (٣٠٠٧)، وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ. قَالَ: قِيلَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَى الْجَسَدَ خَاشِعًا وَالْقَلْبَ =

هؤلاء؟ قالوا: نُسَّاك. فقالت: «كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا»(١).

وأكثر من ذلك أن الذي يهتمُّ بخشوع الجوارح دون رعاية لقلبه قد يخرج من الدين كلية دون أن يدري! وهذا يُفَسِّر لنا أحد المواقف العجيبة في السيرة؛ فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ «أنَّ أبا بكرٍ ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ إنِّي مررتُ بوادي كذا وكذا، فإذا رَجُلٌ مُتَخَشِّعٌ حسن الهيئة يُصَلِّي. فقال له النبي ﷺ: «اذْهَبْ إِلَيْهِ فَاقْتُلْهُ!». قال: فذهب إليه أبو بكر، فلمَّا رآه على تلك الحال كره أن يقتله، فرجع إلى رسول الله ﷺ، قال: فقال النبي ﷺ لعمر: «اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ!» فذهب عمر فرآه على تلك الحال التي رآه أبو بكر، قال: فكره أن يقتله، قال: فرجع فقال: يا رسول الله؛ إني رَأَيْتُهُ يُصَلِّي مُتَخَشِّعًا فَكَرِهْتُ أَنْ أَقْتُلَهُ. قَالَ: «يَا عَلِيُّ؛ اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ». قال: فذهب عليٌّ فلم يَرَهُ، فرجع عليٌّ، فقال: يا رسول الله؛ إنَّه لَمْ يُرَهْ(٢). قال: فقال النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ(٣)، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ فِي فُوقِهِ(٤)، فَاقْتُلُوهُمْ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ»(٥).

فهؤلاء هم أصل الخوارج، وكانوا -كما بيَّن لنا رسول الله ﷺ- يهتمُّون بالظاهر بينما كان باطنهم خاويًا.. لقد كان ظاهرهم خاشعًا، بل بنصِّ كلام أبي بكرٍ وعمر ﷺ: «متخشعًا».

= لَيْسَ بِخَاشِعٍ. ابن أبي شيبة: المصنف، (٣٥٧١١)، وأحمد بن حنبل: الزهد ص١١٧، والبيهقي: شعب الإيمان (٦٩٦٦). وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ قَالَ: خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: «خُشُوعُ الْبَدَنِ وَنِفَاقُ الْقَلْبِ». البيهقيَ: شعب الإيمان (٦٥٦٨). وقال العراقيَ: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الأيادي ضعفه أحمد وابن معين. انظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٣٣١.

(١) ابن القيم: مدارج السالكين، ١/ ٥٢١، والرواية ذُكِرَتْ عن الشفاء بنت عبد الله عند ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ٢٩٠، والبلاذري: أنساب الأشراف ١٠/ ٣٤٢، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٢، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٤٤/ ٢٨٨، وقال عبد السلام بن محسن آل عيسى: مدار الأثر على الواقدي فيكون ضعيفًا، غير أن معناه صحيح. انظر: دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية ﷺ ١/ ٣٥٨.

(٢) لم يُرَهْ: من رأى يرى، والفعل هنا مبني للمجهول، وفي آخره هاء السكت.

(٣) «كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» أي: يخرجون منه خروج السهم إذا نفذ من الصيد من جهة أخرى ولم يتعلَّق به شيء منه، والرَّمِيَّة هي الصيد المرمي. النووي: المنهاج ٧/ ١٥٩، وهذا دلالة على سرعة الخروج من الدين.

(٤) فُوق السهم: موضع الوَتَر منه. ابن منظور: لسان العرب، مادة (فوق) ١٠/ ٣١٥، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٠٧.

(٥) أحمد (١١١٣٣)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد، ٦/ ٢٣٥، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٢٤٩٥).

وهي صيغة مبالغة للدلالة على شدَّة الخشوع، وهذا ما لفت نظريهما.. لكن رسول الله ﷺ كان يعرف باطنهم عن طريق الوحي، فأخبر أنهم مِن الخارج خاشعون، لكن داخلهم خراب! والقرآن الذي يقرءونه لا يصعد منه شيء إلى السماء، فهو لم يُقرَأ بوعي أو تدبُّر، ولم يُحرِّك قلبًا ولا عقلًا، وهذا الخراب الداخلي سيقودهم يومًا ما إلى الخروج من الدين تمامًا!

كل هذا الدمار العقائدي وظاهر صلاتهم حَسَن! بل حَسَنٌ جدًّا، وقد صَوَّر رسول الله ﷺ في حديث آخر درجة خشوعهم في الصلاة على أنها -في الظاهر- عالية جدًّا، لدرجة أن الصحابة يعتقدون أن هؤلاء أعلى الناس خشوعًا؛ بل أعلى من الصحابة أنفسهم! وراجعوا معي هذا الموقف الغريب الذي رأيناه في سيرة الرسول ﷺ؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعْدِلْ. فقال: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ[1] إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ». فقال عمر: يا رسول الله؛ ائْذَنْ لي فيه فأضرب عنقه. فقال: «دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا[2] يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ...»[3]. فالرسول ﷺ في هذا الموقف يتنبَّأ بموقف مستقبلي عجيب، سيقف فيه الصحابي مشدوهًا أمام رجال يُصَلُّون ويصومون، فيرى الصحابي أن صلاته هو شخصيًّا لا تساوي شيئًا بالمقارنة بصلاة هؤلاء! ومع ذلك يُخبرنا الرسول ﷺ أنهم سيخرجون من الدين تمامًا؛ لأنهم لم يَفْقَهوا مسألة الخشوع فقهًا سليمًا، فأهملوا باطنهم، واهتمُّوا بظاهرهم، ولا يُفلِح مَنْ كانت هذه هي هيئته!

---

(١) «وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ». رُوي بفتح التاء في «خِبْتَ وَخَسِرْتَ» وبضمها فيهما، ومعنى الضم ظاهر، وتقدير الفتح: خبت أنت أيها التابع إذا كنتُ لا أعدل لكونك تابعًا ومقتديًا بمَنْ لا يعدل. والفتح أشهر والله أعلم. النووي: المنهاج، ٧/ ١٥٩.

(٢) قوله: «قَالَ: دَعْهُ». في رواية شعيب: «فَقَالَ لَهُ: دَعْهُ». كذا لأبي ذرٍّ ﷺ، وفي رواية الأوزاعي: «فَقَالَ: لا». وزاد أفلح بن عبد الله في روايته: «فَقَالَ: مَا أَنَا بِالَّذِي أَقْتُلُ أَصْحَابِي». قوله: «فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا». هذا ظاهره أن ترك الأمر بقتله بسبب أن له أصحابًا بالصفة المذكورة، وهذا لا يقتضي ترك قتله مع ما أظهره من مواجهة النبي ﷺ بما واجهه، فيحتمل أن يكون لمصلحة التألُّف كما فهمه البخاري؛ لأنه وصفهم بالمبالغة في العبادة مع إظهار الإسلام؛ فلو أذن في قتلهم لكان ذلك تنفيرًا عن دخول غيرهم في الإسلام. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ١٢/ ٢٩٣.

(٣) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٣٤١٤) واللفظ له، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، (١٠٦٤).

إذًا الأمر خطير جدًّا!

وإهمال الخشوع الحقيقي -وهو خشوع القلب والعقل- قد يقود إلى المهالك، وليس بالضرورة أن يقود إلى الخروج الكامل من الدين والكفر الصريح بالله ﷻ؛ إنما قد يقود إلى عدم توقير الدين، وعدم الاكتراث بالحلال والحرام؛ فتظهر لنا بعض الصور التي نستغربها جدًّا لأناسٍ يُحافظون على الصلاة؛ بل «يتخشَّعون» فيها؛ لكنهم في معاملاتهم وأفعالهم أبعد ما يكونون عن رُوح الإسلام وقواعده وأصوله.

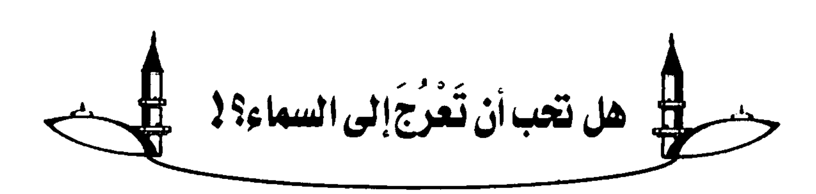
إن وجود مثل هذه الصور يحتاج منَّا إلى وقفات متأنِّية؛ لأن الصلاة التي ذهب خشوعها الحقيقي صلاة لا تُؤَثِّر إيجابيًّا في سلوكيات الإنسان أو أخلاقه، وهذه الصلاة بهذه الصورة لا تُفيد الإنسان ولا تنفعه؛ بل لا أبالغ إن قلتُ: إنها تضُرُّه! ويُؤَيِّد ذلك قول عبد الله بن مسعود ﷺ: «مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلَاتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا»[1]! وقد رفع بعضهم هذا القول إلى رسول الله ﷺ ولكن بسند ضعيف[2]، ولعلَّ سبب البُعد من الله للذي لا ينتهي بصلاته عن المنكر أنه يُصبح فتنة للناس! فالناس ينظرون إلى صلاته وخشوعه الظاهري فيعتبرونه يُمَثِّل الإسلام، ويُعَبِّر عنه، فتأتي سلوكياته متناقضة، فهنا يقول الناس: هذا هو دين الإسلام! فتصدُّهم سلوكيات هذا الخاشع المزيَّف عن الدين، وبذلك يُصبح فتنة لغير المسلمين، وهو ما وصفه الله ﷻ في قرآنه عندما قال على لسان المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]، وفي موضع آخر قال: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [الممتحنة: ٥]، وبهذا يكون ضرر هذا الخشوع المزيَّف أكبرَ بكثير من نفعه!

ذكرنا هذا التحليل لنُثبت للقارئ أن مسألة الخشوع ليست مجرَّد فضائل أعمال، وليست مسألة هامشية في حياة المسلم والمسلمة، ولكنها أمر حيوي للغاية.. لو أهمله أحدٌ فَسَدَت سلوكياته، ولو استمرَّ في إهماله فقد يخرج من الدين بالكليَّة، كما يخرج السهم من الرَّمِيَّة!

فاللهم إنا نسألك «قلبًا» خاشعًا!

(١) الطبراني: المعجم الكبير (٨٥٦٢)، والبيهقي: شعب الإيمان (٢٩٩٤)، وأبو داود: الزهد (١٢٦)، وأحمد بن حنبل: الزهد (٨٧٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ٢٥٨، وقال الزين العراقي: إسناده صحيح. انظر: الزين العراقي: المغني عن حمل الأسفار ص١٧٨.

(٢) الطبراني: المعجم الكبير (١١٠٤٧)، والبيهقي: شعب الإيمان (٢٩٩٢)، والقضاعي: مسند الشهاب، ١/ ٣٠٥ (٥٠٨).



هل تحب أن تَعْرُجَ إلى السماء؟!

لماذا لا تأخذ مسألةُ الخشوع في الصلاة قدرًا كبيرًا من اهتمامنا؟!

لماذا نهتمُّ بدراسات الجدوى الخاصَّة بتجارتنا ومصانعنا وبيوتنا، ولا نصرف وقتًا كبيرًا -وأحيانًا ولا قليلًا!- لعمل دراسة جدوى خاصَّة بخشوعنا في الصلاة؟!

الأسباب وراء ذلك كثيرة.. وسنتعرَّض لها واحدًا واحدًا -بإذن الله- في ثنايا هذا الكتاب، ولكني سأبدأ بواحد من أخطرها!

وهذا السبب هو..

أننا قد لا نُدرك -في الحقيقة- أهميةَ الصلاة نفسها!.. وأنَّى لِمَنْ لا يُدرك أهمية الصلاة أن يُدرك قيمة الخشوع فيها!

فما الصلاة؟!

أبسط ما يمكن أن نقوله عن الصلاة: إنها «ركن»!

ركن لأي شيء؟!

ركن للإسلام!

هل سمعتم عن صرح هائل يُقام بلا أركان؟!

مُحالٌ.. مُحال!

وكذلك الإسلام.. لا يمكن أن يقوم بغير صلاة..

إذا لم تهتم بقضية الصلاة فأنت لم تُدرك بعدُ معنى الإسلام..

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الإِسْلَامَ بُنِيَ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ»[1].

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ». (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، (١٦) واللفظ له.

إن الإسلام -هذا الصرح العملاق- بُنِيَ على أركان خمسة، كان منها الصلاة، ولو انهار ركن من هذه الأركان انهار الصرح بكامله! وليست الصلاة أيَّ ركن من هذه الأركان؛ بل تأتي في الأهمية بعد شهادة أن لا إله إلا الله مباشرة، ويُؤَيِّد ذلك ما قاله الرسول ﷺ في حديث آخر مُوَضِّحًا قيمة الصلاة؛ فقد روى معاذُ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ...»(١). فعندما أراد الرسول الحكيم ﷺ أن يختار عمودًا واحدًا يقوم عليه الإسلام اختار الصلاة، وهذا يُعطينا انطباعًا واضحًا جليًّا لأهميتها في التشريع الإسلامي.

ولكونها بهذه الأهمية فإن الله ﷻ مَيَّزَها ببعض الأمور التي لا تتوافر في الأركان الأخرى، فنُدرك تلقائيًّا قيمتها، وبالتالي نحرص على إقامتها كما ينبغي..

من هذه الأمور -مثلًا- أنها تُؤَدَّى في كل يوم -كفريضة- خمس مرَّات؛ بينما الأركان الأخرى تُؤَدَّى بشكل موسمي.. فالصيام الفرض يُؤَدَّى في كل سنة شهرًا واحدًا فقط؛ وهو شهر رمضان، والزكاة كذلك تُؤَدَّى مرَّة واحدة في السنة كلها؛ بينما يُؤَدَّى الحجُّ مرَّة واحدة في العمر كله.. حتى شهادة: «لا إله إلا الله» يقولها المسلم على سبيل الفريضة مرَّة واحدة في العمر! فمع كون طبيعة الأركان الأخرى كلها موسمية فإنَّ الصلاة هي الركن الوحيد الذي لا بُدَّ من أدائه يوميًّا، وليست مرَّة واحدة في اليوم، بل خمس مرات كاملة، وهي موزَّعة بين النهار والليل؛ ليظلَّ المسلم متذكِّرًا دومًا هذه العبادة شديدة الأهمية.

وكذلك تختلف الصلاة عن بقية الأركان في أنه لا عُذر لمسلم أو مسلمة في تركها -اللهمَّ في حيض المرأة ونفاسها- بينما تُوجد أعذار لعدم أداء الأركان الأخرى، باستثناء شهادة أن لا إله إلا الله؛ فصيام رمضان يُعْفَى منه المريض -مثلًا- فيُؤَجِّل الصيام إلى أن يبرأ، ولو كان مرضه مزمنًا يُمكن أن يُعْفَى من الصيام كليَّة، ويدفع الفدية المفروضة، والمسافر كذلك يُؤَجِّل فريضة الصيام إلى حين عودته من سفره، وآخرون يُعذرون كذلك في مسألة صيام رمضان؛ كالحامل، والمرضِع، والشيخ الكبير، وأصحاب المهام الشاقَّة.. والزكاة لا يُؤَدِّيها المسلم إلَّا إذا

---

(١) الترمذي: كتاب الإيمان. باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠٦٩)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بطرقه وشواهده وهذا إسناد منقطع. والطبراني: المعجم الكبير، (١٧٠٢٣)، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٤٣ (٢٦١٦).

بلغت أمواله النصاب وحال عليها الحول الكامل، وبغير ذلك لا يُؤَدِّي هذا الركن، والحجُّ لا يكون إلَّا مع الاستطاعة الكاملة، وهذا يشمل مالًا وصحَّةً وأمنًا، وغير ذلك مما يحتاجه الحاجُّ ليُؤَدِّيَ الركن، فإن كان المسلم فقيرًا لا يملك نفقة الحجِّ، أو مريضًا لا يقوى عليه، أو خائفًا من غياب الأمن، أو لم يتحصَّل على تصريح بالسفر إلى البلاد المقدَّسة، فإنه في كل هذه الحالات لا يُؤَدِّي الفريضة، ولا شيء عليه.

هذا مع كل الأركان، إلا شهادة التوحيد والصلاة، فلا عُذر في تركها أبدًا أبدًا!

على الصحيح أن يُصَلِّيَ، وكذلك يفعل المريض!

على المقيم أن يُصَلِّيَ، وكذلك يفعل المسافر!

على الغني أن يُصَلِّيَ، وكذلك يفعل الفقير!

على الآمِن أن يُصَلِّيَ، وكذلك يفعل الخائف!

نُصَلِّي قائمين..

فإن لم نستطع فقاعدين!

فإن لم نقدر فمضطجعين!

فإن فشلنا فبعيوننا!

أو بقلوبنا!!

لا يُعذر مسلم عاقل بالغ في تركها أبدًا!

إنها عمود الإسلام..

بغيرها لن يعرف المسلم طريقَه، وسيكون الزيغ والضلال؛ لذلك فهي النور الذي نهتدي به في ظلمات الحياة، بل هي التي تُنير قبورنا حالكة الظلمة، وهي كذلك التي تُنير لنا طريقنا يوم القيامة! ولهذا وصفها رسول الله ﷺ بالنور، فقال: «.. **وَالصَّلَاةُ نُورٌ**..»[1].

الصلاة تعود على المجتمع كلِّه بالخير والبركة؛ فالمُصَلِّي مهما انحرف ستحفظه صلاته يومًا من الاستمرار في طريق الانحراف، وهذا يعود على المجتمع بالأمن والسلامة؛ لذلك يقول الله تعالى: ﴿.. **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**..﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهو ما

(١) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، (٢٢٣)، عن أبي مالك الأشعري ﷺ، والترمذي (٣٥١٧)، والنسائي (٢٢١٧)، وابن ماجه (٢٨٠).

أكَّده رسول الله ﷺ عندما ذكروا له رجلًا يُصَلِّي بالليل، فإذا أصبح سرق! قال: «إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ»(١). أو قال: « إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ»(٢).

والصلاة ثقيلةٌ.. ثقيلةٌ.. في الميزان!

ثقيلة إلى الدرجة التي تُؤَهِّلها بمفردها لترجيح إحدى الكفتين!

لو كانت صالحة ومقبولة فلن تضرَّها -على الأغلب- المعاصي كلها..

ولو كانت فاسدة ومردودة فلن تنفعها -على الأغلب- ملايين الحسنات!

فعن حُرَيْثِ بن قَبِيصة قال: قدمتُ المدينة فقلتُ: اللَّهمَّ يسِّر لي جليسًا صالحًا. قال: فجلستُ إلى أبي هريرة ﷺ، فقلتُ: إنِّي سألتُ الله أن يرزقني جليسًا صالحًا، فحدِّثْني بحديثٍ سمعتَهُ من رسول الله ﷺ لعلَّ الله أن ينفعني به. فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ ﷻ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ. ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»(٣).

فهل بعد هذا يُهمل مؤمن في صلاته؟!

ثم إنها ليست مجرَّد تكليف نُحاسَب عليه يوم القيامة؛ إنها في الحقيقة «صلة» بين العبد وربِّه ﷻ؛ إننا نسمع إلى الله حين نقرأ القرآن، ثم يسمع منا الله ﷻ ما نُريده منه حين ندعوه! ومن هنا جاءت كلمة «الصلاة»؛ حيث إن الصلاة ما هي إلَّا صلة.

---

(١) أحمد (٩٧٧٧)، عن أبي هريرة ﷺ، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. والبيهقي: شعب الإيمان، (٢٩٩١)، وكشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٣٤٦، وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار، ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد، ٢/ ٢٥٨، وقال في موضع آخر: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد، ٧/ ٨٩.

(٢) ابن حبان (٢٥٦٠)، والبزار: البحر الزخار (٩٢١٧)، نسخة وكيع عن الأعمش ص٨٩، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، ٤/ ٢٥٣.

(٣) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (٤١٣) عن أبي هريرة ﷺ، واللفظ له، وقال: حديث حسن. وأبو داود (٨٦٤)، والنسائي (٣٢٥). وابن ماجه (١٤٢٥). وأحمد (١٦٦٦٥)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. والدارمي (١٣٥٥)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والحاكم (٩٦٥)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وله شاهد بإسناد صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ١/ ٢٣٧ (٤١٣).

ما أجمل هذا!

هل نستطيع أن نفعل ذلك دومًا مع ملك أو وزير؟!

بل هل نستطيع أن نفعله دومًا مع آبائنا وأمهاتنا؟

أليست هناك لحظات نقول فيها: الوقت غير مناسب الآن للطلب؛ فلنؤجِّله إلى ظروف أخرى، لعلَّ الإجابة تكون أقرب؟

لكن مع الله ﷻ ليست هناك ظروف! وليس هناك تأجيل!

إنها فرصة هائلة للدخول على ملك السموات والأرض في الوقت الذي تُحدِّده أنت! فيكفي أن تتوضَّأ وتدخل في الصلاة فتكون عنده!

ولعلَّ لهذا السبب فُرِضت الصلوات الخمس في السموات العلا، ولم تُفرض كبقية العبادات في الأرض؛ للإشارة إلى أنها علاقة مباشرة بين العبد المحتاج والربِّ الكريم سبحانه.

إنها فُرِضت في رحلة العروج النبوي العظيم إلى السماء..

وهي في الوقت ذاته معراج المؤمن إلى نفس السماء!!

إلهي..

ما أكرمك!

إذا رأيتَ مسلمًا يعرف كل ما سبق وأكثر، ثم يُهمل في إقامة صلاته، بل يتركها! فماذا تقول في حاله؟

والله إن موقفه لخطير!

ها هو الرسول ﷺ يقول -وهو يُحذِّر المسلمين من خطورة التهاون في أمر الصلاة-: «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»[1]!

واجتهد الفقهاء لفهم النصِّ الخطير المُخَوِّف!

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، (٨٢)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.



فقال بعضهم: هو كفر حقيقي خرج به التارك للصلاة من دينه(١)!

وقال آخرون: بل هو كفر دون كفر، فما زال مسلمًا ما دام ينطق بالشهادتين، لكنه فاسق(٢)!

كافر.. أو فاسق!

هذه هي الصلاة..

فهل نَقْدِر لها قَدْرَها؟!

* * *

(١) جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: ذهب الحنابلة إلى أن تارك الصلاة تكاسلًا يُدعى إلى فعلها، ويقال له: إن صليتَ وإلا قتلناك. فإن صلى وإلَّا وجب قتله ولا يقتل حتى يُحبس ثلاثًا ويُدعى في وقت كل صلاة، فإن صلَّى وإلَّا قُتل حدًّا، وقيل: كفرًا. أي لا يُغَسَّل ولا يُصَلَّى عليه ولا يُدفن في مقابر المسلمين. لكن لا يُرَقُّ ولا يُسبى له أهل ولا ولد كسائر المرتدين. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٧/ ٥٤)، وقال البهوتي الحنبلي: (وكذا تاركها تهاونًا) أو كسلًا لا جحودًا، (ودعاه إمام أو نائبه) لفعلها (فأصرَّ، وضاق وقت الثانية عنها)؛ أي عن الثانية لحديث: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَةُ، وَآخِرَ مَا يَبْقَى الصَّلاةُ». قال أحمد: كل شيء ذهب آخره لم يبقَ منه شيء، فإن لم يُدْعَ لفعلها لم يُحكم بكفره؛ لاحتمال أنه تركها لعُذر يعتقد سقوطها لمثله. (ولا يُقتل حتى يُستتاب ثلاثًا فيهما)؛ أي فيما إذا جحد وجوبها، وفيما إذا تركها تهاونًا، فإن تابا وإلَّا ضُربت عنقهما. انظر: الروض المربع شرح زاد المستقنع في اختصار المقنع، ص٥٢.

(٢) جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: مَنْ ترك الصلاة تهاونًا وكسلًا لا جحودًا؛ ذهب المالكية والشافعية إلى أنه يُقتل حدًّا؛ أي أن حكمه بعد الموت حُكم المسلم فيُغَسَّل، ويُصَلَّى عليه، ويُدفن مع المسلمين؛ لقول النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله».[متفق عليه]؛ ولأنه تعالى أمر بقتل المشركين ثم قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ». فلو كفر لم يدخل تحت المشيئة، وذهب الحنفية إلى أن تارك الصلاة تكاسلًا عمدًا فاسق لا يُقتل، بل يُعَزَّر، ويحبس حتى يموت أو يتوب. الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ٥٣، ٥٤. وانظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، ١/ ٥٠٢-٥٠٥. وقال أبو مالك: وهو مذهب سعيد بن جبير والشعبي والنخعي والأوزاعي وابن المبارك وإسحاق وأصح الروايتين عن أحمد. وأحد الوجهين في مذهب الشافعي. وحكاه ابن حزم عن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة. انظر: صحيح فقه السنة وأدلته وتوضيح مذاهب الأئمة ١/ ٢٢٢.

نعمة الخشوع

هل أنت مستعدٌ لرحلة السماء؟!

كيف تستعدُّ إذا سافرتَ إلى مدينة مجاورة؟!

وكيف إذا كان سفرك إلى دولة غير دولتك؟

بعيدة.. بعيدة؟

فكيف إذا كان إلى السماء؟!

هناك.. هناك..

اخترقنا.. اخترقنا..

بعد الكواكب والنجوم..

والأبراج والأفلاك..

فُتِحَت الأبواب..

هذه هي السماء الأولى..

ثم الثانية، فالثالثة.... فالسابعة!

ما هذه الألوان العجيبة؟

لا ندري ما هي!

آه..

إنها سدرة المنتهى[1]!

---

(١) في قوله ﷺ: «.. ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لا أَدْرِي مَا هِيَ..». البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، (٣٤٢) عن أبي ذرٍّ ﷺ، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض، (١٦٣).

نعم.. المنتهى!!

أنت الآن في حضرة المَلِك!

رب السموات والأرض وما بينهما..

عجيب! كيف انتقلنا إلى هذا المكان؟!

إنها كلمة واحدة!

«الله أكبر»!

تكبيرة الإحرام!

بعدها.. صِرنا معه!!

لو عشنا في الصلاة بهذا التصوُّر لاختلفت درجة خشوعنا اختلافًا جذريًا.. أجسادنا على الأرض، وأرواحنا في السماء.. نَفْقَه بين يدي مَنْ نقف.. نستوعب عروج الأرواح إلى السماء.. نستحضر رحلة النبيِّ الأمين ﷺ إلى سدرة المنتهى.. وفي الوقت ذاته نفهم جيدًا أهداف الصلاة.. وهي في الحقيقة كثيرة..

من هذه الأهداف طاعة الله ﷻ فيما أمر.. واتباع الرسول الهادي ﷺ فيما فعل؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومنها: تعظيم الربِّ سبحانه، وتمجيده وتقديسه، وإعلان عبوديتنا له وحده..

ومنها -كما بيَّنَّا في فصل سابق[1]-: شكر الله ﷻ على نعمه علينا، وحفظه لنا، ومغفرته لذنوبنا..

ومنها: تحصيل الحسنات، وتثقيل الموازين، والتزيُّن ليوم العرض الأكبر..

ومنها: رفع الدرجات، والسبق إلى الجنة.. وفي هذا يحكي لنا أبو هريرة ﷺ موقفًا لطيفًا تظهر فيه قيمة الصلاة -مع الصيام- في رفع الدرجات؛ فقد قال ﷺ: كان رَجُلَانِ من بَلِيٍّ من قُضاعة أَسْلَمَا مع النبي ﷺ، واسْتُشْهِدَ أحدُهما، وَأُخِّرَ الآخر سَنَةً. قال طلحة بن عبيد الله ﷺ: فأُرِيتُ الجنة، فرَأَيْتُ فيها المُؤَخَّرَ منهما أُدْخِل قَبْلَ الشهيد، فَعَجِبْتُ لذلك، فأصبحتُ فذَكَرْتُ

(١) راجع «خشوع الشكر» ص٤٨.

ذلك لرسول الله ﷺ، أو ذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَيْسَ قَدْ صَامَ بَعْدَهُ رَمَضَانَ، وَصَلَّى سِتَّةَ آلَافِ رَكْعَةٍ[(١)] أَوْ كَذَا وَكَذَا رَكْعَةً صَلَاةَ السَّنَةِ»[(٢)]. فانظر كيف يُحصي رسول الله ﷺ الصلاة بعدد الركعات وليس بعدد الصلوات، للدلالة على أهمية كل جزئية من جزئيات الصلاة!

ومنها: البحث عن راحة نفوسنا، وسكون قلوبنا، وهدوء جوارحنا..

ومنها: الانتظام في جسد الأُمَّة الإسلامية، وتعظيم مقدساتها -ومن أهمِّها الصلاة- فهذا توقير للدين، وتمجيد لشريعة الله ﷻ.. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ومنها: الفرار إلى الله بذنوبنا، وسؤال غفرانها والعفو عنها، وليس لنا غيره يغفرها لنا؛ قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ..﴾ [الذاريات: ٥٠]، وروى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»[(٣)]. وفي حديث آخر يذكر أن الصلاة «تغسل» كل الذنوب دون أن يستثني منها صغيرة أو كبيرة؛ فيقول رسول الله ﷺ -فيما رواه أبو هريرة ﷺ-: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟» قالوا: لا يُبْقِي من دَرَنِهِ شَيْئًا. قال: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهَا الْخَطَايَا»[(٤)].

ومنها: تقديم طلباتنا الكثيرة لإصلاح ديننا ودنيانا، وأولانا وآخرتنا، ومعاشنا ومعادنا.. فكل شيء بيده سبحانه، وخزائنه لا تنفد.. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، ولاحظ أسلوب القصر في الآية؛ فهذا يعني أن كلَّ ما نُريده من متاع الدنيا

---

(١) سِتَّةَ آلَافِ رَكْعَةٍ: عدد أيام السنة الهجرية ٣٥٤ يومًا، ونحن نصلِّي في اليوم ١٧ ركعة في صلاة الفريضة، فيصبح عدد الركعات في السنة ١٧×٣٥٤= ٦٠١٨ ركعة! فصلِّ اللهم على معلِّم الناس الخير!

(٢) أحمد (٨٣٨٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وأبو يعلى (٦٤٨)، وقال حسين سليم أسد: رجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد، ١٠/ ٣٣٩، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٩١).

(٣) مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان... (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وأحمد (٩١٨٦)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٢٠٥٤٨).

(٤) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، (٥٠٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، (٦٦٧).

والآخرة موجود في خزائن الله ﷻ!

ومنها:.......

ومنها:.......

لا نستطيع الاستقصاء والحصر، فهذه هي الصلاة!

ولهذا ظَلَّ رسول الله ﷺ يُوصِي بها الأُمَّة حتى اللحظات الأخيرة من حياته، وانظر إلى هذا الوصف المؤثِّر من أنس بن مالك ﷺ وهو يقول: كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِنَفْسِهِ: «الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ!»(١).

حبيبي يا رسول الله..

أبعد كل هذا يُصَلِّي المسلمون صلاتهم بلا خشوع؟!

كلُّ هذه الأهداف الكبرى في الصلاة جعلت العلماءَ يُناقشون مسألة الخشوع في الصلاة من الناحية الفقهية، وهل هو واجب لا تتمُّ الصلاة إلَّا به؟ أم أن الصلاة تَصِحُّ حتى لو صلَّى المسلم بلا خشوع؟

قال ابن تيمية رحمه الله: «إن كانت غفلة الذهن في الصلاة أقلَّ من الحضور، والغالب الحضور، لم تجب الإعادة، ولكن يكون الثواب ناقصًا؛ فإن النصوص قد تواترت بأن السهو لا يُبطل الصلاة، وإنما يُجبر بعضه بسجدتي السهو، وأمَّا إن غلبت الغفلة على الحضور، ففيه للعلماء قولان: أحدهما: لا تصحُّ الصلاة؛ لأن مقصود الصلاة لم يحصل، فهو شبيه صلاة المرائي، وهذا قول أبي عبد الله بن حامد (من أصحاب أحمد بن حنبل)، وأبي حامد الغزالي وغيرهما. والثاني: تبرأ الذمَّة، فلا تجب عليه الإعادة، وإن كان لا أجر له فيها، ولا ثواب، وذلك بمنزلة صوم الذي يقول الزور؛ فقد قال الرسول ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَه»(٢). وهذا هو المأثور عن الإمام أحمد، وغيره

---

(١) ابن ماجه: كتاب الوصايا، باب هل أوصى رسول الله ﷺ (٢٦٩٧)، والنسائي (٧٠٩٤)، وأحمد (١٢١٩٠)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. وأبو يعلى (٢٩٩٠)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير، (١٩٦٤٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٦٣ (٢٢٠٠).

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، (٥٧١٠) واللفظ له عن أبي هريرة ﷺ، والترمذي (٧٠٧)، وأبو داود (٢٣٦٢)، والنسائي (٣٢٤٥)، وأحمد (٩٨٣٨)، وابن حبان (٣٤٨٠).

من الأئمة.. وهذا القول الأخير أرجح؛ فإن النصوص والآثار إنما دلَّت على أن الأجر والثواب مشروط بحضور الذهن، ولكنها لا تدلُّ على وجوب الإعادة»[١].

وأرى أن هذا الاختلاف من رحمة الله بنا، وبصرف النظر عنه فإن إدراك هذا النقاش الفقهي بين العلماء يجعلنا نقدر للخشوع قدره.

ومن هنا فإن اهتمامنا ينبغي ألَّا يقف عند أهمية الصلاة فقط؛ بل من الضروري أن نتجاوز ذلك إلى الحديث عن أهمية «الخشوع» في الصلاة، فإننا لن نسعى ونكِدَّ ونتعب للحصول على شيء إلَّا إذا أدركنا قيمته وأهميته.

ولعلَّ من كبرى ثمرات الخشوع في الصلاة أنه يكون سببًا مباشرًا في غفران الذنوب! ففي الآية الكريمة الجامعة التي جمعت صفات القوم الذين أعدَّ الله تعالى لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا نجد صفة الخشوع بارزة بينهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ولعلَّنا نلاحظ هنا أنه سبحانه لم يذكر «المصلِّين»، إنما حدَّد «الخاشعين»، فليست أيُّ صلاة تضمن لصاحبها المغفرة، إنما المقصود الصلاة الخاشعة.

ولهذه الأهمية القصوى للخشوع نجد رسولَ الله ﷺ يُنبِّه في مواقف كثيرة على علاقة الخشوع بالمغفرة.. فمن هذه المواقف -مثلًا- ما رواه عبادة بن الصامت ﵁ أنه قال: أَشْهَدُ أَنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللهُ تَعَالَى؛ مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ، وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ، كَانَ لَهُ عَلَى اللهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ»[٢]! فانظر إلى الصياغة العجيبة لنصِّ الحديث، حيث جعل الله ﷻ على نفسه عهدًا -ولا يحتاج لذلك- أن يغفر لِمَنْ أتقن صلاته،

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، ٢/ ٢٢٦، وانظر: ابن تيمية: موسوعة فقه السنة.. فقه الصلاة وأحكامها، ص٤٠٦.

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب في المحافظة على وقت الصلوات (٤٢٥)، وأحمد (٢٢٧٥٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبيد الله الصنابحي. والبيهقي: السنن الكبرى، (٦٢٩٢)، والطبراني: المعجم الأوسط، (٤٦٥٨)، وصححه النووي. انظر: خلاصة الأحكام، ١/ ٢٤٦، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٢/ ٣٠٢.

بدايةً من وضوئها، ومرورًا بوقتها والخشوع فيها! أمَّا الذي لا يخشع في صلاته فهو «يُغامر» مغامرة خطرة للغاية! فقد يغفر له الله ﷻ، وقد يُعذِّبه!

وفي موقف آخر يحكي أبو الدَّرْدَاءِ ﷺ فيقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَرْبَعًا -شَكَّ سَهْلٌ[1]- يُحْسِنُ فِيهِمَا الذِّكْرَ وَالْخُشُوعَ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ اللهَ ﷻ غَفَرَ لَهُ»[2]. فهو هنا يُشير إلى الإحسان في الوضوء، وكذلك الإحسان في الصلاة، عن طريق الخشوع والتدبُّر في الذِّكر أثناء الصلاة، ولكنه يُضيف الاستغفار بعد الصلاة، وعندها يغفر الله للمُصلِّي.

وفي موقف ثالث يُؤكِّد رسول الله ﷺ أن كلَّ صلاة خاشعة تُكَفِّر ما قبلها من ذنوب، باستثناء الكبائر التي تحتاج إلى توبة خاصة؛ فقال ﷺ: «مَا مِن امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»[3].

بل أكثر من ذلك ما رواه عمرو بن عَبَسَة السُّلَمِيُّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «... فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لله إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[4]! فهو هنا يشرح حالة عجيبة تُمحى فيها كلُّ ذنوب المُصلِّي، فيخرج من ذنوبه «كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»! وهذا شريطة أن يُفرِّغ قلبه لله ﷻ في هذه الصلاة، وهي درجة رفيعة من درجات الخشوع، ويُؤكِّد هذا المعنى ما فعله عثمان بن عفان ﷺ، حيث توضَّأ ذات يوم، ثم قال لأصحابه: رأيتُ رسول الله ﷺ توضَّأ نحو وُضوئي هذا، ثمَّ قال: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غَفَرَ اللهُ لَهُ

---

(١) واقع الأمر أن أحد رواة الحديث وهو أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَهِمَ فِي اسْمِ مُحَدِّثِهِ! فَقَالَ: سَهْلُ بْنُ أَبِي صَدَقَةَ، وَإِنَّمَا هُوَ صَدَقَةُ بْنُ أَبِي سَهْلٍ الْهُنَائِيُّ، وصَدَقَة هو الذي شكَّ أقال الرسول ﷺ: ركعتين، أم أربع. وصَدَقَة ~ من الثقات، قال الذهبي: روى الكوسج، عن ابن معين: ثقة. ميزان الاعتدال ٢/ ٣١٠، وانظر: شمس الدين أبو المحاسن: الإكمال في ذكر من له رواية في مسند الإمام أحمد من الرجال ص١٨٣.

(٢) أحمد (٢٧٥٨٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٣٣٩٨).

(٣) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، (٢٢٨) عن عثمان بن عفان ﷺ، وابن حبان (١٠٤٤)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٣٣٩٧).

(٤) سبق تخريجه ص٧٢.

مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[١]

أليس الخشوع في الصلاة بهذه الصورة نعمة كبيرة من نعم الله ﷻ على المسلمين؟

بلى والله!

ما أروع هذه النعمة التي تستوجب غفران الله ﷻ، ومحو الخطايا، وتكفير الذنوب!

ولا يتوقَّف نفع الخشوع للمسلم عند مغفرة الذنوب ومحو الخطايا، بل يتجاوز ذلك إلى الترقِّي بالمسلم في الجنة إلى درجات لا يبلغها عامَّة الناس! فالخاشعون في صلاتهم لهم مكانة خاصَّة في الجنة لا تصلح لغيرهم! قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، فالله أثبت هنا الفلاح للخاشعين فقط، وليس لعامَّة المُصلِّين، ووعدهم في نهاية الآيات بميراث الفردوس، والخلود فيها، فما أروعه من جزاء! قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]. والخلود في الفردوس ليس كالخلود في أي مكان في الجنة! ولا يقولنَّ أحد: يكفيني دخول الجنَّة في أي مكان! فإنَّ رسول الله ﷺ عَلَّمنا أن نرتقي بطموحنا إلى العلا، فقال: «.. فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»[٢]. فهل أدركتَ الآن معنى الفردوس؟ وهل تتخيَّل هذه المكانة؟! إنها للخاشعين في صلاتهم!

وليست ثمرات الخشوع في الصلاة أخروية فقط!

إنما نشعر بآثارها العظيمة في الدنيا كذلك، ومن أبرز هذه الآثار أنها تُساعدنا على المحافظة على الصلاة نفسها! فالمُصَلِّي الذي لا يشعر بالخشوع في صلاته يستثقل هذه الصلاة، ويرى أنها عبء على كاهله، وكثيرًا ما يُؤَخِّرها إلى آخر وقتها، وقد يفوت وقتها بالكليَّة، ولا يخفى على أحد خطورة هذا السلوك، وهي صفة من صفات المنافقين؛ فقد قال أنس بن مالك ﷺ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم، (١٨٣٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، (٢٢٦) واللفظ له.

(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، (٢٦٣٧) واللفظ له عن أبي هريرة ﷺ، وأحمد (٢٢١٤٠)، وابن حبان (٧٣٩٠)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٧٥٤٤).

بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»(١). أمَّا الخاشعون في صلاتهم فإنهم لا يمرُّون بهذه التجارب السلبية؛ بل ينجحون في الامتحان الصعب، وهو امتحان المحافظة على الصلوات في أوقاتها، وبالطريقة التي شرعها لنا رسول الله ﷺ، وهو امتحان وصفه الله ﷻ بأنه «كبير»! قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالاستعانة بالصلاة أمر كبير وشاقٌّ على عموم الناس، ويُستثنى «الخاشعون» من هذه المشقَّة؛ فهم يجدون الأمر سهلًا عليهم، مُيَسَّرًا محببًا، فتكثر استعانتهم لذلك بالصلاة.

وفوق ذلك فالخشوع يُساعد المسلم على الخروج من أزماته الدنيوية التي تعترض طريق حياته، وما أكثر هذه الأزمات! وقد قال الله ﷻ وهو يصف حال الإنسان في الأرض: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، وكثيرًا ما يرفع الناس أيديهم بالدعاء لفكِّ الكُرَب، وحلِّ الأزمات، فلا تتحقَّق الإجابة! أمَّا الخاشعون فأمرهم مختلف!

هل تُريد دعوة مجابة؟!

هل تُريد ولدًا طيبًا؟!

هل تُريد زوجة صالحة؟!

انظر إلى المنهج الإلهي في الحصول على هذه النعم:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]!

لقد ذكر لنا الله ﷻ قصَّة هذا النبي الكريم زكريا عليه السلام لنعتبر بها، فهو قد بلغ من الكِبَرِ عتيًا، وكانت امرأته عاقرًا، وكلُّ الأحوال الدنيوية تقضي باستحالة الحمل والولادة، لكن ما رأيناه أن الله ﷻ هيَّأ المرأة العاقر، ورزقهم الولد الصالح.. نعم هذه معجزة خاصَّة بالأنبياء، لكن الله ﷻ لم يكتفِ بذكر المعجزة، إنها ذكر في الآية المبرِّرات التي من أجلها استجاب الله ﷻ لزكريا عليه السلام؛ لكي لا تتوقَّف مسيرة الخير إلى يوم القيامة، فكلَّما احتاج الإنسان إلى الخروج من

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالعصر. (٦٢٢)، والترمذي (١٦٠)، والنسائي (١٤٩٧)، وأحمد (١٨/١٢)، وأبو يعلى (٣٦٩٦).

أزمة، أو إلى حلِّ مشكلة، لجأ إلى المنهج الرباني الواضح..

إنه منهج لتحقيق نِعَم الدنيا، وبعدها نِعَم الآخرة:

- المسارعة في الخيرات.
- الدعاء راغبين في عطاء الله ﷻ وجنَّته، وراهبين من منعه وناره.
- ثم ختم بالخشوع!

ومَنْ أراد حلَّ أزماته بغير هذا الطريق فلن يزيدها في الواقع إلَّا تعقيدًا! لذلك كان هذا الخشوع هو المنهج العملي لرسول الله ﷺ إذا مرَّ بأزمة أو ضائقة؛ فقد كان يُسرع حينها إلى الصلاة، فيطمئن فيها، فيجد الفَرَجَ، وييسر له ربُّنا بها أمورَه، وهذا ما عناه حذيفة بن اليمان ﷺ حين قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»[1]

إن الخاشعين قومٌ فَرَّغوا قلوبهم لله ﷻ، فألقى الله سبحانه عليهم جلالًا من جلاله، وهيبة من هيبته، ونورًا من نوره، فلا يراهم أحد إلَّا وأحسَّ بخشوعهم، ولا يتعامل معهم إنسان إلَّا رقَّ لهم، واطمأنَّ إليهم، بل يرى الناسُ على وجوههم ما يكشف عن قلوبهم النقية، وأرواحهم الزكيَّة.. إن هذا ليس وهمًا أو خيالًا؛ بل هو حقيقة مشاهَدَة، وأمر محسوس ملموس! وانظر إلى قيس بن عُبَادٍ[2] ﷺ، وهو من كبار التابعين، وهو يحكي عن رؤيته لرجل خاشع!

يقول قيس بن عباد: كُنْتُ جَالِسًا في مسجد المدينة فدخل رَجُلٌ عَلَى وَجْهِهِ أَثَرُ الخُشُوعِ، فقالوا: هذا رجلٌ من أهل الجنَّة. فصلَّى ركعتين تجوَّز فيهما ثمَّ خرج، وَتَبِعْتُهُ فَقُلْتُ: إنَّك حين دخلتَ المسجد قالوا: هذا رجلٌ من أهل الجنَّة. قال: والله! ما ينبغي لأحدٍ أن يقول ما لا

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل، (١٣١٩)، وأحمد (٢٣٣٤٧)، والبيهقي: شعب الإيمان، (٣١٨١)، وقال ابن حجر العسقلاني: أخرجه أبو داود بإسناد حسن. انظر: فتح الباري، ٣/ ١٧٢، وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٥/ ٦٥.

(٢) هو: قيس بن عباد، أبو عبد الله، القيسي، الضبعي، البصري، من كبار التابعين، قال ابن سعد: كان ثقة قليل الحديث. وذكره العجلي في التابعين، وقال: ثقة من كبار الصالحين. ووثقه النسائي وغيره، وذكره ابن قانع في معجم الصحابة، وأورد له حديثًا مرسلًا، وقيل: خرج مع ابن الأشعث فشهد معه مواطنه كلها يُحرِّض الناس، حتى إذا أهلكهم الله جلس في بيته، فبعث إليه الحجاج فضرب عنقه. توفي بعد سنة ٨٠هـ. ابن حجر: الإصابة، ٥/ ٥٣٥ (٧٣٠٧)، والمزي: تهذيب الكمال، ٢٤/ ٦٤-٦٩.

يعلم، وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ، رأيتُ رُؤيا على عهد النبي ﷺ، فقصصتُها عليه، ورأيتُ كأنِّي في رَوْضَةٍ -ذَكَرَ من سَعَتِهَا وَخُضْرَتِهَا- وَسْطَهَا عَمُودٌ من حديدٍ؛ أسفلُه في الأرض، وأعلاه في السماء، في أعلاه عُرْوَةٌ، فقيل: لي ارْقَ. قلتُ: لا أستطيع. فأتاني مِنْصَفٌ[١] فرفع ثيابي من خَلْفِي فَرَقِيتُ، حتى كنتُ في أعلاها، فأخذتُ بالعُرْوة. فقيل له: استمسكْ. فَاسْتَيْقَظْتُ وإنَّها لَفِي يدي، فقصصتُها على النبي ﷺ، قال: «تِلْكَ الرَّوْضَةُ الإِسْلَامُ، وَذَلِكَ الْعَمُودُ عَمُودُ الإِسْلَامِ، وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَى، فَأَنْتَ عَلَى الإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ»[٢]!

وهذا الرَّجُلُ الذي تحدَّث عنه قيس هو الصحابي الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه، والشاهد من الموقف أن قيسَ بن عُبَاد رضي الله عنه رأى أثر الخشوع على وجه الصحابي الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وأدرك ذلك دون أن يُخبره بذلك أحد! وهذا لون من الإكرام الذي يرزقه الله عز وجل لعباده الصالحين الخاشعين؛ بل قد يراهم الإنسان فيقع في قلبه حبُّهم قبل أن يتعرَّف عليهم، أو يتكلَّم معهم! وهو ما حدث -مثلًا- مع الصحابي الخاشع العالِم معاذ بن جبل رضي الله عنه، حيث رآه التابعيُّ الجليل أبو مسلم الخولاني[٣] فأحبَّه قبل أن يتكلَّم معه، أو يتعامل معه! يقول أبو مسلم رضي الله عنه: «دخلتُ مسجد حِمْصَ، فإذا فيه نحوٌ من ثلاثين كهلًا من أصحاب النبي ﷺ، فإذا فيهم شابٌّ أَكْحَلُ العينين، بَرَّاقُ الثَّنَايَا، ساكتٌ، فإذا امْتَرَى الْقَوْمُ فِي شيءٍ أَقْبَلُوا عليه فسألوه، فقلتُ لجليسٍ لي: مَنْ هذا؟ قال: هذا معاذ بن جَبَلٍ. فوَقَعَ له في نفسي حُبٌّ!»[٤].

---

(١) المنصف: الخادم، وقيل: هو الوصيف الصغير المدرك للخدمة. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٧/ ١٣١، والنووي: المنهاج ١٦/ ٤٢.

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه، (٣٦٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل عبد الله بن سلام رضي الله عنه، (٢٤٨٤).

(٣) هو: أبو مسلم الخولاني، عبد الله بن أثوب، الزاهد، اليماني، الشامي، ثقة عابد من كبار التابعين، أدرك الجاهلية، أسلم في حياة رسول الله ﷺ ولم يره، وقدم المدينة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وله كرامات وفضائل؛ قيل: لما تنبأ الأسود باليمن بعث إلى أبي مسلم، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم. فأمر بنار عظيمة، وألقاه فيها فلم يضره ذلك، فأمره بالرحيل حتى لا يُفسد عليه من اتبعه. توفي سنة ٦٢هـ. ابن عبد البر: الاستيعاب، ٣/ ٨٧٦، ٤/ ١٧٥٧-١٧٥٩، وابن الأثير: أسد الغابة، ٣/ ١٩٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/ ٧-١٤، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٧/ ٥٥، ٥٦.

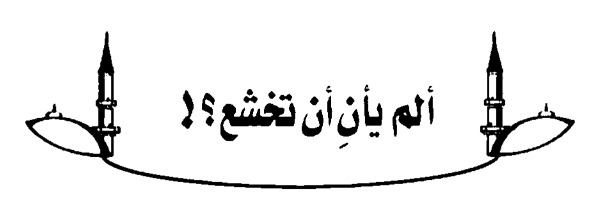
(٤) وقوله هذا في حديث: «الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ». رواه أحمد (٢٢١٣٣) واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير حبيب بن أبي مرزوق فقد روى له الترمذي والنسائي وهو ثقة. والموطأ – رواية يحيى الليثي (١٧١١). وابن حبان (٥٧٥)، والحاكم (٧٣١٤)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٦٩٠٧).

إن ما حدث مع عبد الله بن سلام ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ليس أمرًا عجيبًا، أو حدثًا نادرًا، بل هو سُنَّة مُطَّرِدة، وقانون ثابت، فهذا يحدث مع كلِّ الصالحين الخاشعين، الذين فازوا بحبِّ الله عز وجل، فزرع الله حبَّهم في قلوب عباده، وهو ما حكاه لنا رسول الله ﷺ عندما قال: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ. فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ»[1]!

حبٌّ من الله عز وجل..
وحبٌّ من جبريل..
وحبٌّ من أهل السماء..
وحبٌّ من أهل الأرض..
إنها -والله- لنعمة جليلة..
نعمة الخشوع!

---

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (٣٠٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، (٢٦٣٧).



مع كل ما ذكرناه في الصفحات السابقة فإن الواقع يقول: إن كثيرًا من المسلمين يعرفون كلَّ ما سبق وأكثر، ولكنهم ما زالوا «متردِّدين» في بحث مسألة الخشوع في حياتهم!

إنهم مؤمنون.. لا نُجادل في هذا..

وهم كذلك عالمون؛ حافظون للآيات والأحاديث..

موقنون بالبعث والحساب..

بل هم يخافون من الله ﷻ، ويعلمون أنهم موقوفون بين يديه!

إذًا.. ما يمنعهم من الخشوع؟!

أتدرون ماذا؟!

إنه التسويف!

غدًا..

أو بعد غدٍ..

أو في رمضان..

أو لعلَّه بعد الحجِّ!

وفجأة..

يأتي مَلَكُ الموت!

أو قد يموت القلب.. بلا ملك الموت!!..

يموت القلب وهو ما زال ينبض!!

يقسو!

يتحجَّر!!

أليس هذا موتًا؟!

لا تظنُّوا أنفسكم بعيدين عن هذه الصورة القاتمة! نحن لا نتحدَّث هنا عن منافقين.. إنما نتحدَّث عن مؤمنين لم يُعطوا للقضية اهتمامًا كبيرًا، وسَوَّفوا، وماطلوا، وتقاعسوا، وتكاسلوا، وانشغلوا بدنيا، أو قد يُشغلوا أحيانًا بدِين!!

هل يمكن أن نُشْغَل بالدِّين عن الخشوع؟!

صدِّقوني يمكن!

بل يحدث كثيرًا..

ننشغل بهموم الأُمَّة، وكبريات المشاكل والأزمات، ونتحدَّث عن الاستراتيجيات والأيدولوجيات! ونعقد المناظرات والمناورات.. ونضع البرامج والخطط والترتيبات..

نفعل ذلك وأكثر!

وننشغل بذلك وأكثر!

وفي خِضَمِّ كلِّ هذا..

ننسى قلوبنا!

مسكينة قلوبنا!

حياتها في الصلاة.. وما عندنا خشوع في الصلاة!

نجاتها في القيام.. وما عندنا وقت للقيام!

مسكينة قلوبنا!

وإلى أمثال هذه القلوب الناسية المنسية جاء النداء الرباني الرقيق..

جاء من الرحيم..

الذي لا يضلُّ ولا ينسى..

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

كيف أنت بعد أن سمعتَ النداء؟!

لا.. لا.. لستُ أنا!

أنا ما قسى قلبي، وما تحجَّر!

رويدًا..

هذا خطاب «للذين آمنوا»!

هذه يدٌ حانية تَرْبِتُ على كَتِفِك..

هذا نداء يُحَذِّرك في حبٍّ..

يُخَوِّفُك في شفقة!

أقول لك:

هذا نداء رب العالمين لخير الناس بعد الأنبياء!

يقول رسول الله ﷺ وهو يصف الجيل الذي عاصره من الصحابة: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ..**»(١).

لقد نزل هذا النداء الرباني للصحابة الكرام! مع علوِّ قدرهم، وسموِّ مكانتهم..

والمفاجأة الكبرى!

إنه لم ينزل بعد انفتاح الدنيا، وكثرة الأموال، ولا بعد تحقُّق الانتصارات، وكثرة الفتوحات، ولا بعد مراسلات أمراء الدنيا، ولا بعد قدوم الوفود!

إنه لم ينزل بعد كل هذا!

إنما نزل بعد أربع سنوات فقط من نزول القرآن!!

نزل هذا النداء الرقيق في مكة المكرمة!

في زمن الضيق والشِّدَّة..

في زمن القهر والتعذيب..

نزل على دِعامة الإسلام الأولى..

على المهاجرين.. الصابرين.. المحتسبين!!

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما كان بين إسلامِنا وبين أنْ عاتَبَنَا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ

---

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم، (٣٤٥١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، (٢٥٣٣).

لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾، إلَّا أربعُ سنين»[١]!

لا تتخيَّلوا -إذًا- أن هذا بعيد عنَّا..

بل هو -والله- قريب! جدُّ قريب!

ما العمل؟!

العمل هو التوازن في رؤية الصلاة، وفي رؤية الخشوع.. بمعنى أن نُدرك أن الله ﷻ ليس غفورًا رحيمًا فقط؛ ولكنه في الوقت نفسه شديد العقاب! وأنه كما وعدنا الجنات العظيمة خَوَّفنا من النيران الأليمة.. وأننا -وإن كنا نرضيه سبحانه بالخشوع والإخبات- فإننا نُغضبه بالشرود والالتفات..

إنَّ سَبْق الصحابة وعظمة مكانتهم لم تكن عذرًا كافيًا أو مناسبًا لهم لفقد الخشوع أو نقصانه! لقد نزلت الآيات تُعاتبهم على التقصير.. نعم نزلت الآيات بأسلوب رقيق لطيف؛ لكنها في النهاية عتاب، كما أنها تحمل بين طيَّاتها تحذيرات خطيرة جدًّا! فالآية تُحَذِّر من سلوك طريق أهل الكتاب؛ الذين نسوا قلوبهم ردحًا طويلًا من الزمن، فقست وتحجَّرت؛ ومن ثَمَّ جاء الفسوق!

إنه طريقٌ واضحٌ إذًا!

إهمال للخشوع..

قسوة في القلب..

ثم في النهاية فسوق!

هل نظرنا إلى المسألة بهذه الرؤية؟!

إنها -في الحقيقة- رؤية خطيرة!

ليست مسألة الخشوع -إذًا- مجرَّد تكثير حسنات، أو بحث عن الاستمتاع بالصلاة؛ إنما الأمر أخطر من ذلك! إن غيابَ الخشوعِ نذيرُ انحرافٍ عن جادَّة الطريق، والذي لا يخشع في صلاته سيقسو قلبُه؛ ومن ثَمَّ يُقْبِلُ على المعاصي غير عابئ بها ولا بمغبَّتها..

---

(١) مسلم: كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ [الحديد: ١٦]، (٣٠٢٧)، والنسائي (١١٥٦٨).

لكل ما سبق وجدنا تحذيرات كثيرة في القرآن والسُّنَّة من غياب الخشوع؛ ومواقف الصالحين تُوَضِّح لنا خطورة إهمال إتقان الصلاة، والخشوع فيها.. ولعلَّ من أبرز هذه التحذيرات وأخطرها ما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]. فالآية هنا لا تتكلَّم عن قوم هجروا الصلاة وتركوها بالكليَّة، إنما تتكلَّم في واقع الأمر عن «مُصَلِّين»! وعلى الرغم من أنهم مصلُّون، فإن الله توعَّدهم بالويل والثبور! لماذا؟! لأنهم «سَهَوْا» عن صلاتهم، فلم يُصَلُّوها في وقتها، ولم يُعطوها قدرها، ولم يُحسِنوا قيامها أو ركوعها أو سجودها، ولم يخشعوا فيها..

إن صلاتهم كانت عبارة عن حركات لا معنى لها!

قيام دون تدبُّر..

ركوع دون خشوع..

سجود دون خضوع!

أيُّ صلاةٍ هذه؟!

لذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعليقًا على هذه الآية: «وليس السهو عنها تركها، وإلَّا لم يكونوا مُصَلِّين، وإنما هو السهو عن واجبها: إمَّا عن الوقت، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، وإما عن الحضور والخشوع، والصواب أنه يعمُّ النوعين؛ فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها، وحضورها الواجب؛ ولذلك وصفهم بالسهو، ولو كان السهو تركًا لما كان هناك رياء..»[1].

ولقد عَبَّر رسول الله ﷺ تعبيرًا غريبًا عجيبًا عن أولئك الذين لا يُحسنون صلاتهم، ولا يخشعون فيها!

إنه اعتبرهم «لصوصًا»!! بل اعتبرهم أسوأ اللصوص!

فقد روى أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ». قالوا: يا رسول الله؛ وكيف يسرق من صلاته؟ قال: «لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا». أو قال: «لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ»[2]. فهذه أسوأ السرقات حقًّا!

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين، ١/ ٥٢٧.

(٢) الموطأ - رواية يحيى الليثي (٤٠١)، وأحمد (٢٢٦٩٥)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح.=

فالسارق هنا يسرق أغلى الأشياء.. وهل هناك ما هو أغلى من الصلاة؟! كما أن هذه السرقة يعود ضررُها على العبد في الدنيا والآخرة، وهي سرقة تدلُّ على عمى البصيرة؛ حيث يُؤذي الإنسان نفسه دون دراية، وفوق كلِّ ذلك فإن فيها سوء أدب مع الله ﷻ الذي نتوجَّه إليه بهذه الصلاة!

إنها سرقة شنيعة حقًّا!

وكيف يكون أجرنا في مثل هذه الصلوات المسروقة؟!

يُخطئ كثير من الناس عندما يظنُّون أن أجر الصلاة عبارة عن رقم محدَّد ثابت من الحسنات! إن الله تعالى لا يظلم أبدًا.. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال كذلك في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي؛ إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي..»[1]. ومحال أن يكون أجرُ خاشع مُتبتِّل كغافلٍ ساهٍ! بل ليس كل الخاشعين سواء، وليس كل الغافلين سواء؛ فدرجات الخشوع -وكذلك درجات الغفلة- لا حصر لها، ولا نعني هنا درجات «هرم الخشوع» التي ذكرناها قبل ذلك؛ ولكن أعني أنَّه داخل كل درجة من درجات «هرم الخشوع» ما لا يُحصى من الدرجات المتفاوتة، وذلك لأن الحساب بالذَّرَّة! بل أدنى من الذَّرَّة! قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]؛ لذا فالرجل يُصَلِّي في الصفِّ إلى جوار الرجل، والفرق بينهما في الأجر كما بين السماء والأرض! بل إن الإنسان نفسه يأخذ أجرًا معيَّنًا في إحدى صلوات اليوم، ويأخذ أجرًا مغايرًا في الصلاة ذاتها في اليوم التالي! والأمر كلُّه مرتبط ارتباطًا وثيقًا للغاية بالخشوع أو الغفلة!

ونحن نجد تفسيرًا مباشرًا لهذه المعاني في كلمات كاشفة بيِّنة لرسول الله ﷺ.. فعن عمار بن ياسر ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ، وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا

=والدارمي (١٣٢٨)، وابن خزيمة (٦٦٣)، وابن حبان (١٨٨٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وأبو يعلى (١٣١١)، والحاكم (٨٣٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي: السنن الكبرى، (٣٨٠٩)، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٣/ ٣٥٧.

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٢٥٧٧)، واللفظ له عن أبي ذرٍّ ﷺ، وأحمد (٢٥٧٧)، وابن حبان (٦١٩)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١١٢٨٣).

عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا»[١]. فالكلمات في منتهى الوضوح والإبانة.. والأجور متفاوتة للغاية، وما كُتِبَ لك من الأجر مقرون بدرجة الخشوع لا محالة، وهذا ما دفع حبر الأُمَّة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إلى أن يقول كلمته المشهورة: «لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلاتِكَ إِلَّا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا»[٢]. وهذا الكلام وإن لم يكن مرفوعًا إلى الرسول ﷺ فإنه مستنبط من كلامه، ومعناه صحيح بلا ريب، وعلى المسلم أن يتدبَّر في هذه المسألة حتى لا يُفجع يوم القيامة بما لا يتخيَّله!

وأشنع من كل ما سبق -وهو بهذه الرؤية أمر متوقَّع- أن تُرْفَضَ الصلاة بالكليَّة من ربِّ العالمين! فلا أجر، ولا ثواب؛ بل نكال وعقاب!

فهذا طلق بن علي الحنفي[٣] رضي الله عنه ينقل لنا قولًا مُخَوِّفًا لرسول الله ﷺ يقول فيه: «لَا يَنْظُرُ اللهُ عز وجل إِلَى صَلَاةِ عَبْدٍ لَا يُقِيمُ فِيهَا صُلْبَهُ بَيْنَ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا»[٤]. فكيف تتخيَّل الأجر في صلاة لم ينظر إليها ربُّ العالمين غضبًا من العبد الغافل، ورفضًا لصلاته؟! إن هذه العجلة في الصلاة أذهبت خشوعها، كما أن نقص الخشوع يدفع المرءَ إلى الإسراع في صلاته؛ لأنه يشعر أنها عبء على أكتافه! وهكذا يدخل العبد في دائرة تعيسة مغلقة! سرعةٌ في الصلاة تدفع إلى نقص في الخشوع، ونقصٌ في الخشوع يدفع إلى سرعة في الصلاة.. وهكذا حتى يصل الأمر إلى إغضاب ربِّ العالمين، فلا ينظر إلى هذه الصلاة العبثيَّة!!

أليس هذا شيئًا مُرعِبًا؟!

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة (٧٩٦)، والنسائي (٦١٢)، وأحمد (١٨٩١٤)، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح. وابن حبان (١٨٨٩)، وأبو يعلى (١٦١٥)، قال حسين سليم أسد: إسناده حسن. والبيهقي: السنن الكبرى، (٣٣٤٢)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٣/ ٣٨٢.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، ٥/ ١٣٢، ٦/ ١٣٤، والذهبي: المنتقى من منهاج الاعتدال، ص٣٩٨. وقال الغزالي: وقال ﷺ: «لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا». وقال الزين العراقي: «لم أجده مرفوعًا». انظر: أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، للعراقي، ١/ ١٥٩، وقال الألباني: «لا أصل له مرفوعًا، وإنما صحَّ عن بعض السلف». انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، (٦٩٤١).

(٣) هو: طلق بن علي بن المنذر بن قيس الحنفي، صحابي، أحد الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ، وعمل معه في بناء المسجد. ابن عبد البر: الاستيعاب، ٢/ ٧٧٦، ٧٧٧، والمزي: تهذيب الكمال، ١٣/ ٤٥٥، والصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/ ٢٨٢، وابن حجر: الإصابة، ٣/ ٥٣٨ (٤٢٨٧).

(٤) أحمد (١٦٣٢٦) واللفظ له، والطبراني: المعجم الكبير، (٨٢٧٧)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد، ٢/ ٣٠٢، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٢٥٣٦).

وهذه الدائرة التعيسة المغلقة تُفسِّر لنا أقوالًا ومواقف لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﷺ، وهي مواقف حقيقية ليست من قبيل ضرب المَثَل أو مجرَّد التخويف!

فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي سِتِّينَ سَنَةً، وَمَا تُقْبَلُ لَهُ صَلَاةٌ، لَعَلَّهُ يُتِمُّ الرُّكُوعَ، وَلَا يُتِمُّ السُّجُودَ، وَيُتِمُّ السُّجُودَ، وَلَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ»[1]. فهذا رجل طال به العهد على هذه الصلاة العبثيَّة المنقوصة، وبلغ الأمر به أن صلَّى ستين سَنَة كاملة! ومع ذلك فالنتيجة كانت مخزية! لقد رُفِضَت الصلاة كلها!

رُفِضَت صلاة ستين سنة!

إن الأمر جدٌّ ليس بالهزل!

إنه لم يشفع للرجل طول عبادته على مرِّ السنين؛ فلقد صلَّى بطريقة مغايرة للطريقة التي جاء بها نبي الهدى ﷺ، وهذه الطريقة التي «ابتدعها» هذا الرجل أضاعت عليه تعب العمر!

ويُؤَكِّد هذا المعنى ما رواه أبو عبد الله الأشعري ﷺ من أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا لا يُتِمُّ ركوعه وينقر في سجوده وهو يُصَلِّي، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ مَاتَ هَذَا عَلَى حَالِهِ هَذِهِ، مَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ». ثُمَّ قال ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي لَا يُتِمُّ رُكُوعَهُ، وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ، مَثَلُ الْجَائِعِ يَأْكُلُ التَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَيْنِ لَا يُغْنِيَانِ عَنْهُ شَيْئًا[2]»[3].

إن هذا الموقف يُضيف بُعْدًا جديدًا خطيرًا، وهو أن الرجل قد مات «على غير ملَّة محمد»

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ١/ ٢٨٨ عن أبي هريرة ﷺ، والأصبهاني: الترغيب والترهيب، ٢/ ٤٢٦ (١٩٢٢)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ١٢٧ (٥٢٩).

(٢) دلت هذه الأحاديث على أن إتمام الركوع والسجود في الصَّلاة واجب، وأن تركه محرَّم، ولولا ذلك لم يكن تاركه خارجًا من الدين؛ بل هو يدلُّ على أن تاركه تارك للصلاة، فإنه لا يخرج من الدين دون ترك الصلاة، كما في الحديث عن النبي ﷺ قال: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ». وفي رواية: «فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ». وأمَّا المثل المضروب في هذا الحديث لمن لا يُتِمُّ ركوعه ولا سجوده ففي غاية الحُسن؛ فإن الصلاة هي قوت قلوب المؤمنين وغذاؤها، بما اشتملت عليه من ذكر الله ومناجاته وقربه، فمَنْ أتمَّ صلاته فقد استوفى غذاء قلبه وروحه، فما دام على ذلك كملت قوته، ودامت صحته وعافيته، ومَنْ لم يُتِمّ صلاته فلم يستوفِ قلبه وروحه قوتها وغذاءها، فجاع قلبه وضعف، وربما مرض أو مات؛ لفقد غذائه، كما يمرض الجسد ويسقم إذا لم يُكمل تناول غذائه وقُوته الملائم له. ابن رجب: فتح الباري، ٥/ ٥٢.

(٣) أبو يعلى (٧١٨٤)، وقال حسين سليم أسد: إسناده جيد. والطبراني: المعجم الكبير، (٣٨٤٠)، وابن خزيمة (٦٦٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وأبو يعلى وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد، ٢/ ٣٠٣، وحسن إسناده الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ١٢٧ (٥٢٨).

ﷺ!! ووقف العلماء أمام هذا الأمر طويلًا.. قال بعضهم: إن هذا يعني كفره، وخروجه من الإسلام. وقال آخرون: إن هذا على سبيل الردع(١)!

ما الأمر؟!

ليست القضية هامشية في حياتنا..

بل إننا نهتمُّ بالتفاصيل الدقيقة في كثير من القضايا الهامشية جدًّا في حياتنا، ثم نهمل في صلاةٍ إهمالًا يُخرِج من الملَّة!

بعضنا يعرف بدقَّةٍ أسعارَ بيع لاعبي الكرة!

بعضنا يُتابع أجور الفنانين!

بعضنا «يحترف» حلَّ الكلمات المتقاطعة والسودوكو(٢) وألعاب الفيديو!

ثم لا يجد بعد هذا وقتًا لإتقان الصلاة، أو تعلُّم قراءة القرآن!

ولعلَّ هذا هو السبب وراء عدم نظر ربِّ العالمين إلى هذه الصلاة، ورفضها كلها.. إنها أُقيمت بلا اكتراث ولا اعتناء، وليس للعبد أن يتعامل مع الربِّ بهذه الصورة غير اللائقة!

---

(١) ذهب جمهور الفقهاء (المالكية والشافعية والحنابلة وأبو يوسف من الحنفية) إلى أن الطمأنينة في الركوع بقدر تسبيحة فرض، لا تصحُّ الصلاة بدونها. ومن أدلة الجمهور على وجوب الطمأنينة: قوله ﷺ في قصة المسيء صلاته: «ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا». الحديث. ولقول النبي ﷺ: «أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ»... ورُوي عن النبي ﷺ أنه كان إذا ركع استوى، فلو صُبَّ على ظهره الماء لاستقرَّ؛ وذلك لاستواء ظهره ولاطمئنانه فيه... وقد رأى أبو حذيفة رضي الله عنه رجلًا لا يتم الركوع والسجود فقال: ما صليت، ولو مت مت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمدًا ﷺ. فإذا رفع رأسه من الركوع ثم شك هل أتى بقدر الإجزاء أو لا، لا يعتد به ويلزمه إعادة الركوع؛ لأن الأصل عدم ما شك فيه. وذهب الحنفية إلى أن الطمأنينة في الركوع ليست فرضًا، وأن الصلاة تصح بدونها؛ لأن المفروض من الركوع أصل الانحناء، والميل، فإذا أتى بأصل الانحناء فقد امتثل، لإتيانه بما ينطلق عليه الاسم الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧]، الآية. أما الطمأنينة فدوام على أصل الفعل، والأمر بالفعل لا يقتضي الدوام. وهي عندهم من واجبات الصلاة، ولهذا يكره تركها عمدًا، ويلزمه سجود السهو إذا تركها ساهيًا، وذكر أبو عبد الله الجرجاني أنها سُنَّة عند أبي حنيفة ومحمد ولا يلزم بتركها سجود السهو، وروى الحسن عن أبي حنيفة فيمن لم يُقم صلبه في الركوع، إن كان إلى القيام أقرب منه إلى تمام الركوع لم يجزئه، وإن كان إلى تمام الركوع أقرب منه إلى القيام أجزأه، إقامة للأكثر مقام الكل. الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٣/ ١٢٧، ١٢٨. وقال الشوكاني: والحديث يدلُّ على وجوب الطمأنينة في الركوع، والسجود، وعلى أنَّ الإخلال بها يبطل الصلاة، وعلى تكفير تارك الصلاة؛ لأنَّ ظاهره أنَّ حذيفة نفى الإسلام عنه، وهو على حقيقته عند قوم، وعلى المبالغة عند قوم آخرين. الشوكاني: نيل الأوطار، ٢/ ٣١٠.

(٢) السودوكو: لعبة يابانية منطقية مبنية على وضع الأرقام في المكان المناسب.

عن زيد بن وهب رحمه الله قال: رأى حذيفة رضي الله عنه رجلًا لا يتم الركوع ولا السجود، قال: «مَا صَلَّيْتَ وَلَوْ مُتَّ مُتَّ عَلَى غَيْرِ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَيْهَا»(١).

وبعدُ أيها المسلمون!

وبعدُ أيها المؤمنون!

ألَمْ يأنِ لقلوبنا أن تخشع؟!

قد فات عمر طويل.. والله أعلم كم بقي!

إن الفرصة ما زالت سانحة ما دامت أنفاسنا تتردد..

ففرُّوا إلى الله..

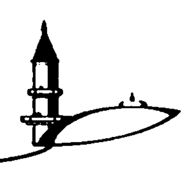
إني لكم منه نذير مبين!

وليس بعد هذا الكلام كلام!!

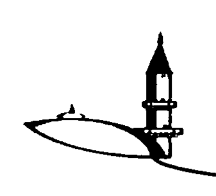
* * *

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب إذا لم يتم الركوع، (٧٥٨).



حي على الصلاة.. حي على الفلاح!



قد حان وقت الصلاة، ونُريد أن ندعو الناس إليها..

ماذا نفعل؟!

تخيَّل أن النداء ما هو إلَّا جَرَسٌ يدقُّ!

أو مزمار يُنْفَخ فيه!

أو راية تُرفع في السماء!

أو مدفع أو صاروخ!

أو طبلة أو مطرقة!

أو صُراخ!!

أو هُتاف!!

أو.. أو..

عشرات الوسائل، ومئات الطرق..

كلها يُخبرنا بدِقَّة، ويُعْلِمنا بعناية..

لكن كل ذلك لا يُحرِّك شيئًا في قلوبنا..

لا يُخاطب عواطفنا ومشاعرنا وضمائرنا..

لا يُزلزل كياننا!

أمَّا الذي اختاره الله ﷻ لنا فخلاف كل ما سبق..

لقد اختار لنا دعوة لطيفة رقيقة حانية..

تُوقظ القلب.. وتسمو بالروح..

الله أكبر الله أكبر.. الله أكبر الله أكبر..

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله..

أشهد أن محمدًا رسول الله.. أشهد أن محمدًا رسول الله..

حي على الصلاة.. حي على الصلاة..

حي على الفلاح.. حي على الفلاح..

الله أكبر.. الله أكبر..

لا إله إلا الله!

أليست دعوة حانية؟!

إنها من رب العالمين!

إن هذا الدين متين، وإن هذا الشرع محكم، وقد شاء الله ﷻ أن يجعل نداء الصلاة بهذه الصورة الرقيقة؛ حتى يُصبح النداء ذاته وسيلة من وسائل ترقيق القلوب، بل وسيلة من وسائل تهيئة المسلم للخشوع في الصلاة، فهو نداء يُعْلي من قَدْر الله ﷻ في قلوبنا، ويُوَحِّده، ويُمَجِّده، ويُذَكِّرنا برسول الله ﷺ، ويُؤَكِّد لنا أن الصلاةَ فلاحٌ.. وأن الخاسر حقًّا هو مَنْ لم يُلَبِّ هذا النداء الخاشع.. فيأتي المصلِّي إلى المسجد بروح سامية، ونفس متوثِّبة، وهمَّة عالية..

إنه نداء جميل حقًّا..

وقصة فرضه على المسلمين جميلة كذلك..

فقَدْ صحَّ أن رَسُولُ الله ﷺ حين قدم المدينة إنَّما يُجْتَمَعُ إليه بالصَّلاة لحين مواقيتها بغير دعوةٍ، فَهَمَّ رسول الله ﷺ أنَ يجعل بُوقًا كَبُوقِ اليهود الذين يَدْعُونَ به لصلاتهم، ثُمَّ كَرِهَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالنَّاقُوسِ فَنُحِتَ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلَاةِ، فبينما هم على ذلك إذ رأى[1] عبد الله بن زيد بن عبد ربِّه أخو بلحارث بن الخزرج فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ الله؛ إِنَّهُ طَافَ بِيَ اللَّيْلَةَ طَائِفٌ، مَرَّ بِي رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ الله؛ أَتَبِيعُ هَذَا النَّاقُوسَ؟ فَقَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ. قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. ثُمَّ اسْتَأْخَرَ غَيْرَ كَثِيرٍ، ثُمَّ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ وَجَعَلَهَا وِتْرًا، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ قَدْ قَامَتِ

(١) أي رأى رؤيا في منامه.

الصَّلَاةُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَلَمَّا خُبِّرَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِهَا عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ». فلَمَّا أَذَّنَ بلالٌ سمعها عمرُ بن الخطاب وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يَجُرُّ إِزَارَهُ، وهو يقول: يا نبيَّ الله؛ والَّذي بعثك بالحقِّ! لقد رأيتُ مثل ما رأى. فقال رسول الله ﷺ: «فَلِلَّهِ الحَمْدُ فَذَاكَ أَثْبَتُ»[1].

وفي رواية أخرى عن أبي عمير بن أنسٍ[2] عن عمومةٍ له من الأنصار قال: اهْتَمَّ النبي ﷺ للصلاة كيف يَجْمَعُ الناسَ لها، فقيل له: انْصِبْ رَايَةً عند حضور الصلاة، فإذا رَأَوْهَا آذَنَ بعضهم بعضًا. فلم يُعجبه ذلك، قال: فَذُكِرَ له الْقُنْعُ[3] يَعْنِي الشَّبُّورَ[4] -وَقَالَ زِيَادٌ[5]: شَبُّورُ الْيَهُودِ- فَلَمْ يُعجبه ذلك، وقال: «هُوَ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ». قال: فَذُكِرَ له الناقوس، فقال: «هُوَ مِنْ أَمْرِ النَّصَارَى». فانصرف عبد الله بن زيد بن عبد ربِّه ﷺ وهو مُهْتَمٌّ لِهَمِّ رسول الله ﷺ، فَأُرِيَ الأذان في منامه، قال: فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره؛ فقال له: يا رسول الله؛ إنِّي لَبَيْنَ نائم ويقظانَ إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَأَرَانِي الأذان. قال: وكان عمر بن الخطاب ﷺ قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يومًا، قال: ثمَّ أخبر النبي ﷺ، فقال له: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي؟» فقال: سبقني عبد الله بن زيدٍ فاستحييتُ. فقال رسول الله ﷺ: «يَا بِلَالُ؛ قُمْ فَانْظُرْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ عَبْدُ الله بْنُ زَيْدٍ فَافْعَلْهُ». قَالَ: فَأَذَّنَ بِلَالٌ..[6].

فهذه الروايات الجميلة تُوَضِّح لنا كيف شُرِعَ الأذان للمسلمين، وكيف كان عبد الله بن زيد بن عبد ربه ﷺ مهتمًّا لِهَمِّ رسول الله ﷺ؛ ولذلك اختاره الله ﷻ لِيُرِيه هذه الرؤيا الحَق،

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب كيف الأذان؟ (٤٩٩) واللفظ له، والترمذي (١٨٩)، وابن ماجه (٧٠٦)، وأحمد (١٦٥٢٤)، وابن حبان (١٦٧٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي. والدارمي (١١٨٧)، واللفظ له، وقال حسين سليم أسد: إسناد ضعيف ولكن الحديث صحيح. والطبراني: المعجم الكبير، (١٧٠٢٧)، وصححه الألباني. انظر: صحيح أبي داود، ٢/ ٤٠٧.

(٢) هو: أبو عمير بن أنس بن مالك الأنصاري، وكان أكبر ولد أنس، وثَّقه ابن حجر. انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٢/ ١٨٨.

(٣) القنع: البوق. ابن منظور: لسان العرب، مادة (قنع) ٨/ ٢٩٧، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٦٣.

(٤) الشَّبُّورُ: شَيْءٌ يُنْفَخُ فِيهِ، وَلَيْس بِعَرَبِيٍّ صَحِيحٍ، والشَّبُّور عَلَى وَزْنِ التَّنُّور: البُوقُ، وَيُقَالُ: هُوَ مُعَرَّبٌ، وَفِي حَدِيثِ الأذان: «ذُكِرَ لَهُ الشَّبُّور». قَالَ ابْنُ الأثير: جَاءَ فِي تَفْسِيرِهِ أنه البُوق، وَفَسَّرُوهُ أيضًا بالقُنْعِ، وَاللَّفْظَةُ عِبرانية. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (شبر) ٤/ ٣٩١.

(٥) هو: زياد بن أيوب بن زياد الطوسي البغدادي، أحد رواة الحديث.

(٦) أبو داود: كتاب الصلاة، باب بدء الأذان (٤٩٨)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٧٠٤)، وقال ابن حجر العسقلاني: أخرجه أبو داود بسند صحيح. انظر: فتح الباري، ٢/ ٨١.

وكيف أن هذا الأذان خاصٌّ بالمسلمين، ولا يُشبه نداء اليهود ولا النصارى؛ ففيه التميز والانفراد، وعليه الجلال والوقار.

وقد رفع رسول الله ﷺ كثيرًا من أمر الأذان، وعظَّم من شأنه؛ وذلك حتى يلتفت المسلم إلى موعده، ويتدبَّر في معانيه، ولو حدث ذلك فإنه سيقود حتمًا إلى الخشوع في الصلاة، التي هي فلاح العبد ونجاحه.. فقال رسول الله ﷺ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا..**»(١). أي لو يعلم الناس ما في الأجر والمثوبة للنداء -أي الأذان- لقاموا بإجراء قرعة لاختيار مَنْ يُؤَذِّن لكلِّ صلاة!

وأعلى رسول الله ﷺ كثيرًا من شأن المؤذنين فقال - كما روى عنه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما -: «**المُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢). بل إنَّ المؤذنين لهم مكانة خاصة يوم القيامة، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ -أُرَاهُ قَالَ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ- عَبْدٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ، وَرَجُلٌ يُنَادِي بِالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**»(٣).

ولا يرتبط هذا بحجم المسجد أو وجود المسجد أصلًا! فعن عبد الله بن عبد الرَّحمن بن أبي صعصعة الأنصاريِّ ثمَّ المازنيِّ(٤) أنَّ أبا سعيدٍ الخدريَّ رضي الله عنه قال له: إنِّي أَرَاكَ تحبُّ الغنم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصلاة فارفعْ صوتك بالنداء؛ فإنَّه «**لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». قال أبو سعيد: سمعتُه من رسول الله ﷺ(٥). فهذا يُشير إلى أن المرء ينبغي له أن يُؤَذِّن للصلاة حتى لو كان وحيدًا في

---

(١) البخاري: كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان، (٥٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول... (٤٣٧).

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، (٣٨٧)، وابن ماجه (٧٢٥)، وأحمد (١٢٧٥٢)، وابن حبان (١٦٦٩)، وأبو يعلى (٧٣٨٤)، والحاكم (٥٢٤٤).

(٣) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في فضل المملوك الصالح (١٩٨٦)، وقال: حسن غريب. وأحمد (٤٧٩٩)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٣٦١٨)، والمعجم الصغير، (١١١٦)، وحسنه ابن حجر الهيتمي، انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ٢٤١، وقال ابن الهمام: رواه الطبراني في الأوسط والصغير بإسناد لا بأس به. انظر: فتح القدير ١/ ٢٤٨.

(٤) هو: عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري المازني المدني، ثقة من التابعين.

(٥) البخاري: كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء، (٥٨٤)، وابن ماجه (٧٢٣)، والنسائي (١٦٠٨)، وأحمد (١١٣٢٣)، وابن حبان (١٦٦١)، وأبو يعلى (٩٨٢).



صحراء! فعلى الرغم من أن البشر لن يسمعوه لكنَّ الجنَّ والجمادات ستسمعه، وتشهد له يوم القيامة كما أخبر الصادق ﷺ، فدور الأذان هنا يتعدَّى مجرَّد إخبار الناس بالصلاة، فهو أجر عظيم، إضافة إلى كونه مُهيئًا للخشوع في الصلاة.. ويُؤيِّد هذا المعنى ما رواه أبو هريرة ﷺ أنه سمعه من فَمِ رسول الله ﷺ يقول: «الْمُؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ بِمَدِّ صَوْتِهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ»[١]. ولهذا قال عقبة بن عامر ﷺ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَعْجَبُ رَبُّكُمْ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةٍ[٢] بِجَبَلٍ، يُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، يَخَافُ مِنِّي، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ»[٣]. وقريب من هذا ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ فقال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره سمعنا مناديًا ينادي: الله أكبر الله أكبر. فقال نبيُّ الله ﷺ: «عَلَى الْفِطْرَةِ». فقال: أشهد أن لا إله إلَّا الله. فقال نبيُّ الله ﷺ: «خَرَجَ مِنَ النَّارِ». قال: فابتدرناه[٤]، فإذا هو صاحب ماشيةٍ أدركته الصَّلاة فنادى بها[٥].

وفي رواية لأنس بن مالك ﷺ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُغِيرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَكَانَ يَسْتَمِعُ الْأَذَانَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ وَإِلَّا أَغَارَ، فَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَى الْفِطْرَةِ». ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَرَجْتَ مِنَ النَّارِ». فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْزًى[٦].

وعكس ذلك تمامًا أن تُهمَل مسألة الأذان فلا يقوم بها أحدٌ، فقد قال مَعدان بن أبي طلحة الْيَعْمَرِيُّ: قال لي أبو الدرداء ﷺ: أين مسكنك؟ قال: قلتُ: في قريةٍ دون حمص. قال:

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في الأذان (٥١٥)، والنسائي (١٦٠٩)، وأحمد (٦٢٠١)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح وهذا إسناد قوي. وابن حبان (١٦٦٦)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٧٢٨)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٣٥٠٣)، وصححه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح، (٦٦٧).

(٢) قطعة من رأس الجبل.

(٣) أبو داود: كتاب الصلاة، باب الأذان في السفر (١٢٠٣)، والنسائي (٦٣٠)، وأحمد (١٧٤٧٨)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (١٦٦٠)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٧٦٤)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٤٥٢٠)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٤١).

(٤) ابتدر القوم أمرًا وتبادروه؛ أي: بادر بعضهم بعضًا إليه أيُّهم يسبق إليه. ابن منظور: لسان العرب، مادة (بدر) ٤/ ٤٨، والمعجم الوسيط ١/ ٤٣.

(٥) أحمد (٣٨٦١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي (١٠٦٦٤)، وابن حبان (١٦٦٥)، وأبو يعلى (٥٤٠٠)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير، (١٠٠٨٢).

(٦) مسلم: كتاب الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان، (٣٨٢).

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ لَا يُؤَذَّنُ وَلَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالجَمَاعَةِ فَإِنَّ الذِّئْبَ يَأْكُلُ الْقَاصِيَةَ»(١).

ومعنى كل ما سبق أن المسلم يجب أن يهتمَّ بالأذان كجزء من اهتمامه بالصلاة، وينبغي لنا أَلَّا نتغاضى عمَّا نسمع من نداء ثم نبدأ في مراسم الاستعداد للصلاة عند إقامتها! ولذلك فالمسلم الذي يبحث عن الخشوع لا بُدَّ له أن يحرص على معرفة أوقات الصلاة في كل يوم، ويترقَّب موعد الأذان، ولا يُفَاجَأ به أبدًا، وعن الأسود بن يزيد قال: سألتُ عائشة ﵂: ما كان النبيُّ ﷺ يصنع في البيت؟ قالت: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا سَمِعَ الأَذَانَ خَرَجَ»(٢). فالأذان يقول: حي على الصلاة حي على الفلاح. وينبغي للمسلم أَلَّا يسمع ذلك ثم يظلَّ منشغلًا بما في يده من أعمال مهما كانت مهمَّة، ومَنْ أدرك هذا فإنه لن ينتظر الصلاة فقط؛ بل سينتظر الأذان نفسه! وقد قال سعيد بن المسيب(٣): «ما أذَّن المؤذِّن منذ ثلاثين سنةٍ، إلَّا وأنا في المسجد»(٤). فهو ينتبه جيدًا إلى وقت الأذان؛ حتى إنه ليذهب إلى المسجد قبل أن يُنبِّهه المؤذن، فهو لا يُفَاجَأ مطلقًا بالأذان!

والأذان عبادة ليست مقصورة على المؤذنين، بل إن هناك أعمالًا يقوم بها كل مُسلم إذا استمع للأذان، وهي أعمال تحتاج إلى خشوع وتدبُّر..

وأول هذه الأعمال ترديد الأذان؛ فعن أبي سعيد الخدريِّ ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ النِّدَاءَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ»(٥). إلَّا عند ذكر حي على الصلاة حي على الفلاح

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة (٥٤٧)، والنسائي (٩٢٠)، وأحمد (٢١٧٥٨) واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن من أجل السائب بن حبيش وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح. وابن حبان (٢١٠١)، والحاكم (٣٧٩٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) البخاري: كتاب النفقات، باب خدمة الرجل في أهله، (٥٠٤٨) واللفظ له، والترمذي (٢٤٨٩)، وأحمد (٢٤٢٧٢)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٢٩٨٩).

(٣) هو: سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي القرشي، أبو محمد، وُلد سنة ١٣هـ، من كبار التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءً، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب ﵁ وأقضيته، حتى سُمِّي راوية عمر، توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢/ ٣٧٥-٣٧٨، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/ ٢١٧- ٢٤٦، والشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٥٧، ٥٨.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف، ١/ ٣٥١، والدولابي: الكنى والأسماء، ٢/ ٦١٥، وأبو نعيم: حلية الأولياء، ٢/ ١٦٢، وابن مفلح: المقصد الأرشد، ١/ ٣٤١.

(٥) البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول إذا سمع المنادى، (٥٨٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه... (٣٨٣).



فإننا نقول: لا حول ولا قوَّة إلا بالله. وذلك لما رواه البخاري من أن معاوية بن أبي سفيان ﵄ «لَمَّا سَمِعَ حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ. وَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْنَا نَبِيَّكُمْ ﷺ يَقُولُ»(١).

وثانيًا: بعد انتهاء الأذان نُصَلِّي على رسول الله ﷺ؛ لأنه قال: «.. ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»(٢).

وثالثًا: نسأل منزلة الوسيلة لرسول الله ﷺ؛ فقد قال: «.. ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»(٣).

ورابعًا: ننطق بشهادة التوحيد، ونُعلن رضانا بالله ﷻ ورسوله ﷺ ودين الإسلام، فعن سعد بن أبي وقاص ﵁ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا. غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»(٤).

وخامسًا: ندعو الله بما نشاء، وهو دعاء مُجاب بإذن الله ﷻ؛ فعن عبد الله بن عمرو ﵄ أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله؛ إنَّ الْمُؤَذِّنِينَ يَفْضُلُونَنَا. فقال رسول الله ﷺ: «قُلْ كَمَا يَقُولُونَ، فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَسَلْ تُعْطَهْ»(٥).

وسادسًا وأخيرًا: نقوم مسرعين إلى الصلاة، فليس بعد الأذان عمل أوجب من الصلاة، وهذه هي سُنَّة الرسول ﷺ كما بيَّنا.

---

(١) البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول إذا سمع المنادى، (٥٨٨)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه... (٣٨٥).

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه... (٣٨٤) عن عبد الله بن عمرو ﵄، وأبو داود (٥٢٣)، والترمذي (٣٦١٤)، والنسائي (١٦٤٢)، وأحمد (٦٥٦٨).

(٣) التخريج السابق.

(٤) مسلم: كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه... (٣٨٦)، والترمذي (٢١٠)، وأبو داود (٥٢٥)، والنسائي (١٦٤٣)، وابن ماجه (٧٢١)، وأحمد (١٥٦٥).

(٥) أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن (٥٢٤)، والنسائي (٩٨٧٢)، وأحمد (٦٦٠١)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. وابن حبان (١٦٩٥)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٧٩٣)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٣/ ١٩.

فهذه أعمال كثيرة مهمَّة تحتاج إلى تفريغ وقت أثناء الأذان وبعده، وهي عظيمة الأجر، وبها ننال الغفران، وتحلُّ لنا الشفاعة؛ ومن ثَمَّ ينبغي لنا الكف -ما استطعنا- عن الأعمال أو الكلام إذا أذَّن المؤذن، وينبغي أن ننظر إلى الأذان على أنه عبادة محضة ثمينة وليس مجرَّد إعلام بالصلاة، كما ينبغي أن نُدرك الدور الرئيس الذي يُحقِّقه الأذان في تهيئة المسلم لصلاة خاشعة.

وإذا كان الأذان على هذا النحو المهمّ من القيمة، فإنه يلزم المؤذِّن عدَّة أمور حتى يخرج الأذان بالصورة المرجوَّة..

فمن هذه الأمور المهمَّة جدًّا **جمال الصوت عند الأذان**، فقد قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن زيد رضي الله عنه: «... **فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ**..»[١] فمع أن الرؤيا رآها عبد الله بن زيد رضي الله عنه، ومع أن النداء للصلاة شرف كان يتمنَّاه هذا الصحابي الجليل، بل كان يتمنَّاه الأنصار كلهم، حتى قال أبو عمير عبد الله بن أنس بن مالك رضي الله عنه: إنَّ الأنصار تزعم أنَّ عبد الله بن زيدٍ لولا أنَّه كان يومئذٍ مريضًا لجعله رسول الله ﷺ مؤذِّنًا[٢]! مع كل هذا فإنَّ الرسول ﷺ رجَّح حلاوة الصوت على كل هذه العوامل، وهو بذلك يُرَجِّح المصلحة العامَّة للأُمَّة على المصلحة الفردية للرجل أو للقوم، وهذه روعة في إدارة الأمور.. ولا شَكَّ أن هذا الاختيار له آثاره الحميدة على المستمعين للأذان، وكلنا يخشع عندما يسمع أذان مكة والمدينة، ويخشع عند سماع الأذان من بعض مشاهير القرَّاء والمنشدين.. بل إن هذا الأذان الخاشع قد يُؤَثِّر في بعض غير المسلمين، وكم من رجل غير مسلم، ولا يعرف اللغة العربية دخل الإسلام بسبب أذانٍ خاشعٍ سمعه؛ فدفعه إلى أن يسأل عن هذا النداء وسببه، ثم سأل عن الإسلام، وكان هذا سببًا في هدايته[٣]! ولك أن تُقارن هذا

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب كيف الأذان؟ (٤٩٩) واللفظ له، وابن ماجه (٧٠٦)، وأحمد (١٦٥٢٤)، وابن حبان (١٦٧٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي. والدارمي (١١٨٧)، وقال حسين سليم أسد: إسناد ضعيف ولكن الحديث صحيح. والطبراني: المعجم الكبير، (١٧٠٢٧)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٢/ ٤٠٧.

(٢) ذكره أبو داود: كتاب الصلاة، باب بدء الأذان، (٤٩٨)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٧٠٤).

(٣) يقول الشيخ عبد الباسط نور الدين الزليتني -قارئ القرآن، ومؤذن إذاعة وتلفزيون دبي، وإمام مسجد الخريجيّن-: إنه فوجئ خلال قراءته للقرآن الكريم في المسجد بدخول شخصين يُريدان أن يعلنا إسلامهما ويتعرَّفا على الإسلام، بعدما استمعا إلى قراءته وإلى الأذان الذي يُقيمه في اليوم خمس مرات، ويُضيف أنه بعد يومين جاء هذان الشخصان ومعهما بعض زملائهما وأصدقائهما للدخول في الدين الإسلامي. انظر: جريدة البيان الإماراتية، بتاريخ: ١٦ أبريل ٢٠١٠م: www.albayan.ae.

ببعض المساجد التي لم تَفْقَه أهمية جمال الصوت في الأذان، فجعلته وظيفة مَنْ لا وظيفة له! أو جعلته للطامحين في الأجر والمثوبة بصرف النظر عن جودة أصواتهم!

ومن هذه الأمور -أيضًا- **أن يتوضَّأ المؤذِّن قبل الأذان**؛ فإن أبا هريرة ﷺ قال: «لَا يُنَادِي بِالصَّلَاةِ إِلَّا مُتَوَضِّئٌ»[١]. والحديث ضعيف. ولهذا اختلف أهل العلم في الأذان على غير وُضُوءٍ، فكرهه بعض العلماء مثل الشافعي وإسحاق[٢]، وَرَخَّصَ في الأذان بغير وضوء سفيان الثوري[٣] وابن المبارك[٤] وأحمد[٥]، وبعيدًا عن هذا الاختلاف الفقهي البسيط فأنا أرى أنه حتى لو كان الوضوء فضيلة في الأذان، ولا يُشترط له، فإنه ينبغي للمؤذن إن كان يُريد أن يُوَصِّل رسالة خاشعة للمسلمين أن يتهيَّأ للأذان بالوضوء، ويأخذ نية واضحة عند النداء للصلاة أنه في عمل جليل، وعبادة عظيمة، وعندها لن يصل صوته إلى أسماع الناس فقط، بل سيخترق قلوبهم!

ومن هذه الأمور -أيضًا- **أن يستقبل المؤذِّن القبلة**؛ ففي إحدى الروايات الشارحة لرؤيا عبد الله بن زيد ﷺ قال عبد الله: «بَيْنَا أَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقِظَانِ إِذْ رَأَيْت شَخْصًا عَلَيْهِ ثَوْبَانِ

---

(١) ذكره الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في كراهية الأذان بغير وضوء (٢٠١)، وضعفه الألباني، انظر: ضعيف سنن الترمذي، ص٢٥، ورواه البيهقي: السنن الكبرى، (١٧٢٥)، وأشار إلى ضعفه، ثم صحَّح وَقْفَه على أبي هريرة ﷺ، فقال: والصحيح رواية يونس بن يزيد الأيلي وغيره عن الزهري قال: قال أبو هريرة ﷺ: «لا يُنَادِي بِالصَّلاةِ إلَّا مُتَوَضِّئ».

(٢) هو: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنبلي أبو يعقوب المروزي، ابن راهويه، إمام عصره بخراسان في الحفظ والفتوى، انتشر علمه عند أهلها، روى عن الشافعي. وأمم. واجتمع به وناظره، وانتفع به، وكتب كتبه، ومشى على منوالها.. وقال الإمام أحمد بن حنبل: لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء. انظر: ابن كثير: طبقات الشافعيين ص١١٩.

(٣) هو: سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الثوري، الكوفي، المجتهد، شيخ الإسلام، إمام الحُفَّاظ وأمير المؤمنين في الحديث، سيد العلماء العاملين في زمانه، وُلِد سنة ٩٧هـ، طَلَبَ العلمَ وهو حَدَثٌ باعتناء والده، طلبه المهدي للحكم، فتوارى سنين، ومات بالبصرة مستخفيًا سنة ١٦١هـ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩ - ٢٧٩.

(٤) هو: عبد الله بن المبارك بن واضح، الحنظلي التميمي، أبو عبد الرحمن. أمه خوارزمية وأبوه تركي، ولد سنة ١١٨هـ، الإمام، شيخ الإسلام، عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، الحافظ، الغازي، أحد الأعلام، طلب العلم وهو ابن عشرين سنة، صاحب أبا حنيفة وسمع السفيانين، وكانت له تجارة واسعة وكان ينفق على الفقراء في السنة مائة ألف درهم، مات بهيت ببغداد (على الفراش) منصرفًا من غزو الروم، توفي سنة (١٨١هـ). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٨-٤٢١.

(٥) هذا تعليق الترمذي على الحديث، انظر التخريج السابق، وانظر: ابن رجب: فتح الباري ٥/ ٣٨٥.

أَخْضَرَانِ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَقَالَ: الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ..»[١].

ومنها: أن يرفع المؤذِّن صوته بالأذان لقول أبي سعيد الخدري ﷺ: «.. فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ..»[٢]. وكما مرَّ بنا فإنَّ كلَّ مَنْ يسمعه يشهد له يوم القيامة.

ومنها: أن يؤذِّن قائمًا؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «يَا بِلَالُ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلَاةِ»[٣].

ومنها: أن يضع إصبعيه في أُذنيه أثناء الأذان، كما روى أبو جحيفة وهب بن عبد الله ﷺ قال: «رَأَيْتُ بِلَالًا يُؤَذِّنُ وَيَدُورُ وَيُتْبِعُ فَاهُ هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَإِصْبَعَاهُ فِي أُذُنَيْهِ..»[٤].

ومنها: أن يتحرَّى الوقت جيدًا، حيث إن صلاة الناس وصيامهم مرتبطان بصوت المؤذِّن، وقد قال رسول الله ﷺ: «الإِمَامُ ضَامِنٌ، وَالْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ، اللَّهُمَّ أَرْشِدِ الأَئِمَّةَ، وَاغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ»[٥].

فمن الواضح أن عملية الأذان دقيقة ومهمَّة، ولا بُدَّ أن تُوكَل إلى مَنْ يتميَّز بالأمانة والكفاءة؛ لذلك روى ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لِيُؤَذِّنْ لَكُمْ خِيَارُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ قُرَّاؤُكُمْ»[٦].

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٧٧)، وقال شعيب الأرناءوط: رجاله ثقات رجال الشيخين غير المسعودي فقد روى له البخاري استشهادًا وأصحاب السنن، وكان قد اختلط، ورواية أبي النضر -وهو هاشم بن قاسم- ويزيد بن هارون بعد الاختلاط، وابن أبي ليلى لم يسمع من معاذ، وقد اختلف فيه على ابن أبي ليلى. والبيهقي: السنن الكبرى، (١٧٠٦)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٧٠٢٧).

(٢) البخاري: كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء، (٥٨٤)، وابن ماجه (٧٢٣)، والنسائي (١٦٠٨)، وأحمد (١١٣٢٣)، وابن حبان (١٦٦١)، وأبو يعلى (٩٨٢).

(٣) البخاري: كتاب الأذان، باب بدء الأذن، (٥٧٩) عن عبد الله بن عمر. ومسلم: كتاب الصلاة، باب بدء الأذان، (٣٧٧).

(٤) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في إدخال الإصبع في الأذن عند الأذان، (١٩٧)، وقال: حديث أبي جحيفة حديث حسن صحيح، وعليه العمل عند أهل العلم يستحبون أن يدخل المؤذن إصبعيه في أذنيه في الأذان، وقال بعض أهل العلم: وفي الإقامة -أيضًا- يُدخل إصبعيه في أذنيه. وهو قول الأوزاعي. والحاكم (٧٢٥).

(٥) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء أن الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن (٢٠٧) عن أبي هريرة، وأبو داود (٥١٧)، وأحمد (٨٨٩٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن حبان (١٦٧٢)، وأبو يعلى (٤٥٦٢)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والبيهقي: السنن الكبرى، (١٨٦٨). وقال الألباني: الحديث صحيح لا شبهة فيه. انظر: صحيح أبي داود، ٣/ ٣.

(٦) أبو داود: كتاب الصلاة، باب من أحق بالإمامة؟ (٥٩٠)، وابن ماجه (٧٢٦)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٨٤٨)، والطبراني: المعجم الكبير، (١١٦٢٩)، وقال علاء الدين مغلطاي: هذا حديث إسناده صحيح على شرط الحافظين ابن خزيمة والبستي. انظر: شرح سنن ابن ماجه، ص١١٦٥.

وكل ما سبق يُؤَكِّد أن خشوع الصلاة يبدأ من لحظة الأذان، وليس من تكبيرة الإحرام!

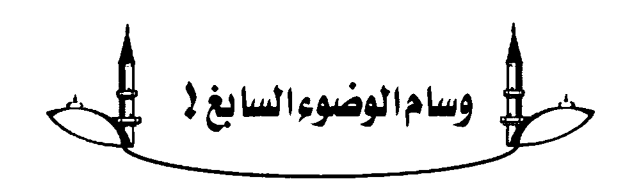
ما رأيكم؟!

هل اشتقتم لسماع الأذان؟!

إن كانت الإجابة: نعم.. فاحمد الله..

وإن كانت غير ذلك فأعِدْ قراءة هذا الفصل مرَّة ثانية!!

* * *



وسام الوضوء السابغ!

ما أكثر خطايانا!

لسان يخطئ..

عينٌ تخطئ..

أذنٌ تخطئ..

يدٌ تخطئ..

قدم تخطئ..

ماذا لو كانت الخطيئة لطخة طين؟!

دنسٌ.. درنٌ.. وسخ!

كيف تكون هيئتنا بهذه الأدناس والأدران والأوساخ؟!

ألا تشتاق حينها إلى غُسْلٍ دافئ؟!

نظافة..

طهارة..

نقاء وصفاء..

هذا هو الوضوء!

هو طهور..

هو غسول..

هو شطر الإيمان[1]..

---

(١) لحديث أبي مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ...». مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٥٣)، والدارمي (٦٥٣)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٨٥)، والطبراني: المعجم الكبير، (٣٤٢٥)، وبلفظ: «الْوُضُوءُ شَطْرُ الإِيمَانِ». الترمذي (٣٥١٧) وقال: هذا حديث صحيح. وبلفظ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ شَطْرُ الإِيمَانِ». البيهقي: السنن الكبرى، (٢٢١٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، وابن حبان (٨٤٤) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، ٢/ ٢١٨.

هو بالأحرى..

نعمة من الله..

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]!

لفت نظري ما رأيته من تعقيب على آية الوضوء في سورة المائدة، حيث اعتبر اللهُ ﷻ الوضوءَ نعمةً تستحقُّ الشكر، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

فبعد أن ذكر الله الوضوء ذكر أن الغاية منه أمران؛ فأما الأول: فهو التطهير ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، وأما الثاني: فهو إتمام النعمة ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا وذاك يستوجب الشكر لله ﷻ، ولكن يبقى السؤال: أين وجه النعمة في الوضوء؟!

إن المتدبِّر في الأحاديث النبوية يجد أن تطهير الوضوء للمسلم لا يقف على حدِّ الظاهر فقط كما يبدو لكثير من الناس، إنما يُطَهِّر الوضوء باطن الإنسان كذلك!

وما الذي يُلَوِّث باطن الإنسان؟!

إنها الذنوب، ولا شيء غيرها!

ويأتي الوضوء ليُنَظِّف ظاهر الإنسان، وفي الوقت نفسه ينساب على خطاياه فيحملها بعيدًا عن الجسد الطاهر!

أليست هذه نعمة كبرى؟!

هل تستشعر هذه النعمة وأنت تتوضَّأ؟!

هل تُحِسُّ بذنوبك وهي تتساقط من عليك أثناء الوضوء كما تتساقط أوراق الشجر؟!

اقرأ بقلبك كلام الرسول ﷺ!

«مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ

ثُمَّ يَغسِلُ يَدَيْهِ إِلَى المِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ المَاءِ
ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ المَاءِ
ثُمَّ يَغسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ المَاءِ...»[1].

ما أروع هذه الصورة!

ولعلَّ خروج الخطايا بهذه الصورة السريعة مع الوضوء هو ما جعل الوضوء الحَسَن المُسْبَغ أحد الأسباب المباشرة لغفران الله ﷻ لذنوبنا، ويُؤيد هذا حديث عَنْ حُمْرَانَ مولى عثمان ﷺ قال: سمعتُ عثمان بن عفان ﷺ وهو بفناء المسجد، فجاءه المؤذِّن عند العصر، فدعا بوضوءٍ فتوضَّأ، ثمَّ قال: والله! لأحدِّثنَّكم حديثًا لولا آيةٌ في كتاب الله ما حدَّثتكم، إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ فَيُصَلِّي صَلَاةً إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ الَّتِي تَلِيهَا»[2]. والآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وكان يُريد ألَّا يُخبرهم بالحديث خشية أن يتكلوا عليه ولا يعملوا[3].

ولعلَّ هذا الحديث يُفَسِّر لنا وصف رسول الله ﷺ للوضوء بأنه «شَطْرُ الإِيمَانِ». فالوضوء مقدمة ضرورية للصلاة، ويُصبح الإيمان الكامل هو الوضوء مع الصلاة، وكما يقول النووي: «وليس يلزم في الشطر أن يكون نصفًا حقيقيًّا»[4]. فلا شك أن الصلاة أعلى قيمة من الوضوء، لكن لا صلاة بغير وضوء، فصار الوضوء من اللوازم الأساسية للصلاة التي هي علامة الإيمان الكبرى.. بل يُصَرِّح رسول الله ﷺ أن الوضوء نفسه علامة من علامات الإيمان فيقول - كما يروي أبو أُمَامة ﷺ -: «وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»[5].

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة، (٨٣٢).
(٢) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، (٢٢٧).
(٣) النووي: المنهاج، ٣/ ١١٠، ١١١.
(٤) النووي: المنهاج، ٣/ ١٠٠.
(٥) ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء (٢٧٧)، وأحمد (٢٢٤٣٢)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح. والدارمي (٦٥٥)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وابن حبان (١٠٣٧)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. والحاكم (٤٤٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولست أعرف له علة يعلل بمثلها مثل هذا الحديث إلَّا وهم من أبي بلال الأشعري وهم فيه على أبي معاوية.

والأحاديث التي تُشير إلى أن الوضوء مع الصلاة يغسلان الخطايا والذنوب كثيرة؛ منها حديثٌ قيل في موقف لطيف للغاية! فعن عقبة بن عامر ﷺ قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ[1]، فأدركتُ رسول الله ﷺ قائمًا يحدِّث الناس، فأدركتُ من قوله: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». قال: فقلتُ: ما أجود هذه! فإذا قائلٌ بين يديَّ يقول: التي قبلها أجود! فنظرتُ فإذا عمر ﷺ، قال: إنِّي قد رأيتُك جئتَ آنفًا، قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[2].

فهذا خيرٌ بعد خير!

ونورٌ على نور!

وُضوء حَسَن وصلاة خاشعة يُوجبان الجنة!

ووضوء مُسْبَغ وشهادة التوحيد يفتحان أبواب الجنة الثمانية!

ما أيسر هذا الدين! وما أجمله!

وكلا البُشرَيَيْن رائع، ولكن لماذا اعتبر عمر بن الخطاب ﷺ أن البشرى في الحديث الثاني أجود من التي في الحديث الأول؟!

أولًا: لأنها أسهل! فهي مجرَّد وضوء دون أذكار معينة في خلاله، ولا قراءة قرآن.

وثانيًا: لأنها أسبق! فالوضوء يسبق الصلاة، وقد فتحت لنا أبواب الجنة مبكرًا، وما أدرانا أننا نعيش حتى نُكْمِل صلاتنا.

وثالثًا: لأنها تقود إلى الخشوع في الصلاة؛ فتكون سببًا في تحقُّق البشرى الثانية أيضًا، ولا شَكَّ أن الذي يدخل الصلاة وهو يشعر أن أبواب الجنة الثمانية قد فُتحت له منذ قليل يدخل بروح خاشعة، ونفس مطمئنَّة.

ورابعًا: لأنها أضمن! فالرسول ﷺ لم يشترط فيها -كما اشترط في الصلاة- الإقبال بالوجه والقلب؛ ومن ثَمَّ فتحقيقها أضمن؛ ولذلك فَرِح بها الفاروق ﷺ.

---

(١) روحتها بعشيٍّ؛ أي: رددتها إلى مراحها في آخر النهار. النووي: المنهاج ٣/ ١٢١.
(٢) مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، (٢٣٤).

وتدبر فيما يحكيه أبو أمامة ﷺ، فإنه -والله- عجيب!

قال أبو أمامة: بينما رسول الله ﷺ في المسجد ونحن قعودٌ معه إذ جاء رجلٌ، فقال: يا رسول الله؛ إنِّي أصبْتُ حدًّا فأقمه عليَّ. فسكت عنه رسول الله ﷺ، ثمَّ أعاد فقال: يا رسول الله؛ إنِّي أصبتُ حدًّا فأقمه عليَّ. فسكتَ عنه، وَأُقِيمَتِ الصلاةُ، فلمَّا انصرف نبيُّ الله ﷺ قال أبو أمامة: فاتَّبع الرجلُ رسولَ الله ﷺ حين انصرف، واتَّبعتُ رسولَ الله ﷺ أَنْظُرُ ما يَرُدُّ على الرجل، فَلَحِقَ الرجلُ رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ إنِّي أصبتُ حدًّا فأقمه عليَّ. قال أبو أمامة: فقال له رسول الله ﷺ: «أَرَأَيْتَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ فَأَحْسَنْتَ الْوُضُوءَ؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «ثُمَّ شَهِدْتَ الصَّلَاةَ مَعَنَا؟» فقال: نعم يا رسول الله. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ». أو قال: «ذَنْبَكَ»[1]!

ما رأيك؟!

أليس هذا الدِّين عظيمًا؟

أليس هذا الشرع رحيمًا؟

لكن ينبغي أن ننتبه!

لقد قال: أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ «فَأَحْسَنْتَ» الْوُضُوءَ؟

فليس كل وضوء يُذْهِب السيئات، بل هو الوضوء الحَسَن المُسْبَغ..

ويظهر الشرط نفسه في حديث عليٍّ ﷺ حيث قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ، إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ». ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى آخر الآية[2].

---

(١) مسلم: كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، (٢٧٦٥) واللفظ له، وأبو داود (٤٣٨١)، والنسائي (٧٣١٢)، وأحمد (٢٢٢١٧)، وابن حبان (١٧٢٧)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٨٠٤٢).

(٢) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة (٤٠٦)، وأبو داود (١٥٢١) واللفظ له، والنسائي (١١٠٧٨)، وابن ماجه (١٣٩٥)، وأحمد (٢)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والبيهقي: السنن الكبرى، (١٠٢٤٧)، وابن حبان (٦٢٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وأبو يعلى (١٥)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الأوسط، (٥٨٤)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٥/ ٢٥٢.

والوضوء يُنقذك من بعض سيطرة الشيطان، وذِكْر الله ﷻ يُنقذك من بعضها الآخر، والصلاة تُنقذك من سيطرته بالكامل! فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»(١).

فالنشاط الذي تشعر به بعد الوضوء هو نشاط مختلف عن نشاطك بعد غسيل معتاد للوجه أو اليد، إنه نشاط التحرُّر من الشيطان، وما أروعه من نشاط!

والمسلمون الذين يُحسنون الوضوء لهم مكانة خاصة يوم القيامة، فعن نُعَيْم المُجْمِر(٢) قال: رَقِيتُ مع أبي هريرة ﷺ على ظهر المسجد فتوضَّأ، فقال: إنِّي سمعتُ النبي ﷺ يقول: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»(٣). فهلَّا تدبَّرت في هيئتك وأنت متميِّزٌ بين الخلائق يوم القيامة بعلامات مضيئة جميلة من أثر وضوئك! ألا تنظر إلى أهل الدنيا وهم يتباهون بنياشينهم وأوسمتهم بين الناس؟! فما قيمة هذه النياشين والأوسمة إلى جوار هذه الأوسمة الربانية الأخروية؟ ألا يجب أن نشعر بالفخر والزَّهْو ونحن ذاهبون إلى الصلاة وقد حَمَلْنا وسام الوضوء السابغ؟!

وعِشْ معي أيها المتوضِّئ في هذه الصورة الحالمة الرائقة!

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ(٤)، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ». قالوا: يا رسول الله؛ أتعرفنا يومئذٍ؟ قال: «نَعَمْ،

---

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، (٣٠٩٦)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، (٧٧٦).

(٢) هو: نعيم بن عبد الله المجمر أبو عبد الله، المدني، مولى عمر بن الخطاب ﷺ عتاقة، تابعي، ثقة، سمي المجمر لأنه كان يجمر المسجد أي يقوم بتبخيره بالطيب، جالس أبا هريرة عشرين سنة، وله أحاديث، توفي في حدود العشرين والمائة. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٥/ ٣٠٩، والمزي: تهذيب الكمال، ٢٩/ ٤٨٧-٤٨٩، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٥/ ٢٢٧، والصفدي: الوافي بالوفيات، ٢٧/ ٩٨.

(٣) البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء، (١٣٦). ومسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، (٢٤٦).

(٤) أكثر من ٢٠٠٠ كيلو متر بمقاييس الدنيا!

لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ»[١].

حوض واسع هائل..

أبيض من الثلج!

أحلى من العسل باللبن!

آنية أكثر من نجوم السماء!!

ورجل عظيم يمنع الخلائق من ورود الحوض، ليحتفظ به خالصًا لمجموعة خاصة!

خاصة جدًّا..

للمتوضئين!!

يمكن أن تكون منهم!

كيف شعورك في وضوئك بعد استحضار هذه الصورة؟!

وكيف خشوعك في صلاتك وقد دخلتها بوسام الوضوء؟!

غير أننا لا بُدَّ أن ننظر إلى الوضوء من جانب آخر مهم كذلك، فليست القضية هي قضية تحصيل الحسنات فقط، أو رفع الدرجات، أو محو الخطايا، إنما القضية لها شقٌّ آخر خطير، وهو أن إهمال الوضوء الحَسَن يستوجب العقاب من ربِّ العالمين، وعلى سبيل المثال يمكن تدبُّر الموقف التالي الذي يحكيه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: تَخَلَّفَ النبي ﷺ عَنَّا في سَفْرَةٍ سافرناها، فأدركَنَا وقد أَرْهَقْنَا الْعَصْرَ[٢]، فَجَعَلْنَا نتوضَّأ ونمسحُ على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». مرَّتين أو ثلاثًا[٣]. ففي هذا الموقف لم يُهمل الصحابة في الوضوء انتقاصًا من قدره، أو تقليلًا من شأنه.. حاش لله.. إنما أرهقهم العصر بمعنى أنه قد مرَّ من وقت العصر كثير، إمَّا بسبب غياب الرسول ﷺ عنهم لأمر ما، وإمَّا لفقد الماء كما ورد

---

(١) مسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، (٢٤٧)، وابن ماجه (٤٣٠٢)، وابن حبان (٧٢٤١).

(٢) أرهقْنَا الصلاةَ؛ أي أخَّرناها عن وقتها حتى كدنا نُغْشِيها ونُلْحِقُها بالصلاة التي بعدها. وروي: «أَرْهَقَنَا العصرُ»: الإرهاق: الإدراك والغشيان، وقيل: كان الصحابة أخَّروا الصلاة في أول الوقت طمعًا أن يلحقهم النبي ﷺ فيُصَلُّوا معه. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ١/ ٢٦٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة (رهق) ١٠/ ١٢٨.

(٣) البخاري: كتاب الوضوء، باب غسل الرجلين ولا يمسح على القدمين، (١٦١)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، (٢٤١).

في رواية[1]، وإما لظروف السفر المرهقة؛ فأدَّى ذلك إلى سرعتهم في الوضوء، فلم يغسلوا جيدًا مؤخِّرة أقدامهم، فلم ينظر رسول الله ﷺ إلى ظروفهم الصعبة، ولم ينظر إلى أن هذا التقصير منهم عابر وغير متكرِّر، إنما نظر إلى النتيجة الفعلية للتقصير، فجاءت كلماته بهذا الوضوح والصرامة:

- نداء بأعلى الصوت!
- وتوعُّدٌ بالويل!
- وتهديد بالنار!
- وتكرار للتهديد مرتين أو ثلاثة!

ولا شَكَّ أنَّ مَنْ كان هذا حاله فإن خشوعه يكون منقوصًا، وأنَّى لمصلٍّ توعَّده الرسول ﷺ بالنار أن يخشع!!

وما قلناه عن الأعقاب ينسحب على أي تقصير في الوضوء..

وجهٌ لا يصل الماء إلى كل أجزائه!

مرفقٌ لا يكاد الماء يلمسه!

قدمٌ لا ترى في بعض أجزائها أثرَ البلل!

كل هذا يقود إلى وضوء منقوص، وصلاة ضائعة، ووعيد بالنار، وويل وثبور!

ويهلك المرء من حيث يرجو النجاة!

وفوق ما سبق.. غياب للخشوع في الصلاة!

وإذا تخيَّل أحدٌ أن الخشوع في الصلاة منفصل عن الوضوء، فعليه أن يُراجع هذا الموقف العجيب في السيرة النبوية، والذي تعدَّى فيه أثرُ عدمِ إحسان الوضوء إلى الآخرين! فنجد أنه لم يُؤَثِّر على خشوع المُهْمِل فقط، إنما تعدَّى إلى التأثير على خشوع المصلِّين! بل على خشوع النبي العظيم، وسيد العابدين، رسول الله ﷺ!! وقد ورد هذا في هذه القصة النادرة: روى

---

(١) قال: «رجعنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة حتى إذا كنا بماء بالطريق تعجَّل قوم عند العصر...». مسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، (٢٤١).

شَبِيبٌ أبو رَوْح ﷺ[١] عن رَجُلٍ أنَّه صَلَّى مع النبي ﷺ الصبح، فقرأ بالرُّوم فتَرَدَّدَ في آية، فلمَّا انصرف قال: «إِنَّهُ يَلْبِسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ أَنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ»[٢]! وقد عَلَّق ابن كثير في تفسيره في آخر سورة الروم على هذه القصة قائلًا: «وهذا إسناد حسن، ومتن حسن، وفيه سرٌّ عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه ﷺ تأثَّر بنقصان وضوء مَنِ ائتمَّ به؛ فدلَّ ذلك على أن صلاة المأموم متعلِّقة بصلاة الإمام»[٣]. والحديث ورد بروايات متعدِّدة، واستنبط منه السندي ﷺ أن الصحبة لها أثر على الأصحاب[٤]، وهذا يعني أن الخشوع يختلف من مسجد إلى مسجد حسب درجة إيمان المصلِّين!

وماذا بعد الانتهاء من الوضوء؟

إن هناك أذكارًا قصيرة للغاية، ومع ذلك فهي تكون سببًا في فتح أبواب الجنة للمتوضِّئ! ولا شَكَّ أن ذلك يُنَقِّي قلبه، ويُدخله في الصلاة بصدر منشرح، وأجمع الروايات لأذكار ما بعد الوضوء هي رواية عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[٥].

أرأيت سهولة هذه الأذكار وسرعتها؟

شهادة التوحيد..

ثم دعاء قصير: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»!

---

(١) صحابي من قبيلة ذي الكلاع من حِمْيَر اليمنية، وقال ابن حجر: المعروف أنه شبيب بن أبي روح، أو شبيب بن نعيم أبو روح الكلاعي الحمصي. انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٣١٦.

(٢) أحمد (١٥٩١٤) واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لإرساله. والنسائي (١٠١٩)، وقال الهيثمي: رواه أحمد عن أبي روح نفسه، ورواه النسائي عن أبي روح عن رجل، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد، ١/ ٥٥٠، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ٥٣ (٢٢٢).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٢٩.

(٤) حاشية السندي على سنن النسائي، ٢/ ١٥٦، ١٥٧.

(٥) الترمذي: أبواب الطهارة، باب فيما يقال بعد الوضوء، (٥٥)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٣٧٥)، والطبراني: المعجم الأوسط، (٤٨٩٥)، وحسنه ابن عساكر، انظر: معجم الشيوخ، ٢/ ١٠٤٨، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٦١٦٧).



بعدها تختار الباب الذي تدخل منه إلى الجنة!!

وأين ينبغي أن نتوضأ؟!

لعله سؤال ساذج عند البعض!

فقد يتبادر إلى الذهن أن الوضوء في أي مكان يستوي مع غيره؛ لكن واقع الأمر أن هناك أحاديث أشارت إلى عظم أجر الوضوء إذا كان في البيت؛ منها عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ الله، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً»[١].

ولعلَّ العلَّة في زيادة الأجر لوضوء البيت أنه يُمَهِّد المصلِّي نفسيًّا للصلاة القادمة، ويجعله يسير في الطريق وهو يستشعر طهارته ونقاءه، وهذا يحفظه من الذنوب والسيئات، وبالتالي يرفع من درجة خشوعه في الصلاة، وفوق ذلك فهو يُذَكِّر أهل البيت بالصلاة، ويُعَلِّم الأطفال، ويبثُّ روحًا إيمانية في المكان، ولا يخفى فضل ذلك على كل ساكني البيت.

إن الوضوء عمل جليل عظيم..

يكفي أنه استعداد للقاء رب السموات والأرض..

استعدادٌ للتواصل مع العزيز الجبار..

وهو من هذا المنظور أمر يبعث الرهبة في الصدور.. وهذا ما كان يدفع علي بن الحسين[٢] إذا توضَّأ إلى أن يصفرَّ لونه! فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: «أَتَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ أَقُومُ؟!»[٣].

ويوم نُدرك ما أدركه علي بن الحسين سنُدرك رهبة الوضوء، ونُدرك نعمته!

فلله الحمد والمنَّة!

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، (٦٢٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، (٦٦٦) واللفظ له.

(٢) هو: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، زين العابدين، وُلد سنة ٣٨هـ، ثقة ثبت، وقال الزهري: ما رأت قريش أفضل منه. وكان يسمى بالمدينة زين العابدين لعبادته، توفي سنة ٩٣هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٢٦٦- ٢٦٩، والمزي: تهذيب الكمال، ٢٠/ ٣٨٢- ٤٠٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/ ٣٨٦-٤٠٠، وأبو نعيم: حلية الأولياء، ٣/ ١٣٣.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٤١/ ٣٧٨، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٢٣.

أين نُصَلِّي صلاة خاشعة؟!

فلنفترض!
أنك عُدْتَ إلى بيتك قُبيل صلاة المغرب..
من عملٍ.. أو نزهة.. أو زيارة..
تناولتَ طعامكَ، ثم صليتَ المغرب في عجالة..
ثم جلست تتناول قسطًا من الراحة..
سمرٌ.. فاكهةٌ.. قراءةٌ.. أو تلفاز!
ثم أُذِّن للعشاء..
الله أكبر.. الله أكبر..
وقفتَ تُصَلِّي صلاة العشاء..
تزعم أنك تحبُّ الصلاة على أول وقتها!
جاءك ولد من أولادك يلهث!
يبكي!
يصرخ من أعماق صدره!
أدرِكْنا أبي!!
رجلٌ خارج البيت يُمسك شعلةً من نار!
شعلة كبيرة!
كبيرة.. كبيرة!!
ويهمُّ أن يدخل البيتَ ليُحَرِّقَه!
تعب السنين..
المال والبنون..
الزوجة والأقربون..
المتاع والزاد..

قطعتَ صلاتَك فزِعًا!!

صرختَ بصوت مرتجف.. متقطِّع:

مَنْ هذا؟! مَنْ هذا؟

قالوا..

....

إنه رسول الله ﷺ!!!

لا يختلف اثنان -على الأقل من المسلمين- في أن رسول الله ﷺ كان أرحم الخلق، وأرفق البشر، ويكفي أن الله ﷻ قد أشار إلى هذه الرحمة النبوية في كتابه العظيم حين قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ولن تستطيع -ولو حرصت- أن تجد في السيرة موقف جفاءٍ أو قسوة؛ فالبعثة النبوية ما هي إلَّا لون من ألوان الرحمة، وقد قال الله ﷻ وهو يصف هذه البعثة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ ومن ثَمَّ فكل ما نظنُّ أنه قسوة منه ﷺ في منظورنا يكون له وجه من وجوه الرحمة التي خفيت علينا..

ولنتدبَّر معًا في هذا الموقف النبوي العجيب:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ!»[1].

قد يتساءل أحدنا عن الرحمة في هذا الموقف!

وأنا أقول: دعك من هذا السؤال وأجبني!

أيهما أشدُّ حرًا: نار الدنيا أم نار الآخرة؟

لقد أجاب الله ﷻ عن هذا السؤال في كتابه العظيم فقال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١]..

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل العشاء في الجماعة، (٦٢٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، (٦٥١)، واللفظ له.

أليس من الرحمة إذن أن يُرهبك بنار الدنيا ليدفعك إلى المسجد، فتأمن يومَ القيامة؟!

وهل تعتقد أن صلاتك للفريضة في بيتك -ورسول الله ﷺ يُهدِّدك بالحرق- يمكن أن تكون صلاة خاشعة؟!

وهل تعتقد أن صلاة قد ذهب خشوعها يمكن أن تُعَدِّل مسارًا، أو تُحَسِّن أخلاقًا؟!

وأكثر من ذلك أن رسول الله ﷺ أشار في رواية أخرى إلى أن هؤلاء المتخلِّفين عن الصلاة كانوا سيأتون مسرعين لو قُدِّم في المسجد مع الصلاة طعام! أو كان هناك لعب ولهو! فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ!»(١). فالعَرْق السمين هو اللحم، والمرماتان قيل: هما السهمان اللذان يُلْعَب بهما(٢). فهؤلاء المتخلِّفون عن الجماعة لا تنقصهم صحَّة، ولا يُقعِدهم مرض، إنما النقص الحقيقي في إيمانهم وتقواهم!

ثمَّ ماذا تقول في رجل أدرك هذه المعاني، وعَلِمَ غضب رسول الله ﷺ عليه إن صلَّى في بيته، ثم هو لا يكترث، ويقول في إهمال: «ظروفي» صعبة؟!

أترك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يجيب عن هذا السؤال بكلماته الخالدة..

يقول عبد الله: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ؛ فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»(٣)

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، (٦١٨)، واللفظ له، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، (٦٥١).

(٢) انظر: ابن حجر: فتح الباري، ٢/ ١٢٩، ١٣٠.

(٣) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صلاة الجماعة من سنن الهدى، (٦٥٤)، واللفظ له، وأبو داود (٥٥٠)، والنسائي (٩٢٢)، وابن ماجه (٧٧٧)، وأحمد (٣٩٣٦).

إنها كلمات نورانية في غاية الوضوح!

تَرْكُ صلاة المسجد تركٌ لسُنَّة رسول الله ﷺ..

تَرْكُ صلاة المسجد ضلالٌ..

تَرْكُ صلاة المسجد تضييعٌ لحسنات ودرجات..

تَرْكُ صلاة المسجد علامةٌ من علامات النفاق..

ولا شَكَّ أن الجميع يُدرك أن هذا يخصُّ صلاة الفريضة فقط، أمَّا النوافل فمحمودةٌ في البيت؛ وذلك لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا**»(١).

ولا شَكَّ أن الجميع يُدرك كذلك أن هذا يخصُّ الرجل غير المعذور دون المرأة..

ولسنا بصدد البحث عن أعذار التخلُّف عن صلوات الجماعة في المساجد، ولكننا بصدد البحث عن قلوبنا التي ضاعت منَّا في بيوتنا، بينما تخشع قلوب قوم آخرين سبقونا إلى المساجد!

يختلف الخشوع في المسجد تمامًا عن الخشوع في البيت، لدرجة أن أحد الأصدقاء كان يشكو لي ويقول: أنا أخشى على نفسي من النفاق! فلما سألتُه عن السبب قال: أنا أجد قلبي خاشعًا في المسجد، ولا أجده كذلك إذا صليتُ الفريضة في البيت، فأخاف أن أكون منافقًا متصنِّعًا للخشوع أمام الناس! ولكني قلت له: إن هذا الأمر ليس خاصًّا بك، لكن بالشرع والتجربة يَثْبُت أن المسجد فعلًا أدعى للخشوع؛ وذلك لأسباب كثيرة..

فصلاة الجماعة «أجود» من الصلاة الفردية؛ بدليل أن أجرها أعظم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»(٢). فمع أن الصلاة هي الصلاة، ولم تزدِ صلاة المسجد في أركانها وحركاتها عن صلاة البيت شيئًا، فإن الأجر تضاعف سبعًا وعشرين مرَّة!

---

(١) البخاري: أبواب التطوع، باب التطوع في البيت، (١١٣١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، (٧٧٧)، واللفظ له.

(٢) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، (٦١٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، (٦٥٠)، واللفظ له.

وصلاة الجماعة تُؤدَّى في «بيت الله»، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً»(١). ولا شَكَّ أن خشوعنا في «بيت الله» يختلف عن خشوعنا في «بيوتنا»! ولا يعبثُ الشيطان بعقولنا وقلوبنا في بيت الله ﷻ مثلما يفعل في بيوتنا.

وفوق ذلك فإنَّ تغلُّبنا على الشيطان يكون أسهل ونحن بصحبة المؤمنين، وعن ابن عمر ﷺ قال: خطبنا عمر ﷺ بالجابية فقال: يا أيُّها الناس؛ إنِّي قُمْتُ فيكم كَمَقَام رسول الله ﷺ فينا فقال: «أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ! وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ! فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ(٢) فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ»(٣). فهذا تصريح أن الشيطان مع الواحد، وإن كان الله سيعصمك من الشيطان في صلوات النفل وقيام الليل، فإنه لن يفعل في صلاة الفريضة التي أمرنا أن نصليها جماعة فخالفناه!

وإضافة لما سبق فالمسجد يساعد على التهيئة النفسية الطبيعية للمصلِّي؛ فأنت في مكان العبادة تتهيَّأ نفسك للعبادة، وأنت في مكان البيت تتهيَّأ نفسك للراحة والسكون، إضافة لمشاكل البيت الكثيرة التي يمكن أن تصرف ذهنك عن الخشوع؛ أمَّا في مكان العمل فتتهيَّأ نفسُك للمال والأعمال، وهي كذلك شواغل كبرى عن الخشوع.

لهذا فإن بعض الفقهاء(٤) يعتبرون صلاة الجماعة فرضًا وليست نافلة، بمعنى أن المتخلِّف

---

(١) سبق تخريجه ص١٥٣.

(٢) من أراد بحبوحة الجنة؛ أي: من أراد أن يسكن وسطها وخيارها. المباركفوري: تحفة الأحوذي، ٦/ ٣٢١.

(٣) الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي (٩٢٢٥)، وأحمد (١١٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وابن حبان (٧٢٥٤)، وأبو يعلى (١٤١)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات. والحاكم (٣٨٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٤) جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: للفقهاء في بيان حكم صلاة الجماعة أقوال مختلفة، وبيانها فيما يلي: أولًا: الجماعة في الفرائض: ذهب الحنفية -في الأصح- وأكثر المالكية، وهو قول للشافعية إلى أن صلاة الجماعة في الفرائض سُنَّة مؤكَّدة للرجال، وهي شبيهة بالواجب في القوة عند الحنفية. وذهب الشافعية -في الأصح عندهم- إلى أنها فرض كفاية، وهو قول بعض فقهاء الحنفية؛ كالكرخي والطحاوي، وهو ما نقله المازري عن بعض المالكية، وقد فصَّل بعض المالكية فقالوا: إنها فرض كفاية من حيث الجملة -أي بالبلد- فيُقَاتَل أهلها عليها إذا تركوها، وسُنَّة في =

عنها دون عذر آثم، وعندهم أدلة قوية في ذلك..

منها ما ذكرناه في أول الفصل من هَمِّ رسول الله ﷺ أن يُحَرِّق بيوت المتخلِّفين عن صلاة الجماعة بالنار؛ فهل يهمُّ بحرق بيوتهم لترك نافلة؟ وهل يتهمهم بالنفاق لتخلُّفهم عن نافلة؟

ومنها عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ أعمى، فقال: يا رسول الله؛ إنَّه ليس لي قائدٌ يقودني إلى المسجد. فسأل رسول الله ﷺ أن يُرَخِّص له فيُصَلِّيَ في بيته، فرخَّص له، فلمَّا ولَّى دعاه فقال: «**هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟**» قال: نعم. قال: «**فَأَجِبْ**»(١). فلو كانت صلاة المسجد نافلة لرخَّص لهذا الأعمى.

وأنا أعلم أنه ليس كل العلماء على هذا الرأي؛ فمنهم مَنْ يرى أن صلاة الجماعة ليست واجبة على الرجل المسلم، ولهم أدلتهم القوية في ذلك(٢)، وليست مهمتنا في هذا الكتاب أن نُرجِّح رأيًا على آخر، ولكننا نبحث عن مسألة الخشوع، فإن كان هناك شَكٌّ في شرعية صلاة الفريضة في البيت فكيف يمكن أن نتوقَّع فيها خشوعًا؟!

وانطلاقًا من هذه الأهمية القصوى لصلاة المسجد لا بُدَّ أن نفهم الدعاء الذي علَّمنا إيَّاه رسول الله ﷺ، ونقوله عند خروجنا من البيت؛ فهذا دعاء يحفظنا من الشيطان الرجيم، وهذا الدعاء عام، بمعنى أنه يُقال عند خروجنا من البيت سواء إلى المسجد أو إلى غيره، وحيث إن صلاتنا أحد الميادين الكبرى في حربنا مع الشيطان فإن هذا الدعاء يكتسب أهمية خاصة عند خروجنا إلى المسجد، ولا بُدَّ لنا من استشعار كامل لكل كلمة فيه، وهذا الدعاء رواه لنا أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ -يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ-: بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ. يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ وَوُقِيتَ. وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ**»(٣).

=كل مسجد وفضيلة للرجل في خاصة نفسه. وذهب الحنابلة، وهو قول للحنفية والشافعية إلى أنها واجبة وجوب عين وليست شرطًا لصحة الصلاة، خلافًا لابن عقيل من الحنابلة، الذي ذهب إلى أنها شرط في صحتها قياسًا على سائر واجبات الصلاة. الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ١٦٥، ١٦٦، وانظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، ٢/ ١٤٩، ١٥٠، وعبد الرحمن الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٣٦٩.

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، (٦٥٣)، واللفظ له، وأبو داود (٥٥٢)، والنسائي (٩٢٣)، وابن ماجه (٧٩٢)، وأحمد (١٥٥٢٩)، والحاكم (٦٦٧٣).

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٥/ ٢٨٠، ٢٨١، ٢٧/ ١٦٥ - ١٦٧، وعبد الرحمن الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٣٦٩، ٣٧٠، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، ٢/ ١٤٩-١٥١.

(٣) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا خرج من بيته (٣٤٢٦) واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأبو داود (٥٠٩٥)، وابن حبان (٨٢٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، ٢/ ١٢١ (١٦٠٥).

وفي رواية أخرى عن أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فقال: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»(١).

وكان رسول الله ﷺ يقول دعاءً خاصًّا إذا خرج لصلاة الصبح، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أَنَّه رَقَدَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَاسْتَيْقَظَ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠]، فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الآيَاتِ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَأَطَالَ فِيهِمَا الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ سِتَّ رَكَعَاتٍ كُلَّ ذَلِكَ يَسْتَاكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيَقْرَأُ هَؤُلَاءِ الآيَاتِ، ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلَاثٍ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ، فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا**»(٢).

فانظر إلى هذا النور السابغ الذي يُحيط بالمسلم ويشمله وهو في طريقه إلى المسجد، وكيف تتوقَّع صلاته في المسجد وهو في هذه الحالة النورانية؟!

وما أجمل أن يختم الذاهب إلى المسجد رحلته إلى بيت الله ﷻ بذكر دعاء دخول المسجد، وهو يلفت أنظارنا إلى أمور ينبغي الانتباه إليها دومًا..

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ «**أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ... فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ**»(٣)!

---

(١) الترمذي: كتاب الدعوات، باب منه «ما يقول إذا خرج من بيته» (٣٤٢٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأبو داود (٥٠٩٤)، واللفظ له، والنسائي (٩٩١٣)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وأحمد (٢٦٦٥٨)، والحاكم (١٩٠٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والطبراني: المعجم الكبير، (١٩٦٧٨)، والمعجم الأوسط، (٢٣٨٣).

(٢) البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل، (٥٩٥٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٧٦٣)، واللفظ له.

(٣) أبو داود: كتاب الصلاة، باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد (٤٦٦)، وقال النووي: حديث حسن رواه أبو داود بإسناد جيد. انظر: خلاصة الأحكام، ١/ ٣١٤، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٢/ ٣٦٤.

إن الرحلة إلى المسجد بدأت بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند الخروج من البيت، وانتهت بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند دخول المسجد، وفي الحالتين تكَفَّل الله ﷻ بحمايتنا من الشيطان ووسوسته، فأيُّ انتصار هائل حقَّقناه على عدونا اللدود قبل أن ندخل في الصلاة! إن هذا يُبَشِّر بخشوع كبير في الصلاة إن شاء الله تعالى..

ولاستكمال الصورة فإن هناك دعاءً آخر يمكن أن نقوله كذلك عند دخول المسجد؛ فعن أبي أُسَيْدٍ ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ...»[1]. وفي رواية عن فاطمة ؓ بنت رسول الله ﷺ أنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ يَقُولُ: بِسْمِ اللهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ..»[2].

خلاصة القول..

إنه لا ينبغي لباحث عن الخشوع أن يسأل: أين أُصَلِّي الفريضة؟!

إنه سؤال لا معنى له عند الصالحين..

فكما نذهب إلى طبيب عيون ليُعالج عيوننا من رمد ألمَّ بها..

وكما نذهب إلى جرَّاح عِظام لتجبير كسرٍ أصابنا..

كما نفعل هذا وذاك ببداهةٍ ودون جدال..

فإننا نذهب كذلك إلى المساجد لعلاج قلوبنا من نقص الخشوع!

نذهب ببداهةٍ..

ودون جدال..

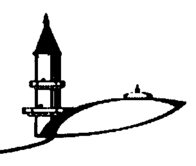
فالآمر هنا..

هو رسول الله ﷺ!

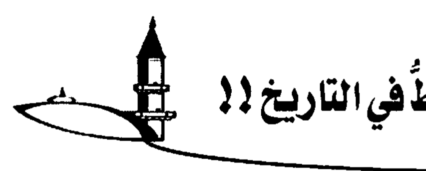
---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما يقول إذا دخل المسجد، (٧١٣)، واللفظ له، وأبو داود (٤٦٥)، والنسائي (٨٠٨)، وأحمد (٢٣٦٥٦)، والدارمي (١٣٩٤)، وابن حبان (٢٠٤٧)، وأبو يعلى (٤٨٦).

(٢) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في ما يقول عند دخول المسجد (٣١٤)، وقال: حديث فاطمة حديث حسن وليس إسناده بمتصل. وابن ماجه (٧٧١)، وأحمد (٢٦٤٦٠)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره دون قوله: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي». فحسن. وأبو يعلى (٦٧٥٤).



الصراع الذي لم يحدث قطُّ في التاريخ!!



ما أكثر صراعات الدنيا!

على المال نتصارع..

على الأرض نتصارع..

على المنصب نتصارع..

على النساء نتصارع..

على متاع الدنيا..

وزينتها..

وزخرفها..

نتصارع ونتصارع ونتصارع!

بل قد نتصارع على إمامة مُصَلِّينَ!

أو على قيادة جيش في أرض الجهاد!

لكننا لم نتصارع قطُّ..

وقد لا نتصارع أبدًا..

على الصف الأول في صلاة مفروضة!!

تتثاقل خطواتنا..

نزهد زهدًا حقيقيًا..

بل قد نأتي مبكِّرين فنبحث عن حائط نرمي بأجسادنا الكالَّة عليه!

أو نجلس في وسط المسجد غير مكترثين!

ولو علمنا ما في الصف الأول من أجر..

لاشتاقت نفوسنا إليه..

ولطال صراعنا عليه!

ولكننا وياللحسرة!

لا نعلم..

بل لعلنا لا نريد أن نعلم!!

عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا..**»[(١)].

لقد عَظَّم رسول الله ﷺ جدًّا من أجر المصلِّين في الصف الأول، حتى إنه ذكر أن الناس لو يعلمون قدر هذا الأجر لأتوا كلهم مسرعين متسابقين، يُريدون أن يحجزوا لهم مكانًا في هذا الصفِّ المتميز، وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ أن صلاة الجماعة تزيد على صلاة الفرد سبعًا وعشرين مرَّة، لكنه لم يذكر لنا أجر الصفِّ الأول؛ وذلك تعظيمًا له وتضخيمًا لقيمته، وكان رسول الله ﷺ يتمنَّى أن يتسابق الناس للوصول إلى الصف الأول إلى الدرجة التي لا يقبل فيها الناس إلَّا بالاستهام -أي بالقرعة- لفضِّ الاشتباك المتوقَّع حدوثه!

لكن ذلك «الصراع» لم يحدث قطُّ!!

لم يستجب الناس إلى تحفيز رسول الله ﷺ ولا إلى ترغيبه!

إننا مشغولون «بالصراع» على الدنيا -يا للأسف- وليس عندنا وقت كثير نُنفقه في «الصراع» على الصف الأول في الصلاة!

إنها مشكلة إيمانية عميقة..

ولقد كرَّر رسول الله ﷺ تحفيزه في مواقف كثيرة، فتجده يقول -مثلًا- في موقف آخر: «**لَوْ تَعْلَمُونَ -أَوْ يَعْلَمُونَ- مَا فِي الصَّفِّ الْمُقَدَّمِ لَكَانَتْ قُرْعَةً**»[(٢)]. وفي موقف ثالث يذكر العرباض بن سارية ﷺ «**أن رَسُولِ الله ﷺ كَانَ يُصَلِّي**[(٣)] **عَلَى الصَّفِّ الأَوَّلِ ثَلَاثًا وَعَلَى الثَّانِي وَاحِدَةً**»[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه ص١٣٦.

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول... (٤٣٩)، واللفظ له، وابن ماجه (٩٩٨)، وابو يعلى (٦٤٧٥)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٩٧٣).

(٣) يصلي على الصف الأول: أي يدعو لهم بالرحمة ويستغفر لهم. انظر: حاشية السندي على سنن النسائي ٢/ ٩٣.

(٤) النسائي: كتاب الإمامة والجماعة، ذكر فضل الصف الأول على الثاني، (٨٩١)، وأحمد (١٧١٩٧)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٩٧٥)، وابن حبان (٢١٥٨)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٥٣٤٧)، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، ٤/ ٤٥.

وفي رواية: «أَنَّهُ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لِلصَّفِّ الأَوَّلِ ثَلَاثًا وَلِلثَّانِي مَرَّةً»(١). ولم يذكر في هذه الروايات الصف الثالث أو الرابع أو ما بعد ذلك؛ فالذي سبق فاز بصلاة رسول الله ﷺ عليه، واستغفاره له، والذي تأخَّر فاتته هذه الفرصة الثمينة!

بل وصل الأمر إلى أنه كان يُخَوِّف المسلم الذي لا يحرص على الصف الأول بالنار! فعن عائشة ﵂ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الصَّفِّ الأَوَّلِ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ»(٢)!

وواقع الأمر أن الذي يُصَلِّي في الصف الأول يخشع أكثر، وليس هذا فقط للبركة التي يعطيها الله ﷻ لأهل الصف الأول؛ ولكن لأن هذه الطائفة المقرَّبة تشاهد الإمام وتُتابعه، ولا تنشغل بما أمامها من الصفوف، فوق شعورها السعيد بالسبق والتقدُّم والفوز بالأجر الجزيل.

وقارن بين خشوعك في يومٍ فُزْتَ فيه بالصلاة في الصف الأول، أو في الصفوف الأولى، وبين خشوعك وأنت في الصفوف المؤخَّرة، ولي تجربة شخصية جميلة في هذا المجال، فقد كنتُ أجد هذا الفارق وأنا أُصَلِّي في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنوَّرة! فكنتُ ألاحظ أن خشوعي أعلى بكثير في الصفوف المتقدِّمة عن خشوعي في الصفوف المتأخِّرة، مع أن أعداد الصفوف كبيرة للغاية، وقد لا يُلاحظ أحدٌ الفارق بين الصف العشرين والثلاثين! لكن صدِّقوني.. هناك فارق ملموس ومحسوس! ويُؤَيِّد ذلك حديث رسول الله ﷺ، والذي قال فيه: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»(٣). فهؤلاء الموصوفون بالخيرية لا شَكَّ أنَّ خشوعهم أعلى، وذلك مع الأخذ في

(١) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في فضل الصف الأول (٢٢٤)، وابن ماجه (٩٩٦)، وأحمد (١٧١٨٨)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. والدارمي (١٢٦٥)، والحاكم (٧٧٦)، وقال: حديث صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح على شرطهما. والطبراني: المعجم الكبير، (١٥٣٤٨)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، ١/ ١١٨ (٤٩٠).

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب صف النساء وكراهية التأخر عن الصف الأول (٦٧٩)، واللفظ له، وابن حبان (٢١٥٦)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٩٧٩)، وابن خزيمة (١٥٥٩)، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد على شرط مسلم. انظر: خلاصة الأحكام، ٢/ ٧١١، وقال الألباني: حديث صحيح، دون قوله: «فِي النَّارِ». انظر: صحيح أبي داود، ٣/ ٢٥٨.

(٣) مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول... (٤٤٠) عن أبي هريرة، والترمذي (٢٢٤)، وأبو داود (٦٧٨)، والنسائي (٨٩٤)، وابن ماجه (١٠٠٠)، وأحمد (٧٣٥٦)، والدارمي (١٢٦٨)، وابن حبان (٢١٧٩).

الاعتبار أن صفوف النساء -إذا كُنَّ يُصلين مع الرجال دون حاجز- تبدأ من الصفِّ الأخير ثم تتوالى في اتجاه الإمام[١]، وهذا أستر للنساء اللاتي أتين مبكرات، وبالتالي يكون هذا أدعى -كذلك- لخشوعهنَّ!

ماذا نفعل كي نحظى بمكان في هذا الصف الأول الخاشع؟!

يلزمنا في غالب الأحوال أن نأتي مبكِّرين..

ولكننا في زمان قد يأتي فيه المصلِّي متأخِّرًا جدًّا، ومع ذلك يجد أنه في الصف الأول! وذلك لقلَّة المصلين! ولم يَفُتْ رسول الله ﷺ هذا الوضع المنكر، فحضَّ على التبكير إلى المسجد بصرف النظر عن عدد المصلين؛ فقال -فيما يرويه أبي هريرة ﷺ-: «... **وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ**..»[٢]. والتهجير هو التبكير للصلاة[٣]، وهنا يتَّضح لنا بُعْدٌ جديدٌ في مسألة القدوم المبكِّر إلى المسجد، فليست القضية فقط أن تدرك مكانًا بالصف الأول، إنما يُقْصَد التبكير لذاته! وسرُّ ذلك أن الذي يأتي المسجد أبكر يعيش في جوِّ الصلاة أكثر؛ ومن ثَمَّ يُصبح على الخشوع أقدر؛ لذلك كان أجره أعظم وأجلَّ؛ ولعلَّ هذا الأجر المتفاوت بين المُبكِّرين والمُتأخِّرين يَبْرُز بوضوح في وصف الرسول ﷺ لأجر المصلِّينَ في صلاة الجمعة.. فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً**[٤]**، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**»[٥]!

---

(١) قال النووي: أما صفوف النساء فالمراد بالحديث: صفوف النساء اللواتي يُصلين مع الرجال، وأما إذا صلَّين متميزات لا مع الرجال فهنَّ كالرجال خير صفوفهن أولها وشرُّها آخرها، والمراد بشَرِّ الصفوف في الرجال والنساء أقلّها ثوابًا وفضلًا، وأبعدها من مطلوب الشرع، وخيرها بعكسه، وإنما فضَّل آخر صفوف النساء الحاضرات مع الرجال لبُعْدِهن من مخالطة الرجال ورؤيتهم، وتعلُّق القلب بهم عند رؤية حركاتهم وسماع كلامهم، ونحو ذلك، وذمّ أول صفوفهن لعكس ذلك. النووي: المنهاج، ٤/ ١٦٠.

(٢) البخاري: كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان، (٥٩٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول... (٤٣٧).

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ٢/ ٩٧، والنووي: المنهاج، ٤/ ١٥٨.

(٤) البدنة: قال جمهور أهل اللغة وجماعة من الفقهاء: يقع على الواحدة من الإبل والبقر والغنم، سميت بذلك لعظم بدنها. وخصها جماعة بالإبل، والمراد هنا الإبل بالاتفاق؛ لتصريح الأحاديث بذلك. النووي: المنهاج، ٦/ ١٣٦.

(٥) البخاري: كتاب الجمعة، باب فضل الجمعة، (٨٤١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، (٨٥٠).

لقد تفاوت الأجر تفاوتًا هائلًا بين المصلِّين لمجرَّد القدوم المبكِّر! فهذا الذي جاء مبكِّرًا جدًّا كأنما تصدَّق بناقة! وهي صدقة هائلة في كل الأعراف والأزمنة، ثم الذي جاء بعده كأنما تصدَّق ببقرة، وهي صدقة كبيرة كذلك، والذي بعدهم كأنما تصدَّق بكبش أقرن، وهي صدقة وإن كانت أقلَّ من السابقين فإنها ما زالت كبيرة، خاصة أن الرسول ﷺ وصف الكبش بأنه أقرن، وهذا تعظيمًا لقيمته.. ثم يتناقص الأجر بشدَّة للذي يأتي بعد ذلك فيكون كمَنْ تصدَّق بدجاجة! ثم في النهاية يتهاوى الأجر حتى يصل إلى بيضة! والذي جاء بعد ذلك ضاع منه الأجر كله!

إنها مدرسة نبوية راقية تدفع كلَّ طلَّابها إلى التسابق إلى الخير، لتُرَسِّخ عندهم مفهومًا جليلًا؛ وهو أن المسلم له حال مع أمور الآخرة، ومع الأمور التعبدية، يختلف عن حاله مع أمور المال والمتاع، وغيرها من أمور الدنيا، وهو ما لخَّصه الرسول ﷺ في إبداع عظيم، فقال في الحديث الشريف: «**التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلَّا فِي عَمَلِ الآخِرَةِ**»(١).

وماذا نفعل إذا جئنا المسجد مبكِّرين قبل الصلاة المفروضة؟

إنني أعتبر هذه الفترة السابقة لصلاة الجماعة بمثابة عملية الإحماء التي يقوم بها الرياضيون قبل الأداء الرسمي لرياضتهم! فيدخل المصلِّي صلاة الفريضة وقد تجهَّز نفسيًّا بشكلٍ يجعله إلى الخشوع أقرب، وكلما طالت هذه الفترة كان أثرها آكد وأوثق، ويمكن القيام فيها بأعمال عديدة..

من أهم هذه الأعمال صلاة تحية المسجد.. وذلك لحديث عن أبي قتادة السَّلَمِيِّ ﷺ أنَّه قال: دخلتُ المسجد ورسول الله ﷺ جالسٌ بين ظَهْرَانَي الناس، قال: فجلستُ، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ تَجْلِسَ؟**» قال: فقلتُ: يا رسول الله؛ رأيتُكَ جالسًا والناس جلوسٌ. قال: «**فَإِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ**»(٢). وهما

---

(١) أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرفق، (٤٨١٠) عن سعد بن أبي وقاص، والحاكم (٢١٣)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي: السنن الكبرى، (٢٠٥٩٢)، وشعب الإيمان، (٨٤١١)، وأبو يعلى (٧٩٢)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (١٧٣٤).

(٢) البخاري: أبواب المساجد، باب إذا دخل المسجد فليركع ركعتين، (٤٣٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد بركعتين وكراهة الجلوس قبل صلاتها... (٧١٤)، واللفظ له.

ركعتان مهمتان إلى الدرجة التي كان رسول الله ﷺ يأمر بهما حتى مَنْ دخل المسجد أثناء خطبة الجمعة، وذلك كما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: جاء سُلَيْكٌ الْغَطَفَانِيُّ يوم الجمعة ورسولُ الله ﷺ يخطب فجلس، فقال له: «**يَا سُلَيْكُ؛ قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا**». ثمَّ قال: «**إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ وَلْيَتَجَوَّزْ فِيهِمَا**»(١).

ومن هذه الأعمال -أيضًا- صلاة النافلة القبلية، وكل الصلوات لها نوافل قبلية، وبعد الصلاة المفروضة يُصَلِّي النافلة البعدية لو كان للصلاة سُنَّة بعدية..

فالصبح تسبقه ركعتان نافلتان عظيمتان، ولقد قال في حقِّهما رسول الله ﷺ ما نعجز عن تخيله! فقال: «**رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(٢). فأي خير يمكن للإنسان أن يُحَقِّقه عوضًا عن هاتين الركعتين؟! وكيف يكون مقدار الخسارة لِمَنْ جاء متأخِّرًا إلى المسجد؛ ففاته الوقت الصحيح لهذه الصلاة الثمينة؟!

والظهر قبله ركعتان أو أربع ركعات، وبعده ركعتان أو أربع كذلك، وقد ورد ذلك التنويع في عدَّة أحاديث صحيحة، فعَنْ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي قَبْلَ الظُّهْرِ رَكْعَتَيْنِ وَبَعْدَهَا رَكْعَتَيْنِ..**»(٣). وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت -وهي تصف صلاة التطوع لرسول الله ﷺ-: «**كَانَ يُصَلِّي فِي بَيْتِي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ..**»(٤). وعن أمِّ حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا وَبَعْدَهَا أَرْبَعًا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»(٥).

---

(١) البخاري: أبواب التطوع، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، (١١١٣)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب التحية والإمام يخطب، (٨٧٥)، واللفظ له.

(٢) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة، (٧٢٥) عن عائشة، والترمذي (٤١٦)، والنسائي (١٤٥٢)، وأحمد (٢٦٣٢٩)، وابن حبان (٢٤٥٨)، والحاكم (١١٥١).

(٣) البخاري: كتاب الجمعة، باب الصلاة بعد الجمعة وقبلها، (٨٩٥)، واللفظ له، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن، (٧٢٩).

(٤) البخاري: أبواب التطوع، باب الركعتان قبل الظهر، (١١٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائمًا وقاعدًا وفعل بعض الركعة قائمًا وبعضها قاعدًا، (٧٣٠)، واللفظ له.

(٥) الترمذي: أبواب الصلاة، باب منه «ما جاء في الركعتين بعد الظهر» (٤٢٧)، وقال: هذا حديث حسن. واللفظ له. وأبو داود (١٢٦٩)، والنسائي (١٤٨٠)، وابن ماجه (١١٦٠)، وأحمد (٢٦٨٠٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. والحاكم (١١٧٥)، وأبو يعلى (٧١٣٠)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٢٦٤)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٩٣٩٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٥/ ٩.

أمَّا العصر فقبله ركعتان أو أربع، فقد روى أبو سلمة ﷺ أنَّه سأل عائشة ﷺ عن السجدتين اللَّتين كان رسول الله ﷺ يُصَلِّيهمَا بعد العصر، فقالت: «كَانَ يُصَلِّيهِمَا قَبْلَ الْعَصْرِ، ثُمَّ إِنَّهُ شُغِلَ عَنْهُمَا أَوْ نَسِيَهُمَا فَصَلَّاهُمَا بَعْدَ الْعَصْرِ..»[١]. وروى الترمذي عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «رَحِمَ اللهُ امْرَأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا»[٢].

والمغرب قبله ركعتان، وهما ليستا من السنن المؤكَّدة، بمعنى أن الرسول ﷺ لم يكن يُواظب على صلاتها كل يوم، وعن أنس بن مالكٍ ﷺ قال: «كَانَ الْمُؤَذِّنُ إِذَا أَذَّنَ قَامَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَبْتَدِرُونَ السَّوَارِيَ[٣]، حَتَّى يَخْرُجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُمْ كَذَلِكَ؛ يُصَلُّونَ الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ..»[٤]. أما بعد المغرب فركعتان مهمتان من السنن المؤكَّدة؛ لقول عائشة ﷺ: «.. وَكَانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ الْمَغْرِبَ ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ..»[٥].

والعشاء قبلها ركعتان لعموم قول رسول الله ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ -ثَلَاثًا- لِمَنْ شَاءَ»[٦]. وقد عَلَّق ابن حجر العسقلاني ﷺ على الحديث بأن المقصود من الأذانين هو الأذان والإقامة[٧]. أمَّا بعد العشاء فركعتان من السنن المؤكَّدة؛ وذلك لقول عائشة ﷺ: «.. وَيُصَلِّي بِالنَّاسِ الْعِشَاءَ وَيَدْخُلُ بَيْتِي فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ..»[٨].

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب معرفة الركعتين اللتين كان يصليهما النبي ﷺ، (٨٣٥)، والنسائي (١٥٥٦)، وأحمد (٢٦٨٧٥)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤١٨٩)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٩٩٣٠).

(٢) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في الأربع قبل العصر (٤٣٠)، وقال: حديث حسن. وأبو داود (١٢٧١)، وأحمد (٥٩٨٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وابن حبان (٢٤٥٣)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٢٦٧)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٥/ ١٣.

(٣) يبتدرون السواري؛ أي: يُصَلُّون إليها، والسواري جمع سارية وهي: الأسطوانة، والغالب أنها تكون من بناء بخلاف العمود فإنه من حجر واحد. انظر: ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٥٧٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة (سرا) ١٤/ ٣٧٧.

(٤) البخاري: كتاب الأذان، باب كم بين الأذان والإقامة ومن ينتظر الإقامة، (٥٩٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتين قبل صلاة المغرب، (٨٣٦).

(٥) البخاري: كتاب الجمعة، باب الصلاة بعد الجمعة وقبلها، (٨٩٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائمًا وقاعدًا وفعل بعض الركعة قائمًا وبعضها قاعدًا، (٧٣٠)، واللفظ له.

(٦) البخاري: كتاب الأذان، باب كم بين الأذان والإقامة ومن ينتظر الإقامة، (٥٩٨)، عن عبد الله بن مغفل المزني، واللفظ له، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بين كل أذانين صلاة، (٨٣٨).

(٧) ابن حجر: فتح الباري، ٢/ ١٠٧، وانظر: النووي: المنهاج، ٦/ ٩.

(٨) البخاري: أبواب التطوع، باب الركعتان قبل الظهر، (١١٢٦)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائمًا وقاعدًا وفعل بعض الركعة قائمًا وبعضها قاعدًا، (٧٣٠) واللفظ له.

فهذه سنن قبلية وبعدية يمكن للمُصَلِّي أن يُصَلِّيَها في بيته قبل أن يأتي المسجد، وبعد أن يعود، ويمكن له كذلك أن يُصَلِّيَها في المسجد، وإن كنتُ أنصح مَن اعتاد التكاسل عنها في البيت أن يُؤَدِّيَها في المسجد؛ وذلك حتى لا يُعطي الشيطان فرصة للتسلُّط عليه، إضافة إلى أثر هذه النوافل في تهيئة المصلِّي لصلاة الجماعة المفروضة.

ويمكن أن يقضي المصلِّي وقته قبل الصلاة المفروضة في عمل جليل وخطير وهو قضاء الفوائت! فكثير من المسلمين فاتتهم العديد من الصلوات على مدار السنوات، وبعضهم يعرف تحديدًا الفترة التي انقطع فيها عن الصلاة، والبعض الآخر يعرف بالتقريب، وفريق ثالث لا يعرف! والمسألة خطيرة، والعلماء ينقسمون في قضية قضاء الفوائت إلى فريقين.. أحدهما يرى أنه لا بُدَّ من إحصاء عدد الفوائت، أو ما يغلب على الظنِّ أنه العدد الصحيح، ثم يقوم بقضائها بشكل كامل؛ لأنها لا تسقط أبدًا -في رأيهم- إلَّا بالقضاء[1]، والفريق الثاني يرى أن هذا القضاء الكامل قد يُصَعِّب فرصة التوبة على أولئك الذين تركوا الصلاة فترة طويلة من أعمارهم؛ ولذلك يرون أنه يكفيهم التوبة، وعليهم أن يُصَلُّوا من الفوائت ما يستطيعون[2].

وسواء أخذنا بأيِّ من الرأيين فينبغي لنا أن نُصَلِّيَ هذه الفوائت -أو بعضها- في وقت ما، فمتى يكون هذا الوقت؟ يمكن أن نُصَلِّيَ في أي وقت نشاء -إلَّا الأوقات التي يُكره فيها الصلاة- ومن أفضل هذه الأوقات الوقت الذي بين الأذان والإقامة، حيث يرى بعض العلماء أنه يمكن قضاء صلاة فائتة مع كل صلاة مفروضة حالية، بمعنى أن يُصَلِّيَ المرء قبل صلاة الظهر -مثلًا- إحدى صلوات الظهر الفائتة، وكذلك قبل العصر، وهكذا، بل إنهم

---

(١) جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: المتعمد في الترك: يرى جمهور الفقهاء أنه يلزمه قضاء الفوائت. الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٤/ ٢٦، وقال الجزيري: من عليه فوائت لا يدري عددها يجب عليه أن يقضي حتى يتيقن براءة ذمته، عند الشافعية، والحنابلة؛ وقال المالكية، والحنفية: يكفي أن يغلب على ظنه براءة ذمته، ولا يلزم عند القضاء تعيين الزمن، بل يكفي تعيين المنوي كالظهر أو العصر مثلًا، وخالف الحنفية. انظر: عبد الرحمن الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٤٥٠.

(٢) جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: ويرى بعض الفقهاء عدم وجوب القضاء على المتعمد في الترك، قال عياض: ولا يصح (أي هذا الرأي) عند أحد سوى داود وابن عبد الرحمن الشافعي. الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٤/ ٢٧. قال عياض: سمعت عن مالك قولة شاذة: لا تُقْضَى فائتة العمد. ولا يصح عن أحد سوى داود وابن عبد الرحمن الشافعي. الصاوي المالكي: بلغة السالك ١/ ٣٦٤. وفي مذهب الحنابلة: وإذا كثرت عليه الفوائت يتشاغل بالقضاء ما لم يلحقه مشقة في بدنه أو ماله. انظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، ٢/ ١٤٢.

يرون أنه لو شقَّ على الإنسان أن يُصَلِّيَ الفائتة والنوافل القبلية فإنه من الأفضل له أن يُصَلِّيَ الفائتة ولا يُصَلِّي النافلة القبلية؛ لأن الفائتة بمثابة الدَّيْن الذي عليه لله ﷻ، والأَوْلى أن يقوم المرء بسداد الدَّيْن قبل التطوع(١).

وللمصلِّي أن «يجلس» في مصلَّاه منشغلًا بأعمال كثيرة عظيمة، ويأتي على رأس هذه الأعمال قراءة القرآن، وينبغي حينها أن تتدبَّر في قول رسول الله ﷺ -عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ- قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»(٢). فانظر كيف جمَّل القرآن طعمك ورائحتك وحياتك! بل انظر كيف يترك القرآن أثرًا طيبًا حتى على المنافقين! وليعلم كل واحد من المسلمين أن عليه ألَّا يهجر القرآن، حتى لا يكون من الطائفة التي ذكرها الله ﷻ في كتابه الكريم على وجه الذَّمِّ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، ومن العلماء مَنْ يرى أن الذي يختم القرآن في أكثر من أربعين يومًا يُعتبر من الهاجرين له(٣)! ولذلك

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٤/ ٣٥): يرى الحنفية أنه يسقط الترتيب بكثرة الفوائت الحقيقية أو الحكمية؛ لأن اشتراط الترتيب إذ ذاك ربما يُفضي إلى تفويت الوقتية، وهو حرام. البناية ٢/ ٦٢٩، ومراقي الفلاح ص٢٤١، وحاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص٢٤١. قال الجزيري: ولا يجوز تأخير القضاء (أي قضاء الفائتة) إلا لعذر... ومما ينافي القضاء فورًا الاشتغال بصلاة النوافل على تفصيل في المذاهب. عبد الرحمن الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٤٤٦. الحنفية قالوا: الاشتغال بصلاة النوافل لا ينافي القضاء فورًا، وإنما الأولى أن يشتغل بقضاء الفوائت ويترك النوافل إلا السنن الرواتب، وصلاة الضحى، وصلاة التسبيح، وتحية المسجد، والأربع قبل الظهر، والست بعد المغرب. المالكية قالوا: يحرم على من عليه فوائت أن يصلي شيئًا من النوافل إلَّا فجر يومه والشفع والوتر إلا السنة كصلاة العيد، فإذا صلى نافلة غير هذه كالتراويح كان مأجورًا من جهة كون الصلاة في نفسها طاعة، وآثمًا من جهة تأخير القضاء؛ ورخصوا في يسير النوافل كتحية المسجد، والسنن الرواتب. الشافعية قالوا: يحرم على مَنْ عليه فوائت يجب عليه قضاؤها فورًا -وقد تقدم ما يجب فيه الفور- أن يشتغل بصلاة التطوع مطلقًا، سواء كانت راتبة أو غيرها حتى تبرأ ذمته من الفوائت. الحنابلة قالوا: يحرم على مَنْ عليه فوائت أن يصلي النفل المطلق، فلو صلاه لا ينعقد؛ وأما النفل المقيد كالسنن الرواتب والوتر، فيجوز له أن يصليه في هذه الحالة، ولكن الأولى له تركه إن كانت الفوائت كبيرة؛ ويستثنى من ذلك سنة الفجر؛ فإنه يُطْلَبُ قضاؤها ولو كثرت الفوائت لتأكُّدها وحثِّ الشارع عليها.

(٢) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به، (٤٧٧٢)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، (٧٩٧)، واللفظ له.

(٣) قال ابن قدامة: ويكره أن يؤخر ختمه أكثر من أربعين يومًا؛ لأن عبد الله بن عمرو سأل النبي ﷺ: في كم يختم القرآن؟ قال: «فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا». ثم قال: «فِي شَهْرٍ». ثم قال: «فِي عِشْرِينَ». ثم قال: «فِي خَمْسَ عَشْرَةَ». ثم قال:=

يُفضَّل لنا أن نقضي وقت الانتظار في قراءة القرآن؛ حتى نتمكَّن من الانتهاء من ستة أرباع من القرآن يوميًا على الأقلِّ، فنخرج بذلك من هذه الطائفة المذمومة.

ويمكن للمصلِّي أن ينشغل كذلك في فترة انتظاره للصلاة بذِكْرِ الله ﷻ، وأجره عظيم كذلك، وأنواعه كثيرة من حمد وتكبير وتسبيح وتهليل واستغفار.. وغير ذلك، وكل نوع من هذه الأذكار له أجره الخاص، وللذِّكْر بشكل عامٍّ أجر كبير، ويكفي أن نذكر حديثًا واحدًا في فضله، مثل الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(١). وإذا تخيَّل المرء أن الله تبارك وتعالى يذكره في نفسه سبحانه إذا ذكر العبدُ اللهَ ﷻ، فكيف يمكن له أن يكُفَّ عن الذكر؟!

ويمكن كذلك أن تُفَرِّغ بعض الوقت للدعاء، وهذا موطن مهمٌّ من مواطن الدعاء فما أروعه! فهو بعد صلاة نافلة، وقبل صلاة فريضة، وفي بيت من بيوت الله ﷻ؛ فالزمان شريف، والمكان شريف؛ ولذلك فالدعاء في هذا الوقت مستجاب، وعن أنسٍ ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ لَا يُرَدُّ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ فَادْعُوا»(٢).

ويُفَضَّل في كل ما سبق -أي في القرآن والذكر والدعاء- أن نستقبل القبلة لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَيِّدًا، وَإِنَّ سَيِّدَ المَجَالِسِ قُبَالَةَ الْقِبْلَةِ»(٣).

=«فِي عَشْرٍ». ثم قال: «فِي سَبْعٍ». لم ينزل من سبع، أخرجه أبو داود، وقال أحمد: أكثر ما سمعتُ أن يختم القرآن في أربعين، ولأن تأخيره أكثر من هذا يُفضي إلى نسيانه والتهاون به، وهذا إذا لم يكن عذر، فأما مع العذر فذلك واسع. انظر: ابن قدامة: الشرح الكبير، ١/ ٧٥٨. وانظر: ابن مفلح: الفروع وتصحيح الفروع ٢/ ٣٨٢.

(١) البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، (٦٩٧٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، (٢٦٧٥).

(٢) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة (٢١٢)، وقال: حديث أنس حديث حسن صحيح. وأبو داود (٥٢١)، والنسائي (٩٨٩٥)، وأحمد (١٣٦٩٣)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن حبان (١٦٩٦)، وأبو يعلى (٣٦٧٩)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٧٩٤)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٣/ ١٤.

(٣) الطبراني: المعجم الأوسط، (٢٣٥٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد، ٨/ ١١٤، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٢٦٤٥).

إذا تدبَّرنا في هذه الأعمال المجيدة في حال قدومنا مبكِّرين إلى المسجد فَهِمْنَا التحفيز النبوي الواضح على التهجير -أي التبكير- إلى الصلاة، بل إن لنا إذا جئنا مبكِّرين جائزة عجيبة! فإن الله ﷻ يُسَخِّر لنا ملائكة تدعو لنا! فعن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ[1]؛ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ»[2]! وهل يظنُّ أحدٌ أن هذا الدعاء لا يُستجاب؟! إن هذا لا يكون! فالله ﷻ الذي أرسلهم وكلَّفهم بالدعاء لنا ما أرسلهم إلَّا ليستجيب لدعائهم.. وليستشعر كل واحد منَّا جاء مبكِّرًا إلى الصلاة أنه لا يجلس وحيدًا! بل تجلس حوله الملائكة الكرام في حالة خشوع لله ﷻ، يدعون له باستمرار ودون توقف: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ»!

بل إنه إضافةً إلى دعاء الملائكة فإن وقت الانتظار هذا يُحسَب في الأجر كأنه صلاة! فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ. مَا لَمْ يُحْدِثْ، وَأَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ»[3]. فهذا الجزاء الكريم سيمحو أيَّ ندمٍ يُخالط عقل الإنسان على قدومه مبكِّرًا، وتركه لبعض أعمال الدنيا، التي قد يُزَيِّن له الشيطان علوَّ قيمتها!

وإذا كان هذا الوقت بهذه القيمة، وله هذا الدور الكبير في تمهيد الطريق إلى الخشوع في الصلاة؛ فإنه ينبغي لنا ألَّا نشغله بما يصرفنا عن هذا الخشوع، أو يصرف غيرنا ممَّنْ جاءوا مُبكِّرين إلى المسجد عنه، ومن ذلك على سبيل المثال الكلام مع الآخرين بصوت مرتفع؛ فالمسجد له قدسية معروفة، إضافة إلى المحافظة على عبادة مَنْ حولنا من المصلِّين؛ فهذا يقرأ القرآن، وذاك يذكر الله ﷻ، وثالث يُصَلِّي، ورابع يدعو، وقد قال السَّائب بن يزيد[4] ﷺ:

---

(١) أحدث الرجل: وقع منه ما ينقض طهارته. وقيل: المراد بالحدث هنا أعم من ذلك؛ أي ما لم يُحْدِث سوءًا. ويُؤَيِّده رواية مسلم: «مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ». وفي أخرى للبخاري: «مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ». انظر: ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٥٣٨.

(٢) البخاري: أبواب المساجد، باب الحدث في المسجد، (٤٣٤)، واللفظ له، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، (٦٤٩).

(٣) البخاري: كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق، (٢٠١٣)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، (٦٤٩)، واللفظ له.

(٤) هو: السائب بن يزيد بن سعيد بن ثمامة الكندي، صحابي، مولده قبيل السنة الأولى من الهجرة، وكان مع أبيه يوم حج النبي ﷺ حجة الوداع، واستعمله عمر ﷺ على سوق المدينة، وهو آخر مَنْ توفي بها من الصحابة. توفي سنة (٩١هـ)، وقيل قبل ذلك.

«كنت قائمًا في المسجد، فَحَصَبَنِي[1] رجلٌ فنظرتُ، فإذا عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: اذهب فَأْتني بهذين. فجئتُه بهما، قال: مَنْ أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأَوْجَعْتُكُمَا؛ تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا[2] في مسجد رسول الله ﷺ»[3].

ومثل الذي قلناه عن الكلام بصوت مرتفع نقوله عن غير ذلك من الشواغل؛ مثل النوم الذي قد يصدر عنه أصواتٌ تُزعج العابدين وتصرفهم عن مناجاتهم لله ﷻ، وكذلك اللعب بالمحمول، أو الكلام فيه! فهو فوق الإزعاج الذي يُسَبِّبه يُعَدُّ علامةً على سوء أدب المسلم في داخل ساحة الصلاة!

وإذا دخلتَ المسجد فوجدتَ الصلاة قد أُقيمت فلا تُصَلِّ شيئًا من النوافل، بل لو كنتَ في الركعة الأولى من صلاة النافلة وأُقيمت الصلاة، فاقطع صلاة النافلة لتُدرك تكبيرة الإحرام مع الجماعة في صلاة الفرض؛ فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا صَلَاةَ إِلَّا المَكْتُوبَةُ»[4]. ولعلَّ من أبرز الحِكَم لهذا الأمر أن الذي يُصَلِّي النافلة وقت صلاة الفرض يكون ذهنه مشغولًا مع الصلاة المكتوبة، ومع حركة الناس لملء الصفوف، فلا يخشع في صلاته النافلة، ثم يقوم مسرعًا بعد ذلك ليُدرك صلاة الفرض فلا يخشع فيها كذلك، هذا فضلًا عن أن ثواب الفريضة أعلى بكثير من ثواب النافلة، فينبغي للمصلي ألَّا يُضَيِّع الأعلى لتحقيق الأدنى.

والذي يأتي مبكِّرًا إلى الصلاة يدخل في الصلاة مطمئنًّا هادئ النفس، وليس متسارع الأنفاس كالذي يجري ليُدرك ركعة، وهذا لا شَكَّ أدعى للخشوع؛ لذلك أمرنا رسول الله ﷺ أن نأتي الصلاة هادئين مطمئنِّين، حتى لو فاتنا شيء من الصلاة؛ لكي نفوز بالخشوع،

---

(١) حصبني: أي: رماني بالحصباء، والحصباء: الحصى الصغار. ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٥٦١، وابن منظور: لسان العرب، مادة (حصب) ١/ ٣١٨.

(٢) قال بعضهم: أما إنكار عمر فلأنهما رفعا أصواتهما فيما لا يحتاجان إليه من اللغط الذي لا يجوز في المسجد، وإنما سألهما: «من أين أنتما؟» ليعلم أنهما إن كانا من أهل البلد وعلما أن رفع الصوت في المسجد باللغط فيه غير جائز زجرهما وأدبهما، فلما أخبراه أنهما من غير البلد عذرهما بالجهل. بدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٤/ ٣٦٧.

(٣) البخاري: أبواب المساجد، باب رفع الصوت في المساجد، (٤٥٨)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤١٤٣).

(٤) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب كراهة الشروع في نافلة بعد شروع المؤذن، (٧١٠)، والترمذي (٤٢١)، وأبو داود (١٢٦٦)، والنسائي (٩٣٧)، وابن ماجه (١١٥١)، وأحمد (١٠٧٠٩)، والدارمي (١٤٤٨).

فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١).

أمَّا المرأة فالأفضل لها أن تقرَّ في بيتها، ولا تخرج إلى المسجد أو غيره إلَّا لحاجة، وعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «المَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ(٢)»(٣). فهذا قد يصرف خشوعها، وكذلك قد يصرف خشوع الرجال الذين يُتابعونها بأبصارهم وعقولهم؛ لذلك فصلاة المرأة في منزلها أفضل من قدومها إلى المسجد، بل حتى في داخل المنزل، ينبغي أن تكون صلاتها في أستر الأماكن، وهذا يحافظ على خشوعها، وأدب الزائرين(٤)؛ فعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «صَلَاةُ المَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا»(٥).

وانظر ما جاء في عون المعبود في شرح سنن أبي داود تعليقًا على هذا الحديث: « (صَلَاةُ المَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا): أي الدَّاخِلَانِيِّ (البيت الداخلي) لكمال سترها. (أَفْضَل مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا): أي صَحْن الدار. قال ابن الـمَلَك(٦): أراد بالحجرة ما تكون أبواب البيوت إليها، وهي أدنى حالًا من البيت. (وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا): بضمِّ الميم وتُفتح وتُكسر مع فتح الدَّال في

(١) البخاري: كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة، (٨٦٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا، (٦٠٢).

(٢) استشرفها الشيطان؛ أي: زيَّنها في نظر الرجال، وقيل: أي نظر إليها ليغويها ويغوى بها. والأصل في الاستشراف رفع البصر للنظر إلى الشيء وبسط الكف فوق الحاجب، والمعنى: أن المرأة يُستقبح بروزها وظهورها، فإذا خرجت أمعن النظر إليها ليغويها بغيرها، ويغوي غيرها بها؛ ليوقعهما أو أحدهما في الفتنة. أو يُريد بالشيطان شيطان الإنس من أهل الفسق سماه به على التشبيه. المباركفوري: تحفة الأحوذي، ٤/ ٢٨٣.

(٣) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات (١١٧٣)، وقال: حديث حسن. وابن حبان (٥٥٩٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والطبراني: المعجم الكبير، (١٠١٣٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون. انظر: مجمع الزوائد، ٢/ ١٥٦، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، ٨/ ١٥٦.

(٤) صلاة المرأة في مخدعها تساعد زوار البيت على غضِّ البصر؛ فقد يطرق الباب طارقٌ فإذا كانت المرأة في مدخل البيت ظهرت للزائر، أما في مخدعها فهذا أحفظ لها وللزائر.

(٥) أبو داود: كتاب الصلاة، باب التشديد في ذلك (خروج النساء إلى المسجد) (٥٧٠)، والحاكم (٧٥٧)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي: السنن الكبرى، (٥١٤٤)، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط مسلم. انظر: خلاصة الأحكام، ٢/ ٦٧٨، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٣/ ١٠٨.

(٦) هو: محمد بن عبد اللطيف بن عبد العزيز الكرماني الحنفي، ابن المَلَك الرُّومي، فقيه حنفي، له شرح مصابيح السنة للبغوي، توفي سنة ٨٥٤هـ= ١٤٥٠م.



الكلِّ، وهو البيت الصغير الذي يكون داخل البيت الكبير، يُحفظ فيه الأمتعة النَّفيسة من الْخَدْع وهو إخفاء الشيء، أي في خزانتها. (أَفْضَل مِنْ صَلَاتهَا فِي بَيْتهَا) لأنَّ مبنى أمرها على التَّسَتُّر»(١).

فمسألة الحرص على التستر واضحة في الحديث وفي التعليق عليه، هذا مع علمنا بالطبع أنه يجوز لهنَّ أن يذهبن إلى المسجد، بل لا ينبغي منعهنَّ من المساجد إذا أردن القدوم إليها؛ وذلك لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله»(٢).

ولدواعي التستر، وبالتالي الخشوع فإن النساء إذا أتين للمسجد فإنهن يصلِّين في الصفوف الخلفية للنساء أولًا، فإذا اكتمل الصفُّ الأخير بدأن في ملء الصفِّ الذي أمامه، وهكذا، وهذا لما صحَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»(٣).

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى النساء فماذا يفعلنَ في بيوتهنَّ حتى يُحَقِّقن هذه الأجور العظيمة التي يُحَقِّقها الرجال بالصلاة في المساجد؟

إن إجابة السؤال هي: الصلاة على أول وقتها!

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا». قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ». قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله»(٤). وفي رواية: «الصَّلَاةُ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا»(٥).

إن كثيرًا من الناس إذا فاتتهم صلاة المسجد لا يكترثون بحال من الأحوال بموعد

---

(١) العظيم آبادي: عون المعبود، ٢/ ١٩٤، ١٩٥.

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب هل على مَنْ لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم، (٨٥٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبة، (٤٤٢).

(٣) مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول... (٤٤٠)، والترمذي (٢٢٤)، وأبو داود (٦٧٨)، والنسائي (٨٩٤)، وابن ماجه (١٠٠٠)، وأحمد (٧٣٥٦)، والدارمي (١٢٦٨)، وابن حبان (٢١٧٩).

(٤) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، (٥٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، (٨٥).

(٥) أبو داود (٤٢٦) واللفظ له، والترمذي (١٧٠)، وأحمد (٢٧١٤٧)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره. وابن حبان (١٤٧٥) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الصحيح. والحاكم (٦٧٤)، وقال الذهبي في التلخيص: على شرطهما. وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٣/ ١٢٣ (١٤٧٣).

إقامتها! وهذا نقص فادح في الفهم، ويكفيه لكي يُصَحِّح فهمه أن يقرأ الحديث السابق؛ فالصلاة على وقتها ليست فقط عملًا حبيبًا إلى الله ﷻ، ولكنها أحب الأعمال إليه مطلقًا! بل إنها تسبق الجهاد في سبيل الله، والذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه ذروة سنام الإسلام!

ومن هنا فإنه على النساء أن يُحَقِّقن هذا العمل الحبيب إلى الله ﷻ بمجرَّد سماعهن للأذان، وهنا يبلغن -بإذن الله- الدرجات العلا التي يُحَقِّقها الرجال في صلاة الجماعة.

ويلحق بهذا الأمر أصحاب الأعذار الذين فاتتهم صلاة الجماعة لعذر قاهر، كمرض يتعذَّر الذهاب إلى المسجد معه، أو غياب للأمن، أو بُعْد شديد عن المسجد، أو مطر غزير، أو ريح عاصفة، أو غير ذلك من الأعذار، فهؤلاء جميعًا عليهم أن يُصَلُّوا الصلاة في أول وقتها؛ حتى يُدركوا شيئًا مما فاتهم من أجر في صلاة الجماعة.

حتى الذين يُصَلُّون صلاة الجماعة في مصالحهم الخاصة، وليس في المسجد؛ كالعاملين في مصنع أو شركة، أو التجار في سوق ولا يستطيعون ترك بضائعهم في الشارع، أو المسلمين في البلاد الغربية الذين يتعذَّر عليهم ترك العمل للذهاب إلى مسجد بعيد للصلاة.. كل هؤلاء عليهم أن يحرصوا على الصلاة في أول وقتها، فليس غياب صلاة المسجد مبرِّرًا لتأخير الصلاة عن أول وقتها.

وليست قضية الصلاة على وقتها قضية تحصيل حسنات فقط، وإنما هناك نهي صريح عن تأخير الصلاة إلى بعد الوقت الأول، وقد وصل النهي عن التأخير إلى حدٍّ قد لا يتخيله كثير من المسلمين! ولتوضيح الصورة دعونا نُراجع هذا الحوار الذي دار بين أبي ذرٍّ ﷺ ورسول الله ﷺ؛ فعن أبي ذرٍّ ﷺ أنه قال: قال لي رسول الله: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَتْ عَلَيْكَ أُمَرَاءُ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، أَوْ يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟» قال: قلتُ: فما تأمرني؟ قال: «صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، فَإِنْ أَدْرَكْتَهَا مَعَهُمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ نَافِلَةٌ»(١)!

فالأمر من الخطورة بحيث ينبغي لنا عند تأخير إقامة الصلاة أن نُصَلِّيَ الصلاة مرتين! مرة في أول الوقت لنفوز بفضل الصلاة في أول الوقت، ومرَّة مع الجماعة المتأخِّرة لنفوز بأجر صلاة الجماعة!

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها المختار وما يفعله المأموم... (٦٤٨)، واللفظ له، والترمذي (١٧٦)، وأبو داود (٤٣١)، وابن ماجه (١٢٥٦)، وأحمد (٢١٥٢٨)، والدارمي (١٢٢٨).

وقد تكلم العلماء كثيرًا في هذا الموضوع الخطير، وعلى سبيل المثال ذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم: «معنى (يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ): يُؤَخِّرونها; فيجعلونها كالميِّت الذي خرجت رُوحها والمراد بتأخيرها عن وقتها؛ أي عن وقتها المختار لا عن جميع وقتها فإنَّ المنقول عن الأمراء المتقدِّمين والمتأخِّرين إنَّما هو تأخيرها عن وقتها المختار ولم يُؤَخِّرها أحدٌ منهم عن جميع وقتها فوجب حمل هذه الأخبار على ما هو الواقع. وفي هذا الحديث: الحثُّ على الصلاة أوَّل الوقت. وفيه: أنَّ الإمام إذا أَخَّرها عن أوَّل وقتها يُستحبُّ للمأموم أن يُصَلِّيَها في أوَّل الوقت منفردًا ثمَّ يُصَلِّيها مع الإمام؛ فيجمع فضيلتي أوَّل الوقت والجماعة فلو أراد الاقتصار على إحداهما فهل الأفضل الاقتصار على فِعْلها منفردًا في أوَّل الوقت، أم الاقتصار على فِعْلها جماعة في آخر الوقت؟ فيه خلاف مشهور لأصحابنا، واختلفوا في الراجح، وقد وَضَّحته في باب التَّيمُّم من شرح المهذَّب والمختار استحباب الانتظار إنْ لَمْ يَفْحُش التَّأخير. وفيه: الحثُّ على موافقة الأمراء في غير معصية؛ لئلَّا تتفرَّق الكلمة وتقع الفتنة؛ ولهذا قال في الرواية الأخرى: «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ[1] الأَطْرَافِ»[2]. وفيه: أنَّ الصلاة التي يُصَلِّيها مرَّتين تكون الأولى فريضة والثانية نفلًا وهذا الحديث صريح في ذلك وقد جاء التصريح به في غير هذا الحديث أيضًا واختلف العلماء في هذه المسألة وفي مذهبنا فيها أربعة أقوال: الصَّحيح: أنَّ الفَرْضَ هي الأولى للحديث ولأنَّ الخطاب سقط بها. والثاني: أنَّ الفَرْضَ أَكْمَلُهما. والثالث: كلاهما فرض. والرابع: الفَرْض إحداهما على الإبهام يحتسب الله تعالى بأيَّتهما شاء. وفي هذا الحديث: أنَّه لا بأس بإعادة الصُّبح والعصر والمغرب كباقي الصَّلوات; لأنَّ النبي ﷺ أطلق الأمر بإعادة الصلاة ولم يُفَرِّق بين صلاة وصلاة وهذا هو الصحيح في مذهبنا. ولنا وجه أنَّه لا يُعِيد الصُّبح والعصر; لأنَّ الثانية نفل ولا تنفُّل بعدهما ووجه أنَّه لا يُعِيد المغرب لئلَّا تصير شفعًا وهو ضعيف»[3].

فانظر إلى أي درجة اهتمَّ العلماء بالصلاة على وقتها، وكيف دارت بينهم السجالات

---

(١) مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ؛ أي مُقَطَّعَ الأَطْرَافِ، وَالجَدْعُ القَطْعُ، وَالمُجَدَّعُ أَرْذَأُ العَبِيدِ لِخِسَّتِهِ وَقِلَّةِ قِيمَتِهِ وَمَنْفَعَتِهِ وَنُفْرَةِ النَّاسِ مِنْهُ. انظر: النووي: المنهاج ٥/ ١٤٩.

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها المختار وما يفعله المأموم... (٦٤٨)، والقول هنا لأبي ذرٍّ ﷺ. وخليلي: أي رسول الله ﷺ، وابن ماجه (٢٨٦٢)، وابن حبان (٥٩٦٤)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٥٦٤٦).

(٣) النووي: المنهاج، ٥/ ١٤٧، ١٤٨.

والمناظرات للنظر في حال المسلم إذا اضطر إلى تأخير الصلاة، فكيف إذا لم يكن الأمر اضطرارًا، إنما تكاسل وتهاون!

ولعلَّ هذا النهي هو الذي دعا بعض العلماء أن يُفسِّروا قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، بأنهم الذين يؤخِّرون الصلاة عن أول وقتها(١)!

فهل بعد هذا تسمع النداء ثم تنشغل في عمل أو لهو أو راحة أو غير ذلك؟!

إن أدنى ما يُقال في هذه الحالة هو أن هذا السلوك ليس من شيم المؤمنين الصالحين!

فاختر لنفسك أن تُكْتَب في سجلِّ الصالحين، أو في غير ذلك من السجلَّات..

وكما قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي؛ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»(٢)!

فاحذر أن تكتبك الحفظة في الغافلين..
فإن الحساب بين يدي ملك عظيم!

---

(١) قال الطبري: «اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، فقال بعضهم: عُنِيَ بذلك أنهم يؤخِّرونها عن وقتها، فلا يُصلُّونها إلَّا بعد خروج وقتها». وذكر منهم: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود ﷺ، ومسروق. انظر: الطبري: جامع البيان ٢٤/ ٦٣٠، ٦٣١. وذكر الطبري عن عمر بن عبد العزيز أنه قرأ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، ثم قال: لم يكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت. انظر: الطبري: جامع البيان ١٨/ ٢١٦.

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٢٥٧٧)، عن أبي ذرٍّ، واللفظ له، والحاكم (٧٦٠٦)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١١٢٨٣)، والبخاري: الأدب المفرد، ص١٧٢ (٤٩٠).





الله أكبر .. تكبيرة الإحرام..

بدأت الصلاة، وحان وقت الخشوع..

لكن ما هذا؟!

شاب يلبس قميصًا مزركشًا.. مزركشًا!.. أحمر وأخضر وأصفر وأزرق!

وهذه كتابات أجنبية على ظهر شاب آخر..

تُرى ماذا تعني؟!

إنها اسم لاعب! لا بل اسم فريق كرة!

لا.. بل هي بلا معنى!

أو لعلني لا أعرفها..

أعتقد أنها ليست إنجليزية! لعلها إسبانية.. أو إيطالية.. أو قد تكون برتغالية!

وما هذه الرائحة المنبعثة من هناك؟!

ماذا أكَلَ هذا الرجل؟

لا أدري.. رائحته عجيبة!

وهذا الذي بجواري.. لماذا يلتصق بي هكذا؟

ألا يلحظ الشحم الأسود الذي على لباسه؟

كيف سأذهب إلى موعدي إذا اتسخت ملابسي؟!

وهذا الشاب مسكين!

كلما ركع أو سجد انكشف ظهره..

ألا يعلم ذلك؟!

هل تبطل صلاته؟!

لا أدري..

سمعتُ شيخًا يتكلَّم في هذا الموضوع في إحدى قنوات التليفزيون..

لا أذكر مَنْ هو الشيخ!

تبًّا!!

هل هذه هي الركعة الثالثة أم الرابعة؟!

لا أدري..

لا أدري لماذا لا أخشع في صلاتي!!

ما أروع التوجيه القرآني الرشيد: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]! إنه لا يذكر مسجدًا بعينه، أو صلاة بعينها.. بل يقول: ﴿كُلِّ مَسْجِدٍ﴾! ولم يُحَدِّد لباسًا معينًا أو هيئة خاصة؛ إنما ذكر الزينة، وهي كل صورة جميلة، وكل شكل بهيٍّ.. هذا العموم في اللفظ من شأنه أن يُيَسِّر علينا اختيار الهيئة، ولكنه في الوقت نفسه لا يترك عذرًا لأحد أن يأتي إلى الصلاة بشكل قبيح مستهجَن.

والمسألة مُرَكَّبَة!

فخشوع الناس يرتبط بدرجة كبيرة بهيئة المصلِّين في المسجد؛ والملابس غير التقليدية اللافتة للنظر تَذهب بخشوع الناس، وكذلك الروائح الكريهة، والأوساخ والقاذورات..

بل إن خشوع الفرد نفسه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بهيئته! فكلما ازددتَ اهتمامًا بهيئتك زاد خشوعك! وليس الاهتمام يعني أن تلبس ملابس فاخرة باهظة الثمن، بل على العكس، فكلما ازدادت الملابس بساطة ونظافة كان هذا أقرب إلى الخشوع..

بل دعوني أذهب إلى أبعد من ذلك؛ فالمسلم الذي يُصَلِّي منفردًا في بيته، كصلاة الليل أو النوافل، يزداد خشوعه إذا أحسن لباسه ورائحته، وهذه -والله- وصفة مجرَّبة!

ماذا نلبس للصلاة؟!

ليس هناك لباس معين كما أسلفنا، ولكن هناك إشارات تساعدنا على تحقيق المطلوب..

أولًا: الثوب الفضفاض أدعى للخشوع! وهذا مثل الجلباب أو العباءة، وهو على كل حال أقرب للسُّنَّة، وهو في الوقت نفسه أستر للعورة، وهذا يحفظ صلاتك وصلاة غيرك، كما

أنه أكثر راحة للجسم، وهذا يُساعد على التركيز في الصلاة، وفوق كل ما سبق فإن الجلباب الواسع أهدأ للنفس، حيث يستحضر العقلُ تلقائيًا جوَّ العبادة، وبالتالي ينصرف دون تكلُّف عن شواغل الدنيا!

وانظر إلى هذا الموقف الذي يحكيه سعيد بن الحارث ﷺ قال: سَأَلْنَا جابرَ بن عبد الله ﷺ عن الصَّلاة في الثوب الواحد، فقال: خَرَجْتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فجئتُ ليلةً لبعض أمري، فوجدْتُهُ يُصَلِّي وعليَّ ثوبٌ واحدٌ، فاشتملتُ به، وصَلَّيت إلى جانبه، فلمَّا انصرف قال: «مَا السُّرَى[١] يَا جَابِرُ؟» فأخبرته بحاجتي، فلمَّا فرغتُ قال: «مَا هَذَا الاشْتِمَالُ[٢] الَّذِي رَأَيْتُ؟» قلتُ: كان ثوبٌ -يعني ضاق- قال: «فَإِنْ كَانَ وَاسِعًا فَالْتَحِفْ بِهِ[٣]، وَإِنْ كَانَ ضَيِّقًا فَاتَّزِرْ[٤] بِهِ»[٥]. فانظر إلى حرص الرسول ﷺ على الصلاة في الثوب الواسع لتأمين ستر العورة، وجلب الخشوع للمصلِّي.

ثانيًا: فإنه ينبغي لنا الحرص على الثوب الخالي من النقوش الزائدة، التي من الممكن أن تلفت انتباه المصلِّي نفسه، أو المصلِّين في المسجد، ولا يقولنَّ أحد: إنني لا أكترث بنقوش الملابس حولي. فإن هذه النقوش كادت أن تُخرج رسول الله ﷺ نفسه من تركيزه في الصلاة! فعن عائشة ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي خَمِيصَةٍ[٦] لَهَا أَعْلَامٌ[٧]، فنظر إلى أعلامها نظرةً، فلمَّا انصرف قال: «اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ[٨]، وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ[٩] أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا

---

(١) ما السُّرَى؟ أي ما سبب سُرَاك؛ أي: سيرك في الليل. ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٤٧٢.

(٢) ما هذا الاشتمال؟ كأنه استفهام إنكار، قيل: الاشتمال الذي أنكره هو إن يُدير الثوب على بدنه كله لا يخرج منه يده... لكن بَيَّن مسلم في روايته أنَّ الإنكار كان بسبب أن الثوب كان ضيقًا وأنه خالف بين طرفيه. ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٤٧٢.

(٣) الْتَحَفَ به: تَغَطَّى. الزبيدي: تاج العروس ٢٤/ ٣٥٦.

(٤) اتَّزر به؛ أي: البسه كالإزار، والإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن. انظر: المعجم الوسيط ١/ ١٦.

(٥) البخاري: أبواب الصلاة في الثياب، باب إذا كان الثوب ضيقًا، (٣٥٤)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، (٣٠١٠).

(٦) الخميصة: كساء مُرَبَّع له عَلَمَان. ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٤٨٣، والنووي: المنهاج، ٥/ ٤٣.

(٧) الأعلام جمع العَلَم: وهو رَسْم على الثوب. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (علم) ١٢/ ٤١٦.

(٨) هو: أبو جهم عبيد الله بن حذيفة القرشي العدوي، صحابي من مسلمة الفتح، كان علامة بالنسب، وهو ممن بنى البيت في الجاهلية، ثم عُمِّر حتى بنى فيه مع ابن الزبير، وبين العمارتين أزيد من ثمانين سنة، وهو أحد الأربعة الذين تولوا دفن عثمان ﷺ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢/ ٥٥٦، ٥٥٧، وابن حجر العسقلاني: الإصابة، ٧/ ٧١، ٧٢ (٩٦٩١)، وابن الأثير: أسد الغابة، ٦/ ٦٢، ٦٣.

(٩) الأنبجانية: كساء غليظ لا علم له. ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٤٨٣، والنووي: المنهاج، ٥/ ٤٣.

أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلَاتِي»[١]. وفي رواية أخرى عن عروة بن الزبير ﷺ عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى عَلَمِهَا وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ، فَأَخَافُ أَنْ تَفْتِنَنِي»[٢]!

فهذا رسول الله ﷺ يخاف على نفسه من الافتتان بهذه النقوش والرسوم في الملابس! فيأمر أن يذهبوا بهذا الكساء إلى الصحابي الجليل أبي جهم ﷺ، وإنَّما خصَّه ﷺ بإرسال الخميصة لأنَّه كان أهداها للنبي ﷺ؛ كما رواه مالك في الموطَّأ من طريق أخرى عن عائشة ﷺ قالت: أهدى أبو جهم بن حذيفة إلى رسول الله ﷺ خميصة لها عَلَم فشهد فيها الصلاة فلمَّا انصرف قال: «رُدِّي هَذِهِ الخَمِيصَة إِلَى أَبِي جَهْمٍ»[٣]. ولا شَكَّ أنه لا يَلْزَم أبا جهم أن يستعملها في الصلاة. وقال ابن حجر العسقلاني ﷺ تعليقًا على هذا الموقف: «ويُستنبط منه كراهية كلِّ ما يشغل عن الصلاة من الأصباغ والنُّقوش ونحوها... وقال الطِّيبيُّ[٤] ﷺ: فيه إيذانٌ بأنَّ للصُّور والأشياء الظَّاهرة تأثيرًا في القلوب الطَّاهرة والنُّفوس الزَّكيَّة. يعني فضلًا عمَّن دونها»[٥].

ثالثًا: أنصح بلبس الملابس البيضاء في الصلاة! ولا شَكَّ أن الصلاة في الألوان الأخرى لا ضير فيها، لكن اللون الأبيض في ملابس الصلاة له مذاق خاص! فالملابس البيضاء سُنَّة عن الرسول ﷺ، ويكفينا فيها ما رواه ابن عباس ﷺ حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ»[٦]. والملابس البيضاء

---

(١) البخاري: أبواب الصلاة في الثياب، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، (٣٦٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام، (٥٥٦).

(٢) البخاري: أبواب الصلاة في الثياب، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، (٣٦٦).

(٣) الموطأ - رواية يحيى الليثي (٢٢٠)، وأحمد (٢٥٤٨٤)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن. وابن حبان (٢٣٣٨).

(٤) هو: الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين، الطيبي، من علماء الحديث والتفسير والبيان، كانت آية في استخراج الدقائق من القرآن الكريم والسنن، وكان ذا ثروة من الإرث والتجارة فلم يزل ينفقه في وجوه الخيرات إلى أن كان في آخر عمره فقيرًا، وكان شديد الرد على المبتدعة والفلاسفة، من تصانيفه: التبيان في المعاني والبيان، والخلاصة في أصول الحديث، وشرح مشكاة المصابيح، والكاشف عن حقائق السنن النبوية، توفي سنة ٧٤٣هـ. انظر: السيوطي: بغية الوعاة ١/ ٥٢٢، والداوودي: طبقات المفسرين ١/ ١٤٧. والزركلي: الأعلام ٢/ ٢٥٦.

(٥) ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٤٨٣.

(٦) الترمذي: كتاب الجنائز، باب ما يستحب من الأكفان (٩٩٤)، وقال: حديث حسن صحيح. وأبو داود (٣٨٧٨)، وابن ماجه (٣٥٦٦)، وأحمد (٢٢١٩)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح. وابن حبان (٥٤٢٣)، والحاكم (٧٣٧٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

يظهر فيها الوسخ أو النجاسة بشكل أوضح؛ ومن ثَمَّ تُزال بسهولة، وبذلك تصحُّ الصلاة، ونُغلق أبواب وسوسة الشيطان في مسألة طهارة الثياب؛ لذلك روى سَمُرَة بن جندب ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ؛ فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ»[1]. فوجه الطُّهْرِ هنا أن الأوساخ تظهر فيها بسهولة فتُزَال.

وفوق ذلك فالملابس البيضاء ليس فيها رسم يُشْغِل، ولا لونٌ يَلفت النظر، ولا اختلاف في الأذواق مع الناس مما قد يُشْغِل غيرك من المصلِّين، واللون الأبيض بشكل عامٍّ مريح للنفس، كما أنه اشتُهر أنه لون ملابس المسلمين في عباداتهم، فهو اللون الأشهر في الصلوات والجُمَع، وكذلك في الحجِّ والعمرة، وهذا يُهيِّئ النفس بشكل غير مباشر للعبادة وتَرْك الدنيا؛ ومن ثَمَّ الخشوع.

رابعًا: وهو أهم الأمور، أن تكون الملابس نظيفة! فلا شَكَّ أن الملابس المتَسخة ستذهب بخشوع المصلِّي والذين يُصَلُّون معه، فضلًا عن أن هذا الاتِّساخ قد يكون بنجاسة، وهنا تبطل الصلاة بالكلِّية!

وقبل مغادرة نقطة الملابس لا بُدَّ من الإشارة إلى ضرورة حرص النساء -إذا أتين إلى المسجد- على اللباس الإسلامي الشرعي، وهذا له مواصفات محدَّدة ومعروفة في كتب الفقه[2].

وماذا غير الملابس؟!

إنك ذاهب إلى لقاء الله ﷻ.. كيف تحب أن تكون رائحتك؟!

وأنت ذاهب -أيضًا- إلى لقاء جمع من إخوانك المؤمنين الذين يشتركون معك في لقاء الله ﷻ، ويحتاجون إلى صرف الذهن إلى الخشوع، فكيف تُساعدهم على ذلك؟

---

(١) النسائي: كتاب الزينة، الأمر بلبس الثياب البيض، (٩٦٤٥)، واللفظ له، وابن ماجه (٣٥٦٧)، وأحمد (٢٠١٩٧)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح رجاله ثقات. والحاكم (٧٣٧٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) أن يكون ساترًا لجميع العورة، ألا يكون زينة في نفسه، أن يكون سميكًا لا يشفُّ ما تحته من الجسم، أن يكون فضفاضًا غير ضيق، وألا يجسم العورة، ولا يُظهر أماكن الفتنة في الجسم، ألا يكون الثوب معطَّرًا، ألا يكون فيه تشبُّه بالرجال، ألا تُشبه زي الراهبات من أهل الكتاب أو زي الكافرات، ألا يكون ثوب شهرة. انظر: أبو مالك محمد بن حامد بن عبد الوهاب: أحكام النساء (مستخلصًا من كتب الألباني) ص٢٠٧- ٢٦٧، والتويجري: موسوعة الفقه الإسلامي ٢/ ١١٦، وحسام الدين بن موسى عفانة: فتاوى يسألونك ١/ ١٥٩.

كيف يكون خشوعك إذا كنت قد تطيَّبت، ورفعت من رُوحك المعنوية بشعورك أن رائحتك جميلة، وتُسعِد مَنْ يقف بجوارك في الصلاة؟ وكيف ستكون صلاة الناس وهم يستنشقون هذه الروائح الطيبة؟

إن العطر من الأشياء التي حُبِّبت لرسول الله ﷺ من الدنيا، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ**(١)**، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٢).

ويلحق بالطيب استعمال السواك؛ لذا قال رسول الله ﷺ -كما روت عنه عائشة ﷺ-: «**السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ**»(٣). ولأجل هاتين الفائدتين الجليلتين تمنَّى رسول الله ﷺ أن يستعمله المصلُّون في كل صلواتهم، فقال ﷺ -كما يروي عنه أبو هريرة ﷺ-: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي -أَوْ عَلَى النَّاسِ- لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**»(٤).

وكان رسول الله ﷺ حريصًا على خشوع المصلِّين، وكان يعلم أن المصلِّين في نهار رمضان قد يتأذَّوْن من رائحة فم الصائمين، فيذهب خشوعهم، فكان لأجل ذلك يستاك كثيرًا وهو صائم، وقد قال عامر بن ربيعة ﷺ: «**رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَاكُ وَهُوَ صَائِمٌ مَا لَا أُحْصِي أَوْ أَعُدُّ**»(٥).

---

(١) أي زوجاته، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه عَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو ﷺ-: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ». مسلم: كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، (١٤٦٧).

(٢) النسائي: السنن الكبرى، (٨٨٨٧)، وأحمد (١٢٣١٥)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وأبو يعلى (٣٥٣٠)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. والحاكم (٢٦٧٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٣٢٣٢)، والطبراني: المعجم الأوسط، (٥٢٠٣)، وقال ابن الملقن تعليقًا على إسناد حديث النسائي: إسناد صحيح. انظر: البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ١/ ٥٠١، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٣) ذكره البخاري في كتاب الصوم، في مقدمة باب السواك الرطب واليابس للصائم، والنسائي: السنن الكبرى، (٤)، وابن ماجه (٢٨٩)، وأحمد (٧)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره وهذا سند رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا. وابن حبان (١٠٧٠)، وقال شعيب الأرناءوط: رجاله ثقات رجال الصحيح. وابن خزيمة (١٣٥)، وقال الأعظمي: رجال إسناده ثقات. وأبو يعلى (٤٥٩٨)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات.

(٤) البخاري: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، (٨٤٧)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الطهارة، باب السواك، (٢٥٢).

(٥) ذكره البخاري في كتاب الصوم، في مقدمة باب السواك الرطب واليابس للصائم، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في السواك للصائم (٧٢٥)، وقال: حديث حسن. وأبو داود (٢٣٦٤)، وأحمد (١٥٧١٦)، وأبو يعلى (٧١٩٣). وقال الرباعي: أخرجه أحمد وأبو داود بإسناد حسن وعلَّقه البخاري وحسنه الترمذي والحافظ. انظر: فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار ٢/ ٨٧٢.



وكان للجمعة اهتمامٌ خاصٌ عند رسول الله ﷺ؛ فعن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «غُسْلُ يَوْمِ الجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَسِوَاكٌ، وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ». وفي رواية: «وَلَوْ مِنْ طِيبِ المَرْأَةِ»[١].

ولأجل الحفاظ على خشوع المصلِّين ينبغي ألَّا يُشارك في صلاة الجماعة مَنْ فسدت رائحته! فإن عليه أن يتخلَّف عن صلاة الجماعة بحثًا عن المصلحة العامَّة للمصلِّين! فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا -أَوْ لِيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا- وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ»[٢].

ويلحق بهذا أيُّ صاحب رائحة خبيثة، أو ثياب عمل لها رائحة غير طيبة؛ مثل الجزار أو الزبال أو غير ذلك.

ويلحق بذلك -أيضًا- رائحة العرق! وكذلك رائحة الجورب، بالإضافة إلى رائحة البول لمرضى السلس البولي.

إننا ينبغي أن نذهب إلى المسجد وكأننا ذاهبون إلى عُرْسٍ جميل..

بل أستغفر الله من كلمة «وكأننا»!!

إننا ذاهبون إلى عُرْسٍ حقيقي!

ألسنا على موعد مع الله ﷻ؟

ألسنا على موعد مع الرحمة والفضل؟

ألسنا على موعد مع التوبة والصفح؟

فإذا كان الوضع كذلك ألا نعدُّ ذلك عُرْسًا؟!

---

(١) البخاري: كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة، (٨٤٠)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، (٨٤٦)، واللفظ له.

(٢) البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الأحكام التي تعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها، (٦٩٢٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا أو كراثًا أو نحوها، (٥٦٤).

لا تكن عونًا للشيطان على نفسك!

جائع؟

نائم؟

حاقن[(١)]؟

أنصحك؟!

لا تُصلِّ!

إن الصلاة صلة بين العبد وربه..

وعلى قدر استيعابنا لهذا الأمر الجلل لا بُدَّ أن يكون استعدادنا..

فلنتهيَّأ باهتمام للقاء مَنْ يعلم السِّرَّ وأخفى..

إنك تقف أمامه في هيئة قد تكون حسنة..

ولكن ذهنك مع مائدة الطعام الشهية..

أو مع سرير وثير تتقلَّب فيه يمينًا ويسارًا!

أو..

في دورة مياه!!

هل يستقيم هذا؟!

أمِنَ الأفضل أن تُصَلِّيَ بهذه الحالة المضطربة؟ أم أن تأخذ ولو قسطًا قليلًا من الوقت تتهيَّأ فيه للقاء الله ﷻ؟

إننا في هذه الأوضاع السخيفة نُعطي زمام عقولنا وقلوبنا للشيطان!

وما أحمق الإنسان عندما يُسَلِّم نفسه طواعيةً للشيطان!

(١) الحاقنُ: الذي له بولٌ شديد، وفي الحديث: «لا يُصَلِّيَنَّ أحدُكم وهو حاقِنٌ». انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (حنق) ١٣/ ١٢٥.

ما أسهل أن ينطلق عقل الإنسان إلى الشرق وإلى الغرب، خاصة إن كان الشيطان يتربَّص به ولا ينساه، والإنسان من طبيعته النسيان، فلا يلبث أن يقع في كمين الشيطان، الذي يسعى دومًا لدفع الإنسان إلى النسيان.. نسيان الخير.. نسيان العبادة.. نسيان الخشوع.. نسيان كل فضيلة.. هذا هو الشيطان الذي حذَّرنا منه خالقه وخالقنا ﷻ، وذكر لنا في أكثر من موضع في القرآن الكريم أنه يسعى لدفعنا إلى النسيان المذموم؛ قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال على لسان فتى موسى عليه السلام: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ووصف حال السجين الذي كان مع يوسف عليه السلام فقال: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢].. إن الشيطان الخبيث لا يجرؤ أحيانًا على تسفيه الشريعة في عين المؤمنين، إنما فقط يُنسيهم أمرها، فيفعل المرء ناسيًا ما لا يحب فعله أبدًا! وتدبَّر في غواية الشيطان لآدم عليه السلام؛ فقد أنساه أمر ربه بالامتناع عن أكل الشجرة المحرَّمة، فوقع آدم عليه السلام في المعصية؛ لذلك يصف الله ﷻ هذا الموقف فيقول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. فالنسيان جعل آدم عليه السلام يذهل عن أمر ربه، وبالتالي يقع في المحظور.

فإذا كان الأمر كذلك، والحرب على أشدِّها مع الشيطان، ونحن قريبون من النسيان لأننا من البشر، فلا داعي أبدًا أن نُعطي الشيطان فرصة كبيرة في السيطرة علينا إذا واجهناه وأذهاننا لاهية في عشرات القضايا والمسائل.

فلْنُفَرِّغ أذهاننا إلى الله ﷻ إذا قدمنا للصلاة، وهنا ستكون فرصتنا ممتازة في دحر الشيطان، والتغلُّب على النسيان، فلا ننسى حينئذٍ أننا في حضرة ملك السماوات والأرض!

ماذا علينا أن نفعل؟!

أولًا: لا تُصَلِّ بحضرة الطعام لأنه سيذهب بخشوعك!

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ..»(١). بل صرَّح في

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال... (٥٦٠). وأبو داود (٨٩)، وأحمد (٢٤٢١٢)، وابن حبان (٢٠٧٣)، وأبو يعلى (٤٨٠٤)، والحاكم (٥٩٩)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٨٠٥).

رواية عن عائشة ﵂ بتقديم الطعام على الصلاة في حال اجتماعهما! قال ﷺ: «إِذَا وُضِعَ الْعَشَاءُ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ»(١). وبدهي أن هذا ينبغي ألَّا يكون متكرِّرًا، فلا يكون موعد عشاء المسلم كل ليلة هو وقت الصلاة فتضيع عليه بذلك صلاة الجماعة!

وبعض العلماء(٢) يُرَجِّح حَمْلَ الحديث السابق على المَغْرِب للصائمين؛ لقوله في الرِّواية الأخرى عن أنس بن مالك ﵁: «فَابْدَءُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ تُصَلُّوا صَلَاةَ المَغْرِبَ»(٣). والحديث يُفَسِّر بعضه بعضًا بل في رواية صحيحة يقول: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَأَحَدُكُمْ صَائِمٌ، فَلْيَبْدَأْ بِالْعَشَاءِ قَبْلَ صَلَاةِ المَغْرِبِ...»(٤). ومع ذلك فقد قال آخرون -منهم الفاكِهانِيُّ-: ينبغي حمله على العموم؛ نظرًا إلى العلَّة وهي التَّشويش المفضي إلى تَرْك الخشوع وذِكْرُ المغرب لا يقتضي حصرًا فيها؛ لأنَّ الجائع غير الصائم قد يكون أشوق إلى الأكل من الصائم(٥). وذكر ابن حجر في أن حَمْلَهُ على العموم إنَّما هو بالنظر إلى المعنى إلحاقًا للجائع بالصَّائم، وللغداء بالعشاء، لا بالنَّظر إلى اللَّفظ الوارد(٦).

وناقش العلماء الأمر الوارد في قوله: «فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ». فقال ابن حجر: حَمَلَ الجمهور هذا الأمر على النَّدْب(٧). وفصَّلوا في ذلك تفصيلات كثيرة، لكن الشاهد في الموضوع هو الاهتمام الشديد بأن يُصَلِّيَ المسلم وهو خالي الذهن؛ حتى يمكن له أن يُحَقِّق الخشوع.

ومن اللطيف أن أذكر هنا الموقف الذي ذكرتْ فيه عائشة ﵂ هذا الحديث عن رسول

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة، (٦٤٠)، واللفظ له، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال، (٥٥٧).

(٢) انظر: جمال الدين الحنفي: المعتصر من المختصر من مشكل الآثار ١/ ١٠٣، وقال الكشميري: وفي «مشكل الآثار» أنه في حقِّ الصائم، وفي صلاة المغرب خاصةً. انظر: فيض الباري على صحيح البخاري ٢/ ٢٦٢، والحطاب الرعيني: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل ١/ ٣٩٢.

(٣) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة، (٦٤١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال... (٥٥٧).

(٤) ابن حبان: كتاب الصلاة، باب فرض الجماعة والأعذار التي تبيح تركها (٢٠٦٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الأوسط، (٥٠٧٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد، ٢/ ١٧٦، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، ٣/ ٤٥٩.

(٥) انظر: ابن حجر: فتح الباري، ٢/ ١٦٠، والمباركفوري: تحفة الأحوذي، ٢/ ٢٨٠.

(٦) ابن حجر: فتح الباري، ٢/ ١٦٠.

(٧) المرجع السابق نفسه.

الله ﷺ؛ لما فيه من الفائدة التطبيقية للأمر النبوي، والموقف برواية عن ابن أبي عَتِيقٍ، وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أي هو حفيد أخي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.. يقول ابن أبي عتيق: «تَحَدَّثْتُ أَنَا وَالْقَاسِمُ[١] عِنْدَ عَائِشَةَ رضي الله عنها حَدِيثًا، وَكَانَ الْقَاسِمُ رَجُلًا لَحَّانَةً[٢]، وَكَانَ لأُمِّ وَلَدٍ[٣]..» فواضح أن هناك جدالًا صار بين الرجلين أمام عائشة رضي الله عنها، فوقفت عائشة رضي الله عنها مع حفيد أخيها ابن أبي عتيق ضدَّ ابن أخيها القاسم، وقالت: «مَا لَكَ لَا تَحَدَّثُ كَمَا يَتَحَدَّثُ ابْنُ أَخِي هَذَا؟ أَمَا إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ مِنْ أَيْنَ أُتِيتَ، هَذَا أَدَّبَتْهُ أُمُّهُ، وَأَنْتَ أَدَّبَتْكَ أُمُّكَ»!

لقد رأت عائشة رضي الله عنها أن الحقَّ مع ابن أبي عتيق، وأن القاسم قد تكلَّم بسوء أدب معه، وأن ابن أبي عتيق لم يُخطِئ، وأرجعت عائشة رضي الله عنها ذلك إلى حُسْن تربية أمِّ ابن أبي عتيق له، وسوء تربية أمِّ القاسم له.. فماذا كان ردُّ فعل القاسم؟!

لقد غَضِبَ القاسم من عمَّته عائشة رضي الله عنها، بل وَأَضَبَّ عليها، أي حقد عليها!

ثم جاءت عائشة رضي الله عنها بطعام لهما.. يقول ابن أبي عتيق: فَلَمَّا رَأَى القاسم مائدة عائشة رضي الله عنها قد أُتِيَ بِهَا قَامَ، (أي قام غاضبًا لا يُريد أن يأكل)، قالت عائشة رضي الله عنها: أَيْنَ؟ قال: أُصَلِّي. قالت: اجْلِسْ. فرفض وقال: إِنِّي أُصَلِّي. قالت: اجْلِسْ غُدَرُ[٤]، إِنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ»[٥]!

وعائشة رضي الله عنها قالت له: يا غادر. لأنَّه مأمور باحترامها؛ لأنَّها أمُّ المؤمنين، وعمَّته، وأكبر منه، وناصحة له ومؤدِّبة؛ فكان حقُّه أن يحتملها ولا يغضب عليها[٦].

والشاهد من القصة أن عائشة رضي الله عنها قد منعته من اللحاق بصلاة الجماعة لكون الطعام

---

(١) القاسم هو القاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، أي ابن أخي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي كثير اللحن والخطأ في كلامه، وهي صفة غير محمودة، حيث تُفضي إلى الجدل والخصومة. وفي رواية: لَحَنَة: وهو الذي يُلْحِن الناس؛ أي: يُخطِّئهم. انظر: ابن قرقول: مطالع الأنوار على صحاح الآثار ٣/ ٤٢١.

(٣) أي كانت أمُّه أَمَةً وليست حرَّة.

(٤) أي يا غادر.

(٥) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال... (٥٦٠)، واللفظ له، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٨١٦)، وذكر متن الحديث دون القصة: أبو داود (٨٩)، وأحمد (٢٤٢١٢)، وابن حبان (٢٠٧٣)، والحاكم (٥٩٩).

(٦) النووي: المنهاج، ٥/ ٤٧.

قد حضر، وذكرت الحديث النبوي الذي استنبطت منه الحُكْم، ولعلَّ هناك حكمة خفيَّة أخرى في ذهن عائشة ﵂ دفعتها إلى منع القاسم من الخروج إلى الصلاة، وهي أنها لا تُريده أن يخرج إلى الصلاة وهو غاضب منها، فهذه معصية لا تُريدها له، وهو لن يخشع في صلاته بل سيظلُّ ذهنه منصرفًا إلى الموقف الذي حدث في بيتها، كما أنها يمكن أن تُلاطفه على الطعام فتخفِّف من حِدَّة غضبه، والله أعلم.

ثانيًا: لا تُثقل من الطعام قبل الصلاة!

فكما أن الجوع قد يُذهب الخشوع، فإن امتلاء البطن يُذهبه كذلك! والواقع أن امتلاء البطن شرٌّ كبير! وقد ذكر لنا ذلك رسولنا ﷺ بوضوح، فقال -فيما يرويه مقدام بن معدي كرب ﵁ -: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»(١). بل في رواية يقول: «.. فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ..»(٢)! فالصياغة واضحة في الحضِّ على تقليل الطعام جدًّا؛ فالأصل أن يكون الطعام أقلَّ من ثلث البطن، فإن غلبت الإنسانَ شهوتُه فإنه يُسمَح له أن يملأ ثلثَ بطنه بالطعام! وهذا حتى يظلَّ ذهنُه حاضرًا في بقية أمور حياته، ومنها الصلاة.

ومن هنا فهذا الاقتصاد في المأكل أوجب إذا كانت الصلاة قريبة، وخاصة إذا كانت الصلاة طويلة كصلاة التراويح؛ لذا أنصح المسلمين في شهر رمضان، أو في أيام صيام النفل طوال السنة أن يُفطروا على تمرات قليلة، ثم يُصلُّون المغرب جماعة، ثم يتناولون إفطارًا خفيفًا غير دسم، ثم يُصَلُّون العشاء والتراويح، وبعدها إن أرادوا أن يزيدوا في الطعام في توازن فلا بأس.. كما أنصح المسلمين ألا يأكلوا قبل النوم أكلًا كثيرًا؛ لأن هذا يُدخلهم في نوم ثقيل، وغالبًا ما يكون نومًا مضطربًا ذا أحلام مزعجة! وهذا يُؤَثِّر على قابليتهم للاستيقاظ المبكِّر، وبالتالي تفوتهم صلاة القيام؛ بل قد يفوتهم الفجر نفسه!

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي: السنن الكبرى، (٦٧٦٩)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد (١٧٢٢٥)، وابن حبان (٦٧٤)، قال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم (٧٩٤٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبراني: المعجم الكبير، (١٧٤٠٠).

(٢) ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع (٣٣٤٩)، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن ابن ماجه ٣/ ١٣٧ (٢٧٢٠).



ثالثًا: لا تُصلِّ وأنت حاقن!

والحاقن هو الذي يرغب بشدَّة في قضاء الحاجة؛ سواء البول أو الغائط (البراز)، لكنه يمنع نفسه من ذلك؛ لكي لا يتوضَّأ من جديد! وهذا أمر منهي عنه فعن عائشة ~~رضي الله عنها~~ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ»(١). والأخبثان هما البول والغائط، والنهي هنا نهي للكراهة في الغالب(٢)، بمعنى أن المسلم الذي صلَّى في هذه الظروف تُعتبر صلاته صحيحة، وليس عليه أن يُعيدها، لكن أين الخشوع؟! إنَّ تركيز المصلِّي في هذه الحالة يكون في أغلبه مع منع خروج ريح، أو منع قطرات بول، والعقلُ مسكينٌ! لا يستطيع أن يُفكِّر في عدَّة أشياء في وقت واحد، ومسألة قضاء الحاجة صارت مسألة ماسَّة ومُلِحَّة في هذه الحالة؛ ولذلك يُركِّز العقل فيها تمامًا، وينسى كلَّ ما يتعلَّق بالصلاة، فأيُّ خشوع في صلاة كهذه؟! لهذا قال أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «مِنْ فِقْهِ المَرْءِ إِقْبَالُهُ عَلَى حَاجَتِهِ، حَتَّى يُقْبِلَ عَلَى صَلَاتِهِ وَقَلْبُهُ فَارِغٌ»(٣). وهي نظرة راقية من أبي الدرداء رضي الله عنه لفقه الرجل، فليس الفقيه مَنْ حمل في ذهنه كمًّا هائلًا من المعلومات؛ إنما الفقيه الذي يبحث عن معاني العبادات، ويحرص على الخشوع، ويُخطِّط له، فما أعمقه من فقه!

رابعًا: لا تُصلِّ وقد غلبك النعاس، إلا أن تكون صلاة مكتوبة(٤):

فالغرض من الصلاة أن تَتَّصل بالله ﷻ، فالصلاة صلة! فكيف تفعل ذلك وأنت شِبْهُ

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال... (٥٦٠)، وأبو داود (٨٩)، وأحمد (٢٤٢١٢)، وابن حبان (٢٠٧٣)، وأبو يعلى (٤٨٠٤)، والحاكم (٥٩٩)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٨٠٥).

(٢) ذهب الحنفية والحنابلة -وهو رأي للشافعية- إلى أن صلاة الحاقن مكروهة، وقال الخراسانيون وأبو زيد المروزي من الشافعية: إذا كانت مدافعة الأخبثين شديدة لم تصح الصلاة. وأخذ بظاهر الحديث أصحاب الرأي الثاني فحملوه على الفساد، أمَّا المالكية فقد ذهبوا إلى أن الحقن الشديد ناقض للوضوء، فتكون صلاته باطلة. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢/ ٨٤، ٨٥.

(٣) ذكره البخاري في ترجمة باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة، كتاب الجماعة والإمامة. وابن المبارك: الزهد والرقائق ١/ ٤٠٢، ومحمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة ١/ ١٨٥، وقال ابن حجر: أثر أبي الدرداء وصله ابن المبارك في كتاب الزهد، وأخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من طريقه. انظر: فتح الباري ٢/ ١٥٩.

(٤) قال النووي: باب أمر مَنْ نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد؛ حتى يذهب عنه ذلك، قوله ﷺ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ...» إلى آخره، وهذا عام في صلاة الفرض والنفل في الليل والنهار، وهذا مذهبنا ومذهب الجمهور، لكن لا يُخرج فريضة عن وقتها. قال القاضي: وحمله مالك وجماعة على نفل الليل؛ لأنه محل النوم غالبًا. النووي: المنهاج، ٦/ ٧٤.

نائم؟! إنك لن تفقد الخشوع فقط، بل قد تُخطئ في صلاتك خطأً جسيمًا، وهذا الخطأ قد يُذهب الصلاة ويُضَيِّعها إن كان في أركانها، أو قد يقود إلى ذِكْرٍ أو دعاء ضارٍّ بالإنسان! كأن يدعو على نفسه مثلًا! ولا يقولنَّ أحدٌ إن الله ﷻ لن يستجيب للدعاء ما دُمْتُ لم أقصد؛ فإن الصلاة في حال النعاس فيها عدم اكتراث، وهذا يستوجب عتابًا أو عقابًا، كما أن هناك نهيًا مباشرًا من رسول الله ﷺ عن القيام بمثل هذا الأمر؛ فعن عائشة ﵂ أَنَّ النبي ﷺ قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»[١]. ومعنى يسبُّ نفسه أي يدعو عليها[٢]، وذكر ابن حجر في فتح الباري أن لهذا الحديث قصة[٣]، وهي قصة الصحابية الجليلة الحولاء بنت تُوَيْت ﵂، وذلك أنَّ عائشة ﵂ زوج النبي ﷺ أَخْبَرَتْ عروة بن الزبير أنَّ الحولاء بنت تُوَيْت بن حبيب بن أسد بن عبد العزَّى مرَّت بها وعندها رسول الله ﷺ، فقلتُ: هذه الحولاء بنت تُوَيْتٍ، وَزَعَمُوا أنَّها لا تنام اللَّيل. فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَنَامُ اللَّيْلَ؟! خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ! لَا يَسْأَمُ اللهُ حَتَّى تَسْأَمُوا»[٤]. ثم ذكر الحديث الذي أمر فيه الناعس أن يرقد.

ومن أجل هذا السبب منع رسول الله ﷺ زوجته أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂ من مواصلة القيام عند الشعور بالنعاس أو التعب الشديد؛ فعن أنس بن مالكٍ ﵁ أنه قال: دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبلٌ ممدودٌ بين السَّاريتين، فقال: «مَا هَذَا الْحَبْلُ؟» قالوا: هذا حبلٌ لزينب، فإذا فَتَرَتْ[٥] تَعَلَّقَتْ. فقال النبي ﷺ: «لَا، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[٦].

فانظر إلى روعة الإسلام الذي لا ينظر إلى الأشكال ولكن إلى المعاني، ولا يكترث بالهيئة ولكن بالروح، ولا يبحث عن الجهد المضني ولكن عن الخشوع العميق!

---

(١) البخاري: كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومَنْ لم يَرَ من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءًا، (٢٠٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أَمْرِ مَنْ نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد، (٧٨٦)، واللفظ له.

(٢) انظر: ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٣١٥.

(٣) انظر: ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٣١٥.

(٤) البخاري: أبواب التهجد، ما يكره من التشديد في العبادة، (١١٠٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أَمْرِ مَنْ نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد، (٧٨٥)، واللفظ له.

(٥) فترت: كسلت عن القيام في الصلاة. ابن حجر: فتح الباري، ٣/ ٣٦.

(٦) البخاري: أبواب التهجد، ما يكره من التشديد في العبادة، (١٠٩٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أَمْرِ مَنْ نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد، (٧٨٤).

خامسًا: اقطع الضوضاء حولك:

الأذن الإنسانية في غاية الحساسية! وسرعان ما تلتفت إلى ما حولها من أصوات، وهي أُولى الحواس تأثُّرًا بما يحيط بها؛ لذلك فمن الصعب جدًّا أن تخشع في صلاتك وحولك ضوضاء؛ لذا فلا تُصَلِّ والتلفاز أو المذياع -مثلًا- يعملان، حتى وإن لم يكونا في مجال الرؤية، كذلك يجب تنبيه الأطفال برفق أن عليهم الهدوء والسكينة ما دام أن هناك إنسانًا يُصلِّي؛ سواء كان هذا في البيت أو في المسجد، وقد بلغ اهتمام الرسول ﷺ بوجود بيئة هادئة حول المصلِّي أنه نهانا أن نُصَلِّيَ بجوار النائم، الذي قد يُصدر أصواتًا دون دراية، ولا بجوار المتحدِّثين الذين قد يذهبون بخشوعنا؛ فعن عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَا تُصَلُّوا خَلْفَ النَّائِمِ وَلَا الْمُتَحَدِّثِ**(١)»(٢). ولعلَّنا بعد هذه الفقرة أدركنا قيمة صلاة القيام؛ خاصة إن كانت في الثلث الأخير من الليل، وذلك في هذا السكون المهيب، وقد نام جُلُّ الناس، وهدأت الأصوات، وخلا المؤمن بربه ﷻ، دون قواطع أو شواغل أو ملهيات!

سادسًا: لا تفتن عينك!

تأتي العين بعد الأذن في مسألة الانشغال بما حولها من أمور، ومن هنا فإن العين إذا كانت تتجوَّل شرقًا وغربًا أثناء الصلاة فقُلْ على الخشوع السلام!

إن رسولنا الأكرم ﷺ عَلَّمنا أن ننظر في موضع سجودنا؛ حتى نتمكَّن من خشوع صادق، فكَانَ إذا صَلَّى طَأْطَأَ رَأْسَهُ، وَرَمَى بِبَصَرِهِ نحْوَ الأَرْضِ(٣)، وهو بذلك يُضَيِّق جدًّا

---

(١) أي أن يُصَلِّيَ وواحد منهما بين يديه؛ لأن المتحدث يُلهي بحديثه، والنائم قد يبدو منه ما يُلهي. المناوي: التيسير بشرح الجامع الصغير ٢/ ٩٢٤.

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب الصلاة إلى المتحدثين والنيام (٦٩٤)، واللفظ له، وابن ماجه (٩٥٩)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٣٣٣٠)، وأبو يعلى (٢٧٣٨)، والطبراني: المعجم الأوسط، (٥٢٤٦)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢٦٤٥)، وابن أبي شيبة: المصنف، ٢/ ٢٥٧، وعبد الرزاق: المصنف، ٢/ ٦١ (٢٤٩١)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن عمرو بن علقمة واختلف في الاحتجاج به. انظر: مجمع الزوائد، ٢/ ٢٠٢، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٧٣٤٩)، وصحيح أبي داود ٣/ ٢٧٤-٢٧٧.

(٣) لفظ الحديث: «عن عبد الله بن عون، عن محمد، قال: كان رسول الله ﷺ إذا صَلَّى رفع رأسه إلى السماء تدور عيناه، ينظر هاهنا وهاهنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، فطأطأ ابن عون رأسه ونكس في الأرض». البيهقي: السنن الكبرى، (٣٣٥٤)، والحاكم (٣٤٨٣) رواه مرفوعًا عن أبي هريرة، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لولا خلاف فيه على محمد (وهو ابن سيرين) فقد قيل عنه: مرسلًا ولم يخرجاه. وصححه الألباني، وقال: «وللحديث... شاهد من حديث عشرة من أصحاب النبي ﷺ». انظر: الألباني: صفة صلاة النبي ﷺ، ص٨٠.

مساحة الرؤية؛ ومن ثَمَّ يقطع كثيرًا من الشواغل التي يمكن أن تصرفه عن الخشوع، وكان يفعل الشيء نفسه عند جلوسه للتشهُّد؛ فقد روى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا قَعَدَ فِي التَّشَهُّدِ، وَضَعَ كَفَّهُ الْيُسْرَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُسْرَى، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ(١)، لَا يُجَاوِزُ بَصَرُهُ إِشَارَتَهُ»(٢). فهو في قيامه وجلوسه يجعل نظره محدودًا، وبصره مقيَّدًا، وبذلك لا يُشاهد من الأمور ما قد يُثير اهتمامه، وبالتالي يُؤثِّر على خشوعه.

ولعلَّ من النصائح المفيدة جدًّا في هذا المجال ألا تضع أمامك على الأرض شيئًا فيه كلمات مقروءة تأخذ العين؛ كجريدة أو أبحاث أو غلاف كتاب، فقد تنشغل بقراءته دون أن تدري، وقد ينشغل بقراءته مصلُّون آخرون إلى جوارك، فتحمل بذلك إثم صرفهم عن صلاتهم! ولكن الأفضل أن تضعه في كيس غير شفاف، أو تضعه على الوجه الذي ليس فيه كتابة، وصدقوني هذا مفيد للغاية؛ فقد يأخذ الشيطانُ أحدَ المصلِّين بعيدًا عن الخشوع لأربع ركعات متتالية لمجرَّد كلمة واحدة قرأها! فالحذر الحذر!

سابعًا: احذَرْ من هاتفك المحمول (الجوَّال - النقَّال)!

كم سرق الهاتف المحمول خشوع مُصَلِّين!

لقد صار المحمول مع كل البشر! وأحيانًا يحمل الرجل اثنين أو ثلاثة! ويأتي بهذا الجهاز -الذي يقتحم كل الخلوات- إلى مكان الصلاة! فيفتح بذلك أبوابًا واسعة جدًّا للشيطان؛ ليدخل منها إلى عقل المُصَلِّي وقلبه، فينزع خشوعه انتزاعًا!

ولا نُنكر أن الجهاز مفيد جدًّا، ويُيَسِّر على الناس كثيرًا من أمور حياتهم، لكننا لا نُريد أن نُصلح حياتنا ونُفسد صلاتنا! فما العمل؟!

عندي بعض النصائح المجرَّبة للمُصَلِّين، وسَتُسْهِم -بإذن الله تعالى- في حلِّ المشكلة..

---

(١) أي بسبابة اليمنى.

(٢) النسائي: كتاب صفة الصلاة، موضع البصر عند الإشارة، (١١٩٨)، واللفظ له، وأبو داود (٩٩٠)، وأحمد (١٦١٤٥)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (١٩٤٤)، وأبو يعلى (٦٨٠٧)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. والبيهقي: السنن الكبرى، (٢٦١٨)، وابن خزيمة (٧١٨)، وقال الأعظمي: إسناده حسن. وقال النووي وابن الملقن: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: النووي: خلاصة الأحكام، ١/ ٤٢٧، وابن الملقن: خلاصة البدر المنير في تخريج كتاب الشرح الكبير للرافعي، ١/ ١٣٩، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٤/ ١٤٥.



بدايةً علينا أن نُغلق المحمول نهائيًّا قبل الصلاة، بل قبل دخول المسجد إن كنا في صلاة جماعة، وأنصح بعدم الاكتفاء بوضعه على الوضع الصامت الهزَّاز، فإن اهتزازه في داخل جيبك، أو وهو على الأرض، سوف يُثير فضولك لتعرف مَنِ المتصل! وسيضع ذهنك عدَّة احتمالات، وقد يتصوَّر حوارًا كاملًا مع الشخصية المتَّصِلة! ولذلك فالأورع هنا أن نُعلن لله ﷻ أننا قطعنا بشكل كامل اتصالاتنا بالبشر لنتَّصل به هو سبحانه!

وإذا كان لا بُدَّ من تركه على الوضع الصامت لأنك تنتظر مكالمة مهمَّة مثلًا، كأن كنت طبيبًا يُتابع حالة حرجة، وتُريد بعد الصلاة أن تعرف مَنِ الذي اتصل بك، فضع المحمول في جيبك على وضع الصامت دون اهتزاز! فإنك وإن كنتَ قد حافظت على صلاة الناس بعدم إزعاجهم بالجرس، فقد ضيَّعت خشوعك بتخمينك المتواصل عن المتصِل وغرض الاتصال إذا اهتزَّ التليفون في جيبك! كما لا تضع المحمول أمامك على الأرض وشاشته في مواجهتك؛ حيث إن ضوءه إذا اتصل بك أحد سيصرفك، أو سيصرف مَنْ حولك، عن الصلاة!

بل أنصح بعدم وضع المحمول مطلقًا على الأرض! فقد ينشغل مصلٍّ إلى جوارك بنوع المحمول، أو لونه، أو درجة جودته! ولا تسخر من هذه النصائح أو الاحتمالات؛ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدمِّ في العروق!

وقد ينسى المصلِّي -مع كامل اهتمامه بذلك- أن يُغلق تليفونه المحمول! وهذا يحدث معنا جميعًا، فيدقُّ الصوت عاليًا في أرجاء المسجد! فهنا، وفي هذه الحالة الاستثنائية، لا مانع من إخراجه من الجيب وإغلاقه، فهذا أَوْلَى من تركه يدقُّ، فيُضيِّع صلاة حامله وصلاة الناس!

وتحضرني في هذا المقام نصيحة غالية! وهي أن تختار صوتًا وقورًا (جرسًا) لمحمولك؛ حتى إذا نسيت أن تُغلقه وعلا صوته لا يُسَبِّب انصراف الناس عن الخشوع في الصلاة؛ وذلك لسماعهم نشيدًا أو أغنية أو موسيقى! ولا أستثني هنا الأناشيد الدينية، أو حتى الأدعية المأثورة؛ فإن هذه الكلمات تأخذ بأسماع المصلِّين بعيدًا عن الصلاة، وأذكر هنا صديقًا ذكر لي أنه في إحدى الصلوات دقَّ تليفون أحد المصلِّين أثناء الصلاة، وكان صوته عبارة عن دعاء خاشع لأحد المشايخ المعروفين، فترك صديقي الخشوع في صلاته، وظلَّ يُتابع الدعاء، ويُؤَمِّن عليه في سرِّه!! يقول: آمين آمين!

ثامنًا: لا تعبث بأصابعك!

كثيرًا ما تتحرَّك أصابع المصلِّي، وأحيانًا يده، تتحسَّس بعض الأشياء، أو تَطْمَئِن على بعض الأمور، أو أحيانًا تلهو! وكل ذلك يتنافى مع الخشوع! فهذا مُصَلٍّ يتأكَّد من وجود مفتاح أو ورقة في جيبه، وهذا يُريد أن يُسَوِّيَ شعر رأسه، وثالث يعبث بلحيته، ورابع يُنَمِّق ملابسه كلما تحرَّك من ركوع إلى قيام، أو من سجود إلى قعود! وغير كل هؤلاء هناك مَنْ «يلعب» بشيء أمامه على الأرض عندما يجلس للتشهد! ولا تستغربنَّ هذا الأمر فقد حدث في الزمن الأول! زمن الصحابة والتابعين! فعن عبد الله بن عمر ﷺ أنَّه رأى رجلًا يُحرِّك الحصى بيده وهو في الصلاة، فلمَّا انصرف قال له عبد الله: لا تُحرِّك الحصى وأنت في الصلاة؛ فإنَّ ذلك من الشَّيطان، ولكن اصنع كما كان رسول الله ﷺ يصنع. قال: وكيف كان يصنع؟ قال: «فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، وَأَشَارَ بِأُصْبُعِهِ الَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ فِي الْقِبْلَةِ، وَرَمَى بِبَصَرِهِ إِلَيْهَا، أَوْ نَحْوِهَا». ثمَّ قال: هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ يصنع(١). فكل هذه الأعمال وأمثالها تسرق الخشوع من صلاة المؤمن، فلننتبه إلى تجنُّبها.

تاسعًا: اتخذ سترة عند الصلاة:

إذا كنت تُصَلِّي منفردًا، أو كنت إمامًا للناس فينبغي لك أن تتخذ سترة أمامك تُصَلِّي خلفها، والسترة قد تكون عصًا أو حقيبة، أو غير ذلك من الأشياء التي تُحدِّد المساحة التي تُصَلِّي فيها، وينبغي ألَّا تضعها بعيدة جدًّا عنك؛ لأنه ممنوع على الناس أن يمرُّوا بينك وبين السترة، ولو أبعدتها عنك ضيَّقت على الناس حركتهم في المسجد.. ويمكن لك أن تتَّخذ أحد أعمدة المسجد سترة، وهكذا كان يفعل الصحابة الكرام ﷺ؛ فقد روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ:

---

(١) النسائي: كتاب التطبيق، موضع البصر في التشهد (٧٤٧)، وابن حبان (١٩٤٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبيهقي: السنن الكبرى، (٢٦١٧)، وابن خزيمة (٧١٩)، وقال الأعظمي: إسناده صحيح. والحديث عند مسلم: عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُعَاوِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: رَآنِي عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ وَأَنَا أَعْبَثُ بِالْحَصَى فِي الصَّلَاةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ نَهَانِي فَقَالَ: اصْنَعْ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصْنَعُ، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصْنَعُ؟ قَالَ: «كَانَ إِذَا جَلَسَ فِي الصَّلَاةِ وَضَعَ كَفَّهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، وَقَبَضَ أَصَابِعَهُ كُلَّهَا وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ، وَوَضَعَ كَفَّهُ الْيُسْرَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُسْرَى». مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صفة الجلوس في الصلاة وكيفية وضع اليدين على الفخذين، (٥٨٠).

«كَانَ الْمُؤَذِّنُ إِذَا أَذَّنَ قَامَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَبْتَدِرُونَ السَّوَارِيَ[1] حَتَّى يَخْرُجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُمْ كَذَلِكَ يُصَلُّونَ الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ..»[2]، وفي الوقت نفسه ينبغي لك ألا تسمح لأحد أن يمرَّ بينك وبين السترة؛ فعن سهل بن أبي حثمة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إِلَى سُتْرَةٍ فَلْيَدْنُ مِنْهَا، لَا يَقْطَعَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ[3]»[4]. فالذي يمرُّ بين يدي المصلِّي وكأنه شيطان يقطع على المؤمن صلاته! ولننظر إلى هذا الموقف الذي يُوَضِّح لنا خطورة المسألة، فعن أبي صالحٍ السَّمَّان قال: رأيت أبا سعيدٍ الخدريَّ ﷺ في يوم جمعةٍ يُصَلِّي إلى شيءٍ يستره من الناس، فأراد شابٌّ من بني أبي مُعَيْطٍ أن يجتاز بين يديه، فدفع أبو سعيدٍ في صدره، فنظر الشَّابُّ فَلَمْ يَجِدْ مَسَاغًا[5] إلَّا بين يديه، فعاد ليجتاز فدفعه أبو سعيدٍ أشدَّ من الأولى، فنال من أبي سعيدٍ[6]، ثمَّ دخل على مروان[7] فشكا إليه ما لَقِيَ من أبي سعيدٍ، ودخل أبو سعيدٍ خلفه على مروان، فقال: ما لك ولابن أخيك يا أبا سعيدٍ؟ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إِلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، فَأَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلْيَدْفَعْهُ[8]،

---

(١) السواري: الأعمدة.

(٢) البخاري: كتاب الأذان، باب كم بين الأذان والإقامة ومن ينتظر الإقامة، (٥٩٩) واللفظ له، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتين قبل صلاة المغرب، (٨٣٧).

(٣) «لا يَقْطَعَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ صَلاتَهُ»: خرج مخرج التعليل لما قبله، ومعنى قطع الشيطان صلاته عليه إذا لم يَدْنُ من السترة: أنه ربما يمرُّ بينه وبينها أحد أو حيوان فيحصل له التشوش بذلك، ولا يدري كم صلَّى، فيحصل له وَسوسة فيقطع صلاته، وإنما نُسب إلى الشيطان لأن قطع العبادة وإبطالها من أعمال الشيطان. العيني: شرح سنن أبي داود، ٣/ ٢٥٥.

(٤) أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدنو من السترة (٦٩٥)، والنسائي: السنن الكبرى، (٨٢٤)، وأحمد (١٦١٣٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وابن حبان (٢٣٧٣)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٣٢٨٩)، والطبراني: المعجم الكبير، (٥٦٣٤)، وقال النووي: رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام، ١/ ٥١٨، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون. انظر: مجمع الزوائد، ٢/ ١٩٨، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٣/ ٢٧٧.

(٥) فلم يجد مساغًا؛ أي: ممرًّا. ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٥٨٣.

(٦) فنال من أبي سعيد؛ أي: أصاب من عرضه بالشتم. ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٥٨٣.

(٧) هو: مروان بن الحكم ﷺ عندما كان واليًا على المدينة المنورة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

(٨) فليدفعه؛ أي بالإشارة ولطيف المنع. وقيل: يردُّه إذا كان بعيدًا منه بالإشارة والتسبيح. وقيل: إذا مرَّ لا يردُّه لئلَّا يصير مرورًا ثانيًا. انظر: ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٥٨٣، والنووي: المنهاج، ٤/ ٢٢٣.

فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ(١)، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ(٢)»(٣).

وفي رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يُوَضِّح مسألة الشيطان هذه بأنها مرافَقَةٌ من الشيطان للمارِّ بين يدي المصلِّي؛ فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلَا يَدَعْ أَحَدًا يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّ مَعَهُ الْقَرِينَ»(٤).

ويرى النووي رحمه الله أنَّ المصلِّي «لو صلَّى إلى غير سُتْرَةٍ، أَوْ كَانَتْ وتباعد منها، فالأصحّ أنَّه ليس له الدَّفع لتقصيره، ولا يَحْرُمُ المرور حينئذٍ بين يديه، ولكنَّ الأَوْلَى تَرْكُه»(٥).

وإذا كنا قد توجَّهنا بالطلب إلى المصلِّي أن يتخذ سترة، ولا يسمح لأحد أن يمرَّ بينه وبين السترة، فإننا نتوجَّه كذلك إلى عموم المسلمين ألَّا يمرُّوا بين يدي مصلٍّ أبدًا؛ وذلك لحديث أبي جُهيم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ».

قال أبو النَّضر -أحد الرواة-: لا أدري أقال: أربعين يومًا أو شهرًا أو سنةً(٦)! فلو تذكَّرْنا هذا التحذير من رسول الله ﷺ لأدركنا خطورة أن نعبر من أمام المصلِّين دون اكتراث، ولحافظنا على خشوع الناس تمامًا كما نحافظ على خشوعنا.

---

(١) فليقاتله؛ أي يزيد في دفعه الثاني أشدَّ من الأول، قيل: وأجمعوا على أنه لا يلزمه أن يُقاتله بالسلاح؛ لمخالفة ذلك لقاعدة الإقبال على الصلاة والاشتغال بها والخشوع فيها. وفيه تفصيل انظر: ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٥٨٣.

(٢) فإنما هو شيطان؛ أي: فِعْلُه فعلُ الشيطان؛ لأنه أبى إلا التشويش على المصلِّي، وإطلاقُ الشيطان على المارد من الأنس سائغ شائع؛ وقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]. ابن حجر: فتح الباري، ١/ ٥٨٤، والنووي: المنهاج، ٤/ ٢٢٤.

(٣) البخاري: أبواب سترة المصلي، باب يرد المصلي مَنْ مرَّ بين يديه، (٤٨٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، (٥٠٥).

(٤) مسلم: كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، (٥٠٦)، والنسائي: السنن الكبرى، (٨٣٣)، وابن ماجه (٩٥٥)، وأحمد (٥٥٨٥)، وابن حبان (١٣٣).

(٥) قال النووي: «ثُمَّ إِذَا صَلَّى إِلَى سُتْرَةٍ، مَنَعَ غَيْرَهُ مِنَ الْمُرُورِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّتْرَةِ. وَكَذَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَطِّ عَلَى الصَّحِيحِ. وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ: كَالْعَصَا. وَهَلْ هُوَ مَنْعُ تَحْرِيمٍ، أَوْ تَنْزِيهٍ؟ وَجْهَانِ؛ الصَّحِيحُ: مَنْعُ تَحْرِيمٍ. وَلِلْمُصَلِّي أَنْ يَدْفَعَهُ، وَيَضْرِبَهُ عَلَى الْمُرُورِ، وَإِنْ أَدَّى إِلَى قَتْلِهِ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ سُتْرَةٌ، أَوْ كَانَتْ وَتَبَاعَدَ مِنْهَا، فَالأَصَحُّ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ الدَّفْعُ لِتَقْصِيرِهِ. قُلْتُ (أي النووي): وَلَا يَحْرُمُ حِينَئِذٍ الْمُرُورُ بَيْنَ يَدَيْهِ، لَكِنَّ الأَوْلَى تَرْكُهُ. وَاللهُ أَعْلَمُ». انظر: النووي: روضة الطالبين وعمدة المفتين، ١/ ٢٩٥.

(٦) البخاري: أبواب سترة المصلي، باب إثم المار بين يدي المصلي، (٤٨٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، (٥٠٧).

ولإتمام الفائدة أذكر أن هناك استثناءين لمسألة المرور بين يدي المصلِّي؛ أما الأول فهو المرور بين صفوف المصلين في صلاة الجماعة في حال الزحام؛ وذلك للوصول إلى مكان فارغ للصلاة، وأما الثاني فهو في المسجد الحرام بمكة(١)، وقد يكون هذا الاستثناء بسبب الزحام المعتاد، وحركة الطائفين حول الكعبة(٢)، والله أعلم.

عاشرًا: لا ترتبط بموعد بعد الصلاة مباشرة:

كثيرًا ما يذهب خشوعنا لا لشيء إلَّا لأننا مرتبطون بموعد مهمٍّ بعد الصلاة مباشرة، وهنا نستثقل صلاة الإمام، ونظنُّه أطال في صلاته، وتمرُّ الدقائق طويلة، بل قد يختلس المصلِّي بعض النظرات إلى ساعته أو ساعة المسجد يتمنَّى توقُّف الزمن! فأيُّ خشوع يُتوقَّع في هذه الحالة؟!

أعلم أنه من الرائع أن نربط حياتنا بأوقات الصلاة، فهذا يُذكِّرنا دومًا بها، وبالتالي نحافظ عليها في أول وقتها، ولكن ينبغي أن نحذر من اقتراب الموعد جدًّا من نهاية الصلاة؛ تحسُّبًا لأيِّ تأخير في الإقامة، أو أي تطويل من الإمام، وبذلك نُغلق هذا الباب على الشيطان، ونُخْلِص في صلاتنا لله ﷻ.

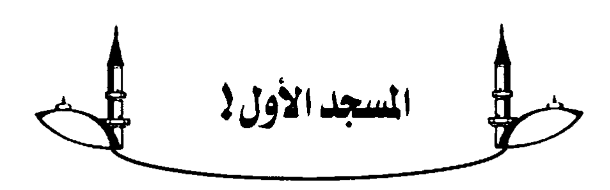
هذه بعض الأمور التي يمكن أن تحمي قلوبنا وعقولنا من عبث الشيطان بها؛ ومن ثَمَّ تكون قدرتنا على الخشوع أكبر، ويكون قربنا من الله ﷻ أشدَّ.. والله الموفق.

* * *

---

(١) استثنى الفقهاء من الإثم المرور بين يدي المصلي للطائف، أو لسدِّ فرجة في صفٍّ، أو لغسل رعافٍ، أو ما شاكل ذلك. الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٤/ ١٨٦، وانظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، ١/ ٧٥٩-٧٦١، وعبد الرحمن الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٢٤٦.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٧/ ٣٨): قال أحمد: لأن مكة ليست كغيرها. لكثرة الناس وازدحامها بهم، فمنعهم تضييقٌ عليهم، لما رُوي أن النبي ﷺ صلى بمكة والناس يمرُّون بين يديه وليس بينهما سترة. رد المحتار على الدر المختار ١/ ٤٢٧، ٢/ ١٧٢، والخرشي ١/ ٢٧٩، ٢٨٠، وحاشية العدوي ونهاية المحتاج ٢/ ٥٢، ٥٣، ومصطفى بن سعد: مطالب أولي النهى ١/ ٤٨٢.



المسجد الأول!

ما أروع أن نعود إلى الأصول!

لن يصلح آخر هذه الأُمَّة إلَّا بما صلح به أولها..

كيف كان مسجده ﷺ؟

لقد كان أبسط ما يكون!

مع أنه أغلى مساجدنا بعد البيت الحرام..

لكن روعة المسجد ليست في نقوشه وزخارفه، إنما في خشوع الصلاة فيه!

أنس بن مالكٍ ﷺ يحكي لنا:

كَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ: قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ، وَفِيهِ خَرِبٌ[1]، وَفِيهِ نَخْلٌ..

فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ..

ثُمَّ بِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ..

وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ..

فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ[2] الْحِجَارَةَ..

وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ..

وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ[3]..

وهكذا بُنِيَ المسجد الذي غَيَّرَ مسار العالم كله!

---

(١) الخرب: ما تخرب من البناء. النووي: المنهاج، ٥/ ٧.

(٢) العضادة: جانب الباب، وهي الخشبة التي على كتف الباب، ولكل باب عضادتان، وأعضاد كل شيء ما يشد جوانبه. ابن حجر: فتح الباري، ٧/ ٢٦٦، والنووي: المنهاج، ٥/ ٧.

(٣) البخاري: أبواب المساجد، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، (٤١٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتناء مسجد النبي ﷺ، (٥٢٤).

حجارة ونخيل!

بساطة ونظافة..

هدوء وسكينة..

وألفة بين المسلمين!

الله..

ألا تشتاقون إلى مسجد مثله؟!

لا ينمو دور المسجد مع علوِّ جدرانه، أو تزيين أعمدته بالذهب والفضة..

إنما العكس تمامًا!

ويوم يَفْقَه المسلمون هذه الحقيقة..

سيعود مسجد رسول الله ﷺ إلى الظهور في حياتنا!!

يعتقد كثير من المسلمين أن الاحترام والتوقير لبيت الله يعني البذخ الشديد في الإنفاق عليه! وتكون حُجَّته في ذلك أنه ليس من المقبول أن نُنفق على بيوتنا الأموال الغزيرة، ثم نأتي ونُقَتِّر على بيت الله ﷻ! وليس من المعقول أن تكون بيوتنا تحفة فنية، ثم نترك مساجدنا دون نقش وتزيين!

لكن حقيقة الإسلام مغايرة لهذا الفهم..

فشكل البناء، وطريقة تشييده، وفنون تنسيقه، كل ذلك يعتمد في الأساس على «وظيفته»!

تأسيس مستشفى يختلف عن تأسيس ملعب كرة..

لا نظر هنا إلى الكلفة.. إنما النظر إلى «الوظيفة»..

ووظيفة البيوت والقصور ليست كوظيفة المساجد!

وهدفي من بناء بيتي ليس كهدفي من بناء بيت الله ﷻ!

فما وظيفة المسجد؟ وما هدف بيت الله ﷻ؟

لو فَقِهنا ذلك أدركنا الطريقة المثلى لبنائه وتأسيسه وتنسيقه..

ولعلَّ الوظيفة الأولى التي من أجلها بُنِيَ المسجد هي إقامة الصلاة؛ لذلك اشتُقَّ من سجود هذه الصلاة اسم هذا البناء، فسُمِّيَ «بالمسجد».. ولو كان تصميم المسجد يُفسد الصلاة ما تحقَّقت بذلك الوظيفة الأولى له! وليست هناك صلاة معتبَرة دون خشوع.. فلو كان المسجد يُؤَدِّي إلى الخشوع فهو مسجد يُحَقِّق الغرض الأول من بنائه، ولو كان يُذهِب الخشوع فتركه والصلاة في غيره أولى!

ومن وظائفه المهمة كذلك «جمع» المسلمين؛ ففيه تُؤَدَّى صلوات الجماعة والجمعة، ومن هنا أطلق المسلمون على المسجد الرئيسي الكبير الذي يجمع معظم أهل المدينة اسم «المسجد الجامع».

وللمسجد وظائف أخرى كثيرة، وكلها مهم للغاية، فهو مكان دروس العلم، والتقاء المسلمين، وإعلان الأفراح، ومناقشة قضايا المسلمين الجامعة..

وقديمًا كان يُطَبَّب فيه المريض، وتُخرَج منه الجيوش، ويُلعَب فيه بالحراب، ويُثْوَى فيه الفقير، وتُعْقَد فيه مجالس الشورى، وتُستَضاف فيه الوفود.. كان يُفعل فيه ذلك وأكثر، غير أن تطوُّر المدن، واتِّساع الرقعة، وتخصص المؤسسات، جعل معظم هذه الأعمال تُعقَد في أبنية خاصة بها..

ومع ذلك بقيت الوظيفة الأولى -وهي إقامة الصلاة- في مكانها الأول، والمسجد الذي لا يُحَقِّقها على أفضل صورة يفقد بذلك أغلى أدواره..

فكيف يحافظ بناء المسجد وتأسيسه وتنسيقه على خشوع الصلاة؟!

أولاً: الحذر من الزخرفة الشديدة!

لعلَّ هذا الطلب صار مستغربًا في زماننا؛ فجُلُّ المساجد مزخرفة! وليست المسألة مادية فقط، ولكن أحيانًا تكون الزخرفة كثيرة ومعقَّدة جدًّا على الرغم من قلَّة تكاليفها.

ولماذا لا ينبغي لنا زخرفة المساجد؟!

ذلك لأسباب كثيرة؛ أولها وأهمها أن رسول الله ﷺ أمر بذلك؛ فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ المَسَاجِدِ»[1]. وتشييد المساجد يعني التطاول في

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد (٤٤٨)، وابن حبان (١٦١٥)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده=

بنيانها، وزيادة الزخرفة فيها، وقد قال ابن عبَّاسٍ ﵄ تعليقًا على هذا الحديث: «لَتُزَخْرِفُنَّهَا كَمَا زَخْرَفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى»[1]. وواقع الأمر أن اليهود والنصارى بدَّلوا كثيرًا في دينهم، وصاروا ينظرون إلى الأشكال والرموز، وتناسوا الحقائق والمعاني، فلم تَعُدْ دُور عبادتهم مكانًا للتقرُّب إلى الله ﷻ، بل صارت أماكن دون وظيفة معروفة، مع أنها في غاية الفخامة، ولهذا هجرها أهلها، وصارت خاوية على عروشها، ولا شَكَّ أن الأمر متدرِّج.. ففي البداية كانت الزخرفة قليلة، ولكن عندما تدخل إلى الكنائس الآن -وخاصة الكبرى- تجد أن التصاوير الفنية، والتماثيل الفخمة، في كل زاوية وركن، والكنائس في أوربا تُحَفٌ معمارية حقيقية، لكن أين الخشوع في هذا الجوِّ؟! فضلًا عن أنهم كثيرًا ما يضعون صورًا أو تماثيل عارية! فالوظيفة غابت تمامًا، ولا شَكَّ -كما ذكرتُ- أن هذا لم يكن من البداية، ولكنه حدث بتدرُّج.

وكان رسول الله ﷺ يخاف علينا من هذا المصير، فنهانا نهيًا مباشرًا عن زيادة الزخرفة في المساجد؛ ومن ثَمَّ فلا معنى لادِّعاء أننا نتقرَّب إلى الله ﷻ بكثرة الإنفاق على تزيين المسجد وزخرفته بينما نحن نخالف بذلك أمر رسوله ﷺ!

وهذا السبب الذي ذكرناه في منع زخرفة المساجد -وهو اتباع سُنَّة الرسول ﷺ- كافٍ لتنفيذ الأمر، ومع ذلك فهناك أسباب أخرى منطقية وواضحة..

منها -مثلًا- أن زيادة الزخرفة تخطف الأبصار، وتشغل بال المصلِّين، وكلما ازدادت حِرَفيَّة النقوش والزخارف زاد التفات المصلِّين إليها، وبالتالي يقلُّ الخشوع!

ومنها -كذلك- أن الأصل أن المسجد يُذَكِّرُنا بالآخرة، ويُزَهِّدُنا في الدنيا، وفيه نقف بين يدي الرحمن ﷻ؛ نستغفره، ونُمَجِّده، وندعوه.. فإذا كانت الزخرفة كثيرة صار المكان أقرب إلى الدنيا منه إلى الآخرة، وضاعت إحدى أهمِّ وظائف المكان!

=صحيح. وأبو يعلى (٢٤٥٤)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤٠٩٦)، والطبراني: المعجم الكبير، (١٣٠٣٤)، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط مسلم. انظر: خلاصة الأحكام، ١/ ٣٠٥، وقال الشوكاني: الحديث صححه ابن حبان ورجاله رجال الصحيح. انظر: الشوكاني: نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، ٢/ ١٧٤، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٢/ ٣٤٧.

(١) التخريج السابق.

ومنها -أيضًا- أن هذا إسراف وتبذير، وقد نهانا الله عن التبذير؛ فقال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۞ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وليس معنى النهي عن تشييد المساجد وزخرفتها أننا نبني المسجد بصورة هشَّة رديئة، بل ينبغي لنا إتقان بنائه جدًّا؛ حتى يستمرَّ في أداء مهمَّته، لا أقول سنوات طويلة بل قرونًا مديدة، كما يمكن -مع تحرِّي البساطة في المعمار والتأسيس- أن يخرج أنيقًا لطيفًا يبهر الناظرين بجماله، وبهذا يُؤَدِّي المسجد دوره دون الإخلال بالجمال والأناقة.

وجميل أن نختم هذه النقطة بتتبُّع تاريخ المسجد النبوي في عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين الأربعة، فنرى البساطة التي أخرجت هذا الجيل الفريد! فيحكي لنا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما «أَنَّ المَسْجِدَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ مَبْنِيًّا بِاللَّبِنِ، وَسَقْفُهُ الجَرِيدُ، وَعُمُدُهُ خَشَبُ النَّخْلِ، فَلَمْ يَزِدْ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ شَيْئًا، وَزَادَ فِيهِ عُمَرُ، وَبَنَاهُ عَلَى بُنْيَانِهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ بِاللَّبِنِ وَالجَرِيدِ، وَأَعَادَ عُمُدَهُ خَشَبًا، ثُمَّ غَيَّرَهُ عُثْمَانُ، فَزَادَ فِيهِ زِيَادَةً كَثِيرَةً، وَبَنَى جِدَارَهُ بِالحِجَارَةِ المَنْقُوشَةِ وَالْقَصَّةِ[1]، وَجَعَلَ عُمُدَهُ مِنْ حِجَارَةٍ مَنْقُوشَةٍ، وَسَقَفَهُ بِالسَّاجِ[2]»[3].

ونقل ابن حجر في الفتح قول ابن بَطَّالٍ وغيره: «هذا يدلُّ على أن السُّنَّة في بنيان المسجد القصد وترك الغلو في تحسينه؛ فقد كان عمر مع كثرة الفتوح في أيامه وسعة المال عنده لم يُغَيِّر المسجد عمَّا كان عليه؛ وإنما احتاج إلى تجديده لأن جريد النخل كان قد نَخِرَ في أيامه، ثم كان عثمان والمال في زمانه أكثر فحسَّنه بما لا يقتضي الزخرفة»[4].

فوضح لنا بذلك السُّنَّة في أحوال المساجد، ووضح كذلك أن الغرض من زخرفة المساجد ليس غرضًا شرعيًّا؛ بل قد يكون نوعًا من التفاخر بين الناس، وهو ما تنبَّأ به رسول

---

(١) قال بدر الدين العيني: والقَصَّة؛ أي: وبالقصة، بفتح القاف وتشديد الصاد المهملة؛ وهي الجصُّ بلغة أهل الحجاز. قلت: الجصُّ: لغة فارسية معربة؛ وأصلها: كج، وفيه لغتان: فتح الجيم وكسرها، وهو الذي يُسَمِّيه أهل مصر جيرًا. وأهلُ البلاد الشامية يُسَمُّونه كلسًا. انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٤/ ٢٠٦.

(٢) الساج: نوع من الخشب معروف يؤتى به من الهند وله قيمة. انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٤/ ٢٠٦.

(٣) البخاري: أبواب المساجد، باب بنيان المسجد، (٤٣٥)، وأبو داود (٤٥١)، وأحمد (٦١٣٩).

(٤) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٥٤٠.

الله ﷺ حين قال -فيما رواه عنه أنس بن مالك ﷺ-: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي المَسَاجِدِ»[1].

ثانيًا: ضوابط مهمة للإعلانات واللوحات الإرشادية في المسجد:

تمتلئ كثير من المساجد بلوحات إرشادية وتعليمية، وهي تحقّق فوائد جمّة، غير أنها قد تتعارض أحيانًا مع خشوع المصلّين! مما يُؤَثّر في مهمة المسجد الرئيسية؛ لذا وجب وضع بعض الضوابط التي يمكن أن تُحقِّق الفائدة دون أضرار.

من هذه الضوابط أن تُوضع هذه اللوحات في ظهر المصلِّين، لا في مواجهتهم وهو يُصلُّون؛ وذلك حتى لا يقرأ فيها المصلِّي أثناء الصلاة، فيذهب خشوعه، وقد تذهب صلاته كلها! وقد يُستثنى من ذلك أذكار ختام الصلاة؛ حيث إن وجودها في مواجهة المصلِّين يُساعدهم على تذكُّرها بعد الصلاة، ويُفضَّل للإمام أن يُنبِّه من حين إلى آخر إلى ضرورة عدم النظر إليها أثناء الصلاة.

ومن هذه الضوابط أن تكون هذه اللوحات معتمِدة على الأحاديث الموثَّقة فقط، وهذا مهم من الناحية الشرعية، إضافة إلى أنه يُقَلِّل من الجدل الذي قد يدور بين المصلِّين قبل الصلاة حول بعض الأحاديث؛ مما قد يُؤَثِّر على خشوعهم أثناء الصلاة.

كما يُفضَّل وجود إعلانات رقيقة (غير مستفِزَّة!) تدعو المصلِّين إلى غلق التليفون المحمول، وذلك على ألَّا تكون هذه الإعلانات في مواجهة المصلِّي حتى لا تشغله، ولكن تُوضع عند باب المسجد مثلًا، أو في مؤخرته، أو في أماكن الوضوء.

ثالثًا: نظافة المسجد:

تعتبر نظافة المسجد أهمَّ كثيرًا من فخامة فرشه أو تأسيسه! فكم من المساجد البسيطة تتميَّز بنظافة جميلة تدعو المصلِّين إلى السكينة والخشوع، وعلى النقيض تجد مساجد أخرى كبيرة؛ ولكن لا يهتمُّ أحدٌ بنظافتها؛ فتجد التراب يعلو كل شيء، حتى المصاحف! ولا تستطيع أن تضع رأسك على الأرض في سجودك من قذارة الأرضيات!

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد (٤٤٩)، واللفظ له، والنسائي (٧٦٨)، وابن ماجه (٧٣٩)، وأحمد (١٢٤٠٢)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن حبان (١٦١٤)، وصححه النووي، انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٣٠٥، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٢/ ٣٤٨.

لو أردت الخشوع حقيقةً فلا بُدَّ من نظافة المكان!

وكان رسول الله ﷺ حريصًا على هذا الأمر حرصًا شديدًا؛ فقال -فيما رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه-: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى الْقَذَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ الْمَسْجِدِ»(١). والقذاة هي ما يقع في العين من تراب أو وسخ، وهو في العادة يكون صغيرًا جدًّا؛ ومن هنا ظهر تشجيع الرسول ﷺ للمسلمين على تنظيف المسجد حتى من هذه الأوساخ الضئيلة، وعلى الجانب الآخر فإن الرسول ﷺ نبَّهنا أن التسبُّب في تلويث المسجد يُعَدُّ خطيئة، وهي خطيئة لا يكفي الاستغفار لرفعها! بل تحتاج إلى كفَّارة، وكفارتها إزالة الوسخ أو القاذورة.. قال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «التَّفْلُ (وفي رواية: البُزَاقُ(٢)) فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ، وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا»(٣). وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي الْمُرَاد بِدَفْنِهَا، وقد قال الجمهور: «الْمُرَاد دَفْنهَا فِي تُرَاب الْمَسْجِد وَرَمْله وَحَصَاته إِنْ كَانَ فِيهِ تُرَاب أَوْ رَمْل أَوْ حَصَاة وَنَحْوهَا وَإِلَّا فَيُخْرِجهَا»(٤).

وكان رسول الله ﷺ يُقَدِّر جدًّا مَنْ يهتمُّ بنظافة المسجد؛ فيروي أَنَسُ بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَحَكَّتْهَا، وَجَعَلَتْ مَكَانَهَا خَلُوقًا(٥)، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا!»(٦). وفي موقف آخر يروي أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ أَوِ امْرَأَةً سَوْدَاءَ -وفي روايةٍ جَزَمَ بأنها كانت امرأة(٧)- كَانَ يَقُمُّ(٨) الْمَسْجِدَ، فَمَاتَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب في كنس المسجد (٤٦١)، والترمذي (٢٩١٦)، وأبو يعلى (٤٢٦٥)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف جدًّا. وابن خزيمة (١٢٩٧)، وقال الصنعاني: رواه أبو داود والترمذي، واستغربه وحسنه ابن خزيمة وأخرجه في «صحيحه». انظر: فتح الغفار ١/ ٢٩٦، وحسنه ابن العربي، انظر: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ٣/ ٧٧.

(٢) البخاري: أبواب المساجد، باب كفارة البزاق في المسجد، (٤٠٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، (٥٥٢).

(٣) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، (٥٥٢).

(٤) النووي: المنهاج ٥/ ٤١.

(٥) نوع من العطور.

(٦) النسائي: كتاب المساجد، تخليق المساجد (٨٠٧)، وابن ماجه (٧٦٢)، وابن خزيمة (١٢٩٦)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٠٥٠).

(٧) ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصلاة على القبر (١٥٢٧)، وابن خزيمة (١٢٩٩)، والبيهقي: السنن الكبرى (٧٢٦٤).

(٨) يُنظِّف.

آذَنْتُمُونِي بِهِ، دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ». أَوْ قَالَ: «قَبْرِهَا». فَأَتَى قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا[(١)]. والشاهد من الرواية أن العلامة المميِّزة لهذه المرأة -التي من أجلها سأل رسول الله ﷺ عليها- كانت تنظيف المسجد، وبهذه الفضيلة فازت المرأة السوداء البسيطة بصلاة رسول الله ﷺ عليها.

وأكثر من ذلك أن رسول الله ﷺ كان يقوم بتنظيف المسجد بنفسه! وذلك مع توفُّر الصحابة الذين يمكن أن يَكْفُوه ذلك الأمر؛ لكنه كان يضرب لنا المثل والقدوة، فلا تكبر نفسُ أحدٍ عن خدمة بيت الله ﷻ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ بسند مرسل عن يعقوب بن زيد[(٢)] «أَنَّهُ عَلَيْهِ الصلاةُ والسَّلامُ كَانَ يَتَتَبَّعُ غُبَارَ الْمَسْجِدِ بِجَرِيدَةٍ»[(٣)]!

وإنني أدعو الأئمة والدعاة إلى أن يُثيروا هذه القضية المهمَّة في جموع المصلين، وما أروع أن تُقَاد حملة شعبية لتنظيف مساجد الأُمَّة كلها! وما أروع أن يتحرَّك الشباب والأطفال لتنظيم يوم كل شهر مثلًا يتمُّ فيه رعاية المسجد الذي يُصَلُّون فيه، ويمكن للنساء أن يكون لهنَّ دور مباشر كذلك في هذا الشأن.

ولا يجب أن نَغْفل عن البيئة المحيطة بالمسجد؛ فأكوام القمامة على باب المسجد تُؤذي المصلِّين عند دخولهم للصلاة، كما أن الريح تحمل الغبار والوسخ والرائحة الكريهة إلى داخل المسجد، ولا شكَّ أن هذا الوضع قد يذهب بخشوع المصلِّين.

وآخر ما نلفت الانتباه إليه في نقطة نظافة المسجد هي الاهتمام كذلك بنظافة دورات المياه الملحقة بالمسجد؛ لأنها لو كانت نظيفة ومريحة فإن المصلِّي يدخل إلى الصلاة بنفسٍ منشرحة، وهذا يُساعد على زيادة خشوعه، ويُراعَى كذلك وضع حصير على الأرض عند منافذ دورات المياه إلى المسجد؛ حتى لا تُؤَثِّر الأقدام المبلولة بالماء في سجاد المسجد؛ مما قد يُؤَدِّي إلى فساد رائحة السجاد.

---

(١) البخاري: أبواب المساجد، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان، (٤٤٦)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، (٩٥٦).

(٢) هو: يعقوب بن زيد بن طلحة بن عبد الله بن أبي مليكة القرشي التيمي، أبو يوسف المدني (قاضي المدينة)، من صغار التابعين، وتوفي في أول خلافة أبي جعفر المنصور التي كانت بين سنوات (١٣٦-١٥٨هـ). انظر: الطبقات الكبرى ٥/ ٣٨١.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف (٤٠١٩).

رابعًا: تطييب رائحة المسجد:

لا يقف طموح المسلم عند نظافة المسجد فقط، ولا عند اختفاء الروائح الكريهة منه؛ ولكن يتعدَّى ذلك إلى تطييب رائحة المسجد وتجميلها؛ ومن المؤكَّد أن الرائحة الجميلة تُساعد على الخشوع، إضافة إلى أنها نوع من التعظيم لبيت الله، والله يقول في كتابه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وقد روى الترمذي عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ[١]، وَأَنْ تُنَظَّفَ وَتُطَيَّبَ»[٢]. فالأمر النبوي لا يقف عند التنظيف -وهو الحدُّ الأدنى في التعامل مع بيت الله- إنما يتجاوز ذلك إلى التطييب، وهو تحسين الرائحة وتجميلها، وفي رواية أخرى لأبي داود أمر الرسول ﷺ أمرًا عامًّا بإصلاح المساجد، والاهتمام بها؛ فقد كتب سَمُرَةُ بنُ جُنْدُبٍ رضي الله عنه إِلَى ابْنِهِ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُنَا بِالْمَسَاجِدِ أَنْ نَصْنَعَهَا فِي دِيَارِنَا، وَنُصْلِحَ صَنْعَتَهَا، وَنُطَهِّرَهَا»[٣]. وقد قال ابْنُ حَجَرٍ: «وَبِهِ يُعْلَمُ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ تَجْمِيرُ[٤] الْمَسْجِدِ بِالْبَخُورِ خِلَافًا لِمَالِكٍ حَيْثُ كَرِهَهُ؛ فَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللهِ[٥] يُجَمِّرُ الْمَسْجِدَ إِذَا قَعَدَ عُمَرُ رضي الله عنه عَلَى الْمِنْبَرِ، وَاسْتَحَبَّ بَعْضُ السَّلَفِ التَّخْلِيقَ[٦] بِالزَّعْفَرَانِ وَالطِّيبِ، وَرُوِيَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصلاة وَالسَّلَامُ فِعْلُهُ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ رحمه الله: هُوَ سُنَّةٌ»[٧].

بل فعل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ما هو أعظم من ذلك وأجلُّ؛ فقد أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ «أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ لَمَّا بَنَى الْكَعْبَةَ طَلَى حِيطَانَهَا بِالْمِسْكِ»[٨]! فتعظيم الكعبة لم يجعله يكتفي بتطييب مسجدها، إنما طيَّب جدرانها! وهذا من باب تعظيم حرمات الله.

---

(١) في موطن كل قبيلة أو مَحَلَّة أو قرية ليتيسر على الناس جميعًا إدراك صلاة الجماعة.

(٢) الترمذي: باب ما ذكر في تطييب المساجد (٥٩٤)، وأبو داود (٤٥٥)، وأحمد (٢٦٤٢٩)، وأبو يعلى (٤٦٩٨)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٢٤).

(٣) أبو داود: كتاب الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور (٤٥٦)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧٢٤).

(٤) إشعال البخور.

(٥) قال ابن عبد البر: عبد الله المجمر مولى عمر بن الخطاب كان عبد الله يجمر المسجد إذا قعد عمر على المنبر وقد قيل: إنه كان من الذين كانوا يجمرون الكعبة، والأول أصح والله أعلم؛ لأنه كان مولى عمر، وكان يجمر له مسجد رسول الله ﷺ. انظر: ابن عبد البر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ١٦/ ١٧٨.

(٦) التعطير.

(٧) نقل هذا القول الملا الهروي القاري عن ابن حجر. انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢/ ٦٠٤.

(٨) ابن أبي شيبة: المصنف (٧٤٤٣).



خامسًا: تهوية المسجد:

إذا كان الجوُّ مختنقًا فكيف نتوقَّع الخشوع؟!

لا بُدَّ من الحفاظ على هواء نقي في المساجد؛ خاصة في أوقات الصيف الحارَّة، وأيضًا عند اشتداد الزحام؛ لأن الحرَّ الشديد، والأنفاس الكثيرة، تُسَبِّب ضيقًا يصعب معه الخشوع.

ولا يظنَّنَّ أحد أن هذا لون من ألوان الترف! فإن رسول الله ﷺ كان يحرص على توفير جوٍّ رطب للمصلِّين إلى الدرجة التي وصلت إلى الحضِّ على تأخير صلاة الظهر في الأيام الحارَّة عن وقتها الأول إلى وقتٍ تخفُّ فيه الحرارة! هذا مع عِلْمِنا جميعًا لقيمة الصلاة على وقتها الأول.. روى أَبُو هُرَيْرَةَ وعَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ ؓ أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»(١). والإبراد هو الانتظار لدخول وقت البرد؛ أي البعد عن أول وقت الظهر، والاقتراب من وقت العصر، وجمهور العلماء حمل الأمر على الاستحباب، وبعضهم(٢) حمله على الوجوب؛ لكن الشاهد من الحديث هو اهتمام الرسول ﷺ بالصلاة في جوٍّ رطب جميل.

بل إنه في موقف آخر ظلَّ يُؤَخِّر في الظهر لشدَّة الحرارة حتى ذهب أغلب وقته! فقد قال أَبو ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ؓ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَرَادَ المُؤَذِّنُ أَنْ يُؤَذِّنَ لِلظُّهْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَبْرِدْ». ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُؤَذِّنَ، فَقَالَ لَهُ: «أَبْرِدْ». حَتَّى رَأَيْنَا فَيْءَ التُّلُولِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَإِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ»(٣). وفيء التُّلول تعني ظلَّ التُّلول، والتُّلول جمع تلٍّ؛ وهو كل ما ارتفع من رمل أو تراب، والمقصود -كما يشرح ابن حجر ؒ- «أَنَّ التُّلول فِي الْغَالِبِ مُنْبَطِحَةٌ غَيْرُ شَاخِصَةٍ، فَلا يَظْهَرُ لَهَا ظِلٌّ إِلَّا إِذَا ذَهَبَ أَكْثَرُ وَقْتِ الظُّهْرِ»(٤). فهذا كلُّه لِيُؤَكِّد لنا رسول الله ﷺ أن الصلاة ليست مجرَّد حركات تُؤدَّى بلا روح؛ إنما هي صلة مع الله تحتاج إلى نفسٍ مطمئنَّة، وصدر منشرح.

---

(١) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر، (٥١٠)، واللفظ له، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة... (٦١٥).

(٢) قال ابن حجر: «وَالأَمْرُ بِالإِبْرَادِ أَمْرُ اسْتِحْبَابٍ. وَقِيلَ: أَمْرُ إِرْشَادٍ. وَقِيلَ: بَلْ هُوَ لِلْوُجُوبِ. حَكَاهُ عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ». ابن حجر: فتح الباري ٢/ ١٦.

(٣) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في السفر، (٥١٤). واللفظ له، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة... (٦١٦).

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢٠.

ومن هنا فمن أفضل أعمال الخير أن تُساهم في تهيئة هذا الجوِّ الرطب للمصلِّين.. وطرق ذلك كثيرة، وتختلف باختلاف الزمان والمكان والإمكانيات؛ ومن أهم هذه الطرق اختيار مكان المسجد، وحُسْن تصميم الأبواب والنوافذ؛ بحيث تتفق مع حركة الرياح التي تسمح بتيار هواء مستمرٍّ داخل المسجد.

ومنها: زرع بعض الأشجار حول المسجد، والمحافظة عليها رطبة طَيِّبَة، وقد كان سلفنا يُزَوِّدُون المسجد -لا بالأشجار فقط- بل بالنوافير! حتى يُحافظوا على درجة حرارة منخفضة[1].

ومنها: تزويد المسجد بالمراوح الكهربائية التي يتمُّ توزيعها بشكل هندسي مدروس؛ بحيث تُحَقِّق أعلى كفاءة ممكنة، ويُراعى اختيار المراوح الجيدة، وإن كانت أغلى نسبيًّا؛ لأنها تعيش فترة أطول، وتعمل بقوَّة أفضل، إضافة إلى هدوء صوتها مما لا يُسَبِّب تشويشًا على المُصَلِّين.

ومنها -إن سمحت الإمكانيات- تكييف المسجد بأجهزة التكييف والتبريد الكهربائية، وأنا أعلم أن ثمنها مرتفع؛ لكن فائدتها كبيرة، ومن الأولى أن نُنفق الأموال على تكييف المسجد بدلًا من إنفاقها على زخرفة المسجد، أو تعلية مئذنته!

ومنها: توفير علب مناديل ورقية في المساجد ليمسح المصلُّون عرقهم، فلا يصرفهم عن الصلاة، ولا يُؤذي غيرهم.

فهذه كلها وسائل تهدف إلى خلق جوٍّ مريح لطيف للمُصَلِّي، وهذا كله في النهاية سينعكس بالتأكيد على درجة تركيزه وخشوعه.

سادسًا: إضاءة المسجد:

إذا كانت إضاءة المسجد ضعيفة جدًّا فهذا يدعو إلى الخمول والكسل، وعلى الناحية الأخرى فإن الإضاءة الصاخبة تُؤَدِّي هي الأخرى إلى تشتيت للمُصَلِّي، كما أنها ترفع درجة حرارة المكان؛ مما يزيد الشعور بالضيق.. والأفضل -في رأيي- الإضاءة الهادئة البيضاء غير المباشرة؛ التي توفِّر إضاءة جيدة؛ ولكنها غير مؤذية، ويمكن الاستعانة بمتخصِّص في المجال

(١) راجع بعض أمثلة ذلك في كتابنا: «ماذا قدم المسلمون للعالم»، مبحث انتشار الحدائق في الحضارة الإسلامية ص٦٢٩-٦٣٥، ومبحث النافورات ص٦٣٩-٦٤٢.



يُنَظِّم الإضاءة بشكل علمي يُحَقِّق أفضل وضع ممكن.

وأُحِبُّ لفت الانتباه هنا إلى أن بعض المسئولين عن المساجد يُفَضِّلون تخفيض الإضاءة جدًّا أثناء صلاة التراويح أو التهجُّد في رمضان أو غيره؛ وذلك في محاولة للوصول إلى الخشوع؛ ولكنني أشعر -وهذه تجربة شخصية لي- أن هذا الضوء الخافت قد يجلب النعاس لبعض المُصَلِّين؛ خاصة إذا كانت الصلاة طويلة، وتوقيتها متأخِّر، وهنا يحتاج المُصَلِّي غالبًا إلى ما يُنعشه ويُوقظه، لا إلى ما يجلب له الهدوء الكامل!

سابعًا: مصاحف المسجد:

يأتي بعض المُصَلِّين -وهذا فضل كبير- مُبَكِّرين إلى المسجد، وبعد صلاة تحية المسجد والنافلة يحتاج المسلم أن يقرأ في كتاب الله ﷻ، وهذه القراءة تُهَيِّئه بشكل مباشر للخشوع في الصلاة؛ ومن ثَمَّ صار الاهتمام بمصاحف المسجد أمرًا مهمًّا جدًّا لتحقيق الخشوع في الصلاة، فضلًا عن الأجر الهائل المتحقِّق من القراءة ذاتها.

وإننا نلحظ كثيرًا أن بعض المسلمين يأتي ببعض المصاحف القديمة عنده في البيت؛ التي لا يستطيع أن «يتخلَّص» منها! فيضعها في المسجد، وهو يظنُّ بذلك أن هذا فضلٌ وإكرام! والواقع أن المساجد أغلى عندنا من بيوتنا، وما لا نرضاه لبيوتنا فمن باب أولى ألا نرضاه لبيت الله ﷻ.. بالإضافة إلى أن الإتيان بمصحف من كل بيت يُشوِّه شكل مكتبة المسجد، ويذهب بجمالها.

ومن هنا فأنا أدعو إدارة كل مسجد، أو القائمين عليه من المتطوِّعين أن يُكَوِّنوا لجنة من أهل المسجد تتولَّى شئون المكتبة، وسائر الأمور الأخرى؛ فيحدث نوع من النظام المفيد الذي يُحَقِّق الفائدة لكل المُصَلِّين..

وإنني أتوجَّه إلى هذه اللجان ببعض النصائح بخصوص المصاحف؛ أعتقد أنها ستُسهم بشكل مباشر في تحفيز الناس على القراءة، وبالتالي تقود إلى الخشوع المطلوب..

من هذه النصائح توفير عدد كبير من المصاحف الجديدة؛ خاصة من الطبعة الشهيرة لمطابع خادم الحرمين الشريفين؛ التي صارت بفضل الله منتشرة في كل مكان، واعتاد عليها جمهور المُصَلِّين؛ خاصة الشباب الذين لم يُعاصروا الطبعات القديمة للمصاحف، وهذه المصاحف الجديدة تُشَجِّع القارئ على طول القراءة، فلا شكَّ أن القراءة فيها مريحة للعين

وللنفس.. وأقترح ألا تُرْهق إدارة المسجد ميزانية المسجد بتوفير المبلغ المطلوب للشراء؛ ولكن على إمام المسجد أن يُعْلِن للمُصَلِّين -في صلاة الجمعة أو رمضان، أو في صلاة العشاء حيث يكثر المُصَلُّون نسبيًّا- أن المسجد بصدد شراء عدد كذا من المصاحف بتكلفة كذا وكذا من الأموال، فهل يُريد أحدُ المُصَلِّين أو بعضهم أن يتولَّوْا عبء هذه المهمَّة؟! وأنا على يقين أن معظم المساجد ستجد التنافس بين أكثر من متبرع لهذا العمل الجليل؛ خاصة إذا حَفَّز الإمام روَّاد المسجد بعدَّة آيات أو أحاديث في هذا المجال، والأُمَّة فيها خير كثير والحمد لله..

ومن هذه النصائح -أيضًا- توفير بعض المصاحف من طبعات قديمة متنوِّعة تُحفظ في مكان معروف في المسجد؛ وذلك لأن الذين حفظوا القرآن من مدَّة طويلة، يُعانون من القراءة في المصاحف الجديدة ذات الترتيب الخاص بها، ويحتاجون إلى القراءة من مصاحفهم القديمة؛ خاصة كبار السنِّ..

ومن هذه النصائح كذلك توفير مصاحف كبيرة الحجم؛ لأن كثيرًا من المُصَلِّين قد يغفلون عن الإتيان بنظَّارات القراءة معهم إلى المسجد، فيعجزون عن القراءة في المصاحف الصغيرة.

ومنها أيضًا توفير مصحف كبير جدًّا للتهجد، يُساعد الأئمة على إمامة القيام والتهجد إذا كانوا غير حافظين لكتاب الله، أو غاب الإمام الحافظ لأي سبب.

ومنها كذلك توفير حوامل للمصاحف، ليضع عليها القارئ مصحفه حال القراءة الطويلة..

ومنها توفير عدَّة شروح مبسطة للقرآن الكريم، يمكن للقارئ أن يعود إليها بسرعة إذا أراد أن يعرف معنى كلمة أو آية، أو سبب نزول، أو غير ذلك..

ومنها توفير مصحف أو اثنين من المصاحف المكتوبة بطريقة «برايل» الخاصة بفاقدي البصر؛ فهذه خدمة متميزة يُقَدِّمها المسجد لإخواننا الذين حُرِموا هذه النعمة..

فهذه بعض النصائح التي يمكن أن تُحَقِّق فوائد جمَّة في هذا المجال، والباب مفتوح لعامَّة المسلمين للإدلاء بدلوهم في هذا الصدد.



ثامنًا: توسعة المسجد:

ما رأيك في بيت جميل في منطقة راقية؟!

وماذا لو كان قصرًا فخمًا على شاطئ البحر؟!

أيُعجبك؟

فماذا تقول إذن في بيت في الجنة؟!

لقد بشَّرنا رسول الله ﷺ أن الذي يبني لله مسجدًا يبني الله له بيتًا في الجنة! والبيت حقيقي لا مجازي! بيتٌ مبنيٌّ.. له جدران وسقف.. وفيه حجرات متعدِّدة! يا الله! ألا تشتاق لهذا؟! قال عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ ﷺ: إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ، وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا -قَالَ بُكَيْرٌ (أحد رواة الحديث): حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ الله- بَنَى اللهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الجَنَّةِ»[1]. وقد يقول قائل: إنني لا أمتلك ما يُمَكِّنني من بناء مسجد. فنقول: إنه يكفي لك أن تُوَسِّع مسجدًا -لا أن تبنيه من البداية- حتى تُحَقِّق هذا الأجر، فعثمان بن عفان ﷺ لم يبنِ المسجد النبوي ابتداءً؛ إنما وَسَّع المسجد القديم بعد أن ضاق بروَّاده..

حتى في هذه الحالة فإن كثيرًا من المسلمين لا يجد ما يُوَسِّع به مسجدًا، فأقول له: شارك بما تستطيعه! شارك بدرهم أو درهمين في بناء مسجد أو توسعته! هل تقول: وماذا يفعل الدرهم والدرهمان؟ أقول لك أمرين؛ أما الأول: فإن الألف والألفين ما هما إلا درهم جُمِعَ إلى جوار درهم آخر، وأما الثاني: فإنك مأجور على أي شيء تدفعه ولو كان درهمًا بسيطًا.. قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. بل أقول لك ما هو أوضح في موضوع توسعة المساجد أو بناء المساجد من الأساس؛ لتُدرك أن أجر بناء المساجد يُعْطَى لأدنى مشاركة في العمل؛ روى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لله كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ أَوْ أَصْغَرَ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ»[2]! ومفحصَ القطاة هو عشُّ طائر القطاة،

---

(١) البخاري: أبواب المساجد، باب من بنى مسجدًا، (٤٣٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها، (٥٣٣).

(٢) ابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب من بنى لله مسجدًا (٧٣٨)، وأحمد (٢١٥٧)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره. وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح. انظر: مصباح الزجاجة ١/ ٩٤، وصححه الألباني، انظر:

وهذا الطائر صغير أشبه بالعصفور! وفي الحديث يُبَشِّرنا الرسول ﷺ أن الله ﷻ يبني بيتًا في الجنة لمَنْ بنى مسجدًا في حجم هذا العشِّ أو أصغر! والسؤال: وهل يمكن لأحد أن يُصَلِّيَ في هذا المسجد الصغير جدًّا؟! فأقول: إن ما أفهمه من الحديث أمرين؛ أما الأول: فهو التحفيز والدفع؛ لأن كل إنسان يسمع الحديث سيسعى قدر وسعه لبناء مسجدٍ مهما كان صغيرًا، وأما الأمر الثاني: وهو عندي أوضح، أن الرسول ﷺ يلفت أنظارنا إلى قضية المشاركة في البناء أو التوسعة، فلو أن هناك مشروعَ بناءٍ أو توسعة مسجد ضخم سيتكلَّف مثلًا خمسة ملايين جنيه؛ فلعلَّ مساحة مفحص قطاة فيه تساوي مائة جنيه أو نحوها، وهو مبلغ مُتَيَسِّر لكثير من أهل الخير الذين يرغبون في بناء المساجد، فيبني لك الله ﷻ بيتًا في الجنة نظير المساحة التي أضفتها بإسهامك في المسجد الكبير! وهذا فضل وكرم من الرازق الوهَّاب.

وقد يسأل قارئ: وما علاقة توسعة المساجد بالخشوع في الصلاة؟

يحضرني في إجابة هذا السؤال ستة أمور..

أما الأمر الأول: فهو أن المساحة الضيقة للمسجد تُؤَدِّي إلى وقوف غير مستريح للمُصَلِّين، فهذا لا يستطيع أن يضع يده على صدره بالشكل الصحيح، وذاك لا يتيسَّر له الوقوف، وثالث يسجد بصعوبة بالغة فلا يستطيع أن يُسَبِّح ويدعو كما يشاء، وهكذا! ولا شكَّ أن هذه الصور وغيرها من صور التزاحم، تُؤَدِّي إلى نقصٍ في الخشوع عند كثير من المُصَلِّين.

وأمَّا الأمر الثاني: فإن المساحة الضيِّقة للمسجد تضطر كثيرًا من المُصَلِّين إلى أن يمرُّوا بين الصفوف لملء فراغات هنا أو هناك، ولا شكَّ أن هذا -إن كان متكرِّرًا- سيُلهي المُصَلِّين عن صلاتهم.

والأمر الثالث: أن الزحام في المسجد الضيِّق يُؤَدِّي كثيرًا إلى انحراف القبلة عند بعض المُصَلِّين! وهذا أراه كثيرًا؛ حيث إن الزحام يضطرُّ بعض المُصَلِّين إلى الوقوف في أماكن غير معدَّة للصلاة، أو التدافع في منطقة محدودة فلا يجد مساحة يقف فيها أو يسجد، فينحرف عن القبلة مضطرًّا، ومع أن هذا الاضطرار لا يُؤَثِّر على صحة الصلاة بإذن الله فإن الخشوع

صحيح الجامع ٢/ ١٠٥٦.

يذهب؛ بل غالبًا ما يظلُّ المُصَلِّي منشغلًا بهذه المسألة طَوَال صلاته، فكيف يخشع؟!

والأمر الرابع: أن المساجد الضيِّقة تضطرُّ المُصَلِّين إلى الصلاة إلى جوار دورات المياه، وأماكن وضع الأحذية، وهذه الأماكن -برائحتها غير الجيدة- تُؤَدِّي إلى تشتيت ذهن المُصَلِّي، فيضيع خشوعه؛ بل يتمنَّى أن ينتهي من صلاته في أقرب وقت!

والأمر الخامس: أن ضيق المسجد قد يضطرُّ بعضَ المُصَلِّين إلى الصلاة في الشارع خارج المسجد مع كل الملهيات الموجودة في الشارع.

وأما الأمر السادس: فإن المسجد الواسع يُتيح لعدد كبير من المُصَلِّين أن يجتمعوا فيه، وأنا عندي قناعة أنه كلما زاد عدد المُصَلِّين زادت درجة الخشوع! أما لماذا؟ فالله أعلى وأعلم؛ لكن قد يكون هذا بركة اجتماع المُصَلِّين، أو بركة اتباع سُنَّة الرسول ﷺ بالصلاة في المسجد، أو بوجود عدد أكبر من المؤمنين الذين يشيعون جوَّ الراحة والطمأنينة بين المُصَلِّين، أو لشعورنا بالأمان والعزَّة ونحن متكاثرون، وقد عدَّ الله ﷻ الكثرةَ نعمةً؛ فقال على لسان شعيب ﵇ وهو يُعَدِّد نِعم الله على قومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ..﴾ [الأعراف: ٨٦]، أو لغير ذلك من الأسباب؛ وهي على العموم حقيقة مشاهَدَة، ويمكن للجميع أن يُلاحظها.

كانت هذه أمور ستة تجعل خشوع المُصَلِّين أقرب في المسجد الواسع، ولعلَّ أفضل ختام لهذه النقطة أن نقرأ هذا المشهد المؤثِّر لعثمان بن عفان ﷺ حين حاصره المنافقون في بيته قبيل استشهاده بأيام قليلة، وفي هذا الموقف سنرى قيمة توسعة المسجد!

يقول ثُمَامَةُ بْنُ حَزْنٍ الْقُشَيْرِيُّ -وهو من كبار التابعين-: «شَهِدْتُ الدَّارَ حِينَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ، فَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِالله وَبِالإِسْلَامِ! هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ يُسْتَعْذَبُ غَيْرَ بِئْرِ رُومَةَ، فَقَالَ: «مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلُ فِيهَا دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟» فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ صُلْبِ مَالِي، فَجَعَلْتُ دَلْوِي فِيهَا مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْتُمُ الْيَوْمَ تَمْنَعُونِي مِنَ الشُّرْبِ مِنْهَا حَتَّى أَشْرَبَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ. قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: فَأَنْشُدُكُمْ بِالله وَالإِسْلَامِ! هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي جَهَّزْتُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ مِنْ مَالِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: فَأَنْشُدُكُمْ بِالله وَالإِسْلَامِ! هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْمَسْجِدَ ضَاقَ بِأَهْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدُهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟». فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ صُلْبِ مَالِي، فَزِدْتُهَا فِي الْمَسْجِدِ، وَأَنْتُمْ تَمْنَعُونِي أَنْ أُصَلِّيَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ. قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ:

أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ وَالإِسْلَامِ! هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ عَلَى ثَبِيرِ ثَبِيرِ مَكَّةَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَنَا، فَتَحَرَّكَ الجَبَلُ، فَرَكَضَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرِجْلِهِ، وَقَالَ: «اسْكُنْ ثَبِيرُ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ». قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، شَهِدُوا لِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، يَعْنِي أَنِّي شَهِيدٌ»[1].

فصلِّ اللهم على نبينا ﷺ، وارضَ اللهم عن عثمان بن عفان، وعن الصحابة أجمعين.. اللهم آمين..

تاسعًا: مكان الأحذية في المسجد؛

هل يمكن لحذاء أن يذهب بالخشوع؟!

نعم! يمكن له أن يذهب بالخشوع بطريقتين!

الأولى عندما تخشى من رائحته!

والثانية عندما تخشى من سرقته!

والحقُّ أن الأمر فيه معضلة! فوضع الحذاء قريبًا جدًّا من المُصَلِّي يُؤذي عموم المُصَلِّين برائحته؛ لكن في الوقت نفسه فإن وضع الحذاء في مؤخِّرة المسجد بعيدًا عن الصفوف الأمامية يُشغل ذهن المُصَلِّي حيث يخاف عليه من السرقة؛ خاصَّة في بعض البلاد التي ينتشر فيها -للأسف- هذا النوع من السرقات!

فماذا نفعل؟!

يمكن استخدام نظام الصناديق بالمفاتيح، وهو عبارة عن دولاب خشبي كبير به عشرات الصناديق المُرَقَّمَة؛ حيث يضع المُصَلِّي حذائه في الصندوق، ويُغلقه بأمان، ويأخذ مفتاحه معه إلى أن يخرج من المسجد، فيحافظ هذا النظام على نظافة المسجد ورائحته، وفي الوقت نفسه يُطمئِن نفس المُصَلِّي على ممتلكاته، فلا يلعب به الشيطان، ولقد سعدت برؤية هذه التجربة منتشرة في سوريا الشقيقة، وهي موجودة كذلك في بعض المساجد في مصر، وأنا أعلم أن هذه الصناديق لن تكفي المُصَلِّين في صلوات الجمعة؛ لكنها ستُؤَدِّي عملها بكفاءة تامَّة طَوَال أيام الأسبوع..

---

(١) الترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٧٠٣)، وقال: حديث حسن. والنسائي (٦٤٣٥)، وحسنه الألباني، انظر: إرواء الغليل ٦/ ٣٩، ٤٠.

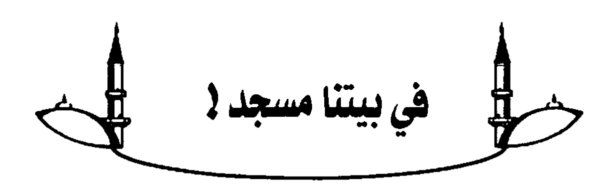
ويمكن كذلك للمساجد -خاصة الكبرى- أن تُخَصِّص مكانًا خلف المسجد لوضع الأحذية مع تعيين موظف أو اثنين لحفظ هذه الأحذية وحمايتها، وهذا -أيضًا- نراه في بعض المساجد، وللمُصَلِّي أن يضع فيه حذاءه إن شاء، وإن كنتُ قد شاهدتُ في مسجد خالد بن الوليد ﷺ في حمص بسوريا أن الأمر إلزامي، بمعنى أنه غير مسموح أصلًا بدخول الحذاء إلى المسجد، بل أُنشئ لذلك بناء خارج المسجد لحفظ الأحذية! وقد استحسنتُ التجربة؛ لأنها تحافظ على المسجد نظيفًا أنيقًا، وتُعطي هيبة تلقائية للمكان؛ حيث تترك كل متعلقاتك خارجًا، وتدخل متفرِّغًا للعبادة!

وهناك -أيضًا- حلٌّ مناسب لهذه المسألة رأيته في بعض المساجد، وهو مُطَبَّقٌ في المسجد الحرام بمكة، وهو وضع أكياس بلاستيكية على باب المسجد، يأخذ المُصَلِّي واحدًا منها عند دخوله، فيضع فيها حذاءه، ويأخذه معه إلى مصلاه، فيحفظه معه دون أن تؤذي رائحته أحدًا! ثم عند انصرافه يترك الكيس في المكان المخصص له على باب المسجد حتى يعاد استخدامه بعد ذلك.

وأنا أعلم أن بعضهم قد يرى الموضوع بسيطًا، ويستكثر التعليق عليه في كتابٍ عن الخشوع في الصلاة! خاصَّة لو كان يعيش في بلد لا تُسرق فيه أحذية المُصَلِّين؛ كدول الخليج أو البلاد الغربية، ولكني في الحقيقة أعلم كم من الصلوات ضاعت على مصلٍّ يُفَكِّر في حذائه البعيد عنه، أو يرمقه بعينه كلما رفع من السجود! وقد يكون معذورًا إن كان له تاريخ خاصٌّ مع السرقات! وبالمناسبة فإنني عانيت من سرقة حذائي أربع مرات قبل ذلك! والحقُّ إنها تجربة مفزعة قد تُذهب بلبِّ المُصَلِّي تمامًا، ونسأل الله العافية!

إن المساجد بيوت الله في الأرض، ولا بُدَّ للمُصَلِّي أن يجد فيها أعلى درجات الراحة النفسية، فهو على موعد فيها مع العظيم الجليل سبحانه، وما أجمل أن يصرف المسلمون جهدًا ووقتًا وفكرًا ومالًا لإخراج هذه المساجد في أفضل صورة يمكن أن تُحَقِّق خشوعًا للمُصَلِّين.. ويكفينا شرفًا أن الله سخَّرنا للاهتمام بأحب بقاع الأرض إليه! ولْنترك هذه النقطة وفي أسماعنا كلمات رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا**»[1]..

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، (٦٧١).



مسألة نفسية لطيفة يمكن أن نستخدمها في موضوعنا!

تجربة فسيولوجية[١] كنا نقوم بها في أثناء السنوات الأولى من دراستنا للطب..

عند إحضار الطعام إلى كلب نجد أن إفراز الغدد اللعابية يزيد، وهذا يحدث -أيضًا- مع الإنسان؛ حيث «يسيل» لعابه عند شمِّ الروائح الذكية للطعام، فكانت التجربة تقضي بإحضار الطعام إلى الكلب عدَّة أيام، وملاحظة إفراز هذه الغدد اللعابية، ثم بدأنا في الأيام التالية ندقُّ جرسًا عند إحضار الطعام للكلب، وواظبنا على ذلك عدَّة أيام! وبعد ذلك اكتفينا بدقِّ الجرس دون إحضار الطعام ففوجئنا أن لعاب الكلب يسيل حتى في غياب الطعام!

ماذا حدث؟

لقد ارتبط في عقل الكلب صوت الجرس بالطعام؛ ومن ثَمَّ فقد «تأَهَّل» نفسيًّا للطعام، وسال لعابه!

هذه الظاهرة يسمونها ظاهرة «رد الفعل المنعكس الشرطي»[٢] (Conditioned reflex).

وهذا يحدث كثيرًا معنا..

كثيرًا ما نشعر بالسعادة إذا دخلنا مكانًا معينًا حتى دون وجود شيء معيَّن يُسَبِّب السعادة، ويكون السبب الحقيقي وراء ذلك هو أننا سعدنا يومًا من الأيام في هذا المكان أو

---

(١) علم الفسيولوجي هو علم وظائف الأعضاء.

(٢) ردود الفعل المنعكس يمكن أن تكون تلقائية أو شرطية؛ فرَدُّ الفِعْل المُنعكِس التلقائي هو حركة لا شعورية تنشأ استجابة لمؤثر (مثير) حسي. كوخز دبوس للجلد، أمَّا رَدُّ الفعل المنعكس الشرطي فهو نوع آخر من الفعل المنعكس يكون مرتبطًا بالفعل، ويمكن لردِّ الفعل التلقائي أن يتحوَّل إلى رَدِّ فعل شرطي؛ فلعاب الكلب -مثلًا- يسيل عندما يشم الطعام، وهذا رَدُّ فعل تلقائي، لكن أوضح عَالِمُ الأحياء الروسي إيفان بافلوف Ivan Pavlov (١٨٤٩-١٩٣٦م والحاصل على جائزة نوبل في الطب سنة ١٩٠٤)، أن سيلان اللعاب -رغم أنه يُعَدُّ في الأصل رَدَّ فعل تلقائيًّا لشم الطعام- يمكن أن يُصبح ردَّ فعل شرطيًّا. كان بافلوف يقرع جرسًا في كل مرَّة يُحضر فيها الطعام للكلب، وحدث أن سال لعاب الكلب عندما قرع بافلوف الجرس دون أن يُقَدَّم له الطعام؛ فقد ربط الكلب بين قرع الجرس والطعام مثلما ربط بين الرائحة والطعام.

شبيهه، فإذا دخلناه بعد ذلك «استدعى» المخ سعادته القديمة؛ ومن ثَمَّ تشعر بالسعادة دون مُبَرِّر واضح! وأنا شخصيًا أشعر بهذا كثيرًا في عدَّة أماكن أعرفها تحديدًا، ويكون السبب أنني عشت تجربة سعيدة سابقة في هذا المكان..

ومثل الذي قلتُه عن مشاعر السعادة يمكن أن نقوله عن بقية المشاعر؛ مثل: مشاعر الخوف، أو القلق، أو الهدوء، أو الأمان..

ويمكن بطبيعة الحال أن نقوله على الخشوع!

وهذا هو سبب ذِكْر كلِّ ما سبق من حقائق علمية!

فما المقصود من هذا الكلام؟!

المقصود هو تجهيز مكان في البيت يكون بمثابة مسجد «داخلي»، يصلي فيه المسلم صلوات النوافل؛ خاصة قيام الليل، وتُصَلِّي فيه المرأة، ويمكن أن نُصَلِّي فيه الفروض في حال عدم التمكُّن من صلاة الجماعة لعذر من الأعذار.. وبناءً على ما تعلَّمْنَاه من التجربة الفسيولوجية السابقة؛ فإنه يُتَوَقَّع أن يشعر المُصَلِّي بالخشوع لمجرَّد الدخول في هذا المكان؛ لأنه جرَّب الخشوع فيه قبل ذلك، فتهيَّأ العقل لأحاسيس الخشوع حتى قبل أن يبدأ في الصلاة!

ومن الجميل أن تعرف قبل الشروع في تنفيذ الفكرة أنها وردت على ذهن صحابي جليل، وأن الرسول ﷺ أقرَّ الفكرة؛ بل ساهم في تطبيقها! والصحابي هو عِتْبَانُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ ﷺ، ولقد روى لنا قصته اللطيفة فقَالَ: «كُنْتُ أُصَلِّي لِقَوْمِي بَنِي سَالِمٍ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصَرِي، وَإِنَّ السُّيُولَ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَسْجِدِ قَوْمِي، فَلَوَدِدْتُ أَنَّكَ جِئْتَ فَصَلَّيْتَ فِي بَيْتِي مَكَانًا؛ حَتَّى أَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا. فَقَالَ: «أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ». فَغَدَا عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ مَعَهُ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَذِنْتُ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟». فَأَشَارَ إِلَيْهِ مِنَ المَكَانِ الَّذِي أَحَبَّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، فَقَامَ فَصَفَفْنَا خَلْفَهُ، ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ»[1]..

رائع!

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب مَنْ لم يَرَ ردَّ السلام على الإمام واكتفى بتسليم الصلاة، (٨٠٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، (٣٣).

موقف رائع حقًّا!

رائع جدًّا أن يجتهد الصحابي في تهيئة أفضل ظروف تساعده على صلاة خاشعة! ورائع جدًّا أن رسول الله ﷺ تجاوب معه مع انشغالاته الكثيرة! ورائع جدًّا أنه أخذ أبا بكر ﷺ ليشهد «افتتاح» المسجد الداخلي! ورائع جدًّا أن يُصَلُّوا جماعة في هذا المسجد «البيتي» حتى يأخذ عتبان بن مالك ﷺ شعور المسجد الجامع في هذا المسجد الصغير!

ألا ما أروعك يا رسول الله!

وإذا كان الأمر كذلك، فلنسعَ إلى تهيئة المكان بصورة تُساعد على استكمال الصورة الذهنية للمسجد، وبذلك تتحقَّق الفائدة بشكل أكبر، وأنا أقترح عدَّة وسائل عملية تُساعد في هذا الأمر؛ منها على سبيل المثال:

١) إطلاق اسم المسجد على هذا المكان حتى نُساهم في التهيئة النفسية.

٢) جعل المكان منعزلًا عن الضوضاء وحركة الناس قدر المستطاع، فلو كان البيت كبيرًا خصصنا حجرة لهذا الأمر، وإن لم يكن كذلك خصصنا ركنًا في أحد الحجرات التي لا يدخلها أهل البيت كثيرًا مثل حجرة الضيافة، أو ما شابه.

٣) للحفاظ على هدوء المكان ينبغي عدم وضع تليفون أرضي فيه، ولا تدخل إليه بتليفونك المحمول، كما يُفَضَّل وجوده في مكان بعيد عن التليفزيون قدر المستطاع.

٤) الحرص على عدم وجود صور أو تحف أو مشغولات؛ لأن هذا كله قد يشغل المُصَلِّيَ عن صلاته، فلا يتحقَّق له الخشوع.

٥) يُفَضَّل أن يُفرش المكان بالسجاد بشكل دائم ليأخذ طابع المسجد.

٦) نحرص على أن يكون السجاد والستائر في المكان بلا زخارف ولا نقوش، ولتكن الألوان هادئة ومريحة للأعصاب كالأبيض أو الأزرق الفاتح جدًّا أو نحو ذلك، ولا تفترض في نفسك القدرة على التركيز في وجود الزخارف الكثيرة! ولو جادلت في هذه النقطة فيكفيك أن تراجع موقفًا حكاه أنس بن مالك ﷺ فقال: كَانَ قِرَامٌ[1] لِعَائِشَةَ قَدْ سَتَرَتْ بِهِ جَانِبَ بَيْتِهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَمِيطِي عَنَّا قِرَامَكِ هَذَا فَإِنَّهُ

(١) القرام هو ستر رقيق من الصوف فيه نقوش وألوان.

لَا تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ لِي فِي صَلَاتِي»[1]! ولعلَّ هذا يفتح مجالًا لنا الآن لنناقش قضية سجاجيد الصلاة التي اعتدنا أن نُصَلِّيَ عليها في بيوتنا، فإن معظمها - للأسف- مليء بالنقوش والألوان، وهذا من البلاء الذي قبلناه دون تفكير مع أن إصلاحه يسير، ولعلَّنا نُطلق دعوة في هذا التوقيت لأحد المستثمرين المسلمين الغيورين على صلاة المسلمين أن يُنتج نوعًا من السجاد بلا زخارف يعين المسلمين على الخشوع في صلاتهم!

٧) يفضل وضع مصاحف على منضدة بسيطة، أو في مكتبة صغيرة، حتى تُيسِّر على الجالس في المكان أن يقرأ أو يُراجع الحفظ، كما أنها ستُساهم بشكل مباشر في التهيئة النفسية للمُصَلِّي.

٨) يفضل وضع تفسير صغير مُبَسَّط لكلمات وآيات القرآن حتى يرجع إليه المُصَلِّي لقراءة تفسير بعض الكلمات المبهمة؛ لأن فهم معاني القرآن يُعين بقوَّة على الخشوع، وقد يكسل المُصَلِّي عن البحث عن المعنى إذا لم يجد التفسير متاحًا.

٩) ينبغي أن تكون التهوية جيدة في المكان؛ سواء كانت طبيعية عن طريق نافذة أو شرفة، أو صناعية عن طريق مروحة أو تكييف.

١٠) أيضًا ينبغي أن تكون الإضاءة جيدة، ويُفَضَّل الإضاءة البيضاء غير المباشرة.

هذه بعض النصائح التي يمكن أن تجعل هذه البقعة في البيت معراجك إلى السماء! وما أروع أن تُصَلِّيَ فيها وأن تتدبَّر في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]..

فاللهم اجعل بيوتنا قبلة، وتقبَّل منَّا، إنك أنت العزيز الحكيم..

* * *

---

(١) البخاري: أبواب الصلاة في الثياب، باب إن صلى في ثوب مصلب أو تصاوير هل تفسد صلاته؟ وما ينهى عن ذلك، (٣٦٧).



مَنْ كان أعرف بالله كان أخوف من الله!

ومَنْ خاف من الله خشع في صلاته ودعائه واستغفاره وتسبيحه..

وهكذا حياة الملائكة!

ركوع وسجود.. ودعاء وبكاء.. واستغفار وتسبيح..

إنهم يدركون عظمة الله فليزمهم الخشوع دون تكلف..

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣]

وزعيمهم الأكبر أشدُّهم خوفًا! لأنه أعرفهم به سبحانه!

جبريل عليه السلام..

لا يلتفت هذا الخلْق الكريم إلى مكانته وقيادته وزعامته..

هو يعلم أنه رسول كريم..

هو يعلم أنه الروح الأمين..

هو يعلم أنه ذو قوة عند ذي العرش مكين..

إنه ليس قويًا فحسب بل شديد القوى!

آهٍ لو رأيتَه!!

رآه حبيبنا ﷺ في صورته الملائكية فوصف في انبهار.. فماذا قال؟!

قال: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عَلَيْهِ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، يُنْتَثَرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ: الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ»[1]..

كيف خشوع هذا الخلق المهيب؟!

يقول رسول الله ﷺ واصفًا خشوع جبريل: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى وَجِبْرِيلُ

---

(١) أحمد (٣٩١٥)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وابن حبان (٦٤٢٨)، وأبو يعلى (٥٣٦٠)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. وقال ابن كثير عن رواية أحمد: وهذا إسناد جيد قوي. انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٥١، وحسنه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٩/ ١٧٨.

كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ»[١]!!

أتدرون ما الحلس البالي؟

إنه الوسادة القديمة المترهِّلة الممزقة!

ألم أقل لكم:

من كان أعرف بالله كان أخوف من الله!

ما رأيكم أيها المؤمنون؟

ألا تحبون أن تتشبهوا بالملائكة في خشوعهم؟

لقد اختار لنا رسول الله ﷺ هيئة من هيئات الملائكة، إذا فعلناها زاد خشوعنا!

تُرى ما هذه الهيئة؟

إنها هيئة الصفوف!

صفوف المُصَلِّين الخاشعة.. وكأنها صفوف الملائكة!

يقول جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ ﷺ: قَالَ خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قَالُوا: وَكَيْفَ تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصَّفَّ الْأَوَّلَ ثُمَّ يَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»[٢].

إن هذا الملمح المنظَّم للملائكة أعجب رسول الله ﷺ، وأراد أن يتشبَّه المُصَلُّون به، فهو يُمَثِّل صورة من صور الخشوع الكامل الذي يمنع من الاضطراب والخلل.. إن المصطفِّين بأدب ونظام وخضوع يُعلنون بمظهرهم أنهم في كامل التوقير لمن يصطفُّون له؛ ولأن الملائكة يُدركون قدرة الله وقوَّته فهم يخافونه ويخشونه دون تكلُّف.. قال تعالى في وصفه لملائكته:

---

(١) الطبراني: المعجم الأوسط (٤٦٧٩)، عن جابر بن عبد الله ﷺ، وابن أبي عاصم: السنة ١/ ٢٧٦، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ١/ ٧٨، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٨٩)، وقال السيوطي: وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند صحيح. انظر: السيوطي: الدر المنثور ٥/ ٢١٦، والخصائص الكبرى ١/ ٢٦١، وزاد السيوطي في الدر المنثور: وفي لفظ لابن مردويه: «مَرَرْتُ عَلَى جِبْرِيلَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ حِلْسٌ بَالٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ». الدر المنثور ٥/ ٢١٦.

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع، (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١)، والنسائي (٨٩٠)، وابن ماجه (٩٩٢)، وأحمد (٢١٠٠١).

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]..

ولما كانت هذه الصفوف صفة خشوع، وعلامة خشية، صارت مصدرًا لفخر الملائكة، فنجدهم يقولون: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]؛ بل إنهم يذكرون صفة الاصطفاف قبل صفة التسبيح! حيث قالوا بعدها: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦].. وكأنَّ الاصطفاف يُوَضِّح هيئتهم بشكل أكبر، مع أنهم دائمو التسبيح؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، فدلَّ ذلك على أنهم دائمو الاصطفاف كذلك، ويستمرُّ هذا حتى في المواقف الرهيبة، فليس هناك يوم أكثر رهبة من يوم القيامة، وهم مع هول ذلك اليوم لا ينسون صفوفهم! قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]..

ولذلك عندما أقسم الله بملائكته أقسم بهذه الصفة المميِّزة، فقال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١].. قال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغيرهم ﷺ: هم الملائكة(١)..

لكلِّ هذا أحبَّ رسول الله ﷺ أن تكون لنا صفوف الملائكة، حتى نصل إلى خشوعها؛ بل إنه صرَّح بأن هذه الهيئة المنتظمة هي إحدى الخصال التي فُضِّلت بها أُمَّة الإسلام عن غيرها من الأمم، فقال -فيما يرويه حُذَيْفَةُ بن اليمان ﷺ-: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ. وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى»(٢). وذكر النووي ﷺ أن المذكور في هذا الحديث خصلتان فقط، فقال: «قَالَ الْعُلَمَاء: الْمَذْكُور هُنَا خَصْلَتَانِ، لِأَنَّ قَضِيَّة الْأَرْض فِي كَوْنهَا مَسْجِدًا وَطَهُورًا خَصْلَة وَاحِدَة وَأَمَّا الثَّالِثَة فَمَحْذُوفَة هُنَا، ذَكَرَهَا النَّسَائِيُّ مِنْ رِوَايَة أَبِي مَالِك الرَّاوِي هُنَا فِي مُسْلِم قَالَ: «أُوتِيت هَذِهِ الْآيَات مِنْ خَوَاتِم الْبَقَرَة مِنْ كَنْز تَحْت الْعَرْش وَلَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَد قَبْلِي وَلَا يُعْطَاهُنَّ أَحَد بَعْدِي»(٣).

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٥.

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (٥٢٢).

(٣) النووي: المنهاج ٥/ ٤، ورواية النسائي هي: «وَأُوتِيتُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ آخِرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ يُعْطَ مِنْهُ أَحَدٌ قبلي، وَلَا يُعْطَى مِنْهُ أَحَدٌ بَعْدِي». النسائي (٨٠٢٢)، وأحمد (٢٣٢٩٩) وقال الأرناءوط: إسناده=

كلُّ هذا يدفعنا إلى إحسان الانتظام في صفوف الصلاة، وهذا سيُؤدِّي بشكل مباشر إلى الخشوع في الصلاة الجماعية، ويكفي أننا نتَّبع رسول الله ﷺ في أمره، ونتشبَّه بالملائكة في هيئتها، ونعلو فوق الأمم بما فَضَّلنا ربُّنا به عليها..

والسؤال المهم: كيف نُحسن ترتيب صفوفنا؟ وكيف نجعلها على الهيئة المناسبة التي تُرضي ربنا؟

إن هذه الهيئة موصوفة بدقَّة في السُّنَّة النبوية، ويمكن أن نُجملها في النقاط الآتية:

أولاً: تسوية الصفوف:

تسوية الصفِّ تعني جعل الصف كالخط المستقيم، ليس فيه متقدِّم أو متأخِّر، وكانت هذه المسألة تشغل رسول الله ﷺ تمامًا، وكان يُنَبِّه المُصَلِّين إلى تسويتها قبل أن يُكَبِّر تكبيرة الإحرام، وله في ذلك ألفاظ كثيرة؛ فكان يقول مثلًا -كما روى أبو هريرة ﷺ-: «.. وَأَقِيمُوا الصَّفَّ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ إِقَامَةَ الصَّفِّ مِنْ حُسْنِ الصَّلَاةِ»(١). وفي رواية أنس بن مالك ﷺ قال: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ»(٢). وفي رواية أخرى لأنس بن مالك ﷺ أيضًا قال: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ»(٣).. ومن شدَّة أهمية الأمر جعل الله ﷻ له معجزة! وهي قدرته ﷺ على رؤية الصفوف التي في ظهره دون أن يلتفت إليها! فقد روى أنس بن مالك ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اسْتَوُوا اسْتَوُوا اسْتَوُوا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ خَلْفِي كَمَا أَرَاكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ»(٤).. ولم يكن رسول الله ﷺ يكتفي بالقول في هذه المسألة، بل كان يمرُّ بنفسه بين الصفوف يُسَوِّيها؛ فقد قال النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ﷺ:

=صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات. وابن حبان (١٦٩٧)، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٣/ ٢٤٣، والسلسلة الصحيحة (١٤٨٢).

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إقامة الصف من تمام الصلاة، (٦٨٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، (٤٣٥).

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، (٤٣٣)، وأبو داود (٦٦٨)، وابن ماجه (٩٩٣)، وأحمد (١٢٨٣٦).

(٣) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إقامة الصف من تمام الصلاة، (٦٩٠).

(٤) النسائي: كتاب الإمامة والجماعة، كم مرة يقول استووا؟ (٨٨٧)، وأحمد (١٣٨٦٥)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو يعلى (٣٢٩١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٩٥٥).

كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ، حَتَّى رَأَى أَنَّا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ، ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا فَقَامَ حَتَّى كَادَ يُكَبِّرُ، فَرَأَى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ مِنَ الصَّفِّ، فَقَالَ: «عِبَادَ الله لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ»[١].. فالقِدَاح هِيَ خَشَبُ السِّهَام حِينَ تُنْحَت وَتُبْرَى، ومعنى كلام النعمان ﷺ أن الرسول ﷺ كان يهتمُّ جدًّا بتسوية الصفوف حَتَّى تَصِير -كما يقول النووي ﷺ- «كَأَنَّمَا يُقَوِّمُ بِهَا السِّهَامَ لِشِدَّةِ اسْتِوَائِهَا وَاعْتِدَالِهَا»[٢]. وقد ذهب فريق من العلماء إلى «وجوب» تسوية الصفوف لأجل هذا الموقف السابق، وقال ابن عثيمين ﷺ: «وقد ذهب بعض أهل العلم إلى القول بوجوب تسوية الصفوف؛ لأن النبي ﷺ لما رأى رجلًا باديًا صدره قال: (عِبَادَ الله لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ). وهذا وعيد، ولا وعيد إلا على فعل مُحَرَّم أو ترك واجب، والقول «بوجوب» تسوية الصفوف قول قوي»[٣].

ولأجل الحرص على استواء الصفِّ -خاصَّة في المساجد التي يُصَلِّي فيها عدد كبير من الناس، وبها صفوف متعدِّدة- استحدث الناس عمل خطوط مستقيمة على السجاد؛ حتى يلتزم بها المُصَلُّون فيستقيم الصفُّ، وقد ظنَّ بعض العلماء أن هذه الخطوط بدعة وغير جائزة؛ بينما ذهب فريق آخر إلى جواز رسم هذه الخطوط، وهو الأرجح إن شاء الله، وقد سُئِلَت اللجنةُ الدائمة للإفتاء: ما حكم عمل خطٍّ على الحصير أو السجاد بالمسجد نظرًا إلى أن القبلة منحرفة قليلًا بقصد انتظام الصف؟ فأجابت: «لا بأس بذلك، وإن صَلَّوْا في مثل ذلك بلا خطٍّ فلا بأس؛ لأن الميل اليسير لا أثر له»[٤]. وسُئل الشيخ عبد الرزاق عفيفي[٥] ﷺ عن

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها، (٦٨٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، (٤٣٦)، واللفظ له.

(٢) النووي: المنهاج ٤/ ١٥٧.

(٣) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ١٣/ ٢٢ سؤال رقم (٣٧٥).

(٤) الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرزاق عفيفي: فتاوى اللجنة الدائمة ٦/ ٣٢٠، الفتوى رقم (٦٣٩١).

(٥) هو: الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية بن عبد البر بن شرف الدين النوبي (١٣٢٣-١٤١٥هـ)، ولد بمحافظة المنوفية بمصر، تعلم بالأزهر وحصل على شهادة التخصص في الفقه عام ١٣٥٥هـ سافر إلى السعودية، وعُيِّنَ مديرًا للمعهد العالي للقضاء عام ١٣٨٥هـ، وفي عام ١٣٩١هـ عُيِّنَ نائبًا لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء إلى جانب عضويته في مجلس هيئة كبار العلماء. للمزيد انظر: محمد بن أحمد سيد أحمد: الشيخ عبد الرزاق عفيفي.. حياته العلمية وجهوده الدعوية وآثاره الحميدة.



حكم رسم خطوط المساجد لتستوي الصفوف عليها؛ فأجاب: «إذا كان الناس لا تستقيم صفوفهم إلا بذلك فلا بأس، أو كان المسجد قد بُنِيَ منحرفًا عن القبلة ولا تستقيم الصفوف فيه إلا برسم خطوط فلا بأس بذلك إن شاء الله»(١). وقد فصَّل ابن عثيمين رحمه الله في هذا المسألة تفصيلًا لطيفًا مقنعًا، وأيَّد وجود هذه الخطوط لكونها تحقِّق المصلحة(٢).

ثانيًا: كيفية تسوية الصف (خاصة في حال غياب خطوط على السجاد):

فصَّل رسول الله ﷺ في ذلك الأمر، وشرح لنا الطريقة، وهي تعتمد على الإمام والمُصَلِّين جميعًا؛ فالإمام يُوَجِّه ويُنَظِّم، وكذلك المُصَلُّون يحرصون على الاستقامة، وقد قال رسول الله ﷺ -فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما-: «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ»(٣). والمنكب هو الكتف؛ فالمقصود هنا أن ينظر كلُّ مُصَلٍّ إلى مَنْ يُجاوره يمينًا ويسارًا فيجعل كتفه موازيًا لأكتافهم.. هذه نصيحة أولى، ويلحق بها أمره ﷺ في رواية أخرى لأنس بن مالك رضي الله عنه بمحاذاة الأعناق؛ حيث قال: «وَحَاذُوا بَيْنَ الْأَعْنَاقِ»(٤). فبها يتحقَّق المقصود نفسه.

---

(١) فتاوى ورسائل الشيخ عبد الرزاق عفيفي: ص٤١٢.

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «البدعة هي التعبُّد لله ﷻ بغير ما شرع؛ وعلى هذا فالبدع لا تدخل في غير العبادات، بل ما أُحدث من أمور الدنيا يُنظر فيه هل هو حلال أم حرام، ولا يُقال: إنه بدعة. فالبدعة الشرعية هي أن يتعبَّد الإنسان لله تعالى بغير ما شرع؛ يعني الذي يُسَمَّى بدعة شرعًا، وأما البدعة في الدنيا فإنها -وإن سُمِّيَتْ بدعةً حسب اللغة العربية- فإنها ليست بدعةً دينية، بمعنى أنه لا يُحكم عليها بالتحريم ولا بالتحليل ولا بالوجوب ولا بالاستحباب إلا إذا اقتضت الأدلة الشرعية ذلك؛ وعلى هذا فما أحدثه الناس اليوم من الأشياء المقربة إلى تحقيق العبادة لا نقول: إنها بدعة. وإن كانت ليست موجودة، ومن ذلك ما حدث أخيرًا في مساجدنا من الفرش التي فيها خطوط من أجل إقامة الصفوف وتسويتها فإن هذا -وإن كان حادثًا- ولكنه وسيلةٌ لأمرٍ مشروع، فيكون جائزًا أو مشروعًا لغيره، ولا يخفى على الناس ما كان الأئمة الحريصون على تسوية الصفوف يعانونه قبل هذه الخطوط، فكانوا يُعنون مشاكل إذا تقدَّم أحدٌ ثم قالوا له: تأخر. تأخَّرَ أكثر، ثم قالوا له: تقدَّم. تقدَّم أكثر، فيحصل تعب؛ أما الآن والحمد لله يقول الإمام: سووا صفوفكم على الخطوط، توسَّطُوا منها. فيحصل انضباطٌ تامٌّ في إقامة الصف؛ فهذا بدعة من حيث العمل والإيجاد، لكنه ليس بدعة من حيث الشرع؛ لأنه وسيلة لأمرٍ مطلوب شرعًا». من «فتاوى نور على الدرب». انظر الفتوى في موقع خيرية الشيخ ابن عثيمين: www.ibnothaimeen.com.

(٣) أبو داود: تفريع أبواب الصفوف، باب تسوية الصفوف (٦٦٦)، واللفظ له، وأحمد (٥٧٢٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧٠٧، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٢٤٣ (٦٧٢)، والسلسلة الصحيحة (٧٤٣).

(٤) أحمد (١٤٠٤٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وبلفظ: «وَحَاذُوا بِالأَعْنَاقِ». أبو داود (٦٦٧)، والنسائي (٨٨٩)، وأحمد (١٣٧٦١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن حبان (٦٣٣٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وقال النووي: صحيح رواه أبو داود بإسناد على شرط مسلم. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧٠٨، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٩/ ١٣٢.



أمَّا النصيحة الثانية فهي محاذاة القدم بالقدم؛ وقد صنَّف البخاري ﷺ بابًا في صحيحه سماه: «بَاب إِلْزَاقِ الْمَنْكِبِ بِالْمَنْكِبِ وَالْقَدَمِ بِالْقَدَمِ فِي الصَّفِّ». وذكر فيه قول النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ: «رَأَيْتُ الرَّجُلَ مِنَّا يُلْزِقُ كَعْبَهُ بِكَعْبِ صَاحِبِهِ»[1]. وذكر ابن حجر ﷺ في الفتح أن «الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمُبَالَغَة فِي تَعْدِيلِ الصَّفِّ وَسَدِّ خَلَلِهِ». وذكر كذلك أن المراد بالكعب في كلام النعمان ﷺ هو «الْعَظْم النَّاتِئ فِي جَانِبَيِ الرِّجْلِ -وَهُوَ عِنْدَ مُلْتَقَى السَّاقِ وَالْقَدَمِ- وَهُوَ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَلْزَقَ بِالَّذِي بِجَنْبِهِ خِلَافًا لِمَنْ ذَهَبَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَعْبِ مُؤَخَّر الْقَدَم»[2].

والنصيحة الثالثة كانت بلفظ: «.. وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ»[3]. والمقصود هنا -فيما أراه- أن يُطيع الرجل أخاه الواقف إلى جواره في التقدُّم أو التأخُّر حتى يستوي الصفُّ بسهولة، ودون جدل كثير، أو المقصود ما قاله أبو داود ﷺ؛ حيث قال تعليقًا على هذا الحديث: «وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ إِذَا جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الصَّفِّ فَذَهَبَ يَدْخُلُ فِيهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُلِينَ لَهُ كُلُّ رَجُلٍ مَنْكِبَيْهِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الصَّفِّ».

ومع أهمية هذه المساواة في الصفِّ فإنني أُحَذِّر الْمُصَلِّين من المبالغة في هذا الأمر بعد تكبيرة الإحرام وأثناء الصلاة! فبعضهم يُبالغ في هذا حتى يشغله ذلك عن الخشوع في الصلاة، وقد يظلُّ يُراقب أطراف أصابع قدمه وقدم زميله الذي يقف إلى جواره، ويجذب هذا إلى الأمام قليلًا، ويدفع آخر إلى الوراء قليلًا! وقد يُبالغ في فتح قدمه حتى يمنع وجود فرجة، وينشغل بهذه الأعمال فلا يدري آخر المطاف هل يُصَلِّي الإمام به الظهر أم العصر؟!! ورضي الله عن عبد الله بن مسعود حيث وصف أصحاب النبي ﷺ بقوله: «كانوا أبرَّ هذه

(١) ذكره البخاري تعليقًا في باب إلزاق المنكب بالمنكب والقدم بالقدم في الصف، كتاب الجماعة والإمامة، وأحمد (١٨٤٥٣)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح. وابن حبان (٢١٧٦)، وأبو داود (٦٦٢)، وقال النووي: رواه أبو داود وغيره بأسانيد حسنة، والبخاري تعليقًا مختصرًا. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ١١٤، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٤/ ٥٥.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢١١.

(٣) أبو داود: تفريع أبواب الصفوف، باب تسوية الصفوف (٦٦٦)، عن عبد الله بن عمر ﷺ، وأحمد (٥٧٢٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (٧٧٤٣)، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧٠٧، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد موثقون. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ٩١، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٢٤٣ (٦٧٢)، والسلسلة الصحيحة (٧٤٣).

الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلَّها تكلُّفًا»[١]!

ثالثًا: ديمومة الانتظام!

ذكرنا في النقطتين السابقتين أن تسوية الصفوف أمر ضروري لجلب الخشوع؛ بل إن بعض العلماء جعله أمرًا واجبًا، بمعنى أن المسلم يأثم بتركه، ولعلَّ القارئ قد لاحظ أن كل الاحتياطات للمحافظة على الصفِّ مستويًا كانت تُؤخذ «قبل» الصلاة؛ فالتنبيه من قِبَل الإمام، والمحاذاة، وضبط المناكب والأقدام، كلُّ ذلك نقوم به قبل الصلاة؛ ولكن من الممكن بعد بداية الصلاة أن يحدث خلل في تسوية الصفوف، فتصير مضطربة وغير منضبطة! فماذا نفعل لكي نحافظ على «ديمومة» الانتظام، فتظل معنا إلى آخر حركات الصلاة؟

إن اختلاف الصفِّ بعد الصلاة له -فيما أرى- ثلاث صور، وتحتاج كل صورة منها إلى تعامل مُعَيَّن حتى نتجنَّبها؛ وهذه الصور هي:

الصورة الأولى: الاختلاف في التقدُّم والتأخُّر:

فالصلاة تبدأ ونحن وقوف على خطٍّ مستقيم؛ ولكن بعد الركعة الأولى، وعندما يقوم الناس من السجود فإنهم قد يتقدَّمون قليلًا أو يتأخَّرون قليلًا في المكان، وهذا يحدث دون قصد منهم؛ ولكنه أمر وارد جدًّا؛ بل شائع، وعلاجه أن نأخذ الثواني الأولى في أول كل ركعة لضبط الصفِّ؛ وذلك عن طريق إلزاق الكعب بالكعب، والكتف بالكتف، ولا ينبغي أن يأخذ هذا منا أكثر من خمس ثوانٍ فيما أعتقد، وبعدها نخشع مع الإمام في صلاته، وكما أشرتُ في النقطة السابقة أننا ينبغي ألَّا نكون متكلِّفين في هذا الأمر، فننشغل طوال القيام بتسوية الصفِّ، فيضيع الخشوع تبعًا لذلك.

الصورة الثانية: التأخُّر في حركات الصلاة عن الإمام:

وهذا التأخُّر ليس في المكان؛ ولكنه في الزمان، كأن يركع الإمام ونحن ما زلنا قائمين، أو يرفع من الركوع بينما نُطيل ركوعنا، أو يرفع من السجود ونحن -وهذا هو الأشهر- ما زلنا في سجودنا ندعو!

إن هذه كلها صور غير مرغوبة في الصلاة، ويفعلها المُصَلِّي أحيانًا كنوعٍ من الخشوع

---

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٤٧، ورواه أبو نعيم الأصبهاني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ١/ ٣٠٦.

وإطالة التسبيح والدعاء؛ بينما الصواب أن نُتابع الإمام ولا نتأخَّر عنه، وقد روت عَائِشَةُ ﵂ أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا وَإِذَا رَفَعَ فَارْفَعُوا**»(١).. أما إذا أردت الإسهاب في الدعاء، أو الإكثار من التسبيح فاجعل ذلك في صلاتك المنفردة!

ويلحق بهذه الصورة أمر آخر؛ وهو أن التأخُّر عن الإمام قد يكون مردُّه إلى عدم سماع صوت الإمام؛ خاصَّة في الزحام الشديد، وعلاجه الاهتمام بمكبرات الصوت وحسن رعايتها، ووضع مكبر خاص للإمام على الأرض يستخدمه عند الرفع من السجود، إضافة -بالطبع- إلى المكبر الرئيسي الذي يقرأ فيه وهو قائم، وفي حال غياب المكبرات لأي سبب، أو عند انقطاع الكهرباء، فإن الحلَّ يكون في التبليغ عن الإمام، وقد ذكر سيد سابق ﵀ أن هذا التبليغ أمر مستحبٌّ إذا ضعف صوت الإمام عن الوصول إلى المأمومين، أمَّا إذا بلغ صوت الإمام الجماعة فهو حينئذٍ بدعة مكروهة باتفاق الأئمة(٢).

الصورة الثالثة: سبق الإمام في إحدى حركات الصلاة؛

وهذا خطأ فاحشٌ، ولا يعود أثره على ذهاب الخشوع فقط؛ بل قد يذهب بالصلاة كلها!!

ولنراجع معًا هذا الموقف الذي يرويه أنس بن مالك ﵁.. يقول أنس: رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَسًا فَصُرِعَ عَنْهُ، فَجُحِشَ(٣) شِقُّهُ الْأَيْمَنُ، فَصَلَّى صَلَاةً مِنَ الصَّلَوَاتِ وَهُوَ قَاعِدٌ، فَصَلَّيْنَا وَرَاءَهُ قُعُودًا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا، فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا رَفَعَ فَارْفَعُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ. وَإِذَا صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعُونَ**»(٤)..

هذا تفصيل دقيق أراد منه رسول الله ﷺ ألا يترك لأحدٍ اجتهادًا في مسابقة الإمام أبدًا، فكلُّ حركة من حركات الصلاة مرتبطة به، ونتيجة ذلك سنجد تناسقًا في الصفوف طول

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، (٦٥٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، (٤١٢).

(٢) سيد سابق: فقه السنة ١/ ٢٤٦.

(٣) جُحِشَ؛ أي: خُدِشَ. النووي: المنهاج ٤/ ١٣٢، وقال ابن حجر: وَالْخَدْشُ قَشْرُ الْجِلْدِ... وأفاد ابن حبان أن هذه القصة كانت في ذي الحجة سنة خمس من الهجرة. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ١٧٨.

(٤) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، (٦٥٧)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، (٤١١).

الصلاة، ولن نجد مَنْ ينتصب قائمًا، وإلى جواره مَنْ يهم بالسجود، وإلى جواره من الناحية الأخرى مَنْ سجد بالفعل! إلا أن الحُكم الأخير في الحديث السابق قد نُسِخ، وأعني به صلاة المأمومين جلوسًا تبعًا لجلوس الإمام، فإنه نُسِخ بعد ذلك، وأصبح لزامًا على المصلين أن يُصَلُّوا قيامًا حتى لو صلَّى إمامهم جالسًا.. وذلك لفعل رسول الله ﷺ بعد ذلك، وقال الْحُمَيْدِيُّ تعليقًا على هذا الحديث: قَوْلُهُ: «إِذَا صَلَّى جَالِسًا فَصَلُّوا جُلُوسًا». هُوَ فِي مَرَضِهِ الْقَدِيمِ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا وَالنَّاسُ خَلْفَهُ قِيَامًا، لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِالْقُعُودِ، وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ بِالْآخِرِ فَالْآخِرِ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ[١].

ولم يكتفِ رسول الله ﷺ بتحذير الناس من سبق الإمام؛ بل هدَّد وخوَّف! فقال -فيما يرويه أبو هريرة ﷺ-: «أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ -أَوْ لَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ- إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ؟!»[٢].. وفي رواية «أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ الْكَلْبِ»[٣]. ونفَّر من ذلك في موقف آخر فقال: «الَّذِي يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ قَبْلَ الْإِمَامِ إِنَّمَا نَاصِيَتُهُ بِيَدِ شَيْطَانٍ»[٤]..

ونقل ابن حجر في الفتح أقوال العلماء في صلاة الذي يسبق الإمام في إحدى الحركات، فقال: «ظَاهِرُ الحَدِيثِ يَقْتَضِي تَحْرِيمَ الرَّفْعِ قَبْلَ الْإِمَامِ لِكَوْنِهِ تَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِالْمَسْخِ وَهُوَ أَشَدُّ الْعُقُوبَاتِ وَبِذَلِكَ جَزَمَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْمُهَذَّبِ وَمَعَ الْقَوْلِ بِالتَّحْرِيمِ فَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ فَاعِلَهُ يَأْثَمُ وَتُجْزِئُ صَلَاتُهُ وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ تَبْطُلُ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ، وَأَهْلُ الظَّاهِرِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ النَّهْيَ يَقْتَضِي الْفَسَادَ وَفِي الْمُغْنِي عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ: لَيْسَ لِمَنْ سَبَقَ الْإِمَامَ صَلَاةٌ لِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ: وَلَوْ كَانَتْ لَهُ صَلَاةٌ لَرُجِيَ لَهُ الثَّوَابُ وَلَمْ يُخْشَ عَلَيْهِ الْعِقَابُ»[٥].

والسبق -من هذا المنطلق- خطير في كل حركات الصلاة، إلا أنه أخطر في موضعين:

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به، (٦٥٧).

(٢) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام، (٦٥٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما، (٤٢٧).

(٣) ابن حبان: كتاب الصلاة، باب ما يكره للمصلي وما لا يكره (٢٢٨٣)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير، (٩١٩٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير بأسانيد منها إسناد رجاله ثقات. انظر: الهيثمي: مجمع الزوائد ٢/ ٧٩.

(٤) ورد الحديث موقوفًا في الموطأ (٢٠٨)، ومرفوعًا عند الطبراني: المعجم الأوسط (٧٦٩٢)، والبزار: البحر الزخار (٩٤٠٤) واللفظ له، قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ٧٨.

(٥) ابن حجر: فتح الباري ٢/ ١٨٣.

البدء والختام! أعني تكبيرة الإحرام والسلام، وقد قال سيد سابق رحمه الله: «اتفق العلماء على أن السبق في تكبيرة الإحرام أو السلام يبطل الصلاة». وقال أيضًا: «أما المساواة فمكروهة»[١]..

لكل ذلك كان الصحابة رضي الله عنهم حريصين على عدم سبق الإمام، ولا حتى احتمال وقوعه؛ لهذا يصف الْبَرَاءُ رضي الله عنه صلاة الصحابة مع رسول الله ﷺ فيقول: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». لَمْ يَحْنِ أَحَدٌ مِنَّا ظَهْرَهُ حَتَّى يَقَعَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا، ثُمَّ نَقَعُ سُجُودًا بَعْدَهُ[٢]. وفي رواية أخرى: «حَتَّى يَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ جَبْهَتَهُ عَلَى الْأَرْضِ»[٣].

وعلاج هذا الأمر أن تتذكَّر دومًا وعيد رسول الله ﷺ، وأن تتأسَّى بالصحابة في اتباعهم لإمامهم رسول الله ﷺ، ثم لتعلم أنك لن تُسَلِّم قبل الإمام في كل الأحوال، فلماذا الاستعجال؟!

رابعًا: إتمام الصفوف:

من سمات الصفِّ الملائكي -الذي تمنَّاه لنا رسول الله ﷺ- أنه صفٌّ تامٌّ لا فرجات فيه ولا نقص! وقد مرَّت بنا هذه الأمنية في الموقف الذي رواه جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ رضي الله عنه حين قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قَالُوا: وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصَّفَّ الْأَوَّلَ ثُمَّ يَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»[٤].

إذن المطلوب للصفوف الملائكية أن تكون تامَّة في صفِّها الأول، ثم الذي بعده، وهكذا، وقد أكَّد رَسُولُ الله ﷺ هذا المعنى في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حين قَالَ ﷺ: «أَتِمُّوا الصَّفَّ الْأَوَّلَ ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، وَإِنْ كَانَ نَقْصٌ فَلْيَكُنْ فِي الصَّفِّ الْمُؤَخَّرِ»[٥].

وعلى هذا فلا ينبغي للمصلين أن يبدءوا في التراصِّ للصفِّ الثاني أو الثالث إلا إذا أتمُّوا

---

(١) سيد سابق: فقه السنة ١/ ٢٣١.

(٢) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب متى يسجد من خلف الإمام، (٦٥٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب متابعة الإمام والعمل بعده، (٤٧٤).

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب السجود على سبع أعظم، (٧٧٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب متابعة الإمام والعمل بعده، (٤٧٤).

(٤) سبق تخريجه ص٢٢٣.

(٥) أبو داود: تفريع أبواب الصفوف، باب تسوية الصفوف (٦٧١)، والنسائي (٨٩٢)، وأحمد (١٢٣٧٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد حسن. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧٠٩، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٢٤٩ (٦٧٥).

ما قبلهما، وهذا يكتسب أهمية خاصَّة في المساجد الكبرى؛ حيث يكون الصفُّ طويلًا جدًا «فيتكاسل» الناس عن الذهاب إلى آخر الصفِّ لإتمامه، ويشرعون في تكوين صفٍّ جديد! لذلك استخدم الرسول ﷺ أسلوب الترغيب والترهيب لدفع المسلمين إلى ترك هذه العادة السيئة، وهي عادة تكوين صفٍّ دون إتمام الذي قبله، فقال -في حديث عبد الله بن عمر ﷺ-: «.. وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ..» (١). والوصل من الله هنا يعني الوصل بالرحمة، والقطع يعني عكسها! ولو أن كلَّ مصلٍّ فكَّر في هذا الثواب وفي هذا العقاب ما تكاسل أبدًا عن إتمام صفٍّ؛ بل الأحرى أن الناس سيتسابقون لإتمام الصفوف سعيًا وراء صلة الله، وهربًا من قطعه.

وأحيانًا -بعد أن تبدأ الصلاة- يفرغ مكان في الصفِّ الذي أمامك لسبب أو لآخر، مثل ما يحدث في المساجد المزدحمة، أو في أيام الجمع، أو لترك أحد المُصَلِّين الصلاة لعذر ما؛ فعندها ينبغي لمن يقف في الصفِّ الثاني أن يتقدَّم خطوة ليملأ الفراغ الذي نشأ في الصفِّ الذي قبله، وبذلك تظلُّ الصفوف تامَّة؛ الأول فالأول، وقد حفَّز رسول الله المسلمين على ذلك، فقال -عن عبد الله بن عمر ﷺ-: «مَا مِنْ خُطْوَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ خُطْوَةٍ مَشَاهَا رَجُلٌ إِلَى فُرْجَةٍ فِي صَفٍّ فَسَدَّهَا»(٢).

وهذه الحركة في الصلاة لا تضرُّها، وقد تبيَّن لنا من الحديث السابق أنها مأجورة؛ بل فعلها رسول الله ﷺ بنفسه، وكذلك خليفته الصديق ﷺ؛ فقد روى سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَهَبَ إِلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمْ، فَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَجَاءَ المُؤَذِّنُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: أَتُصَلِّي لِلنَّاسِ فَأُقِيمَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ فِي الصَّلَاةِ، فَتَخَلَّصَ حَتَّى وَقَفَ فِي الصَّفِّ، فَصَفَّقَ النَّاسُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ لَا يَلْتَفِتُ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ التَّصْفِيقَ الْتَفَتَ، فَرَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنِ امْكُثْ مَكَانَكَ، فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَدَيْهِ فَحَمِدَ اللهَ عَلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ

---

(١) أبو داود: تفريع أبواب الصفوف، باب تسوية الصفوف (٦٦٦)، والنسائي (٨٩٣)، وأحمد (٥٧٢٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والحاكم (٧٧٤)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧٠٧، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٢٤٣ (٦٧٢)، والسلسلة الصحيحة (٧٤٣).

(٢) الطبراني: المعجم الأوسط (٥٢١٧)، صححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٣٣).

اسْتَأْخَرَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى اسْتَوَى فِي الصَّفِّ، وَتَقَدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَثْبُتَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا كَانَ لابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا لِي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرْتُمُ التَّصْفِيقَ؟ مَنْ رَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيُسَبِّحْ، فَإِنَّهُ إِذَا سَبَّحَ الْتُفِتَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ»[1].

في هذا الموقف رأينا حركة الرسول ﷺ من الصفِّ إلى موقف الإمام، ورأينا حركة الصديق ﷺ من موقف الإمام إلى الصفِّ، وهذا دليل قوي لجواز الحركة من صفٍّ إلى صفٍّ أثناء الصلاة.

ولعلَّه من الجميل أن نطَّلع على رؤية الرسول ﷺ للصفِّ الناقص، وأثر ذلك على الخشوع! فقد قال رسول الله ﷺ -عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ-: «.. وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ..»[2]. وقال في رواية عن أنس بن مالك ﷺ: «.. وَحَاذُوا بِالْأَعْنَاقِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرَى الشَّيَاطِينَ تَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ كَأَنَّهَا الْحَذَفُ»[3]. والحذف هي نوع من الأغنام الصغيرة السوداء[4]، ويُقسم رسول الله ﷺ -ولا يحتاج لقسم- أنه يرى الشياطين تدخل في الفرجات، وتحشر نفسها في الصفِّ، وهي على هيئة تلك الأغنام السوداء! وكيف لصفٍّ تسللت بين أفراده الشياطين أن يخشع؟!

خامسًا: المقاربة بين الصفوف:

ولا ينبغي لصفوف الصلاة أن تكون متباعدة عن بعضها البعض؛ بل يحرص المُصلُّون على جعل الصفوف متقاربة؛ وذلك لقوله ﷺ -كما روى عبد الله بن عمر ﷺ-:

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول فتأخر الآخر أو لم يتأخر، (٦٥٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تقديم الجماعة من يصلي بهم إذا تأخر الإمام ولم يخافوا مفسدة، (٤٢١).

(٢) أبو داود: تفريع أبواب الصفوف، باب تسوية الصفوف (٦٦٦)، وأحمد (٥٧٢٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧٠٧، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٢٤٣ (٦٧٢)، والسلسلة الصحيحة (٧٤٣).

(٣) أبو داود: تفريع أبواب الصفوف، باب تسوية الصفوف (٦٦٧)، وأحمد (١٣٧٦١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن حبان (٦٣٣٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وقال النووي: صحيح رواه أبو داود بإسناد على شرط مسلم. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧٠٨، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٢٤٥ (٦٧٣).

(٤) انظر: الخطابي: معالم السنن ١/ ١٨٤، وبدر الدين العيني: شرح أبي داود ٣/ ٢١٨.

«.. وَقَارِبُوا بَيْنَهَا..»[١]. أي بين الصفوف، وقال الملا علي القاري في المرقاة: «بِحَيْثُ لَا يَسَعُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ صَفٌّ آخَرَ»[٢]. وينبغي لنا أن نحرص على ذلك حتى لو كان المسجد كبيرًا والمُصَلُّون قليلين؛ فالفوائد من وراء ذلك كثيرة، فنحن أولًا نُطيع أمرًا مباشرًا لرسول الله ﷺ، فنأخذ بذلك أجر السُّنَّة، وفي الوقت نفسه نُسَهِّل على أنفسنا الانتقال من صفٍّ إلى صفٍّ لإتمامه في حال النقص المفاجئ لأحد الصفوف، وهذا سيُغلق أبواب الشياطين، كما أن المسجد سيستوعب بذلك أعدادًا أكبر، فلا يتزاحم الناس في آخر المسجد فيفقدون خشوعهم، أو يُصَلُّون في الشمس خارج المسجد، فيذهب تركيزهم تمامًا!

وانطلاقًا من هذا المبدأ فإنه إذا اشتدَّ الزحام جدًّا فينبغي التقارب الشديد بين الصفوف لاستيعاب إخوانك من المُصَلِّين، وهذا قد لا يدع لك فرصة للسجود على الأرض، فلا يَذْهبنَّ ذلك بخشوعك! فإنه يجوز لك في هذه الحالة -وأنت لا تستطيع أن تَصِلَ إلى موضع السجود- أن تسجد على ظهر المُصَلِّي الذي أمامك؛ لقول عُمَرَ بن الخطاب ﷺ -وهو يَخْطُبُ-: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَنَى هَذَا المَسْجِدَ وَنَحْنُ مَعَهُ المُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَإِذَا اشْتَدَّ الزِّحَامُ فَلْيَسْجُدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى ظَهْرِ أَخِيهِ»[٣].. وقال ابن قدامة في المغني: ومتى قدر المزحوم على السجود على ظهر إنسان أو قدمه لزمه ذلك وأجزأه... وبهذا قال الثوري وأبو حنيفة والشافعي وأبو ثور وابن المنذر[٤].

ومن الجميل أن تستحضر بعض المشاعر في مثل هذا الزحام تُساعدك على الخشوع؛ لأن الزحام الشديد قد يُضايقك فيذهب خشوعك، ومن هذه المشاعر اتباعك لسُنَّة الرسول ﷺ بالسجود على ظهر المُصَلِّي الذي أمامك في حال الزحام؛ وما في هذا الاتباع من الأجر، ومنها مشاركتك في تسهيل الأمر على إخوانك الذين لا يجدون مكانًا للصلاة، فأنت في حاجتهم،

---

(١) أبو داود: تفريع أبواب الصفوف، باب تسوية الصفوف (٦٦٧)، وأحمد (١٣٧٦١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن حبان (٦٣٣٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وقال النووي: صحيح رواه أبو داود بإسناد على شرط مسلم. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧٠٨، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٢٤٥ (٦٧٣).

(٢) العظيم آبادي: عون المعبود ٢/ ٢٥٩، والملا الهروي: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣/ ٨٥٢، والبيضاوي: تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ١/ ٣٣٨، والمناوي: فيض القدير ٤/ ٥.

(٣) أحمد (٢١٧) وقال شعيب الأرناءوط: صحيح. والبيهقي: السنن الكبرى (٥٨٣٧)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٧٠)، وصححه الألباني، انظر: تمام المنة في التعليق على فقه السنة ص٣٤١.

(٤) ابن قدامة: المغني ٢/ ٢٣٢، ٢٣٣.

والله ﷻ سيكون حتمًا في حاجتك لقول رسول الله ﷺ -فيما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ-: «.. وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ..»(١). ومنها الشعور بالفرح لكثرة العابدين، ومنها الشعور بالعزَّة لكثرة المسلمين، وغير ذلك من مشاعر إيجابية تصرف عنك شعور الضيق، وتجلب لك روح الخشوع.

سادسًا: من أين يبدأ تكوين الصف، وكيف نكمله؟

إذا كان مع الإمام جماعة أقلّ من صفٍّ وسَّطوا الإمام أمامهم؛ أي جعلوه في وسط الصفِّ، فحيث يكون المُصَلُّون في اليمين والشمال متساوين تقريبًا، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «وَسِّطُوا الْإِمَامَ وَسُدُّوا الْخَلَلَ»(٢).

فإذا جاء بعد ذلك مصلٍّ آخر أتمَّ الصفَّ من جهة الميمنة؛ لقوله ﷺ -برواية عائشة ﷺ-: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِنِ الصُّفُوفِ»(٣). ولقول البراء بن عازب ﷺ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ أَحْبَبْنَا أَنْ نَكُونَ عَنْ يَمِينِهِ، يُقْبِلُ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ -أَوْ تَجْمَعُ- عِبَادَكَ»(٤).. ولهذا قال الغزالي ﷺ: «ينبغي لداخل المسجد أن يقصد ميمنة الصفِّ فإنها يمن وبركة، وإن الله تعالى يُصَلِّي على أهلها»(٥). فإذا جاء مُصَلٍّ فوجد الناس في اليمين أكثر فليأخذ جهة الشمال ليظلَّ الإمام متوسِّطًا الصف، ولا يُحزنْه ذلك؛ لأنه سيأخذ بإذن الله أجر تطبيق سُنَّة توسيط الإمام.

وعلى هذا سيبدأ تكوين كلِّ صفٍّ -حتى لو كان الصفَّ الأخير في مسجد كبير- من

---

(١) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (١٤٢٥)، والنسائي (٧٢٨٤)، وابن ماجه (٢٢٥)، وأحمد (٧٤٢١).

(٢) أبو داود: تفريع أبواب الصفوف، باب مقام الإمام من الصف (٦٨١) وحسنه السيوطي، انظر: الجامع الصغير (٩٦٢٠).

(٣) أبو داود: تفريع أبواب الصفوف، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف وكراهية التأخر (٦٧٦)، وابن ماجه (١٠٠٥)، وابن حبان (٢١٦٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد على شرط مسلم، وفيه رجل مختلف فيه، وصححه أبو القاسم الطبراني، وأشار البيهقي إلى تضعيفه. والمختار تصحيحه فلم يُذكر ما يقتضي ضعفًا. انظر: النووي: خلاصة الأحكام ٢/ ٧١٠، وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٢٥٥ (٦٨٠).

(٤) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب يمين الإمام، (٧٠٩)، واللفظ له، وأبو داود (٦١٥)، والنسائي (٨٩٦)، وابن ماجه (١٠٠٦)، وأحمد (١٨٧٣٣).

(٥) انظر: المناوي: فيض القدير ٢/ ٢٧٠.

الوسط، ثم اليمين فالشمال، وهكذا..

وإذا صلَّى رجلٌ واحد مع الإمام فلْيَقُمْ عن يمين الإمام؛ وذلك لما رواه ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَنِي الْعَبَّاسُ رضي الله عنه إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ فِي بَيْتِ خَالَتِي مَيْمُونَةَ(١) رضي الله عنها فَبِتُّ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَقَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَتَنَاوَلَنِي مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ فَجَعَلَنِي عَلَى يَمِينِهِ(٢).

سابعًا: صلاة المنفرد خلف الصفِّ:

نرى أحيانًا في بعض الصلوات مصلِّيًا يُصَلِّي بمفرده خلف الصفِّ! فما حكم هذه الصلاة التي اختلَّت فيها فكرة الاصطفاف التي تقوم عليها صلاة الجماعة؟

إن موقف هذا المنفرد خلف الصفِّ يحتمل حالة من اثنتين:

أمَّا الحالة الأولى فهي أن يكون في الصفِّ مكان يسعه؛ وهذا قد اختلف أهل العلم في صحَّة صلاته؛ قال الإمام الترمذي رحمه الله: «كَرِهَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ خَلْفَ الصَّفِّ وَحْدَهُ، وَقَالُوا: يُعِيدُ إِذَا صَلَّى خَلْفَ الصَّفِّ وَحْدَهُ. وَبِهِ يَقُولُ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ». ثم حكاه -أيضًا- عن حَمَّادِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ وَابْنِ أَبِي لَيْلَى وَوَكِيعٌ. ثم قال: «وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: يُجْزِئُهُ إِذَا صَلَّى خَلْفَ الصَّفِّ وَحْدَهُ. وَهُوَ قَوْلُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَابْنِ الْمُبَارَكِ وَالشَّافِعِيِّ»(٣).

والراجح في ذلك ما ذهب إليه الإمام أحمد وغيره من أهل العلم، من أنه لا يجوز للمنفرد أن يُصَلِّيَ خلف الصفِّ، إذا أمكنه الدخول فيه، وأنه إذا فعل ذلك بطلت صلاته، ووجب عليه الإعادة. وقد دلَّ على ذلك ما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما من أَنَّ رَجُلًا صَلَّى خَلْفَ

---

(١) ميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، وهي أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب لأبيها وأمها، وأخت أسماء بنت عميس لأمها، وقيل اسمها: برة. فسماها النبي ﷺ ميمونة، وتزوَّجها في عمرة القضاء في ذي القعدة بسرف سنة ٧هـ، وماتت بها ودفنت سنة ٥١هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤/ ١٩١٤-١٩١٨، وابن الأثير: أسد الغابة ٧/ ٢٦٢، وابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٣٢٢-٣٢٤.

(٢) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إذا قام الرجل عن يسار الإمام فحوله الإمام إلى يمينه لم تفسد، (٦٦٦)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٧٦٣)، واللفظ له.

(٣) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة خلف الصف وحده (٢٣٠).

الصَّفِّ وَحْدَهُ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُعِيدَ الصَّلاةَ[١]. وقال المباركفوري ؒ: فِيهِ دَلالَةٌ عَلَى أَنَّ الصَّلاةَ خَلْفَ الصَّفِّ وَحْدَهُ لا تَصِحُّ، وَأَنَّ مَنْ صَلَّى خَلْفَ الصَّفِّ وَحْدَهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يُعِيدَ الصَّلاةَ[٢]. ودلَّ على ذلك -أيضًا- ما رواه أحمد وابن ماجه من أن عَلِيَّ بْنَ شَيْبَانَ ؓ قَالَ: خَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ وَصَلَّيْنَا خَلْفَهُ، ثُمَّ صَلَّيْنَا وَرَاءَهُ صَلاةً أُخْرَى، فَقَضَى الصَّلاةَ فَرَأَى رَجُلًا فَرْدًا يُصَلِّي خَلْفَ الصَّفِّ، قَالَ: فَوَقَفَ عَلَيْهِ نَبِيُّ الله ﷺ حِينَ انْصَرَفَ، قَالَ: «اسْتَقْبِلْ صَلاتَكَ لَا صَلاةَ لِلَّذِي خَلْفَ الصَّفِّ»[٣]. وقال السندي ؒ في حاشيته على ابن ماجه: ظَاهِر الْحَدِيث بُطْلان صَلاة مَنْ يَفْعَلُ كَذَلِكَ[٤]. ونقل الصنعاني تعليق البيهقي على الأمر: الاختيار (الذي يراه من الجواز أو عدمه) أن يُتَوَقَّى ذلك لثبوت الخبر المذكور[٥]. وهذا ما ننصح به قرَّاء الكتاب، وهو أن يخرجوا من هذا الخلاف بتجنُّب الصلاة منفردين خلف الصفِّ ما دام هناك مكان في الصفِّ الأخير، أو أحد الصفوف قبله. هذه هي الحالة الأولى.

أما الحالة الثانية فهي أن يدخل المُصَلِّي المسجد فيجد أن الصفوف كلها تامَّة، وليس له القدرة على الانخراط فيها، وهذا -أيضًا- قد اختلف العلماء فيما يفعله على قولين: أمَّا الأول فقال: يُصَلِّي خلف الصفِّ منفردًا تبعًا للإمام؛ لأنه معذوراً ولا واجب مع العجز، وممن قال بهذا القول ابن عثيمين ؒ[٦]. وأما القول الثاني: فهو أن يجذب واحدًا من الصفِّ الأخير

---

(١) http://www.dorar.net/mhd/311 الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة خلف الصف وحده (٢٣٠)، وقال: حديث حسن. وأبو داود (٦٨٢)، وابن ماجه (١٠٠٤)، وأحمد (١٨٠٣١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ١/ ١٢٢، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٢٦٠ (٦٨٣).

(٢) المباركفوري: تحفة الأحوذي ٢/ ٢٠.

(٣) ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب صلاة الرجل خلف الصف وحده (١٠٠٣)، وأحمد (١٦٣٤٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات. وابن حبان (٢٢٠٢)، وقال النووي: رواه الإمام، وابن ماجه بإسناد حسن. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧١٨، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. انظر: مصباح الزجاجة ١/ ١٢٢، وقال الشوكاني: رَوَى الأَثْرَمُ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ: حَدِيث حَسَن. قَالَ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ: رُوَاته ثِقَات مَعْرُوفُونَ. انظر: الشوكاني: نيل الأوطار ٣/ ٢٢٠، وصححه الألباني، انظر: صحيح ابن ماجه ١/ ٢٩٩ (٨٢٩).

(٤) حاشية السندي على سنن ابن ماجه ١/ ٣١٥.

(٥) انظر: الصنعاني: سبل السلام ١/ ٣٧٨.

(٦) فتاوى ابن عثيمين: ١٥/ ١٩٣ سؤال رقم (١٠٤٨).



لكي يقف معه ليُكَوِّنا صفًّا جديدًا؛ ولكن عليه أن يُكبِّر تكبيرة الإحرام قبل أن يجذبه، ويستحب هنا للمجذوب موافقته[١]. والأقرب أن الأدعى للخشوع هو ألا يجذب أحدًا؛ بل يُصَلِّي منفردًا ما دام مضطرًّا؛ وذلك لأمور ذكر منها أبو الطيب الطبري رحمه الله: «أَنَّه لَوْ جَذَبَ إِلَى نَفْسِهِ وَاحِدًا لَفَوَّتَ عَلَيْهِ فَضِيلَةَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَلَأَوْقَعَ الْخَلَلَ فِي الصَّفِّ»[٢]. ولهذا اسْتَقْبَحَ ذَلِكَ الجذب أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ، وَكَرِهَهُ الْأَوْزَاعِيُّ وَمَالِكٌ، وأمَّا القائلون بالجواز فقد اسْتَدَلُّوا بأحاديث لا يرقى أحدها إلى الصحَّة[٣]، والله أعلم[٤].

ثامنًا: مَنْ يقف في الصفِّ الأول؟

في المعتاد أن مَن يأتي أولًا، و«يحجز» مكانًا في الصفِّ الأول، فإنه يُصَلِّي فيه! هذا أمر طبيعي لأننا مأمورون بالتنافس على الصفِّ الأول؛ فقد روى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا..»[٥]. وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْمُقَدَّمِ»[٦].. فهذه توجيهات نبوية تدفع الحريصين من المُصَلِّين إلى الذهاب مبكِّرًا للصلاة في الصفِّ الأول.

ومع ذلك فهناك توجيه نبوي آخر يحدِّد ترتيبًا معيَّنًا للصفِّ؛ وذلك في حالة وجود عدد

---

(١) سيد سابق: فقه السنة ١/ ٢٤٣.

(٢) انظر: الشوكاني: نيل الأوطار ٣/ ٢٢٢، والمباركفوري: تحفة الأحوذي ٢/ ٢٣.

(٣) http://www.dorar.net/mhd/311 الْقَائِلُونَ بِالْجَوَازِ بِمَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَالْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ وَابِصَةَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ صَلَّى خَلْفَ الصَّفِّ: «أَيُّهَا الْمُصَلِّي هَلَّا دَخَلْت فِي الصَّفِّ أَوْ جَرَرْت رَجُلًا مِنَ الصَّفِّ أَعِدْ صَلَاتَك». وَفِيهِ السَّرِيُّ بْنُ إسْمَاعِيلَ وَهُوَ مَتْرُوكٌ، وَلَهُ طَرِيقٌ أُخْرَى فِي تَارِيخِ أَصْبَهَانَ لِأَبِي نُعَيْمٍ وَفِيهَا قَيْسُ بْنُ الرَّبِيعِ وَفِيهِ ضَعْفًا ولِأَبِي دَاوُدَ فِي الْمَرَاسِيلِ مِنْ رِوَايَةِ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ مَرْفُوعًا: إنْ جَاءَ رَجُلٌ فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا فَلْيَخْتَلِجْ إلَيْهِ رَجُلًا مِنَ الصَّفِّ فَلْيَقُمْ مَعَهُ، فَمَا أَعْظَمَ أَجْرَ الْمُخْتَلِجِ. وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِسْنَادٍ قَالَ الْحَافِظُ: وَاهٍ. بِلَفْظِ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ الْآتِيَ وَقَدْ تَمَّتِ الصُّفُوفُ أَنْ يَجْتَذِبَ إلَيْهِ رَجُلًا يُقِيمُهُ إلَى جَنْبِهِ. انظر: الشوكاني: نيل الأوطار ٣/ ٢٢٢.

(٤) للمزيد عن صلاة المنفرد خلف الصف انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٥٣، ٣٩٢، ٣٩٣، وسيد سابق: فقه السنة ١/ ٢٤٣، وحسين بن عودة العوايشة: الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة ٢/ ٢٤٣، ٢٤٤، وأبو مالك كمال بن السيد سالم: صحيح فقه السنة وأدلته وتوضيح مذاهب الأئمة ١/ ٥٣٧، والموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ١٨٣ - ١٨٦.

(٥) سبق تخريجه ص١٣٦.

(٦) النسائي: كتاب الأذان، رفع الصوت بالأذان (٦١٠)، وأحمد (١٨٥٢٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي ١/ ٢١٤ (٦٤٥).

كبير من المُصَلِّين أكثر من الصفِّ الأول؛ فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» (ثَلَاثًا)، «وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ»[1]..

والمُرَادُ بِأُولِي الْأَحْلَامِ الْبَالِغُونَ وَبِأُولِي النُّهَى الْعُقَلَاءُ؛ والحكمة في تقديم هؤلاء ليأخذوا عن الإمام، ويقوموا بتنبيهه إذا أخطأ، ويستخلف منهم على الصلاة إذا احتاج إلى استخلاف.

وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ أَيِ اخْتِلَاطَهَا وَالمُنَازَعَةَ وَالْخُصُومَاتِ وَارْتِفَاعَ الْأَصْوَاتِ وَاللَّغَطَ.. والمعنى أنه ينهاهم حين يأتون للصلاة أن يفعلوا أعمال السوق من ارتفاع الصوت، كما ينهاهم عن الاختلاط؛ بمعنى أن يقفوا في الصفِّ غير مراعين لمقام الكبير والصغير كما يحدث في السوق، إضافة إلى أن هيشات الأسواق تشمل المنازعة والخصومات، وهو أمر من الأمور المشتهرة في الأسواق، وقد تحدث هذه المنازعة عندما يتقدم رجل كبير أو حافظ للقرآن ليأخذ مكان طفل صغير في الصفِّ الأول، وكل هذا مشمول في لفظة «هيشات»، فسبحان الله الذي آتى رسولَ الله ﷺ جوامع الكلم!

ومن أكثر المواقف المؤثرة في التاريخ، التي تثبت أهمية هذه القاعدة في ترتيب الصفِّ، التي تُبيِّن مدى حرص الصحابة ﷺ على اتباع السُّنَّة، ومدى اهتمامهم بالصلاة عمومًا، وبصلاة الجماعة على وجه الخصوص، ما حدث عند طعن عمر بن الخطاب ﷺ وهو يُصَلِّي بالمسلمين!

فعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ ﷺ قَالَ: «.. إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ -أي ما بينه وعمر بن الخطاب ﷺ- إِلَّا عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ ﷺ غَدَاةَ أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ قَالَ: اسْتَوُوا. حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ أَوِ النَّحْلَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى، حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَنِي أَوْ أَكَلَنِي الْكَلْبُ. حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ الْعِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ لَا يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا طَعَنَهُ، حَتَّى طَعَنَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنُسًا، فَلَمَّا ظَنَّ الْعِلْجُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ نَحَرَ نَفْسَهُ، وَتَنَاوَلَ عُمَرُ يَدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَقَدَّمَهُ، فَمَنْ يَلِي

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، (٤٣٢).

عُمَرَ فَقَدْ رَأَى الَّذِي أَرَى، وَأَمَّا نَوَاحِي المَسْجِدِ فَإِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ وَهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَ الله سُبْحَانَ الله. فَصَلَّى بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَلَاةً خَفِيفَةً..»[1].

الله أكبر على هذا الموقف!

هذا عمر بن الخطاب ﷺ أمير المؤمنين، ورأس الدولة الإسلامية العظمى، يُطعَن أثناء الصلاة، ويتركه المجرم ويطير في أرجاء المسجد يطعن مسلمين آخرين ويقتلهم، حتى قُتِل في لحظات قليلة سبعة من الرجال، وأصيب ستة آخرون، حتى تمكَّن منه رجل من المسلمين ألقى عليه ثيابًا قيَّدت حركته، فقتَلَ المجرمُ نفسَه!

هذه الأحداث الجسام، وهذا الهرج والقتل، وهذه المفاجآت والكوارث، كل ذلك لم يصرف عمر ﷺ، ولا المسلمين، عن صلاتهم! فإذا بعمر ﷺ، وقد وهن من الطعنة وخارت قواه، لا يترك الصلاة هكذا دون أن يستخلف رجلًا من أولي النهى ممن يلونه في الصفِّ الأول، وهو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف ﷺ، فيصلي بالناس، وعمر على الأرض ينزف! لذا يُصَلِّي صلاة خفيفة، ثم بعدها ينقلون رأس الدولة إلى بيته!!

إنني لم أستوعب الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، إلا بعد أن شاهدت هذا الموقف! فأدركتُ أن مسألة الصلاة لم تكن مجرَّد أحد الأعمال الصالحة التي يحرص عليها المؤمنون؛ ولكنها في الواقع غاية كبرى من غايات التمكين؛ بل تأتي على رأس أولويات الدولة الإسلامية الممكَّنة.

تاسعًا: موقف الصبيان والنساء من الرجال:

وردت بعض النصوص في السُّنَّة النبوية -وإن كان فيها ضعف- تُوضِّح مكان الصبيان غير البالغين والنساء، فعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ «.. كَانَ يَجْعَلُ الرِّجَالَ قُدَّامَ الْغِلْمَانِ، وَالْغِلْمَانَ خَلْفَهُمْ، وَالنِّسَاءَ خَلْفَ الْغِلْمَانِ..»[2]. فهذه ثلاث مجموعات متتالية:

---

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان ﷺ، (٣٤٩٧).

(٢) أحمد (٢٢٩٦٢)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب. وبلفظ: «فَأَذَّنَ فَصَفَّ الرِّجَالَ فِي أَدْنَى الصَّفِّ، وَصَفَّ الْوِلْدَانَ خَلْفَهُمْ، وَصَفَّ النِّسَاءَ خَلْفَ الْوِلْدَانِ، ثُمَّ أَقَامَ الصَّلَاةَ». أحمد (٢٢٩٥٧)، وذكر الهيثمي أحاديث منها هذا الحديث عن أحمد وقال: رواها كلها أحمد، وروى الطبراني بعضها في الكبير في طرقها كلها شهر بن حوشب وفيه كلام وهو ثقة إن شاء الله. انظر: مجمع الزوائد ومنبع =

مجموعة صفوف الرجال، ثم مجموعة صفوف الغلمان، وأخيرًا مجموعة صفوف النساء.

«وإذا كانت هناك امرأة واحدة خلف الرجال فإنها تصلي بمفردها في صفٍّ خاص بها؛ وهذا هو المشروع في حقِّها، أما إذا كانت المرأة مع نساء فإن صلاتها وحدها خلف الصفِّ لا تصح»(١).

وينبغي التنبيه على مراعاة مشاعر الأطفال إذا تمَّ تأخيرهم عن صفوف الرجال(٢)؛ حتى لا يُؤَدِّيَ ذلك إلى نفورهم من المسجد، خاصة وأن الأحاديث التي ذكرت تأخيرهم فيها شيء من الضعف كما تبيَّن من تخريجها، وأنا أرى أنه من الأَوْلَى أن يبقى الأطفال -وخاصة المميِّزين منهم- في الصفوف الأُولى تعليمًا لهم، وتحفيزًا لهم كذلك على الإسراع إلى المسجد والفوز بالأماكن المتقدِّمة، كما أن هذا سيسمح بمجاورة الأب لأبنائه الصغار في الصَّفِّ، وهذا سيكون أفضل في مراعاة أدبهم واحترامهم للجماعة، والله أعلم.

عاشرًا: كراهية الصلاة بين أعمدة المسجد:

من تمام الصفوف وحُسن تسويتها أن تكون متَّصلة دون انقطاع؛ ولذلك حرص الصحابة ﷺ، ومِنْ بعدهم التابعون رحمهم الله، على تجنُّب الصلاة بين أعمدة المسجد -

---

=الفوائد ٢/ ١٣٠، وفي رواية أبي داود عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «فَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَفَّ الرِّجَالَ وَصَفَّ خَلْفَهُمُ الْغِلْمَانَ، ثُمَّ صَلَّى بِهِمْ، فَذَكَرَ صَلَاتَهُ». أبو داود (٦٧٧)، والبيهقي: السنن الكبرى (٥١٦٥)، وقال النووي: رواه أبو داود، والبيهقي بإسناد حسن. انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧١٤، وقال الألباني: رواه أحمد وأبو داود... وإسنادهما ضعيف فيه شهر وهو ضعيف كما سبق غير مرَّة، وفي صفِّ النساء لوحدهم وراء الرجال أحاديث صحيحة، وأما جعل الصبيان وراءهم فلم أجد فيه سوى هذا الحديث، ولا تقوم به حجة، فلا أرى بأسًا من وقوف الصبيان مع الرجال إذا كان في الصفِّ مُتَّسع، وصلاة اليتيم مع أنس وراءه ﷺ حجة في ذلك. انظر: تمام المنة في التعليق على فقه السنة ص٢٨٤.

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين ١٣/ ٣٩، فتوى رقم (٤٠٢).

(٢) ذكرنا قول الألباني: فلا أرى بأسًا من وقوف الصبيان مع الرجال إذا كان في الصفِّ متسع، وصلاة اليتيم مع أنس وراءه ﷺ حجة في ذلك. انظر: تمام المنة في التعليق على فقه السنة ص٢٨٤، وقال التويجري: إذا اجتمع رجال وصبيان ونساء فالسُّنَّة عند الصلاة أن يُصَلُّوا جماعة، ويكون الرجال والصبيان خلف الإمام، والنساء خلفهم. وإن سبق الصبيان إلى مكان فهم أحقُّ به من غيرهم. انظر: التويجري: موسوعة الفقه الإسلامي ٢/ ٤٩٣، وفي الموسوعة الفقهية الكويتية: ولو اجتمع الرجال والنساء والصبيان والصبيات المراهقات وأرادوا أن يصطفوا للجماعة وقف الرجال في صفٍّ أو صَفَّيْنِ أو صفوف مما يلي الإمام، ثم الصبيان بعدهم، وفي وجه عند الشافعية يقف بين كل رجلين صبي ليتعلَّم أفعال الصلاة. ثم يقف النساء، ولا فرق عند المالكية والشافعية بين الكبيرة والصبية المراهقة. أمَّا الحنفية والحنابلة فيرون أن الصبيات المراهقات يقفن وراء النساء الكبيرات. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ٣٧.

وكانت تُعرف في زمانهم بالسواري- ابتغاء اكتمال الصفِّ وعدم انقطاعه، ولهذا يقول عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ مَحْمُودٍ رحمه الله -وهو أحد التابعين من أهل البصرة-: صَلَّيْنَا خَلْفَ أَمِيرٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ فَاضْطَرَّنَا النَّاسُ(١)، فَصَلَّيْنَا بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَلَمَّا صَلَّيْنَا قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «كُنَّا نَتَّقِي هَذَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ»(٢). وقد أكَّد قرة بن إياس رضي الله عنه على هذا المعنى فقال: «كُنَّا نُنْهَى أَنْ نَصُفَّ بَيْنَ السَّوَارِي وَنُطْرَدُ عَنْهَا طَرْدًا»(٣). وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كُنَّا نُنْهَى عَنِ الصَّلاةِ بَيْنَ السَّوَارِي وَنُطْرَدُ عَنْهَا طَرْدًا»(٤). وقال الشوكاني(٥): «.. وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي سُنَنِهِ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَحُذَيْفَةَ رضي الله عنهم، وَقَالَ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ: وَلَا يُعْرَفُ لَهُمْ مُخَالِفٌ فِي الصَّحَابَةِ»(٦).

وقد فرَّق العلماء بين صلاة الإمام أو المنفرد من جهة، وصلاة المأمومين من جهة أخرى..

أما الإمام أو المنفرد فقد جوَّز العلماء صلاتهم بين الأعمدة لما رواه البخاري عن مُجَاهِدٍ رحمه الله قَالَ: «أُتِيَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما فَقِيلَ لَهُ: هَذَا رَسُولُ الله ﷺ دَخَلَ الْكَعْبَةَ. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: فَأَقْبَلْتُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ خَرَجَ، وَأَجِدُ بِلَالًا قَائِمًا بَيْنَ الْبَابَيْنِ، فَسَأَلْتُ بِلَالًا فَقُلْتُ: أَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ فِي الْكَعْبَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، رَكْعَتَيْنِ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ عَلَى يَسَارِهِ إِذَا دَخَلْتَ، ثُمَّ

---

(١) بسبب الزحام.

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب الصفوف بين السواري (٦٧٣)، والترمذي (٢٢٩)، وقال: حديث حسن. والنسائي (٨٩٥)، وأحمد (١٢٣٦١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٢٥١ (٦٧٧).

(٣) ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الصلاة بين السواري في الصف (١٠٠٢)، وابن حبان (٢٢١٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والحاكم (٧٩٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٢٩٨ (٨٢٨).

(٤) ابن حبان: كتاب الصلاة، باب فرض متابعة الإمام (٢٢١٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والحاكم (٧٩٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وابن خزيمة (١٥٦٧)، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٤/ ٧٦.

(٥) هو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ = ١٧٦٠ - ١٨٣٤م)، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، ولي قضاء صنعاء ومات حاكمًا بها، تفقَّه على مذهب الإمام زيد، وعقيدته عقيدة أهل السنة والجماعة، من مؤلفاته: تفسير فتح القدير، ونيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، والتحف بمذهب السلف، كتب الشوكاني لنفسه ترجمة في كتابه: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٢/ ٢٢٤، وانظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٩٨. ومحمد سالم محيسن: معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ ٢/ ٣٧٩.

(٦) انظر: الشوكاني: نيل الأوطار ٣/ ٢٢٩.

خَرَجَ فَصَلَّى فِي وَجْهِ الْكَعْبَةِ رَكْعَتَيْنِ»[١].. وقد بوب البخاري في صحيحه باب «الصلاة بين السواري في غير جماعة»، وقال الحافظ ابن حجر تعليقًا على ذلك: قوله: «باب الصلاة بين السواري في غير جماعة» إنما قيدها بغير الجماعة لأن ذلك يقطع الصفوف، وتسوية الصفوف في الجماعة مطلوب[٢].

أمَّا صلاة المأمومين بين السواري فمكروهة لما ذكرناه من كلام أنس بن مالك وقرة بن إياس رضي الله عنهما.

وقال ابن قدامة رحمه الله: ولا يُكره للإمام أن يقف بين السواري، ويُكره للمأمومين؛ لأنها تقطع صفوفهم، وكرهه ابن مسعود والنخعي، وروي عن حذيفة وابن عباس، ورخَّص فيه ابن سيرين ومالك وأصحاب الرأي وابن المنذر؛ لأنه لا دليل على المنع منه[٣].

ومع ذلك فهذه الكراهية لا تكون إلا عند وجود فسحة في المسجد لإقامة صفٍّ متَّصل، ثم الإعراض عن ذلك والصلاة بين الأعمدة! أما إذا كان المسجد ضيقًا، أو الزحام شديدًا؛ فإنه لا ريب أن الحاجة تُبيح عندئذٍ الصلاة بين الأعمدة.. وقد قال مالك في «المدونة»: «لَا بَأْسَ بِالصُّفُوفِ بَيْنَ الْأَسَاطِينِ -أي بين الأعمدة- إِذَا ضَاقَ الْمَسْجِدُ»[٤]. وقال ابن حبيب: «ليس النهي عن تقطيع الصفوف إذا ضاق المسجد، وإنما نهى عنه إذا كان المسجد واسعًا»[٥].

وقد سُئل ابن عثيمين رحمه الله عن حكم الصلاة بين الأعمدة والسواري، فأجاب: إذا كان لحاجة فلا بأس، وإن لم يكن لحاجة فإنه مكروه؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتقون ذلك[٦].

كانت هذه هي **السمة العاشرة** من سمات الصفِّ الخاشع الذي يحرص المُصَلُّون فيه على اتباع السُّنَّة، فتلك عشر كاملة!

وإذا حرص المؤمنون على صورة الصفِّ على هذا المنهج النبوي فإنهم يُعطَون جائزة من الله عز وجل على هذا الانتظام، فضلًا عن الخشوع، ألا وهي الألفة بين القلوب واتحادها! فقد

---

(١) البخاري: أبواب القبلة، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، (٣٨٨).
(٢) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٥٧٨.
(٣) ابن قدامة: المغني ٢/ ١٦١.
(٤) انظر: المدونة ١/ ١٩٥.
(٥) ابن بطال: شرح صحيح البخاري ٢/ ١٣٤، وبدر الدين العيني: عمدة القاري ٤/ ٢٨٦.
(٦) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١٣/ ٣٣ السؤال رقم (٣٨٩).

حكى لنا أبو مسعود الأنصاري ﷺ موقفًا رقيقًا حانيًا لرسول الله ﷺ يُوَضِّح هذا الأمر فقال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا[1] فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: «اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ»[2]! فما أرقَّه ﷺ وهو يمرُّ بين الصفوف يمسح أكتاف المُصلِّين بيده الشريفة، ويأمرهم بالاستواء؛ لأن الاختلاف في المظهر قد يقود إلى اختلاف في المخبر، فصورته مكروهة إذًا في كل الأحوال.

ولأجل هذه الفوائد العظيمة حرص المسلمون على تسوية صفوفهم وانتظامها مهما صعبت الظروف، أو تعقَّدت الأمور، ولنستمتع معًا برواية جابر بن عبد الله ﷺ حيث قال: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قَوْمًا مِنْ جُهَيْنَةَ، فَقَاتَلُونَا قِتَالًا شَدِيدًا، فَلَمَّا صَلَّيْنَا الظُّهْرَ قَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ مِلْنَا عَلَيْهِمْ مَيْلَةً لَاقْتَطَعْنَاهُمْ. فَأَخْبَرَ جِبْرِيلُ رَسُولَ الله ﷺ ذَلِكَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ: وَقَالُوا: إِنَّهُ سَتَأْتِيهِمْ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْلَادِ. فَلَمَّا حَضَرَتِ الْعَصْرُ، قَالَ: صَفَّنَا صَفَّيْنِ، وَالْمُشْرِكُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، قَالَ: فَكَبَّرَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَبَّرْنَا، وَرَكَعَ فَرَكَعْنَا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ مَعَهُ الصَّفُّ الْأَوَّلُ، فَلَمَّا قَامُوا سَجَدَ الصَّفُّ الثَّانِي، ثُمَّ تَأَخَّرَ الصَّفُّ الْأَوَّلُ وَتَقَدَّمَ الصَّفُّ الثَّانِي، فَقَامُوا مَقَامَ الْأَوَّلِ، فَكَبَّرَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَبَّرْنَا، وَرَكَعَ فَرَكَعْنَا، ثُمَّ سَجَدَ مَعَهُ الصَّفُّ الْأَوَّلُ وَقَامَ الثَّانِي، فَلَمَّا سَجَدَ الصَّفُّ الثَّانِي ثُمَّ جَلَسُوا جَمِيعًا سَلَّمَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ[3].

فها هي أشدُّ الظروف التي يمكن أن يقابلها إنسان أو أمَّة! إنها حالة حرب حقيقية، وقد أُخبروا أن العدوَّ سيهجم عليهم أثناء الصلاة، فلم يمنعهم هذا من ترتيب الصفوف، والصلاة بهذه الكيفية الخاصة؛ وهي صلاة الخوف، وقد حافظوا فيها على هيئتهم المتناسقة، فكانوا حقًّا ملائكيين في طاعتهم وصلاتهم وتسبيحهم!

وحيث إننا عدنا إلى ذكر الملائكة فإنني أُفضِّل أن أُنهيَ هذا الفصل بحديث صحيح يظهر فيه خشوع الملائكة، عسى أن نقدر لله قدره، فنخشع له كما خشع هذا الخلق العجيب!

---

(١) يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا؛ أَيْ يُسَوِّي مَنَاكِبَنَا فِي الصُّفُوفِ وَيَعْدِلُنَا فِيهَا. النووي: المنهاج ٤/ ١٥٥، والمناكِب جمع مَنْكِب؛ وهو مُجتَمَعُ رأس العَضُد والكَتِف. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٩٥٠.

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، (٤٣٢)، والنسائي (٨٨٦)، وأحمد (١٧١٤٣).

(٣) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف، (٨٤٠).

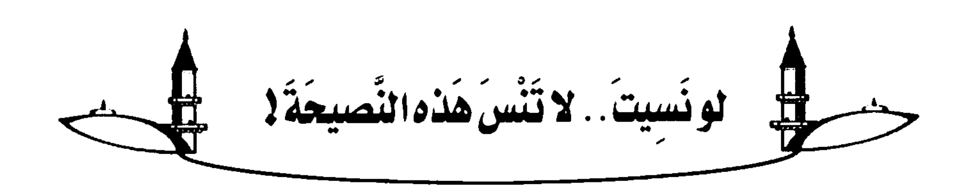
قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَعَلَى قَرْنِهِ الْعَرْشُ، وَبَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ خَفَقَانُ الطَّيْرِ سَبْعمِائَةِ سَنَةٍ، يَقُولُ الْمَلَكُ: سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ»(١)!

فاللهم ارزقنا خشوعًا كخشوع ملائكتك، يملأ علينا أفئدتنا، ويُسعد أرواحنا، إنك على كل شيء قدير.

* * *

(١) الطبراني: المعجم الأوسط، ٦/ ٣١٤ (٦٥٠٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وقال: تفرد به عبد الله بن المنكدر. قلت: هو وأبوه ضعيفان. انظر: مجمع الزوائد ١/ ٨٠، وصححه الألباني انظر: صحيح الجامع ١/ ٢٠٨ (٨٥٣)، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الله مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ». أبو داود (٤٧٢٧)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٥١).





مالك بن الحويرث الليثي ﷺ..

صحابي جليل ذو أمر عجيب!!

وفد هذا الصحابي الشاب على رسول الله ﷺ في عام الوفود، وهو العام التاسع من الهجرة، ومكث معه، هوَ ومجموعة شباب من قبيلته؛ مدَة عشرين يومًا كاملة! لقد كان معسكرًا إيمانيًّا رائعًا مع خير البشر ﷺ.. وفي هذا المعسكر الفريد تعلَّم مالك ﷺ الكثير والكثير.. لقد تعلَّم «الإسلام»! بل صار، هو وأصحابه، رسلًا إلى قومهم، يُعَلِّمونهم ويُرشدونهم ويُفقهونهم..

وأين العجب في قصته؟!

العجب أنه تعلَّم في رحلته للمدينة -كما قلنا- الإسلام كلَّه، ومع ذلك لم ينقل عن رسول الله ﷺ إلا أمورًا خاصَّة بالصلاة فقط! وكأنه لم يلتفت في هذه الرحلة إلا إلى صلاة الرسول ﷺ، ولم ينشغل بعد ذلك إلا بنقلها والحديث عنها! ولقد قمتُ -لإثبات هذه المعلومة- بمراجعة مسند أحمد بن حنبل ﷺ لأعرف الأحاديث التي نُقلت عنه، ففوجئت أنها سبعة عشر حديثًا كلها -بلا استثناء- تتحدَّث عن الصلاة!

ثم الأعجب ما وجدتُه في نصِّ أحد الأحاديث التي رواها، ونقلها عنه البخاري وغيره، يُشير إلى احتفاله بشكل خاصٍّ بأحاديث الصلاة، فعن أَبِي قِلَابَةَ -وهو أحد التابعين- قَالَ: حَدَّثَنَا مَالِكُ بن الحويرث ﷺ قال: أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ[1] مُتَقَارِبُونَ[2]، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا -أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا- سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ، قَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ

---

(١) شببة أي شباب، مثل بار وجمعها بررة.

(٢) أي متقاربون في السن أو في العلم.

وَمُرُوهُمْ» -وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا[1]- «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»[2]..

ففي هذا الموقف يقول أبو قلابة رحمه الله عن كلام مالك بن الحويرث رضي الله عنه: «وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا». ومع ذلك فالذي يذكره أبو قلابة من كلام مالك هو الجملة النبوية الجامعة: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»! وهذا يعني أن مالكًا ركَّز في كلامه مع أبي قلابة على هذا الموضوع، ولعلَّه أعاده على أسماعه عدَّة مرَّات حتى حفظ أبو قلابة هذه الجملة بدرجة معينة، ولم يحفظ غيرها بالدرجة نفسها!

ثم الأعجب والأعجب أن الله عز وجل سَخَّر من رجال الحديث مَنْ يسعى ويهتمُّ ويحفظ هذه الجملة النبوية التي نقلها مالك، حتى صارت من أشهر الجمل في كتب الفقه والسنن؛ بل ومن أشهر الجمل على ألسنة عامة الناس، فقد نقلها البخاري وابن حبان والدارقطني والبيهقي والشافعي والدارمي وابن خزيمة والبغوي! كل هذا النقل، وكل هذا الاشتهار، لكلمة نُقِلَت على لسان صحابي لم تدم صحبته أكثر من عشرين يومًا! لكن بارك الله في علمه ونَقْلِه حتى وصل إلى كل بقعة في الأرض! وهذا دليل إخلاص وتجرُّد.

واللفتة التي أريد أن ألتقطها وأبدأ بها هذا الفصل، هو ما ذكره أبو قلابة رحمه الله من أن أشياء مما ذكرها مالك رضي الله عنه قد نسيها؛ لكنه أبدًا لا ينسى هذه النصيحة: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»! وأنا أقول لقرَّاء الكتاب: لو نسيتم ونسيتم ونسيتم، فلا تنسوا هذه النصيحة! وإلا فكيف ستبحث عن الخشوع؟! بل قل: كيف ستبحث عن القبول؟!

ثم إن عندي قناعة تامة أنه ما دام أن الخشوع جائزة تُعطَى لمن بذل وقدَّم؛ فإن الذي ينال هذه الجائزة لا بُدَّ أن يلتزم بشروط معطيها.. والله عز وجل اشترط علينا أن نُطيع رسول الله ﷺ ونتَّبعه حتى يحبَّنا؛ ومن ثَمَّ يعطينا جائزة الخشوع؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي

---

(١) هذه الجملة جملة اعتراضية من كلام أبي قلابة -وليس من كلام مالك- كما قال ابن حجر في الفتح. انظر: فتح الباري ١٣/ ٢٣٦.

(٢) البخاري: كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة وكذلك بعرفة وجمع وقول المؤذن الصلاة في الرحال في الليلة الباردة أو المطيرة، (٦٠٥)، والدارمي (١٢٥٣)، وابن حبان (١٦٥٨)، والبيهقي: السنن الكبرى (٤٠٢٢)، وابن خزيمة (٣٩٧)، والبغوي: شرح السنة ٢/ ٢٩٦، والشافعي في مسنده (٣١٩)، والدارقطني (١٠٦٨).

يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].. ولو أطعنا الرسول ﷺ في أوامره الخاصة بالصلاة؛ لاهتدينا، ولخرجت صلاتنا في الصورة التي يحبُّها الله، وليكن شعارنا في صلاتنا: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].. بل إنه يجب علينا أن نُطيعه في أوامره في الحياة كلها وليس في الصلاة فقط، وهذا سيكون له مردود على خشوعنا في صلاتنا، وكذلك على قبول أعمالنا بشكل عامٍّ.

وحيث إن كيفية الصلاة بكل تفصيلاتها ليست داخلة في منظور هذا الكتاب؛ الذي يتناول فقط مسألة الخشوع في الصلاة، فإنني سأكتفي هنا بسرد مختصر لكيفية صلاته ﷺ، دون الخوض في أدلة كثيرة، وكذلك دون تفصيل كبير في الاختلافات بين المذاهب الفقهية، أو استعراض التفصيلات الفرعية، وبشكل عامٍّ فإننا ينبغي أن نعرف أن للصلاة شروطًا وفرائض وسننًا ومبطلات[1]؛ وهي على النحو التالي:

- **شروط الصلاة:**

هي ما يجب على المصلي أن يأتي به؛ بحيث لو ترك شيئًا منها تكون صلاته باطلة؛ منها شروط وجوب وشروط صحة[2]، فالصلاة لا تجب أصلًا إلا على مَنْ تحقَّقت فيه شروط الوجوب، أما شروط الصحة فهي شروط لازمة لصحة الصلاة لمن وجبت عليه.

أولاً: شروط الوجوب:

١ - الإسلام.

٢ - العقل.

٣- البلوغ.

٤ - النقاء من دم الحيض والنفاس.

٥ - سلامة الحواس، ولو السمع، أو البصر فقط، أي لا تجب الصلاة على مَنْ فَقَدَ السمع

---

(١) اعتمدت المذهب الشافعي لسببين: الأول: سهولة العرض؛ حيث اكتفى الشافعية بتقسيم أعمال الصلاة إلى فروض وسنن. والثاني: هو شيوع الفقه الشافعي في مصر؛ ومن ثَمَّ آثرتُ ألا أُحدِثَ اضطرابًا عند القراء لقراءة اختلافات كثيرة عن طريقتهم في الصلاة؛ ومع ذلك فإني قد أشرت في الحاشية إلى الاختلافات الموجودة عند بقية المذاهب؛ وذلك حتى يتسنى لكل القراء اتباع المذهب الذي يفضلونه.

(٢) قَسَّمَ الْحَنَفِيَّةُ، وَالْمَالِكِيَّةُ، وَالشَّافِعِيَّةُ شُرُوطَ الصَّلاَةِ إِلَى: شُرُوطِ وُجُوبٍ، وَشُرُوطِ صِحَّةٍ، وَزَادَ الْمَالِكِيَّةُ قِسْمًا ثَالِثًا هُوَ: شُرُوطُ وُجُوبٍ وَصِحَّةٍ مَعًا. الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ٥٥.

والبصر معًا، لأنه لا سبيل لتعليمه الصلاة[١].

ثانيًا: شروط الصحة:

١- رفع الحدث، وهو الوضوء للحدث الأصغر، والغُسل للحدث الأكبر.

٢- إزالة النجاسة من ثلاث: من البدن، والثوب، ومكان الصلاة.

٣- ستر العورة بشيء لا يصف.

٤- استقبال القبلة.

٥- دخول الوقت.

٦- العلم بالكيفية.

٧- ترك المبطل، بحيث لا يأتي بمنافٍ للصلاة حتى تتمَّ.

- **فرائض الصلاة**[٢]:

وهي ما لا تصح الصلاة إلا بها، وبالتالي لا يجوز تركها لا جهلًا، ولا عمدًا، ولا سهوًا؛ وهي لا تُجبَر بسجود السهو؛ وهذه الفرائض مُقَسَّمة إلى فرائض قولية وأخرى فعلية على النحو التالي:

فرائض قولية؛ وهي:

١) تكبيرة الإحرام؛ لقول النبي ﷺ في حديث المسيء صلاته: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ»[٣].

---

(١) قال الهيتمي الشافعي: لَا تَجِبُ عَلَى مَنْ خُلِقَ أَعْمَى أَصَمَّ وَلَوْ نَاطِقًا، وَكَذَا مَنْ طَرَأَ لَهُ ذَلِكَ قَبْلَ التَّمْيِيزِ بِخِلَافِهِ بَعْدَ التَّمْيِيزِ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ الْوَاجِبَاتِ حِينَئِذٍ فَلَوْ رُدَّتْ حَوَاسُّهُ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ. انظر: تحفة المحتاج في شرح المنهاج ١/ ٤٤٥.

(٢) اتفق المالكية والشافعية على أن الواجب والفرض بمعنى واحد، ولا يختلف معناهما إلا في «باب الحج»، وعلى هذا فليس عندهم واجبات للصلاة، بل أعمالها منها ما هو فرض؛ ومنها ما هو سنة. أما الحنفية؛ والحنابلة فقد قالوا: إن للصلاة واجبات. قال الحنفية: واجبات الصلاة لا تبطل بتركها، ولكن المصلي إن تركها سهوًا فإنه يجب عليه أن يسجد للسهو بعد السلام، وإن تركها عمدًا؛ فإنه يجب عليه إعادة الصلاة، فإن لم يُعِدْ كانت صلاته صحيحة مع الإثم. وقال الحنابلة: الواجب في الصلاة أقل من الفرض، وهو ما تبطل الصلاة بتركه عمدًا مع العلم، ولا تبطل بتركه سهوًا أو جهلاً، فإن تركه سهوًا وجب عليه أن يسجد للسهو. انظر: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢١٧-٢١٩، بتصرف.

(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ النَّبِيُّ ﷺ=



٢) قراءة الفاتحة في كل ركعة؛ لحديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»(١).

٣) التشهد الأخير؛ لحديث عبد الله بن مسعود ﷺ وفيه: «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لله...»(٢).

٤) الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير(٣)؛ لحديث كعب بن عجرة ﷺ وفيه: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «فَقُولُوا: اللَّهُمَّ

=عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، فَمَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي. قَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا». البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة، (٧٦٠)، مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، (٣٩٧).

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر، (٧٢٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، (٣٩٤).

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، (٨٠٠)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، (٤٠٢).

(٣) قال ابن عثيمين مُعَلِّقًا على كلام الحجاوي الحنبلي في جعله الصلاة على النبي ﷺ ركنًا من أركان الصلاة: ودليل ذلك: أنَّ الصَّحابة ﷺ سألوا النبيَّ ﷺ: يا رسولَ الله؛ عُلِّمْنا كيف نُسلِّم عليك، فكيف نُصلِّي عليك؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ». والأمر يقتضي الوجوب، والأصلُ في الوجوب أنَّه فَرْضٌ إذا تُرِكَ بطلت العبادة، هكذا قرَّرَ الفقهاءُ رحمهم الله دليل هذه المسألة. ولكن إذا تأملت هذا الحديث لم يتبيَّن لك منه أنَّ الصَّلاة على النبيِّ ﷺ رُكنٌ، لأنَّ الصحابة إنَّما طلبوا معرفة الكيفية؛ كيف نُصلِّي؟ فأرشدهم النبيُّ ﷺ إليها، ولهذا نقول: إن الأمر في قوله: «قُولُوا». ليس للوجوب، ولكن للإرشاد والتعليم، فإنْ وُجِدَ دليل غير هذا يأمر بالصلاة على النبيِّ ﷺ في الصَّلاة فعليه الاعتماد، وإنْ لم يوجد إلا هذا فإنه لا يدلُّ على الوجوب، فضلًا عن أن يَدلَّ على أنها رُكن؛ ولهذا اختلفَ العلماء في هذه المسألة على أقوال: القول الأول: أنها رُكنٌ، وهو المشهور مِن المذهب، فلا تصحُّ الصلاة بدونها. القول الثاني: أنها واجب، وليست بِرُكن، فتُجبر بسجود السَّهو عند النسيان. قالوا: لأن قوله: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ». محتمل للإيجاب وللإرشاد، ولا يمكن أن نجعله رُكنًا لا تصحُّ الصلاة إلا به مع هذا الاحتمال. القول الثالث: أنَّ الصَّلاةَ على النبيِّ ﷺ سُنَّة، وليست بواجب ولا رُكن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وأن الإنسان لو تعمَّد تَرْكها فصلاتُه صحيحة؛ لأن الأدلَّة التي استدلَّ بها الموجبون، أو الذين جعلوها رُكنًا ليست ظاهرة على ما ذهبوا إليه، والأصل براءة الذِّمة. وهذا القول أرجح الأقوال إذا لم يكن سوى هذا الدليل الذي استدلَّ به الفقهاء رحمهم الله، فإنه لا يمكن أن نبطلَ العبادة ونفسدها بدليل يحتمل أن يكون المراد به الإيجاب، أو الإرشاد. انظر: ابن عثيمين: الشرح الممتع على زاد المستقنع ٣/ ٣١٠، ٣١٢.

صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ...». الحديث[1]. الصلاة والتبريك على محمد وآل محمد، وعلى إبراهيم وآل إبراهيم في التشهد الأول؛ لعموم الأدلة[2].

٥) التسليمة الأولى[3]؛ فعَنْ عَائِشَةَ ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُسَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ تَسْلِيمَةً وَاحِدَةً تِلْقَاءَ وَجْهِهِ»[4].

وفرائض فعلية فهي:

١) النية.

٢) القيام في الفرض مع القدرة؛ لحديث عمران بن حصين قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة؟ فقال: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»[5].

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، (٥٩٩٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، (٤٠٦).

(٢) انظر: الدروس المهمة للإمام ابن باز، الدرس العاشر: سنن الصلاة. انظر: مجموع فتاوى ابن باز ٣/ ٢٩٣. وقال الجزيري: الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير، وأفضلها أن يقول: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي العَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». وهذه الصيغة سنة عند المالكية، والحنفية، أما الشافعية، والحنابلة فانظر مذهبهم... الشافعية والحنابلة قالوا: الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الثاني فرض... وقد زاد متأخرو الشافعية لفظ السيادة، فيقول: سيدنا محمد، وسيدنا إبراهيم. انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٤١، وفي الموسوعة الفقهية الكويتية: «وعند المالكية خلاف في أن المشهور: هل هي سنة أو فضيلة؟» انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ٩٧، ٩٨. وانظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ٩٠٦-٩٠٨.

(٣) قال ابن المنذر: وَكُلُّ مَنْ أَحْفَظُ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يُجِيزُ صَلَاةَ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى تَسْلِيمَةٍ، وَأُحِبُّ أَنْ يُسَلِّمَ تَسْلِيمَتَيْنِ. انظر: ابن المنذر: الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف ٣/ ٢٢٣، وقال النووي: مَذْهَبُنَا الْوَاجِبُ تَسْلِيمَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَا تَجِبُ الثَّانِيَةُ، وَبِهِ قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ أَوْ كُلُّهُمْ؛ قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ صَلَاةَ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى تَسْلِيمَةٍ وَاحِدَةٍ جَائِزَةٌ. وَحَكَى الطَّحَاوِيُّ وَالْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ وَآخَرُونَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ -الحنفي- أَنَّهُ أَوْجَبَ التَّسْلِيمَتَيْنِ جَمِيعًا، وَهِيَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ، وَبِهِمَا قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ مَالِكٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ. انظر: النووي: المجموع شرح المهذب ٣/ ٤٨٢، وفي الموسوعة الفقهية الكويتية: وأقل ما يجزئ في التسليم عند الشافعية والحنابلة قوله: «السلام عليكم». مرة عند الشافعية، ومرتين عند الحنابلة، وأكمله: «السلام عليكم ورحمة الله». انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١١/ ٣١٤-٣١٦.

(٤) الترمذي: أبواب الصلاة، باب التسليم في الصلاة (٢٩٦)، وابن ماجه (٩١٩)، والحاكم (٨٤١)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، والبيهقي: السنن الكبرى (٣١٠٥)، والطبراني: المعجم الأوسط (٦٧٤٦)، وابن خزيمة (٧٢٩)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٣١٦).

(٥) البخاري: أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنب، (١٠٦٦)، والترمذي (٣٧٢)، وأبو داود (٩٥٢)، وابن ماجه (١٢٢٣)، وأحمد (١٩٨٣٢).

٣) الركوع؛ لقوله ﷺ في حديث المسيء صلاته: «ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا»(١).

٤) الرفع من الركوع والاعتدال قائمًا؛ لقوله ﷺ في حديث المُسيء صلاته: «ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا»(٢).

٥) السجود على الأعضاء السبعة؛ لقوله ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: عَلَى الْجَبْهَةِ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ- وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ»(٣).

٦) الرفع من السجود؛ لقوله ﷺ في حديث المسيء صلاته: «ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا»(٤).

٧) الجلسة بين السجدتين؛ لقوله ﷺ في حديث المسيء صلاته: «حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا»(٥).

٨) الطمأنينة في جميع الأركان؛ لأن النبي ﷺ لمَّا علَّمَ المسيء صلاته كان يقول له في كل ركن: «حَتَّى تَطْمَئِنَّ»(٦). وذكر بعض العلماء أن الطمأنينة: هي السكون بقدر الذكر الواجب، فلو لم يسكن لم يطمئن(٧).

٩) الجلوس للتشهد الأخير؛ لأن النبي ﷺ فعله جالسًا، وداوم عليه، كما تقدَّم في الأحاديث.

١٠) الترتيب بين أركان الصلاة؛ لأن النبي ﷺ علَّم المسيء صلاته مرتبة قائلًا: «ثُمَّ».

---

(١) التخريج السابق.

(٢) التخريج السابق.

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب السجود على الأنف، (٧٧٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس في الصلاة، (٤٩٠).

(٤) سبق تخريجه (حديث مسيء الصلاة) ص٢٥٠.

(٥) سبق تخريجه (حديث مسيء الصلاة) ص٢٥٠.

(٦) سبق تخريجه (حديث مسيء الصلاة) ص٢٥٠.

(٧) قال ابن قاسم: والطمأنينة وهي بضم الطاء، السكون بقدر الذِّكْر الواجب، قال الجوهري: اطمأن الرجل اطمئنانًا وطمأنينة سكن. وقال غير واحد: ضابطها أن يسكن وتستقر أعضاؤه. انظر: ابن قاسم: حاشية الروض المربع ٢/ ١٢٦، وقال ابن عثيمين: فإذا قال إنسان: هل يظهر فَرْقٌ بين القولين، بين قولنا: السُّكون وإنْ قَلَّ. وبين قولنا: السُّكون بِقَدْرِ الذِّكْرِ الواجب؟ فالجواب: نعم؛ لأنه لو سَكَنَ سكونًا قليلًا دون قَدْرِ الذِّكْرِ الواجب، ونسيَ أن يقول الذِّكر الواجب ثم استمرَّ في صلاته، فعلى القول بأن الطمأنينة هي السُّكون وإنْ قَلَّ، تكون صلاتُه صحيحة؛ لكن يجب عليه سجود السَّهو لترك الواجب، وعلى القول بأنه لا بُدَّ أن يكون بقدر الذِّكْرِ الواجب تكون غير صحيحة؛ لأنه لم يأتِ بالرُّكنِ حيث لم يستقرَّ بِقَدْرِ الذِّكْرِ الواجب. انظر: ابن عثيمين: الشرح الممتع على زاد المستقنع ٣/ ٣٠٧، ٣٠٨، وراجع ص١٣١.

فقال: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»[(١)].

- **سنن الصلاة:**

وسنن الصلاة نوعان: ما يجبر تركها بسجود السهو، ومنها لا تبطل الصلاة بترك شيء منها عمدًا ولا سهوًا؛ ولكن يقلُّ الأجر، ويذهب الخشوع، وهي كثيرة:

أولاً: ما يجبر تركها بسجود السهو[(٢)]:

التشهد الأول والجلوس له؛ لحديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: عَلَّمَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَقُولَ إِذَا جَلَسْنَا فِي الرَّكْعَتَيْنِ: «التَّحِيَّاتُ للهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»[(٣)]. ولحديث عبد الله بن بحينة ﷺ وفيه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ وَعَلَيْهِ جُلُوسٌ[(٤)]، فَلَمَّا أَتَمَّ صَلَاتَهُ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ يُكَبِّرُ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ وَهُوَ جَالِسٌ، قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ، وَسَجَدَهُمَا النَّاسُ مَعَهُ، مَكَانَ مَا نَسِيَ مِنَ الْجُلُوسِ»[(٥)].

ثانيا: ما لا تحتاج لسجود سهو إذا نُسِيَت، ولا تبطل الصلاة بترك شيء منها عمدًا ولا سهوًا؛ ولكن يقلُّ الأجر؛ وهي:

---

(١) البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال عليك السلام، (٥٨٩٧).

(٢) ذكر فقهاء الشافعية سننًا أخرى في هذا الموطن، ولكنها ليست من سنن الصلوات العادية بل من سنن صلاة التراويح والوتر؛ مثل: القنوت في الصبح ووتر النصف الأخير من رمضان، والقيام للقنوت، والصلاة على النبي ﷺ، وعلى آله بعد القنوت، وقد حذفتُها هنا للاختصار. انظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ٨٦٦.

(٣) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في التشهد (٢٨٩) وقال: حديث ابن مسعود قد روي عن غير وجه، وهو أصح حديث روي عن النبي ﷺ في التشهد، والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم من التابعين، وهو قول سفيان الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق. والنسائي (٧٤٨)، وأحمد (٤٠١٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي، ١/ ٣٧٨ (١١٦٢)، والسلسلة الصحيحة (٨٧٨).

(٤) أي نسي الجلوس للتشهد الأول.

(٥) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب التشهد في الأولى، (٧٩٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، (٥٧٠)، واللفظ له.

١) جميع التكبيرات من غير ركوع إلا تكبيرة الإحرام؛ لحديث أنس ﷺ يرفعه: «إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا»[١].

٢) رفع اليدين حذو المنكبين أو الأذنين، مع تكبيرة الإحرام، وعند الركوع، وعند الرفع منه، وعند القيام من التشهد الأول؛ لحديث عبد الله بن عمر ﷺ، الذي قال فيه: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَاذِيَ مَنْكِبَيْهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَرْكَعَ، وَإِذَا رَفَعَ مِنَ الرُّكُوعِ، وَلَا يَرْفَعُهُمَا بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ»[٢].

٣) وضع اليد اليمنى على اليد اليسرى وجعلهما تحت صدره وفوق سُرَّته؛ لحديث وائل بن حُجْر ﷺ قال: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى عَلَى صَدْرِهِ»[٣].

٤) النظر إلى موضع السجود في الصلاة؛ لما رواه البيهقي من أن النبي ﷺ كَانَ إذا صَلَّى طَأْطَأَ رَأْسَهُ وَرَمَى بِبَصَرِهِ نحْوَ الأَرْضِ[٤].

٥) دعاء الاستفتاح؛ والأفضل عند الشافعية أن يقول[٥] ما رواه عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب إيجاب التكبير وافتتاح الصلاة، (٧٠١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، (٤١١).

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب رفع اليدين إذا كبر وإذا ركع وإذا رفع، (٧٠٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استحباب رفع اليدين حذو المنكبين مع تكبيرة الإحرام والركوع وفي الرفع من الركوع وأنه لا يفعله إذا رفع من السجود، (٣٩٠).

(٣) ابن خزيمة: كتاب الصلاة، باب وضع اليمين على الشمال في الصلاة قبل افتتاح القراءة (٤٧٩)، وقال الألباني: الحديث صحيح جاء من طرق أخرى بمعناه، وفي الوضع على الصدر أحاديث تشهد له. انظر: صحيح ابن خزيمة، ١/ ٢٧٢ (٤٧٩)، وانظر: صفة الصلاة للألباني، ص٧٩.

(٤) سبق تخريجه ص١٩٣.

(٥) النووي: المجموع شرح المهذب ٣/ ٣١٤.

وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»(١). وهناك أدعية استفتاح أخرى منها حديث أبي هريرة ﷺ، الذي قَالَ فيه: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ»(٢).

٦) التعوذ بالله من الشيطان؛ لحديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ بِاللَّيْلِ كَبَّرَ، ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ». ثُمَّ يَقُولُ: «اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا». ثُمَّ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِالله السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»(٣)، وهذا يسري على صلاة الفرض والنفل معًا.

٧) البسملة؛ والأشهر عدم الجهر بها(٤) لحديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ: ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]»(٥). واستحبَّ الشافعية الجهر بها لحديث أبي هريرة ﷺ في سنن النسائي، فعَنْ نُعَيْمٍ الْمُجْمِرِ قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَرَأَ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ بِأُمِّ الْقُرْآنِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، فَقَالَ:

---

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٧٧١).

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما يقول بعد التكبير، (٧١١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، (٥٩٨).

(٣) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، وأحمد (١١٤٩١)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ٢٦٥، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، ٣/ ٣٦١ (٧٤٨).

(٤) ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ تُسَنُّ قِرَاءَةُ الْبَسْمَلَةِ سِرًّا فِي الصَّلَاةِ السِّرِّيَّةِ وَالْجَهْرِيَّةِ... وَذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ إِلَى أَنَّ السُّنَّةَ الْجَهْرُ بِالتَّسْمِيَةِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ فِي الْفَاتِحَةِ وَفِي السُّورَةِ بَعْدَهَا... وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ عَلَى الْمَشْهُورِ كَرَاهَةَ اسْتِفْتَاحِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ بِبِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مُطْلَقًا فِي أُمِّ الْقُرْآنِ وَفِي السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا سِرًّا وَجَهْرًا. وَقَالَ الْقَرَافِيُّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ: الْوَرَعُ الْبَسْمَلَةُ أَوَّلَ الْفَاتِحَةِ خُرُوجًا مِنَ الْخِلَافِ إِلَّا أَنَّهُ يَأْتِي بِهَا سِرًّا وَيُكْرَهُ الْجَهْرُ بِهَا. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ١٦/ ١٨١، ١٨٢.

(٥) مسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، (٣٩٩)، والنسائي (٩٧٩)، وأحمد (١٣٩١٩).

آمِينَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمِينَ. وَيَقُولُ كُلَّمَا سَجَدَ: اللهُ أَكْبَرُ. وَإِذَا قَامَ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الاثْنَتَيْنِ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ. وَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَشْبَهُكُمْ صَلَاةً بِرَسُولِ اللهِ ﷺ(١).

٨) قول: «آمين» بعد قراءة الفاتحة، يجهر بها في الجهرية ويُسرُّ في السِّرِّيَّة؛ لحديث أبي هريرة ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». وَقَالَ ابْنُ شِهَابٍ الزهري ﷺ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «آمِينَ»(٢).

٩) قراءة سورة بعد الفاتحة في الركعتين الأوليين(٣)، أو ما تيسَّر من القرآن؛ لحديث أبي قتادة ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِأُمِّ الْكِتَابِ وَسُورَةٍ مَعَهَا فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ وَيُسْمِعُنَا الْآيَةَ أَحْيَانًا وَكَانَ يُطِيلُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى(٤).

١٠) الجهر بالقراءة في الصلاة الجهرية(٥)؛ لحديث جبير بن مطعم ﷺ قَالَ: «سَمِعْتُ

---

(١) النسائي: كتاب افتتاح الصلاة، قراءة بسم الله الرحمن الرحيم (٩٠٥)، وابن حبان (١٧٩٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم (٨٤٩)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي. والدارقطني (١١٦٨)، وقال الدارقطني: هذا صحيح ورواته كلهم ثقات. والبيهقي: السنن الكبرى (٢٤٩١)، وقال البيهقي: وهو في كتاب الدارقطني وهو إسناد صحيح وله شواهد.

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب جهر الإمام بالتأمين، (٧٤٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين، (٤١٠).

(٣) عن عَطَاءٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ: «فِي كُلِّ صَلَاةٍ يُقْرَأُ، فَمَا أَسْمَعَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَسْمَعْنَاكُمْ، وَمَا أَخْفَى عَنَّا أَخْفَيْنَا عَنْكُمْ، وَإِنْ لَمْ تَزِدْ عَلَى أُمِّ الْقُرْآنِ أَجْزَأَتْ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ». البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب القراءة في الفجر، (٧٣٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، (٣٩٦)، وقال الماوردي: قِرَاءَةُ السُّورَةِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ سُنَّةٌ فِي الْأُولَيَيْنِ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ. الماوردي: الحاوي الكبير ٢/ ٢٣٦، وقال الجزيري: قراءة شيء من القرآن بعد قراءة الفاتحة في الركعتين الأوليين من صلاة الظهر والمغرب والعشاء، وفي ركعتي فرض الصبح، مطلوب باتفاق، ولكنهم اختلفوا في حكمه؛ فقال ثلاثة من الأئمة: إنه سنة. وخالف الحنفية... قالوا: حكم قراءة السورة أو ثلاث آيات قصار، أو آية طويلة هو الوجوب. فتجب قراءة ذلك في الركعتين الأوليين من صلاة الفرض. انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٢٩. ولا خلاف بين الفقهاء في كراهة الاقتصار على الفاتحة في الركعتين الأوليين من المكتوبة. وقال الحنفية: يكره تحريمًا أن ينقص شيئًا من القراءة الواجبة. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ٩٠، ١٠٣.

(٤) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب يقرأ في الأخريين بفاتحة الكتاب، (٧٤٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، (٤٥١).

(٥) قال الشيرازي الشافعي: وَيُسْتَحَبُّ لِلإِمَامِ أَنْ يَجْهَرَ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصُّبْحِ وَالأُولَيَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَالأُولَيَيْنِ مِنَ الْعِشَاءِ=

رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ..»(١). وأحاديث أخرى كثيرة توضِّح الجهر في صلاة الصبح والمغرب والعشاء.

١١) الإسرار في الصلاة السِّرِّيَّة(٢)؛ لحديث خباب ﷺ عندما سأله أبو مَعْمَرٍ قَالَ: قُلْنَا لِخَبَّابٍ: أَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْنَا: بِمَ كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ ذَاكَ؟ قَالَ: بِاضْطِرَابِ لِحْيَتِهِ(٣).

١٢) السكتة اللطيفة بعد الفراغ من القراءة كلها؛ لحديث الحَسَنِ البصري عَنْ سَمُرَةَ بن جندب ﷺ قَالَ: سَكْتَتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، وَقَالَ: حَفِظْنَا سَكْتَةً. فَكَتَبْنَا إِلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ بِالْمَدِينَةِ، فَكَتَبَ أُبَيٌّ أَنْ حَفِظَ سَمُرَةُ. قَالَ سَعِيدٌ: فَقُلْنَا لِقَتَادَةَ: مَا هَاتَانِ السَّكْتَتَانِ؟ قَالَ: إِذَا دَخَلَ فِي صَلَاتِهِ، وَإِذَا فَرَغَ مِنَ الْقِرَاءَةِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: وَإِذَا قَرَأَ: وَلَا الضَّالِّينَ. قَالَ: وَكَانَ يُعْجِبُهُ إِذَا فَرَغَ مِنَ الْقِرَاءَةِ أَنْ يَسْكُتَ حَتَّى يَتَرَادَّ إِلَيْهِ نَفَسُهُ(٤). وقال الشوكاني: حَصَلَ مِنْ

=وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ نَقْلُ الْخَلَفِ عَنِ السَّلَفِ. انظر: الشيرازي: المهذب في فقة الإمام الشافعي ١/ ١٤٢، وقال النووي في شرحه عليه: السَّلَفُ فِي اللُّغَةِ هُمُ الْمُتَقَدِّمُونَ وَالْمُرَادُ هُنَا أَوَائِلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَالْخَلَفُ... وَهُمُ السَّابِقُونَ لِمَنْ قَبْلَهُمْ فِي الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ وَالْفَضْلِ... أَمَّا حُكْمُ الْمَسْأَلَةِ فَالسُّنَّةُ الْجَهْرُ فِي رَكْعَتِي الصُّبْحِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ وَفِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَالْإِسْرَارُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَثَالِثَةِ المغرب والثالة وَالرَّابِعَةِ مِنَ الْعِشَاءِ وَهَذَا كُلُّهُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُتَظَاهِرَةِ عَلَى ذَلِكَ، هَذَا حُكْمُ الْإِمَامِ، وَأَمَّا الْمُنْفَرِدُ فَيُسَنُّ لَهُ الْجَهْرُ عِنْدَنَا وَعِنْدَ الْجُمْهُورِ، قَالَ الْعَبْدَرِيُّ: هُوَ مَذْهَبُ الْعُلَمَاءِ كَافَّةً إِلَّا أَبَا حَنِيفَةَ فَقَالَ: جَهْرُ الْمُنْفَرِدِ وَإِسْرَارُهُ سَوَاءٌ. دَلِيلُنَا -أي النووي والجمهور- أَنَّ الْمُنْفَرِدَ كَالْإِمَامِ فِي الْحَاجَةِ إِلَى الْجَهْرِ لِلتَّدَبُّرِ، فَسُنَّ لَهُ الْجَهْرُ كَالْإِمَامِ وَأَوْلَى؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ تَدَبُّرًا لِقِرَاءَتِهِ لِعَدَمِ ارْتِبَاطِ غَيْرِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى إِطَاقَةِ الْقِرَاءَةِ، وَيَجْهَرُ بِهَا لِلتَّدَبُّرِ كَيْفَ شَاءَ. النووي: المجموع شرح المهذب ٣/ ٣٨٩، ٣٩٠، وانظر: البهوتي الحنبلي: كشاف القناع عن متن الإقناع ١/ ٣٣٢، والدسوقي المالكي: الشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي ١/ ٢٤٢، ٢٤٣، والكاساني الحنفي: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ١٦٠.

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في المغرب، (٧٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، (٤٦٣).

(٢) ومن السنن الإسرار لكل مصلٍّ، فيما عدا مواضع الجهر من الفرائض الخمس، وهو سنة عند ثلاثة من الأئمة، وقال المالكية: إنه مندوب لا سُنَّة. انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٣٧. وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ يُسَنُّ لِلْإِمَامِ أَنْ يَجْهَرَ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ: كَالصُّبْحِ وَالْجُمُعَةِ وَالْأُولَيَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَيُسِرُّ فِي الصَّلَاةِ السِّرِّيَّةِ. وَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ إِلَى وُجُوبِ الْجَهْرِ عَلَى الْإِمَامِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ وَالْإِسْرَارِ فِي الصَّلَاةِ غَيْرِ الْجَهْرِيَّةِ. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٣/ ٥٠، ٥١.

(٣) البخاري، كتاب الأذان، باب القراءة في العصر، برقم ٧٦١. البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، (٧١٣)، وأبو داود (٨٠١)، والنسائي (٥٣٠)، وأحمد (٢١٠٩٩).

(٤) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب السكتة عند الافتتاح (٧٨٠)، والترمذي (٢٥١)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٨٤٤)، وابن حبان (١٨٠٧)، وقال شعيب الأرناءوط: رجاله ثقات رجال الشيخين. وقال=

مجموع الرِّوَايَاتِ ثَلَاثُ سَكَتَاتٍ؛ الْأُولَى بَعْدَ تَكْبِيرِ الْإِحْرَامِ وَالثَّانِيَةُ إِذَا قَرَأَ وَلَا الضَّالِّينَ، وَالثَّالِثَةُ إِذَا فَرَغَ مِنَ الْقِرَاءَةِ كُلِّهَا(١).

١٣) وضع اليدين مفرجتي الأصابع على الركبتين كأنه قابض عليهما؛ لحديث أبي حميد الساعدي ﷺ: «.. فَإِذَا رَكَعَ أَمْكَنَ كَفَّيْهِ مِنْ رُكْبَتَيْهِ وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ هَصَرَ(٢) ظَهْرَهُ..»(٣).

١٤) مدُّ الظَّهر في الركوع؛ لحديث رفاعة بن رافع ﷺ: «.. وَامْدُدْ ظَهْرَكَ..»(٤).

١٥) مجافاة اليدين عن الجنبين في الركوع؛ لحديث أبي حميد الساعدي ﷺ قَالَ: «.. ثُمَّ رَكَعَ فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ كَأَنَّهُ قَابِضٌ عَلَيْهِمَا، وَوَتَّرَ يَدَيْهِ فَتَجَافَى عَنْ جَنْبَيْهِ..»(٥).

١٦) التسبيح في الركوع ثلاثًا(٦)؛ لحديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: «.. ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ

=ابن عساكر: حديث حسن أخرجه أبو داود في سننه من حديث قتادة. ابن عساكر: معجم الشيوخ ٢/ ٨١٦.

(١) انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي ٢/ ٧٢، وقال الشوكاني: وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: إِنَّمَا كَانَ يَسْكُتُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِيَقْرَأَ مَنْ خَلْفَهُ فَلَا يُنَازِعُونَهُ الْقِرَاءَةَ إِذَا قَرَأَ، قَالَ الْيَعْمُرِيُّ: كَلَامُ الْخَطَّابِيِّ هَذَا فِي السَّكْتَةِ الَّتِي بَعْدَ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ وَأَمَّا السَّكْتَةُ الْأُولَى فَقَدْ وَقَعَ بَيَانُهَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ السَّابِقِ فِي بَابِ الِافْتِتَاحِ «أَنَّهُ كَانَ يَسْكُتُ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ» الْحَدِيثَ. قَوْلُهُ: (وَإِذَا فَرَغَ مِنَ الْقِرَاءَةِ كُلِّهَا) قِيلَ: وَهِيَ أَخَفُّ مِنَ السَّكْتَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَهَا وَذَلِكَ بِمِقْدَارِ مَا تَنْفَصِلُ الْقِرَاءَةُ عَنِ التَّكْبِيرِ فَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْوَصْلِ فِيهِ. قَوْلُهُ: (وَسَكْتَةً إِذَا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]... وَهَذِهِ الثَّلَاثُ السَّكَتَاتُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهَا حَدِيثُ سَمُرَةَ بِاعْتِبَارِ الرِّوَايَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ، وَفِي رِوَايَةٍ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد بِلَفْظِ: «إِذَا دَخَلَ فِي صَلَاتِهِ وَإِذَا فَرَغَ مِنَ الْقِرَاءَةِ». ثُمَّ قَالَ بَعْدُ: وَإِذَا قَالَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وَاسْتَحَبَّ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ سَكْتَةً رَابِعَةً بَيْنَ ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ وَبَيْنَ آمِينَ، قَالُوا: لِيَعْلَمَ الْمَأْمُومُ أَنَّ لَفْظَةَ آمِينَ لَيْسَتْ مِنَ الْقُرْآنِ. انظر: نيل الأوطار ٢/ ٢٧٧.

(٢) هصر ظهره: أَيْ ثَنَاهُ فِي اسْتِوَاءٍ مِنْ غَيْرِ تَقْوِيسٍ. ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٣٠٨. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَاهُ ثَنَى ظَهْرَهُ وَخَفَضَهُ وَأَصْلُ الْهَصْرِ أَنْ تَأْخُذَ بِطَرَفِ الشَّيْءِ ثُمَّ تَجْذِبُهُ إِلَيْكَ كَالْغُصْنِ مِنَ الشَّجَرَةِ وَنَحْوِهِ فَتُمِيلُهُ فَيَنْهَصِرَ أَيْ يَنْكَسِرَ مِنْ غَيْرِ بَيْنُونَةٍ (أي انفصال). الخطابي: معالم السنن ١/ ١٩٦.

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب سنة الجلوس في التشهد، (٧٩٤)، وأبو داود (٧٣١)، واللفظ له.

(٤) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود (٨٥٩)، وأحمد (١٩٠١٧)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (١٧٨٧)، وحسنه الألباني، انظر: ٤/ ٩، ١٠ (٨٠٥).

(٥) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة (٧٣٤)، والترمذي (٢٦٠)، وقال: حديث حسن صحيح. والدارمي (١٣٠٧)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٢٤ (٧٢٣).

(٦) قال النووي: التَّسْبِيحِ وَسَائِرِ الْأَذْكَارِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَقَوْلِ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ وَرَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ. وَالتَّكْبِيرَاتُ غَيْرَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، كُلُّ ذَلِكَ سُنَّةٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَمْ يَأْثَمْ وَصَلَاتُهُ صَحِيحَةٌ؛ سَوَاءٌ تَرَكَهُ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا؛ لَكِنْ يُكْرَهُ تَرْكُهُ عَمْدًا، هَذَا مَذْهَبُنَا (الشافعية)، وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ، قَالَ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ:=

يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى». فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ[1]. وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ، بِمَعْنَاهُ زَادَ، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَكَعَ قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ». ثَلَاثًا، وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ» ثَلَاثًا[2].

١٧) قول: «سمع الله لمن حمده» للإمام والمنفرد؛ لحديث أبي هريرة ﷺ يرفعه وفيه: «ثُمَّ يَقُولُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. حِينَ يَرْفَعُ صُلْبَهُ مِنَ الرُّكُوعِ»[3].

١٨) قول: «ربنا ولك الحمد». للإمام، والمنفرد، والمأموم، أما الإمام والمنفرد؛ فلحديث أبي هريرة ﷺ يرفعه وفيه: «ثُمَّ يَقُولُ وَهُوَ قَائِمٌ: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»[4]. وأما المأموم؛ فلحديث أنس ﷺ يرفعه وفيه: «وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»[5]. وزيادة صيغة الحمد بعد قول: ربنا لك الحمد؛ لحديث أبي سعيد الخدري ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: «رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[6].

=وَهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ الْفُقَهَاءِ. قَالَ صَاحِبُ الحَاوِي: وَهُوَ مَذْهَبُ الْفُقَهَاءِ كَافَّةً. وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ: التَّسْبِيحُ وَاجِبٌ إِنْ تَرَكَهُ عَمْدًا بَطَلَتْ صَلَاتُهُ، وَإِنْ نَسِيَهُ لَمْ تَبْطُلْ. وَقَالَ دَاوُدُ: وَاجِبٌ مُطْلَقًا. وَأَشَارَ الخَطَّابِيُّ فِي مَعَالِمِ السُّنَنِ إِلَى اخْتِيَارِهِ، وَقَالَ أَحْمَدُ: التَّسْبِيحُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَقَوْلُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ. وَإِنْ نَسِيَهُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ وَجَمِيعُ التَّكْبِيرَاتِ وَاجِبَةٌ، فَإِنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْهُ عَمْدًا بَطَلَتْ صَلَاتُهُ، وَإِنْ نَسِيَهُ لَمْ تَبْطُلْ وَيَسْجُدُ لِلسَّهْوِ عَنْهُ. وَعَنْهُ رِوَايَةٌ أَنَّهُ سُنَّةٌ كَقَوْلِ الجُمْهُورِ. انظر: النووي: المجموع شرح المهذب ٣/ ٤١٤.

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، (٧٧٢)، والنسائي (١٣٧٧).

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٠)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ٨٦٢..

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، (٧٥٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب إثبات التكبير في كل خفض ورفع في الصلاة إلا رفعه من الركوع، (٣٩٢).

(٤) التخريج السابق.

(٥) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب إيجاب التكبير وافتتاح الصلاة، (٦٩٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، (٤١١).

(٦) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، (٤٧٧)، وأبو داود (٨٤٧)، وأحمد (١١٨٤٥).

١٩) وضع الركبتين قبل اليدين في السجود، ورفع اليدين قبل الركبتين في القيام؛ لحديث وائل بن حُجر ﷺ قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا سَجَدَ يَضَعُ رُكْبَتَيْهِ قَبْلَ يَدَيْهِ، وَإِذَا نَهَضَ رَفَعَ يَدَيْهِ قَبْلَ رُكْبَتَيْهِ(١).

٢٠) قول: «سبحان ربي الأعلى» ثلاثًا في السجود؛ لحديث حذيفة ﷺ يرفعه وفيه: «ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»(٢).

٢١) وضع اليدين حذو المنكبين أو الأذنين في السجود، والسجود بينهما؛ لحديث أبي حُميد الساعدي ﷺ قال: «.. ثُمَّ سَجَدَ فَأَمْكَنَ أَنْفَهُ وَجَبْهَتَهُ وَنَحَّى يَدَيْهِ عَنْ جَنْبَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ حَذْوَ مَنْكِبَيْهِ..»(٣). وفي رواية قال: «.. فَلَمَّا سَجَدَ وَضَعَ جَبْهَتَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ..»(٤). وضم أصابع اليدين في السجود؛ لحديث وائل ﷺ أن النبي ﷺ «كَانَ إِذَا رَكَعَ فَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ وَإِذَا سَجَدَ ضَمَّ أَصَابِعَهُ»(٥).

٢٢) تفريج أصابع الرجلين في السجود؛ لحديث أبي حُميد ﷺ: «.. وَيَفْتَحُ أَصَابِعَ رِجْلَيْهِ إِذَا سَجَدَ..»(٦). واستقبال القبلة بأطراف أصابع اليدين والرجلين في السجود؛ لحديث

---

(١) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب كيف يضع ركبتيه قبل يديه؟ (٨٣٨)، والترمذي: (٢٦٨) وقال: حديث حسن. والنسائي (٦٧٦)، وابن ماجه (٨٨٢)، والدارمي (١٣٢٠)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. وابن حبان (١٩١٢).

(٢) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، (٧٧٢)، وأبو داود (٨٧٤)، والنسائي (٦٥٦)، وأحمد (٢٣٣٠٩).

(٣) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب افتتاح الصلاة (٧٣٤)، والترمذي (٢٧٠)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن حبان (١٨٧١)، وقال شعيب الأرناءوط: رجاله ثقات رجال الشيخين. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٢٤ (٧٢٣).

(٤) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب افتتاح الصلاة (٧٣٦)، والطبراني: المعجم الكبير (١٧٩١١)، وبلفظ: «ثُمَّ سَجَدَ وَوَضَعَ وَجْهَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ». أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب رفع اليدين في الصلاة (٧٢٣)، وابن حبان (١٨٦٢)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٠٧ (٧١٤).

(٥) ابن حبان: كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة (١٩٢٠)، والحاكم، (٨١٤)، (٨٢٦) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، والطبراني: المعجم الكبير، (١٧٨٧٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ١٣٥، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٣/ ٣٧٣.

(٦) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب افتتاح الصلاة (٧٣٠)، والترمذي (٣٠٤)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٦٨٨)، وابن ماجه (١٠٦١)، وأحمد (٢٣٦٤٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والدارمي (١٣٥٦)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٤/ ١١٦.

أبي حُميد الساعدي ﷺ: «.. وَاسْتَقْبَلَ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ الْقِبْلَةَ..»(١).

٢٣) مجافاة العضدين عن الجنبين في السجود؛ لحديث أم المؤمنين مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ ﷺ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَجَدَ جَافَى حَتَّى يَرَى مَنْ خَلْفَهُ وَضَحَ إِبْطَيْهِ». قَالَ وَكِيعٌ: يَعْنِي بَيَاضَهُمَا(٢). ومجافاة البطن عن الفخذين، والفخذين عن الساقين، والتفريج بين الفخذين؛ لحديث أبي حُميد ﷺ قَالَ: «.. وَإِذَا سَجَدَ فَرَّجَ بَيْنَ فَخِذَيْهِ غَيْرَ حَامِلٍ بَطْنَهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَخِذَيْهِ..»(٣).

٢٤) الدعاء في الجلوس بين السجدتين بقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي». لحديث ابن عباس ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ﷺ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي»(٤). وفي حديث حذيفة ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ(٥): «رَبِّ اغْفِرْ لِي رَبِّ اغْفِرْ لِي»(٦). وفي رواية أنه كان يقولها مرَّة واحدة فقط(٧).

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب سنة الجلوس في التشهد، (٧٩٤)، وابن حبان (١٨٧٠).

(٢) البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٣٧١) عن عبد الله بن مالك بن بحينة الأسدي ﷺ، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يجمع صفة الصلاة وما يفتتح به ويختم به وصفة الركوع، (٤٩٧)، واللفظ له.

(٣) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب افتتاح الصلاة (٧٣٥)، وابن الملقن: تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج ١/ ٣١٥، وقال ابن الملقن في مقدمة كتابه: فَهَذَا مُخْتَصر فِي أَحَادِيث الْأَحْكَام ذُو إتقان وإحكام عديم الْمِثَال لم ينسج مثله عَلَى منوال شرطي أن لَا أذكر فِيهِ إِلَّا حَدِيثًا صَحِيحًا أَوْ حَسَنًا دُونَ الضَّعِيفِ. انظر: تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج ١/ ١٣٠.

(٤) أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء بين السجدتين، (٨٥٠)، والحاكم (٩٦٤)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وقال النووي: رواه أبو داود، والترمذي، وآخرون بإسناد حسن. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤١٥، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٢/ ١١٩، وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٤٣٦ (٧٩٦).

(٥) عند الحنابلة: قَوْل: «رَبِّ اغْفِرْ لِي» فِي الْجُلُوسِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: وَهُوَ وَاجِبٌ مَرَّةً وَاحِدَةً عَلَى الإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ وَالْمُنْفَرِدِ... قَالُوا: وَإِنْ قَالَ: «رَبِّ اغْفِرْ لَنَا»، أَوِ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا»، فَلاَ بَأْسَ. الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ٨٢.

(٦) أبو داود: باب تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٤)، والنسائي (٧٣١)، وابن ماجه (٨٩٧)، وأحمد (٢٣٤٢٣)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٤/ ٢٧، ٢٨ (٨١٨).

(٧) عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنْ رَمَضَانَ فِي حُجْرَةٍ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ، قَالَ: فَقَامَ فَكَبَّرَ، فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ ذُو الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ، وَذُو الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ». ثُمَّ افْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقَرَأَ، فَقُلْتُ: يَبْلُغُ رَأْسَ الْمِائَةِ، ثُمَّ قُلْتُ: يَبْلُغُ رَأْسَ الْمِائَتَيْنِ. قَالَ: ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا لَا يَمُرُّ بِآيَةِ التَّخْوِيفِ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ مِثْلَ مَا قَامَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». يُرَدِّدُهُنَّ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ» مِثْلَ مَا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ مِثْلَ مَا قَامَ، يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» وَيَقُولُ بَيْنَ=

٢٥) افتراش الرجل اليسرى ونصب اليمنى في الجلوس بين السجدتين وفي التشهد الأول؛ لحديث عائشة ﵂ قالت: «.. وَكَانَ يَفْرِشُ رِجْلَهُ الْيُسْرَى وَيَنْصِبُ رِجْلَهُ الْيُمْنَى..»[(١)].

٢٦) وضع اليد اليمنى على الفخذ اليمنى واليسرى على اليسرى إذا جلس في الصلاة؛ لحديث عبد الله بن الزبير ﵄ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَعَدَ يَدْعُو وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، وَيَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُسْرَى، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، وَوَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَى إِصْبَعِهِ الْوُسْطَى، وَيُلْقِمُ كَفَّهُ الْيُسْرَى رُكْبَتَهُ»[(٢)].

٢٧) وضع الذراعين على الفخذين في التشهد، وفي الجلوس بين السجدتين؛ لحديث وائل بن حُجر ﵁ «أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ فِي الصَّلَاةِ فَافْتَرَشَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى وَوَضَعَ ذِرَاعَيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ..»[(٣)].

٢٨) قبض جميع أصابع اليد اليمنى في التشهدين الأول والثاني إلا السبابة، ويُشار بها عند قوله: إلا الله. وإدامة رفعها بلا تحريك إلى القيام[(٤)]؛ لحديث ابن عمر ﵄ «أَنَّ

=السَّجْدَتَيْنِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي». الدارمي (١٣٢٤)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات. والحاكم (١٢٠١)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. وَفِي الْجُلُوسِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ يُسَنُّ الاسْتِغْفَارُ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ، وَالْمَالِكِيَّةِ، وَالشَّافِعِيَّةِ، وَهُوَ قَوْلٌ عَنْ أَحْمَدَ... وَإِنَّمَا لَمْ يَجِبِ الاسْتِغْفَارُ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُعَلِّمْهُ الْمُسِيءَ صَلَاتَهُ، وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّهُ وَاجِبٌ، وَهُوَ قَوْلُ إِسْحَاقَ وَدَاوُدَ، وَأَقَلُّهُ مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَأَقَلُّ الْكَمَالِ ثَلَاثٌ، وَالْكَمَالُ لِلْمُنْفَرِدِ مَا لَا يُخْرِجُهُ إِلَى السَّهْوِ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلإِمَامِ: مَا لَا يَشُقُّ عَلَى الْمُصَلِّينَ. الموسوعة الفقهية الكويتية ٤/ ٣٩.

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يجمع صفة الصلاة وما يفتتح به ويختم به وصفة الركوع، (٤٩٨)، وأبو داود (٧٨٣)، وأحمد (٢٥٦٥٨).

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صفة الجلوس في الصلاة وكيفية وضع اليدين على الفخذين، (٥٧٩).

(٣) النسائي: كتاب صفة الصلاة، موضع الذراعين (١١٨٧)، والطبراني: المعجم الكبير (١٧٩٢٩)، وبلفظ: «ثُمَّ جَلَسَ فَافْتَرَشَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُسْرَى، وَوَضَعَ ذِرَاعَهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ أَشَارَ بِسَبَّابَتِهِ، وَوَضَعَ الإِبْهَامَ عَلَى الْوُسْطَى، وَقَبَضَ سَائِرَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ سَجَدَ، فَكَانَتْ يَدَاهُ حِذَاءَ أُذُنَيْهِ». أحمد (١٨٨٧٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات.

(٤) قال الجزيري: المالكية قالوا: يندب في حالة الجلوس للتشهد أن يعقد ما عدا السبابة والإبهام تحت الإبهام من يده اليمنى؛ وأن يمدَّ السبابة والإبهام، وأن يحرك السبابة دائمًا يمينًا وشمالًا تحريكًا وسطًا. والحنفية قالوا: يرفع سبابته عند نفي الألوهية عما سوى الله تعالى بقوله: لا إله إلا الله. ويضعها عند إثبات الألوهية لله وحده بقوله: إلا الله. والحنابلة قالوا: يعقد الخنصر والبنصر من يده، ويحلق بإبهامه مع الوسطى، ويشير بسبابته في تشهده ودعائه عند ذكر لفظ الجلالة، ولا يحركها. والشافعية قالوا: يقبض جميع أصابع يده اليمنى في تشهده إلا السبابة، وهي التي تلي الإبهام، ويشير بها عند قوله: إلا الله. ويديم رفعها بلا تحريك إلى القيام في التشهد الأول، والسلام في =

رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا قَعَدَ فِي التَّشَهُّدِ وَضَعَ يَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُسْرَى، وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُمْنَى، وَعَقَدَ ثَلَاثَةً وَخَمْسِينَ[1]، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ»[2].

٢٩) جلسة الاستراحة قبل القيام إلى الركعة الثانية، والركعة الرابعة؛ لحديث أبي هريرة ﷺ في قصة المسيء صلاته، وفيه: «ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»[3].

٣٠) التورُّك في التشهد الثاني؛ لحديث أبي حُميد الساعدي ﷺ قال: «.. حَتَّى إِذَا كَانَتِ السَّجْدَةُ الَّتِي فِيهَا التَّسْلِيمُ أَخَّرَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى وَقَعَدَ مُتَوَرِّكًا عَلَى شِقِّهِ الْأَيْسَرِ...»[4]. وفي رواية له أيضًا: «.. فَإِذَا كَانَ فِي الرَّابِعَةِ أَفْضَى بِوَرِكِهِ الْيُسْرَى إِلَى الْأَرْضِ، وَأَخْرَجَ قَدَمَيْهِ مِنْ نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ»[5].

٣١) النظر إلى السبابة[6] عند الإشارة بها في الجلوس؛ لحديث عبد الله بن الزبير ﷺ «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا قَعَدَ فِي التَّشَهُّدِ وَضَعَ كَفَّهُ الْيُسْرَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُسْرَى وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ لَا يُجَاوِزُ بَصَرُهُ إِشَارَتَهُ»[7].

=الشهد الأخير، ناظرًا إلى السبابة في جميع ذلك. انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٤٠ بتصرف يسير.

(١) عقد ثلاثة وخمسين: هو أَنْ يَعْقِدَ الْخِنْصَرَ وَالْبِنْصِرَ وَالْوُسْطَى وَيُرْسِلَ الْمُسَبِّحَةَ وَيَضُمَّ الْإِبْهَامَ إِلَى أَصْلِ الْمُسَبِّحَةِ. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٣/ ١٩٦.

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب صفة الجلوس في الصلاة وكيفية وضع اليدين على الفخذين، (٥٨٠).

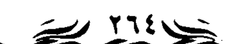
(٣) البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، (٥٨٩٧).

(٤) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب افتتاح الصلاة (٧٣٠)، واللفظ له، والترمذي (٣٠٤)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (١١٨٥)، وأحمد (٢٣٦٤٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن حبان (١٨٧٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣١٩ (٧٢٠).

(٥) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب افتتاح الصلاة (٧٣١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٢١ (٧٢١).

(٦) قال الجزيري: ناظرًا إلى السبابة في جميع ذلك. انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٤٠، وقال الزحيلي: ويشير بالسبابة (أو المُسبِّحة)، ويرفعها عند قوله: «إلا الله» ولا يحركها، لفعله ﷺ، ويديم نظره إليها. انظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي ٢/ ٩٠٤.

(٧) النسائي: كتاب صفة الصلاة، موضع البصر عند الإشارة (١١٩٨)، واللفظ له، وأبو داود (٩٩٠)، =



٣٢) الدعاء والتعوُّذ من أربع بعد التشهد الثاني؛ لحديث أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنْ أَرْبَعٍ؛ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»[1].

٣٣) التسليمة الثانية والالتفات يمينًا وشمالًا[2] في التسليمتين؛ لحديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قَالَ: «كُنْتُ أَرَى رَسُولَ الله ﷺ يُسَلِّمُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ حَتَّى أَرَى بَيَاضَ خَدِّهِ»[3].

- **مبطلات الصلاة:**

وهي الأمور التي تبطل الصلاة بفعلها؛ ومن ثَمَّ تجب إعادتها، وهي كالآتي:

١) الكلام العمد؛ لحديث زيد بن أرقم ﷺ قال: «كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ، وَنُهِينَا عَنِ الْكَلَامِ»[4].

= وأحمد (١٦١٤٥)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (١٩٤٤)، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤٢٧، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٤/ ١٤٥ (٩١٠). وقال العظيم آبادي: «لَا يُجَاوِزُ بَصَرُهُ إِشَارَتَهُ» أَيْ بَلْ كَانَ يُتْبِعُ بَصَرَهُ إِشَارَتَهُ لِأَنَّهُ الْأَدَبُ الْمُوَافِقُ لِلْخُضُوعِ، وَالْمَعْنَى لَا يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ حِينَ الْإِشَارَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ كَمَا هُوَ عَادَةُ بَعْضِ النَّاسِ بَلْ يَنْظُرُ إِلَى إِصْبَعِهِ وَلَا يُجَاوِزُ بَصَرُهُ عَنْهَا. انظر: عون المعبود وحاشية ابن القيم (٣/ ١٩٧).

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في صلاة، (٥٨٨)، وأبو داود (٩٨٣)، والنسائي (١٢٣٣)، وابن ماجه (٩٠٩)، وأحمد (٧٢٣٦).

(٢) قال الجزيري في سنن الصلاة: ومنها الالتفاف بالتسليمة الأولى جهة اليمين حتى يُرى خدُّه الأيمن، والالتفاف بالتسليمة الثانية جهة اليسار حتى يُرى خدُّه الأيسر، وهذا الحكم متفق عليه إلا عند المالكية... قالوا: يندب للمأموم أن يتيامن بتسليمة التحليل، وهي التي يخرج بها من الصلاة، وأما سلامه على الإمام فهو سنة، ويكون جهة القبلة، كما يُسَنُّ -أيضا- أن يُسَلِّم على مَنْ على يساره من المأمومين إن شاركه في ركعة فأكثر، وأما الفذ والإمام، فلا يُسَلِّمُ كل منهما إلا تسليمة واحدة هي تسليمة التحليل، ويندب لهما أن يبدآها لجهة القبلة ويختماها عند النطق بالكاف والميم من «عليكم» لجهة اليمين؛ بحيث يَرى مَنْ خلفهما صفحة وجهيهما، ويجزئ في غير تسليمة التحليل: سلام عليكم، وعليك السلام؛ والأولى عدم زيادة: ورحمة الله وبركاته في السلام مطلقًا، إلا إذا قصد مراعاة خلاف الحنابلة، فيزيد: ورحمة الله. مسلمًا على اليمين واليسار. انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٤٠.

(٣) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السلام للتحليل من الصلاة عند فراغها وكيفيته، (٥٨٢).

(٤) البخاري: كتاب التفسير، سورة البقرة، (٤٢٦٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، (٥٣٩)، واللفظ له.

٢) الضحك بصوت يسمعه المُصَلِّي أو غيره، وهو ما يُعَبَّر عنه بالقهقهة؛ قال ابن المنذر ﵀: «وأجمعوا على أن الضحك يفسد الصلاة»(١).

٣) الأكل والشرب، قال ابن المنذر ﵀: «وأجمعوا على أن من أكل أو شرب في صلاته الفرض عامدًا أن عليه الإعادة»(٢).

٤) كشف العورة عمدًا؛ لأن من شروط الصلاة ستر العورة(٣).

٥) عدم استقبال القبلة؛ لأن استقبال القبلة شرط من شروط الصلاة(٤).

٦) الحركة الكثيرة(٥).

٧) انتقاض الطهارة؛ لأنها شرط من شروط الصلاة؛ لحديث أبي هريرة ﵁ يرفعه، وفيه: «لَا تُقْبَلُ صَلَاةُ مَنْ أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ»(٦).

٨) تغيير النية: تبطل الصلاة بفسخ النية أو تردده فيها، أو عزمه على إبطالها أو نية الخروج من الصلاة، أو إبطالها وإلغاء ما فعله من الصلاة، أو شكه هل نوى أم لا، فعمل مع الشك عملاً.

٩) التسليم عمدًا قبل محله.

---

(١) ابن المنذر: الإجماع ص٣٩ رقم (٤٩).
(٢) ابن المنذر: الإجماع ص٣٩ رقم (٤٨).
(٣) التويجري: موسوعة الفقه الإسلامي ٢/ ٤٤٩، ٤٥٠، والجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٦٦.
(٤) انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ١٦٢، ١٦٣، وسيد سابق: فقه السنة ١/ ١٢٨، والتويجري: موسوعة الفقه الإسلامي ٢/ ٤٢٣، والعوايشة: الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة ١/ ٤١٦.
(٥) تبطل الصلاة بالعمل الكثير الذي ليس من جنس الصلاة، وهو ما يخيل للناظر إليه أن فاعله ليس في الصلاة، وهذا حدُّ العمل الكثير المبطل عند المالكية، والحنابلة، أما الشافعية فحدُّوا العمل الكثير بنحو ثلاث خطوات متواليات يقينًا، وما في معنى هذا؛ كوثبة واحدة كبيرة؛ ومعنى تواليها أن لا تعدَّ إحداها منقطعة عن الأخرى على الراجح؛ وإنما يبطل العملُ الكثيرُ إذا كان لغير عذر... وقال الحنفية: العمل الكثير ما لا يشكُّ الناظر إليه أن فاعله ليس في الصلاة، فإن اشتبه الناظر فهو قليل على الأصح. والعمل الكثير مبطل للصلاة؛ سواء وقع عمدًا أو سهوًا. انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٦٦، ٢٦٧ بتصرف، وانظر: سيد سابق: فقه السنة ١/ ٢٧٣، والتويجري: موسوعة الفقه الإسلامي ٢/ ٤٤٩، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ١٠٣١.
(٦) البخاري: كتاب الوضوء، باب لا تقبل صلاة بغير طهور، (١٣٥)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، (٢٢٥).

١٠) إذا ترك المُصَلِّي أحد فرائض الصلاة، أو شرطًا من شروطها، لغير عذر شرعي[1].

ولا شكَّ أن هناك تفصيلات كثيرة لم نخض فيها، وليُرْجَع في دراستها للكتب المختصَّة[2]، وهو أمر لازم لكلِّ مسلم ومسلمة، وبغير فقهه لا نخسر الخشوع فقط؛ بل يفسد الدين.

ولنترك هذا الفصل الفقهي، الذي قد يستصعبه البعض أو يستثقله، ونحن نتخيَّل موقفًا مهيبًا يوم القيامة يُبرز لنا أهمية الحرص على الاتباع لا الابتداع، ويبرز أهمية أن نُفَرِّغ من أوقاتنا وجهودنا وحياتنا جانبًا كبيرًا لـتَعَلُّم سُنَّة الرسول ﷺ، في الصلاة وغيرها، وليُصبح هدفنا الواضح هو أن نَتَّبع هداه..

يقول سهل بن سعد رضي الله عنه: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ..
مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا!
وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي
ثُمَّ...
يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ!!

---

(١) ترك ركن لعذر شرعي مثل العجز عن القيام للمريض والأسير الخائف أن يعلموا بصلاته، قال ابن القصار المالكي: العاجز في الصلاة عن ركن من أركانها يأتي ببدله حسب عجزه عنه، ولا يحتاج إلى بدل لما لم يعجز عنه. عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار ٣/ ١٢٠١، والقيام في صلاة الفريضة ركن من أركانها، ولكن إذا كان المصلي لا يستطيع القيام فإنه يصلي وهو جالس. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة (المجموعة الأولى) الفتوى رقم (١١٠٩٥) ٨/ ٧٥، وقال ابن قاسم: مَنْ ترك شرطًا لغير عذر ولو سهوًا بطلت صلاته، وإن كان لعذر - كمن عَدِم الماء والتراب أو السترة أو حبس بنجسة - صحَّت صلاته. انظر: حاشية الروض المربع ٢/ ١٣١، ٣٧٠، وسيد سابق: فقه السنة ١/ ٢٧٣، والتويجري: موسوعة الفقه الإسلامي ٢/ ٤٤٩، والعوايشة: الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة ٢/ ٣٠٥، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ١٠٣٨.

(٢) مثل الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، وسيد سابق: فقه السنة، والتويجري: موسوعة الفقه الإسلامي، وسعيد بن علي بن وهف القحطاني: أركان الصلاة، وواجباتها، وسننها، ومكروهاتها، ومبطلاتها في ضوء الكتاب والسنة، وحسين بن عودة العوايشة: الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة، وأبو مالك كمال بن السيد سالم: صحيح فقه السنة وأدلته وتوضيح مذاهب الأئمة، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، والألباني: صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها، وابن باز: كيفية صلاة النبي ﷺ، ومحمد بن عبد الوهاب: أحكام الصلاة، وأبو عبد الرحمن عادل بن سعد: الجامع لأحكام الصلاة وصفة صلاة النبي ﷺ للأئمة الأعلام.

فَأقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي!
فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ..
فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»(١)!

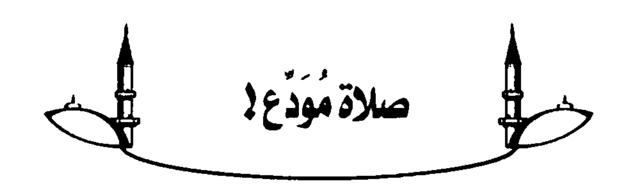
نصيحتي:

أعدْ قراءة الفصل!
بل عفواً.. أعد «دراسة» الفصل!!

***

(١) البخاري: كتاب الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٥]، (٦٦٤٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، (٢٢٩٠)، (٢٢٩١).





صلاة مُوَدِّع!

غدروا به!

أعطَوْه العهد والميثاق، فظنَّ فيهم خيرًا، وما أدرك أنهم من جنس اللئام!

قيَّدُوه وحبسوه.. وبعد أيام أخرجوه..

لا للحرية.. ولكن للقتل!

ألك طلب قبل أن تموت؟! قال الطغاة..

ركعتين..

فقط ركعتين!

هكذا أجاب خبيب بن عدي ﷺ..

دَعُونِي أُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ.

فَتَرَكُوهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ.. ثم قال أعجب كلام:

قَالَ: وَاللهِ لَوْلَا أَنْ تَحْسِبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ!

ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا، وَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا..

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ للهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فَلَمَّا وَضَعُوا فِيهِ السِّلَاحَ، وَهُوَ مَصْلُوبٌ، نَادَوهُ وَنَاشَدُوهُ: أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟

قَالَ: لَا وَاللهِ الْعَظِيمِ..

مَا أُحِبُّ أَنْ يَفْدِيَنِي بِشَوْكَةٍ فِي قَدَمِهِ[1]!

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، (٣٩٨٩).

فقاموا إليه.. وطعنوه!!

ما أعجبها من صلاة، تلك التي صلّاها قبل أن يموت!

أتدرون أنها صارت سُنَّةً للمسلمين؟!

لقد كان خبيب ﷺ أول من سَنَّ ركعتين عند القتل..

لا شكَّ أنها كانت خاشعة..

بل شديدة الخشوع..

وعن هذه الصلاة.. نبحث!!

ليس من قبيل المصادفة أبدًا أن يُوَفَّق صحابي إلى عمل ما دون سابق وجود، ثم يُقِرُّه رسول الله ﷺ، فيُصبح -كما يقول علماء الأصول- سُنَّة تقريرية.. أي أن الفاعل لها صحابي؛ لكن الرسول ﷺ أقرَّها؛ ومن ثَمَّ صارت جزءًا من الشريعة نتعبَّد به اللهَ ﷻ!

هذا لا يمكن أن يكون بالمصادفة!

حاش لله أن يكون شَرْعُ الله ابتكارًا من البشر دون متابعة من الوحي.. إنما الصواب أن الله ﷻ اطَّلع على الصدق في قلوب بعض عباده، فأراد أن يُعطيهم كرامة خاصَّة لا يبقى أثرها عامًا أو عامين فقط، إنما يبقى أثرها إلى يوم الدين! فأجرى على قلوبهم وجوارحهم أعمالًا معينة هي من صميم الشريعة؛ فصارت منسوبة إليهم؛ بينما المشَرِّع هو الله ﷻ بما يسَّره لهم.

مثال ذلك ركعتا سنة الوضوء، وقد بدأهما بلال ﷺ كما مرَّ بنا في صفحات هذا الكتاب، ولم يكن يفعلهما رسول الله ﷺ؛ ولكنه أقرَّه عليهما؛ بل مدحه وأثنى عليه، فصارت بذلك سُنَّةً لكل المسلمين إلى يوم الدين، وبالتالي فإن بلالًا ﷺ يأخذ أجرًا مساويًا لأجر كلِّ مَنْ يُصَلِّيهما بعد الوضوء إلى آخر الدنيا!

ومثال ذلك -أيضًا- الأذان، فإنه لم يأتِ رسولَ الله ﷺ عن طريق الوحي؛ إنما جاء عن طريق رؤيا رآها عبد الله بن زيد بن عبد ربه ﷺ، وأقرَّه الرسول ﷺ، فصار الأذان بهذه الكيفية سُنَّة تقريرية، ويأخذ عبد الله بن زيد بن عبد ربه ﷺ أجرًا مساويًا لأجر كلِّ مؤذِّن إلى يوم القيامة!

وبين أيدينا في هذا الفصل موقف خبيب بن عدي ﷺ، وهو أول مَنْ سنَّ سُنَّة صلاة

ركعتين عند القتل، وأقرَّهما رسول الله ﷺ، فصارت هذه الصلاة جزءًا من الدين، وصار أجر خبيب بن عدي ﷺ مساويًا لأجر كلِّ مَنْ صلى هذه الصلاة عند اقتراب لحظة قتله.

هذا الأمر لا يأتي من فراغ، ولا بُدَّ من تحليل مثل هذه المواقف حتى نُدرك طبيعة هذا الدين المحكم وأصوله..

إن هذه الصلاة التي صلاها خبيب ﷺ صلاة خاصة جدًّا لها سمات معينة، جعلتها أهلًا لهذه المكانة المرموقة.. فما أهم ما يميز هذه الصلاة؟!

هل كان الطول هو المميِّز لها؟!

أبدًا.. لقد كانت صلاة سريعة تجوَّز فيها خبيب ﷺ عمدًا..

هل كانت في وقت شريف معروف كجوف الليل، أو رمضان، أو الأشهر الحُرُم؟

أبدًا إنها كانت في وضح النهار، وفي شهر صفر بعد أن انتظر المشركون حتى تخرج الأشهر الحُرُم لئلا يتمَّ فيها قتل.

فهل كانت في مكان شريف كالكعبة مثلًا، أو في الحرم المكي؟

أبدًا.. إنما خرجوا به من الحرم إلى الحِلِّ؛ أي إلى التنعيم، لئلا يكون القتل في البلد الحرام!

إن السرَّ في عظمة الصلاة ليس في طولها ولا توقيتها ولا مكانها..

إنها أحد أسرارها الكثيرة كان في خشوعها!

والسؤال الذي سينقلنا إلى واجب عملي: ولماذا كانت هذه الصلاة أكثر خشوعًا من صلوات كثيرة أخرى؟!

لأنها -ببساطة- كانت صلاة رجل مُقبِلٍ على الموت! يعلم أنه سيُقْتَل بعد لحظات، وسوف يُحاسب في قبره بعد دقائق! وكيف لمن كانت هذه هي حالته ألا يخشع؟!

لكننا نتحدَّث عن واجب عملي! فهل ينبغي أن أُقبِلَ على القتل حتى أخشع في صلاتي؟!

نسأل الله العافية لكل مسلم، فليس هذا هو المقصود؛ إنما المقصود أن أستشعر وأنا مُقبل على صلاتي، وقبل أن أنطق بتكبيرة الإحرام، أن هذه هي آخر صلاة لي في الدنيا! وبعدها سأموت أو أُقتل، فكيف ستكون هذه الصلاة؟

إنها ستكون قريبة من صلاة خبيب ﷺ.. صلاة رجل يُوَدِّع الدنيا إلى لقاء ربِّه..

وهل احتمال الموت بعد الصلاة مباشرة احتمال ضعيف أو بعيد؟!

إنه احتمال قريب للغاية؛ بل الاحتمال الأقرب في كل لحظة أن نموت! ولا يستطيع أيُّ إنسان أن يجزم أنه سيعيش يومًا أو ساعة؛ ولكن الغفلة تجعلنا ننسى اقتراب هذه اللحظة.. لا نتعظ بالموتى الذين يتساقطون حولنا صباحًا ومساءً، ولا نعتبر بالشيب يدبُّ في شعرنا، ولا نلتفت إلى الأدواء تُصيبنا وتُصيب أحبابنا..

والله! إن أمرنا لعجيب!

إننا لا نحتاج أن نأتي بأدلَّةٍ فجاءةِ الموت وقربه من الإنسان، فكلنا يُدرك ذلك ويستوعبه، لكننا نحتاج إلى مناهج عملية تُذَكِّرنا بهذا الزائر الحتمي، وأنا على يقين أننا إذا داومنا على تَذَكُّر الموت فإن صلاتنا ستختلف؛ ولذلك حثَّنا رسول الله ﷺ على تَذَكُّر الموت كثيرًا؛ فقال: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ[(١)]»[(٢)]. ولم يُحَدِّد لنا وِرْدًا معيَّنًا لتذكُّرِه، فلم يقُلْ مثلًا: تذكَّرُوه في كل يوم مرَّة، أو في كل أسبوع مرَّة، أو أكثر من ذلك أو أقل؛ ولكنه ترك الأمر لنا، نتفاوت فيه حسب درجة إيماننا؛ فبينما لا يتذكر بعضُنا الموت إلا عند رؤية الموتى، أو عيادة المرضى، أو عند المواعظ والدروس، تجد أن عبد الله بن عمر ﷺ كان يقول: «إذا أمْسَيْتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحْتَ فلا تنتظر المساء»! فطول أمله لا يتعدى نصف يوم! وهكذا يشعر في كل صلواته أنه سيموت بعدها، فيخشع حتمًا فيها، وقد قال هذه الكلمات الواعية تعليقًا على حديث الرسول ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[(٣)].

إن الأمر مُخَوِّف حقًّا! وكلما عرفتَ جدية الأمر ازددت خوفًا وترقبًا.. لذلك كان أبو ذرٍّ الغفاري ﷺ يقول: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِيَوْمِ فَقْرِي؟ يَوْمَ أُوضَعُ فِي قَبْرِي»[(٤)].

---

(١) هاذم اللذات: بمعنى قاطعها، والمراد الموت، وهو إما لأن ذكره يُزْهِد فيها، أو لأنه إذا جاء ما يبقى من لذائذ الدنيا شيئًا. انظر: حاشية السندي على النسائي ٤/ ٤.

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكر الموت (٢٣٠٧)، وقال: حديث حسن. والنسائي (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وأحمد (٧٩١٢)، وابن حبان (٢٩٩٢)، وقال الألباني: حسن صحيح. انظر: صحيح الجامع (١٢١٠).

(٣) البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». (٦٠٥٣).

(٤) ابن الجزري: الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، ص٦٢، وأبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/ ٢١١.

إن الحصيف حقًّا هو الذي لا يترك مُذكِّرًا من مذكرات الموت إلا وانتبه إليه واستوعبه؛ فيحافظ دومًا على القضية حاضرة في ذهنه، وهذا بالتالي يحفظ له درجة خشوع لا تخفت..

وما برامجنا العملية لتذكُّر الموت؟

إنها كثيرة كثيرة!

يكفي أن نقرأ سيرة رسول الله ﷺ، لنتعلَّم منهجه في الحياة، ورؤيته للدنيا.. لقد كان ينظر إلى الدنيا كلها كأنها ساعة استراحة عابرة في رحلة سفر طويلة! يقول عَبْدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: نَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله؛ لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً. فَقَالَ: «مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[١]..

ثم نقرأ سيرة أصحابه وأتباعه ممن فَقِه هذا المعنى، وطبَّقه في حياته.. وما أفقه عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين؛ فقيل له: هذا شيء لم تكن تصنعه؟ فقال: ذَكَرْتُ أَهْلَ الْقُبُورِ، وَمَا حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَقَرَّبَ إِلَى الله بِهِمَا[٢].

ونكثر من دروس العلم، وحلق الذكر، ولنحرص على سماع العلماء الذين يوقظون قلوبنا، ويُذَكِّروننا بالموت والآخرة، وما أجمل الكلمات التي قالها ذو النون المصري في أحد دروسه: «تَوَسَّدُوا الْمَوْتَ إِذَا نِمْتُمْ، وَاجْعَلُوهُ نُصْبَ أَعْيُنِكُمْ إِذَا قُمْتُمْ، كُونُوا كَأَنَّكُمْ لَا حَاجَةَ لَكُمْ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا بُدَّ لَكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ»[٣]. وتخيَّل أنك حاضر في مثل هذا الدرس! كيف سيكون قلبك؟

ولنقرأ عن الجنة ونعيمها، ولْتحلم بها عقولنا، ولْتهفو إليها نفوسنا، وكان أبو عبد ربه يقول لمكحول: يا أبا عبد الله أتحبُّ الجنة؟ قال: ومَنْ لا يحبُّ الجنة؟ قال: فَأَحِبَّ الْمَوْتَ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى الْجَنَّةَ حَتَّى تَمُوتَ[٤].

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب من باب أخذ المال (٢٣٧٧)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (٣٧٠٩)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح. وأبو يعلى (٥٢٩٢)، والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما (٧٨٥٨)، وقال: حديث صحيح على شرط البخاري. وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٤٣٨).

(٢) ابن المبارك: الزهد ١/ ١٠ (٣٠)، وأبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ٤/ ٤٨٦.

(٣) البيهقي: الزهد الكبير، ص٢٦١ (٦٨٤).

(٤) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٥/ ١٧٧.

ولنحرص على اتباع الجنائز، وعيادة المرضى، والوقوف إلى جوار أصحاب الابتلاء والمصائب، فهذه من كبرى المذكرات بالموت..

ولْنجعل لأنفسنا نصيبًا من زيارة القبور؛ ولعل زيارة واحدة تكون أبلغ من ألف موعظة، وهذه وصية رسولنا ﷺ حيث قال: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا..»(١)..

كل هذا لنستوعب «عمليًّا» ما نفهمه جميعًا «نظريًّا»!

أليس كلنا يقرأ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

[المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]؟

لكن هل كلُّنا يُصَلِّي صلاته كما كان يُصَلِّيها خبيب بن عدي ﷺ وهو مُقبل على الموت؟

واقع الأمر أننا «نشكُّ» أننا سنموت قريبًا!!!

ولهذا يقول الحسن البصري ﷺ: «مَا رَأَيْتُ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكٍّ لا يَقِينَ فِيهِ مِنَ الْمَوْتِ»(٢)!!

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ: «مَا رَأَيْتُ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكٍّ لَا يَقِينَ فِيهِ، مِنْ يَقِينٍ نَحْنُ فِيهِ؛ فَلَئِنْ كُنَّا مُقِرِّينَ إِنَّا لَحَمْقَى، وَلَئِنْ كُنَّا جَاحِدِينَ إِنَّا لَهَلْكَى»(٣).

لكل ما سبق أقول: إن تذكُّر الموت قبل تكبيرة الإحرام كفيل بنقلة نوعيَّة لدرجة خشوع المُصَلِّي؛ ومن هنا نفهم التوجيهات النبوية الكثيرة التي تحضُّنا على تذكُّر الموت عند الصلاة خاصة..

يقول أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: عِظْنِي وَأَوْجِزْ؟ فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ»(٤).

---

(١) أبو داود: كتاب الجنائز، باب في زيارة القبور (٣٢٣٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ١١٤٨.

(٢) ابن المعتز: البديع في البديع ص١٢٥، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٧١، وعَنِ ابْنِ شَوْذَبٍ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: «مَا رَأَيْتُ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ مِنْ شَكٍّ لَا يَقِينَ فِيهِ مِنْ أَمْرِنَا هَذَا». ابن أبي الدنيا: اليقين ص٥٣، وابن الخراط: العاقبة في ذكر الموت ص٩٢.

(٣) انظر: الماوردي: أدب الدنيا والدين ص١٣٦.

(٤) ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحكمة، (٤١٧١)، وأحمد (٢٣٥٤٥)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٤٠١).



ما شاء الله!

الوصية جامعة.. وخلاصتها تذكُّر الموت! فالأمور الثلاثة التي أوصى بها رسول الله ﷺ تصب في هذا المعنى؛ فالأمر الأول هو صلاة مودِّع للدنيا، وهي صلاة خبيب ﷺ التي وصفناها في أول كلامنا.. صلاة رجل مُقبل على موته والآخرة، مُوَدِّع لحياته والدنيا، والأمر الثاني هو السيطرة على الأعصاب واللسان؛ فلا يقع الإنسان فيما يندم عليه بعد الموت، والأمر الثالث زُهْدٌ فيما في أيدي الناس؛ لأنك مقبل على الموت ولا تحتاج ما معهم في آخرتك!

وفي موقف آخر يروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ كَأَنَّكَ تَرَاهُ[1]، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

ويُفَصِّل رسولُ الله ﷺ تفصيلًا جميلًا في الأمر، فيقول -كما روى أنس بن مالك ﷺ-: «اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِكَ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ»[3].

ما شعورك بعد قراءة هذه النصيحة المباشرة؟!

إنها الدواء الذي نبحث عنه من أول صفحات الكتاب!

ألسنا نبحث عن الخشوع؟

فها هو الطريق!

إن رسول الله ﷺ جزم بأن الذي يذكر الموت سيُحسِن صلاته: «لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ»..

وأتْبَع ذلك بوصية نادرة فقال: «وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا!»، فقد نتذكَّر الموت لكن لا نشعر بقربه جدًّا، أو قد نتأثَّر به بشكل عامٍّ دون أن نُسْقِط ذلك على

(١) أي كأنك ترى الله ﷻ، ومثاله ما جاء في حديث عمر بن الخطاب ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه عندما سُئِل عن الإحسان قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام، (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله، (٨).

(٢) الطبراني: المعجم الأوسط (٤٤٢٧)، وابن عساكر: معجم الشيوخ ١/ ٢٧٤، واللفظ له، والبيهقي: شعب الإيمان (١٠٠٦٠)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩١٤).

(٣) الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٤٣١، (١٧٥٥)، وقال السخاوي: وقال شيخنا(ابن حجر): إنه حسن. انظر: السخاوي: المقاصد الحسنة ص٢٢٦، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (١٤٢١)، (٢٨٣٩).

ذواتنا، فتأخذنا الشفقة على موتانا السابقين، أو نفكِّر في وضع خطة طويلة المدى للاستعداد للموت.. أمَّا المطلب النبوي الواضح فهو أن تعتقد أن هذه الصلاة تحديدًا هي الصلاة الأخيرة لك.. الأخيرة بمعنى الكلمة! فتشعر بشعور خبيب ﷺ، وهو يُدرك -إدراكًا لا يخالجه شكٌّ- أنه سيُقتل بعد هذه الصلاة!

لو شعرتَ هذا الشعور فإنك ستُدرك فورًا الفرق بين صلواتك السابقة، وهذه الصلاة الجديدة..

والآن أيها المودِّع!

ماذا تُريد من ربِّك في صلاتك الأخيرة؟!

ماذا يُريد رجل يدخل إلى قبره بعد سويعات؟!

لا أعتقد أنه سينشغل بدارٍ هو في سبيله إلى تركها نهائيًّا بلا عودة؛ ولكنه سينشغل حتمًا بدارٍ هو عليها قادم!

ماذا تُريد من ربِّك أيها المودِّع؟!

هل تُريد أن يُهوِّن الله عليك سكرات الموت؟

حقًّا إنها سكرات أليمة.. حتى على خير البشر ﷺ كانت أليمة! تروي عَائِشَةُ رضي الله عنها فتَقُولُ: إِنَّ مِنْ نِعَمِ الله عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ[1] وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ الله ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَلَيَّنْتُهُ فَأَمَرَّهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ -يَشُكُّ عُمَرُ بن سعيد أحد رواة الحديث- فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ». ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى». حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ[2]..

ألا تُريد أن يُخفَّف عليك مثل هذا الموقف؟

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهو أخوها.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (٤١٨٤).

يمكن أن تدعو بذلك في صلاتك الأخيرة!

ألا تريد أن تُوَفَّق إلى أن تكون آخر كلماتك في الدنيا: «لا إله إلا الله»؟

إننا نتكلم بكلام كثير جدًّا كل يوم؛ بل كل ساعة، ففرصة أن تكون كلمتك الأخيرة قبل موتك «لا إله إلا الله» فرصة بعيدة جدًّا، ولا يمكن اختيارها، إلا أن يشاء الله!

أنت تعلم أجر هذا الأمر.. فقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ -فيما رواه مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ-: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[١]..

فلماذا لا نطلب من الله في صلاتنا الأخيرة أن يُوَفِّقنا إلى هذا الأمر؟

وماذا تُريد في قبرك الذي ستدخله اليوم؟!

إنه مظلم موحش! قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا»[٢].. وسيأتيك فيها ملكان غليظان يسألانك عن أسئلة ثلاثة.. يقول رَسُولُ الله ﷺ -فيما يرويه أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ أَحَدُكُمْ أَوِ الْإِنْسَانُ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ. وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ؟..»[٣]. فماذا ستفعل؟ إن منظرهما المرعب قد تذهل معه الروح، فتفشل في الإجابة! ألا تتمنَّى تثبيتًا في هذا الموقف؟

يمكن أن تسأل اللهَ في صلاتك الأخيرة هذا، وقد كان رسول الله ﷺ حريصًا في كل صلاة أن يستعيذ من عذاب القبر؛ فقد روت عَائِشَةُ ﷺ أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا، فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ، فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكِ اللهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَقَالَ: «نَعَمْ، عَذَابُ الْقَبْرِ». قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ[٤].

وماذا ستفعل يا مسكين عندما تسمع في قبرك نفخة صاحب الصور، فتخرج من قبرك،

---

(١) أبو داود: كتاب الجنائز، باب في التلقين (٣١١٦)، والحاكم (١٢٩٩)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ١١٠٥.

(٢) مسلم: كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، (٩٥٦)، وأحمد (٩٠٢٥).

(٣) الترمذي: كتاب الجنائز، باب عذاب القبر (١٠٧١)، وقال: حديث حسن. وابن حبان (٣١١٧) واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٣٩١).

(٤) البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، (١٣٠٦)، واللفظ له، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر، (٥٨٤).

فتشهد ما لم يره قبل ذلك أحدٌ! ترى القبور قد بُعثِرت، وخرج الخلق أجمعون هائمون على وجوههم! ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].. هذا هو اليوم المعلوم.. اليوم المشهود.. اليوم العبوس القمطرير! ومهما جال بخاطرنا عن هذا اليوم فلن نصل إلى الحقيقة.. إنما فقط «نتصوَّر» بما وُصِفَ لنا في كتاب ربنا، وسُنَّة نبينا ﷺ.. قال عبدُ الله بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]»[1]..

هذا يوم البعث بأحداثه الجسيمة!

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١ - ١٣]..

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ١ - ٤]..

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٥]..

ألا تريد من ربِّك في صلاتك الأخيرة شيئًا بخصوص ذلك اليوم؟

ألا تتمنى أن تُبعَث آمنًا مطمئنًّا؟

ألا تحلم أن تكون حينئذٍ في ظلِّ عرش الرحمن؟

ولا شكَّ أنك لو تدبَّرت فيما بعد البعث والنشور لتمنَّيت أمورًا كثيرة تُريدها من ربك، ولا يملكها غيره..

---

(١) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة إذا الشمس كورت (٣٣٣٣)، وقال: حديث حسن. وأحمد (٤٨٠٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والحاكم (٨٧١٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رواه أحمد بإسنادين ورجالهما ثقات. انظر: مجمع الزوائد ٧/ ١٣٤، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٨١).

تُريد منه شيئًا عند تطاير الصحف!

تُريد منه شيئًا عند نصب الموازين!

تُريد منه شيئًا عند ظهور حوض رسول الله ﷺ!

تُريد منه شيئًا وأنت واقف بين يديه سبحانه!

تُريد منه شيئًا وأنت تقرأ كتابك!

تُريد منه شيئًا وأنت أمام الصراط توشك أن تمرَّ عليه!

ولا شكَّ أنك تريد جنة ونعيمًا..

وقد تُريد دخولها بغير حساب..

ولا شكَّ أنك تريد نجاة من النار وعذابها..

ألا تخاف من ذنوب وآثام قد تحملها على ظهرك في ذلك اليوم؟

ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]؟

ألا تشعر أن فرصتك الأخيرة لتُخَفِّف هذا الحِمْل على وشك الانقضاء؟!

ألا تشعر بضعف موقفك، وقلَّة حيلتك، فتُريد شافعًا لك في ذلك اليوم؟

فمَنْ تُريد مِنَ الشافعين؟!

فلتطلب في صلاتك الأخيرة مَنْ تُريد!

أتُريد رسول الله ﷺ؟!

إنه صاحب المقام المحمود، وهو قريب من ربِّه، حبيب له، ولو شفع لك فلن يردَّ الله له شفاعته، فلتلهج بالدعاء في صلاتك الأخيرة أن يكون هذا النبي الكريم شافعًا لك..

ومَن تُريد -أيضًا- من الشافعين؟

ادعُ الله الآن في فرصتك الأخيرة بمَنْ تُريد..

لو كنتَ تُريد القرآن شافعًا أو الصيام..

لو كنتَ تُريد ملائكة الرحمن والمسبِّحين حول العرش..

اطلب ما تريد..

ولو لم تطلب الآن في صلاتك الأخيرة، فمتى ستطلب إذًا؟!!

إن الأمر جِدٌّ لا هزل فيه..

وغفلة الناس حماقة، فلا تكونن من الغافلين..

فاحزم حقائبك أيها المودِّع..

قد اقترب السفر..

فلا تخرجنَّ إليه بغير زاد!

فما فعل ذلك أحد إلا هلك!

فإياك أن تكون من الهالكين!!

ولنختم هذا الفصل وفي آذاننا كلمات نبينا ﷺ:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَاهُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ مَلَكَانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ وَالْآخَرُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيْهِ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِهِ: اضْرِبْ مَثَلَ هَذَا وَمَثَلَ أُمَّتِهِ. فَقَالَ:

إِنَّ مَثَلَهُ وَمَثَلَ أُمَّتِهِ كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ انْتَهَوْا إِلَى رَأْسِ مَفَازَةٍ[١]..

فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنَ الزَّادِ مَا يَقْطَعُونَ بِهِ الْمَفَازَةَ، وَلَا مَا يَرْجِعُونَ بِهِ!

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَتَاهُمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ حِبَرَةٍ[٢]..

فَقَالَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً، وَحِيَاضًا رِوَاءً، أَتَتَّبِعُونِي؟

فَقَالُوا: نَعَمْ.

---

(١) المَفَازَة: البَرِّيَّة القفر. والجمع: المَفَاوِز، سُمِّيت بِذَلِكَ لِأَنَّهَا مُهْلِكَة، مِن فَوَّزَ إِذَا مَاتَ. انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٤٧٨.

(٢) حِبَرَة: ما كان من البرود (أي كساء) مخططًا، من التحبير وهو التزيين، والحِبِير: هو ثوب مزين مخطط، وقيل: جديد. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ١٠١، وقال السندي: وتشبيهه ﷺ بصاحب الحلة واعتباره صاحب حلة لما معه من علامة الصدق في دَعْوَاهُ؛ لأنَّ الحلة في ذلك المحل تشهد بصدقه. انظر: السندي: حاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٢/ ٤٧٧.

قَالَ: فَانْطَلَقَ بِهِمْ، فَأَوْرَدَهُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً، وَحِيَاضًا رُوَاءً، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا وَسَمِنُوا..

فَقَالَ لَهُمْ: أَلَمْ أَلْقَكُمْ عَلَى تِلْكَ الحَالِ فَجَعَلْتُمْ لِي إِنْ وَرَدْتُ بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَةً وَحِيَاضًا رُوَاءً أَنْ تَتَّبِعُونِي؟

فَقَالُوا: بَلَى.

قَالَ: فَإِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ رِيَاضًا أَعْشَبَ مِنْ هَذِهِ، وَحِيَاضًا هِيَ أَرْوَى مِنْ هَذِهِ، فَاتَّبِعُونِي..

قَالَ:

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ صَدَقَ وَاللهِ لَنَتَّبِعَنَّهُ..

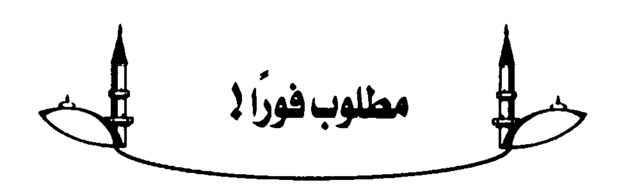
وَقَالَتْ طَائِفَةٌ قَدْ رَضِينَا بِهَذَا نُقِيمُ عَلَيْهِ[1]»[2]!!!

فانظر يا أيها المودّع مِنْ أي الطائفتين أنت؟!

---

(١) معنى المثل أن رسول الله ﷺ جاءنا بالهدى والنور والخير، فانتقلت به الأمة من الضعف إلى القوة، ومن التبعية إلى السيادة، ومن الذلة إلى العزة، وفُتحت لنا الدنيا، ولم يكن كل ذلك إلا لأننا اتبعناه، ثم بعد ذلك دعانا إلى الجنة ونعيمها، فتحمست طائفة وسارت وراءه، وتكاسلت طائفة ورضيت بالدنيا!

(٢) أحمد (٢٤٠٢)، والحاكم (٨٢٠٠)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، والطبراني: المعجم الكبير (١٢٩٧٣)، والهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/ ١٣١، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني والبزار وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٠.



استدعاء فوري!

قد نادى منادٍ بصوت عالٍ:

مطلوبٌ لمقابلة الملك!

أرْهَفْتَ السمعَ، وكَتَمْتَ الأنفاس، لِتعرف مَنْ هو الشخص المطلوب، وماذا يُريدون منه..

اقترب صوت المنادي..

واقترب..

مَنِ المطلوب؟

إنه أنت!!

أنا؟!!

وماذا يُريد مني الملك؟

ومَنْ أنا حتى يطلبني الملك؟!

هل يُريد تفضلًا وإنعامًا؟

أم يُريد عقابًا وإيلامًا؟

اقترب المنادي أكثر وأكثر، واختلط صوته بدقَّاته على بابك:

مطلوب لمقابلة الملك.. مطلوب لمقابلة الملك..

لَبِسْتَ بسرعة ثيابك، وخرجت ملهوفًا!

مِن هنا.. مِن هنا.. الطريق مِن هنا..

أسرعتَ الخطا.. ووصلتَ!..

باب فخم موصود، وحرَّاس كُثُر..

ماذا أفعل؟!

قال الحرَّاس المبتسمون: دُقَّ الباب يا مطلوب.. فلو دَقَقْتَه فَتَح لك، ولو فَتَح لك فأنت في حضرته!

قلتَ متعجبًا: هل هكذا ببساطة؟ أدقُّ باب الملك، فيفتح بنفسه لي؟

قالوا: نعم.

قلتَ مبهورًا: وهل ندقُّ بابَه كما ندقُّ أبوابنا؟!

قالوا: لا.. إنَّ دَقَّةَ بابِهِ كلمة!

قلتَ بلهفة: ما هي؟

قالوا: الله أكبر!

فلو قُلْتَهَا فَتَح لك.. ولو فَتَح لك فأنت في حضرته.. وعندها تعرف ماذا يُريد منك.. ولعلَّك أنت -أيضًا- تُريد منه شيئًا.. فالأمر بينك وبينه!..

قلتَ: عجيبٌ!!

تسارعتْ دقاتُ قلبك.. وشعرتَ بقشعريرة تغزو جسدك.. واستعدَّ لسانُك وعقلك لنُطق الكلمة الفاتحة.. ثم استجمعتَ قواك كلها.. وقُلْتَهَا!!

الله أكبر!

حقيقة الأمر -أيها المؤمنون والمؤمنات- أن الصلاة حوار بين العبد وبين مَلِك السموات والأرض.. الله رب العالمين! وهذا يظهر من منطوقها.. الصلاة.. فالصلاة هي صلة بين العبد وبين ربِّه، يعرف فيها العبد ما يُريده الله منه، ويطلب فيها ما يُريده من الله ﷻ..

ولا يتمُّ حوار الصلاة هذا إلَّا بدخولٍ على الله.. ولا يتمُّ هذا الدخول إلَّا بتكبيرة الإحرام.. فهي أول الدخول إذًا.. ومن ثَمَّ فهي ركن من أركان الصلاة، لا تصحُّ الصلاة دونها.. قال رسولُ الله ﷺ: «**مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ**»[1]..

ولكونها على هذه الدرجة من الأهمية -فهي بمثابة «دقَّة باب» المَلِك!- فإنه يجب الاهتمام بها بشكل خاصٍّ.. وقناعتي التامَّة أنه لو أعطيناها قدرها لتضاعف خشوعنا! وكيف لا يخشع مَنْ يُدرك أنه بعد ثوانٍ يكون في حضرة مَلِك السموات والأرض!

---

(١) أبو داود: كتاب الطهارة، باب فرض الوضوء (٦١) عن علي بن أبي طالب ﷺ، والترمذي (٣)، وابن ماجه (٢٧٥)، وأحمد (١٠٠٦)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره وإسناده حسن. وحسنه ابن حجر، انظر: ابن حجر: نتائج الأفكار ٢/ ٢٣٠، ٢٣١، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ١/ ١٠٢ (٥٥).

ولكي نُحسن اهتمامنا بها أرى أن هناك أمورًا لا بُدَّ أن نُراعيها قبل النطق بها، وعند النطق بها، وبعد النطق بها! ثم بعد ذلك سيبدأ الحوار مع الغفَّار القهَّار بصورة أكثر خشوعًا إن شاء الله!

أولًا: قبل النطق بتكبيرة الإحرام عليك بالأمور التالية:

١) قف في خشوع مطأطأً رأسك، ناظرًا إلى موضع سجودك، مستحضرًا أنك ستُعطى الفرصة للحوار مع الله ربِّ العالمين!

٢) لا تدخل إلى هذه اللحظة الخالدة وأنت تتحدَّث مع الناس، أو تلتفت إليهم؛ ولكن احرص أن تكون صامتًا ساكنًا..

٣) أغلِق محمولك تمامًا! وتخيَّل أنك في «عصر ما قبل المحمول»!! وستجد عندها الأمر بسيطًا وميسورًا!

٤) تيقَّن من استقبالك للقبلة استقبالًا صحيحًا؛ خاصَّة لو كنت تُصَلِّي صلاة فردية خارج المسجد.

٥) تيقَّن كذلك من طهارة ثيابك؛ لئلا تدخلك الوساوس أثناء الصلاة.

٦) وتيقَّن -أيضًا- أنك على وضوء! وهذا باب كبير من أبواب الشيطان يدخل به على المُصَلِّين، فيُشَكِّكهم في طهارتهم، فيضيع الخشوع.

٧) استحضر نيَّتك بوضوح.. فالنية تسبق تكبيرة الإحرام؛ وهي ركن كذلك، ولا تصحُّ صلاة بغيرها، وغالب الفقهاء على أن النية في القلب، ولا يُتلفَّظ بها[1]، وينبغي في نيتك أن تُفرِّق بين الفريضة والنافلة، وإذا كانت الصلاة فريضة فلتعرف بوضوح إن كانت ظُهْرًا أم عَصْرًا أم غير ذلك.. والواقع أن الشيطان يدخل أحيانًا في الصلاة لبعض المُصَلِّين، فيُلقي في روعهم أنهم أخذوا نية خاطئة،

---

(١) قال الزحيلي: النية محلها القلب؛ إذ هي عبارة عن القصد، ومحل القصد القلب، فمتى اعتقد بقلبه أجزأه، وإن لم يتلفظ بلسانه، أما إن لم تخطر النية بقلبه، فلم يُجزئه الفعل الحاصل، والأولى عند المالكية ترك التلفظ بالنية، ويُسَنُّ عند الشافعية والحنابلة التلفظ بها، إلا أنَّ المذهب عند الحنابلة أنه يستحب التلفظ بها سرًّا، ويكره الجهر بها وتكرارها، والحنفية قالوا: إن التلفظ بالنية بدعة، ويستحسن لدفع الوسوسة. انظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ١/ ٣٨٠، وانظر آراء الفقهاء في النية: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ١/ ٧٧٤-٧٨٠، وانظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ١٩٢-١٩٥، والموسوعة الفقهية الكويتية ٤٢/ ٥٩ وما بعدها.



فيذهب الخشوع حين يبدأ المُصَلِّي في تذكُّر نِيَّته التي بدأ بها الصلاة!

٨) لا يجوز جمع النوايا مع نية صلاة الفريضة، اللهمَّ ما ذكره بعض الفقهاء من جواز جمع نية تحية المسجد مع صلاة الفريضة[١]؛ والأمر أيسر في النوافل، حيث أجاز معظم الفقهاء جمع تحية المسجد مع السنة القبليَّة[٢].

٩) ومع ذلك فيمكنك -مع النية الأساسية التي لا بُدَّ أن تأخذها- أخذ نوايا أخرى ترفع من درجة خشوعك؛ وذلك مثل أخذ نية التوبة من الذنوب، وأنك ترجو من هذه الصلاة مغفرة كاملة لخطاياك، ولا مانع أن تستحضر ذنبًا معينًا تشعر أنه كبير، وأنك تخاف من عاقبته، وبالتالي فأنت تُصَلِّي راجيًا من الله أن يمحو لك ذلك الذنب وغيره، وهذا كفيل بزيادة الخشوع لأنك صرت خائفًا، والخوف طريق الخشوع.

١٠) استحضر حاجات الدنيا والآخرة التي تُريد تحقيقها، واعلم أنك على أعتاب مقابلة مَلِك السموات والأرض؛ الذي بيده خزائن الرحمة، الذي يقول للشيء: كن. فيكون، الذي يمكن أن يُفَرِّج كربك، ويُزيل همك، ويقضي دينك، ويشفي ولدك، ويرفع الظلم عنك، ويجلب الخير لك، ويُسخِّر الخلق لخدمتك.. فلو غلب

---

(١) في الموسوعة الفقهية الكويتية «التشريك في النية»: أن ينوي مع العبادة المفروضة عبادة أخرى مندوبة، وفيه صور: منها ما لا يقتضي البطلان ويحصلان معًا، ومنها ما يحصل الفرض فقط، ومنها ما يحصل النفل فقط، ومنها ما يقتضي البطلان في الكل. فمن الأول: أحرم بصلاة ونوى بها الفرض والتحية، صحت، وحصلا معًا، وكذا لو نوى بسلامه الخروج من الصلاة والسلام على الحاضرين، أو نوى حج الفرض وقرنه بعمرة تطوعًا أو عكسه، ونحو ذلك. ومن الثاني: نوى بحجه الفرض والتطوع وقع فرضًا؛ لأنه لو نوى التطوع انصرف إلى الفرض. ومن الثالث: أخرج خمسة دراهم ونوى بها الزكاة وصدقة التطوع، لم تقع زكاة ووقعت صدقة تطوع. ومن الرابع: كبر المسبوق والإمام راكع تكبيرة واحدة ونوى بها التحرم والهوي إلى الركوع... لم تنعقد الصلاة أصلًا للتشريك؛ لأن تكبيرة الإحرام ركن لصلاة الفرض والنفل معًا، ولم يتخصص هذا التكبير للإحرام بأيهما، فلم تنعقد فرضًا وكذا نفلًا؛ إذ لا فرق بينهما في اعتبار تكبيرة الإحرام، وفي وجه: تنعقد الصلاة نفلًا كمسألة الزكاة السابقة؛ لأن الدراهم لم تجزئ عن الزكاة فبقيت تبرعًا، وهذا معنى صدقة التطوع. الموسوعة الفقهية الكويتية ٤٢/ ٩٢.

(٢) ذكر الزحيلي في «الجمع بين عبادتين بنية واحدة»: قال الحنفية... وأما إذا نوى نافلتين، كما إذا نوى بركعتي الفجر التحية والسنة أجزأت عنهما. وذكر السيوطي: لو نوى مع النفل نفلًا آخر فلا يحصلان، لكن لو نوى صوم يوم عرفة والاثنين مثلًا، فيصح. أما لو نوى سُنَّتين: فإن لم تدخل إحداهما في الأخرى كسنة الضحى وقضاء سنة الفجر، فلا تنعقدان عند التشريك بينهما. وأما إن دخلت إحداهما في الأخرى كتحية المسجد وسنة الظهر مثلًا، فتنعقدان؛ لأن التحية تحصل ضمنًا. الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ١/ ١٨٦، ١٨٧.

على قلبك هذا الشعور فإن الخشوع متحقِّق بإذن الله.

١١) استحضر نية أن يُلهمك الله الصواب، وأن يُؤتيك الحكمة، وأن يُبَصِّرك بالاختيار السليم في الأمور كلها، أو في أمر معيَّن تتحيَّر فيه؛ فالمرء قد يشعر أنه يسير في طريق مظلم لا يدري فيه أين الحق من الباطل، فتأتي الصلاة الخاشعة فتُنير له الطريق، وهو ما نفهمه من قوله ﷺ في الحديث: «.. وَالصَّلَاةُ نُورٌ..»[1].

١٢) استحضر كذلك نية الشكر لما أعطاه الله لك من نِعَم؛ وهي لا تُحصى؛ بل إنك لا بُدَّ أن تستحضر نية الشكر على أن جعلك مسلمًا، ولم يتركك تتردَّى في مهالك الكفر، كما أنه يستحقُّ الشكر لكونه قد يسَّر لك القيام بين يديه في هذه الصلاة، وهي نعمة حُرِم منها الكثير، فكن شاكرًا متواضعًا.. واذكر دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]. فهذا رجاء المقرَّبين والصالحين، وقد استجاب الله لك فيه وأقامك تُناجيه، فله الحمد والشكر.

١٣) وأخيرًا تذكَّر نصيحة الفصل السابق، من اعتبار هذه الصلاة هي صلاتك الأخيرة؛ ومن ثَمَّ فينبغي أن تُصَلِّيَ صلاة مودِّع لا يعود للدنيا أبدًا!

ويتضح من هذه النقاط الثلاث عشرة أن المسألة تحتاج إلى وقت وفكر.. فهذه الأمور لن تأخذ أقل من دقيقة أو دقيقتين، أو لعلَّه أكثر، كما أنها تحتاج إلى تركيز وهدوء، وبالتالي لن يُجْدِيَ نفعًا هنا أن نرفع أيدينا بالتكبير بمجرَّد وجودنا في مكان الصلاة؛ بل الأحرى أن نُهَيِّئَ أنفسنا بالأمور السابقة، وعندها ستحمل تكبيرة الإحرام معانيَ أخرى جديدة بالنسبة إلينا، وهذا لا شكَّ سينعكس بشكل مباشر على خشوعنا في الصلاة..

ثانيًا: أمور يجب مراعاتها عند النطق بتكبيرة الإحرام:

١) استحضار الانتقال إلى حضرة الملك!

٢) فقه معنى «الله أكبر».. والجملة مركبة من كلمتين: من اسم الجلالة «الله»، وكلمة «أكبر» بصيغة أفعل التفضيل، ومعناها أجل وأعظم؛ فكلمة «الله أكبر» معناها أن

---

(١) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، والنسائي (٢٢١٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، وأحمد (٢٢٩٥٩).

الله ﷻ أكبر من كل شيء في هذا الوجود، وأعظم وأجلُّ وأعزُّ وأعلى من كل ما يخطر بالبال.. وإذا كنا قد أدركنا ذلك لغةً فإننا يجب أن نعيشه معنًى! فالله أكبر من شواغلنا وعلائقنا، وهو أكبر من أحبابنا وأرحامنا، وهو أكبر من تجارتنا وأموالنا، وهو أكبر من كل حياتنا؛ ومن ثَمَّ فلا معنى للانشغال عنه بأي شيء من هذه الشواغل.

٣) يُلازم تكبيرة الإحرام رفع اليدين كما هو مشهور، وقد يوسوس الشيطان لك أنك رفعت يدك في توقيت غير صحيح؛ وبذلك يُخرجك عن الخشوع، وعلاج ذلك أن تعرف أن العلماء اختلفوا في توقيت الرفع، وقد نقل ابن حجر في الفتح ثلاثة أقوال للعلماء، فقال: (.. فِي رِوَايَةِ شُعَيْب: «يَرْفَعُ يَدَيْهِ حِينَ يُكَبِّرُ». فَهَذَا دَلِيل الْمُقَارَنَةِ، وَقَدْ وَرَدَ تَقْدِيمُ الرَّفْعِ عَلَى التَّكْبِيرِ وَعَكْسُهُ أَخْرَجَهُمَا مُسْلِمٌ فَفِي حَدِيثِ الْبَابِ عِنْدَهُ مِنْ رِوَايَةِ ابْن جُرَيْجٍ وَغَيْرِهِ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ بِلَفْظ: «رَفَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ كَبَّرَ». وَفِي حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ عِنْدَهُ: «كَبَّرَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ»). ثم رجَّح ابنُ حجرٍ بعد ذلك المقارنة؛ أن ترفع يديك وأنت تُكبِّر[1]؛ لكن في كل الأحوال مهما كان توقيت رفع اليدين فعندك حديث صحيح يُعَضِّد فعلك، فلا تترك للشيطان عليك سبيلًا!

٤) قد يُوَسْوِس لك الشيطان في صلاتك أنك لم ترفع يدك بالدرجة الصحيحة أثناء التكبير؛ ومن ثَمَّ يُخرجك عن الخشوع بكثرة التفكير في هذه المسألة؛ لهذا وجب عليك أن تعلم أولًا أن رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام سُنَّة وليست ركنًا، وهذا يعني أن مَنْ كبَّر تكبيرة الإحرام للصلاة ولم يرفع يديه، فإن صلاته صحيحة بالاتفاق، فلا يشرع تكرار رفعهما عند التكبير[2]، وثانيًا أن مستوى رفع اليدين قضية خلافية بين العلماء، وقد نقل ابن عبد البر رحمه الله كلامًا حكيمًا يُريح كل الأطراف، ويُذهب عنك وساوس الشيطان؛ فقال: «اخْتَلَفَتِ الْآثَارُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي كَيْفِيَّةِ رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الصَّلَاةِ؛ فَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ مَدًّا فَوْقَ أُذُنَيْهِ مَعَ رَأْسِهِ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ حَذْوَ أُذُنَيْهِ، وَرُوِيَ

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢١٨.

(٢) انظر: إسلام ويب، الفتوى رقم (١٤٦٧١٩) على الرابط التالي: www.islamweb.net.

عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُهُمَا إِلَى صَدْرِهِ، وَكُلُّهَا آثَارٌ مَحْفُوظَةٌ مَشْهُورَةٌ، وَأَثْبَتُ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ هَذَا؛ وَفِيهِ: «الرَّفْعُ حَذْوَ الْمَنْكِبَيْنِ». وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ بِالْأَمْصَارِ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي الْإِحْرَامِ حَذْوَ مَنْكِبَيْهِ، وَفِي غَيْرِ الْإِحْرَامِ دُونَ ذَلِكَ قَلِيلًا. وَكُلُّ ذَلِكَ وَاسِعٌ حَسَنٌ، وَابْنُ عُمَرَ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِهِ وَمَخْرَجِهِ، وكلُّ ذَلِكَ مَعْمُولٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِه»(١).

٥) تفكَّر العلماء في حكمة رفع اليدين عند التكبير على أقوال كثيرة؛ وحيث إنه ليس هناك دليل مباشر من القرآن أو السُّنَّة على المقصود فالأمر في محلِّ الاجتهاد، وقد أحببتُ أن أنقل هذه المعاني من الفتح لابن حجر ؒ؛ لأنها في مجموعها تُساعد على الخشوع في الصلاة؛ ومن ثَمَّ فهي وثيقة الصلة بموضوعنا.. قال ابن حجر: (.. الرَّفْعُ نَفْيُ صِفَةِ الْكِبْرِيَاءِ عَنْ غَيْرِ اللهِ وَقَدْ قَالَ فَرِيقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْحِكْمَةُ فِي اقْتِرَانِ رفع اليدين مع التكبير أَنْ يَرَاهُ -أي يرى الإمامَ- الْأَصَمُّ وَيَسْمَعَهُ الْأَعْمَى. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْإِشَارَةُ إِلَى طَرْحِ الدُّنْيَا وَالْإِقْبَالِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَقِيلَ إِلَى الاسْتِسْلَامِ وَالانْقِيَادِ لِيُنَاسِبَ فِعْلُهُ قَوْلَهُ: اللهُ أَكْبَرُ. وَقِيلَ إِلَى اسْتِعْظَامِ مَا دَخَلَ فِيهِ وَقِيلَ إِشَارَةٌ إِلَى تَمَامِ الْقِيَامِ وَقِيلَ إِلَى رَفْعِ الْحِجَابِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَعْبُودِ وَقِيلَ لِيَسْتَقْبِلَ بِجَمِيعِ بَدَنِهِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هَذَا أَنْسَبُهَا. وَقَالَ الرَّبِيعُ: قُلْتُ لِلشَّافِعِيِّ: مَا مَعْنَى رَفْعِ الْيَدَيْنِ؟ قَالَ: تَعْظِيمُ اللهِ وَاتِّبَاعُ سُنَّةِ نَبِيِّهِ. وَنَقَلَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: رَفْعُ الْيَدَيْنِ مِنْ زِينَةِ الصَّلَاةِ. وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «بِكُلِّ رَفْعٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِكُلِّ إِصْبَعٍ حَسَنَةٌ»)(٢).

(١) ابن عبد البر: الاستذكار ١/ ٤١٢، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٩/ ٢٢٩.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢١٨، وفيه ما نُقل عن ابن عمر ﭭ ذكره ابن عبد البر في التمهيد قال: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَثْرَمُ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْقَاسِمِ الْبَاهِلِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الله بْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عِيَاضُ بْنُ عَبْدِ الله الْفِهْرِيُّ أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ: لِكُلِّ شَيْءٍ زِينَةٌ وَزِينَةُ الصَّلَاةِ التَّكْبِيرُ وَرَفْعُ الْأَيْدِي فِيهَا. وعياض لم يسمع من ابن عمر ﭭ، أمَّا ما نُقل عن عقبة بن عامر ﭬ، فعن أَبِي الْمُصْعَبِ مِشْرَحِ بْنِ هَاعَانَ الْمَعَافِرِيِّ حَدَّثَ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ، يَقُولُ: «إِنَّهُ يُكْتَبُ فِي كُلِّ إِشَارَةٍ يُشِيرُهَا الرَّجُلُ بِيَدِهِ فِي الصَّلَاةِ بِكُلِّ أُصْبُعٍ حَسَنَةٌ أَوْ دَرَجَةٌ». الطبراني: المعجم الكبير (١٤٥٠٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ١٠٣، وقال الزرقاني: «وَهَذَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عُقْبَةَ... مَوْقُوفٌ لَفْظًا مَرْفُوعٌ حُكْمًا، إِذْ لَا دَخْلَ لِلرَّأْيِ فِيهِ». انظر: شرح الزرقاني على الموطأ ١/ ٢٩٤.

٦) لا يشترط لصحة التكبير الجهر به؛ بل يرى جمهور العلماء -بخلاف المالكية- أنه لا يستحبُّ الجهر بتكبيرة الإحرام للمصلي إلَّا في حقِّ الإمام، وأما المأموم والمنفرد فالمستحبُّ لهما الإسرار بها، وقد جاء في الموسوعة الفقهية عن الجهر بالتكبير: ذهب جمهور الفقهاء إلى استحباب الإسرار بالتكبيرات في حقِّ المأموم والمنفرد، ومحلُّ الإسرار في حقِّ المأموم إن لم يكن مبلِّغًا وإلا جهر بقدر الحاجة[1].

ثالثًا: ينبغي فعل الأمور التالية بعد النطق بتكبيرة الإحرام:

اعتاد رسول الله ﷺ أن يستفتح صلاته بدعاء خاشع؛ وذلك بعد تكبيرة الإحرام وقبل قراءة الفاتحة، وهو بمثابة تهيئة نفسية رائعة للمُصَلِّي قبل بدء الحوار مع ربِّ العالمين! وقد ورد دعاءان للاستفتاح عن رسول الله ﷺ، وكل واحد منهما يُهَيِّئ للخشوع بطريقة!

١) الدعاء الأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ»[2].. وهو دعاء يُذكِّر المرء بذنوبه، وحاجته إلى الله ليغفرها له، وهذا أدعى لذلَّته ومسكنته؛ ومن ثَمَّ يأتي الخشوع؛ فهلَّا استشعرتَ أيها المُصَلِّي بُعْدُ المسافات بينك وبين ذنوبك إذا خشعتَ في صلاتك! وهلَّا استشعرت نظافة قلبك وطهارته من الدنس كلما اقتربتَ من الله في صلاتك! وهلَّا أحسستَ بانسياب الماء فوق رأسك وكامل جسدك يحمل معه خطايا الأيام والسنين! بل هلَّا أحسستَ بلسعة البردِ من غسيلك بالثلج والبَرَد لتنزل هذه البرودة على نيران المعاصي والخطايا فتطفئها برحمة الله ومَنِّه وكرمه! إن شعورًا كهذا كفيل -إن شاء الله- بجلب الخشوع، فما أعظمه من إله! نعصيه فيسترنا، ثم يفتح لنا بابه في الوقت الذي نُريده نحن ليغفر لنا ما ارتكبناه في حقِّه!

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية ١٦/ ١٨٠، وانظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٠١- ٢٠٥، ٢٢٨، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ٨١٥.

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما يقول بعد التكبير، (٧١١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، (٥٩٨).

٢) الدعاء الثاني: عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»(١).. وتشعر في هذا الدعاء أن رسول الله ﷺ قد دخل في الحضرة الإلهية، وأنه بالفعل في حالة خشوع كامل، واستحضار لهيبة ربِّ العالمين، فقال هذا المديح الذي يُعَظِّم أمر الله في النفس، ويُعلي قدره، وبالتالي يزداد الخشوع ويتنامى.. والدعاء فيه تنزيه لله عن أي نقص، وحمدٌ له على آلائه التي لا تحصى، وتعظيمٌ لأسمائه العلا.. والجَدُّ له معانٍ كثيرة؛ منها -كما في هذا الدعاء- أنه يطلق على العظمة؛ وذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣]، وبذلك يكون معنى (تعالى جدك): ارتفعت عظمتك.

٣) إذًا كل دعاء يُحقق فائدة؛ فالأول يطلب مغفرة من الله ﷻ، والثاني يُعَظِّم قدر الله سبحانه، وكلا الدعاءين ثابتان عن رسول الله ﷺ، ومعنى هذا أنه كان يقول أحدهما أحيانًا والآخر في أحيان أخرى، وأرى أنه يُفَضَّل لنا أن نُنَوِّع بين الدعاءين في صلواتنا المختلفة، فنُحَقِّق السُّنَّة في أكمل صورها، ونُصيب من الفائدتين معًا، كما أن التنويع يمنع الرتابة والإلف، وهذا أدعى للخشوع والتدبُّر.

وضح من العرض السابق أن تكبيرة الإحرام عمل جليل يحتاج إلى إعداد خاصٍّ؛ فهناك ما سنفعله قبل النطق بها، وهناك ما سنفعله أثناء التكبير نفسه، وهناك ما سنفعله بعد ذلك، ومعنى هذا أنها عمل كبير يستلزم وقتًا وجهدًا، كما يستلزم تركيزًا واستعدادًا نفسيًّا، ولن يتأتَّى كل ذلك إلا إذا حضرنا الصلاة مبكرين، وصَلَّيناها هادئين!

وما سبق من كلام يُبَيِّن لنا حرص رسول الله ﷺ على أن يأتي المسلم إلى الصلاة هادئًا مطمئنًّا دون تسارع الخطى؛ فقد روى أَبُو قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ سَمِعَ جَلَبَةَ رِجَالٍ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قَالُوا: اسْتَعْجَلْنَا إِلَى الصَّلَاةِ. قَالَ: «فَلَا تَفْعَلُوا إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(٢). لأن هذا الاستعجال

---

(١) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجه (٨٠٦)، والحاكم (٨٥٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٦٣.

(٢) البخاري: كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، (٦٠٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا، (٦٠٣).

سيمنع من استحضار كل المعاني التي ذكرناها؛ بل ينبغي للمُصَلِّي وهو يتحرَّك في اتجاه المكان الذي سيقف فيه في الصلاة أن يكون حاضر الذهن، متفكِّرًا في كل النقاط التي تناولناها في هذا الفصل؛ ومن ثَمَّ يخشع في صلاته من أولى لحظاتها.

إذا استوعبنا قيمة ذلك فإننا سنفهم حرص الصالحين على إدراك تكبيرة الإحرام في الصلوات الجماعية، وهذا الحرص قد يعتبره البعض مبالغةً وتشددًا! لكن واقع الأمر أن القضية تحتاج إلى حرص شديد، ليس فقط لأجل تحصيل الحسنات الهائلة المتحقِّقة من السبق، ومن الدعاء، ومن الذِّكْرِ؛ ولكن لأن الخشوع في كل الصلاة مرتبط بشكل وثيق بهذا العمل..

وإذا عَلِمْنا هذا فهمنا مباشرة الحديث النبوي الذي رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ وقَالَ فيه رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى لله أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى، كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ»(١).

فالفاسق أو المنافق لا يحرص على هذه الأمور، ولو فعلها أيامًا ليُرَائِيَ الناس فهو لا يستطيع أن يحافظ عليها أربعين يومًا، والرجل الذي يُواظب بلا انقطاع على تكبيرة الإحرام في الجماعة هو رجل مؤمنٌ حريص على الأجر، وكذلك حريص على الخشوع؛ ومن ثَمَّ استحقَّ هذا الأجر الجزيل.

ولهذا وردت آثار كثيرة كلُّها توضِّح اهتمام الصالحين بالمحافظة على تكبيرة الإحرام في صلاة الجماعة..

قال مجاهد ؒ: سمعتُ رجلًا من أصحاب النبي ﷺ -لا أعلمه إلَّا ممَّنْ شهد بدرًا- قال لابنه: أدركتَ الصلاة معنا؟ قال: نعم. قال: أدركتَ التكبيرة الأولى؟ قال: لا. قال: لَمَا فاتك منها خير من مائة ناقة كلها سود العين(٢). وقال سعيد بن المسيب ؒ: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة(٣). وقال وكيع: كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة، لم تفته

---

(١) الترمذي: أبواب الصلاة، فضل التكبيرة الأولى (٢٤١)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩٧٩)، هذا الحديث يُروى موقوفًا على أنس بن مالك ﷺ، ومرفوعًا إلى النبي ﷺ، وقد رجَّح الترمذي والدارقطني وقفه، واختار الألباني تحسينه مرفوعًا. وسواء صحَّ مرفوعًا أو موقوفًا فله حكم الرفع؛ لأن مثل هذا الحكم لا يقوله أنس ﷺ اجتهادًا من عند نفسه، فالواضح أنه علم ذلك من النبي ﷺ.

(٢) مصنف عبد الرزاق (٢٠٢١).

(٣) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٢/ ١٦٣.

التكبيرة الأولى، واختلفتُ إليه قريبًا من سنتين، فما رأيته يقضي ركعة[١]. وعن إبراهيم رحمه الله قال: إذا رأيتَ الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه[٢][٣]. وقال يحيى بن معين رحمه الله: سمعت وكيعًا يقول: مَنْ لم يُدرك التكبيرة الأولى فلا ترجُ خيره[٤]. وقال محمد بن سماعة القاضي التميمي الكوفي رحمه الله: مكثتُ أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى إلا يومًا واحدًا ماتت فيه أمي[٥].

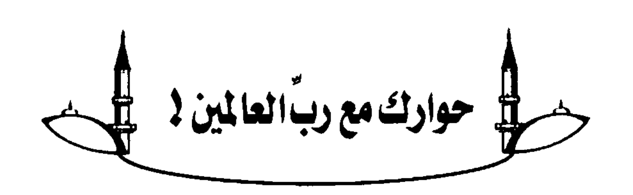
إن ما ذكرناه في الفقرة السابقة ليس أمرًا مستغربًا بالقياس إلى ما عرفناه من أجرٍ في إدراك تكبيرة الإحرام؛ بل إنني أزعم أن الاستغراب فعلًا ينبغي أن يكون من أولئك الذين يُدركون كلَّ هذه القيمة لتكبيرة الإحرام ثم هم بمشقَّة يُدركون الجماعة، أو يتركون الجماعة كليةً ويُصَلُّون منفردين في بيوتهم!

ومرَّةً أخرى..
عندما ننظر إلى تكبيرة الإحرام على أنها «دَقَّةُ بَابِ الملِك»..
فإن شأننا معها سيكون شأنًا آخر!!

---

(١) مسند ابن الجعد (٧٥٥).
(٢) يعني: لا خير فيه.
(٣) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، ٤/ ٢١٥.
(٤) البيهقي: شعب الإيمان (٢٦٥٢).
(٥) تاريخ بغداد، ٥/ ٣٤١، وتهذيب الكمال، ٢٥/ ٣١٩، وسير أعلام النبلاء، ٦٤٦، وتاريخ الإسلام للذهبي، ١٧/ ٣٢٥.





حوارك مع ربِّ العالمين !

في صلاتنا نُجري حوارًا يوميًّا مع ربِّ العالمين!

وحيث إننا اعتدنا على هذا الحوار، فإننا -للأسف الشديد- ألِفْناه!!

ويبدو أننا نحتاج أن نعرف ربَّ العالمين من جديد، وأن نُجَدِّد إيماننا دومًا بإعادة التعرُّف عليه!

ولا أجد أفضل من تعريف نبي كريم لربِّ العالمين..

والنبي هو موسى عليه السلام يُعرِّف ربَّ العالمين لطاغية مصر آنذاك فرعون!

ولنرجع بمخيلتنا عدَّة آلاف من السنين، وندخل القصر المهيب، ونسمع لموسى عليه السلام وهو يتحاور مع أحد جبابرة العالم، وكلُّ حواره قوَّة وشجاعة وإقدام، حتى صار حواره قدوة ومَثَلًا لكل مَنْ واجه جبارًا..

لقد عَرَّف موسى عليه السلام إلهَه بأنه «ربُّ العالمين»، فقال: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، فلفت ذلك نظر فرعون فبدأ يسأل!

فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]؟

موسى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]؟

موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

موسى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

فرعون: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

نزلتْ كلماتُ موسى ﷺ كالصواعق على مسامع فرعون، ورأينا موسى ﷺ يُقيم الحجَّة بقوَّة، ويوضِّح الحقيقة بشجاعة، وما رأينا خوفًا ولا فزعًا، ولا رعبًا ولا هلعًا!!

ما السرُّ في ذلك؟

السرُّ أنه كان يأوي إلى ركن شديد.. يعرف أن كلَّ شيء بيد ربِّ العالمين، وأن كيد فرعون في تبابٍ، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وكل هذا أعطاه قوة هائلة أذهلت فرعون، وثباتًا عجيبًا أخرج الطاغية عن صوابه، فلم يجد إلا السجن يُلَوِّح به!

هذا الإله العظيم الذي أعطى كل هذه القوَّة الخارقة لموسى ﷺ هو ربُّ العالمين.. وهو الذي نقف بين يديه نتحاور معه كل يوم عدَّة مرَّات، فهل عرفناه بصفته التي عرَّفنا إياها النبي الكريم موسى ﷺ؟

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾..

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾..

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾..

لو عرفناه بهذه الصفات لخشعنا حتمًا في حوارنا معه سبحانه!

وفي موطن آخر في القرآن الكريم يُعرِّفنا نبي كريم آخر بربِّ العالمين..

والنبي هو إبراهيم علية الصلاة والسلام..

يقول النبي الكريم:

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]..

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]..

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]..

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]..

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٨١]..

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

ماذا بقي لغير الله إن كان كل ذلك بيده سبحانه؟!

فله سبحانه المكان والزمان، وله الكون والإنسان، وله الخلق والأمر، وله الأولى والآخرة..

ذلك «ربُّ العالمين»!

وهو الوصف الذي اختار ربنا أن يُصَدِّر به سورة الفاتحة التي نتحاور بها معه؛ التي نبدأ بها صلاتنا قائلين: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]..

و«العالمين» كلمة معبِّرة للغاية!

«فالرَّبُّ» هو المالك المتصرف، و«ربُّ العالمين» هو الذي يملك العالمين ويتصرَّف فيهم كيف يشاء.. ولكن ما معنى العالمين؟

«العالمين» جمع عالَم، و«العالَم» جمع لا واحد له من لفظه، وقد اختلف العلماء كثيرًا في المقصود من العوالم في هذا التعبير القرآني؛ بل إن بعضهم حدَّدها بأرقام! فقال بعضهم: المقصود ألف عالَم[١]، وقال غيره: بل المقصود سبعة عشر ألف عالَم[٢]، أو ثمانية عشر ألف عالَم[٣]! إلى غير ذلك من أرقام لا يُوجد عليها دليل صحيح.. والحقُّ أن روعة اللفظ في أنه شامل دون تحديد، ومستوعِب دون قصر، وهو ما رأيناه منذ قليل في تعريف الله ﷻ نفسَه لكلمة «ربُّ العالمين» على لسان موسى ﷺ حين ردَّ على استفسار فرعون قائلًا: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء: ٢٤]، فكل «عالَم» في السماوات أو في الأرض داخل في كلمة «العالمين»..

فهيبة اللفظ وعظمته في شموليته واتساعه..

---

(١) روى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: لله ألف عالَم؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البر. البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن ١/ ٧٤.

(٢) ذكر الحافظ ابن عساكر هذا القول في ترجمة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم -وهو آخر خلفاء بني أمية ويلقب بالحمار- أنه قال: خلق الله سبعة عشر ألف عالم؛ أهل السماوات وأهل الأرض عالم واحد، وسائر ذلك لا يعلمه إلا الله ﷻ. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٧/ ١٧٩.

(٣) عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: الْإِنْسُ عَالَمٌ، وَالْجِنُّ عَالَمٌ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفِ عَالَمٍ، أَوْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفِ عَالَمٍ. الطبري: جامع البيان ١/ ١٤٦، تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٧، نُسب هذا القول لأبي العالية ﷺ، برواية ابن جرير وابن أبي حاتم، وقد علَّق ابن كثير على هذا القول بأنه كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٣٢.

فإذا دخلت في حضرة «ربِّ العالمين» بعد أن طرقتَ بابه بتكبيرة الإحرام، فاستحضر كل العوالم في الدنيا والآخرة.. عوالم الإنس والجن والملائكة.. وعوالم البحار والبرية.. وعوالم ما نراه وما لا نراه.. وعوالم ما نعرفه وما لا نعرفه.. وعوالم دنيانا.. وعوالم آخرتنا.. وعوالم خُلِقَتْ، وعوالم ستُخْلَق!! وبعد هذا الاستحضار اعلم أن المالك المتصرِّف في كل هذه العوالم قد اختارك لتقف أمامه يُحاورك.. يسمع منك.. ويمدح كلامك.. ويُثني عليك.. ويعطيك ويعطيك..

إنها نعمة تستحقُّ الحمد..

عندها يهتف قلبك مع لسانك.. بل تهتف كل ذرة في كيانك: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]!

هذه بداية الحوار السعيد مع ربِّ العالمين!..

ولكن قبل أن نتدبَّر في هذا الحوار علينا أن نُقَدِّم له بثلاثة أمور:

أما الأمر الأول فهو ما ذكرناه في الفصل السابق من دعاءٍ للاستفتاح، وقد تكلمنا عن صفته وأنواعه، وذكرنا أهميته وفوائده.

وأما الأمر الثاني فهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؛ فالحرب بين الإنسان والشيطان لا تنقطع أبدًا، ومن أكبر ميادينها الصلاة، وللشيطان مداخل هائلة للعبد أثناء صلاته؛ لذا لزمنا أن نبدأ بالاستعاذة بالله من هذا اللعين حتى نفقه ما نقول في صلاتنا ونستفيد منه، وسأُفرد -بإذن الله- فصلًا خاصًّا في هذا الكتاب لمداخل الشيطان في الصلاة[1]، وكيف يمكن التغلُّب عليها.

وأما الأمر الثالث قبل الدخول في الحوار فهو البسملة؛ أي قول «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، والعلماء على خلاف إن كانت البسملة آية من آيات سورة الفاتحة، أو مجرَّد افتتاح كبقية سور القرآن، والحقُّ أن هذا الأمر ليس في منظور الكتاب، وبالتالي لا داعي لمناقشته في هذا المقام، خاصَّة أننا في كل الأحوال سنبدأ بها قراءتنا للفاتحة.. ولكن الذي يهمنا أن نعلم أن معنى البسملة هو أنني أبدأ هذا العمل باسم الله؛ فهذه إذن بداية مباركة لعمل عظيم، وأي

(١) انظر: شيطان الخشوع ص٤٦١.

بركة أكبر من البداية باسم الله، وأي عمل أعظم من الصلاة، فتَوَافَق هذا مع ذاك، ولو شعرنا بذلك زاد خشوعنا لا محالة.

والآن دعونا نتعرَّف على هذا الحوار العجيب.. بين عبدٍ مسكين.. وبين ربِّ العالمين.. وذلك من خلال حديث رسول الله ﷺ:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]. قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1]..

ولْنُعِدْ قراءة النصِّ في شكل حوار حتى نستوعب الأمر..

العبد: الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الرب: حَمِدَنِي عَبْدِي.

العبد: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

الرب: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي.

العبد: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

الرب: مَجَّدَنِي عَبْدِي (أو فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي).

العبد: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.

الرب: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

العبد: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، (٣٩٥)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٨١)، وابن ماجه (٣٧٨٤)، والموطأ (١٨٨)، وأحمد (٧٨٢٣).

الرب: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

الحقُ أن الحوار مذهل!

مَنْ -أيها المؤمنون الفاهمون- الذي يحتاج إلى الآخر؟!

إن الرَّبَّ -وهو غني عن العالمين- يتودَّد إلى عبده، ويتلطَّف معه، ويُدنيه ويُقرِّبه، ويقبل منه ويُعطيه..

وتدبر معي..

إن العبد يبدأ حواره بحمد الله ربِّ العالمين، وكيف لا يبدأ بالحمد مَنْ شعر بنعمة الصلاة، ومَنْ قدَّر نعمة المناجاة لخالق الأكوان كلها.. لقد أسدى الله ﷻ لك معروفًا هائلًا أن يَسَّر لك الوقوف بين يديه والحوار معه.. ولْتنظر إلى ملايين وبلايين البشر الذين فشلوا في هذا الأمر.. كمْ من البشر لا يعرف الله أصلًا؟!.. وكمْ من المسلمين لا يُصَلِّي؟!.. أمَّا أنت فقد ألقى الله في قلبك حبَّ الصلاة، والاهتمام بها، والحرص عليها، ويسَّر لك مَنْ يُعَلِّمك كيف تُصَلِّيها، وهداك إلى معانيها، وكل ذلك يحتاج إلى حمد وشكر، بالإضافة إلى أننا نحقِّق فائدة عظمى من البداية بالحمد؛ وهي أننا نحفظ صلاتنا من النقصان! فالأعمال التي لا تبدأ بحمد الله هي أعمال منقطعة ومبتورة وغير مبارك فيها؛ وذلك لقوله ﷺ -فيما رواه أبو هُرَيْرَةَ ﵁-: «كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدُ لله فَهُوَ أَجْذَمُ»[1].. والأجذم هو المنقطع، أي مقطوع البركة لا خير فيه، وفي رواية ابن ماجه: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ أَقْطَعُ»[2]. وأمرٌ ذي بال أيْ أمرٌ مهمٌّ، وأيُّ شيء أهمُّ من الصلاة؛ فلزم أن تكون بداية الحوار على هذه الصورة..

وإذا حمد العبدُ اللهَ ﷻ بهذه الطريقة ردَّ الله عليه بقوله: «حَمِدَنِي عَبْدِي». فهو ﷻ قد قَبِل حمدك؛ لكنه زادك تشريفًا أن نَسَبَك إليه سبحانه! فقال: «عَبْدِي».. وهي أعظم بكثير من أن

---

(١) أبو داود: كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام (٤٨٤٠)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٥٩٧٨)، والطبراني: المعجم الكبير (١٥٨١٢).

(٢) ابن ماجه: كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (١٨٩٤)، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٣/ ٢٧٩، وقال ابن حجر عن روايات الحديث: روينا هذه الألفاظ كلها في كتاب الأربعين للحافظ عبد القادر الرهاوي، وهو حديث حسن، وقد روي موصولًا كما ذكرنا، وروي مرسلًا، ورواية الموصول جيدة الإسناد، وإذا روي الحديث موصولًا ومرسلًا فالحكم للاتصال عند جمهور العلماء لأنها زيادة ثقة، وهي مقبولة عند الجماهير. انظر: نتائج الأفكار ٣/ ٢٧٧.

يقول: حمدني فلان. فإن العبودية لله شرف كبير؛ بل إن الله ﷻ كان يُعطي هذا الشرف لأوليائه وأصفيائه وهم في أعلى مقامات التكريم والفضل، كقوله في حقِّ رسوله محمد ﷺ وهو في رحلة الإسراء التكريمية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا..﴾ [الإسراء: ١]، فلكونه عبدًا مقرَّبًا أنعم عليه بالإسراء؛ وكقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، فالدعوة هي لبُّ الرسالة، وهي غاية النبوَّة، فلمَّا فعلها رسول الله ﷺ استحقَّ التشريف بأن يُنسَب عبدًا لله: «عبد الله»..

فالله ﷻ قد رضي عن وقوفك بين يديه، وامتثالك لأمره، وطاعتك له، فأكرمك بالنسبة إليه، فقال: «عبدي». وسيتكرَّر ذلك في كامل الحوار، وهي كرامة ما بعدها كرامة، فانتبه إليها!

ثم إن الله ﷻ اختار في فاتحة الكتاب من صفاته العلا -وهي كثيرة- ما يُريح أعصاب عبده، ويُسَكِّن فؤادَه.. فقال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وكان من الممكن أن يذكر غيرهما من صفاته المتعدِّدَة.. مثل: العزيز، والجبار، والقهار، والمنتقم.. لكنه يُريد أن «يُمتِّعك» بلقائه، ويُسْعِد قلبك بحواره، فأبى أن يُخَوِّفك في هذا المقام بعظيم صفاته، وجليل أفعاله..

ولما كان قولك: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هو وصفٌ لله ﷻ بصفات الرحمة والشفقة والإحسان، ناسب أن يكون الردُّ من ربِّ العالمين على ذلك: «أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي».. فأنت هنا تُغَلِّب جانب الرغبة، فهو ثناء على الله ﷻ.

ثم إنه أحبَّ لك ألَّا يُصيبك الغرور من رحمته تعالى، وألَّا يتسرَّب إلى نفسك اطمئنانٌ مُقْعِد، أو ركونٌ إلى عفوه يدفعك إلى الاستهتار بشرعه ودينه، فذَكَّرك -بلطف- بعودتك إليه يوم القيامة، ووقوفك بين يديه في يوم بعثك! فقال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾! إنها إشارة غير مباشرة لا تفزع معها؛ لكنها تُبَصِّرك بالحقيقة، وتحفظك من الغرور.. ومع ذلك فقد اختار لك وصفًا من ألطف أوصاف الآخرة، فلم يقل مثلًا: «مالك يوم الحسرة». أو «مالك يوم الفزع الأكبر». أو ما إلى ذلك من أوصاف مخوِّفة، إنها أراد لك أن تتذكَّر اليوم دون أن تخرج عن سكينتك، وهذا من عظيم رحمته سبحانه.

فإذا اعترفتَ بيوم القيامة، وأدركتَ أن الله يملكه، ودقَّ قلبك خائفًا، وتسارع نَفَسُك خاشعًا، كان هذا تمجيدًا منك للإله العظيم، وتفويضًا منك للربِّ الجليل؛ فأنت هنا تُغَلِّب جانب الرهبة؛ ولذلك ناسب أن يكون الردُّ عليك بقوله تعالى: «مَجَّدَنِي عَبْدِي». أو بقوله:

«فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي».

وما ذكرتُه في الفقرتين السابقتين يُعيدنا إلى نظرية «هرم الخشوع»؛ التي شرحتُها في أول الكتاب؛ فلفظ ﴿الرحمن الرحيم﴾ يتناسب مع الدرجة الثانية في النظرية، وهي درجة «الطمع»، ولفظ ﴿مالك يوم الدين﴾ يتناسب مع الدرجة الثالثة في النظرية، وهي درجة «الوجل»، وقد بدأ اللهُ في الفاتحة بذكر صفات الرحمة قبل صفات البطش؛ ولذلك جَعَلْتُ في النظرية درجة الطمع قبل درجة الوجل.

ثم يُذَكِّرك اللهُ أن تُعلِن في حضرته أنك فاهمٌ ومستوعِب لمهمَّتك في هذه الحياة، ومؤمن بها، وحريص عليها.. ومهمَّتُك الأولى.. بل مهمَّتُك الوحيدة.. هي «عبادة ربِّ العالمين»!.. ألم يقل الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؟ هل هناك وضوح للمهمَّة أكثر من ذلك؟ وهل هناك حصر وقصر أبلغ من هذا؟ ومع ذلك فنحن ننسى هذه المهمَّة كثيرًا، ولو نسيناها كان الضرر في حقِّنا، ولا يلحق به ضرر سبحانه، فمِنْ رحمته أنه يُذَكِّرنا في هذا اللقاء بإعلان مهمتنا الأولى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾..

ولكنه سبحانه -بكمال علمه، وطلاقة إدراكه- يعلم أن المهمَّة كبيرة كبيرة.. ولن يستطيع الإنسان بإمكانياته المحدودة أن يقوم بها على الوجه الأكمل؛ لذا فهو يحتاج إلى إعانة ومساندة.. ولن يقوى على إعانته الإعانة المطلوبة إلَّا رب العالمين! فلذا يُعلِّمنا ربنا أن نقول: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. فلسان مقالنا وحالنا يقول: «يا رب.. نحن مدركون لمهمَّتنا وهي عبادتك؛ لكننا نخشى التقصير فنطلب عونَك».. وهذه قمَّة العبودية.. فنحن لا نستعين على عبادته بغيره، إنما نستعين به وحده، وهذه أروع درجات الفهم، وأجلُّ أنواع النِّعم؛ لذلك فإن رسول الله ﷺ عندما أراد أن يهدي صاحبه معاذ بن جبل ﷺ هَدِيَّة تُعبِّر عن حبِّه له، أهداه هَدِيَّة تدور في هذا الفلك، وتُرشِد إلى هذا الطريق.. فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ؛ وَالله إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَالله إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فَقَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1].. ففي

---

(١) أبو داود: أبواب الوتر، باب في الاستغفار (١٥٢٢)، والنسائي (٩٩٣٧)، وأحمد (٢٢١٧٢)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن حبان (٢٠٢٠)، والحاكم (١٠١٠)، وقال النووي: رواه أبو داود. والنسائي بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤٦٨، وصححه ابن حجر، انظر: ابن حجر: نتائج الأفكار ٢/ ٢٩٦، ٢٩٧، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢٥٣.

هذا الدعاء الهديَّة يُعَلِّم رسول الله ﷺ معاذًا رضي الله عنه -ويُعَلِّمنا- أن نطلب الإعانة من الله عز وجل على أداء مهمتنا الكبيرة، وهي مهمَّة العبادة، ويجعل ذلك في دُبر كل صلاة.. وهذا شيء في قمَّة الجمال والروعة! فأنت في أول الصلاة تُعلن كما علَّمك الله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي ختام الصلاة تُعلن كما علَّمك رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». وفي هذا تناسق مبدع، وفهم عميق!

ولاحظ أنك تُقَدِّم ذِكْر الله عز وجل على ذِكْر نفسك، فتقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولا تقول: «نحن نعبدك ونحن نستعينك». وهذا لتعظيم ربِّ العالمين، وتشريف مقامه..

كما أنك تتكلَّم بصيغة الجمع «نَعْبُدُ» ولا تقول: «أعبد». وهذا من فرط التواضع لله! وقد يتعجَّب القارئ من فهم هذه الصيغة على أنها صيغة تواضع؛ لأن المتعارف عليه بين الناس أن الحديث عن النفس بصيغة الجمع يكون للتعاظم؛ ولكن الوضع هنا مختلف، فإعلانك للعبادة بصيغة الجمع معناه أولًا: أنك لا ترى نفسك وحدك أهلًا لعبادته سبحانه، فأنت مُقَصِّرٌ ومُخطئ؛ لذا تُدْخِل نفسك في عداد المؤمنين، وثانيًا: هو إقرار منك أن هذا هو السلوك الذي ينبغي أن يكون عليه الخلق جميعًا؛ فكأنك تعتذر عمَّنْ لم يَقُمْ معك لعبادته، وثالثًا: أنت لا تُريد أن تُعَظِّم قيامك بمفردك بين يديه بقولك: «إياك أعبد». فتشعر أنك قد فعلتَ شيئًا كبيرًا ما فعله كثير من الناس، فتكْبُر نفسُك لذلك. ورابعًا: أنت تهاب أن تقف بين يدي ربِّ العالمين بمفردك فتحشد معك المؤمنين بقولك: «نعبد». فتشعر بالسكينة وأنت في وسطهم، وخامسًا: أنت ترى عملَك قليلًا، وجُهدَك ضعيفًا فتستشفع عند الله عز وجل بجموع المؤمنين..

هذه بعض المعاني التي تبدو لي من الحديث بصيغة الجمع، ولا شكَّ أن المجال واسع للتدبُّر..

وماذا يقول الله عز وجل لك إذا أعلنتَ عبوديتك له، ورجوتَ عونه على حسن القيام بها؟

إن التعليق يأتي مناسبًا تمامًا!

إن العبودية إخلاص.. وهي سرٌّ بين العبد وبين ربِّه، ولا يعلم حقيقتها إلَّا الله عز وجل، وطلب العون عليها هو طلبٌ لزيادة الإخلاص، الذي هو سرٌّ أصلًا.. ولهذا يقول الله عز وجل: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»..

هذا الطلب سرٌّ بين الله وبين المؤمن، والله سيُحَقِّقه له ما دام هو دائم على الطلب..

ثم بعد إعلان عبوديتك لله، وفاقتك إلى عونه ومدده، يُعَلِّمك اللهُ الرحيمُ ما ينبغي لك أن تطلبه منه في هذا المقام.. فالعقل في مثل هذا الموقف قد يذهل ويتوه، وقد يشطُّ وينحرف.. فأنت تقف أمام الذي يملك ويتصرَّف في كل العوالم.. وتحتاج منه الكثير والكثير، فأيُّ شيء ينبغي أن تطلبَه؟ وأيُّ مطمَح تحبُّ أن تُحَقِّقَه؟!

إنه يُعلِّمك: عبدي.. في هذا المقام الشريف النادر اطلب مني طلبًا سريعًا مختصرًا محدَّدًا يُحَقِّق لك سعادة الدنيا والآخرة! ولا تحتاج لأي شيء بعده.. اطلب: الهداية إلى ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾!

الله!

ماذا لو تحقق لك هذا الطلب؟

هذا يعني أنك قد هُديت للطريق المستقيم على إطلاقه هكذا!

هُدِيتَ إلى الطريق المستقيم في كل حياتك..

هُدِيتَ إلى الطريق المستقيم في بيتك.. مع أبيك وأمك.. مع زوجتك وأولادك.. مع رحمك وجيرانك..

هُدِيتَ إلى الطريق المستقيم في تجارتك وأموالك وأعمالك..

هُدِيتَ إلى الطريق المستقيم في ليلك ونهارك..

في حِلِّك وترحالك..

في جِدِّك وترفيهك..

في قراراتك.. في اختياراتك..

في كل أحوالك..

هُدِيتَ إلى الطريق المستقيم في لحظة موتك! في قبرك! يوم بعثِك!

هُدِيتَ إلى الطريق المستقيم في أرض المحشر..

فيضلُّ كثير من الناس.. وتصل أنت إلى حوض رسول الله ﷺ!

تصل أنت إلى الجنة!!

هذا هو الطريق المستقيم الذي نطلبه ونحن في حضرة ربِّ العالمين!

هل هناك ما هو أعظم منه؟

لا.. ليس هناك ما هو أعظم منه..

﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]..

ولكي لا يُلَبِّس الشيطان عليك الأمور، أو تنحرف بك الأهواء، فإن الله ﷻ يضبط مسارك المستقيم بقراءة تاريخ مَنْ سبقك في محاولات الوصول إلى الطريق المستقيم..

إن السائرين إلى الله قد انقسموا إلى ثلاثة أنواع:

فريق مخلص هُدِي إلى الطريق المستقيم فسار فيه ووصل..

وفريق مُغْرِض هُدِي إلى الطريق المستقيم فتركه عمدًا فلُعِن!

وفريق منحرف هُدِي إلى الطريق المستقيم، فطال عليه الأمد، فنسي علامات الطريق، فضلَّ!

أمَّا الفريق الأول فهم الذين أنعم الله عليهم..
وأمَّا الفريق الثاني فهم المغضوب عليهم..
وأمَّا الفريق الثالث فهم الضالُّون..

وقد طلب منَّا ربنا ﷻ أن نسأله طريق الفريق الأول، وأن نعوذ به من طريقي الفريقين الثاني والثالث، فعَلَّمنا أن نقول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾..

أمَّا الفريق الذي أنعم الله عليه فقد بيَّنه لنا في آية أخرى في الكتاب العظيم؛ فقال ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وطريق الأنبياء واضح في كتاب الله ﷻ، وكذلك طريق الذين رضي الله عنهم من الصحابة الكرام، ومَنِ اجتمع علماء الأُمَّة وصالحوها على تزكيته والثناء عليه من المجاهدين والزهَّاد والعُبَّاد والعلماء والشهداء.. وما أجمل أن يأتي في

ذهنك وأنت تقرأ: ﴿صِرَاطِ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيهِمْ﴾ واحدٌ من هؤلاء! فتَذْكُر رسول الله ﷺ، أو تَذْكُر نوحًا أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو يحيى عليهم السلام، أو تَذْكُر أبا بكر أو عمر أو عثمان أو عليًّا أو الحسن ﷺ، أو تذكر آسية أو مريم أو خديجة أو عائشة أو فاطمة رضي الله عنهن، أو تَذْكُر البخاري أو مُسْلِمًا أو الترمذي أو النسائي أو أبا داود رحمهم الله، أو تذكر مالكًا أو أبا حنيفة أو الشافعي أو ابن حنبل أو ابن حزم رحمهم الله، أو تذكر عماد الدين أو نور الدين أو صلاح الدين أو قطز أو محمدًا الفاتح رحمهم الله.. أو تَذْكُر غيرهم وغيرهن من الآلاف المؤلفة التي هداها الله ﷻ إلى صراطه المستقيم، فسَعِدت به، وسارت فيه..

وأمَّا الفريقان الآخران فقد ذَكَرَ رسول الله ﷺ -في رواية لعدي بن حاتم ﷺ- قال: «.. إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ، وإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى..»[1]. فاليهود قد أدركوا معالم الطريق المستقيم؛ لكنهم تعمَّدوا الزيغ والانحراف والتدليس؛ ولذلك غَضِب اللهُ عليهم، وأمَّا النصارى فقد حاولوا الوصول إلى رضا الله بطريق اخترعوه، ولم يلتزموا فيه بتعاليم أنبيائهم، فأشركوا بالله وهم يبحثون عن تعظيمه، وفسدت عبادتهم وهم يحاولون الترقِّي فيها.. قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، فكان هذا هو الضلال، ولا شكَّ أنه يلحق باليهود كلُّ مَنْ تَعَمَّد الزيغ عن الطريق، وكذلك يلحق بالنصارى كلُّ مَنِ ابتدع في الدين شيئًا فضَلَّ به عن الاستقامة بعد أن هداه الله إليها.

فإذا أنهيتَ طلبك الثمين..

وتمنيتَ من أعماق قلبك أن تُهْدَى إلى الصراط المستقيم..

الصراط الذي سار فيه الذين أنعم الله عليهم من المؤمنين..

والذي لم يُوَفَّق إليه المغضوب عليهم أو الضالون..

إذا أنهيتَ هذا الطلب الغالي.. جاءك الرد الإلهي الكريم:

«هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»!

---

(١) أحمد (١٩٤٠٠)، واللفظ له، وابن حبان (٦٢٤٦)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن لغيره. والطبراني: المعجم الأوسط (٣٨١٣)، والمعجم الكبير (١٣٩٢٥)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حبيش، وهو ثقة. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ٢٠٨، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٦٣).



الله أكبر!

لقد أجاب اللهُ الطلبَ قبل أن تُنادي أنت بكلمة: «آمين»! فهو كرم فوق الكرم، وعطاءٌ فوق العطاء!

فإذا قلتَ: آمين -ومعناها: «اللهمَّ استجب»- فانتبِهْ أن المقصود هنا هو الاستجابة لطلبك بالهداية إلى الصراط المستقيم، وهو طلب -كما تبيَّن لنا- عزيز وثمين للغاية، فلا ينصرفنَّ ذهنك إلى هنا أو هناك، واهتف بقلبك مع لسانك.. بل اهتف بكل ذرة في كيانك!

ثمَّ استعدَّ للهَدِيَة القادمة من ربِّ العالمين!

ماذا؟!

هل بعد هذا العطاء عطاء؟!

نعم.. إنها هديته للحريصين على صلاة الجماعة.. لمن بذلوا جهدًا كي يزوروا الله في بيته.. ولمن جاءوا نشيطين مبكِّرين، فأدركوا الإمام قبل أن يقرأ الفاتحة أو أثناءها..

اسمع لحبيبك ﷺ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَمَّنَ الْقَارِئُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُؤَمِّنُ، فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١)! وفي رواية أخرى لأبي هريرة ﷺ أيضًا يقول: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ. فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢)!

ما شاء الله!

إنك قد تطمئن إلى إجابة طلبك بالهداية إلى الصراط المستقيم؛ لكنك ما زلت فَزِعًا من ذنوبك الماضية.. نعم سأسير من الآن في الطريق المستقيم؛ لكن ماذا أفعل في ذنوبي السابقة؟ فتأتي هديَّةُ الغفرانِ هذه بشرى للخاشعين المخبتين.. أولئك الذين يحرصون في صلاتهم على تحقيق كل خير فيها، وعلى الفوز بكل عطايا الرحمن بها..

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب التأمين، (٦٠٣٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين، (٤١٠).

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب فضل التأمين، (٧٤٨)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين، (٤١٠).

هذه هي فاتحة الكتاب!

وهذه هي فاتحة الصلاة!

وهذه هي الطريقة التي ارتضاها ربُّ العالمين لنتحاور بها معه ونحن في حضرته..

فهل يمكن أن يضيع خشوعنا ونحن نُدرك هذه المعاني؟!

إنه من عظمة هذا الحوار وقيمته أن جعله الله ﷻ ركنًا من أركان الصلاة لا تصحُّ الصلاة إلَّا به، فقد روى عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ»[1]..

إن الفاتحة -من هذا المنظور- نعمة.. وأيُّ نعمة!!

ولعلَّه من أجل كل ذلك كان لزامًا أن تكون بدايتها: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾!

وما أجمل أن نختم هذا الفصل ونحن نستمتع بحوار لطيف دار بين رسول الله ﷺ وبين أُبَيِّ بن كعب ﷺ يُبيِّن لنا فضل هذه السورة الكريمة، وعظمة قيمتها..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أُبَيُّ». وَهُوَ يُصَلِّي، فَالْتَفَتَ أُبَيٌّ وَلَمْ يُجِبْهُ، وَصَلَّى أُبَيٌّ فَخَفَّفَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، مَا مَنَعَكَ يَا أُبَيُّ أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ؟»[2] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنِّي كُنْتُ فِي الصَّلَاةِ. قَالَ: «أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ أَنِ

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت، (٧٢٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلُّمها قرأ ما تيسر له من غيرها، (٣٩٤)، واللفظ له.

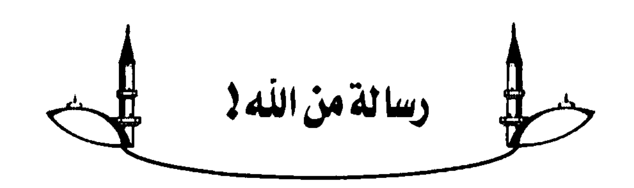
(٢) وهذا خاصٌّ برسول الله ﷺ، فإن إجابته واجبة، واختلف العلماء فيما إذا كانت هذه الإجابة تُخرج من الصلاة أم لا؛ قال ابن حجر: وَفِيهِ أَنَّ إِجَابَةَ الْمُصَلِّي دُعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ لَا تُفْسِدُ الصَّلَاةَ، هَكَذَا صَرَّحَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِيهِ بَحْثٌ لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ إِجَابَتُهُ وَاجِبَةً مُطْلَقًا؛ سَوَاءٌ كَانَ الْمُخَاطَبُ مُصَلِّيًا أَوْ غَيْرَ مُصَلٍّ؛ أَمَّا كَوْنُهُ يَخْرُجُ بِالْإِجَابَةِ مِنَ الصَّلَاةِ أَوْ لَا يَخْرُجُ فَلَيْسَ مِنَ الْحَدِيثِ مَا يَسْتَلْزِمُهُ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَجِبَ الْإِجَابَةُ وَلَوْ خَرَجَ الْمُجِيبُ مِنَ الصَّلَاةِ وَإِلَى ذَلِكَ جَنَحَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٥٨، ١٥٩، وقال زين الدين العراقي: وما ذكرناه من وجوب الإجابة وعدم البطلان هو مذهب الشافعي وبه جزم الرافعي والنووي. وحكى ابن الرفعة وجهًا أنه لا تجب وتبطل به الصلاة، قال ابن دقيق العيد: واعترض عليه بعض المالكية بأن قال: إن الإجابة لا تتعين بالقول فيها؛ فيكفي فيها الإيماء. وعلى تقدير أن يجب القول: لا يلزم منه الحكم بصحة الصلاة. لجواز أن تجب الإجابة، ويلزمهم الاستئناف. انتهى، قلت: في هذا الحديث أنهم أجابوه باللفظ بعد العلم أنهم في الصلاة، وأكمل بهم الصلاة، ولم يأمرهم بالاستئناف، فترجَّح ما يقوله الشافعية. والله أعلم. انظر: زين الدين العراقي: طرح التثريب في شرح التقريب ٣/ ١٤، وانظر: الحطاب الرُّعيني: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل ٣/ ٣٩٥.

اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ؟» قَالَ: بَلَى، وَلَا أَعُودُ إِنْ شَاءَ اللهُ. قَالَ: «أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟» قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ؟» قَالَ: فَقَرَأَ أُمَّ الْقُرْآنِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ»[1]..

هذه هي أمُّ القرآن..
لم يترل مثلها في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور..
ولم يترل مثلها في القرآن كذلك..
وهي السبع آيات التي تُثْنَى وتعاد في كل ركعة..
وكأنها هي القرآن كلُّه من شدَّة عظمتها!
فلله المنّة والفضل..
والحمد لله ربِّ العالمين..

---

(١) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (٢٨٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (١١٢٠٥)، وأحمد (٩٣٣٤)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح وهذا إسناد حسن. وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ١٠١١. وقد تكرر الموقف نفسه مع صحابي آخر، فعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي. فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟» قَالَ: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] «هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ». البخاري: كتاب التفسير، سورة فاتحة الكتاب، (٤٢٠٤).



رسالة من الله!

في جنح الظلام!

وبصحبة الشيطان!

جلس أكابر المجرمين في مكة يتباحثون في أمر القرآن!

هذا الكتاب عجيب! حُجَّته بالغة.. وطريقته معجزة..

يأخذ الألباب.. يأسر الأرواح.. يُفحم العقول.. وليست لنا به طاقة!

سَحَرَ كبارنا وصغارنا.. ورجالنا ونساءنا.. وأحرارنا وعبيدنا..

ماذا عسانا أن نفعل؟!

مناقشات ومحاورات.. وأفكار واقتراحات..

علت أصواتهم.. واحمرَّت وجوههم.. وارتعشت أجسادهم..

وأخيرًا جاء القرار!!

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]!

هذا هو الحلُّ الوحيد.. والمخرج الفريد..

وتقاسموا على ذلك باللات والعزى.. ومناة الثالثة الأخرى..

لكن أنت تشاء، وأنا أشاء، والله يفعل ما يشاء!

أَبى اللهُ إلا أن يُسمِع أحد كبار المجرمين، وعتاة المشركين، بضع آيات من القرآن الكريم!

الوليد بن المغيرة!

سيد بني مخزوم.. وحكيم قريش.. وأحد قوَّادها.. ومن أكابر نبهائها..

وقف الخبير القرشي أمام النبي ﷺ، وقد طأطأ رأسه، وأرهف أذنه!

واستمع واستمع.. وخشع وارتدع!

وعاد إلى قومه مسرعًا، ولأصحابه ناصحًا..

أيها الناس جميعًا.. يا شباب قريش ويا رجالها.. يا زُوَّار مكة ويا أهلها..

سمعتُ محمدًا، وهذا رأيي فيه.. وفقهتُ قرآنه، وهذا تعليقي عليه:

«والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده منِّي، ولا بأشعار الجنِّ..

والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا..

والله! إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة..

وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله..

وإنه ليعلو وما يُعلى عليه..

وإنه ليحطم ما تحته»[1]!!

إن ما حدث مع الوليد بن المغيرة زعيم قريش ليس أمرًا فريدًا.. بل هو الأصل في قصة هذا القرآن العظيم.. ما استمع له أحدٌ بإنصات وتدبُّر إلا كان هذا ردَّ فعله، وهذا مع كل الناس.. مع الخبراء والحكماء، وكذلك مع العامَّة والدهماء.. ومثل الذي حدث مع الوليد بن المغيرة رأيناه مع عتبة بن ربيعة وأبي جهل وغيرهما.. لقد أدرك الجميع أن هذا الكلام معجز بكل المقاييس، فلم يُفكِّروا أن يحاكوه أو يصوغوا مثله قط.. وأدركوا منذ الوهلة الأولى أن هذا ليس من كلام البشر ولا الجنِّ..

هذا حدث مع كل المستمعين للقرآن..

وانقسم الناس إلى مؤمن يزداد إيمانًا كلَّما استمع القرآن، وكافر أدرك الحقَّ ورغِب عنه لحاجة في نفسه! ذكر الله ﷻ هاتين الطائفتين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]..

لا يترك القرآن أحدًا إذًا إلَّا وأحدث فيه أثرًا..

فما الذي يحدث مع بعضنا؟!

إنَّ منَّا مَنْ يقرأ القرآن في صلاته، أو يسمع له من إمامه، ولا يخشع فيه!

---

(١) الحاكم (٣٨٧٢) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري. ووافقه الذهبي، وانظر: السيوطي: لباب النقول، ص٢٠٦، وصححه الصوياني، انظر: الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص٥٤، ٥٥، وأورده الألباني في صحيح السيرة النبوية ص١٥٨.

فماذا نحن فاعلون؟!

أكان قلب الوليد بن المغيرة أرقَّ من قلوبنا؟! أم أن هناك أمرًا ما نحن عنه غافلون؟!

واقع الأمر أن الذي لا يتدبَّر القرآن لم يفهم على الحقيقة ما هو القرآن! والقرآن ببساطة هو «رسالة»!

إنه رسالة من ربِّ العالمين إلى البشر يدلُّهم فيها على ما يُصلح دنياهم وآخرتهم، وهو ما ذكره الحسن بن علي رضي الله عنهما في قوله العميق: «إنَّ مَنْ كان قبلكم رأوا القرآن رسائلَ من ربهم، فكانوا يتدبَّرونها بالليل، ويتفقَّدونها في النهار»[1]. ولهذا فليس هدف التدبر في القرآن هو فقط رفع الدرجات، وتكثير الحسنات؛ إنما الهدف هو البحث عن مراد الله ﷻ منَّا حتى نصل بفضله إلى بغيتنا، وهي رضاه سبحانه والجنة! والذي يفهم هذا المقصود يُنْصِت؛ والذي يُنْصِت يفهم ويتدبَّر، والذي يفعل ذلك يتأثَّر لا محالة!

إن التدبُّر في القرآن نقلة نوعية في حياة المؤمن.. فهو يُثبت أن هذا الكتاب من عند إله حكيم قدير، وليس للبشر أن يُبدعوا مثله أبدًا، وهذا يُطَمْئِن المؤمنَ في عبوديته لله ﷻ، ويُثَبِّت المتشكك، ويُزيل الشبهة، ويُقَوِّي العقيدة، وهذا له انعكاسه الواضح على حياة الإنسان كلها؛ وليس على الصلاة فقط؛ لذلك يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فصار القرآن -بعد أن تدبَّرْناه- دليلًا على الخالق سبحانه.

والتدبُّر في القرآن كذلك طريق هداية؛ فالقرآن له مذاق خاصٌّ، وفيه أسرار عظيمة، وبقدر تدبُّر المؤمن فيه يفتح الله له أبواب الهداية، والذي لا يتدبَّر القرآن يُخْشَى عليه أن يضل ويزيغ، ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

والتدبُّر في القرآن يفتح آفاقًا مباركة هائلة من المعرفة، فقد ملأه ربُّ العالمين بكنوز العلم بشتَّى فروعه، والذي يتعلَّم في نور القرآن يصل إلى ما لا يقدر غيره على الوصول إليه؛ لذلك يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].. فتدبُّر الآيات يفتح للعبد بركات لا نهاية لها؛ لهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ أَرَادَ

(١) أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ١/ ١٠٧، وأبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٢٧٥، والنووي: التبيان في آداب حملة القرآن ص٥٤.

الْعِلْمَ، فَلْيَقْرَأ الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ»[(١)].

ومن أجل كلِّ ذلك وأكثر فإنه يلزم المُصَلِّي أن ينتبه إلى كل كلمة يقرؤها أو يسمعها من كتاب الله، ثم يُحسِن التدبُّر فيها، والالتفات إلى معانيها، ويبحث عن الواجبات المترتِّبَة على فهمه للآية، والتغييرات التي يمكن أن تَحْدُثَ في حياته بعد وصول رسالة الله ﷻ إليه.

وفي هذا الفصل نتناول بعض الأمور التي لو حرصنا عليها زادت فرصة تدبُّرنا في الآيات؛ سواء في سورة الفاتحة، أو في السورة التي تليها، وسواء في الصلوات السِّرِّيَّة أو الجهرية، وسواء في الفرض أو النافلة؛ بل إنها في معظمها تُفيد في تدبُّر القرآن في الصلاة وفي خارجها؛ ولكن قبل الحديث عنها أودُّ لفت النظر إلى أن ما سنذكره هنا هو استكمال لما ذكرناه في صفحات الكتاب من وسائل، وليس بديلًا عنها؛ ومن ثَمَّ فقراءة بعض الفصول المتقدمة في الكتاب أمر حتمي لنصل إلى الدرجة المطلوبة في الخشوع عند سماع القرآن. وهذه الأمور على النحو التالي:

أولاً: قطع القراءة آية آية؛ فقد روت أُمُّ سَلَمَةَ ﵂ أَنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: «كَانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»[(٢)].. وفي رواية أخرى أوضح تقول: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ يَقُولُ: الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ. ثُمَّ يَقِفُ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ثُمَّ يَقِفُ..»[(٣)].. فتقطيع القراءة يُحقِّق فائدتين عظيمتين؛ أمَّا الأولى فهي اتباع السُّنَّة، وأمَّا الثانية فهي التدبُّر الذي يقود إلى الخشوع.

ثانيًا: اقرأ القرآن محافظًا على أحكام الترتيل.. فالقراءة المرتَّلة تُحدِث أثرًا أعمق في

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة، (٣٠٠١٨)، والطبراني: المعجم الكبير (٨٦٨٥)، والبيهقي: شعب الإيمان (١٨٠٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح. انظر: الهيثمي: مجمع الزوائد ٧/ ١٦٥، وصححه أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي. انظر: سلسلة الآثار الصحيحة أو الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين، ١/ ١٥١ (١٤٣).

(٢) أبو داود: كتاب الحروف والقراءات، (٤٠٠١)، وأحمد، (٢٦٦٢٥)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره وهذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين. والحاكم (٢٩٠٩)، والدار قطني (١١٩١)، وقال: إسناده صحيح وكلهم ثقات. وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ٢/ ٦٠.

(٣) الترمذي: كتاب القراءة عن رسول الله ﷺ، باب في فاتحة الكتاب، (٢٩٢٧)، والحاكم (٢٩١٠) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ٢/ ٦٠.

النفس، وتلفت نظرك دومًا أنك تقرأ كلام الله؛ لأنه الكلام الوحيد الذي يُقرأ بهذه الطريقة، إضافة إلى أنه أمر إلهي مباشر حيث قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. واحرص أن يكون ذلك في كل صلواتك حتى السرِّيَّة منها.. وبدهي أن المسلم الحريص على الخشوع لا بُدَّ أن يتعلم قواعد الترتيل، وكثير من العلماء أوجبوا تعلُّم قواعد الترتيل، بمعنى أن الذي يقرأ القرآن بغيرها يأثم[1]؛ فالقرآن كلام الله، وهو ﷻ يحبُّ أن يُقْرَأ بطريقة معيَّنة، وقد قرأ جبريل ﷺ القرآن بهذه الطريقة الفريدة على رسولنا ﷺ، وقرأ الرسولُ ﷺ القرآنَ بالطريقة نفسها على الصحابة، وتناقل الصحابة والتابعون ومَنْ جاء من بعدهم الطريقة نفسها حتى وصل إلينا محفوظًا برعاية الله.. ومع أن هناك كتبًا كثيرة تشرح كيفية القراءة بقواعد الترتيل؛ فإن التعلُّم الصحيح يستلزم الجلوس بين يدي قارئ مُجيد يُتقن أحكام القراءة، ويكاد يكون من المستحيل أن تُتقن هذا الأمر دون سماع ومتابعة وتصحيح؛ لذلك فأنا أدعو كل المسلمين إلى تفريغ وقت وجهد لتعلُّم القراءة الصحيحة للقرآن، وتعليمها للأهل والأولاد والجيران والمعارف، وأرى أنه لا عذر لمسلم في أن يُفَرِّغ وقتًا لهذا الأمر، فإن معظمنا -إن لم يكن كلنا- قد فَرَّغ من وقته الكثير لتعلُّم أمور الدنيا؛ مثل تعلُّم بعض المهارات أو اللغات أو الهوايات أو أحيانًا الألعاب! فليس هناك مبرِّر منطقي للادعاء أننا لا نجد الوقت الكافي لهذا التعلم؛ خاصة أن هذا التعلُّم لا يأخذ وقتًا طويلًا؛ إنما يحتاج بضعة أيام أو أسابيع على الأكثر، وهو أمر سهل وميسور، وقد قال الله ﷻ في كتابه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، بالإضافة إلى توفُّر المتقنين للقراءة السليمة؛ سواء من العلماء والقرَّاء المتخصِّصين، أو من الأصدقاء والمعارف، وينبغي أن نعرف أن تعلُّم قواعد

(١) لا خِلافَ فِي أَنَّ الاشْتِغَال بِعِلْمِ التَّجْوِيدِ فَرْضُ كِفَايَةِ، أَمَّا الْعَمَلِ بِهِ، فَقَدْ ذَهَبَ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْقِرَاءَاتِ وَالتَّجْوِيدِ إِلَى أَنَّ الأَخْذَ بِجَمِيعِ أُصُول التَّجْوِيدِ وَاجِبٌ يَأْثَمُ تَارِكُهُ، قَال مُحَمَّدُ بْنُ الْجَزَرِيِّ فِي النَّشْرِ نَقْلاً عَنِ الإِمَام نَصْرِ الشِّيرَازِيِّ: حُسْنُ الأَدَاءِ فَرْضٌ فِي الْقِرَاءَةِ، وَيَجِبُ عَلَى الْقَارِئِ أَنْ يَتْلُوَ الْقُرْآنَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ. وَذَهَبَ الْمُتَأَخِّرُونَ إِلَى التَّفْصِيل بَيْنَ مَا هُوَ (وَاجِبٌ شَرْعِيٌّ) مِنْ مَسَائِل التَّجْوِيدِ، وَهُوَ مَا يُؤَدِّي تَرْكُهُ إِلَى تَغْيِيرِ الْمَبْنَى أَوْ فَسَادِ الْمَعْنَى، وَبَيْنَ مَا هُوَ (وَاجِبٌ صِنَاعِيٌّ) أَيْ أَوْجَبَهُ أَهْل ذَلِكَ الْعِلْمِ لِتَمَام إِتْقَانِ الْقِرَاءَةِ، قَال الشَّيْخُ عَلِيٌّ الْقَارِيُّ بَعْدَ بَيَانِهِ أَنَّ مَخَارِجَ الْحُرُوفِ وَصِفَاتِهَا، وَمُتَعَلِّقَاتِهَا مُعْتَبَرَةٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: فَيَنْبَغِي أَنْ تُرَاعَى جَمِيعُ قَوَاعِدِهِمْ وُجُوبًا فِيمَا يَتَغَيَّرُ بِهِ الْمَبْنَى وَيَفْسُدُ الْمَعْنَى، وَاسْتِحْبَابًا فِيمَا يَحْسُنُ بِهِ اللَّفْظُ وَيُسْتَحْسَنُ بِهِ النُّطْقُ حَال الأَدَاءِ. الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ١٧٨، ١٧٩، وانظر: الجزري: منظومة المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه (الجزرية) ص١١، والقاري: شرح المقدمة الجزرية ص١٩، والنويري: شرح طيبة النشر ١/ ٢٤٩، ٢٥٠، وانظر: الماوردي: الحاوي الكبير ١٧/ ١٩٨.

الترتيل من أفضل القربات إلى الله، ويكفي أن نُشير إلى وصف رسول الله ﷺ لهذه العملية التعليمية المتميزة؛ حيث قال -فيما رواه عَنْهُ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ ﷺ-: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[١].

ثالثًا: اجتهد أن تحسِّن الصوت، فهذا يدفع إلى الخشوع.. وهذا أمر مباشر من رسول الله ﷺ حيث قال: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»[٢]. بل إن سعد بن أبي وقاص ﷺ روى أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»[٣]. ولقد خشي بعضهم من هذا الترهيب؛ فسألوا ابن أبي مُليكة[٤]: يا أبا محمد؛ أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يُحَسِّنُهُ ما استطاع[٥]. فالقضية إذن ليست قضية تجميل للقراءة فقط؛ إنما هي قضية اتباع وخشوع وهداية وانتماء إلى المسلمين؛ ولقد روى أبو بردة -وهو عامر بن أبي موسى الأشعري ﷺ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَعَائِشَةَ ﷺ مَرَّا بِأَبِي مُوسَى ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي بَيْتِهِ، فَقَامَا يَسْتَمِعَانِ لِقِرَاءَتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُمَا مَضَيَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ لَقِيَ أَبَا مُوسَى ﷺ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «يَا أَبَا مُوسَى مَرَرْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وَمَعِي عَائِشَةُ، وَأَنْتَ تَقْرَأُ فِي بَيْتِكَ، فَقُمْنَا فَاسْتَمَعْنَا». فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: أَمَا إِنِّي يَا رَسُولَ الله لَوْ عَلِمْتُ لَحَبَّرْتُ لَكَ تَحْبِيرًا[٦].

وفي روايةٍ أن الرسول ﷺ قَالَ لَه: «يَا أَبَا مُوسَى؛ لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ

---

(١) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، (٤٧٣٩) واللفظ له، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧)، والنسائي (٨٠٣٧)، وابن ماجه (٢١٢)، وأحمد (٤١٢).

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، (١٤٦٨)، عن البراء بن عازب ﷺ، والنسائي (١٠٨٨)، وابن ماجه (١٣٤٢)، وأحمد (١٨٥١٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والدارمي (٣٥٠٠) وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢٠٨ (١٣٢٠).

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، (٧٠٨٩)، وأبو داود (١٤٦٩)، واللفظ له، وأحمد (١٤٧٦)، والدارمي (١٤٩٠).

(٤) تابعي ثقة من رواة هذا الحديث.

(٥) أبو داود: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، (١٤٧١)، ووصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود، ٥/ ٢١٢ (١٣٢٢).

(٦) أبو يعلى: حديث أبي موسى الأشعري (٧٢٧٩)، والحاكم (٥٩٦٦)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٣/ ٢١٢، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، وفيه خالد بن نافع الأشعري وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد ٧/ ١٧١، وقال في موضع آخر: رواه الطبراني، ورجاله على شرط الصحيح غير خالد بن نافع الأشعري، ووثقه ابن حبان وضعفه جماعة. مجمع الزوائد ٩/ ٣٥٩، ٣٦٠.

دَاوُدَ»(١). فالقراءة الحسنة تلفت الأنظار، وتستلزم التركيز، وتدعو إلى الخشوع، وتكرر مثل هذا الموقف من رسول الله ﷺ مع صحابة آخرين للدلالة على أهمية تحسين الصوت عند القراءة، فعَنْ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: أَبْطَأْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةً بَعْدَ الْعِشَاءِ ثُمَّ جِئْتُ، فَقَالَ: «أَيْنَ كُنْتِ؟» قُلْتُ: كُنْتُ أَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِكَ لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَ قِرَاءَتِهِ وَصَوْتِهِ مِنْ أَحَدٍ! قَالَتْ: فَقَامَ وَقُمْتُ مَعَهُ حَتَّى اسْتَمَعَ لَهُ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: «هَذَا سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، الْحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَ هَذَا»(٢). فانظر إلى اهتمام الرسول ﷺ بالقيام لسماع صوت جميل يتلو القرآن، وانظر إلى كلمته الخالدة في حقِّ هذا القارئ الخاشع!

رابعًا: لو كنت تقرأ بمفردك فينبغي أن تُسمع نفسك دون أن تجهر جدًّا بالقراءة؛ فسماع الصوت يُساعد على الخشوع، ويُقلل من السرحان؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، ولقد سَأل عَبْدُ الله بْنُ أَبِي قَيْسٍ ﵀ عَائِشَةَ ﵂: «كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِاللَّيْلِ، أَكَانَ يُسِرُّ بِالْقِرَاءَةِ أَمْ يَجْهَرُ؟ فَقَالَتْ: كُلُّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ يَفْعَلُ، رُبَّمَا أَسَرَّ بِالْقِرَاءَةِ، وَرُبَّمَا جَهَرَ. فَقَالَ: الْحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ فِي الْأَمْرِ سَعَةً»(٣). وما أروع ما فعله رسول الله ﷺ ليضبط مستوى الصوت عند الصحابة! فقد روى أبو قتادة ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ وَأَنْتَ تَخْفِضُ مِنْ صَوْتِكَ». فَقَالَ: إِنِّي أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ. قَالَ: «ارْفَعْ قَلِيلًا». وَقَالَ لِعُمَرَ: «مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ وَأَنْتَ تَرْفَعُ صَوْتَكَ». قَالَ: إِنِّي أُوقِظُ الْوَسْنَانَ وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ. قَالَ: «اخْفِضْ قَلِيلًا»(٤). وصدق الله إذ يقول في حقِّ هذه الأُمَّة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]..

---

(١) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، (٤٧٦١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، (٧٩٣).

(٢) ابن ماجه: كتاب إقامة الصلوات، بابٌ في حسن الصوت بالقرآن، (١٣٣٨)، والحاكم (٥٠٠١)، وقال: صحيح على شرطين الشيخين. ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٣/ ٢٢٥، وصححه الألباني؛ انظر: صحيح ابن ماجه، ١/ ٣٩٨.

(٣) الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في قراءة الليل، (٤٤٩)، وقال: حديث حسن صحيح. وأبو داود (١٤٣٧)، والنسائي (١٣٧٣)، وابن ماجه (١٣٥٤)، وأحمد (٢٤٤٩٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود، ٥/ ١٨١، (١٢٩١).

(٤) الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في القراءة بالليل، (٤٤٧)، واللفظ له، وأبو داود (١٣٢٩)، وابن حبان (٧٣٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات. والحاكم (١١٦٨)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٧٤ (١٢٠٠).

خامسًا: تنويع السور. فينبغي للمصلي ألَّا يحرم نفسه من متعة التجوُّل بين سور القرآن الكريم المتعدِّدَة، وآياته الكثيرة.. فبعض المُصَلِّين لا يكاد يقرأ في كل صلواته إلا عددًا محدودًا جدًّا من قصار السور، أو من مجموعات الآيات المحفوظة، ولا يَخفَى على أحد أن هذا قد يقود إلى رتابةٍ تُذْهِب الخشوع؛ لهذا فالأَوْلى أن تتجوَّل بين ما تحفظ من آيات حتى تشعر بجديد في كل صلاة.. ونصيحتي للمُصَلِّين أن يُجَدِّدوا السور التي سيقرءونها في الصلاة قبل أن ينطقوا بتكبيرة الإحرام؛ لأن الإنسان في الصلاة يبدأ في قراءة السورة بعد الفاتحة بشكل عفوي لا يُتيح له كثيرًا فرصة الاختيار؛ ومن ثَمَّ فهو يقرأ فقط ما اعتاد أن يقرأه، ونصيحة أخرى للمُصَلِّي أن يُكثر من حفظ القرآن، ولو أن يحفظ كل يوم آيتين أو ثلاثًا، فهذا سيُعطيه حصيلة تُساعده على تنويع القراءة، ويُفَضَّل أن نُصَلِّي بما حفظناه حديثًا لتثبيت الحفظ؛ خاصة أن هذا سيستلزم تركيزًا في القراءة، وأنصح مَنْ لا يجد في نفسه القدرة على الحفظ أن يُراجع كتابي «كيف تحفظ القرآن الكريم»، ففيه فوائد جمَّة، ووسائل عملية، يمكن أن تجعل الأمر ميسورًا بإذن الله، واذكروا دومًا قول النَّبِيِّ ﷺ -فيما رواه عَنْهُ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما-: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا»[1].

سادسًا: القراءة من المصحف..

يُواجه المسلمون الذين يُريدون الحفاظ على سُنَّة قيام الليل مشكلة مهمَّة، وهي أن حفظهم قليل والقراءة المطلوبة طويلة! كما يُواجه المشكلة نفسَها الإمامُ الذي يؤمُّ المُصَلِّين في صلاة التراويح في رمضان؛ حيث يرغب رُوَّاد بعض المساجد في ختم القرآن، أو نصفه، ولا يجدون إمامًا حافظًا! وهنا يلجأ المُصَلِّي أو الإمامُ إلى القراءة من المصحف، فما حكم هذا الأمر؟

إن مناقشة هذا الأمر يتطلَّب الحديث عن عدَّة مسائل:

أما المسألة الأولى فهي خاصة بصلاة الفريضة؛ حيث لا تُشرع القراءة من المصحف في هذه الصلاة؛ لأن السُّنَّة المحفوظة عن النبي ﷺ وأصحابه القراءة عن ظهر قلب، ولم يُنقل

---

(١) الترمذي: كتاب فضائل القرآن (٢٩١٤)، وقال: حديث حسن صحيح. وأبو داود (١٤٦٤)، والنسائي (٨٠٥٦)، وأحمد (٦٧٩٩)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢٠٥.

عن أحد منهم القراءة من المصحف؛ ولأن معيار التفضيل في الإمامة الحفظ والإتقان للقرآن لظاهر قوله ﷺ -فيما رواه عَنْهُ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ -: «.. وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا..»[1]. وقد كره أهل العلم القراءة من المصحف في الفريضة ولم يُرَخِّصُوا فيه، وذهب أبو حنيفة إلى بطلان الصلاة بذلك[2]، وإن كان الجمهور يرى صحَّة الصلاة مع الكراهة[3]. فمَنْ كان حافظًا فليقرأ، ومَنْ لم يكن حافظًا فليقرأ ما تيسَّر له -ولو من قصار السور- وليُكَرِّر تلك السور ولا حرج عليه في ذلك، وينبغي له أن يجتهد في حفظ قدر أكبر من السور ليتمكَّن من أداء الفريضة من غير نظرٍ إلى المصحف.

والمسألة الثانية خاصّة بصلاة النافلة؛ فالقول الراجح أنه لا بأس في القراءة من المصحف لا سيما في القيام؛ لأن النفل في الشريعة مبناه على التخفيف؛ ولأن المقصود في النفل الإطالة وكثرة القيام، والقراءة من المصحف تُحَقِّق ذلك لمن لم يكن حافظًا، ولما يترتب على ذلك من سماع القرآن، ولما في ذلك من التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم؛ لأنه قد يصعب وجود حفَّاظ في بعض المساجد؛ ولأنه ثبت عن عائشة أنه كان «يَؤُمُّهَا عَبْدُهَا ذَكْوَانُ مِنَ الْمُصْحَفِ»[4]. وسُئل الزهري عن رجل يقرأ في رمضان في المصحف فقال: كان خيارنا يقرءون في المصحف[5]. وقد رخَّص المالكية والشافعية والحنابلة في ذلك؛ قَالَ مَالِكٌ: لَا بَأْسَ بِأَنْ يَؤُمَّ الْإِمَامُ بِالنَّاسِ فِي الْمُصْحَفِ فِي رَمَضَانَ وَفِي النَّافِلَةِ[6]. وقال النووي (من الشافعية): لَوْ قَرَأَ الْقُرْآنَ مِنَ الْمُصْحَفِ لَمْ تَبْطُلْ صَلَاتُهُ؛ سَوَاءٌ كَانَ يَحْفَظُهُ أَمْ لَا؛ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ إِذَا لَمْ

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب من شهد الفتح، (٤٠٥١)، والنسائي (٨٦٤)، وأحمد (١٥٩٤٣).

(٢) انظر: الكاساني: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ٢٣٦، وبدر الدين العيني: البناية شرح الهداية ٢/ ٤٢١، وابن نجيم: البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٢/ ١١.

(٣) ذَهَبَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى جَوَازِ الْقِرَاءَةِ مِنَ الْمُصْحَفِ فِي الصَّلَاةِ، وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: لَمْ أَسْمَعْ فِيهَا شَيْئًا (أي في القراءة من المصحف في الفريضة). وَكَرِهَ الْمَالِكِيَّةُ الْقِرَاءَةَ مِنَ الْمُصْحَفِ فِي صَلَاةِ الْفَرْضِ مُطْلَقًا، وذهب بعض الحنفية إلى ذلك فهذه الصلاة عند أَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ تَامَّةٌ وَيُكْرَهُ، انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٣/ ٥٧، ٥٨، ٣٨/ ١١، ١٢، والكاساني: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ٢٣٦، وبدر الدين العيني: البناية شرح الهداية ٢/ ٤٢١، وابن نجيم: البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٢/ ١١.

(٤) ذكره البخاري في صحيحه معلقًا مجزومًا به، البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إمامة العبد والمولى. ووصله البيهقي: السنن الكبرى (٣٤٩٧)، وقال النووي: رواه البيهقي بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٥٠٠.

(٥) مالك: المدونة ١/ ٢٨٨، ٢٨٩، والمقريزي: مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر ص٢٣٣.

(٦) مالك: المدونة ١/ ٢٨٨.

يَحْفَظِ الْفَاتِحَةَ، وَلَوْ قَلَّبَ أَوْرَاقَهُ أَحْيَانًا فِي صَلَاتِهِ لَمْ تَبْطُلْ، وَلَوْ نَظَرَ فِي مَكْتُوبٍ غَيْرِ الْقُرْآنِ وَرَدَّدَ مَا فِيهِ فِي نَفْسِهِ لَمْ تَبْطُلْ صَلَاتُهُ، وَإِنْ طَالَ لَكِنْ يُكْرَهُ، نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ فِي الْإِمْلَاءِ، وَأَطْبَقَ عَلَيْهِ الْأَصْحَابُ[١]. وقال أحمد: لا بأس أن يُصَلِّيَ بالناس القيام وهو ينظر في المصحف. فقيل له: في الفريضة؟ قال: لا لم أسمع فيه شيئًا[٢].

وأرى أن التفريق بين الفريضة والنافلة هو القول الموافق للأدلة والمقاصد الشرعية، ولا ينبغي أن يُسهَّل للناس ويُرَخَّص لهم في القراءة من المصحف في الفريضة؛ لأن ذلك يُفضي إلى تفريط الناس بالحفظ، وعدم الاهتمام بشروط الإمامة المعتبرة.

والمسألة الثالثة خاصة بالمأموم الذي يُتابع الإمام من المصحف؛ فقد يكون الإمام ضعيف الحفظ، ويحتاج لأحد المُصَلِّين يتابعه من المصحف، فهذا الأمر لا بأس به؛ لأنه يُحقِّق مصلحة مباشرة، ويحفظ استمرار القراءة دون انقطاع، كما أنه يُعطي ثقة للإمام حيث يطمئن إلى وجود مَنْ يفتح عليه إذا ارتجَّ في القراءة.

والمسألة الرابعة خاصة بالمأمومين الذين يحبُّون أن يمسكوا مصحفًا في أيديهم لمتابعة الإمام بغرض التركيز والحفاظ على الخشوع.. فهذه مسألة خلافية بين العلماء.. فبعضهم[٣] يرى أنه لا بأس بذلك، أما الآخرون[٤] -وأنا أميل إلى هذا الرأي- فيَرَوْن عدم جواز ذلك؛ لأنه يُفَوِّت على المصلي أمورًا من السنَّة، ويُوقِعه في أمور منهيٍّ عنها.. فيُفوِّت النظر إلى موضع السجود، ويفوِّت وضع اليدين على الصدر وإمساك اليمين بالشمال، ويقع في منهيٍّ عنه وهو الحركة بحمل المصحف، وفتحه، وطيه، ووضعه، وهذه الحركة في الصلاة إذا لم يكن لها حاجة فهي مكروهة؛ وهي تنافي كمال الخشوع؛ بل قال بعض العلماء: إن حركة البصر أثناء القراءة تُبطل الصلاة! لأن البصر سوف يتابع القراءة من أول السطر إلى آخره، ومن أول الثاني إلى آخره وهكذا، مع أن فيه حروفًا كثيرة وكلمات كثيرة فيكون حركة كثيرة للبصر،

---

(١) النووي: المجموع شرح المهذب ٤/ ٩٥.

(٢) انظر: ابن قدامة: المغني ١/ ٤١١، والبهوتي: دقائق أولي النهى لشرح المنتهى ١/ ٢١١، والموسوعة الفقهية الكويتية ٣٣/ ٥٧.

(٣) انظر موقع إسلام ويب الفتوى رقم (٢٦٧١٨): http://fatwa.islamweb.net.

(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن باز ١١/ ٣٤٠- ٣٤٢، ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١٤/ ٢٣٢، وفتاوى اللجنة الدائمة (المجموعة الثانية) ٥/ ٣٨٤.

وهذا مبطل للصلاة[1].

أما المسألة الخامسة فهي أمور تساعد القارئ في المصحف على تحصيل الفوائد دون الوقوع في أشياء قد تُقلِّل من درجة الخشوع؛ ومن هذه الأمور أن يضع المصحف الذي يقرأ فيه على حامل مرتفع بحيث لا يكون مضطرًّا إلى حمل المصحف؛ بل ينظر فيه فقط، بينما يقبض بيده اليمنى على اليسرى كما في السُّنَّة، وهذا يتطلَّب أن يكون حجم المصحف كبيرًا حتى يستطيع أن يقرأ فيه عن بُعد، كما يتطلَّب إضاءة جيدة للسبب ذاته، ومن هذه الأمور -أيضًا- استخدام «مصحف التهجد»! وهو مصحف مصمم خصوصًا لهذا الغرض، وفيه يوجد كلُّ ربعين من أرباع الجزء في صفحتين متقابلتين، ولما كان من عادة القرَّاء أن يقرءوا في كلِّ ركعة من ركعات القيام أو التراويح ربعًا واحدًا، وبالتالي يقرءون ربعين في الركعتين؛ فهذا يعني أن القارئ لن يحتاج إلى تقليب الصفحات أثناء القراءة، وهذا لا شكَّ يُقلِّل من الحركة، ويُساعد على الخشوع.

سابعًا: قراءة تفسير القرآن..

كما ذكرنا قبل ذلك في نظرية هرم الخشوع فإن أُولى خطوات الخشوع أن تُدرك معنى الآيات، وإلا فكيف ستخشع في آية لا تفهم مرادها أو معناها؟! وحلُّ ذلك بسيط وجلي، وهو أن تقرأ -أو تسمع- بعناية تفسير القرآن الكريم، وهو مطلب لا بديل عنه، خاصَّة في زماننا الذي ضعفت فيه لغتنا العربية، وصار الكثير من كلمات القرآن الكريم غير مفهوم عندنا، فضلًا عن جهلنا بأسباب النزول؛ بل أكثر من ذلك أقول: إنه أحيانًا يكون المقصود من بعض التعبيرات غير ما نعتقد تمامًا! حتى لو كانت الآيات -في ظنِّنا- واضحة المعنى، وهذا اللبس في الفهم يمكن أن يُصيب أي إنسان مهما كانت قوة لغته العربية، أو حدَّة ذكائه وفطنته، ولن يكون الحلُّ إلا بالرجوع إلى أهل التخصص، وهم مفسرو القرآن الكريم.. وللتأكيد على هذا المعنى يكفي مراجعة هذا الموقف الذي شاهدنا فيه رجلًا مشهودًا له بقوَّة اللغة، وحدَّة الذكاء، كيف أنه لم يُدرك حقيقة المعنى إلا بالعودة إلى المتخصِّصين، والرجل هو الصحابي الجليل عدي بن حاتم ﵁، والمتخصِّص هو النبي الكريم ﷺ! فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﵁ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، عَمَدْتُ

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١٤/ ٢٣٣.

إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»(١).. فها هو صحابي جليل في الزمن الذهبيِّ للغة العربية، وفي زمن يتنزل فيه الوحي، ومع ذلك لا يفهم المراد الحقيقي من الآية إلا بعد الرجوع إلى رسول الله ﷺ.. ومثال آخر مهمٌّ رواه عَبْدُ الله بنُ مسعود ؓ حيث قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله؛ أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ؟»(٢).. فهنا نرى أن عددًا من الصحابة لم يفهموا المراد من الآية مع وضوح ألفاظها؛ لأن كلمة «الظلم» فيها لا تُعَبِّر عن معنى الظلم المتعارف عليه بينهم، وهذا لا يمكن أن يُعْرَف إلا عن طريق التفسير من أهل التخصُّص، والمفسِّر هنا كان رسول الله ﷺ، أمَّا في حياتنا فالمفسِّر هو الكتاب أو الشيخ الذي ينقل تفاسير رسول الله ﷺ أو الصحابة الكرام أو جهابذة العلماء.

وبخصوص تفسير القرآن الكريم لي بعض النصائح للباحثين عن الخشوع:

١) يُفضَّل أن تضع خطة شاملة ممنهجة لقراءة تفسير القرآن الكريم كاملًا، ولا داعي للعشوائية التي قد تُضيِّع عليك خيرًا كثيرًا، بمعنى أن القراءة المتفرِّقة هنا وهناك لا تدري معها مع مرور الوقت أي السور قرأت تفسيرها وأي السور لم تعرف تفسيرها بعدُ؛ لهذا فالمقصود هو القراءة حسب خطَّة مكتوبة محسوبة، كأن تقرأ التفسير بالترتيب من البقرة إلى الناس، أو العكس، أو كتابة خطَّة تشمل القرآن كله حتى لو كانت دون ترتيب، كأن تقرأ تفسير الجزء الأخير أولًا، ثم تفسير الكهف، ثم تفسير يس، ثم تفسير الجزء التاسع والعشرين مثلًا.. وهكذا، بحيث تكون الخطة شاملة للقرآن كله، فتضمن بذلك في النهاية ألا يفوتك شيء من القرآن دون إدراكٍ لمعانيه.

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، (١٨١٧)، ومسلم: كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر وأن له الأكل وغيره، (١٠٩٠).

(٢) البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ﴾ [لقمان: ١٢]، (٣٢٤٦)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، (١٢٤).

٢) ابدأ بقراءة تفسير السور التي تحفظها وتُكثِر من قراءتها في صلاتك.

٣) مع أننا أقررنا مبدأ الخطة المنظمة فإنه لا ينبغي لك أن تسمع كلمة أو آية غير مفهومة من القرآن ثم لا تسعى لمعرفة معناها، حتى لو كان مكانها في الخطَّة متأخرًا؛ لأن أفضل الأوقات لمعرفة تفسير آية هو الوقت الذي تكتشف فيه أنك لا تعرف المقصود منها! فعندئذٍ يكون البحث بشغف، وغالبًا لن تنسى معناها مع مرور الوقت.

٤) ابدأ قراءة التفسير من كتاب مُبسَّط يُعطيك أسهل التفاسير وأقصرها[1]، لأنك ستُحَقِّق إنجازًا في القراءة يعطيك دفعة معنوية لإكمال القراءة، وستأخذ فكرة شاملة عن معاني القرآن الكريم توفِّر لك قسطًا لا بأس به من الخشوع.

٥) إذا انتهيت من قراءة مبسطة لتفسير القرآن الكريم فلا تكتفِ بذلك؛ بل تدرَّج في التوسُّع، فاقرأ تفسيرًا أكبر ثم أكبر، ولا تقولنَّ أبدًا: إنني انتهيت من معرفة تفسير القرآن الكريم أو معانيه، فإن هذا بحر لا ساحل له، وستظلُّ في حَوْج إلى الازدياد ما طالت بك حياة! وهناك ما يصعب إحصاؤه من تفاسير القرآن القديمة والحديثة؛ منها ما هو في مجلد واحد، ومنها ما يربو على عشرين مجلدًا! وهناك إسهامات هائلة في هذا المجال لعلماء معظم الأقطار الإسلامية، فدَاوِم على الاستزادة من المعرفة يَزْدَدْ خشوعك إن شاء الله. وطلاب العلم -بل والعلماء- يحتاجون الاستزادة من القراءة في كتب التفسير والتأويل ليزدادوا خشوعًا، ولقد قام رسول الله ﷺ ليلة كاملة بآية واحدة! مما يعني أنه كان يُدرك منها من المعاني ما لا يُدركه عامَّة الناس؛ فقد روى النسائي وابن ماجه عن أَبِي ذَرٍّ ﷺ أنه قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ بِآيَةٍ، وَالْآيَةُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ

---

(١) ومن هذه التفاسير: تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، والتفسير الميسر، لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم، تأليف: لجنة من علماء الأزهر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر، وتفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، والتفسير الوسيط للزحيلي، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي، وتفسير الماوردي (النكت والعيون)، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، وعمدة التفاسير لأحمد محمد شاكر، والمصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير للمباركفوري، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم للشيخ محمد سيد طنطاوي، وتفسير القرآن للناشئين للدكتور عبد الحليم عويس وعلي عبد المحسن جبر.

أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][(١)].

٦) خصِّص وقتًا معينًا لقراءة تفسير القرآن الكريم يوميًا، كأنْ تجعل لذلك عشر دقائق مثلًا كل ليلة، قبل أن تنام، أو عند رجوعك من العمل، أو قبل نزولك إليه، أو في المواصلات، أو غير ذلك، وإن زِدْتَ في الوقت فهو خير لك؛ لكن لا تُقَلِّل أبدًا، وتذكَّر أنك تقرأ تفسير رسالة ربك إليك، فكم هو خطير أن تكون بالرسالة أجزاء غير مفهومة لك!

٧) احرص على حضور دروس تفسير القرآن لأحد العلماء المتخصصين؛ أو اسمع محاضراته المسجَّلة؛ فالكتاب وحده لا يكفي، وقد تفهم شيئًا ما عن طريق القراءة على نحو غير صحيح، فيأتي العالِم ويُوَضِّح لك الأمر ويُبَيِّنه، كما أن لكل عالِم رؤية، ولكل متخصِّص هداية، وهذا فضل الله يُؤتيه مَنْ يشاء، وأزعم أنك لو سمعتَ تفسير آية واحدة من خمسة علماء ربانيين فإنك قد تسمع خمسة أشياء مختلفة! والقرآن أسراره كثيرة، وبركاته لا تنقطع، ولا شكَّ أنك لو أدركتَ كثيرًا من خفايا كلِّ آية زاد خشوعك فيها بالقدر الذي أدركتَه منها، وليس الذي يعلم كالذي لا يعلم، وتدبَّر في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، فمحال أن يكون خشوع العالِم بتفسير آية كالجاهل به، ومحال أن يكون خشوع الذي يعي عدَّة تفسيرات للآية نفسها كالذي يعرف معناها إجمالًا؛ بل إن الله ﷻ نَسَب الخشية -وهي درجة من الدرجات المرتفعة في هرم الخشوع- إلى العلماء، فقال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وهذا كله يدفعنا إلى تسخير الأوقات والجهود لحضور مجالس العلم التي ترقى بعلومنا، وتشرح لنا رسالة ربِّنا.

٨) إذا أردتَ لخشوعك أن يزيد أكثر وأكثر فعليك بقراءة الكتب التي تبحث في لطائف اللغة! واجمع ما تسمعه من المفسِّرين والعلماء والدعاة في هذا الشأن في أوراق خاصة بك، فكلُّ كلمة في كتاب الله في موضعها، ولا يمكن استبدالها

---

(١) النسائي: كتاب صفة الصلاة، ترديد الآية (١٠٨٣)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وأحمد (٢١٤٢٥)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والحاكم (٨٧٩)، وقال: حديث صحيح. ووافقه الذهبي، وقال النووي: رواه النسائي، وابن ماجه، بإسناد حسن. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٥٩٥، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. انظر: مصباح الزجاجة ١/ ١٥٩، وصححه الألباني انظر: مشكاة المصابيح ١/ ٣٧٨.

بغيرها، ولا يُحَقِّق غيرها الهدف نفسه أبدًا، وهذا من أبلغ وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ولنأخذ مثالًا نُوَضِّح به هذه النقطة.. فالقرآن الكريم استخدم للتعبير عن الزوجة لفظين مختلفين، فسمَّاها أحيانًا امرأة، وفي أحيان أخرى يُسَمِّيها زوجة؛ فإن البيان القرآني يستعمل لفظ «زوج» حينما تحدَّث عن آدم وزوجه مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ومثل قوله: ﴿فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، على حين يستعمل لفظ «امرأة» في الحديث عن زوجة العزيز؛ فقال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠]، وكذلك استعمل اللفظ نفسه عند الحديث عن زوجتي نوح ولوط عليهما السلام؛ فقال: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠]، وأيضًا استعمله عند الحديث عن زوجة فرعون، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١]. وقد يبدو لنا أنه من اليسير أن يقوم أحد اللفظين مقام الآخر، وكلاهما من الألفاظ القرآنية، فنقول في «زوج آدم» -مثلًا- امرأة آدم، أو في امرأة العزيز: زوج العزيز. لكننا لا نجد ذلك أبدًا في القرآن! والسرُّ أن القرآن ينظر إلى الحكمة من ارتباط الرجل بالمرأة في علاقة الزواج، وبناءً على هذه الحكمة يُعَبِّر باللفظ المناسب، ومن أهم حِكَم الزواج تحقيق المودَّة والسكينة والراحة، فإذا تحقَّق ذلك فالارتباط هنا يكون بين رجل و«زوجه»، وإذا لم يتحقَّق فالارتباط يكون بين رجل ومجرَّد «امرأة»! ومن هنا فالعلاقة الطيبة بين آدم ﷺ وزوجته لا بُدَّ أن يُعَبَّر عنها بلفظ «زوجه»؛ بينما العلاقة السيئة التي كانت بين نوح أو لوط عليهما السلام، أو العزيز، وزوجاتهم جعلتهن مجرَّد نساء لا «أزواج»، وكذلك في حالة زوجة فرعون التي كانت متباينة عنه تمامًا في الدين والعقيدة؛ مما عطَّل السكينة والمودَّة، وبالتالي جاء التعبير بكلمة «امرأة» وليس «زوج»! ومن هنا نفهم استعمال كلمة أزواج في القرآن فإنها تأتي دومًا في العلاقة الطيبة، فيقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وحتى عند الحديث عن نعيم الآخرة يقول: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]، وعلى هذا النسق تجري كل الآيات!

وإضافة إلى هدف تحقيق المودَّة والسكينة من الزواج فهناك هدف آخر كبير منه وهو التوالد والتكاثر وبالتالي استمرار الحياة، وهو ما يظهر من قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]؛ فالتعبير هنا "بزوجها" لأن الناتج ذرية كثيرة: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، فإذا تعطَّلت هذه الحكمة الرئيسة في الزواج عبَّر البيان القرآني عن الزوجة بكلمة «المرأة»، حتى لو كانت المودَّة متحقِّقة! مثل قوله تعالى في حقِّ سارة ﷺ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، ومثل نداء زكريا ﷺ إلى الله ﷻ بقوله: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، والعجيب للغاية أنه لما تحقَّقت أمنيته، وصارت «امرأته» حاملًا، وتحقَّق هدف الزواج قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فتمَّ التعبير عن زوجة زكريا ﷺ بكلمة «زوجه»!!.. فهذا مثال واحد للفروق في المعنى لكل لفظ، والأمثلة أكثر من أن تُحصى، ولا شكَّ أن تدبُّر وخشوع مَنْ يعرف هذه الفروق أعلى بكثير ممن يظنُّها كلها بمعنى واحد!

٩) ومثل الذي قلناه عن الإعجاز اللغوي والبياني ينبغي للمسلم أن يقرأ -ولو بشكل مبسط- عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وقد ظهر هذا اللون من الإعجاز بقوة في السنوات الأخيرة، وتوفَّرت لدينا الكثير من المؤلفات التي تعرض هذا الأمر بشكل مبدع ومفصَّل؛ ومن المؤكَّد أن الخشوع في الصلاة سيزداد كثيرًا عندما يعرف المُصَلِّي الإعجاز العلمي داخل الآية، ولنأخذ على ذلك مثالًا واحدًا لتوضيح الرؤية؛ فقد قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وهذه الآية القرآنيَّة كشفت أنَّ الكون يتوسَّع أو يتمدَّد، وهي النتيجة نفسها التي خَلُصَ إليها العِلْمُ في أيَّامنا هذه، فحتى فجر القرن العشرين كانت النظرة العلميَّة الوحيدة السائدة في هذا العالم أنَّ الكون له طبيعة ثابتة، وهو موجود على هذه الصورة منذ الأزل؛ لكنَّ الأبحاث والملاحظات والحسابات التي أُجْرِيَتْ بواسطة التقنيات الحديثة كشفت أن الكون في الحقيقة له بداية معينة، ثم إنه يتمدَّد

بانتظام! ففي بداية القرن العشرين أثبت عالم الفيزياء والفلك البلجيكي جورج لوميتر[١] نظريًا بأن الكون في حركة دائمة، وأنه يتمدَّد، وقد أكَّد هذه الحقيقة عالم الفلك الأميركي إدوين هبل[٢] عام (١٩٢٩م)؛ حيث أثبت أن النجوم والمجرَّات تتحرَّك بعيدًا عن بعضها البعض بشكل دائم، وهذا يعني أنَّ الكون الذي يتحرَّك فيه كل شيء بشكل دائم بعيدًا عن بعضه البعض هو كَوْنٌ متمدِّد بشكل دائم[٣].

وأعتقد أن خشوع المصلي في قراءة قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ بعد أن أدرك هذه الحقيقة العلمية سيكون أكثر بكثير من خشوعه قبل هذا الإدراك.

١٠) هناك قراءات متعدِّدة للقرآن الكريم، وكل واحدة منها تختلف عن الأخرى في نطق بعض الكلمات، أو تختلف في تركيب كلمات أخرى، وقد تكون هناك كلمة مستبدلة بكلمة أخرى، وكل هذه القراءات صحيح، والرسول ﷺ قرأ بها جميعًا، وكل اختلاف بين القراءات من الممكن أن يُعطي معنًى جديدًا، ويُضيف إضافة رائعة إلى مفهوم الآية، وبالتالي فإن قراءة شيء عن مثل هذه الاختلافات يرفع كثيرًا من درجة الخشوع نتيجة الإلمام بمعانٍ أكثر، ولنأخذ بعض الأمثلة للدلالة على هذا الأمر.. فالله ﷻ يقول: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] فقراءة الجماعة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ بغير ألف من الزلة وهي الخطيئة، أي استزلَّهما وأوقعهما فيها، وقرأ حمزة: ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾؛ بألف من التنحية؛ أي نحاهما؛ يقال: أزلته فزال. قال ابن كيسان: فأزالهما من الزوال؛ أي صرفهما عمَّا كانا عليه من الطاعة إلى المعصية[٤].

ومثال آخر في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فقوله: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي من

---

(١) جورج لوميتر George Le Maitre (١٨٩٤-١٩٦٦): عالم فضاء وفلك بلجيكي، صاغ نظرية الانفجار الكبير، التي تتحدَّث عن بدء نشوء الكون من انفجار كارثي كبير.

(٢) إدوين هبل Edwin Hubble (١٨٨٩-١٩٥٣): عالم فلك أميركي، أثبت وجود مجرات أخرى عدا المجرة اللبنية.

(٣) انظر: هارون يحيى: المعجزات القرآنية ص١٢، ١٣ بتصرف.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣١١.

النسيان، وقرأ عطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي نجيح وغيرهم: ﴿أَوْ نَنْسَأْهَا﴾ أي نؤخِّرها(١). ومثال ثالث في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]: فلفظ ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بضَمِّ الفَاء يَقْتَضِي مَدْحًا لِنَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ مِنْ صَمِيمِ الْعَرَبِ وَخَالِصِهَا(٢)، وَقَرَأَ عَبْدُ الله بْنُ قُسَيْطٍ المَكِّيُّ: ﴿مِنْ أَنفَسِكُمْ﴾ بِفَتْحِ الْفَاءِ مِنَ النَّفَاسَةِ(٣).

فتلك عشر كاملة
تعينك على فهم القرآن فهمًا صحيحًا.

ثامنًا: التفاعل مع الآيات:

ينبغي أن يكون لنا ردُّ فعل لكل آية نسمعها! فبعض الآيات تتطلب إحساسًا معينًا، مثل الفرح أو الحزن، أو الخوف أو الرجاء، وبعض الآيات تتطلَّب ترديدًا لأذكار معينة، وبعضها يتطلَّب دعاءً وابتهالًا.. وهذه هي سُنَّة الرسول ﷺ، فقد قال حذيفة بن اليمان ؓ وهو يصف قراءة رسول الله ﷺ في قيام الليل: «.. يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ..»(٤). وكذلك قال عوف بن مالك ؓ: «قُمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةً فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ..»(٥).

---

(١) انظر: القاسم بن سلام: الناسخ والمنسوخ ١/ ٩، والطبري: جامع البيان ٢/ ٤٧٧، والماوردي: النكت والعيون ١/ ١٧١.

(٢) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ١٠٠، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٠١، وأبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير ٥/ ٥٣٢.

(٣) ابن جني: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ١/ ٣٠٦، وابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ١٠٠، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٠١، وأبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير ٥/ ٥٣٣.

(٤) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، (٧٧٢)، والنسائي (١٣٧٧).

(٥) أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، (٨٧٣)، والنسائي (٧١٨)، وأحمد (٢٤٠٢٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي. وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٣٩٦، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٧٤، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ٤/ ٢٧ (٨١٧).

ولنأخذ أمثلة على بعض ردود الفعل التي ينبغي لنا أن نتعلمها:

١) إذا مررت بآية فيها أمر بذِكْرٍ معيَّن لله ﷻ فاذكره بهذا الذِّكر؛ فإذا قرأتَ مثلًا: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؛ فقل: سبحان ربي الأعلى. وإذا قرأتَ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لله سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا..﴾ [النمل: ٩٣] فقل: الحمد لله. وإذا قرأتَ: ﴿.. وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، فقل: الله أكبر. وهكذا.

٢) وإذا مررتَ بآية تدعوك إلى الاستغفار؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، فاستغفر الله قائلًا: أستغفر الله. وإذا كانت الآية تدعوك إلى التوبة؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا..﴾ [التحريم: ٨]، فاستحضر ذنوبك وتُب منها، واعزم ألَّا تعود إليها، واطلب من الله أن يتقبَّل توبتك، ويُعينك عليها.

٣) إذا مررتَ بآية تتحدَّث عن يوم القيامة؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٤، ١٠٥]، فاسأل الله أن تكون من السعداء في هذا اليوم العظيم.

٤) وإذا مررتَ بآية تتحدَّث عن الجنة ونعيمها؛ مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فاسأل الله أن تكون من الطيبين الذين يُقال لهم هذا القول الجميل.. أما إذا مررتَ بآية تتحدَّث عن النار وعذابها؛ مثل قوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فاستعذ بالله من هذا المصير.

٥) إذا قرأتَ آية تتحدَّث عن صفات المؤمنين؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فقل: اللهم اجعلني من المجاهدين فيك، واهدني سبيلك، واجعلني من المحسنين، أو نحو ذلك من الدعاء، أمَّا إذا قرأتَ آية تتحدَّث عن صفات الكفار أو المنافقين أو العُصاة؛ مثل قوله: ﴿.. وَالله لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ..﴾ [الحديد: ٢٣، ٢٤] فقل: اللهم اعصمني من الخيلاء والفخر، وقني شرَّ البخل. أو نحو ذلك من الأدعية.

٦) إذا مررتَ بآية دعاء من أدعية الأنبياء أو الصالحين أو الملائكة؛ مثل قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۞ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]، فأمِّنْ على هذا الدعاء قائلًا: آمين. أو كرِّر الدعاء نفسه، أما إذا مررتَ بآية تتطلب منك الدعاء فاستجب بسرعة، وقِفْ للدعاء خاشعًا، وأطِلْ في الدعاء، فإنه موضع إجابة إن شاء الله؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾ [غافر: ٦٠]، أو قوله: ﴿.. وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ..﴾ [النساء: ٣٢]، أو قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..﴾ [البقرة: ١٨٦].

٧) إذا قرأتَ قصة من قصص القرآن فتفاعل معها، واسأل الله أن يرزقك خاتمة المؤمنين فيها، وأن يعصمك من خاتمة المشركين والأشقياء فيها؛ وذلك كما في قوله تعالى في قصة نوح ﷺ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٦]، فقل: اللهم يا من نجَّيتَ نوحًا وأهله من الكرب العظيم نجِّني وأهلي من الكرب العظيم. ومثل قوله تعالى في قصة فرعون وقومه: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]، فقل: اللهم يا قوي، يا شديد العقاب، يا مَن أهلكت فرعون وآله، لا تجعلني من الكافرين بآياتك، ولا تأخذني بذنوبي. أو مثل ذلك من الأدعية.

٨) إذا مررتَ بموقف فيه فرح وسرور فافرح مع الفرحين، وليدخل قلبك السرور مع المسرورين؛ مثل فرحة الثلاثة الذين تاب الله عليهم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، ومثل سرور يعقوب ﷺ عندما رجع إليه بصره، ووجد ابنه يوسف ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا..﴾ [يوسف: ٩٦]، أما إذا وجدت صالحًا يحزن فشاركه حزنه وهمَّه، وتأثَّر لموقفه وألمه، مثل موقف نوح ﷺ وهو يُشاهد فلذة كبده يغرق كافرًا أمام عينه في قوله تعالى: ﴿.. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، أو عند حزن رسول الله ﷺ عند مقتل

أصحابه ﷺ في أُحُد، وعلى رأسهم عمُّه الجليل حمزة ﷺ؛ وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ الله وَلِيَعْلَمَ المُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦].. أو عند خوف موسى ﷺ وحذره عندما قتَلَ المصريَّ، وصار مطلوبًا من فرعون وجنده، فاضطر إلى الهرب من مصر إلى مصير مجهول؛ وذلك عند قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

٩) إذا مررتَ بآية تتحدَّث عن رسول الله ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ..﴾ [الأنفال: ٦٥]، أو قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ..﴾ [الأحزاب: ٤٠]، أو قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا..﴾ [الحشر: ٧]، فصلِّ عليه، واسأل الله أن يحشرك معه، وأن يجعلك قريبًا منه في الجنة.

١٠) وإذا مررتَ بآية تسألك سؤالًا فأجب السؤال بإيمان ويقين؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ؟﴾ [التين: ٨]، فقل: بلى أحكم الحاكمين، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومثل قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى؟﴾ [القيامة: ٤٠]، فقل: بلى قادر، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومثل قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثًا؟﴾ [النساء: ٨٧]، فقل: لا أحد. ومثل قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟﴾ [الزمر: ٣٦]، فقل: بلى أشهد أن الله كافٍ عبده.. أو قل نحو هذه من الإجابات التي تُعبِّر عن فهمك للسؤال وتفاعلك معه..

١١) إذا مررتَ بآية سجدة فاسجد، واستشعر أنك قد رُفعت وقُدِّمت على الشيطان بسجودك لله ورفضه هو للسجود؛ فقد روى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلِي أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِي النَّارُ»[1].. واستشعر كذلك حماسة الصحابة للسجود مع رسول الله ﷺ عند سجود التلاوة؛ فقد قال ابْنُ عُمَرَ ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ السَّجْدَةَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ فَيَسْجُدُ وَنَسْجُدُ مَعَهُ، فَنَزْدَحِمُ

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على مَنْ ترك الصلاة، (٨١)، وابن ماجه (١٠٥٢)، وأحمد (٩٧١١).

حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُنَا لِجَبْهَتِهِ مَوْضِعًا يَسْجُدُ عَلَيْهِ»(١). وقد اختلف العلماء في حكم سجود التلاوة؛ فذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن سجود التلاوة واجب؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠، ٢١]، وقال: هذا ذمٌّ، ولا يُذَمُّ إلا على ترك واجب. واختار هذا القول ابن تيمية؛ بينما ذهب الإمام أحمد، والإمام مالك، والإمام الشافعي، وهو قول عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما إلى أن سجود التلاوة ليس بواجب بل سُنَّة مؤكَّدة، وهذا الرأي الأخير هو الذي عليه جمهور العلماء(٢)، وإذا كان سجود التلاوة في الصلاة، فإن الإمام يُكبِّر حين يسجد وحين ينهض من السجود؛ لأن النبي ﷺ كان يُكبِّر في الصلاة في كل خفض ورفع(٣)، وإذا قرأ السجدة في الصلاة في آخر السورة، فإن شاء ركع، وإن شاء سجد ثم قام فقرأ شيئًا من القرآن ثم ركع، وإن شاء سجد ثم قام فركع من غير قراءة(٤)، أما ما يقال في السجود فقد ورد في روايتين عن رسول الله ﷺ؛ أما الأولى فهي عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ فِي سُجُودِ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ: «سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ». وأما الثانية فهي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي رَأَيْتُنِي اللَّيْلَةَ وَأَنَا نَائِمٌ كَأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فَسَجَدْتُ فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقُولُ: «اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ سَجْدَةً ثُمَّ سَجَدَ، قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ

---

(١) البخاري: أبواب سجود القرآن، باب ازدحام الناس إذا قرأ الإمام السجدة، (١٠٢٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب سجود التلاوة، (٥٧٥).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ٥/ ٧٤-٧٩، وابن قدامة: المغني ١/ ٤٤٦، والجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٤٢٠، والموسوعة الفقهية الكويتية ٢٤/ ٢١٢- ٢١٥، وسيد سابق: فقه السنة ١/ ٢١٩، ٢٢٠، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ١١٢٧- ١١٣٠.

(٣) انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٤٢٤، ومحمد نعيم محمد هاني ساعي: موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي ١/ ١٨٣، والموسوعة الفقهية الكويتية ٢٤/ ٢٢٣، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ١١٣٤، ١١٣٥.

(٤) ابن قدامة في المغني، ١/ ٤٤٨.

عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ[1]. ويمكن أن تجمع في سجودك بين الروايتين فتُحقِّق الأجر الأكبر إن شاء الله.

فهذه بعض التفاعلات مع القرآن، مع التأكيد أن معظم ما ذكرتُه من أمثلة للتفاعل ليس فيها نصٌّ صريح من السُّنَّة النبوية؛ إنما الأصل الذي نعتمد عليه هو وصف حذيفة ﷺ لصلاة الرسول ﷺ حين قال: «.. يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ..». وهو هنا لم يُحدِّد طريقة السؤال أو صيغته؛ فدلَّ ذلك على سعة الأمر، وعلى أنه متروك للمسلمين حيث يختار كلُّ مصلٍّ أو قارئ الصيغة التي يراها مناسبة لكي يُحقِّق التفاعل المطلوب، وما ذكرناه هو مجرَّد أمثلة، ولا شكَّ أن الأمر أوسع من ذلك بكثير.

إن خشوعنا في الصلاة مرتبط أشدَّ ارتباط بمدى استيعابنا لمعاني الرسالة الإلهية التي أرسلها لنا الله ﷻ، وما ذكرناه سالفًا في هذه الصفحات هي أمور تجعلك قريبًا من القرآن ومعانيه؛ ولكن ما أجمل أن نختم هذه الصفحات ببشارة إلى القارئين لكتاب الله والمتدبِّرين فيه؛ وهي أن هذا التدبُّر لا يجعلك فقط قريبًا من القرآن، بل يجعل القرآن نفسه قريبًا منك! فيصبح القرآن مدافعًا عنك، وشافعًا عند الله لك! وهذا ما رواه النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ الْكِلَابِيُّ ﷺ حين قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ». وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ[2] أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ[3] مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[4] تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[5]!..

فأبشر يا صاحب القرآن..

متعة في الدنيا في صحبة كتاب الله..

ومتعة في الآخرة في حماية كلام الله..

ولله الفضل والمنة..

---

(١) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول في سجود القرآن (٣٤٢٤)، وابن ماجه (١٠٥٣)، وابن حبان (٢٧٦٨)، والحاكم (٧٩٩)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه النووي، خلاصة الأحكام ٢/ ٦٢٣، والألباني، السلسلة الصحيحة (٢٧١٠).

(٢) الشَّرْقُ: هُوَ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَإِسْكَانِهَا أَيْ ضِيَاءٌ وَنُورٌ. النووي: المنهاج ٦/ ٩١.

(٣) حِزْقَان: قطيعان وجماعتان، يقال في الواحد: فِرْقٌ وَحِزْقٌ وَحَزِيقَةٌ؛ أَيْ جَمَاعَةٌ. انظر: النووي: المنهاج ٦/ ٩٠، ٩١.

(٤) مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ: جَمْعُ صَافَّةٍ؛ أَيْ بَاسِطَاتٍ أَجْنِحَتَهَا فِي الطَّيَرَانِ. المباركفوري: تحفة الأحوذي ٨/ ١٥٥.

(٥) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، (٨٠٥)، والترمذي (٢٨٨٣)، وأحمد (١٧٦٧٤).



غراس الجنة

في قمَّة عالية..

عالية جدًّا..

بعيدًا بعيدًا..

في السماء السابعة!

دار حوار عجيب..

بين خليلين للرحمن..

بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وحفيده الأعظم محمد ﷺ..

لقد خبر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الجنة، ورأى ما فيها بعينه، وعرف أخبارها وأسرارها، وأراد أن ينقل خبرته هذه إلى حفيده الحبيب ﷺ وأُمَّته، فقال له:

«يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ..
وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ
وَأَنَّهَا قِيعَانٌ
وَأَنَّ غِرَاسَهَا..
سُبْحَانَ اللهِ
وَالحَمْدُ للهِ
وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ
وَاللهُ أَكْبَرُ»[1].

وهي ذات أذكار الصلاة!

فكأننا ونحن نُصَلِّي...

---

(١) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد (٣٤٦٢)، وقال: حديث حسن. والطبراني: المعجم الكبير ١٠/ ١٧٣. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٤٢٨، ٤٢٩، والسلسلة الصحيحة (١٠٥).

نزرع حدائقنا في الجنة!!

فما أعظمه من غراس!

وما أجملها من أشجار!!

الجنة قيعان.. كما أخبرنا خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ والقيعان هي الأرض المستوية الخالية من الشجر، فكأن هناك أجزاء من الجنة -في حالتها الأولى- ما هي إلا أرض بكر لا زرع فيها؛ لكنها كاملة التهيئة، فتربتها طيبة، وماؤها عذب، ولا ينقصها إلا أن يَغرِس فيها الزُّرَّاع بذورهم، لتنبت أجمل الأشجار، وأبهى الزهور والثمار.. وهذه البذور ما هي إلا سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر!

وإن المتدبِّر في هذه الأذكار التي تزرع أملاكنا في الجنة يجد أن علاقتها بالصلاة وثيقة للغاية!

فالنداء للصلاة، وهو الأذان، يشمل اثنين منها؛ وهما: التكبير (الله أكبر)، وقد تكرَّر بشكل مكثَّف في الأذان، والتهليل (لا إله إلا الله).

والصلاة نفسها فيها التكبير في أكثر من موضع، وفيها التسبيح في الركوع والسجود، وفيها الحمد عند الرفع من الركوع، وكذلك فيها التهليل في التشهد.

وختام الصلاة يشمل تكرار التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل.

فغراس الجنة أذكار قبل الصلاة وأثناءها وبعدها، وهذا يحتاج منَّا إلى وقفات؛ فإنه ينبغي لنا ألا نُلقي هذه البذور الصالحة في أرضنا بالجنة دون أن نتدبَّر في معناها، أو نُدرك مغزاها..

وقد جمع النَّبيُّ ﷺ ذلك الغراس كله في حديث واحد جامع، فقال -كما روى أبو هريرة ﷺ- في إيجاز رائع: «**أَفْضَلُ الْكَلَامِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ**»(١). وفي رواية عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ ﷺ: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا**

---

(١) ذكره البخاري تعليقًا في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم. فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد. وابن ماجه (٣٨١١)، وأحمد (٢٠٢٣٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن حبان (٨٣٩)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ١٠/ ٨٨، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٢/ ٢١٦.

إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»[١].

الغرس الأول: الله أكبر:

وهذا يعني أن الله تعالى أكبر من كل شيء: في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وحُذِف المفضَّل عليه ليتناول اللفظ كلَّ شيء، فتكبيره سبحانه جامع لإثبات كل كمال له، وتنزيهه عن كل نقص وعيب، وإفراده وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله.

وقد اختار الله هذا الذكر ليكون العنوان الأكبر والأجلَّ للصلاة، فبداية الإعلان للصلاة في الأذان تكون بالتكبير، وكذلك ختام الإعلان يكون بالذِّكْرِ نفسه، كما أن بداية الصلاة نفسها تكون بالتكبير، ثم يُصاحبنا التكبير في غير موضع في كلِّ ركعة..

وإذا كنَّا قد أدركنا ذلك لغةً فإننا يجب أن نعيشه معنًى! فالله أكبر من شواغلنا وهمومنا، وهو أكبر من أحبابنا وأرحامنا، وهو أكبر من تجارتنا وأموالنا، وهو أكبر من كل حياتنا؛ ومن ثَمَّ فلا معنى للانشغال عنه بأي شيء من هذه الشواغل.

الغرس الثاني: سبحان الله:

التسبيح يعنى تنزيه الله عن مطلق النقص؛ كالجهل، والعجز، والضعف، وكذلك عن النقص في كماله؛ فينزَّه مثلًا: عن التعب والإعياء فيما يخلقه ويفعله، بالإضافة إلى تنزيهه عن مشابهة المخلوقين؛ حيث قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والتسبيح هو ذِكْرُ الركوع والسجود، فأمَّا في الركوع فإنه يجب على المُصَلِّي أن يقول: «سبحان ربي العظيم». على الأقل مرَّة، ويُسنُّ أن يقولها ثلاث مرَّات، وأمَّا في السجود فإنه يقول: «سبحان ربي الأعلى». على الأقل مرَّة، ويُسنُّ أن يقولها ثلاث مرات[٢].

وقد اختار لنا الله ﷻ أن نذكره في الركوع بصفة «العظيم»، ولعلَّ الحكمة من ذلك أن كثيرًا من الناس يركعون لملوكهم على سبيل التعظيم، وهذا ما زال يحدث في زماننا الآن؛ حيث ينحني الزائرون للملك انحناءة تشبه الركوع، فكأن الله ﷻ قد اختار لنا هذا الذِّكْر في الركوع لنتذكَّر أنه العظيم حقًّا، وأنه وحده هو الذي يستحقُّ الركوع، وأن ملوك الأرض مهما

---

(١) مسلم: كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، (٢١٣٧).

(٢) راجع في ذلك فرائض الصلاة وسننها ومبطلاتها ص ٢٥٠-٢٦٨.

تناهت عظمتهم يظلُّون عبيدًا لله سبحانه. والركوع بهذه الروح من شأنه أن يُسْعِد المُصَلِّي ويُرضيه؛ حيث إنه صار من المقرَّبين إلى الله العظيم سبحانه، كما أنك تشعر بأنه الملك الحقيقي، فتصغر في عينك ملوك الأرض، وبهذا ترفع صلاتُك من عزَّتِكَ، وتُلقي عليك ظلالًا من الهيبة والوقار.

وفي السجود اختار لنا ربنا أن نذكره بصفة الأعلى؛ حيث نكون في السجود في أخفض الأوضاع وأدناها إلى الأرض، فصار مناسبًا للتضادِّ، وهذا فيه تمام الخضوع لله ﷻ، وفيه كذلك إشارة إلى أن المُصَلِّي ينبغي له ألَّا يأنف من السجود، وكان العرب يأنفون من ذلك، ولهم قصص مشهورة في تجنُّب ذلك[1]، فكأن الله ﷻ يُطَمْئِن المسلم في سجوده أنه يسجد لله الأعلى من كل شيء، وأن ارتباط المسلم بالله الأعلى، وخضوعه له لن يزيده إلا عزًّا ورفعة. وتدبُّر مثل هذه المعاني في السجود من شأنه أن يرفع من درجة الخشوع، ويُسَكِّن النفس إلى جوار الله سبحانه.

وهناك أذكار أخرى في الصلاة تشتمل على التسبيح في الصلاة غير الألفاظ السابقة؛ منها ما نقلته عائشة ؓ عن رَسُولِ الله ﷺ أنه كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»[2]. وقوله: «سُبُّوح» صيغة مبالغة من سبحان، وهو تنزيه الله ﷻ عن كل نقص، أما «قُدُّوس» فهي صيغة مبالغة من التقديس، وهو التطهير من العيوب، وقيل في «الروح»: إنه مَلَكٌ عظيم، أو يحتمل أن يكون جبريل ؈، والله ﷻ أعلم[3].

وأيضًا من أذكار التسبيح ما روته عَائِشَةُ ؓ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[4]. فهذا ذِكْرٌ يُقال في الركوع

---

(١) يروي عبد الله بن مسعود ؓ قال: قرأ النبي ﷺ النجم بمكة فسجد بها، فما بقي أحد من القوم إلَّا سجد، غير شيخ أخذ كفًّا من حصى أو تراب ورفعه إلى جبهته فسجد عليه، وقال: يكفيني هذا. فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافرًا (وهو أمية بن خلف)». البخاري: أبواب سجود القرآن، باب سجدة النجم، (١٠٢٠)، وكتاب التفسير، سورة والنجم، (٤٥٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، (٥٧٦).

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٧)، وأبو داود (٨٧٢)، والنسائي (٦٣٦)، وأحمد (٢٤١٠٩).

(٣) انظر: النووي: المنهاج ٤/ ٢٠٤، ٢٠٥، والعيني: شرح أبي داود ٤/ ٧٨، ٧٩، والشوكاني: نيل الأوطار ٢/ ٢٨٥.

(٤) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء في الركوع، (٧٦١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٤).

والسجود، وقد أُضيف إليه الحمد، فكأنَّ المُصلِّي يقول: إنما سبَّحتك يا رب بفضلك وهدايتك، وليس بعلمي وقوتي؛ لذا أنت تستحق الحمد والشكر. كما أُضيف إلى هذا الذكر دعاء بالمغفرة، وجاء دعاءً مبسطًا؛ لأن الركوع ليس مكان الدعاء، إنما يكون أغلب الدعاء في السجود، كما أن الاستغفار هو نوع من الذِّكر في الحقيقة.

ونقل لنا عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ ذِكْرًا آخر من أذكار التسبيح كان يقوله رسول الله ﷺ في سجوده وركوعه، فيَقُولُ: «قُمْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَبَدَأَ فَاسْتَاكَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى، فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ مِنَ الْبَقَرَةِ، لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ يَتَعَوَّذُ، ثُمَّ رَكَعَ فَمَكَثَ رَاكِعًا بِقَدْرِ قِيَامِهِ، يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ. ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ رُكُوعِهِ، يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ. ثُمَّ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ، ثُمَّ سُورَةً، ثُمَّ سُورَةً، فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ»[1]. فهذا ذكر آخر كان رسول الله ﷺ يقوله في ركوعه وسجوده في صلاة القيام، وهو يُنَزِّه الله الجبار فيه عن كل نقص، ويعترف له بملكيته للكون كله، فكلمة «الملكوت» صيغة مبالغة للملك، ويُقرُّ له بالكبرياء والعظمة، ويُطيل جدًّا في هذا الذكر الخاشع، ويتدبَّر فيه، حتى إن عوف بن مالك ﷺ يُفَصِّل في رواية أخرى طول وقت الركوع، فيقول في رواية: «فَلَمَّا رَكَعَ مَكَثَ قَدْرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»[2]! فكيف يكون هذا الخشوع الذي يمكث فيه الراكع قدر قراءة أكثر من جزأين من القرآن؟!

الغرس الثالث: الحمد لله:

ما أروع أن تستشعر معنى الحمد وقيمته عندما تُرَدِّد الحمد في صلاتك! فالذي يحمد الله يُعلن أنه موقن أن النعم كلها من عنده سبحانه، وأن الأمر كله بيده، وأنه حكيم في عطائه،

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، (٨٧٣)، واللفظ له، والنسائي (٧١٨)، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٣٩٦، وقال ابن حجر: حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي في سننهما. انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٧٢. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود، ٤/ ٢٧ (٨١٧).

(٢) النسائي: السنن الصغرى (١٠٤٩)، وأحمد (٢٤٠٢٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٨٢٢)، وقال ابن حجر: حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي في سننهما. انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٧٢، وحسن ابن حجر رواية أحمد انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٧٤، وصححه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح ١/ ٢٧٨.

وأنه قدير في تصريفه لكونه.. إنها كلمة جامعة تشمل كل معاني التوحيد والتوقير والتقدير لله ربِّ العالمين، ولا يقولها بصدق -في الحقيقة- إلَّا مؤمن مكتمل الإيمان؛ ولذلك فهي من أكبر الحسنات التي يفعلها العبد، لدرجة أنها لا تُقَدَّر فقط بالمقياس العادي الذي نعرفه في الأعمال الأخرى؛ حيث تكون الحسنة بعشر أمثالها، إنما لها تقدير خاصٌّ عجيب قال فيه رَسُولُ الله ﷺ: «.. وَالحَمْدُ لله تَمْلأُ المِيزَانَ..»(١)!

والحمد وإن كان من الذِّكر فإنه يُعتبر كذلك من الدعاء، بل هو أفضل الدعاء مطلقًا! فقد قال جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ للهِ»(٢). فجعل الحمدَ هنا دعاءً، ولعلَّ السبب هو أن اللهَ ﷻ وَعَدَ الشاكرين بالزيادة في العطاء، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فكأنَّ العبد إذا حَمِدَ اللهَ على المال مثلًا فكأنه -بأدبٍ وبشكل غير مباشر- يطلب الزيادة فيه، وإذا حَمِدَ اللهَ على الصحة فكأنه يطلب الزيادة فيها، وإذا حَمِدَ الله على العلم النافع، أو العمل الصالح، أو الهداية إلى الإسلام، فكأنه يطلب الزيادة في كل هذه النعم الجليلة، وإذا حَمِدَ الله مطلقًا دون تحديدٍ لنعمة معينة؛ وذلك كما في الصلاة، فكأنما يطلب الزيادة في كل النعم، فيصير الحمد بذلك أفضل الدعاء؛ حيث يُحقِّق لك إجابةَ ما تتذكَّر وما لا تتذكَّر من أدعية، وما تعرف وما لا تعرف من نعم وعطايا.

ويُؤَكِّد هذه الرؤية أن الإمام يقول عند الرفع من الركوع: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»(٣). ومثله يقول المنفرد الذي يُصَلِّي وحده، والمراد هنا في السمع ليس السماع المطلق الشامل؛ لأن الله ﷻ يسمع كل شيء، ويسمع الحامدين والكافرين؛ إنما المراد هو سماع الإجابة للدعاء، بمعنى أنك إن حمدتَ الله فإن الله يفتح لك باب الدعاء المستجاب؛ لذلك يجب على المُصَلِّي سواء كان

---

(١) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، والترمذي (٣٥١٧)، والنسائي (٢٢١٧)، وأحمد (١٨٣١٣).

(٢) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨٣)، والنسائي (١٠٦٦٧)، وابن حبان (٨٤٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والحاكم (١٨٣٤)، وقال: حديث صحيح الإسناد. وقال ابن حجر: حديث حسن، أخرجه الترمذي والنسائي. انظر: نتائج الأفكار ١/ ٦٤، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٩٧).

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، (٧٥٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم: كتاب الصلاة، باب إثبات التكبير في كل خفض ورفع في الصلاة إلا رفعه من الركوع، (٣٩٢).

إمامًا أو مأمومًا أو منفردًا أن يقول بعد سماع هذه الجملة: «رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ»[1]. فيُصبح الجميع حامدين، والآن سيُفتح لهم باب الدعاء المستجاب، وكل هذا في واقع الأمر تأهيل للسجود القادم بعد الرفع من الركوع، فيَهوي المُصَلِّي إلى السجود وقد فُتح له باب الإجابة! فكأنَّ الحمد بذلك هو مفتاح الإجابة لكلِّ الأدعية، فما أروع هذا! وليت المُصَلِّي يُدَقِّق في المعاني، فإنه لو أدرك كل ذلك لما غاب ذهنه، فإنه هو المحتاج، والله لا يحتاج لأحد.

ويدعم كل ذلك أحد مواقف السيرة؛ التي وَضَّح فيها رسول الله ﷺ أن مفتاح إجابة الدعاء هو حمد الله ﷻ؛ فقد روى فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ ﷺ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِلْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ فَاحْمَدِ اللهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلِّ عَلَيَّ ثُمَّ ادْعُهُ». قَالَ: ثُمَّ صَلَّى رَجُلٌ آخَرُ بَعْدَ ذَلِكَ فَحَمِدَ اللهَ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّهَا الْمُصَلِّي ادْعُ تُجَبْ»[2]. فكان هذا تصريحًا من رسول الله ﷺ أن الحمد هو مفتاح الإجابة.

والمسلم الذي يُدرك هذه المعاني يحرص على التركيز الكامل في حمده لله تعالى؛ بل يتقرَّب إلى الله في هذا الموقف بصيغ الحمد الأكبر والأجل حتى يُفتح له باب الإجابة بشكل أوسع، وما أروع الموقف الذي استشعر فيه صحابي جليل -وهو رِفاعة بن رافع الزُّرَقي ﷺ- هذه الفرصة فقرَّر أن يزيد حمدَه لله بكلمات أكثر حتى تتحقَّق له الإجابة المرجوَّة! فقد روى أَنَسٌ ﷺ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ فَدَخَلَ الصَّفَّ وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ[3] فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ. فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاتَهُ قَالَ: «أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ؟». فَأَرَمَّ الْقَوْمُ[4]، فَقَالَ: «أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا». فَقَالَ رَجُلٌ: جِئْتُ وَقَدْ حَفَزَنِي النَّفَسُ فَقُلْتُهَا. فَقَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا»[5]. وحيث إن الرسول ﷺ أقرَّ هذه الزيادة فإنها صارت سُنَّة، ويُستحبُّ لنا جميعًا أن نقولها.

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، (٧٥٦)، عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم: كتاب الصلاة، باب إثبات التكبير في كل خفض ورفع في الصلاة إلا رفعه من الركوع، (٣٩٢).

(٢) الترمذي: كتاب الدعوات (٣٤٧٦)، وقال: حديث حسن. واللفظ له، والنسائي (١٢٠٧)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ٧٣٨.

(٣) حَفَزَهُ النَّفَسُ؛ أي: ضَغَطَهُ لِسُرْعَتِهِ. انظر: النووي: المنهاج ٥/ ٩٧.

(٤) فَأَرَمَّ الْقَوْمُ؛ أي: سَكَتُوا. انظر: النووي: المنهاج ٥/ ٩٧.

(٥) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، (٦٠٠).

وهناك زيادات أخرى في صيغ الحمد كلها تهدف إلى إبراز عميق الحمد لله رب العالمين؛ وذلك مثل ما رواه عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»[1]. ومع أن بعضهم، كأبي حنيفة ﷺ، قد خصَّص هذا الذِّكْرَ لصلاة التطوع فقط، فإنَّ الراجح ما قاله الشافعي وغيره من أن هذا الذكر جائز في الصلاة المكتوبة والتطوُّع على حدٍّ سواء[2]، خاصَّة أن هناك رواية عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ صرَّح فيها بأن هذا الذِّكْر كان في الصلاة المكتوبة[3].

بل أكثر من ذلك ما رواه أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: «رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[4]. فانظر بعين التدبُّر إلى هذا الحمد الرائع الماتع الذي يُبدِع فيه رسول الله ﷺ في التعبير حتى يحمد الله بما يليق بجلاله، فبعد أن حمد الله ملء السماوات والأرض، فكأنه وجد أن هذا لا يكفي! وأن ملء السماوات والأرض قليل على ما

---

(١) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٠)، والترمذي (٢٦٦)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٦٥٥)، وأحمد (٧٢٩) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٤٦ (٧٣٨).

(٢) قال الترمذي: وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا الحَدِيثِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَبَعْضِ أَصْحَابِنَا، وقَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَهْلِ الكُوفَةِ وَغَيْرِهِمْ: يَقُولُ هَذَا فِي صَلَاةِ التَّطَوُّعِ، وَلَا يَقُولُهُ فِي المَكْتُوبَةِ. وَأَحْمَدُ لَا يَرَاهُ. الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل (٣٤٢٣)، وقال المباركفوري: قَوْلُهُ: (وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْكُوفَةِ يَقُولُ هَذَا فِي صَلَاةِ التَّطَوُّعِ وَلَا يَقُولُهُ فِي صَلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ) وَهُوَ قَوْلُ الْحَنَفِيَّةِ لَا دَلِيلَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَالصَّحِيحُ مَا قَالَهُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ؛ فَإِنَّ حَدِيثَ عَلِيٍّ هَذَا قَدْ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ مِنْ ثَلَاثَةِ وُجُوهٍ، وَوَقَعَ فِي إِحْدَاهَا: «إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ». وَكَذَلِكَ وَقَعَ فِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَةٍ لِلدَّارَقُطْنِيِّ: «إِذَا ابْتَدَأَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ»... فَثَبَتَ بِهَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ: يَقُولُ هَذَا فِي الْمَكْتُوبَةِ وَالتَّطَوُّعِ. حَقٌّ وَصَوَابٌ، وَأَنَّ قَوْلَ بَعْضِ أَهْلِ الْكُوفَةِ: يَقُولُ هَذَا فِي صَلَاةِ التَّطَوُّعِ وَلَا يَقُولُهُ فِي صَلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ. لَيْسَ بِصَحِيحٍ. انظر: تحفة الأحوذي ٢/ ١١٤، ١١٥، والكشميري: العرف الشذي شرح سنن الترمذي ١/ ٢٧١.

(٣) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ المَكْتُوبَةِ رَفَعَ يَدَيْهِ حَذْوَ مَنْكِبَيْهِ... فَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». ثُمَّ يُتْبِعُهَا: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»... الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل (٣٤٢٣)، والبيهقي: السنن الكبرى (٢٤٣٨)، والدارقطني (١٢٩٤)، وقال: إسناد حسن صحيح.

(٤) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، (٤٧٧)، وأبو داود (٨٤٧)، وأحمد (١١٨٤٥).

يُريده من حمد! فأطلق الأمر وأوكله إلى الله ﷻ، فقال: «وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ». فهو يقول لله: أنت أعلم بما بعد السماوات والأرض وأنا لا أعلم، فاملأ يا رب كل شيء في السماوات والأرض وما لا أعلمه من خَلْقِك وكَوْنِك حمدًا لك! ثم يُثني على الله ﷻ، وهو يُقِرُّ أن ما سبق من حمد ليس فيه مبالغة، فالله أهلٌ لذلك: «أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ». و«يستمتع» بعبوديته لله الجليل فيقول: «أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ». ويُسَلِّم أمره كله لله فيقول: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ». ويتنكَّر لكل حولٍ أو قوةٍ أو سلطانٍ إلا حولَ الله وقوَّته وسلطانَه فيقول: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ». أي لا ينفع أيُّ حظٍّ أو مجدٍ أو سلطانٍ صاحبَه، ولا يُنَجِّيه من الله. ولك أن تتصوَّر هذه الحالة الإيمانية التي يمكن أن تصل إليها إذا تدبَّرتَ في هذه المعاني، وعشتَ فيها؛ فهذا في الحقيقة هو عين الخشوع! ثم أيُّ دنيا يمكن أن تشغلك إذا أدركتَ أنه لا مانع لما أعطاه لك، ولا معطي لما منعه عنك، ولا يحول صاحب سلطان أو قوَّة دون ما يُريده الله سبحانه، فهذا يجعلك تزهد في الدنيا كلها، وتُقبِل على الله وحده، وهنا يتحقَّقُ لك الخشوع الكامل؛ لهذا جَزَمَ رسول الله ﷺ أن هذا القول هو أحقُّ ما قاله العبد؛ لأن العبودية تسليمٌ، وهذا مطلقُ التسليم!

وفي رواية أخرى جميلة يحمد رسول الله ﷺ ربَّه بالصيغة السابقة، ثم يُلحقها بدعاء سريع مناسب للموقف! فقد نقل الإمام مسلم في باب ما يقوله الرسول ﷺ عند الرفع من الركوع رواية عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ، وذكر فيها أن النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاءِ وَمِلْءُ الْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي بِالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالمَاءِ الْبَارِدِ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ»[1]. وفي رواية: «كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّرَنِ[2]»[3]. وَفِي رِوَايَةٍ: «مِنَ الدَّنَسِ[4]»[5].. فهو هنا يُدرك أن الله

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، (٤٧٦).

(٢) الدَّرَن: مَا عَلِقَ بِالْيَدِ أَوِ الثَّوْبِ مِنَ الْوَسَخِ، دَرِنَ الثوبُ يدرَن دَرَنًا، وَكَذَلِكَ الْيَد. ابن دريد: جمهرة اللغة ٢/ ٦٤٠. (دَرَنَ) الدَّالُ وَالرَّاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ تَقَادُمٌ فِي الشَّيْءِ مَعَ تَغَيُّرِ لَوْنٍ... وَمِنَ الْبَابِ الدَّرَنُ، وَهُوَ الْوَسَخُ. ابن فارس: مقاييس اللغة ٢/ ٢٧١.

(٣) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، (٤٧٦).

(٤) الدَّنَسُ فِي الثِّيَابِ: لَطْخُ الْوَسَخِ وَنَحْوِهِ حَتَّى فِي الأخلاق. ابن منظور: لسان العرب، مادة (دنس) ٦/ ٨٨.

(٥) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، (٤٧٦). وقال النووي: الْوَسَخِ وَفِي رِوَايَةٍ: «مِنَ الدَّرَنِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مِنَ الدَّنَسِ». كُلُّهُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَمَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي طَهَارَةً كَامِلَةً مُعْتَنًى بِهَا كَمَا يُعْتَنَى بِتَنْقِيَةِ الثَّوْبِ الْأَبْيَضِ مِنَ الْوَسَخِ. انظر: النووي: المنهاج ٤/ ١٩٤.

ﷻ قد فتح باب الإجابة للحامدين، فحَمِدَ اللهَ ملء السماوات والأرض، وملء ما شاء الله من شيء بعدُ، ثم أسرع في هذه اللحظة الخالدة يطلب طلبه من الله الكريم! فماذا كان طلبه في هذا الموقف؟! إنه لم يكن إلا المغفرة! إنه التطهير من الذنوب والخطايا! إنه الإعلان الصريح بالتقصير في حقِّ الله، وأننا ما عبدناه حقَّ عبادته! ومَنْ وصل إلى هذه الحالة المستسلمة لله ﷻ فإن الله ﷻ سيقبله ويرحمه ويغفر له، ومَنْ غفر الله له رضي عنه وأدخله الجنة، وهذا منتهى مراد المؤمنين! فما أروعه من دعاء من سيد الخاشعين ﷺ.

الغرس الرابع: لا إله إلا الله

ليس هناك أفضل من هذا الذكر! فقد مرَّت بنا رواية جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما؛ التي قال فيها: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ..**»[1]. ويكفي أنها كلمة الدخول في دين الإسلام، ولا يُقْبَل إسلامٌ من دونها، وهي الكلمة التي لو خَتَمَ المسلم حياته بها دخل الجنة لا محالة؛ فقد روى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[2]. وهي الكلمة التي لا يثقل معها شيء، وهذه الكلمة العظيمة لها علاقة كبيرة بالصلاة؛ فهي تُرَدَّد في الأذان الداعي إليها، وكان رسول الله ﷺ يقولها في استفتاحه لها، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ قَالَ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[3]. وهي تُقال كذلك في التشهُّد، كما أنها تُقال في ختام الصلاة، كما سيأتي في فصل لاحق، فهي الكلمة المنجية حقًّا، ولو تدبَّر المسلم في قيمتها لعَلِمَ أن خشوعه فيها أمر لازم؛ بل الحِرصَ على ترقُّب مواطنها في الأذان والصلاة حتى يقولها بكل تركيز وإخلاص؛ لأن هذا اليقين في ذِكْرِها له دلالته وآثاره؛ فقد روى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ تَشْهَدُ**

---

(١) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨٣)، والنسائي (١٠٦٦٧)، وابن حبان (٨٤٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والحاكم (١٨٣٤)، وقال: حديث صحيح الإسناد. وقال ابن حجر: حديث حسن، أخرجه الترمذي والنسائي. انظر: نتائج الأفكار ١/ ٦٤، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٤٩٧).

(٢) أبو داود: كتاب الجنائز، باب في التلقين (٣١١٦)، والحاكم (١٢٩٩)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ١١٠٥.

(٣) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجه (٨٠٦)، والحاكم (٨٥٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد. وقال الذهبي: على شرطهما. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٦٣ (٧٤٩).

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى قَلْبِ مُوقِنٍ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهَا»[(١)]. فالقلب الموقن قلب خاشع غير لاهٍ، ومَنْ كانَ في هذه الحالة عند ذِكْر «لا إله إلا الله» نجا وأفلح!

أغراس أخرى:

إذا كانت هذه الأغراس السابقة أغراس دورية، بمعنى أن المسلم يقولها بنَصِّها هكذا في كل صلاة، فإن هناك أغراسًا أخرى رائعة كان يقولها رسول الله ﷺ في بعض صلواته، وهي عظيمة الأجر، جليلة النفع، وينبغي للمسلم الحريص على خشوعه أن يحفظها ويُردِّدها في صلاته..

من هذه الأغراس ذكرٌ جامعٌ شمل التكبير والحمد والتسبيح، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا؟» قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «عَجِبْتُ لَهَا، فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ». قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ[(٢)]. وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما كذلك قال رسول الله ﷺ: «لَقَدِ ابْتَدَرَهَا اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا»[(٣)]. ولقد لاحظنا أن ابن عمر رضي الله عنهما بعد أن أدرك أجر هذا الذكر العظيم داوم عليه طَوَال عمره، ولا شكَّ أنه كان يتذكَّر هذا الأجر الهائل، ويستشعر فتح أبواب السماء كلما ردَّده في صلاته، وهذا الذكر يُقال بعد تكبيرة الإحرام وقبل قراءة الفاتحة[(٤)]؛ أي أنه من أدعية استفتاح الصلاة.

ومن هذه الأغراس أذكار كثيرة كان رسول الله ﷺ يقولها في صلاة الليل؛ فقد روى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ

---

(١) ابن ماجه: أبواب الأدب، باب فضل لا إله إلا الله (٣٧٩٦)، وأحمد (٢٢٠٥١)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٧٨).

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، (٦٠١)، والترمذي (٣٥٩٢)، وأحمد (٤٦٢٧).

(٣) النسائي: كتاب افتتاح الصلاة، القول الذي تفتتح به الصلاة (٩٥٩).

(٤) فقد ذكره الإمام مسلم في «باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة»، وفي رواية عَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ، قَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ». الحاكم (٨٥٨)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». وَإِذَا رَكَعَ، قَالَ: «اللهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي». وَإِذَا رَفَعَ، قَالَ: «اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ». وَإِذَا سَجَدَ، قَالَ: «اللهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ». ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[1]..

لقد رأينا في هذه الرواية درسًا عمليًا في الخشوع يجدر بنا جميعًا أن نتعلَّمه؛ فقد شاهدنا «استمتاع» رسول الله ﷺ بكلِّ لحظة من لحظات الصلاة، فلا يكتفي بالخشوع عند قراءة القرآن، أو الدعاء، إنما يخشع بمجرَّد أن يُكَبِّر تكبيرة الإحرام، وأثناء الانتقال من ركن إلى ركن، وأثناء الركوع والسجود، وقبل السلام! إنها حالة خشوعية كاملة تظهر فيها لذَّة المناجاة لله ربِّ العالمين.

كان رسول الله ﷺ يقول بعد تكبيرة الإحرام: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ،

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، وأحمد (٧٢٩).

تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». فهذا استفتاح خاشع جميل مَجَّد فيه الرسول ﷺ ربَّ العالمين وعَظَّمه، وسأله فيه المغفرة وحُسْنَ الأخلاق، وأظهر فيه الانكسار الكامل لله ﷻ، وبغير هذا الانكسار لا يأتي الخشوع أبدًا.

ثم كان يقول في ركوعه: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي». وهذه -أيضًا- حالة باهرة من الخشوع الكامل، وقد صوَّرها رسول الله ﷺ بهذه الكلمات الدقيقة والرقيقة في آنٍ واحد! فسمعه وبصره، واللذان هما وسائل اتصاله بالعالم الخارجي، قد خشعا لله ﷻ، فصار رسول الله ﷺ لا يسمع أو يرى في صلاته ما يشغله عن ربِّه، أو يصرفه عن صلاته، ثم يذكر ﷺ أن المخَّ قد خشع أيضًا، فلا ينصرف الذهن إلى أمر من أمور الدنيا، فأحيانًا يُغلق الإنسان سمعه وبصره؛ لكنه يتجوَّل بعقله في ربوع الدنيا! أما هنا فالمخُّ -أيضًا- خاشع مع السمع والبصر، ثم خشع العظم كذلك، بمعنى أنه صار مطمئنًّا إلى أوضاع الصلاة لا يتململ منها، ولا ينصرف عنها، فمهما طال القيام فهو لا يرفع قدمًا، ولا يُؤَخِّر ساقًا، ولا يُحَرِّك يدًا، وهكذا هو في ركوعه وسجوده، وأخيرًا يختم بخشوع عصبه! وهو خشوع عجيب ناتج عن كل أنواع الخشوع السابقة، فهنا يختفي الألم، فلا تشعر الأعصاب بتفطُّر الأقدام أو تشقُّقها، ولا بتيبُّس الأطراف أو تجمُّدها! بل لا نبالغ إن قلنا: إن الجسد في هذه الحالة لا يشعر برمي السهام، ولا بقطع السيوف! وهذه هي درجة الطمأنينة التي وصفناها في «نظرية هرم الخشوع».

ثم كان يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ». وهو يُعلن هنا في هذا الذِّكر والثناء أنه يعلم أن سجود وجهه لله ﷻ أمر طبيعي تمامًا، ويُعطي التفسير لذلك فيقول: «لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ». فالذي خلق هذا الوجه ابتداءً هو الله، والذي صوَّره وجمَّله وحسَّنه هو الله، والذي رزقه نعمة السمع والبصر هو الله، فلماذا لا يسجد له؟! بل إنه يُعلن أن الواجب هنا هو الثناء والحمد لا مجرَّد الرضى والاقتناع بالسجود، فيختم ثناءه بمدح هذا الصنيع من ربِّ العالمين، فيقول: «تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ». فهذه نظرة جديدة للسجود؛ حيث إنه خرج من نطاق التكليف إلى نطاق التشريف، ومن نطاق الأمر إلى نطاق الحمد، وهذه هي روعة الخشوع!

وفي النهاية..

لن يصلح الذِّكْر الحَسَن بغير اطمئنان في الصلاة!

إن كل ما ذكرناه من الأغراس المختلفة لن نتمكَّن من قوله والإكثار منه بغير اطمئنان في الصلاة، والاطمئنان لا يُحْكَم عليه بطول القيام، ولا بكثرة قراءة القرآن؛ إنما هو في طول الركوع والسجود في الأساس، مع أهمية القيام بلا جدال، وحيث إن الأذكار المختلفة من تسبيح وتكبير وحمد تُقال في الركوع والسجود، والانتقال بين الأركان، صار الاطمئنان في هذه المواضع هو الضامن لترديد الأذكار ترديدًا سليمًا؛ لهذا كان رسول الله ﷺ حريصًا أشدَّ الحرص على أن يأخذ كل ركن وقته حتى لو اختصر المُصَلِّي قراءته في قيامه إلى آيات قصيرات قليلات! وهذا ما برز واضحًا مع الرجل الذي لم يُحْسِن صلاته، فأمره رسول الله ﷺ بالإعادة، وكان البارز من عدم إحسانه للصلاة هو عدم الاطمئنان في الركوع والسجود، وهو ما اشْتُهِر في كتب السُّنَّة والفقه بحديث «المسيء صلاته»، ولنراجع نَصَّه حتى نُدرك هذا المعنى الدقيق:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّ وَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي. فَقَالَ: **«إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»**[1].

هذا هو الموقف!

ما سرُّ فساد صلاة الرجل حتى كأنها لم تكن؟

العيب الواضح فيها هو عدم الاطمئنان، فكان الرجل ينتقل من حركة إلى أخرى مسرعًا دون أن يُعطي نفسه فرصة لترديد الأذكار بشكل سليم، بدليل أن الرسول ﷺ كرَّر في وصفه

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة، (٧٦٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، (٣٩٧).

الموجَز للصلاة الصحيحة كلمة «تطمئن» ثلاث مرات، وعندما وصف القيام لم يهتم بتحديد طوله، إنما قال ببساطة: «**اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ**». فلتكن القراءة بسورة الإخلاص، أو الكوثر، أو العصر، لا ضير في ذلك؛ ولكن ينبغي الاطمئنان في الركوع والسجود، وفي الرفع منهما؛ حتى نتمكّن من استيعاب الركن وإعطائه حقَّه.

والواقع أن هذه كانت صلاة رسول الله ﷺ نفسه!

فقد ترتبط صلاة رسول الله ﷺ في أذهاننا بطول القيام حتى تتفطَّر الأقدام؛ لكن هذا في الحقيقة لم يكن إلا في قيام الليل، وكان يُصليه منفردًا، أمَّا الصلوات المكتوبات فكان الأصل فيها تخفيف القيام، وإطالة الركوع والسجود، ولقد عرفنا ذلك من وصف الصحابة الكرام - خاصةً أنس بن مالك ﷺ- لصلاته ﷺ.

فعَنْ أَنَسٍ ﷺ: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُوجِزُ فِي الصَّلَاةِ وَيُتِمُّ**»[١]..

وعَنْه أيضًا: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ مِنْ أَخَفِّ النَّاسِ صَلَاةً فِي تَمَامٍ**»[٢]..

وعَنْه كذلك أَنَّهُ قَالَ: «**مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ إِمَامٍ قَطُّ أَخَفَّ صَلَاةً، وَلَا أَتَمَّ صَلَاةً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»[٣]..

وقد يتعجَّب القارئ من كون صلاة الرسول ﷺ تامَّة وفي الوقت نفسه موجَزة أو خفيفة! وقد فسَّر أنس بن مالك ﷺ نفسه الأمر في رواية أخرى فقال: «**مَا صَلَّيْتُ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلَاةً أَخَفَّ مِنْ صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فِي تَمَامِ رُكُوعٍ وَسُجُودٍ**»[٤].. فالذي كان يُعطي الصلاة تمامها ليس طول القيام؛ ولكن الركوع والسجود؛ بل كانت الصلاة خفيفة كما بيَّن وصف أنس ﷺ.

ولقد زاد الأمر لنا وضوحًا بعد ما سمعناه من زيد بن أسلم ﷺ، وهو من علماء التابعين وفقهائهم، وكان من سكان المدينة، وقد وصف لنا صلاة إمام المدينة في زمانه، وهو عمر بن

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، (٤٦٩).

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، (٤٦٩).

(٣) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، (٦٧٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، (٤٦٩).

(٤) أحمد (١٢٦٧٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

عبد العزيز ، وكان أشبه الناس بصلاة رسول الله ﷺ بشهادة أنس بن مالك ﷺ، ولنراجع هذا الموقف:

قال زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : صَلَّيْتُ الظُّهْرَ مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ثُمَّ انْصَرَفْنَا إِلَى أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ، فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ قَالَ: «قَدْ صَلَّيْتُمْ؟»، قُلْنَا: نَعَمْ. فَقَالَ: «يَا جَارِيَةُ، هَلُمِّي لِي وَضُوءًا، مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ إِمَامٍ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ أَشْبَهَ صَلَاةً بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ إِمَامِكُمْ هَذَا». قَالَ زَيْدٌ: «وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، وَيُخَفِّفُ الْقِيَامَ وَالْقُعُودَ»(١)..

في هذا الموقف السابق بيَّن زيد بن أسلم أن القيام للقراءة وقعود التشهد كليهما كان خفيفًا، بينما كان الركوع والسجود تامَّين..

ووضَّح لنا رسول الله ﷺ أن اختصار الركوع والسجود والسرعة فيهما قد تُفسد الصلاة كلها؛ فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تُجْزِئُ صَلَاةُ الرَّجُلِ حَتَّى يُقِيمَ ظَهْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ»(٢). ولهذا قَالَ الشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ: «مَنْ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ فَصَلَاتُهُ فَاسِدَةٌ»(٣).

ولم يكن الرسول ﷺ حريصًا فقط على تمام الركوع والسجود، بل كان حريصًا على إطالة الوقوف بعد الرفع من الركوع، وكذلك إطالة الجلوس بين السجدتين؛ وذلك لاستكمال أذكار الحمد والاستغفار التي تُقال في هذه المواضع؛ فعَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ: «إِنِّي لَا آلُو(٤) أَنْ أُصَلِّيَ بِكُمْ كَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي بِنَا، قَالَ(٥): فَكَانَ أَنَسٌ يَصْنَعُ

---

(١) النسائي: كتاب صفة الصلاة، تخفيف القيام والقراءة (١٠٥٣)، وأبو يعلى (٣٦٦٩)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح النسائي (٩٣٨).

(٢) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود (٨٥٥)، واللفظ له، والترمذي (٢٦٥)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٦٩٩)، وابن ماجه (٨٧٠)، وأحمد (١٧١٤٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والدارمي (١٣٢٧)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٤/ ٣ (١٤٨).

(٣) ذكر ذلك الترمذي في سننه تعليقًا على الحديث السابق رقم (٢٦٥).

(٤) لا آلو: لا أُقصِّر ولا أَدَعُ جهدًا في الاقتداء بصلاة رسول الله ﷺ. ابن رجب: فتح الباري ٧/ ٤٩، والنووي: المنهاج ٤/ ١٧٦.

(٥) أي ثابت البناني، وهو ثابت بن أسلم أبو محمد البناني البصري، الإمام القدوة، شيخ الإسلام، ثقة، وُلد في خلافة معاوية ، وهو ممن صحب أنس بن مالك أربعين سنة، وكان من أعبد أهل البصرة وأكثرهم صبرًا على كثرة الصلاة ليلًا ونهارًا مع الورع الشديد، ومات سنة سبع وعشرين ومائة وهو ابن ست وثمانين سنة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٢٠، وابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص١٤٥.

شَيْئًا لَا أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَهُ، كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ انْتَصَبَ قَائِمًا، حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: قَدْ نَسِيَ. وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السَّجْدَةِ مَكَثَ، حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: قَدْ نَسِيَ(١)»(٢).

وعندما حَذَّر رسول الله ﷺ من أن الله ﷻ قد لا يَقْبَل الصلاةَ من عبدٍ لم يُحْسِن صلاته، حتى لو صلَّاها ستين سنة، كان السبب الأغلب في رأيه ﷺ هو عدم إتمام الركوع والسجود؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي سِتِّينَ سَنَةً وَلَا يَقْبَلُ اللهُ لَهُ صَلَاةً، لَعَلَّهُ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَلَا يُتِمُّ السُّجُودَ، وَيُتِمُّ السُّجُودَ وَلَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ»(٣). وانظر كيف كان حذيفة بن اليمان ﷺ صريحًا مع مسلم لا يتمُّ الركوع والسجود في صلاته! فعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ ﷺ قَالَ: دَخَلَ حُذَيْفَةُ ﷺ المَسْجِدَ فَإِذَا رَجُلٌ يُصَلِّي مِمَّا يَلِي أَبْوَابَ كِنْدَةَ فَجَعَلَ لَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَلَا السُّجُودَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: «مُنْذُ كَمْ هَذِهِ صَلَاتُكَ؟»، قَالَ: مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً. قَالَ: فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: «مَا صَلَّيْتَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً(٤)، وَلَوْ مُتَّ وَهَذِهِ صَلَاتُكَ لَمُتَّ عَلَى غَيْرِ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ». قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ يُعَلِّمُهُ، فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُخِفُّ فِي صَلَاتِهِ، وَإِنَّهُ لَيُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ»(٥). فلم يكن حذيفة ﷺ يُريد من الرجل أن يُكْثِر من القراءة، إنما فقط كان يُريد له إحسان وإتمام الركوع والسجود.

ولكي لا يظنُّ أحدٌ أن الأمر نسبيٌّ، وأن إتمام الركوع والسجود يختلف من إنسان إلى إنسان فلن نستطيع تقدير طوله، وَضَعَ رسول الله ﷺ حدًّا أدنى لذلك، ومَنْ أراد أن يُطيل

---

(١) قال ابن حجر: قَدْ نَسِيَ؛ أَيْ: نَسِيَ وُجُوبَ الْهُوِيِّ إِلَى السُّجُودِ. قَالَهُ الْكِرْمَانِيُّ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ نَسِيَ أَنَّهُ فِي صَلَاةٍ، أَوْ ظَنَّ أَنَّهُ وَقْتَ الْقُنُوتِ حَيْثُ كَانَ مُعْتَدِلًا، أَوْ وَقْتَ التَّشَهُّدِ حَيْثُ كَانَ جَالِسًا، وَوَقَعَ عِنْدَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ مِنْ طَرِيقِ غُنْدَرٍ عَنْ شُعْبَةَ: قُلْنَا: قَدْ نَسِيَ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ. أَيْ لِأَجْلِ طُولِ قِيَامِهِ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢٨٨.

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب المكث بين السجدتين، (٧٨٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها في تمام، (٤٧٢)، واللفظ له.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٦٣)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٣٥).

(٤) قال ابن حجر: زَادَ أَحْمَدُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ شُعْبَةَ فَقَالَ: «مُنْذُ كَمْ صَلَّيْتَ؟ فَقَالَ: مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»... وَفِي حَمْلِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ نَظَرٌ، وَأَظُنُّ ذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ فِي كَوْنِ الْبُخَارِيِّ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ حُذَيْفَةَ مَاتَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ؛ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ ابْتِدَاءُ صَلَاةِ الْمَذْكُورِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِأَرْبَعِ سِنِينَ أَوْ أَكْثَرَ، وَلَعَلَّ الصَّلَاةَ لَمْ تَكُنْ فُرِضَتْ بَعْدُ، فَلَعَلَّهُ أَطْلَقَ وَأَرَادَ الْمُبَالَغَةَ، أَوْ لَعَلَّهُ مِمَّنْ كَانَ يُصَلِّي قَبْلَ إِسْلَامِهِ، ثُمَّ أَسْلَمَ فَحَصَلَتِ الْمُدَّةُ الْمَذْكُورَةُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢٧٥. وأرى أن هناك احتمالًا ثالثًا، وهو أن يكون الرجل من قبيلة بعيدة عن مكة، وقد أسلم قبل الهجرة في زيارة للبلد الحرام، وعاد إلى بلاده يصلي هذه الصلاة، والله أعلم.

(٥) رواه البخاري مختصرًا، البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب إذا لم يتم الركوع، (٧٥٨)، وأحمد (٢٣٣٠٦)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والنسائي (٦٠٨)، وابن حبان (١٨٩٤).

عنه فلْيفعل؛ لكن لا يصحُّ أبدًا النزول عن هذا الحدِّ؛ فعن مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حُمَيْدٍ السَّاعِدِيَّ ﷺ، وَهُوَ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَحَدُهُمْ أَبُو قَتَادَةَ بْنُ رِبْعِيٍّ ﷺ، يَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِصَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالُوا: مَا كُنْتَ أَقْدَمَنَا لَهُ صُحْبَةً وَلَا أَكْثَرَنَا لَهُ إِتْيَانًا. قَالَ: بَلَى. قَالُوا: فَاعْرِضْ. فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ اعْتَدَلَ قَائِمًا وَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَاذِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَاذِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ. وَرَكَعَ، ثُمَّ اعْتَدَلَ فَلَمْ يُصَوِّبْ رَأْسَهُ[(١)] وَلَمْ يُقْنِعْ[(٢)]، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَاعْتَدَلَ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَظْمٍ فِي مَوْضِعِهِ مُعْتَدِلًا، ثُمَّ أَهْوَى إِلَى الْأَرْضِ سَاجِدًا، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ. ثُمَّ جَافَى عَضُدَيْهِ عَنْ إِبْطَيْهِ وَفَتَخَ أَصَابِعَ رِجْلَيْهِ[(٣)]، ثُمَّ ثَنَى رِجْلَهُ الْيُسْرَى وَقَعَدَ عَلَيْهَا، ثُمَّ اعْتَدَلَ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَظْمٍ فِي مَوْضِعِهِ مُعْتَدِلًا، ثُمَّ أَهْوَى سَاجِدًا، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ. ثُمَّ ثَنَى رِجْلَهُ وَقَعَدَ وَاعْتَدَلَ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَظْمٍ فِي مَوْضِعِهِ، ثُمَّ نَهَضَ، ثُمَّ صَنَعَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا قَامَ مِنَ السَّجْدَتَيْنِ كَبَّرَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَاذِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ كَمَا صَنَعَ حِينَ افْتَتَحَ الصَّلَاةَ، ثُمَّ صَنَعَ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَتِ الرَّكْعَةُ الَّتِي تَنْقَضِي فِيهَا صَلَاتُهُ أَخَّرَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى وَقَعَدَ عَلَى شِقِّهِ مُتَوَرِّكًا، ثُمَّ سَلَّمَ»[(٤)]. وفي رواية أنهم قَالُوا: صَدَقْتَ هَكَذَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ[(٥)].

وقد وَضَحَ لنا في الرواية السابقة أن الحدَّ الأدنى للتمام هو السكون التامُّ بعد الحركة، وهذا هو الاطمئنان الذي عناه رسول الله ﷺ في حديث «المسيء صلاته»، وكما بيَّن أبو حميد الساعدي ﷺ في هذا الشرح فإن ظهر الرسول ﷺ في الركوع يكون معتدلًا؛ أي في وضع أفقيٍّ تمامًا، ويكون رأسه في نفس مستوى ظهره، فلا يُصَوِّبُها؛ أي فلا يخفضها عن أفقية ظهره، ولا يُقْنِعُها؛ أي لا يرفعها عن مستوى ظهره، ويظلُّ في هذا الوضع المستقيم ساكنًا

---

(١) فلم يصوب رأسه؛ أي: لم يخفضه، وهو من التصويب؛ أي لم يحطه حطًّا بليغًا؛ بل يعتدل، وهذا تفسير لقوله: «اعتدل». انظر: السيوطي: قوت المغتذي على جامع الترمذي ١/ ١٤٠، والمباركفوري: تحفة الأحوذي ٢/ ١٨١.

(٢) ولم يُقْنِعْ: من أقنع رأسه إذا رفع أي لا يرفع رأسه حتى يكون أعلى من ظهره. انظر: السيوطي: قوت المغتذي على جامع الترمذي ١/ ١٤١، والمباركفوري: تحفة الأحوذي ٢/ ١٨١.

(٣) وفتَخَ أصَابع رجليه؛ أي: نصبها وغمز موضع المفاصِل منها، وثناها إلى باطن الرِّجل، وأصل الفتخ اللين. انظر: السيوطي: قوت المغتذي على جامع الترمذي ١/ ١٤١.

(٤) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في وصف الصلاة (٣٠٤)، وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ٢/ ١٤.

(٥) أبو داود (٧٣٠)، والترمذي (٣٠٥)، وابن ماجه (١٠٦١)، والدارمي (١٣٥٦)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وابن حبان (١٨٦٧)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣١٩، ٣٢٠ (٧٢٠).

حتى يقضي تسبيحاته، وهو ساكنٌ في السجود كذلك، فلا يتحرَّك حتى يقضي تسبيحاته، وعند الرفع من الركوع أو السجود يستوي قائمًا أو جالسًا حتى يرجع كل عظم إلى مكانه؛ بمعنى أن يصل إلى السكون التامّ بعد الحركة..

هذا الوصف يعني أنه لا بُدَّ في كل حركة أو نقلة في الصلاة أن يكون هناك سكون تامٌّ بعد الحركة، وإذا لم يحدث هذا فسدت الصلاة؛ لهذا كان الاطمئنان ركنًا في الصلاة وحُكْمُه هو الوجوب عند جمهور الفقهاء(١)، وبهذا لا تصحُّ صلاة مَنْ لم يطمئن في قيامه، أو ركوعه، أو سجوده، وفي الأمر تفصيل(٢) ولكن ما ذكرتُه هو الأشهر، والله أعلم، كما أن هناك تفصيلًا كذلك في عدد التسبيحات التي ينبغي أن تُقال في كل ركوع أو سجود(٣).

---

(١) انظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢١٢، ٢١٣، والموسوعة الفقهية الكويتية ٢٣/ ١٢٧، ١٢٨، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ٨٤٢، ٨٤٨.

(٢) انظر: المقدار المفروض من القيام: هو عند الحنفية بقدر القراءة المطلوبة فيه، وهو بقدر قراءة الفاتحة وسورة وتكبيرة الإحرام، وعند الجمهور: بقدر تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة فقط؛ لأن الفرض عندهم قراءة الفاتحة، وأما السورة بعدها فهي سنة... الاطمئنان في الركوع: أقل الاطمئنان في الركوع هو أن يمكث في هيئة حتى تستقر أعضاؤه راكعًا قدر تسبيحة في الركوع والسجود وفي الرفع منهما. وهو واجب عند الحنفية... وفرض عند الجمهور... الاطمئنان في السجود: يجب أن يطمئن المصلي في سجوده، والطمأنينة فرض عند الجمهور واجب عند الحنفية... الطمأنينة ركن أو شرط ركن عند الجمهور في الركوع والاعتدال منه، والسجود، والجلوس بين السجدتين، وواجب عند الحنفية... والطمأنينة: سكون بعد حركة، أو سكون بين حركتين بحيث ينفصل مثلاً رفعه عن هَوِيِّه، وأقلُّها: أن تستقرَّ الأعضاء في الركوع مثلاً؛ بحيث ينفصل الرفع عن الهوي كما قال الشافعية؛ وذلك بقدر الذِّكْرِ الواجب لذاكره، وأما الناسي فبقدر أدنى سكون، كما قال بعض الحنابلة، والصحيح من المذهب: أنها السكون وإن قلَّ. أو هي تسكين الجوارح قدر تسبيحة في الركوع والسجود، والرفع منهما، كما قال الحنفية. أو هي استقرار الأعضاء زمنًا ما في جميع أركان الصلاة، كما قال المالكية. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ٦٥-٧٢، والزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ٨٤٠-٨٤٨، ٨٦١، ٨٦٢، وراجع ص١٣١، ٢٥٣.

(٣) يسن التسبيح ثلاثًا عند الأئمة الثلاثة في تسبيح الركوع، وهو «سبحان ربي العظيم»، وتسبيح السجود، وهو «سبحان ربي الأعلى». وتستحب عندهم الزيادة على الثلاث بعد أن يختم على وتر، خمس، أو سبع، أو تسع عند الحنفية والحنابلة، أو إحدى عشرة عند الشافعية. هذا إذا كان منفردًا، وأما الإمام فلا ينبغي له أن يطول على وجه يمل القوم، وعند الشافعية تُكره للإمام الزيادة على الثلاث... وأما عند المالكية فيندب التسبيح في الركوع والسجود بأي لفظ كان، ولم يحدوا فيه حدًّا، ولا دعاء مخصوصًا. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٤/ ٢١٠، ٢٧/ ٨٢، ١٠/ ١٤٧، وزاد المالكية والشافعية والحنابلة: (وبحمده). ويزيد عند الشافعية المنفرد وإمام قوم محصورين راضين بالتطويل في الركوع: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي». وفي السجود: «سُبُّوح قدُّوس رب الملائكة والروح، اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين». انظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ٨٩٠، ٨٩٥، وانظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٢٣، ٢٣٥، وراجع في ذلك فرائض الصلاة وسننها ومبطلاتها ص٢٥٠-٢٦٨.

ومع كل ما ذكرناه في الفقرات السابقة فإنه لا ينبغي للمسلم الحريص على الخشوع أن يكون همُّه هو معرفة الحدِّ الأدنى للركوع، أو السجود، أو الرفع منهما؛ بل ينبغي له أن يُطيل في هذه الأعمال، «ويُمَتِّع» نفسه بالأذكار العظيمة فيها، ويُعين على هذا استحضار ومعرفة قدر الأجر الهائل لقول هذه الأذكار، وهذا ما ذكرناه عند حديثنا عن درجة «الطمع»(١) في نظرية هرم الخشوع، وعمومًا فإن رسول الله ﷺ كان يمكث على الأغلب في كل ركوع أو سجود في الصلوات المكتوبة قدر ذكر عشر تسبيحات تقريبًا؛ وذلك لما رواه سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رحمه الله، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه، يَقُولُ: «مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ، أَشْبَهَ صَلَاةً بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ هَذَا الْفَتَى». -يَعْنِي عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رحمه الله- قَالَ: «فَحَزَرْنَا فِي رُكُوعِهِ عَشْرَ تَسْبِيحَاتٍ، وَفِي سُجُودِهِ عَشْرَ تَسْبِيحَاتٍ»(٢). فهذا هو معيار اتباع السُّنَّة في الصلوات المكتوبة، وإن كان يُجزئ المُصَلِّي أقل من ذلك بكثير، فقد مرَّ بنا أنه يجزئه تسبيحة واحدة، بل قال بعضهم: إنه يُجزئه المكوث قدر تسبيحة دون التسبيح(٣)! ولكننا هنا لا نبحث عن صحَّة الصلاة فقط؛ إنما نبحث عن الخشوع، وجدير بالذكر هنا أن نلفت الانتباه إلى أن ركوع الرسول ﷺ في صلوات قيام الليل؛ التي كان يُصَلِّيها منفردًا، كان طويلًا جدًّا إلى درجة قد لا نستطيع استيعابها! ويكفي أن نراجع في ذلك رواية عَاصِمِ بْنِ حُمَيْدٍ رحمه الله حيث قَالَ: سَمِعْتُ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قُمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةً، فَلَمَّا رَكَعَ مَكَثَ قَدْرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»(٤)!!

وختامًا لهذه المسألة، ولحرصي على بلوغ القارئ لهذه الدرجة العظيمة من الخشوع آثرتُ أن أختم هذا الفصل بذِكْر موقف خاشع ذَكَرَ فيه أحد الصحابة الكرام ربَّه عز وجل بذكرٍ خاشعٍ جميلٍ؛ وذلك بعد أن عطس في صلاته، وأقرَّ رسولُ الله ﷺ هذا الذِّكْر فصار سُنَّةً عنه

---

(١) راجع «درجة الطمع» ص٦٥.

(٢) أبو داود: باب تفريع أبواب الركوع والسجود، باب مقدار الركوع والسجود (٨٨٨)، والنسائي (٧٢١)، وقال النووي: رواه أبو داود، والنسائي بإسناد حسن. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤١٤، وقال ابن حجر: حديث حسن، أخرجه أبو داود والنسائي. انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٦٧.

(٣) راجع فرائض وسنن الصلاة ص٢٤٧، ٢٦٢، وراجع الطمأنينة في الصلاة وقدرها ص١٣١، ٢٥٣، ٣٤٩.

(٤) النسائي: السنن الصغرى (١٠٤٩)، وأحمد (٢٤٠٢٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي. والطبراني: المعجم الكبير (١٤٨٢٢)، وقال ابن حجر: حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي في سننهما. انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٧٢، وحسن ابن حجر رواية أحمد، انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٧٤، وصححه الألباني، انظر: مشكاة المصابيح ١/ ٢٧٨.

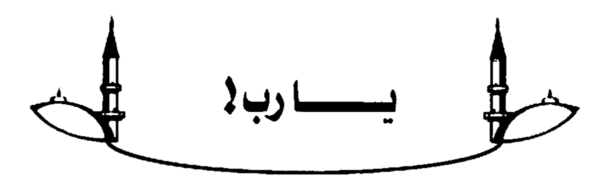
ﷺ، فعن رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ ﷺ، أنه قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ فَعَطَسْتُ، فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لله حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، مُبَارَكًا عَلَيْهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى. فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ انْصَرَفَ، فَقَالَ: «مَنِ الْمُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟»، فَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَهَا الثَّانِيَةَ: «مَنِ الْمُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟»، فَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَهَا الثَّالِثَةَ: «مَنِ الْمُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟» فَقَالَ رِفَاعَةُ بْنُ رَافِعٍ ابْنُ عَفْرَاءَ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «كَيْفَ قُلْتَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: الْحَمْدُ لله حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ مُبَارَكًا عَلَيْهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدِ ابْتَدَرَهَا بِضْعَةٌ وَثَلَاثُونَ مَلَكًا، أَيُّهُمْ يَصْعَدُ بِهَا»[1]!

قد يتصوَّر إنسانٌ أن العطاس قد شغل المُصَلِّي عن صلاته، أو أنه يُصاحب حالةً مَرَضِيةً يمكن أن تُشَتِّت فكر المُصَلِّي؛ ولكن ما رأيناه هو حالة خشوعية كاملة أعجبت رسول الله ﷺ؛ بل أحبَّها الله ﷻ فأرسل إلى الذِّكرِ الذي قيل فيها أكثر من ثلاثين ملَكًا يتنافسون على حمل هذا الذِّكر إلى السماء! إن حضور الذهن الذي دفع الصحابي الواعي رِفَاعَةَ بْنَ رَافِعٍ ﷺ إلى هذا الحمد العظيم لله ﷻ لا يأتي إلَّا من خاشع، فهو يستحضر تمامًا وقوفه أمام الجليل سبحانه؛ ومن ثَمَّ نطق لسانه بهذه الكلمات بعد أن كان قلبه قد نطق بها، فكان هذا النزول الملائكي المهيب، وهذا لا يكون إلَّا للخاشعين!

* * *

---

(١) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٧٣)، والترمذي (٤٠٤)، وقال: حديث حسن. والنسائي (١٠٠٣)، والحاكم (٥٠٢٣)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٦٠ (٧٤٧).



رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ
وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ
وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ
وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي
وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ
رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا
لَكَ ذَكَّارًا
لَكَ رَهَّابًا
لَكَ مِطْوَاعًا
لَكَ مُخْبِتًا(١)
إِلَيْكَ أَوَّاهًا(٢) مُنِيبًا
رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي
وَاغْسِلْ حَوْبَتِي(٣)
وَأَجِبْ دَعْوَتِي
وَثَبِّتْ حُجَّتِي
وَسَدِّدْ لِسَانِي
وَاهْدِ قَلْبِي

---

(١) مُخْبِتًا؛ أي: خاشعًا مُطيعًا، والإخبَاتُ: الخُشوع، والتَّواضُع. انظر: السيوطي: قوت المغتذي على جامع الترمذي ٢/ ٩٥٩.

(٢) أوَّاهًا: الأوَّاه: المتأوِّه المُتَضرِّع، وقيل: هو الكثير البكاء. وقيل: الكثير الدُعاء. انظر: السيوطي: قوت المغتذي على جامع الترمذي ٢/ ٩٥٩، وقال المباركفوري: أوَّاهًا؛ أَيْ: مُتَضَرِّعًا، فَعَّالٌ لِلْمُبَالَغَةِ مِنْ أَوَّهَ تَأْوِيهًا وَتَأَوَّهَ تَأَوُّهًا إِذَا قَالَ: أَوْهُ. أَيْ قَائِلًا كَثِيرًا لَفْظَ أَوْهُ؛ وَهُوَ صَوْتُ الْحَزِينِ؛ أَيِ اجْعَلْنِي حَزِينًا وَمُتَفَجِّعًا عَلَى التَّفْرِيطِ، أَوْ هُوَ قَوْلُ النَّادِمِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ الْمُقَصِّرِ فِي طَاعَتِهِ، وَقِيلَ: الْأَوَّاهُ الْبَكَّاءُ. تحفة الأحوذي ٩/ ٣٧٨.

(٣) واغسل حَوْبتي؛ أي إثمي. انظر: السيوطي: قوت المغتذي على جامع الترمذي ٢/ ٩٥٩.



وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ(١) صَدْرِي(٢)..

ما أروع هذا الدعاء!

وما أشمله! وأجمله!

وهذا الشمول والجمال هو ما دعا أَبَا الْحَسَنِ الطَّنَافِسِيَّ رحمه الله أن يقول لِوَكِيعٍ رحمه الله: أَقُولُهُ فِي قُنُوتِ الْوِتْرِ؟ فَقَالَ له وكيع: «نَعَمْ»(٣)!

ولقد ازددتُ فهمًا لكلمة رسول الله ﷺ الجامعة: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ». بعد أن تدبَّرتُ في هذا الدعاء؛ فقد روى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رضي الله عنه أَنَّه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]»(٤). فجعل رسولُ الله ﷺ الدعاء هو العبادة؛ لأنه إعلانٌ مباشر من العبد أنه فقيرٌ إلى الربِّ، ومحتاجٌ لعونه ومدده وتأييده، ومدرِكٌ لقوَّة الله ﷻ وقدرته على تحقيق طلبه وأمله، وما قَدَّمْتُ من مثالٍ لدعاء الرسول ﷺ يُوَضِّح هذه المعاني ويؤكِّدها، وتَرْكُ الدعاءِ استكبارٌ وخروجٌ عن العبادة السليمة، وقد جعل النبي ﷺ تَرْكَ الدعاء إثمًا عظيمًا، فقال -فيما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه-: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»(٥).

والصلاة هي أفضل الأعمال والقربات إلى الله؛ ومن ثَمَّ كانت إجابة الدعاء في الصلاة أقرب من إجابته في خارجها؛ لذا وجب على المسلم أن يخشع تمام الخشوع في دعائه أثناء الصلاة، ففرصة الإجابة كبيرة.. وشرع لنا الله ﷻ أن ندعوه في الصلاة، وأن نطيل في هذا الدعاء؛ خاصة إذا كنا نُصَلِّي منفردين؛ لهذا حرص الصالحون على حفظ هذه الأدعية النبوية

---

(١) سَخِيمة صَدْرِي: هي الحقد في النفس، أَيْ غِشَّهُ وَغِلَّهُ وَحِقْدَهُ. انظر: السيوطي: قوت المغتذي على جامع الترمذي ٢/ ٩٥٩، والمباركفوري: تحفة الأحوذي ٩/ ٣٧٨.

(٢) أبو داود: جماع أبواب فضائل القرآن، باب ما يقول الرجل إذا سَلَّم (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (١٠٤٤٣)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وأحمد (١٩٩٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢٤٤ (١٣٥٣).

(٣) ابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ (٣٨٣٠).

(٤) أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (١١٤٦٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (١٨٣٧٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢١٩ (١٣٢٩).

(٥) الترمذي: كتاب الدعوات، باب من لم يسأل الله يغضب عليه، (٣٣٧٣)، واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وأحمد (٩٧١٧)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٦٥٤).

الجميلة لترديدها في الصلاة.

وأكثر الدعاء في الصلاة يكون في السجود؛ لرواية أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[1]. وكان من سُنَّته ﷺ -أيضًا- أن يدعو بعد التشهد وقبل التسليم، ومع ذلك فهناك أدعية مأثورة دعا بها رسول الله ﷺ في أوضاع أخرى في الصلاة غير وضع السجود، وسوف أقوم في هذا الفصل بجمع الأدعية التي ثبت أن رسول الله ﷺ قد قالها في صلاته، كما سأقف على بعض الأدعية التي نقولها بشكل غير مباشر؛ أي قد نغفل عن نيَّة الدعاء حين نُرَدِّدها، كتلك التي نجدها في القرآن، أو في أذكار الصلاة، والغرض من جمع هذه الأدعية هو توضيح أهميتها وكثرتها واحتفال الرسول ﷺ بها، كما أن هذا الجمع سيقود إلى تيسير حفظها، بالإضافة إلى أنه قد تكون لنا مشاهدات وملاحظات إذا جمعنا هذه الأدعية إلى جوار بعضها البعض؛ فقد يبدو لنا معنًى خفيٌّ، أو تظهر لنا إشارة لطيفة، وفي هذا خير عظيم إن شاء الله، ومردود مباشر على خشوعنا؛ الذي هو موضوع الكتاب.

وسنلحظ أن رسول الله ﷺ كان يدعو الله بمجرَّد دخوله في الصلاة، ودخول الصلاة يكون بتكبيرة الإحرام، فكان له ﷺ دعاءٌ بعد التكبير مباشرة، وسنلحظ كذلك أنه سيكون له ﷺ دعاءٌ قبل التسليم مباشرة، والتسليم هو آخر أعمال الصلاة، ومعنى هذا أن الرسول ﷺ كان يبدأ صلاته بالدعاء، ويُنهيها به كذلك؛ بل كان يدعو الله بعد فراغه من الوضوء وقبل الصلاة، وكان يدعو كذلك بعد فراغه من الصلاة كلها وقبل الانصراف إلى بقية أعماله؛ مما يُعطي الانطباع الواضح أن الصلاة بالنسبة إلى رسول الله ﷺ كانت موطنًا مهمًّا من مواطن الدعاء، وكان دعاؤه فيها ﷺ إعلانًا مباشرًا لعبوديته لربِّ العالمين، فكان الهدف الأول منه الاعتراف لله ﷻ بالوحدانية والألوهية، ثم يأتي الهدف الثاني وهو الأمل في تحقيق المطالب التي يريدها العبد من الربِّ، ويأتي على قمتها -كما سنرى- المغفرة للذنوب.

أولًا: الدعاء بعد الوضوء:

ورد أن رسول الله ﷺ كان يقول بعد أن ينتهي من وضوئه، وبعد أن يقول شهادة

---

(١) سبق تخريجه ص١١.

التوحيد: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»(١). فكما أنه حرص في وضوئه على تطهير ظاهره بالماء؛ فهو يسأل الله أن يُطَهِّر باطنه بالتوبة، فيقف في صلاته أمامه سبحانه وهو نظيف الجسم والقلب، وهذا لا شكَّ أدعى للخشوع.

ثانيًا: دعاء بدء قيام الليل:

كان رسول الله ﷺ يقول هذا الدعاء قبل أن يشرع في قيام الليل؛ أي أنه كان يقوله بعد الوضوء وقبل تكبيرة الإحرام؛ فقد روى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(٢).

ثالثًا: الدعاء في الاستفتاح:

وردت عن رسول الله ﷺ عدَّة أدعية لاستفتاح الصلاة، وهي أدعية تُقال بعد تكبيرة الإحرام وقبل قراءة الفاتحة، ومنها ما كان يقوله في صلاة الفرض، ومنها ما كان يُخَصِّصه لصلاة قيام الليل، وقد مرَّت بنا هذه الأدعية في صفحات الكتاب قبل كذلك، ولا مانع من استرجاعها الآن لتكمل الفائدة.

أما ما كان يقوله رسول الله ﷺ في صلاة الفرض فدعاءان للاستفتاح، وقد ورد الدعاء الأول عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه وقَالَ فيه: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟

---

(١) الترمذي: أبواب الطهارة، باب فيما يقال بعد الوضوء، (٥٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والبيهقي: السنن الكبرى، (٣٧٥)، والطبراني: المعجم الأوسط، (٤٨٩٥)، وحسنه ابن عساكر، انظر: معجم الشيوخ، ٢/ ١٠٤٨، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٦١٦٧).

(٢) البخاري: أبواب التهجد، باب التهجد بالليل وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، (١٠٦٩).

قَالَ: «أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالمَاءِ وَالْبَرَدِ»(١).. وأما الدعاء الثاني فقد روته عَائِشَةُ ﵂ وقَالَتْ فيه: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلاَةَ قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»(٢)..

هذا في صلاة الفرض..

أما في صلاة القيام فكان له ﷺ دعاء آخر طويل يناجي به ربَّ العالمين قبل قراءة الفاتحة، وقد روى نصَّ هذا الدعاء عليُّ بن أبي طالب ﵁ وقال فيه: كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»(٣).

رابعًا: الدعاء في الفاتحة:

بعد أن يُعَظِّم العبد ربَّ العالمين في الفاتحة ويحمده ويُمَجِّده يتوجه إليه بالدعاء الخاشع قائلًا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، والصراط المستقيم هو طريق الله الذي يهدي إلى رضاه والجنة، وإذا استجاب الله ﷻ لهذه الدعوة فهذا معناه هداية العبد لتطبيق كل ما أراده الله منه؛ سواء ورد في كتابه سبحانه، أو في سُنَّة نبيه ﷺ، وهذا يقود بالتبعية إلى رضا الله تعالى ثم الجنة.

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما يقول بعد التكبير، (٧١١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، (٥٩٨)، واللفظ له.

(٢) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجه (٨٠٦)، والحاكم (٨٥٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد. وقال الذهبي: على شرطهما. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٦٣ (٧٤٩).

(٣) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، وأحمد (٧٢٩).

خامسًا: الدعاء أثناء قراءة القرآن:

يقرأ المسلم في صلاته بعد الفاتحة بعض الآيات من كتاب الله ﷻ؛ وذلك في صلاة الصبح، أو في أول ركعتين من صلاة المغرب والصلوات الرباعية، كما يقرأ القرآن كذلك بعد الفاتحة في كل صلوات النوافل، وكثيرًا ما تكون الآيات في صورة دعاء على ألسنة الأنبياء أو الصالحين، وينبغي للمسلم أثناء قراءة أمثال هذه الآيات أن يتوجَّه إلى الله بقلبه راجيًا منه الإجابة، وهذا أدعى -بلا شكٍّ- للقبول، كما إنه أدعى للخشوع كذلك، ولا مانع في صلوات النوافل أن يتوقَّف المُصَلِّي قليلًا -أو كثيرًا- عند هذه الآيات ويدعو الله بإخلاص وخشوع طالبًا منه تحقيق الإجابة؛ وهذه الآيات كثيرة؛ فمنها على سبيل المثال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومنها: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، ومنها: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥]، ومنها: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، ومنها: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۝ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]، وأمثلة هذه الأدعية في القرآن كثيرة للغاية، وهي أدعية مباركة، ويكفي أن الله ﷻ قد خلَّدها دون غيرها فذكرها في كتابه المحفوظ إلى يوم القيامة، فلا ينبغي للمسلم أن يسمح لذهنه بالشرود وهو يتلو مثل هذه الآيات الخالدات، خاصة أنه في أشدِّ الاحتياج لتحقيق الإجابة فيها.

سادسًا: الدعاء أثناء الركوع:

ليس الركوع موضعًا للدعاء؛ إنما جُعِل لتعظيم الربِّ سبحانه؛ ومع ذلك فقد كان رسول الله ﷺ يقول فيه دعاءً مختصرًا طالبًا فيه المغفرة من الله، فعَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي». يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ[1]. والمقصود بالقرآن في كلام عائشة ﵂ هو سورة النصر، حيث قال الله

---

(١) البخاري: صفة الصلاة، الدعاء في الركوع، (٧٦١)، ومسلم: الصلاة، ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٤).

تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]، ودليل ذلك ما روته عَائِشَةُ ﵂، قَالَتْ: «مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[١]. وحدَّدت الرواية الأولى مكان التسبيح والحمد والاستغفار في الركوع والسجود كما بيَّنا.

سابعًا: الدعاء عند الرفع من الركوع:

كان رسول الله ﷺ يحمد الله عند رفعه من الركوع، والحمد هو في الحقيقة دعاء غير مباشر؛ لأن الله وعد الشاكرين بالعطاء والزيادة؛ فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ لهذا قال رسول الله ﷺ -كما روى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﵄-: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ للهِ»[٢]. وقد فَصَّلنا في هذا الأمر في فصل سابق من فصول هذا الكتاب، وأحيانًا كان رسول الله ﷺ يُطيل في حمده لله تعالى عند الرفع من الركوع؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»[٣].

ولكنه ﷺ لم يكن يخصِّص هذا الموطن من مواطن الصلاة للدعاء؛ اللهمَّ في حالتين فقط:

الحالة الأولى: الدعاء في قنوت الوتر:

حضَّ رسول الله ﷺ المسلمين على ختم صلاة اليوم والليلة بصلاة الوتر؛ فقد روى قال أَبو هُرَيْرَةَ ﵁: أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ: «صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيِ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ»[٤]. وكان من سُنَّته ﷺ أن يدعو بدعاءٍ خاصٍّ في هذه الصلاة، وهو الدعاء المعروف بقنوت الوتر؛ فعن الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ﵄: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ كَلِمَاتٍ

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، سورة النصر، (٤٦٨٣)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٤).

(٢) سبق تخريجه ص٣٣٦.

(٣) سبق تخريجه ص٣٣٨.

(٤) البخاري: كتاب الصوم، باب صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة، (١٨٨٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى وأن أقلها ركعتان وأكملها ثمان ركعات، (٧٢١).

أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ -قَالَ ابْنُ جَوَّاسٍ، وهو أحد رواة الحديث: فِي قُنُوتِ الْوِتْرِ-: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ»(١). فهذا هو الدعاء المسنون الذي ينبغي قوله في الوتر؛ ولكن يمكن إضافة أدعية أخرى إذا أراد المُصَلِّي، وقنوت الوتر يمكن أن يكون بعد الرفع من الركوع كما قال الشافعي وأحمد(٢)، أو قبل الركوع كما قال أبو حنيفة ومالك(٣).

الحالة الثانية: الدعاء في النوازل:

عند الأزمات الشديدة التي تتعرَّض لها الأُمَّة كان رسول الله ﷺ يدعو لفكِّ الكرب ونجاة المسلمين، كما كان يدعو بهلاك أعداء الإسلام ومَنْ يكيدون له، وكان هذا الدعاء بعد الرفع من الركوع في الركعة الأخيرة من صلوات الفروض، وكان المسلمون يُؤَمِّنون على دعاء الرسول ﷺ؛ فقد روى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ، قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَرُبَّمَا قَالَ «إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ». يَجْهَرُ بِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا، لِأَحْيَاءٍ مِنَ الْعَرَبِ». حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨](٤). وعَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: «قَنَتَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ الرُّكُوعِ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ، وَيَقُولُ: عُصَيَّةُ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ»(٥). ولم يكن هذا خاصًا بصلاة الفجر فقط؛ بل كان يقوله رسول الله ﷺ في صلوات أخرى؛ ففي رواية أخرى لِأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ

---

(١) سبق تخريجه ص١٦.

(٢) انظر: الأم للشافعي ٧/ ١٧٧، ٢٦٣، والخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ١/ ٤٥٤، ومسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبد الله ص٩٠، وابن قدامة المقدسي: الكافي في فقه الإمام أحمد ١/ ٢٦٧.

(٣) السرخسي: المبسوط ١/ ١٦٤، والكاساني: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ٢٧٣، وابن نجيم: النهر الفائق شرح كنز الدقائق ١/ ٢٩٣، وقال مالك: الأفضل أن يكون قبل الركوع. المازري: شرح التلقين ١/ ٥٥٨، والقرافي: الذخيرة ٢/ ٢٣١، والخرشي: شرح مختصر خليل ١/ ٢٨٣.

(٤) البخاري: كتاب التفسير، سورة آل عمران، (٤٢٨٤)، وأحمد (٧٤٥٨).

(٥) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة...، (٣٨٦٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، (٦٧٧).

النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنْ صَلَاةِ العِشَاءِ قَنَتَ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ..»[1]. إلى آخر الدعاء، بل روى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «قَنَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهْرًا مُتَتَابِعًا فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ وَصَلَاةِ الصُّبْحِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ، يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، عَلَى رِعْلٍ، وَذَكْوَانَ، وَعُصَيَّةَ، وَيُؤَمِّنُ مَنْ خَلْفَهُ»[2].

ثامنًا: الدعاء في السجود:

السجود هو أوسع ميادين الدعاء في الصلاة، ومن السُّنَّة الإكثار فيه من الدعاء؛ فقد روى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا المُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عز وجل، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[3]. فالاجتهاد هو بذل كامل الجهد في الدعاء، ويشمل ذلك أمور الدنيا والآخرة، وإن كان المسلم الواعي يُغَلِّب رجاءه في الآخرة على رجائه في الدنيا، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤].

وقد وردت في السُّنَّة بعض الأمثلة لدعاء الرسول ﷺ في السجود، وحريٌّ بالمسلم أن يحفظ هذه الأدعية، ويُكثر من ترديدها في سجوده، ففيها نور النبوة، وفيها اتباع السُّنَّة، وفيها التركيز الكامل على ما ينفع المسلم حقَّ المنفعة.

من هذه الأدعية ما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه من أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»[4]. ولعلنا نلحظ أن كلمة «ذنبي كله» قد أغنت عمَّا بعدها؛ لكن هذه الإطالة تدلُّ على محبَّة المُصَلِّي لمناجاة الله عز وجل، وهي

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء على المشركين، (٦٠٣٠).

(٢) أبو داود: باب تفريع أبواب الوتر كتاب الوتر، باب القنوت في الصلاة (١٤٤٣)، وأحمد (٢٧٤٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والحاكم (٨٢٠)، وقال: حديث صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد حسن، أو صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤٦١، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٢/ ١٣٨، وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ١٨٧ (١٢٩٧).

(٣) مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، (٤٧٩).

(٤) سبق تخريجه ص٨٢.

في الوقت نفسه تدلُّ على شدَّة افتقار الإنسان إلى ربِّه، وفوق ذلك فكثرة الألفاظ قد تُذَكِّر الإنسان بذنب قد نساه، كأن يذكر ذنبًا فعله في السرِّ، أو ذنبًا نظر إليه وقتَ فعله على أنه دقيق أو صغير، وهكذا، ولو تذكَّر الإنسان ذنوبًا معينة كان استغفاره منها آكد، وتوبته منها ألزم، وخوفه من عقابها أشدَّ؛ لهذا كان التنويع في الألفاظ الذي يفتح لنا صفحات ماضينا ونحن ساجدين، فنُسرع إلى التوبة في خشوع الخائفين. وبدهي أن الله ﷻ قد غفر لرسول الله ﷺ ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؛ لكنه هنا لشدَّة شفافيته وخشيته لله يعتبر الأمور التي يُغْفَى عنها لكافَّة البشر- ذنوبًا في حقِّه فيستغفر منها، كما أنه يفعل ذلك ليُعَلِّمنا كيف نُصَلِّي وندعو ونخشع ونتوب!

ومن أدعية السجود كذلك ما نقله أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أنها قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1]. وكم هو ممتع أن تتدبَّر في تعبيرات رسول الله ﷺ عندما يُناجي ربَّه، فهذه التعبيرات في حدِّ ذاتها تُعتبر من أقصر الطرق وأوضحها للخشوع، فهو هنا يُعلن توحيده لله بطريقة فريدة، فيقول: إنك لو سخطت عليَّ يا رب فليس لي مهرب إلا أن ألجأ إليك حتى ترضى عني، ولو كنتُ أستحق عقوبتك فلن ينجيني منها إلا عفوك؛ لأنك تحبُّ العفو، ولو طلبتني فليس لي إلا أن أعوذ بك أنت، فليس لك نظير ألجأ إليه، ولا ندٌّ أعتمد عليه! ثم يعلن بوضوح عجزه الكامل على الثناء على الله بما يستحقُّه، فعقولنا القاصرة لا تبلغ ذلك، ونعمه الكثيرة لا تُحصى، وذنوبنا المتتالية تُعوِّقنا؛ ومن ثَمَّ ختم دعاءه بقوله: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». فأوكل إلى الله تقدير الثناء المناسب، حيث إننا لا نستطيعه أبدًا!

ومرَّت بنا رواية عائشة ﷺ أنه ﷺ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[2].

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، والترمذي (٣٤٩٣)، والنسائي (١٥٨)، وابن ماجه (٣٨٤١)، والموطأ (٤٩٩)، وأحمد (٢٤٣٥٧).

(٢) سبق تخريجه ص٣٥٧.

وروى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: بِتُّ فِي بَيْتِ خَالَتِي مَيْمُونَةَ(١) فَبَقَيْتُ كَيْفَ يُصَلِّي(٢) رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَقَامَ فَبَالَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ، ثُمَّ نَامَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الْقِرْبَةِ فَأَطْلَقَ شِنَاقَهَا(٣)، ثُمَّ صَبَّ فِي الْجَفْنَةِ، أَوِ الْقَصْعَةِ، فَأَكَبَّهُ بِيَدِهِ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَوَضَّأَ وُضُوءًا حَسَنًا بَيْنَ الْوُضُوءَيْنِ(٤)، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَجِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَتَكَامَلَتْ صَلاَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثَلاَثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ نَامَ حَتَّى نَفَخَ، وَكُنَّا نَعْرِفُهُ إِذَا نَامَ بِنَفْخِهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ فَصَلَّى، فَجَعَلَ يَقُولُ فِي صَلاَتِهِ، أَوْ فِي سُجُودِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا»، أَوْ قَالَ: «وَاجْعَلْنِي نُورًا»(٥). وفي رواية النسائي(٦) جزم بأن الدعاء كان في السجود، وإن كانت هناك روايات أخرى تضع هذا الدعاء في غير هذا الموطن، ولعلَّه ﷺ كان يقوله في أكثر من موضع.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا فَقَدَتِ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ مَضْجَعِهَا، فَلَمَسَتْهُ بِيَدِهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَهُوَ يَقُولُ: «رَبِّ أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا زَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا»(٧).

فهذه جملة من أدعيته ﷺ في سجوده، وحِفْظُها وترديدها أولى من غيرها، وإن كان المجال مفتوحًا أمام المسلمين كي يجتهدوا في الدعاء في سجودهم ما دام أنهم يدعون بأمور البرِّ والصلاح، وقد روى جَابِرٌ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو بِدُعَاءٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ مَا سَأَلَ أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ»(٨). فقيَّد

---

(١) ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين.

(٢) فَبَقِيتُ كَيْفَ يُصَلِّي؛ أَيْ رَقَبْتُ وَنَظَرْتُ، يُقَالُ: بَقِيتُ وَبَقَوْتُ بِمَعْنَى رَقَبْتُ وَرَمَقْتُ. انظر: النووي: المنهاج ٦/ ٤٩.

(٣) شِنَاقَهَا؛ أي: الْخَيْطَ الَّذِي تُرْبَطُ بِهِ فِي الْوَتَدِ. انظر: النووي: المنهاج ٦/ ٤٤.

(٤) بَيْنَ الْوُضُوءَيْنِ: يَعْنِي لَمْ يُسْرِفْ وَلَمْ يُقَتِّرْ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا. انظر: النووي: المنهاج ٦/ ٤٩، وانظر: القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١١٩، ١٢٠.

(٥) البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل، (٥٩٥٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٧٦٣)، واللفظ له، وأحمد (٢٥٦٧).

(٦) النسائي: كتاب التطبيق، الدعاء في السجود (٧٠٨).

(٧) أحمد (٢٥٧٩٨)، وقال شعيب الأرناءوط: رجاله ثقات. وقال ابن حجر: أخرجه أحمد، ورجاله رجال الصحيح إلا صالح بن سعيد، فلم أجد له ذكرًا إلا في ثقات ابن حبان. انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٩٨، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ١٢٨، ١٠/ ١١٠.

(٨) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨١)، وأحمد (١٤٩٢٢)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ٩٩١ (٥٦٧٨).



عدم الإجابة هنا بالإثم وقطع الرحم، أمَّا ما سواهما فهو مقبول إن شاء الله.

تاسعًا: الدعاء في الجلسة بين السجدتين:

مع أن الجلسة التي بين السجدتين جلسة خفيفة لا تأخذ في المعتاد وقتًا طويلًا؛ فإن الرسول ﷺ كان لا يغفل فيها عن الدعاء؛ فقد روى حُذَيْفَةُ ﷺ، أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ.. فكان من وصفه لصلاته ﷺ أن قال: «.. وَكَانَ يَقْعُدُ فِيمَا بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ نَحْوًا مِنْ سُجُودِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي»(١). وفي رواية أخرى لابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ﷺ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي»(٢) فهاتان صيغتان ثابتان عن رسول الله ﷺ، ويمكن للمُصَلِّي أن يختار إحداهما في صلاته.

عاشرًا: الدعاء في التشهد:

سيأتي في فصل قادم -إن شاء الله- الحديث عن التشهُّد وما فيه من كلمات تدعو للخشوع والتدبُّر، ولكننا نشير هنا فقط إلى أن التشهد الأخير يحوي دعاءً واحدًا، وهو دعاء عظيم جليل مُتَقَبَّل بإذن الله؛ حيث إنه دعاء بالرفعة والبركة لرسول الله ﷺ، وحريٌّ أن يَقْبَل اللهُ مثل هذا الدعاء، فنحن نقول في النصف الثاني من التشهُّد -وذلك كما جاء في رواية كعب بن عجرة ﷺ عن رسول الله ﷺ-: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(٣). فنحن ندعو الله أن يُصَلِّيَ ويبارك على محمد ﷺ وعلى آله، فيقبل اللهُ هذا الدعاء، ويكون الجزاء بالمثل، فيُصَلِّي علينا ربُّنا،

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، (٨٧٤)، واللفظ له، والنسائي (٦٥٦)، وابن ماجه (٨٩٧)، وأحمد (٢٣٤٢٣)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٤/ ٢٧، ٢٨، (٨١٨).

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء بين السجدتين، (٨٥٠)، والحاكم (٩٦٤)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وقال النووي: رواه أبو داود، والترمذي، وآخرون بإسناد حسن. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤١٥، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٢/ ١١٩، وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٤٣٦ (٧٩٦).

(٣) البخاري: كتاب الأنبياء، باب ﴿يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤] النسلان في المشي، (٣١٩٠)، وهذا أكمل لفظ في الصلاة على النبي ﷺ، وقد جاء حديث كعب هذا مختصرًا في البخاري، برقم ٤٥١٩، ورقم ٥٩٩٦، وفي مسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، (٤٠٦).

وصلاته سبحانه علينا رحمةٌ بنا؛ وقد روى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ عَشْرًا»(١).

حادي عشر: الدعاء بعد التشهد وقبل التسليم:

وهذا موطن عظيم من مواطن الدعاء في الصلاة، وهو مسنون عن رسول الله ﷺ، فقد ذَكَرَ عبد الله بن مسعود ﷺ التشهد كما علَّمه رسول الله ﷺ لهم، ثم قال بعد انتهاء التشهد: «.. ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَدْعُو»(٢).

والواقع أن الروايات الصحيحة التي وردت عن الدعاء في هذا الموضع من الصلاة كثيرة، وواضح أن الرسول ﷺ كان يقول بعضها تارة، ويقول الأخرى تارة أخرى، وأنا أنصح القراء أن يُواظبوا على أحد هذه الأدعية عدَّة أيام حتى يحفظوه، ثم ينتقلوا إلى دعاء آخر حتى يحفظوه كذلك، وهكذا حتى نتمَّ حفظ كل الروايات الصحيحة الواردة، وبعدها نُنَوِّع في اختيار الدعاء كل يوم، وهذا التنويع سيُحَقِّق عدَّة فوائد؛ منها إبراز حرصنا على تتبُّع سُنَّة الرسول ﷺ، وعدم هَجْر شيء منها، ومنها منع الرتابة والملل فيؤدي منعهما إلى الخشوع والتدبُّر، ومنها تحقيق الخير الموجود في كل دعاء.

ومن هذه الروايات ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»(٣). ومجال التدبُّر في جمع هذه الأربع سويًّا كبير، وأنا أرى أن الرسول ﷺ أراد أن يلفت انتباهنا إلى المخاطر الحقيقية التي تُقابلنا في مسيرة حياتنا، فنحن قد ننشغل في صلاتنا بدعاء الله ﷻ أن يكشف عنا كُرَبَ الدنيا من فقر، أو مرض، أو ظلم وقع علينا، أو كارثة حلَّت بنا، وننسى أننا مقبلون على أزمات أكبر وأخطر، وهي أزمات الفتن التي قد تعصف بالدِّين، وأزمات الدجَّال، والقبر، والنار، فهذه أمور ينبغي أبدًا ألَّا تغيب عن أذهاننا، وإذا تذكَّرناها في دعائنا حقَّقنا فائدتين عظيمتين، أما

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، (٤٠٨)، وأبو داود (١٥٣٠)، والترمذي (٤٨٥)، والنسائي (١٢١٩)، وأحمد (٨٨٤١)، والدارمي (٢٧٧٢).

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، (٨٠٠)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، (٤٠٢).

(٣) سبق تخريجه ص٢٦٥.

الفائدة الأولى فهي قبول الدعاء، وبالتالي الوقاية من هذه الفتن المهْلِكة، وأمَّا الفائدة الثانية فهي استصغار المشاكل الدنيوية التي نقابلها في حياتنا، وهذا سيُعطينا صلابة في مواجهتها، كما سيزرع داخلنا بشكل غير مباشر زهدًا في الدنيا وزينتها، وقد سَنَّ رسول الله ﷺ أن يكون هذا الدعاء بعد التشهُّد وقبل التسليم ليكون آخر ما يعلق بذهن المُصَلِّي من كلمات، فتظل معه بعد الصلاة، وهذا يجعل النفع متعدِّيًا إلى خارج الصلاة، وهذا خير كثير.

وقد ورد الدعاء السابق نفسه بصيغ أخرى؛ منها ما جاء عَنْ عَائِشَةَ، ﵂: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا، وَفِتْنَةِ المَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ». فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ المَغْرَمِ! فَقَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»[1]. وزاد فيها هنا الاستعاذة من المأثم؛ وهو الإثم بأنواعه المختلفة، والمغرم وهو الدَّيْن، وكما بيَّن الرسول ﷺ فإن المغرم قد يقود المسلم إلى الكذب وخلف الوعد، وهذه من علامات النفاق؛ فكأنَّ الرسول ﷺ يستعيذ في دعائه من الإثم والنفاق.

ومن الأدعية التي تُقال -أيضًا- بعد التشهُّد وقبل التسليم ما رواه أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵁ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قَالَ: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»[2]. ورجَّح البخاري ﵀ أن هذا الدعاء بعد التشهُّد، وإن كان البعض[3] يرى أنه يمكن أن يُقال بعد التشهُّد، أو في السجود، لعموم كلمة الصديق ﵁: «أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي».

وفي وصف عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁ لصلاة الليل لرَسُولِ الله ﷺ قال: ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[4].

ويروي مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ وَالله إِنِّي لَأُحِبُّكَ،

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، (٧٩٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في صلاة، (٥٨٩).

(٢) سبق تخريجه ص٨٢.

(٣) راجع التعليقات على الحديث ص٨٢.

(٤) سبق تخريجه ص٣٤٢.

وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فَقَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(١). ورجَّح بعض العلماء(٢) أن ذلك يكون بعد التشهد وقبل التسليم، وإن كان يُحتمل أن المقصود منه بعد انتهاء الصلاة كلها(٣).

ويروي عمرو بن ميمون الأودي -وهو من كبار التابعين- أن سَعْدَ بن أبي وقاص ﷺ كان يُعَلِّمُ بَنِيهِ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ كَمَا يُعَلِّمُ الْمُعَلِّمُ الْغِلْمَانَ الْكِتَابَةَ، وَيَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْهُنَّ دُبُرَ الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»(٤).

وهذا دعاء خاشع طويل جميل، وله قصة لطيفة، وبه من المعاني والفوائد ما يحتاج إلى صفحات، ويحكي فيه عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ ﷺ -وهو من التابعين- عَنْ أَبِيهِ السائب بن مالك ﷺ -وهو من التابعين كذلك- أنه قَالَ: صَلَّى بِنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ﷺ صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ: لَقَدْ خَفَّفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ. فَقَالَ: أَمَّا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ. فَلَمَّا قَامَ تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ هُوَ أَبِي غَيْرَ أَنَّهُ كَنَى عَنْ نَفْسِهِ، فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ الْقَوْمَ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى،

---

(١) سبق تخريجه ص٣٠٠.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن باز ٣٠/ ٣٧، وقال المباركفوري: في دبر كل صلاة؛ أي في آخرها قبل الخروج منها؛ لأن دبر الحيوان منه. وقيل: أي عقبها وخلفها؛ لأن دبر الصلاة بعدها، قال في القاموس: الدبر -بضمتين- نقيض القبل. ومن كل شيء عقبه. وإيراد المصنف هذا الحديث في الباب المشتمل على الدعاء في التشهد يدلُّ على أنه أراد المعنى الأول، ويؤيده رواية أحمد بلفظ: «إني أوصيك بكلمات تقولهن في كل صلاة»، ورواية النسائي بلفظ: «فلا تدعن تقول في كل صلاة». لكن يشكل عليه إيراده لأدعية وأذكار مقيدة بذلك في باب الذكر بعد الصلاة كحديث المغيرة، وحديث أبي هريرة، وحديث كعب بن عجرة، ونحو ذلك. انظر: المباركفوري: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣/ ٣٠٦، وقال ابن عثيمين: ودبر كل صلاة يعني في آخر الصلاة قبل السلام، هكذا جاء في بعض الروايات أنه يقولها قبل السلام، وهو حقٌّ، وكما ذكرنا أن المقيد بالدبر أي دبر الصلاة إن كان دعاء فهو قبل التسليم، وإن كان ذِكْرًا فهو بعد التسليم. انظر: ابن عثيمين: شرح رياض الصالحين ٥/ ٥٠٢، ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١٣/ ٢٧٧.

(٣) ذكره النووي في باب الذكر عقيب الصلاة المكتوبة، انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤٦٨، وانظر: الهيتمي: المنهاج القويم شرح المقدمة الحضرمية ص١٠٩، وفتاوى اللجنة الدائمة (المجموعة الثانية) ٥/ ٤٢٤.

(٤) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يتعوذ من الجبن، (٢٦٦٧).

وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[1].

وهذه قصة لطيفة أخرى عرَّفتنا على دعاء مختصر للغاية؛ لكنه جامع جدًّا! فعن جابر بن عبد الله ﷺ، وكذلك عن أبي هريرة ﷺ قالا[2]: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ: «كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟» قَالَ: أَتَشَهَّدُ وَأَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»[3]. وفي هذه القصة القصيرة فوائد جمَّة؛ منها أن الرسول ﷺ يطمئن على أحوال أصحابه التعبدية، وهذا درس لنا أن نسأل بعضنا البعض عن عباداتنا وعلاقاتنا مع الله ﷻ؛ ومنها الدعاء المختصر نفسه، الذي يُلخِّص هدف رحلة الإنسان منذ خلقه وإلى مستقرِّه الأخير الدائم، ومنها روعة هذا الدين الذي يستوعب العظماء والبلغاء والمفكِّرين كما يستوعب البسطاء والعوامِّ، ومنها مكانة معاذ بن جبل ﷺ حيث قرن الرجل بين دعاء معاذ ﷺ ودعاء الرسول ﷺ، ومنها بساطة الرسول ﷺ وتيسيره لأمور الناس؛ حيث لم يُلزِم الرجل بحفظ بعض الأدعية، ومنها رفع الروح المعنوية للرجل حيث أقنعه رسول الله ﷺ أنه هو ومعاذ والرجل نفسه يدعون الدعاء نفسه ولو اختلفت الصيغة، ومنها فوائد أخرى كثيرة، فَصَلِّ اللهمَّ على معلم الناسِ الخيرَ!

وهذه بشرى عظيمة ينقلها إلينا الصحابي مِحْجَنُ بْنُ الْأَدْرَعِ الأسلمي ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ إِذَا رَجُلٌ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا اللهُ بِأَنَّكَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّكَ أَنْتَ

---

(١) النسائي: كتاب التطبيق، نوع آخر من الدعاء، (١٢٢٨)، وأحمد، (١٨٣٥١)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١٩٢٣)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الألباني، انظر: صحيح النسائي، ١/ ٢٨١.

(٢) في رواية أبي داود وأحمد: «عن أبي صالح عن بعض أصحاب النبي ﷺ». وفي رواية لأبي داود: «عن عبيد الله بن مقسم، عن جابر ﷺ». وفي رواية ابن ماجه وابن حبان: «عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ».

(٣) أبو داود: أبواب استفتاح الصلاة، باب في تخفيف الصلاة (٧٩٢)، وابن ماجه (٩١٠)، وأحمد (١٥٩٣٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن حبان (٨٦٨)، والهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزار ١/ ٢٥٦، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٧٧ (٧٥٧).

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ غُفِرَ لَهُ». ثَلَاثًا[١]. وأوضح السندي رحمه الله -في شرحه لسنن النسائي- أنها يمكن أن تكون خاصة بهذا الرجل؛ ولكنها يمكن كذلك -ونرجو ذلك- أن تكون عامَّة للأُمَّة كلها، وأن كل مَنْ قالها تناله المغفرة[٢]، ويُؤَيِّد الرأي الثاني للسندي رحمه الله أن اللفظ ليس فيه تخصيص مباشر للرجل، وبالتالي فيمكن الأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما أن الدعاء اشتمل على صفاتِ الله ﷻ يُرجَى لمن سأل بها أن يُعطيه الله ﷻ؛ وذلك مصداقًا لما رواه بُرَيْدَةَ بن الحصيب الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. قَالَ: فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[٣].

وقريب من الدعاء السابق ما رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَالِسًا، يَعْنِي وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ وَتَشَهَّدَ دَعَا فَقَالَ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ إِنِّي أَسْأَلُكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «تَدْرُونَ بِمَا دَعَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[٤].

ويجوز للمصلي في هذا الموضع من الصلاة بالإضافة إلى كل ما سبق أن يدعو الله بما أحبَّ من الدعاء، وليس بالضرورة أن يتقيَّد بنصٍّ معين ما دام يدعو بخير، وهذا يشمل أمور الآخرة، وكذلك أمور الدنيا الحلال، وقد مرَّ بنا أن الرسول ﷺ قال في أمر الدعاء بعد

---

(١) أبو داود: تفريع أبواب التشهد، باب ما يقول بعد التشهد (٩٨٥)، والنسائي: كتاب التطبيق، نوع آخر من الدعاء، (١٢٢٤)، واللفظ له، وأحمد، (١٨٩٩٥)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والحاكم (٩٨٥)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح النسائي، ١/ ٢٨٠.

(٢) انظر: حاشية السندي على سنن النسائي ٣/ ٥٢، بتصرف.

(٣) أبو داود: باب الدعاء (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، واللفظ له، وقال: حديث حسن. والنسائي (٧٦٦٦)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وأحمد (٢٣٠٠٢)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن حبان (٨٩٢)، والحاكم (١٨٥٨)، وقال: صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢٢٩ (١٣٤١).

(٤) أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، (١٤٩٥)، واللفظ له، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٢٢٣)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وأحمد (١٢٢٢٦)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢٣٣ (١٣٤٢).

التشهد: «ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ فَيَدْعُو»(١). وفي لفظ آخر: «ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ مَا شَاءَ»(٢) وهذه النصوص تُثبت أن الدعاء في الصلاة مشروع بأي صيغة؛ سواء وردت في القرآن والسُّنَّة، أو هي من اختيار المصلِّي بألفاظه. وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْبَيْهَقِيُّ على جواز الدعاء بما تحبُّ بهذا الحديث، وكذلك بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنْ أَرْبَعٍ؛ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»(٣). وَفِي آخره زيادة أخرجها النسائي: «ثُمَّ يَدْعُو لِنَفْسِهِ بِمَا بَدَا لَهُ»(٤). وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ صَحِيحَة لِأَنَّهَا مِنَ الطَّرِيقِ الَّتِي أَخْرَجَهَا مُسْلِم(٥)؛ فالأمر مشروع ومسنون والحمد لله.

ومن أفضل ما ورد كمثال لهذا مَا رَوَاهُ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمُ التَّشَهُّدَ ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عِبَادُكَ الصَّالِحُونَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ بِهِ عِبَادُكَ الصَّالِحُونَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ»(٦).

فهذه كلها أمثلة على الدعاء المسنون بعد التشهُّد، وهو كما وضح لنا ميدان فسيح للغاية للدعاء، ويمكن للمُصَلِّي أن يتدارك فيه ما فاته من أدعية في سجوده، فلا يخرج من صلاته إلا وقد بَلَّغ حاجته كلها إلى ربِّه ﷻ.

ثاني عشر: الدعاء بعد الصلاة:

ورد في أكثر من حديث أن رسول الله ﷺ كان يدعو الله ﷻ بعد فراغه من الصلاة؛ بل

---

(١) سبق تخريجه ص٣٦٤.

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، (٤٠٢).

(٣) سبق تخريجه ص٢٦٥.

(٤) النسائي: كتاب صفة الصلاة (١٢٣٣)، وابن فَرْح: مختصر خلافيات البيهقي، ٢/ ١٤٧، وقال النووي: زاد النسائي، والبيهقي في رواية لهما بإسناد صحيح: «ثُمَّ يَدْعُو لِنَفْسِهِ بِمَا بَدَا لَهُ». انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤٤٢.

(٥) ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٣٢٢.

(٦) مصنف عبد الرزاق ٢/ ٢٠٦ (٣٠٨٢)، وابن أبي شيبة: المصنف ١/ ٢٦٤ (٣٠٢٥)، والطبراني: المعجم الكبير (٩٩٦١)، وصحح إسناده الألباني، انظر: تمام المنة في التعليق على فقه السنة ص٢٢٦.

جعل ذلك من أعظم مواطن الدعاء بشكل عامٍّ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله؛ أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: «جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرِ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ»[١]. وهناك تفصيلات كثيرة في أمر هذا الدعاء، وسيتمُّ مناقشتها بإذن الله في فصل قادم[٢] عند الحديث عن ختم الصلاة.

فهذه هي مواطن الدعاء في الصلاة!

إنها كثيرةٌ كثيرة!

فالصلاة ما هي إلا قرآنٌ وذِكْرٌ ودعاء..

فمَن لم يخشع في دعائه فكأنما أضاع ثلث صلاته!

ثم كيف نلجأ إلى الله ونحن غافلون عنه؟

وكيف نطلب بألسنتنا ما انصرفت أذهاننا عنه؟

ولقد فهمنا من دعاء النبي ﷺ في صلاته -بعد أن جمعناه إلى جوار بعضه البعض- أنه كان منصرفًا في معظمه إلى سؤال المغفرة، وإلى الوقاية من الفتن، وإلى البُعْدِ عن الخطايا والآثام، فهل أدركنا بأيِّ شيء كان رسول الله ﷺ منشغلًا؟ وإلى أيِّ الأهداف كان مُتَّجِهًا؟

إن حاجتنا الأعظم؛ التي نرجوها بصلاتنا وخشوعنا ودعائنا، هي رضا الله والجنة، ولو برزت هذه الحقيقة لنا ما شردت عقولنا في الصلاة، ولصارت هذه الصلاة هي العبادة المُصْلِحة لكل حياتنا؛ ولفهمنا قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأيُّ فحشاء أو منكر يمكن أن نفعله ونحن موصولون صلة حقيقية بالله ﷻ؟!

أكثروا من الدعاء في صلاتكم وخارجها، فإنه العبادة الحقَّة..

واذكروا دومًا قول حبيبكم ﷺ:

«إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[٣]...

* * *

---

(١) الترمذي: كتاب الدعوات (٣٤٩٩)، وقال: حديث حسن. والنسائي (٩٩٣٦)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٤٤١، ٤٤٢ (٣٤٩٩).

(٢) فصل خشوع الختام ص٣٨٦.

(٣) سبق تخريجه ص٣٥٣.





قال الصحابة ﷺ:

السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ..

السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا

السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ..

السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ..

فَنَعُدُّ مِنَ المَلَائِكَةِ مَا شَاءَ اللهُ(١)..

قال رسول الله ﷺ:

لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ. فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا:

«التَّحِيَّاتُ للهِ..

وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ..

السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ

السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ...

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»(٢)..

---

(١) هذه بعض الألفاظ التي ذكرها الصحابة ﷺ، ووردت في روايات مختلفة، ففي رواية البخاري: «السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ». البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، (٨٠٠)، وفي رواية أحمد: «السَّلَامُ عَلَى اللهِ، السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا، السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ». أحمد (٣٩٢٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. وفي رواية البخاري: «السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ». البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب التشهد في الآخرة، (٧٩٧)، وقال الألباني: وللإسماعيلي من رواية علي بن مسهر: فَنَعدُّ الملائكة. ومثله للسراج من رواية محمد بن فضيل عن الأعمش بلفظ: فنعدُّ من الملائكة ما شاء الله. كذا في الفتح. أصل صفة صلاة النبي ﷺ ٣/ ٨٩٣.

(٢) البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ: كتاب صفة الصلاة، باب التشهد في الآخرة، (٧٩٧)، وكتاب صفة الصلاة، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، (٨٠٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، التشهد في الصلاة، (٤٠٢).

للتشهُّد إذن قصة!

ولقد كان الصحابة حريصين على إيصال السلام إلى كل مَلَك؛ فكانوا يَعُدُّون الملائكة في تشهُّدهم؛ فعلَّمهم رسول الله ﷺ هذا السلام الجامع: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ». ثم بشَّرهم بأن هذا السلام يصل إلى كل الملائكة، بل وإلى كل الصالحين من الخَلْق! فقال ﷺ: «فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لله صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[1]!

ولقد كان الرسول ﷺ حريصًا على تعليم الصحابة هذا النصَّ بحذافيره، فلا يكون فيه زيادة أو نقصان، حتى قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ[2]. وكرَّر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الكلمة نفسها فقال: «عَلَّمَنِي رَسُولُ الله ﷺ التَّشَهُّدَ، كَفِّي بَيْنَ كَفَّيْهِ كَمَا يُعلِّمُنِي السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ»[3]. فكل كلمة فيه لها معنى، وكل لفظ فيه لا يقبلُ استبدال غيره به، ولقد كانت الكلمات التي تكلَّم بها الصحابة رضي الله عنهم في بداية الأمر قريبة في المعنى -فيما نظنُّ- مما قاله رسول الله ﷺ بعد ذلك، ومع هذا فإن رسول الله ﷺ لم يقبلها؛ بل وضَّح عدم دِقَّتها؛ ومن ثَمَّ علَّمهم النصَّ الجديد، الذي كُتِب له الخلود إلى يوم الدين، فصار من الضروري لكل مسلم أن يفهم فجوى هذا التشهُّد العظيم؛ خاصَّة أنه ركن من أركان الصلاة لا تصحُّ من دونه، وصار من واجباتنا أن نخشع فيه كما نخشع عند قراءة القرآن، أو عند ترديد الذكر، أو الابتهال بالدعاء.

التَّحِيَّاتُ لله:

لقد رفض رسول الله ﷺ تحية الصحابة لله ﷻ بلفظ: «السَّلَامُ عَلَى الله مِنْ عِبَادِهِ». وفسَّر ذلك بقوله: «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى الله. فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ». فإلقاء السلام على أحدٍ وكأنه دعاء له بالسلامة، والله غنيٌّ عن هذا؛ ولكن الخلق يحتاجون السلام، فحفَّز رسول الله ﷺ المسلمين على إلقاء السلام على بعضهم البعض[4]؛ ولكنه نهاهم عن إلقائه على الله ﷻ؛ فهو

---

(١) الحديث السابق.

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، التشهد في الصلاة، (٤٠٣)، وأبو داود (٩٧٤)، والترمذي (٢٩٠)، والنسائي (٧٦٢).

(٣) البخاري: كتاب الاستئذان، باب الأخذ باليدين، (٥٩١٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، التشهد في الصلاة، (٤٠٢).

(٤) عَنْ أَبِي هريرة رضي الله عنه، أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ». مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، (٥٤)، وأبو داود (٥١٩٣)، والترمذي (٢٦٨٨)، وابن ماجه (٦٨)، وأحمد (٩٠٧٣).

السلام سبحانه، أي هو السالم من النقائص(١)، أو مالك السلام ومعطيه(٢)، أو هو الذي سالَمَ الخلقَ من الظلم أو الجور(٣)، أو هو كل ذلك معًا؛ فصار إلقاء السلام عليه نوعًا من الانتقاص؛ لهذا رفضه رسول الله ﷺ، واستبدل به لفظ: «**التحيَّات لله**»..

والتحيَّات جمع تحيَّة؛ والتحيَّة هي التعظيم والترحيب الذي يُقَدَّم إلى الناس عامَّة أو إلى الملوك خاصَّة، ولكل مَلِكٍ تحيَّة تخصُّه دون غيره، ولـمَّا كانت أيُّ تحيَّةٍ مهما كانت لا تكفي الله ﷻ جاء اللفظ جامعًا: «**التحيَّات لله**». بمعنى أن كل التحيَّات المستحَقَّة للملوك أنت أولى باستحقاقها، وكلُّ التحيات التي نعرفها أو لا نعرفها مستحَقَّة لك، فكان الإبهام بذلك فيها أعظم من التصريح.

وإذا كان الأمر كذلك فإن خشوعنا أمام ملك الملوك سبحانه يجب أن يكون أعظم من رهبتنا عند الوقوف أمام مِلِك من ملوك الدنيا؛ بل أعظم من وقوفنا أمام ملوك الأرض جميعًا، والنصُّ الذي أَمَرَنا رسول الله ﷺ بقوله، وهو: «**التحيَّات لله**»، يُلقي هذه الظلال ويُؤَكِّدها، وهذا ينبغي أن نستشعره تمامًا ونحن جلوس أمامه سبحانه.

وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ..

فكما أن التحيات العظيمة نُقَدِّمها لله ﷻ، فإننا نُقَدِّم له سبحانه هذه الصلاة التي نُصَلِّيها، وكل الصلوات الأخرى في حياتنا، فنحن لا نُصَلِّي إلا له، ولا نعبد إلا إياه، وإخلاصنا في هذا العمل هو الذي يضمن لنا قبوله من الله؛ فقد روى أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**». فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**». ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»(٤). فهذا في الجهاد الذي يُخاطر فيه المرء بنفسه وماله، فهو كذلك -ولا شكَّ- في كل العبادات، وفي مقدِّمتها الصلاة.

وكما نُقَدِّم الصلوات لله ﷻ فإننا نُقَدِّم له الطيبات كذلك؛ فهو سبحانه طَيِّبٌ في ذاته، ولا

---

(١) انظر: النووي: المنهاج ٤/ ١١٦.

(٢) البيضاوي: تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ١/ ٣٠٣.

(٣) انظر: ابن عاشور في التحرير والتنوير في تفسير قوله تعالى: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣] ٢٨/ ١٢٠.

(٤) النسائي: كتاب الجهاد، مَنْ غزا يلتمس الأجر والذكر (٤٣٤٨)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٥٢).

يقبل إلا العمل الطيب من عباده، ويجمع ذلك قول النبي ﷺ برواية أبي هُرَيْرَةَ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»(١). فنحن نقول لله ﷻ كما أن هذه الصلاة لك وحدك فإن كل أعمالنا الطيبة من عبادة، أو نفقة، أو معاملة، فهي كلها خالصة لك كذلك.

وذَكَرَ رسولُ الله ﷺ «الصلوات» في البداية مع أنها من جملة «الطيبات»؛ لأنها المحل الذي حدثت فيه المناجاة، ولفضلها على سائر الطيبات..

السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ:

نَصُّ التشهُّد من الله ﷻ، وإن كان المُعلِّم له هو رسول الله ﷺ؛ فالشريعة كلها وحيٌ من عند الله الحكيم سبحانه، فكان منها ما هو من كلام الله نفسه، وهو القرآن، وكان منها ما أوحى الله به إلى عبده ورسوله محمد ﷺ، وهو السُّنَّة؛ ولذلك فالله ﷻ -في الحقيقة- هو الذي أمرنا أن نُسَلِّم على رسوله ﷺ بعد أن قَدَّمنا التحيَّات له سبحانه، وهذا تكريمٌ عظيم لنبيِّنا الكريم ﷺ.

صار التشهُّد بعد تقديمنا للتحيات لله ﷻ والسلام لرسول الله ﷺ إعلانًا غير مباشر من المُصَلِّي بأنه مسلم صحيح الإيمان؛ فالمسلم لا يكون مسلمًا إلا بعد الإيمان بالله ورسوله، وسيأتي بعد قليل في التشهُّد إعلان مباشر بالإيمان بهما عندما ينطق المُصَلِّي بشهادة التوحيد صريحة، فكأنَّ التشهُّد بذلك هو تقرير دوريٌّ يُقَدَّم إلى ربِّ العالمين نُؤَكِّد فيه أننا ما زلنا على عهد الإيمان.

والسلام على رسول الله ﷺ هو نوع من التكريم العظيم لسيد البشر ﷺ، وفيه معانٍ في غاية اللطف! يكفي بعضها لتحقيق الخشوع، فلنتخيل الظلال اللانهائية التي تُلقيها كلمة «السلام»، فبادئ ذي بدء فإن السلام هو الله ﷻ نفسه؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»(٢). فهذا يعني أنَّ سلام الله على الرسول ﷺ هو بالحفظ والرعاية، والتكريم والتبجيل، وكذلك يمكن أن يكون المعنى هو التسليم على رسول الله من المُصَلِّين، والدعاء له

(١) مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد (٨٣٣٠)، والدارمي (٢٧١٧).

(٢) سبق تخريجه.

بالسلامة في الآخرة، فإنَّ دعاء الرسل أثناء عبور الناس الصراط: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»[١]. وقد يكون المقصود هو السلام على شرعه وما تركه لنا من دِينٍ، وقد يكون كل ذلك أو فوقه من المعاني الجليلة.

وقد ناقش العلماء مسألة إلقاء السلام على رسول الله ﷺ بصيغة المخاطَب: «عَلَيكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ». ولماذا جُعِلَت هكذا مع أن الرسول ﷺ لم يَعُدْ بين أظهرنا، ورأى بعضهم أن الأَوْلى في التشهُّد بعد وفاة الرسول ﷺ أن نقول: «السلام على النبيِّ». بدلًا من قول: «السلام عليك أيها النبيُّ». ومن هؤلاء العلماء الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ، فقد قال: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَفِّي بَيْنَ كَفَّيْهِ التَّشَهُّدَ، كَمَا يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ: «التَّحِيَّاتُ للهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا، فَلَمَّا قُبِضَ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ[٢]. ومع ذلك فروايات التشهُّد كلها تنصُّ على صيغة المخاطَب كاملة؛ لهذا اتفق الفقهاء الأربعة عليها، وكان ما قاله عبد الله بن مسعود ﷺ هو اجتهاد منه، ولم يُقِرُّه عليه جلُّ الصحابة، والواقع أن رسول الله ﷺ كان يعلم أنه سيموت يومًا من الأيام، وقد قال الله ﷻ له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ومع ذلك فقد علَّمنا هذه الصيغة؛ فهي أَوْلى بالاتباع، بالإضافة إلى معنى آخر دقيق وهو أننا في الحقيقة نخاطِب رسول الله ﷺ فعلًا عندما نُلقي عليه السلام، فليس خطابنا له كخطابنا لميت من الموتى؛ لأن الله ﷻ يردُّ عليه روحه على الحقيقة فيردُّ هو بنفسه -ﷺ- علينا السلام! وقد روى أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ أنه قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ ﷻ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»[٣].

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، (٦٢٠٤)، عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (١٨٢).

(٢) البخاري: كتاب الاستئذان، باب الأخذ باليدين، (٥٩١٠)، وأحمد (٣٩٣٥)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو يعلى (٥٣٤٧)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٣) أبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٢٠٤١)، وأحمد (١٠٨٢٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤٤٠، ٤٤١، وقال ابن حجر: وأخرجه أبو داود... ورجاله رجال الصحيح. انظر: نتائج الأفكار ٤/ ٢٣، وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٦/ ٢٨١.

وقال أيضًا فيما رواه عَبْدُ الله بنُ مسعود ﷺ: «إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»(١). فصار السلام بصيغة المخاطَب ضروري، وعلينا ونحن نتلفَّظ بهذه الألفاظ أن نتخيَّل حضور رسول الله ﷺ لصلاتنا، وسماعه السلام، ثم ردَّه علينا، وهذا كفيل بزيادة الخشوع وتمكُّنه من القلب، ولعلَّه ينقلنا إلى الأجواء التي نشعر بها ونحن وقوفٌ أمام قبره ﷺ في المدينة، وهذا من أبلغ وسائل استحضار الخشوع.

ثم لاحِظْ أن السلام على رسول الله ﷺ في التشهُّد كامل، فنحن نقول: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ». وقد قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، فالرسول ﷺ سيردُّ علينا ردًّا كاملًا أو أحسن! فيا لسعادتنا بهذا الردِّ، ويا لفوزنا إن كنَّا نعيش هذه المعاني!

السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ:

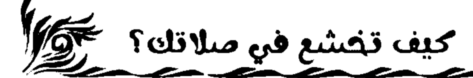
لم يقبل رسول الله ﷺ ما قاله الصحابة ﷺ في تشهُّدهم من السلام على أعيان الملائكة، كجبريل وميكائيل عليهما السلام؛ بل علَّمهم وعلَّمنا ما هو أفضل من ذلك، فقال: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ». وهذا حقَّق مرادَ الصحابة وزيادة؛ فالصحابة يؤمنون بالملائكة ويحبونهم ويُريدون السلام عليهم، فكانت صياغة السلام النبوية شاملة لهؤلاء الملائكة الكرام؛ لأنهم من عباد الله الصالحين؛ وقد قال تعالى في وصفه للملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]؛ ولكن الصياغة النبوية الكريمة شملت ما هو أكثر من ذلك؛ فقد شملتنا نحن المُصَلِّين، وكذلك عموم الصالحين من الإنس والجنِّ والملائكة، أو بتعبير رسول الله ﷺ: «فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لله صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». وهو أعظم وأشمل، وهذا بلا ريب من جوامع كلمه ﷺ؛ لهذا علَّق عبد الله بن مسعود ﷺ على هذه الصياغة الموجزة البليغة بقوله: «وَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عُلِّمَ فَوَاتِحَ الخَيْرِ وَخَوَاتِمَهُ»(٢).

ثم إن رسول الله ﷺ علَّمنا في هذه الصياغة النبوية الجميلة أن نبدأ بأنفسنا في الدعاء قبل

---

(١) النسائي: كتاب صفة الصلاة، التسليم على النبي ﷺ بأبي هو وأمي (١٢٠٥)، وأحمد (٤٢١٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. والدارمي (٢٨١٦)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي ١/ ٤١٠ (١٢٨١).

(٢) النسائي: كتاب التطبيق، التشهد الأول (٧٤٩)، وابن حبان (١٩٥١)، والطبراني: المعجم الكبير (٩٩٣٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي ١/ ٣٧٨ (١١٦٢).



ذكر الآخرين، ومَرَدُّ ذلك أن الإنسان مجبولٌ على حبِّ نفسه، فلو بدأ بنفسه كان في الدعاء أخشع؛ لأنه سيرحم نفسه بصدق، ويتمنَّى لها الخير بحقٍّ، كما أن فيه التواضع والخضوع؛ حيث يُعلِن المُصَلِّي أنه محتاج إلى السلام، فقيرٌ إليه، ولو ذَكَرَ الناسَ دون نفسه فكأنه يفترض أنه أعلى وأفضل منهم ولا يحتاج إلى ما يحتاج الناس إليه من الدعاء؛ لذا كان من سُنَّته ﷺ أنه كثيرًا ما كان يبدأ بالدعاء لنفسه قبل أن يدعو إلى غيره، وقد رَوى أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ، «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا فَدَعَا لَهُ بَدَأَ بِنَفْسِهِ»[1].

ومثال ذلك ما رواه أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ -أيضًا- عن رسول الله ﷺ في قصة موسى ﷺ مع الخضر ﷺ؛ فقد قال:.. «فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ هَذَا المَكَانِ: «رَحْمَةُ الله عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْلَا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ[2]، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ». قَالَ: وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ: رَحْمَةُ الله عَلَيْنَا وَعَلَى أَخِي كَذَا..»[3].

وقد رأينا في القرآن مثل هذا السلوك كثيرًا؛ فقد دعا نوح ﷺ قائلًا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، ودعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، ودعا موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، فهذا هو الأسلوب الأمثل في الدعاء، وهو ما نفعله في التشهُّد.

وفي هذا الدعاء العظيم لا نكتفي بحبِّ الخير لأنفسنا، ولا حتى نكتفي بالدعاء لمَنْ نحبُّ، بل ندعو لكلِّ عباد الله الصالحين؛ وبهذا نتعلَّم حبَّ الخير لكل المؤمنين، كما أننا نؤجر على هذه العاطفة أجرًا عظيمًا، وقد روى عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً»[4]. وليس

---

(١) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء أن الداعي يبدأ بنفسه (٣٣٨٥)، وقال: حديث حسن غريب صحيح. والنسائي (١١٣١٠)، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٣٩٠ (٣٣٨٥).

(٢) أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ: أَيِ اسْتِحْيَاءٌ لِتَكْرَارِ مُخَالَفَتِهِ، وَقِيلَ: مَلَامَةٌ. وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشْهُورُ. انظر: النووي: المنهاج ١٥/ ١٤٥.

(٣) مسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر ﷺ، (٢٣٨٠).

(٤) الطبراني: مسند الشاميين، (٢١٥٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وإسناده جيد. انظر: مجمع الزوائد ١٠/ ٢١٠، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ١٠٤٢.

دعاؤنا في التشهُّد للمؤمنين والمؤمنات من البشر فقط؛ بل يتعدَّى ذلك إلى ما لا يَعلم عددَه إلا الله من الجنِّ والملائكة، فهل استوعبنا ما يمكن أن نُحَصِّله من أجر عند دعائنا «لكل» عباد الله الصالحين بالسلام؟!

ثم إن هناك معنًى آخر في غاية الروعة في هذا الدعاء، وهو أننا داخلون في دائرة هذا الدعاء إن كنا صالحين، بمعنى أن كل المُصلِّين في الأرض يدعون لنا بالسلام إن كنا نتصف بالصلاح، فكم هو مذهلٌ أن نتصوَّر أن الجالسين للتشهُّد في مكة والمدينة، وفي إندونيسيا والمغرب، وفي اليابان وأميركا، وفي كل بقعة من بقاع الدنيا، يَصِلون إلينا بسلامهم، ويدعون لنا بالسلامة والأمان في الدنيا والآخرة!

إن هذا أمر مذهلٌ حقًّا!

لكن يُشْتَرَط لتحقيقه أن نكون حقًّا من الصالحين، والصالحون هم القائمون بما يجب عليهم من حقوق الله ﷻ، وحقوق العباد، وهم المتوجِّهون بأعمالهم دومًا إلى الله ﷻ، وهم المتَّبعون لرسول الله ﷺ في سُنَّته وطريقته، فالأمر ليس مجرَّد لحظة خشوع عاشها المُصلِّي أو الذاكر، إنما هو في الواقع منهج حياة، وتحقيقه يحتاج إلى مثابرة ومصابرة، والصلاة الخاشعة أحد أهم الطرق للوصول إلى درجة الصلاح المرجوَّة.

فائدة عجيبة:

قَالَ الْقَفَّالُ[1] فِي فَتَاوِيهِ: تَرْكُ الصَّلَاةِ يَضُرُّ بِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ الْمُصَلِّيَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ[2]. وَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ فِي التَّشَهُّدِ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ. فَيَكُونُ مُقَصِّرًا بِخِدْمَةِ اللهِ، وَفِي حَقِّ رَسُولِهِ، وَفِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَفِي حَقِّ كَافَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِذَلِكَ عُظِّمَتِ الْمَعْصِيَةُ بِتَرْكِهَا! وَاسْتَنْبَطَ مِنْهُ السُّبْكِيُّ أَنَّ فِي الصَّلَاةِ حَقًّا لِلْعِبَادِ مَعَ حَقِّ اللهِ، وَأَنَّ مَنْ تَرَكَهَا أَخَلَّ بِحَقِّ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ مَضَى وَمَنْ يَجِيءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،

---

(١) القفال: هو محمد بن علي بن إسماعيل القفال أبو بكر الشاشي، (٢٩١-٣٦٥هـ)، وهو القفال الكبير، كان إمام عصره في بلاد ما وراء النهر، فقيهًا محدِّثًا، مفسِّرًا، أصوليًّا، لغويًّا، شاعرًا، لم يكن للشافعية في بلاده مثله في وقته، رحل إلى خراسان والعراق والشام، وصنَّف في التفسير والأصول والفقه، من مؤلفاته: شرح الرسالة، ودلائل النبوة، ومحاسن الشريعة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٨٣- ٢٨٥، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٢٠٠- ٢٢٢.

(٢) أي أنه قد يدعو في سجوده أو قنوته للمؤمنين والمؤمنات، فلو ترك الصلاة فَوَّت عليهم هذه الفرصة!

لِوُجُوبِ قَوْلِهِ فِيهَا: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ(١).

فانظر إلى عمق نظرة علمائنا الأجلاء، ولقد شعرتُ -للمرة الأولى في حياتي- بعد قراءة الفائدة السابقة أن المجتمع كله سيُعاني إن ترك بعضُه الصلاة، فصارت بذلك مهمَّة حثِّ الناس على الصلاة ودعوتهم إليها مهمَّة مجتمعية ينبغي لكلِّ المسلمين أن يتكاتفوا ليقوموا بها!

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ:

هذه هي اللحظة المجيدة الرائعة التي يُطلق فيها المُصَلِّي أفضل كلمة من الممكن أن يقولها إنسان! وهي كلمة التوحيد، وهذا هو الموضع الوحيد في الصلاة الذي تُقال فيه هذه الكلمة الخالدة، ويكفي لكي تخشع فيها وتسمو نفسُك أن تتدبَّر في ثلاثة معانٍ جميلة وأنت تُطلق هاتين الشهادتين:

أما المعنى الأول؛ فهو أنك تقول الآن ما صرَّح رسول الله ﷺ من أنه أفضل كلام الأنبياء والمرسلين، وهم صفوة الله من خلقه؛ حيث قال -كما رَوى عبدُ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما-: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(٢). وفي رواية عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»(٣). فأنت بهذا التوحيد الخالص تُلْحِق نفسك بمسيرة الأنبياء الكرام، فهذا أفضل ما قالوه، وأنت تقوله الآن، فهنيئًا لك!

وأمَّا المعنى الثاني الذي يجلب لك الخشوع إذا فكَّرت فيه وأنت تُطلق الشهادتين، فهو أنك قد قمت الآن بما يُكفِّر عنك ما لا يعلمه إلا الله من الخطايا، ويكفيك أن تتدبَّر فقط في حديث البطاقة المشهور؛ حيث قال عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٣١٧، وانظر فتوى القفال الشاشي في ترك الصلاة في فتاوى القفال المروزي ص ٧٩. والقفال نسبة إلى عمل وصناعة الأقفال، اشتهر بها القفال الكبير الشاشي. وأبو بكر عبد الله بن أحمد المروزي الفقيه، وكان يقال له: القفال الصغير. انظر: السمعاني: الأنساب ١٠/ ٤٧٠.

(٢) الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة (٣٥٨٥)، وحسنه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٥٠٣).

(٣) الموطأ (٥٠٠)، والبيهقي: السنن الكبرى (٨٦٥١)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٠٣).

سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»[(١)]! فلو خطَرَ هذا بذهنك فكيف لا تخشع؟!

والمعنى الثالث هو اطمئنانك إلى أنك لو فارقت الحياة في هذه اللحظة فارقتها إلى الجنة! فهي فرصة متكرِّرة عدَّة مرَّات كل يوم وليلة، فأنت تقولها تسع مرات على الأقل كل يوم في تسع تشهُّدات (واحد في الصبح، واثنين في كل صلاة مكتوبة بعد ذلك)، هذا فضلًا عن التشهُّدات في صلوات النوافل، ودليل ذلك ما ورد عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[(٢)]. بل أعجب من ذلك وأروع ما رواه الصُّنَابِحِيُّ[(٣)] عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَهْلًا لِمَ تَبْكِي؟ فَوَاللهِ لَئِنِ اسْتُشْهِدْتُ لَأَشْهَدَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ شُفِّعْتُ لَأَشْفَعَنَّ لَكَ، وَلَئِنِ اسْتَطَعْتُ لَأَنْفَعَنَّكَ. ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا مِنْ حَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ لَكُمْ فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا حَدَّثْتُكُمُوهُ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، وَسَوْفَ أُحَدِّثُكُمُوهُ الْيَوْمَ وَقَدْ أُحِيطَ بِنَفْسِي، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ»[(٤)]! وقد خشي عبادة بن الصامت ﷺ أن يُحدِّث بالحديث في حياته لئلَّا يتَّكل الناس عليه فلا يعملون، ثم

---

(١) الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٦٩٩٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي. وابن حبان (٢٢٥)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والحاكم (٩)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٣٥).

(٢) أبو داود: كتاب الجنائز، باب في التلقين (٣١١٦)، والحاكم (١٢٩٩)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ١١٠٥.

(٣) هو: أبو عبد الله عبد الرحمن بن عُسَيْلَة المُرَادِيُّ الصنابحي، وَالصُّنَابِح بطن من مراد، وهو تابعي جليل، رحل إلى النبي ﷺ، فَقُبِضَ النبي ﷺ وهو في الطريق، وهو بِالْجُحْفَةِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ بخمس ليال أو ست، فسمع أبا بكر الصديق وخلائق من الصحابة ﷺ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٠٥، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ١١٧.

(٤) مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، (٢٩)، والترمذي (٢٦٣٨)، وأحمد (٢٢٧٦٣).

ذكره عند موته تأثُّمًا من كتمانه؛ وهي بشارة كبرى لكل الموحِّدين، ولو تدبَّرت فيها عند قولك للشهادتين في التشهُّد فلا شكَّ أنها سترفع درجة خشوعك للسماء!

كان كل ما سبق من أقوال يُكوِّن ما يُعْرف بالتشهد الأوسط، وهو ما يقال في وسط الصلاة بعد أول ركعتين في الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم يأتي التشهد الأخير، وهو الذي نختم به أي صلاة، وهو التشهُّد الأوسط نفسه مضافًا إليه الصلاة على رسول الله ﷺ بالصيغة التي علَّمنا إياها، وهي المعروفة في كتب الفقه «بالصلاة الإبراهيمية».

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ[1]:

لهذه الصياغة قصة!

كان الصحابة ﷺ حريصين على تحرِّي الصواب الكامل في تعاملهم مع رسول الله ﷺ، وكانوا في غاية الأدب والتوقير؛ وذلك إلى الدرجة التي كانوا يسألونه فيها عن الطريقة الأنسب لتوقيره ﷺ! ولا يتركون ذلك للاجتهادات الخاصة، ولا يتعلَّلون بأن نواياهم في توقيره صادقة، إنما يبحثون -إلى جوار النية- عن الوسيلة الأفضل للثناء على رسول الله ﷺ أو احترامه، خاصة أن الله ﷻ قد أمرهم بهذا التوقير والإجلال، وحذَّرهم من التعامل معه كما يتعاملون مع بعضهم البعض، فقال: **﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾** [النور: ٦٣]، ثم إنه سبحانه قد أمرهم في القرآن الكريم بالصلاة والسلام عليه فقال: **﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٥٦]، والصحابة قد أدركوا طريقة السلام على رسول الله ﷺ، وهي الطريقة الموجودة في نصف التشهد الأول: **«السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»**؛ ولكنهم لا يدرون كيف تكون الصلاة، فنتج هذا الموقف الذي عرفنا فيه النصف الثاني من التشهد!

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﷺ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: **«قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ،**

---

(١) سبق تخريجه عن كعب بن عجرة ﷺ ص٣٦٣.

إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله هَذَا التَّسْلِيمُ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»[1]. وفي رواية: «عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»[2]. وفي رواية: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ»[3].

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ ، قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ : أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ، حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ»[4].

وعن أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ ، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[5].

فهذه صيغ مختلفة للصلاة على رسول الله ﷺ، وكلها تصلح للذِّكْرِ في التشهُّد، وإن كانت الصورة الأولى هي أكثرهم شيوعًا وكمالًا، وعليها كثير من الفقهاء[6].

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، سورة الأحزاب، (٤٥٢٠).

(٢) البخاري: كتاب التفسير، سورة الأحزاب، (٤٥٢٠).

(٣) البخاري: كتاب التفسير، سورة الأحزاب، (٤٥٢٠)، وأحمد (١١٤٥١)، وأبو يعلى (١٣٦٤).

(٤) مسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، (٤٠٥).

(٥) البخاري: كتاب الدعوات، باب هل يصلي على غير النبي ﷺ، (٥٩٩٩).

(٦) ذهب الحنفية والمالكية إلى أن الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير سنة، وعند المالكية خلاف في أن المشهور: هل هي سنة أو فضيلة؟ وأفضل صيغ الصلاة على النبي ﷺ عند الحنفية هي: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ في العالمين إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. وهي -أيضًا- أفضل صيغ الصلاة عند المالكية لكن بحذف (إنك حميد مجيد) الأولى. وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد الأخير ركن... وقد أخذ الحنابلة بصيغة حديث كعب بن عجرة -أي نفس الصورة التي أقرَّها الحنفية والمالكية- وهي أفضل الصيغ عندهم، ولكن يتحقَّق ركن الصلاة على النبي ﷺ بقول: (اللهم صل على محمد). وصرَّحوا بأنه لا يجوز إبدال آل بأهل؛ لأن أهل الرجل أقاربه أو زوجته، وآله أتباعه على دينه. وقال الشافعية: أقل الصلاة على النبي ﷺ: =

وبصرف النظر عن الصيغة المختارة فإنها في النهاية صلاة على رسول الله ﷺ..

ولو أدركت قيمة هذه الصلاة وفوائدها ما انصرف ذهنك أبدًا عند ذكرها، ويكفي أن تتذكَّر بعض هذه الفوائد المُحَصَّلة حتى يزداد خشوعك فيها:

أن تشعر أولاً أنك قد تلقَّيْتَ هدية عظيمة بهذه الصلاة التي صلَّيْتَها على رسول الله ﷺ! وهذا هو المعنى الذي علَّمنا إياه الصحابي الجليل كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ ﷺ، فقد قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى[1]: لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ ﷺ فَقَالَ: أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقُلْتُ: بَلَى فَأَهْدِهَا لِي. فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله؛ كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[2].. فهذه هدية رائعة، وهي في واقع الأمر هدية مزدوجة! فهي أولًا هدية منَّا إلى رسول الله ﷺ جزاء ما قدَّم لنا من حبٍّ وجهد وتضحية وعطاء، ونحن لا نَقْدِر على مكافئته؛ لذا نطلب من الله ﷻ أن يُصَلِّيَ هو عليه، وثانيًا هي هدية لنا أنفسنا؛ حيث إن للصلاة على رسول الله ﷺ أجرًا عظيمًا لعلَّ بعضه يظهر في الأحاديث القادمة!

وثانيًا: قال أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ اذْكُرُوا اللهَ اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**». قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله؛ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ:

=اللهم صل على محمد وآله. في التشهد الأخير، والسنة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٧/ ٩٧-٩٨. وقال الجزيري: وقد زاد متأخرو الشافعية لفظ السيادة، فيقول: سيدنا محمد، وسيدنا إبراهيم. انظر: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٤١. وللمزيد انظر: الكاساني: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ٢١٢، ٢١٣، الحطاب الرعيني: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل ١/ ٥٤٣، والنووي: المجموع شرح المهذب ٣/ ٤٦٣ - ٤٦٩، ١١٤، والبهوتي: كشاف القناع عن متن الإقناع ١/ ٣٥٨.

(١) هو: أبو عيسى عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الكوفي، من أئمة التابعين، وُلد في خلافة أبي بكر ﷺ وقيل: في خلافة عمر ﷺ، أدرك مائة وعشرين من الصحابة وحدَّث عنهم، وصحب عليًّا ﷺ، وشهد النهروان معه، وكان من كبار مَنْ خرج على الحجاج بن يوسف الثقفي، ومات بوقعة دير الجماجم سنة ٨٢هـ، وقيل: سنة ٨٣هـ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٢ - ٢٦٧.

(٢) سبق تخريجه ص٣٦٣.

«مَا شِئْتَ». قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: النِّصْفَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: «إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ»(١). فلو كنتَ في حاجة إلى هذا فتَدَبَّر!

وثالثًا: فإن الصلاة على رسول الله ﷺ لها أجرٌ ثقيلٌ ثقيل! فقد روى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»(٢). فأنت تُصَلِّي عليه، فيكون الجزاء أن يُصَلِّيَ اللهُ عليك! وأنت تُصَلِّي واحدة والله الكريم يُصَلِّي عليك عشرًا! وصلاة الله ﷻ علينا رحمة، فوق ما فيها من تشريف وتكريم.

ورابعًا: نحن في صلاتنا على رسول الله ﷺ نُنفِّذ أمرًا ربانيًّا ورغبةً نبويَّة؛ فالله ﷻ أمرنا بالصلاة على رسول الله فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ورغبة الرسول ﷺ في ذلك واضحة في أكثر من موقف؛ منها ما رواه عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»(٣). فها هو يطلب الصلاة عليه، فلو أحسسنا بهذا الأمر الرباني، وهذه الرغبة النبوية، زاد خشوعنا في الصلاة لا محالة.

وخامسًا وأخيرًا: تَذَكُّر مسيرة النبي الكريم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومكانته السامقة؛ حيث نطلب في صلاتنا من الله ﷻ أن يجعل الصلاة والبركة على رسول الله ﷺ وآله مثلَ التي جعلها سبحانه على إبراهيم عليه الصلاة والسلام وآله، وفي هذا تشريف لكلا النبيَّيْنِ صلوات الله وسلامه عليهما وعلى إخوانهم من الأنبياء والمرسلين.

---

(١) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح. والحاكم (٣٥٧٨)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٤/ ١٥، ١٦، وحسنه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٢/ ٥٩٠ (٢٤٥٧).

(٢) سبق تخريجه ص٣٦٤.

(٣) سبق تخريجه ص١٣٩.

بهذا ينتهي التشهُّد، وبعده -كما مرَّ بنا في فصلٍ سابق[١]- نتخيَّر من الدعاء أعجبه إلينا فندعو الله به، ثم بعد ذلك نُسَلِّم عن اليمين والشمال؛ لحديث عَبْدِ الله بن مسعودٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ «كَانَ يُسَلِّمُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ يَسَارِهِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله»[٢].

وبذلك تنتهي الصلاة!

هذا هو التشهُّد العظيم!

تعظيمٌ لربِّ العالمين..

تكريمٌ لسيد المرسلين..

تشريفٌ لعباد الله الصالحين..

وصدق كعب بن عجرة ﷺ حين وصف التشهد لصاحبه بالهديَّة فقال:

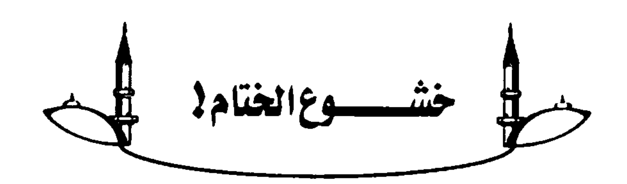
أَلَا أُهْدِي لَكَ «هَدِيَّةً» سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟! ثم أقبل عليه يعلِّمه!

* * *

---

(١) انظر فصل «يا رب» ص٣٥٢.

(٢) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ماجاء في التسليم في الصلاة (٢٩٥)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (١٢٤٧)، وأحمد (٣٦٩٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ١/ ١٧٣، ١٧٤ (٢٩٥)، وراجع تفصيل الحديث عن السلام بعد انتهاء التشهد ص٢٥٢، ٢٦٥ من هذا الكتاب.



عَضّ الشيطان على أنامله من الغيظ!

هذا المسلم لم يكتفِ بالصلاة؛ إنما يُريد أن يذكر اللهَ بعدها أيضًا!

التسبيحة حسنة، والتحميدة حسنة، والتكبيرة حسنة، والتهليلة حسنة..

والحسنة بعشر أمثالها كما وعده اللهُ!

ماذا لو قالها جميعًا؟

أو حتى قال بعضها؟

قال الشيطان:

لا بُدَّ من بذل الجهد لصرف هذا المسلم عن ختم صلاته!

ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

آه.. وجدتُها! إنها فكرة عظيمة.. فكرة شيطانية حقًّا!!

أُذَكِّرُه بأمور مهمَّة كان قد نسيها، وأُحَمِّسُه على فعلها بمجرَّد التسليم من الصلاة!

أيها المُـصَلّي:

اذكُر موعد كذا وكذا..

واذكر -أيضًا- الهاتف الذي كنتَ تُريد الاتصال به..

وزوجتُك طلبت منك كذا وكذا.. اتصل بها لتعرف تفاصيل ما تُريد..

وأبوك وأمك..

وأخوك وأختك..

ورئيسك في العمل.. وصاحبك في النادي..

وبرنامجٌ في التلفاز سيبدأ بعد قليل.. وضجَّةٌ في الشارع لا تعرف سببها..

ولا تنسَ أن تُنبِّه فلانًا.. وأن تُعَزِّي فلانًا.. وأن تُبارك لفلان..

هذه واجبات اجتماعية مهمَّة.. إيَّاك أن تهملها!

و... و... و...

هذا رائع! عملٌ شيطانيٌّ متكامل!

لقد أتيتُه مِن بين يديه ومِن خَلْفه، وعن يمينه وعن شماله..

لا أشكُّ في أن هذا المُـصَلّي سيقوم من مصلاه بمجرَّد التسليم!!

ليست الصورة التي نقلتُها في السطور السابقة بعيدة عن الواقع؛ فقد نقل لنا رسول الله ﷺ هذه الأحداث الغيبية، وأوضح لنا كيف يُفَكِّر الشيطان، وكيف يسعى لتحقيق مراده؛ فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «خَلَّتَانِ لَا يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلَا وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ: يُسَبِّحُ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُهُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا». قَالَ: فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ، قَالَ: «فَتِلْكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ تُسَبِّحُهُ وَتُكَبِّرُهُ وَتَحْمَدُهُ مِائَةً، فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ، فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَمِائَةِ سَيِّئَةٍ»؟ قَالُوا: فَكَيْفَ لَا نُحْصِيهَا؟ قَالَ: «يَأْتِي أَحَدَكُمُ الشَّيْطَانُ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، حَتَّى يَنْفَتِلَ(1)، فَلَعَلَّهُ أَلَّا يَفْعَلَ، وَيَأْتِيهِ وَهُوَ فِي مَضْجَعِهِ، فَلَا يَزَالُ يُنَوِّمُهُ حَتَّى يَنَامَ»(2)!

هذه هي الخطة الشيطانية!

وتبدو هذه الخطة واضحة في أكمل صورها عندما يهمُّ المسلم بذِكْرِ الله ﷻ؛ لأن أحدَ أكبرِ المجالات التي يسعى الشيطان لصرف المسلم عنها مجال «ذِكْر الله ﷻ»؛ فلقد قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وحيث إن ختام الصلاة ما هو إلا ذِكْرٌ لله فإن الشيطان يكون في أنشط حالاته في هذا التوقيت.

والحقُّ أن ختام الصلاة عملٌ جليلٌ كبير، إذا أحسن المسلمُ أداءه فإنه يُحَقِّق له نقلة نوعية

---

(١) يَنْفَتِلَ؛ أيْ: يَنْصَرِفَ عَنِ الصَّلَاةِ. انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي ٩/ ٢٥٢، وفتلتُ الرجل عن وجهه فانفتل؛ أي: صرفته فانصرف، قال الجوهري: هو قلب لفت، والانصراف أعمُّ من الانفتال؛ لأن الانفتال لا بُدَّ فيه من لفتة بخلاف الانصراف، فإنه يكون بلفتة وبغيرها. انظر: الشنقيطي: كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري ٩/ ٤٤٢.

(٢) الترمذي: كتاب الدعوات، باب من باب ما جاء في التسبيح والتكبير والتحميد عند المنام (٣٤١٠)، واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح. وأبو داود (٥٠٦٥)، والنسائي (١٢٧١)، وابن ماجه (٩٢٦)، وأحمد (٦٩١٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وصححه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٢٧٩، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٤٠٠، ٤٠١ (٣٤١٠).

بكل المقاييس! وعلى أكثر من مستوى!

إنه يُحقق حسنات هائلة، ويرفع درجات كثيرة..

وهو يمحو سيئات كبيرة، ويغفر خطايا مُهلكة..

ويستجلب حبَّ الله ورضاه..

ويورث حبَّ رسول الله ﷺ وشفاعته..

ويحفظ المسلم في حياته..

ويُنير له طريقه..

ويشرح له صدره..

ويحافظ على الخشوع والإيمان، ويصل بنا إلى درجة الإحسان..

هذا هو ختام الصلاة!

وأذكار الختام كثيرة، وكان رسول الله ﷺ يحرص على ترديد بعضها دبر الصلوات المكتوبات، وكان يُلَقِّنها للصحابة تلقينًا، ويحرص على أن يحفظوها بنصِّها، وسنتناول في هذا الفصل جلَّ هذه الأذكار، وعلى المسلم أن يختار منها في كل صلاة ذِكرًا أو أذكارًا، فيتحقَّق له في مجموع صلوات اليوم الخير الكثير الموجود في هذه الأذكار جميعًا.

أولاً: الاستغفار ثلاثًا:

كان أول أعماله ﷺ إذا انتهى من صلاته أن يستغفر الله ﷻ؛ فقد قال ثَوْبَانُ ﷺ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا..»[1]. ولقد سألَ الْوَلِيدُ بن مسلم -وهو من رواة الحديث- الْأَوْزَاعِيَّ ﷺ فقال: كَيْفَ الْاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ. ويلفت انتباهنا هنا أن الرسول ﷺ يُعَلِّمنا الاستغفار بعد عبادة الصلاة، وهي أعلى العبادات؛ وذلك مع أن ظَنَّنَا أن الله ﷻ قد غفر لنا فعلًا عقب فراغنا من الصلاة؛ وذلك لحديث رسول الله ﷺ، برواية أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وقال فيه: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»[2]. ولكن لعلَّ هذا الاستغفار بسبب أننا في صلاتنا سَهونا وقصَّرنا ولم نأتِ بكل الأعمال على الوجه الكامل الذي

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، (٥٩١).

(٢) مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، (٢٣٣)، واللفظ له، والترمذي (٢١٤)، وأحمد (٨٧٠٠).

علَّمنا إياه رسول الله ﷺ، ونستغفره سبحانه كذلك لقلَّة خشوعنا، وانصراف ذهننا عنه سبحانه إلى أمور الدنيا، وغلبة وسوسة الشيطان علينا، وهذه الصلاة هي أول ما نحاسب عليه، ولو لم يقبلها ربنا منَّا خِبْنَا وخسرنا؛ ولذلك نحن نسأل الله بخشوع وتضرُّع أن يغفر لنا تقصيرنا وسهونا، بهذه الصيغة السهلة السلسة: أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله..

ثانيًا: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ:

كان رسول الله ﷺ يقول بعد الاستغفار: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»(١). وفي رواية عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَا يَقْعُدُ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**»(٢).

في هذا الذكر ثناءٌ على الله ؛ فهو السلام سبحانه؛ وذلك كما وصف نفسه في القرآن بقوله: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ..﴾ [الحشر: ٢٣]، وكما وصفه الرسول ﷺ في هذا الحديث: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ**». والسلام هو السالم من الآفات والنقائص، أو هو الذي يُسالِم عباده فلا يظلمهم ولا يجور عليهم، وهو الذي يمنُّ على عباده بالرحمة في قلوبهم فيملكون بذلك القدرة على مسالمة مَنْ حولهم من البشر والخلق، ومن دون هذه الرحمة والمسالمة من الله لا يتعايش الناس مع بعضهم البعض؛ وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، فهو سبحانه الذي جعل هذه الروح المتسامحة تحكم حياة المؤمن مع أخيه، فمنه -كما قال الرسول ﷺ- السلام.

ولعلَّ اختيار الرسول ﷺ لهذا الوصف تحديدًا لكي يُثْنِي به على الله بعد الصلاة، مع أن صفات الله كثيرة، هو مناسبةُ هذا الوصف لسلام المُصَلِّي عن يمينه وشماله في آخر الصلاة؛ فالمسلم بعد الصلاة يُسَلِّم على إخوانه يمينًا وشمالًا، فكأننا نقول: إن قدرتنا على السلام على إخواننا اسْتُمِدَتْ من الله ؛ فهو السلام، ومنه جاء السلام، وهذه مِنَّة كبيرة، ومعجزة عظيمة، تطلَّبت أن نُمَجِّد الله لأجلها؛ ولذلك نقول إكمالًا لهذا الذكر: «**تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ**

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، (٥٩١).

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، (٥٩٢)، والترمذي (٢٩٨) واللفظ له، والنسائي (١٠١٩٩)، وابن ماجه (٩٢٤)، وأحمد (٢٦٠٢١)، والدارمي (١٣٤٧).

وَالإِكْرَامِ».

أما دليلُ أن سلامنا عن اليمين والشمال هو سلام للمـُصَلِّين معنا في صلاة الجماعة فهو حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ، قَالَ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله. وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْجَانِبَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «عَلَامَ تُومِئُونَ[1] بِأَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ[2] خَيْلٍ شُمْسٍ[3]؟ إِنَّمَا يَكْفِي أَحَدَكُمْ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَخِذِهِ ثُمَّ يُسَلِّمُ عَلَى أَخِيهِ مَنْ عَلَى يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ»[4]. ويرى البعض أن هذا سلامٌ على المـُصَلِّي المجاوِر، ويرى آخرون أنه رَدٌّ على سلام إمام الصلاة، وفي المسألة تفصيل يمكن الرجوع إليه في كتب الفقه المعتمدة[5].

ويدعم هذه التأويلات ما رُوِيَ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَرُدَّ عَلَى أَئِمَّتِنَا السَّلَامَ وَأَنْ نَتَحَابَّ وَأَنْ يُسَلِّمَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ»[6].

---

(١) تُومِئُونَ: الإِيمَاءُ الإِشَارَةُ. الشوكاني: نيل الأوطار ٢/ ٣٤٧.

(٢) أَذْنَاب جمع ذَنَب، وهو ذيل الحيوان ومن كل شيءٍ آخِره. المعجم الوسيط ١/ ٣١٦.

(٣) الشمس بسكون الميم وضمها معًا من الدواب كلّ ما لا يستقرّ إذا نخس. القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٣٤٣، وقال السيوطي: وَهِيَ الَّتِي لَا تَسْتَقِرُّ بَلْ تَضْطَرِبُ وَتَتَحَرَّكُ بِأَذْنَابِهَا وَأَرْجُلِهَا. انظر: حاشية السيوطي على سنن النسائي ٣/ ٦٢، والنووي: المنهاج ٤/ ١٥٢، وقال الشوكاني: جَمْعُ شَمُوسٍ بِفَتْحِ الشِّينِ، وَهُوَ مِنَ الدَّوَابِّ النَّفُورِ، الَّذِي يَمْتَنِعُ عَلَى رَاكِبِهِ، وَمِنَ الرِّجَالِ: صَعْبُ الْخُلُقِ. نيل الأوطار ٢/ ٣٤٧.

(٤) مسلم: كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع، (٤٣١)، واللفظ له، وأبو داود (٩٩٨)، والنسائي (١٢٤١)، وأحمد (٢٠٨٤٢).

(٥) قال الجزيري: يُسَنُّ أن ينوي المصلي بسلامه الأول من على يمينه وبسلامه الثاني من على يساره... الحنفية قالوا: إن كان إمامًا ينوي بضمير الخطاب المصلين من الإنس والجن والملائكة، وإن كان مقتديًا ينوي إمامه والمصلين وإن كان منفردًا ينوي الملائكة الحفظة. الشافعية قالوا: ينوي السلام على من لم يسلم عليه من ملائكة ومؤمني إنس وجن وينوي الرد على من سلم عليه من إمام ومأموم من ابتداء جهة السلام إلى نهايتها. الحنابلة قالوا: يسن له أن ينوي بالسلام الخروج من الصلاة ولا يسن له أن ينوي به الملائكة ومن معه في الصلاة، ولكن إن نوى به الخروج من الصلاة مع السلام على الحفظة ومن معه فيها فلا بأس. المالكية قالوا: يندب أن يقصد المصلي بالتسليمة الأولى الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة إن كان غير إمام، وإن كان إمامًا قصد الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والمقتدين، وليس على الإمام والفذ غيرها بخلاف المأموم. الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٤٠، ٢٤١، وانظر: الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته ٢/ ٨٦٠، والموسوعة الفقهية الكويتية ١١/ ٣١٤-٣١٦، وانظر: الكاساني: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ٢١٤، والمازري المالكي: شرح التلقين ١/ ٥٣٣، والنووي: المجموع شرح المهذب ٣/ ٤٧٤، وابن قدامة: المغني ١/ ٤٠٠.

(٦) أبو داود: تفريع أبواب التشهد، باب الرد على الإمام (١٠٠١)، والحاكم (٩٩٥)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وابن خزيمة (١٧١١)، واللفظ له، والبيهقي: السنن الكبرى، (٣١١٤)، وقال النووي: حديث حسن أو صحيح، رواه أبو داود، والدارقطني، والبيهقي. انظر: النووي: خلاصة الأحكام ١/ ٤٤٧.

أما ما ذَكَرَتْه عائشة ﵂ من كون الرسول ﷺ لا يقعد إلا بمقدار ما يقول هذا الذكر القصير؛ فهذا قد يعني أنه لا يستمرُّ في قعوده على هيئة الصلاة إلَّا بمثل هذا القَدْر، ثم يُغَيِّر هيئته إلى اليمين أو اليسار، فقد رَوى هُلْبُ بن يزيد الطائي ﵁ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَؤُمُّنَا، فَيَنْصَرِفُ عَلَى جَانِبَيْهِ جَمِيعًا: عَلَى يَمِينِهِ وَعَلَى شِمَالِهِ»(١).

وقد يعني كلام عائشة ﵂ أنه كان لا يقعد إلا هذا القدر اليسير لكونه يقوم إلى بيته لصلاة السُّنَّة البَعْدِيَّة؛ وذلك في صلوات الظهر والمغرب والعشاء، أما في صلاتي الصبح والعصر فقد يستمرُّ في مصلَّاه أكثر من ذلك.

وقد لَخَّص السندي هذين التأويلين في حاشيته على سنن النسائي؛ وذلك بقوله تعليقًا على قول عائشة ﵂: «يُحْمَل على أَن الـمُرَاد: كَانَ لَا يقْعد على هَيئته مُسْتَقْبل الْقبْلَة، أَو أَنه لَا يقْعد فِي صَلَاة بعْدهَا سُنَّة، وَالله تَعَالَى أعلم»(٢).

ويرى المباركفوري في تحفة الأحوذي أن عائشة ﵂ تقصد أن هذا كان في بعض الأحيان(٣).

والذي يدعونا إلى هذه التأويلات هو أنه قد ثَبَتَ -كما سيتبَّين في الروايات القادمة- أن رسول الله ﷺ كثيرًا ما كان يمكث أكثر من ذلك لترديد الأذكار الطويلة والكثيرة التي ثبتت عنه.

ثالثًا: التسبيح والتحميد والتكبير:

وردت روايات عديدة تُشير إلى أن الرسول ﷺ كان يُسَبِّح الله بعد الصلاة بصيغة: سبحان الله. وكان يحمده بصيغة: الحمد لله. وكذلك كان يُكَبِّره بصيغة: الله أكبر. ولكن اختلفت الروايات في تحديد العدد الذي يقوله دبر كل صلاة.

أشهر هذه الروايات ما حَدَّد العدد بثلاثة وثلاثين لكلِّ ذِكْر، وقد عرفنا هذا العدد عن

---

(١) الترمذي: أبواب الصلاة، باب في الانصراف عن يمينه وعن شماله (٣٠١)، واللفظ له، وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٩٢٩)، وأحمد (٢٢٠٢٤)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره. وقال الألباني: حسن صحيح. انظر: صحيح سنن الترمذي ١/ ١٧٦ (٣٠١).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي ٣/ ٨٠.

(٣) المباركفوري: تحفة الأحوذي ٢/ ١٦٥.

طريق قصة تنافسية جميلة في عمل البرِّ بين فقراء المسلمين وأغنيائهم! فقد روى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ[1] بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً». قَالَ أَبُو صَالِحٍ[2]: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»[3]. فانظر إلى هذا الزمن الجميل الذي كان التنافس فيه في أمور الآخرة، وتخيَّل خشوع الذاكر وهو ينظر إلى أجر هذا الذِّكْر المختصَر، فيجد أنه قد تجاوز به مَنْ سبقه ومَنْ لحق به!

وهناك رواية ذكرت عددًا قريبًا من السابق؛ فعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ أَوْ فَاعِلُهُنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً»[4].

وهذه قصة عجيبة صحيحة ورد فيها عددٌ آخر؛ فقد رَوَي عبدُ الله بنُ عمر ﷺ أَنَّ رَجُلًا رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، قِيلَ لَهُ: بِأَيِّ شَيْءٍ أَمَرَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ؟ قَالَ: أَمَرَنَا أَنْ نُسَبِّحَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنَحْمَدَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ مِائَةٌ. قَالَ: سَبِّحُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ، وَاحْمَدُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ، وَكَبِّرُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ، وَهَلِّلُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ، فَتِلْكَ مِائَةٌ. فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «افْعَلُوا كَمَا قَالَ الْأَنْصَارِيُّ»[5].

---

(١) الدُّثُورِ: وَاحِدُهَا دَثْرٌ؛ وَهُوَ الْمَالُ الْكَثِيرُ. انظر: النووي: المنهاج ٥/ ٩٢.

(٢) هو ذكوان السمان، وهو من التابعين الذين كانوا يعيشون بالمدينة.

(٣) البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصلاة، (٥٩٧٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، (٥٩٥).

(٤) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، (٥٩٦)، والترمذي (٣٤١٢)، والنسائي (١٢٧٢).

(٥) الترمذي: كتاب الدعوات، باب من باب التسبيح والتكبير والتحميد عند المنام (٣٤١٣)، عن زيد بن ثابت ﷺ وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (١٢٧٤)، واللفظ له عن عبد الله بن عمر ﷺ، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٢٧٨، وأحمد (٢١٦٤٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والدارمي (١٣٥٤)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح النسائي، ١/ ٤٣٤، (١٣٥١).

ومهمٌّ هنا أن نعلم أننا يمكن أن نذكر الله بهذه الأعداد لا لرؤيا إنسان -ولو كان صحابيًّا جليلًا- ولكن لأن الرسول ﷺ أقرَّ هذه الأعداد، فصارت سُنَّة تقريرية، وبهذا سنُغلق الباب على ابتداع أرقام جديدة، أو أوراد خاصَّة، لم يأتِ عليها دليل من السُّنَّة.

ومرَّت بنا منذ قليل رواية تذكر أعدادًا أقل من ذلك بكثير! فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَلَّتَانِ لَا يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلَا وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ: يُسَبِّحُ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُهُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا..**»(١)!

فهذه الرواية ذكرت ثلث الأذكار التي في الرواية التي قبلها؛ وهي وإن كانت أقلَّ في الأجر فإنها مهمَّة للغاية؛ لأن المُصَلِّي في أحيان كثيرة يكون منشغلًا فعلًا بأمر مهمٍّ لا بُدَّ أن ينطلق لفعله بعد الصلاة، فلو كانت السُّنَّة هي فقط ترديد التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثة وثلاثين مرَّة لكان مُتَعَذِّرًا على الكثيرين أن يفعلوا ذلك في كل صلواتهم، أمَّا إذا كان الأمر هيِّنًا بهذه الصورة فهذا لن يأخذ أكثر من دقيقة واحدة، وبالتالي فانتصارنا على الشيطان فيه أقرب؛ فهذه السُّنَّة أيسر في التطبيق، وهي بالتالي تُحَقِّق الديمومة التي أحبَّها رسولُ الله ﷺ لأُمَّته، فقد سُئِلَ -كما روت عَائِشَةُ رضي الله عنها-: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ: «**أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»(٢). فهذا التيسير يضمن الديمومة، وهو -والحمد لله- ليس قليل الأجر؛ بل هو -بنصِّ كلام رسول الله ﷺ- يُدْخِل الجنَّة، ولو واظب المسلم عليها صار من «القليل» الذي يُداوم على هذا الذِّكْر، ولستُ أقول كل ذلك لأدفع المسلم إلى ترك ترديد الأذكار الأكثر؛ أي سُنَّة ترديد الذكر ثلاثة وثلاثين مرَّة، فهذه -ولا شكَّ- أعلى أجرًا، ولكني حريص على عدم تفويت هذا الذِّكْر بعد الصلاة؛ لهذا يمكن أن نقول: إنه يُفَضَّل للمسلم في وقت نشاطه الإيماني، أو في وقت فراغه من الأعمال أن يختار من السُّنَّة الذِّكْرَ الكثير، وفي وقت كسله، أو تعبه، أو انشغاله، يختار الذِّكْرَ الأقل عددًا، وبهذا يظلُّ محافظًا على السُّنَّة في كل ظروفه وأحواله، وهذا المعنى ورد في السُّنَّة النبوية في حديث عميق يهدي المسلمين إلى الطريقة الأعظم في التعامل مع سُنَّة الرسول ﷺ؛ فقد روى عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أن

---

(١) سبق تخريجه ص٣٨٧.

(٢) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، (٧٨٢).

رسول الله ﷺ قال: «.. فَإِنَّ لِكُلِّ عَابِدٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً[١]، فَإِمَّا إِلَى سُنَّةٍ، وَإِمَّا إِلَى بِدْعَةٍ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ، فَقَدِ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»[٢]. فالرسول ﷺ هنا يصف حال العابد بشكل عامٍّ، فهو تأتيه لحظات نشاط إيماني، وهي ما وصفها بكلمة: «شِرَّة»؛ أي: النشاط والرغبة، وتأتيه كذلك لحظات ضعف إيماني نسبيًّا؛ وهي ما وصفها بكلمة: «فَتْرَة»؛ أي: الفتور والضعف والانكسار، ثم وَضَّح رسول الله ﷺ أن مقياس النجاة ليس في لحظات «الشِّرَّة» لأنه من الطبيعي أن تكون نشيطًا في تطبيق السُّنَّة وأنت مرتفعٌ إيمانيًّا؛ ولكن المقياس الحقيقي يكون في لحظات الفتور، فإذا كان الفتور يذهب بالسُّنَّة فهذا نذير شؤم، وقد يَهلك المسلمُ بذلك، وأمَّا إن كان المسلم -حتى في حال فتوره- يبحث عن السُّنَّة فهذه علامة هُدَى، وبشارة خير، ويُنْقِذُ المسلمَ هنا أن تكون هناك سُنَّة مُيَسَّرَة يستطيع أداءها في كل أحواله؛ سواء كان شابًّا أو مُسِنًّا، أو كان صحيحًا أو سقيمًا، أو كان فارغًا أو منشغلًا، وهذه هي إحدى مظاهر روعة السُّنَّة النبوية، حيث يمكن للمسلم في كل أحواله أن يجد فيها ما يناسب ظرف حياته.

رابعًا: التهليل:

وهذا له صيغ متعدِّدة؛ منها المختصر، ومنها الطويل، وقد ورد هذا كلُّه عن رسول الله ﷺ في روايات صحيحة.

وأقصر هذه الصيغ هي الاكتفاء بقول: «لا إله إلا الله». وهذا ما ورد في رواية عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما التي مرَّت بنا منذ قليل، وفيها رأى الأنصاري رؤيا أقرَّها رسول الله ﷺ، وكان من ضمن الأذكار التي جاءت فيها: «وَهَلِّلُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ». أي نقول: «لا إله إلا الله» خمسًا وعشرين مرَّة، ولكننا لا نُرَدِّد هذا العدد إلا إذا اخترنا أن نُرَدِّد أذكار التسبيح والتحميد والتكبير خمسًا وعشرين مرَّة، وبذلك نكون قد طبَّقنا السُّنَّة النبوية كما وُصِفَت لنا.

وهناك صيغة أخرى أطول؛ وهي صحيحة، وقد عرفناها من حوارٍ دار بين أبي ذرٍّ رضي الله عنه ورسول الله ﷺ، وقد نقل هذا الحوار إلينا أبو هريرة رضي الله عنه، فعَنْه أَنَّ أَبَا ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: يَا رَسُولَ

---

(١) الشِّرَّة: الحرص على الشيء والنشاط له، والفترة ضدُّه. انظر: السندي: حاشية مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٨٤.
(٢) أحمد (٦٤٧٧)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن حبان (١١)، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (٢٨٥٠).

الله، ذَهَبَ أَصْحَابُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فُضُولُ أَمْوَالٍ يَتَصَدَّقُونَ بِهَا، وَلَيْسَ لَنَا مَا نَتَصَدَّقُ بِهِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَاتٍ إِذَا عَمِلْتَ بِهِنَّ أَدْرَكْتَ مَنْ سَبَقَكَ، وَلَا يَلْحَقُكَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ بِمِثْلِ عَمَلِكَ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «تُكَبِّرُ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَخْتِمُهَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[١].

ففي هذه الرواية نُرَدِّد التهليل بهذه الصياغة مرَّة واحدة بعد ختام التكبير والتسبيح والتحميد ثلاثًا وثلاثين مرَّة، ويمكن أن نُرَدِّد التهليل بهذه الصيغة ثلاث مرات دون أذكار التكبير والتسبيح والتحميد؛ وذلك لرواية المُغِيرَةُ بن شعبة ﷺ فقد كَتَبَ مُعَاوِيَةُ ﷺ إِلَى المُغِيرَةِ ﷺ: أَنِ اكْتُبْ إِلَيَّ بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ. قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيْهِ المُغِيرَةُ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنَ الصَّلَاةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: «وَكَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ[٢]، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ[٣]، وَإِضَاعَةِ المَالِ، وَمَنْعٍ وَهَاتِ[٤]، وَعُقُوقِ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدِ البَنَاتِ»[٥]. ووَرَدَ عن المُغِيرَةَ ﷺ كذلك أن رسول الله ﷺ كان يقولها مرَّة واحدة؛ ولكن بصيغة أطول نسبيًّا، فعَنْهُ -ﷺ- أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ إِذَا سَلَّمَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ[٦] مِنْكَ الجَدُّ»[٧].

---

(١) أبو داود: جماع أبواب فضائل القرآن، باب التسبيح بالحصى (١٥٠٤)، وأحمد (٧٢٤٢)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والدارمي (١٣٥٣)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٠).

(٢) قيل وقال: القَال مَصْدَر كَأَنَّهُ قَالَ: نَهَى عَنْ قِيلٍ وَقَوْلٍ. تَقُولُ: قُلْتُ قَوْلًا وَقِيلًا وَقَالًا، وَالمُرَادُ: أَنَّهُ نَهَى عَنِ الْإِكْثَارِ بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١١/ ٣٠٦.

(٣) قال ابن حجر: المُرَادَ بِالنَّهْيِ عَنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ فِي المَالِ وَرَجَّحَهُ بَعْضُهُمْ لِمُنَاسَبَتِهِ لِقولِهِ وَإِضَاعَةِ المَالِ. ابن حجر: فتح الباري ١١/ ٣٠٧.

(٤) منع وهَاتِ: هات فِعْلُ أَمْرٍ مِنَ الْإِيتَاءِ، أَصْلُ هَاتِ آتِ فَقُلِبَتِ الْأَلِفُ هَاءً، وَالحَاصِلُ مِنَ النَّهْيِ مَنْعُ مَا أُمِرَ بِإِعْطَائِهِ وَطَلَبُ مَا لَا يَسْتَحِقُّ أَخْذَهُ. ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٠٦.

(٥) البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، (٦١٠٨).

(٦) الجَدُّ بِالفَتْحِ؛ وَهُوَ الحَظُّ وَالغِنَى وَالعَظَمَةُ وَالسُّلْطَانُ؛ أَيْ لَا يَنْفَعُ ذَا الحَظِّ فِي الدُّنْيَا بِالمَالِ وَالوَلَدِ وَالعَظَمَةِ وَالسُّلْطَانِ مِنْكَ حَظُّهُ، أَيْ لَا يُنْجِيهُ حَظُّهُ مِنْكَ؛ وَإِنَّمَا يَنْفَعُهُ وَيُنْجِيهُ العَمَلُ الصَّالِحُ. انظر: النووي: المنهاج ٤/ ١٩٦.

(٧) البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصلاة، (٥٩٧١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، (٥٩٣).

وأطول من كل ما سبق ما نقله إلينا عَبْدُ الله بْنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما، فقد خَطَبَ يومًا عَلَى المِنْبَرِ فقال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، أَهْلُ النِّعْمَةِ وَالْفَضْلِ وَالثَّنَاءِ الحَسَنِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»(١).

وهكذا، فتوحيد الله عز وجل بأيٍّ من الصيغ السابقة أمر عظيم، وما أجمل أن تختار في كل صلاة صيغة من هذه الصيغ فتُطَبِّق السُّنَّة بكل صورها، وتُحَقِّق الثناء على الله بأكثر من طريقة، وتُمَتِّع عقلك وقلبك بالتدبُّر في أمر جديد كل يوم.

خامسًا: قراءة آية الكرسي:

هذه الآية هي أعظم آية في القرآن كلِّه، وعرفنا هذا من حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه؛ إذ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَالله لِيَهْنِكَ(٢) الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»(٣).

وقراءة آية الكرسي بعد الصلاة المكتوبة سُنَّة عن رسول الله ﷺ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ الجَنَّةِ إِلَّا المَوْتُ»(٤).

وعند قراءة الآية في ختام الصلاة، ينبغي التدبُّر في عدَّة معانٍ جليلة؛ فأولًا: نحن بقراءتها

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، (٥٩٤)، وأبو داود (١٥٠٦)، واللفظ له، والنسائي (١٢٦٣)، وأحمد (١٦١٦٧).

(٢) لِيَهْنِكَ العلمُ: بلفظ الأمر الغائب بفتح التحتية وسكون الهاء وكسر النون، وفي بعض النسخ بهمزة بعد النون وهي الأصل؛ فحذفت تخفيفًا؛ أي ليكن العلم هنيئًا لك... وَكُلُّ أَمْرٍ أَتَاكَ من غير تعب ومشقة فهو هنيء، وهذا دعاء له بتيسير العلم ورسوخه فيه. المباركفوري: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٧/ ١٩١.

(٣) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، (٨١٠).

(٤) النسائي: كتاب عمل اليوم والليلة، ثواب من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة، (٩٩٢٨)، وابن السني: عمل اليوم والليلة، (١٢٤)، واللفظ له، والطبراني: المعجم الأوسط (٨٠٦٨)، والمعجم الكبير (٧٥٣٢)، وقال ابن حجر: حديث حسن غريب، أخرجه النسائي في الكبرى. انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٢٩٤، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد، وأحدها جيد. انظر: مجمع الزوائد ١٠/ ١٠٢، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٩٧٢).

مُتَّبِعون لسُنَّة رسول الله ﷺ، وثانيًا: نحن محفوظون من الشيطان الرجيم، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة في مواقف عدَّة، منها حديث أبي هريرة ﷺ[١]، وكذلك حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ[٢]، وثالثًا: نحن مُحَقِّقُون لثواب جليل كريم، فعدد حروف هذه الآية مائة وخمسة وثمانون حرفًا[٣]؛ فهي تُحَقِّق لنا ألفًا وثمانمائة وخمسين حسنة، فضلًا عن أنها أعظم آية في القرآن كما قدَّمنا؛ فقد يكون أجر قراءتها أعظم من ذلك! ورابعًا: نحن مُؤَهَّلون لإجابة الله

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ. قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ». فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ. فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ». فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا. قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ»؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «مَا هِيَ؟» قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ». البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، (٢١٨٧).

(٢) عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ سَهْوَةٌ فِيهَا تَمْرٌ، فَكَانَتْ تَجِيءُ الْغُولُ فَتَأْخُذُ مِنْهُ، قَالَ: فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «فَاذْهَبْ فَإِذَا رَأَيْتَهَا فَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ». قَالَ: فَأَخَذَهَا، فَحَلَفَتْ أَنْ لَا تَعُودَ فَأَرْسَلَهَا، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» قَالَ: حَلَفَتْ أَنْ لَا تَعُودَ. فَقَالَ: «كَذَبَتْ، وَهِيَ مُعَاوِدَةٌ لِلْكَذِبِ». قَالَ: فَأَخَذَهَا مَرَّةً أُخْرَى فَحَلَفَتْ أَنْ لَا تَعُودَ فَأَرْسَلَهَا، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» قَالَ: حَلَفَتْ أَنْ لَا تَعُودَ. فَقَالَ: «كَذَبَتْ وَهِيَ مُعَاوِدَةٌ لِلْكَذِبِ». فَأَخَذَهَا. فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِكِ حَتَّى أَذْهَبَ بِكِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَتْ: إِنِّي ذَاكِرَةٌ لَكَ شَيْئًا آيَةَ الْكُرْسِيِّ؛ اقْرَأْهَا فِي بَيْتِكَ فَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ وَلَا غَيْرُهُ. قَالَ: فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» قَالَ: فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَتْ، قَالَ: «صَدَقَتْ وَهِيَ كَذُوبٌ». الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٨٠)، وقال: حديث حسن. وأحمد (٢٣٦٤٠)، والحاكم (٥٩٣٢)، والطبراني: المعجم الكبير (٤٠١٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٥٣ (٢٨٨٠). والسَّهوة: بيت صغير منحدر في الأرض قليلًا، شبيه بالخِزانة، وقيل: شبيه بالرَّف أو الطاق يُوضع فيه الشيء. والغول: أحد الغِيلان، وهي جنس من الجن والشياطين. انظر: السيوطي: قوت المغتذي ٢/ ٧١٩، والمباركفوري: تحفة الأحوذي ٨/ ١٤٩.

(٣) راجع طريقة حساب الحروف ص٦٧ من هذا الكتاب.

ﷺ لدعائنا؛ حيث إن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِي به أجاب قد يكون موجودًا في آية الكرسي، وقد يكون «الحي القيوم»[(١)]، وخامسًا: نحن قريبون جدًّا من الجنة، ولا يحُل بيننا وبينها إلا الموت كما ذكر الحديث، فلو كانت هذه هي صلاتنا الأخيرة في الدنيا -وهذا محتمل- فقد ننطلق منها إلى الجنة!

وقد وَجَدْتُ أن قراءة الآية تستغرق عشرين ثانية فقط! فلا يصرفنَّك الشيطان عن قراءتها، فإن لك فيها خيرًا كثيرًا!

سادسًا: قراءة المعوِّذات:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ»[(٢)]..

ولم يوضِّح رسول الله ﷺ في هذه الرواية الخاصة بأذكار الصلاة ما المُعَوِّذَات التي يقصدها؛ لكنه في رواية أخرى عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ كذلك وضَّح المراد منها؛ فقد قَالَ عُقْبَة ﷺ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «قُلْ». قُلْتُ: وَمَا أَقُولُ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]. فَقَرَأَهُنَّ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «لَمْ يَتَعَوَّذِ النَّاسُ بِمِثْلِهِنَّ، أَوْ لَا يَتَعَوَّذُ النَّاسُ بِمِثْلِهِنَّ»[(٣)]. فتبيَّن أن المقصود هي سور الإخلاص والفلق والناس، وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري أن ذِكْرَ سُورَةِ الْإِخْلَاص مَعَهُمَا تَغْلِيبًا لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ صِفَةِ الرَّبِّ، وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ فِيهَا بِلَفْظِ التَّعْوِيذ[(٤)]. والسُّنَّة أن تُقرأ هذه السور مرَّة واحدة بعد كل صلاة مكتوبة.

---

(١) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْمُ الله الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي سُوَرٍ ثَلَاثٍ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ وَطه». ويرى التابعيُّ القاسم بن عبد الرحمن أن الاسم المتكرِّر في السور الثلاث هو: الحي القيوم. روى الحديث ابن ماجه: كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم (٣٨٥٦)، والحاكم (١٨٦٦)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٧٤٦). وانظر رأي القاسم بن عبد الرحمن: الحاكم (١٨٦٦)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٧٤٦).

(٢) أبو داود: باب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستغفار (١٥٢٣)، والنسائي (١٢٥٩)، وأحمد (١٧٨٢٦)، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢٥٤ (١٣٦٣).

(٣) النسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة (٧٨٥٢)، واللفظ له، والطبراني: المعجم الكبير (١٤٦٣٩)، وقال الهيثمي: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ٧/ ١٤٩، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي ٣/ ٤٥٤ (٥٤٤٦).

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٦٢.

وفضل قراءة هذه السور الثلاث أعلى بكثير من مجرَّد إحصاء عدد الحروف وحسناتها؛ لأنه ورد في حقِّها جميعًا ما لم يرد في غيرها.

أمَّا بالنسبة إلى سورة الإخلاص فقد روى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟» فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «اللهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ»(١). وفي موقف لطيف آخر أكَّد رسول الله ﷺ هذا المعنى؛ فقد روى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ». فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(٢)!

وأمَّا سورتا الفلق والناس فقد روى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ نَاقَتَهُ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ لِي: «يَا عُقْبَةُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا؟» فَعَلَّمَنِي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، قَالَ: فَلَمْ يَرَنِي سُرِرْتُ بِهِمَا جِدًّا، فَلَمَّا نَزَلَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ صَلَّى بِهِمَا صَلَاةَ الصُّبْحِ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ الْتَفَتَ إِلَيَّ، فَقَالَ: «يَا عُقْبَةُ، كَيْفَ رَأَيْتَ؟»(٣). وفي رواية عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ أيضًا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»(٤). وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا»(٥).

ومع ذلك فعلى أقلِّ تقدير فإن الحرف من هذه السور بعشر حسنات؛ فهذا يعني أن قراءة سورة الإخلاص، وهي سبعة وأربعون حرفًا، يُعْطِي أربعمائة وسبعين حسنة، وقراءة سورة

---

(١) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل قل هو الله أحد، (٤٧٢٧)، وأحمد (١١٠٦٨).

(٢) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، (٨١٢)، والترمذي (٢٩٠٠)، وأحمد (٩٥٣١).

(٣) أبو داود: جماع أبواب فضائل القرآن. باب في المعوذتين (١٤٦٢). والنسائي (٧٨٤٨)، وأحمد (١٧٤٣٠)، والحاكم (٨٧٧)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢٠٣ (١٣١٥).

(٤) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، (٨١٤)، والترمذي (٣٣٦٧).

(٥) الترمذي: كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين (٢٠٥٨)، وقال: حديث حسن. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٥/ ٥٨، (٢٠٥٨).

الفلق، وهي واحد وسبعون حرفًا، يعطي سبعمائة وعشر حسنات، وقراءة سورة الناس، وهي ثمانون حرفًا، يعطي ثمانمائة حسنة، ومجموع السور الثلاث بذلك يساوي ألفًا وتسعمائة وثمانين حسنة، فضلًا عن الحفظ من حسد الإنس وشرِّ الجنِّ، وهي تُقرأ في حوالي خمس وعشرين ثانية فقط!

سابعًا: التهليل عشر مرات بعد صلاتي الصبح والمغرب:

كان من سُنَّة رسول الله ﷺ أن ينطق بشهادة التوحيد عشر مرَّات دبر صلاة الفجر، وكذلك دبر صلاة المغرب، وكأنه يستقبل النهار والليل بهذا التوحيد المطلق؛ فقد روى أبو ذرٍّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي دُبُرِ صَلَاةِ الفَجْرِ وَهُوَ ثَانٍ رِجْلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. عَشْرَ مَرَّاتٍ، كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكَانَ يَوْمَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي حِرْزٍ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَحُرِسَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَمْ يَنْبَغِ لِذَنْبٍ أَنْ يُدْرِكَهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ إِلَّا الشِّرْكَ بِاللهِ»(١).

وزاد أبو أيُّوبَ ﷺ، في رواية له: «.. وَمَنْ قَالَهُنَّ إِذَا صَلَّى المَغْرِبَ دُبُرَ صَلَاتِهِ فَمِثْلُ ذَلِكَ حَتَّى يُصْبِحَ»(٢).

وفي لفظٍ آخر عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ وَيَثْنِيَ رِجْلَهُ مِنْ صَلَاةِ المَغْرِبِ وَالصُّبْحِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. عَشْرَ مَرَّاتٍ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكَانَتْ حِرْزًا مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَحِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِذَنْبٍ يُدْرِكُهُ إِلَّا الشِّرْكَ، فَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ عَمَلًا إِلَّا رَجُلًا يَفْضُلُهُ يَقُولُ أَفْضَلَ مِمَّا قَالَ»(٣).

---

(١) الترمذي: أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد (٣٤٧٤)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٩٩٥٥)، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٣٢١.

(٢) أحمد (٢٣٥٦٥)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (٢٠٢٣) واللفظ له، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٣/ ٤٣٥.

(٣) أحمد (١٨٠١٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب، وحديثه حسن. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠/ ١٠٨.

وكذا جاءت هذه الأذكار في لفظ آخر عن عُمَارَةَ بْنِ شَبِيبٍ السَّبَئِيِّ ﷺ[١] أن رَسُولَ الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ عَلَى إِثْرِ المَغْرِبِ بَعَثَ اللهُ مَسْلَحَةً يَحْفَظُونَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ مُوجِبَاتٍ[٢]، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ مُوبِقَاتٍ[٣]، وَكَانَتْ لَهُ بِعَدْلِ عَشْرِ رِقَابٍ مُؤْمِنَاتٍ»[٤].

وإنَّ تَدَبُّرَ هذا الأجر الهائل لكفيل بجلب الخشوع، وكفيل كذلك بالحفاظ على هذا الذِّكْر حتى مع ضيق الوقت، أو وجود حاجة، ومجموع الروايات يُوَضِّح عِظَم الأجر المتحقِّق من ترديد هذه الأذكار العظيمة دبر الصبح والمغرب، ولقد قمتُ بجمعها سويًّا حتى أضعها أمام أعيننا مجتمعة فندرك عندئذٍ قيمة هذه الأذكار:

١) بَعَثَ اللهُ مَسْلَحَةً يَحْفَظُونَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُصْبِحَ.

٢) كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ مُوجِبَاتٍ للجنة.

٣) مَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ مُوبِقَاتٍ مهلكات.

٤) كَانَتْ لَهُ بِعَدْلِ عَشْرِ رِقَابٍ مُؤْمِنَاتٍ.

٥) رُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ.

٦) كَانَتْ حِرْزًا مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ.

٧) لَمْ يَحِلَّ لِذَنْبٍ يُدْرِكُهُ إِلَّا الشِّرْكَ.

٨) كَانَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ عَمَلًا.

لا أعتقد أن مَنْ سيعلم بهذه النتائج الهائلة لهذا العمل اليسير سيتخلَّى عنه يومًا من الأيام؛

---

(١) مختلف على صحبته؛ قال ابن عبد البر: مذكور في الصحابة. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١١٤٣، وقال ابن الأثير: عمارة بن شبيب السبئي ذُكر في الصحابة، وقيل: عمار. والسبئي نسبة إلى سَبَأ. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ١٣٣، وقال المزي: مختلف في صحبته. المزي: تهذيب الكمال ٢١/ ٢٤٨، وقال ابن حجر: مختلف في صحبته، وقيل: عمار. وقال ابن السكن: له صحبة. انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٤٧٩.

(٢) مُوجِبَات؛ أي موجبات للجنة. انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي ٩/ ٣٦٢.

(٣) مُوبِقَات؛ أي مهلِكات. انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي ٩/ ٣٦٢.

(٤) الترمذي: أبواب الدعوات (٣٥٣٤)، وقال: حديث حسن. والنسائي (١٠٤١٣)، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٣/ ١٧.

خاصَّة أنها لا تُقال إلَّا مرَّتين فقط في اليوم، والمرَّة الواحدة لا تأخذ أكثر من دقيقة وعشرين ثانية!

ثامنًا: الاستجارة من النار بعد صلاتي الصبح والمغرب:

روى مُسْلِمُ بْنُ الحَارِثِ التَّمِيمِيُّ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهِ فَقَالَ: «إِذَا انْصَرَفْتَ مِنْ صَلَاةِ المَغْرِبِ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ. سَبْعَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ ثُمَّ مِتَّ فِي لَيْلَتِكَ كُتِبَ لَكَ جِوَارٌ مِنْهَا، وَإِذَا صَلَّيْتَ الصُّبْحَ فَقُلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ فِي يَوْمِكَ كُتِبَ لَكَ جِوَارٌ مِنْهَا»[1].

واكتفى رسول الله ﷺ بالاستجارة من النار ولم يسأل الجنة؛ لأن الذي يُجار من النار يدخل الجنة حتمًا، فكان هذا الاختصار الذي يُسَهِّل الترديد ولا يُطَوِّله على المُصَلِّي، وعلى الناحية الأخرى لم يشأ الرسول ﷺ أن يجعل الاختصار بصيغة: «اللهم إني أسألك الجنة»، بدلًا من «اللهم أجرني من النار»؛ لأن استجابة هذا الدعاء ودخول الجنة لا تمنع من دخول النار قبلها! خاصة أن الله قد حكم أن جميع البشر يَرِدُون جهنم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، مع العلم أن الإجارة من النار لا تنفي ورودها؛ ولكن يكون هذا الورود سهلًا يسيرًا على المؤمن، كأن يكون مجرَّد المرور السريع على الصراط، ويدعم هذا ما ذكره السُّدِّيُّ حين قَالَ: سَأَلْتُ مُرَّةَ الهَمْدَانِيَّ، عَنْ قَوْلِ الله ﷻ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فَحَدَّثَنِي أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ حَدَّثَهُمْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ البَرْقِ، ثُمَّ كَالرِّيحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الفَرَسِ[2]، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ[3]، ثُمَّ كَمَشْيِهِ»[4].

---

(١) أبو داود: أبواب النوم، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٩)، واللفظ له، والنسائي (٩٩٣٩)، وأحمد (١٨٠٨٣)، وابن حبان (٢٠٢٢)، وحسن ابن حجر إحدى الروايات، انظر: نتائج الأفكار لابن حجر ٢/ ٣٢٦.

(٢) الحُضر: العَدْوُ الشديد. انظر: الطيبي: شرح المشكاة (الكاشف عن حقائق السنن) ١١/ ٣٥٤٨، والسيوطي: قوت المغتذي ٢/ ٧٨٥.

(٣) كشدِّ الرَّجُل: أي عَدْوِه. انظر: الطيبي: الكاشف عن حقائق السنن ١١/ ٣٥٤٩، والسيوطي: قوت المغتذي ٢/ ٧٨٥.

(٤) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة مريم (٣١٥٩)، وقال: حديث حسن. والدارمي (٢٨١٠)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. وأبو يعلى (٥٠٨٩)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. والحاكم (٨٧٤١)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وحسنه بدر الدين العيني، انظر: عمدة القاري ٨/ ٣٤، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٨٠ (٣١٥٩).

ويمكن أن يكون الورود للمؤمن هو دخولٌ آمِنٌ له، فتكون النار بَرْدًا وسلامًا عليه، وقد قال أبو سمية ﷺ(١): اخْتَلَفْنَا فِي الْوُرُودِ بِالْبَصْرَةِ، فَقَالَ قَوْمٌ: لَا يَدْخُلُهَا مُؤْمِنٌ. وَقَالَ آخَرُونَ: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا، ثُمَّ يُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَيذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا. فَلَقِيتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا. فَقُلْتُ: إِنَّا اخْتَلَفْنَا. فَذَكَرَ اخْتِلَافَهُمْ قَالَ: فَأَهْوَى جَابِرٌ بِإِصْبَعِهِ إِلَى أُذُنِهِ فَقَالَ: صُمَّتْ إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الْوُرُودُ: الدُّخُولُ، لَا يَبْقَى بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَرْدًا وَسَلَامًا كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ -أَوْ قَالَ: لِجَهَنَّمَ- ضجيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ، ثُمَّ يُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَيذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا»(٢).

وكما هو واضح من الدعاء فإن أثره يدوم نصف يوم فقط، فيُعْطِي المسلمَ الإجارةَ من النار من وقت الصبح إلى المغرب، أو من وقت المغرب إلى الصبح؛ ومن ثَمَّ يحتاج المسلم إلى المواظبة عليه حتى يضمن الإجارة الدائمة من النار.

تاسعًا: الدعاء:

هناك اختلاف بين العلماء في مسألة الدعاء بعد الصلاة؛ فبعض العلماء يرى أن الرسول ﷺ لم يكن يمكث خصوصًا للدعاء بعد الصلاة، ومن هؤلاء ابن القيم ﷺ(٣)، ومع ذلك فجمهور العلماء على سُنِّيَّة الدعاء بعد الصلاة؛ بل هو عندهم مندوبٌ ومحمود، وأدلتهم في ذلك كثيرة، منها حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، حيث قال: قِيلَ: أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرِ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ»(٤). ويعترض ابن القيم وغيره بأنَّ دبر الشيء هو آخره ولا ينفصل عنه، فيكون دبر الصلوات يعني آخرها؛ أي بعد التشهد وقبل التسليم،

---

(١) تابعي وثَّقه ابن حبَّان، وقال: يروي عن جابر بن عبد الله روى عنه كثير بن زياد. انظر: ابن حبان: الثقات ٥/ ٥٦٩.

(٢) أحمد (١٤٥٦٠)، والحاكم (٨٧٤٤)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، والبيهقي: شعب الإيمان (٣٦٤)، واللفظ له، وقال البيهقي: إسناد حسن. وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ١٠/ ٣٦٠.

(٣) قال ابن القيم: وَأَمَّا الدُّعَاءُ بَعْدَ السَّلَامِ مِنَ الصَّلَاةِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ أَوِ الْمَأْمُومِينَ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ أَصْلًا، وَلَا رُوِيَ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ وَلَا حَسَنٍ. انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٢٤٩، وانظر تعليق ابن حجر على رأيه: فتح الباري ١١/ ١٣٤.

(٤) الترمذي: كتاب الدعوات (٣٤٩٩)، وقال: حديث حسن. والنسائي (٩٩٣٦). وحسنه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٤٤١، ٤٤٢ (٣٤٩٩).

والواقع أن هذا مخالف لعدَّة أحاديث وردت فيها كلمة «دبر» بمعنى «بعد» الصلاة وليس «آخرها»؛ منها حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه الذي ذكرناه في أمر قراءة المعوذات بعد الصلاة؛ فعَنْه رضي الله عنه، قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ»[1]. ولم يقل أحدٌ -فيما أعلم- أن المُصَلِّي يقرأ القرآن، سواء المعوذات أو غيرها، في نهاية الصلاة وقبل التسليم، إنما تكون قراءة الصلاة في القيام فقط؛ فثبت أن هذه القراءة بعد الصلاة، فإذا قصد الرسول ﷺ أن تكون قراءة المعوذات بعد الصلاة فَعَبَّرَ عن ذلك بكلمة «دبر»؛ فهذا يعني أن ما ذكره من أحاديث أخرى يذكر فيها ما يُقال «دبر» الصلوات فهو يقصد «بعد» الصلاة وليس آخرها.

ومن هذا المنطلق نفهم عدَّة أحاديث وردت في ذكر أدعية معينة كان رسول الله ﷺ يحرص عليها بعد الصلاة؛ منها حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، فقد ذكر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا مُعَاذُ؛ وَالله إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَلَا تَدَعْ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[2].

ومنها ما رواه أَبُو مَرْوَانَ سَعْد من أَنَّ كَعْبًا[3] حَلَفَ بِالله الَّذِي فَرَقَ الْبَحْرَ لِمُوسَى: إِنَّا نَجِدُ أَنَّ دَاوُدَ نَبِيَّ الله كَانَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: «اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي جَعَلْتَهُ لِي عِصْمَةً، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي جَعَلْتَ فِيهَا مَعَاشِي، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ -ثُمَّ ذَكَرَ كَلِمَةً مَعْنَاهَا- بِعَفْوِكَ مِنْ نِقْمَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ». وقَالَ أبو مروان: وَحَدَّثَنِي كَعْبٌ، أَنَّ صُهَيْبًا رضي الله عنه حَدَّثَهُ، أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ يَقُولُهُنَّ عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ صَلَاتِهِ[4].

إذًا ثبت أن رسول الله ﷺ كان يدعو اللهَ بعد صلاته؛ بل إنه رأى مَنْ يدعو بعد الصلاة فأقَرَّه؛ بل علَّمه كيف يدعو فيُستجاب له، فقد روى فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «عَجِلْتَ

(١) سبق تخريجه ص٣٩٨.

(٢) سبق تخريجه ص٣٠٠.

(٣) أي كعب الأحبار: وهو كعب بن ماتع الحميري، اليماني، العلامة، الحبر، كان يهوديًّا، فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ، وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر رضي الله عنه فجالس أصحاب محمد ﷺ فأخذ السنن عن الصحابة، وكان حسن الإسلام. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٨٩.

(٤) النسائي: كتاب عمل اليوم والليلة، الاستعاذة في دبر الصلوات (٩٩٦٥)، وابن حبان (٢٠٢٦)، صححه ابن خزيمة (٧٤٥)، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٢/ ٣٣٥.

أَيُّهَا الْمُصَلِّي، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ فَاحْمَدِ اللهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلِّ عَلَيَّ ثُمَّ ادْعُهُ». قَالَ: ثُمَّ صَلَّى رَجُلٌ آخَرُ بَعْدَ ذَلِكَ فَحَمِدَ اللهَ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّهَا الْمُصَلِّي ادْعُ تُجَبْ»[1]. فكان هذا إقرارًا مباشرًا من رسول الله ﷺ على الدعاء بعد الصلاة، وتعلَّمنا فيه أن نبدأ بحمد الله، ثم نُثَنِّي بالصلاة على رسول الله ﷺ، ثم ندعو اللهَ بعد ذلك بما شئنا؛ بل إن نَصَّ كلام رسول الله ﷺ صريحٌ في أهمية الدعاء بعد الصلاة، فقد قال للرجل: «إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ..». فهو -ﷺ- يأمر بصورة معينة تتحقَّق فيها الإجابة، وهي الصلاة، ثم الحمد، ثم الصلاة على رسول الله ﷺ، ثم الدعاء، فعند ذلك يُرْجَى أن يستجيب الله ﷻ، وقد قال للرجل الذي حقَّق هذه الصورة بكاملها: «أَيُّهَا الْمُصَلِّي ادْعُ تُجَبْ».

أما الدعاء في هذا الموطن فمجاله واسع، وغير متقيِّد بمدَّة أو زمن، بل يفعل فيه كل مصلٍّ ما يشاء، ويدعو بما شاء، ويسأل الله من خيري الدنيا والآخرة، وإذا كنا قد أشرنا من قبل عند الحديث عن الدعاء في السجود أن الدعاء في أمور الآخرة أَوْلَى لأنها أهمُّ وأبقى؛ فإنني أشير هنا إلى ضرورة التوازن في الدعاء دبر الصلاة في أمور الدنيا والآخرة؛ وذلك لأننا بانتهاء الصلاة ننطلق إلى دنيانا، وفيها أعمالنا وأولادنا ومعاشنا، ونحن نريد في كل ذلك توفيقًا من الله ﷻ وإرشادًا، وإذا كان دعاؤنا في السجود محدودًا لكوننا مرتبطين بصلاة الجماعة، أو لكوننا نوازن في طول السجود بينه وبين القيام والركوع؛ ولذلك فإننا نُرَكِّز على دعاء الآخرة، فإن جلوسنا للدعاء مدَّة طويلة بعد الصلاة لن يُؤَثِّر في الغالب على أحد؛ لهذا فالميدان فسيح للدعاء بكل ما نرغب فيه من أمور الدنيا والآخرة، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله كان رسول الله ﷺ يدعو بالصيغة التي نقلها لنا صهيب ﷺ ومرَّت بنا منذ قليل، وقال فيها: «اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي جَعَلْتَهُ لِي عِصْمَةً، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي جَعَلْتَ فِيهَا مَعَاشِي..». فهو يجمع في دعائه هنا بين الرغبة في إصلاح الدين والرغبة في إصلاح الدنيا، والرغبة في العصمة من الذنوب ومن العذاب والرغبة في تحسين المعاش والحياة، فهذه معالم الدعاء بعد الصلاة، أما دعاؤه ﷺ في أثناء الصلاة نفسها فكان مُنْصَبًّا على أمور الآخرة ومغفرة الذنوب، مثل دعائه ﷺ في السجود حيث كان يقول: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ،

---

(١) سبق تخريجه ص٣٣٧.

وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»[١]. ومثل دعائه بعد التشهد: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»[٢].

هذا هو ختام الصلاة على الطريقة النبوية!

ذكرٌ ودعاءٌ..

تسبيحٌ وتحميدٌ وتكبيرٌ وتهليل..

وطلبٌ ورجاءٌ وسؤالٌ ومناجاة..

ثم هو بقاءٌ لأثر الخشوع في القلب!

فعَمَلُنا في الصلاة لم يقتصر عليها فقط؛ بل تعدَّاها إلى ما بعدها، فقام المُصَلِّي بعد ختام الصلاة هادئًا مطمئنًّا خاشعًا مُتَبَتِّلًا، وصار منطلقًا إلى حياته بقلب جديد سليم..

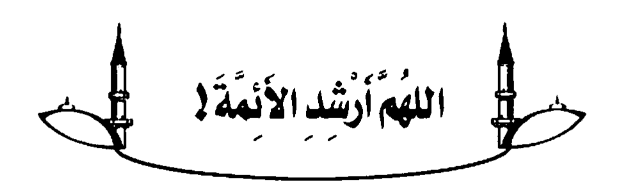
وفوق ذلك كله فهو إعلان خاشع إلى الله: إننا لا نطيق إنهاء لقائك هكذا مسرعين، فمكثنا في مصلَّانا هذه الدقائق نذكرك ونشكرك، وندعوك ونوقِّرك، عسى أن تمنَّ علينا بلقاء جديد في صلاة مُقْبِلة!

وهذه هي روعة الختام!

(١) سبق تخريجه ص٨٢.

(٢) سبق تخريجه ص٢٦٥.





مَنْ يَخْلُفُ رسولَ الله ﷺ؟

مَنْ يمكن أن يتولَّى قيادة الأُمَّة بعد موت النبي العظيم ﷺ؟

مَنْ كان رسولُ الله ﷺ يختار لو اختار بنفسه خليفة؟

أيكون أبا بكر أم عمر؟

أم عثمان أم عليًا؟

أم طلحةَ أم الزبير؟

أم رجلًا من الأعمام كالعباس؟

أم رجلًا من الأنصار كسعد بن عبادة؟

أم رجلًا من الزعماء كأبي سفيان؟

الكلُّ عظيمٌ وقدير..

تحيَّر الصحابةُ قليلًا..

ثم اختاروا أبا بكر ﷺ..

وتحيَّر بعضُ مَنْ أتى مِن بعدهم!

لماذا اختاروا هذا الرجل دون غيره؟

والأسباب كثيرةٌ كثيرة..

ولكن رَأَى عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ أن السبب الرئيس كان في مسألة واحدة!

قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «لَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ نَظَرْنَا فِي أَمْرِنَا، فَوَجَدْنَا النَّبِيَّ ﷺ قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ، فَرَضِينَا لِدُنْيَانَا مَا رَضِيَ رَسُولُ الله ﷺ لِدِينِنَا، فَقَدَّمْنَا أَبَا بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ»[1]!

مع كثرة مناقب أبي بكر ﷺ العظيمة، ومع تعدُّد صفاته الكريمة، فإن إمامته للصلاة في حياة رسول الله ﷺ، وبحرص منه ﷺ، كانت هي أعظم أمر لَفَتَ نظر الصحابة إلى قيمة هذا

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ١٣٦، وأبو بكر بن الخلال: السنة ١/ ٢٧٤ (٣٣٣)، وأبو نعيم الأصبهاني: فضائل الخلفاء الراشدين ص١٥١.

الرجل العظيم في عين رسول الله ﷺ.

ويزداد الأمر وضوحًا عندما نرى حرص رسول الله ﷺ على إمامة الصديق ﷺ تحديدًا!

عَنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَائِشَةَ ﷺ، فَذَكَرْنَا المُوَاظَبَةَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالتَّعْظِيمَ لَهَا، قَالَتْ: لَمَّا مَرِضَ رَسُولُ الله ﷺ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَأُذِّنَ فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ. وَأَعَادَ فَأَعَادُوا لَهُ، فَأَعَادَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فَصَلَّى، فَوَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ رِجْلَيْهِ تَخُطَّانِ مِنَ الوَجَعِ، فَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ مَكَانَكَ، ثُمَّ أُتِيَ بِهِ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ..[(١)]!

إنها صلاة المسلمين، وعلى الإمام تقع المسئولية الكبرى في صحَّة هذه الصلاة وخشوعها، وفهم الصحابة من هذا الموقف أن إمامة الصلاة عمل خطير لا ينبغي لأي إنسان أن يتسلمه؛ بل لا بُدَّ من معايير خاصة، وشروط معتبرة، مهما كانت الظروف، ومهما تعقَّدت الأمور، وما أروع أن نراجع موقف طَعْنِ عمر بن الخطاب ﷺ، الذي مرَّ بنا في هذا الكتاب[(٢)]، فنرى أن الفاروق ﷺ -على الرغم من إصابته العميقة- كان حريصًا على اختيار إمامٍ جدير بهذه المهمَّة الخطيرة، فأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف ﷺ وقَدَّمه للصلاة!

لهذه الأهمية الكبرى للإمام دعا له رسول الله ﷺ دعوة خاصة؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ، وَالإِمَامُ ضَامِنٌ، اللهُمَّ أَرْشِدِ الأَئِمَّةَ، وَاغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ»**[(٣)]. فالإمام يضمن صلاة المأمومين، وكلما كان الإمام مناسبًا وجديرًا بالإمامة كانت صلاة الناس أفضل وأخشع؛ لهذا دعا رسول الله ﷺ لأئمة الصلاة بالرشاد، فلو صلحوا صلحت الصلاة، ولو صلحت الصلاة صلح حال الأُمَّة كله.

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب حد المريض أن يشهد الجماعة، (٦٣٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي، (٤١٨).

(٢) راجع ص٢٤٠.

(٣) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء أن الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن (٢٠٧)، وأبو داود (٥١٧)، وأحمد (٨٨٩٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/٣ (٥٣٠).

ولكل ما سبق فقد خَصَّصتُ هذا الفصل لتوجيه نصائح لأئمة الصلاة، ومع أن هذا الفصل مهمٌّ لكلِّ القرَّاء؛ لأنه من الممكن أن يُصَلِّيَ أيُّ مسلم إمامًا في بعض الأحيان والظروف، إلا أن الفائدة القصوى من هذا الفصل ستعود على الأئمة العاملين الذين يقومون بالإمامة في المعتاد، فإليهم أوجِّه هذه الكلمات!

بدايةً، ومن منطلق أن إمامة الصلاة مسئولية كبرى، وأيضًا من منطلق أنه قد يكون فيها حظُّ نفسٍ، أو رغبةٌ في الظهور والشهرة، فإن الأفضل للمسلم ألا يسعى للإمامة؛ بل عليه أن يهرب منها ما استطاع، إلا أن يكون بقية المُصَلِّين لا يُحسِنون قراءة القرآن، ويُستثنى من ذلك الأئمة الراتبون، وهم الأئمة المُعَيَّنون للإمامة إما مِن قِبَل الدولة، أو من قِبَل مجالس إدارة المساجد، أو عُرْفًا بين المُصَلِّين في مكان ما، فهؤلاء يتقدَّمون للإمامة دون حرج لمنع الاختلاف والتنازع عليها، ولدرايتهم أكثر من غيرهم في شئون الإمامة والقراءة.

وقد وضع رسول الله ﷺ بعض المعايير المهمَّة لاختيار الإمام للصلاة؛ وذلك في حالة عدم وجود إمام راتب للمسجد، وهذه المعايير تهدف إلى أمرين رئيسين؛ أما الأول: فهو توفير أكبر فرصة لصلاة صحيحة خاشعة، وأما الثاني: فمنع التنازع بين المسلمين على مسألة الإمامة.

وجاءت هذه المعايير في عدَّة روايات صحيحة، ولعلَّ من أشملها ما جاء عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً، فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا، وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ[1] إِلَّا بِإِذْنِهِ»**.

قَالَ الْأَشَجُّ[2] فِي رِوَايَتِهِ: مَكَانَ سِلْمًا: سِنًّا[3].

وجاءت المعايير نفسها في رواية أخرى عن أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ كذلك؛ ولكن باختلاف

---

(١) تكرمته: قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّكْرِمَةُ الْفِرَاشُ وَنَحْوُهُ مِمَّا يُبْسَطُ لِصَاحِبِ الْمَنْزِلِ وَيُخَصُّ بِهِ. النووي: المنهاج ٥/ ١٧٤.

(٢) أحد رواة الحديث، قال مسلم في صحيحه: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو سعيد الأشج كلاهما عن أبي خالد.

(٣) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة؟، (٦٧٣)، وأبو داود (٥٨٢)، والترمذي (٢٧٧٢).

طفيف في الألفاظ، يقُولُ: قَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله، وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً، فَلْيَؤُمَّهُمْ أَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَلْيَؤُمَّهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا، وَلَا تَؤُمَّنَّ الرَّجُلَ فِي أَهْلِهِ، وَلَا فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا تَجْلِسْ عَلَى تَكْرِمَتِهِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَكَ، أَوْ بِإِذْنِهِ»[1].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً فَلْيَؤُمَّهُمْ أَحَدُهُمْ، وَأَحَقُّهُمْ بِالْإِمَامَةِ أَقْرَؤُهُمْ»[2].

ومن الروايات السابقة يتبيَّن أن أحقَّ الناس بالإمامة هو أقرؤهم للقرآن، والأقرأ للقرآن هو الأكثر حفظًا، وهذا واضح في رواية عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ، قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ الْعُصْبَةَ -مَوْضِعٌ بِقُبَاءٍ- قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ الله ﷺ كَانَ يَؤُمُّهُمْ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ ﷺ، وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ قُرْآنًا»[3].

فالنصُّ واضح في أن اختيار الصحابة لإمامهم كان مرجعه إلى كثرة حفظه، ويدعم هذا ويؤكِّده ما رواه عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو قِلَابَةَ: أَلَا تَلْقَاهُ فَتَسْأَلَهُ؟ قَالَ: فَلَقِيتُهُ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: كُنَّا بِمَاءٍ مَمَرَّ النَّاسِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَنَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ، مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى إِلَيْهِ. أَوْ: أَوْحَى اللهُ بِكَذَا. فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَكَأَنَّمَا يُقَرُّ فِي صَدْرِي، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ[4]، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ. فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ[5]، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَالله مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقًّا، فَقَالَ: «صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا». فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي، لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ، وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ، كُنْتُ

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة؟، (٦٧٣)، وأحمد (٢٢٣٩٤).

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة؟، (٦٧٢)، والنسائي (٨٥٧)، وأحمد (١١٢٠٦).

(٣) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إمامة العبد والمولى، (٦٦٠)، وأبو داود (٥٨٨).

(٤) تَلَوَّمُ: أصله بتاءين فحذفت إحداهما تخفيفًا؛ أي: تنتظر وتتربص (بإسلامهم الفتح) أي فتح مكة. القسطلاني: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٦/ ٣٩٨.

(٥) أي فتح مكة وحال أهلها.

إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصَتْ عَنِّي، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْحَيِّ: أَلَا تُغَطُّوا عَنَّا اسْتَ قَارِئِكُمْ[1]؟ فَاشْتَرَوْا فَقَطَعُوا لِي قَمِيصًا، فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ الْقَمِيصِ[2].

هذا الموقف السابق من أبلغ الأدلة على أن «الأكثر» حفظًا هو الذي يُقَدَّم للإمامة؛ حيث إن عمرو بن سلمة ﷺ في هذا الموقف صغير السِّنِّ للغاية، فهو في السادسة أو السابعة من عمره، ومع ذلك قدَّموه للإمامة، آخذين في الاعتبار طبيعة هذه البيئة العربية القديمة وتوقيرها للشيوخ والكبار، فلم يكن من الطبيعي أن يقبلوا أن يقود طفلٌ صغيرٌ الزعماءَ وشيوخَ القبيلة؛ إلا أن يكون هذا هو الاختيار الوحيد أمامهم.

وبدهي من اللفظ أن يكون الأقرأ للقرآن مُجيدًا للقراءة، ومُتْقِنًا لمخارج الحروف، ولا يَلْحَن[3] في قراءته لحنًا يُغَيِّر المعنى، فهذه أساسيات لا بُدَّ من تحقُّقها في القارئ؛ لأنه ليس من المقبول أن يُصَلِّيَ بالناس رجلٌ لا يقرأ القرآن بطريقة سليمة، مهما كان كمُّ حفظه.

ثم يأتي في المرتبة الثانية من معايير الاختيار «الأعلم بالسُّنَّة»، وهذا هو الأفقه في الدين، والأدرى بقواعد الشريعة وعلومها، وقد تَوَقَّف العلماء أمام هذا الترتيب وكانت لهم فيه آراء

---

(١) است قارئكم؛ أي: دبره وعجزه، ولأبي داود: فقالت امرأة من النساء: وَارُوا عَنَّا عَوْرَةَ قَارِئِكُمْ. قال في لسان العرب: الستة والاست معروفة، وهو من المحذوف المجتلبة له ألف الواصل. المباركفوري: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤/ ٦٦.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب من شهد الفتح، (٤٠٥١)، واللفظ له، وأبو داود (٥٨٥)، وأحمد (٢٠٣٤٨).

(٣) قال ابن بري وغيره: لِلَّحْنِ ستة مَعان؛ الخطأ في الإعراب، واللغة، والغِناء، والفِطْنة، والتَّعريض، والمَعْنى (أي الفحوى). انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (لحن) ١٣/ ٣٧٩، وهو صرفك الكلام عن جهته، ثم صار اسمًا لازمًا لمخالفة الإعراب، وهو لا يكون إلَّا في القول؛ تقول: لحن في كلامه. انظر: العسكري: الفروق اللغوية ص٥٥، وقال الجرجاني: اللحن في القرآن والأذان: هو التطويل فيما يقصر، والقصر فيما يطال. انظرْ: التعريفات ص١٩١. واللحن في القرآن هو القراءة بغير تجويد؛ وقسَّم العلماء اللحن إلى جليٍّ وخفيٍّ، والصحيح أن اللحن خلل يطرأ على الألفاظ فيُخِل، إلا أن الجليَّ يُخِلُّ إخلالاً ظاهرًا يعرفه القُرَّاء وغيرهم، والخفيُّ يختصُّ بمعرفته أئمة القُرَّاء الذين ضبطوا ألفاظ الأداء وتلقَّوْهَا من أفواه العلماء. انظر: النويري: شرح طيبة النشر ١/ ٢٥٠. واللحن الجلي قد يكون في حروف الكلمة، بإبدال حرف بحرف كمَنْ يقرأ: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ﴾ [الأحزاب: ٣١] فيُبدل التاء طاءً يقنط أي ييأس، و﴿عَسَى﴾ [النساء: ٨٤] فيبدل السين صادًا من العصيان، و﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] فيبدل الضاد دالاً فتردى أي فتهلك، وقد يكون الخطأ بإبدال حركة بحركة، مثل من قرأ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] فضم تاء أنعمت بدل فتحها، وإبدال الضمة بالكسرة من كلمة (رسوله) في قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، أما الخفي فهو ترك حكم من أحكام التلاوة كالإدغام والإخفاء والإظهار والمد والغنة وغيرها. انظر: إبراهيم محمد الجرمي: معجم علوم القرآن ص٢٣٣، وفريال زكريا العبد: الميزان في أحكام تجويد القرآن ص٣٣.

ومدارس، فأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وبعض الشافعية وغيرهم[١] أفتوا بظاهر الحديث، وقدَّموا بذلك الأقرأ للقرآن على الأفقه في علوم الدين؛ لكن مالكًا والشافعي قدَّما الأفقه على الأقرأ؛ لأنه أقدر على مراعاة الأصوب في أحكام الصلاة، واحتجَّا بأن الرسول ﷺ قدَّم أبا بكر ﷺ للصلاة مع أن هناك مِن الصحابة مَنْ هو أقرأ منه[٢]، وقال الخطابي -وهو على الرأي الأخير نفسه-: «وَذَلِكَ أَنَّهُ -ﷺ- جَعَلَ مِلَاكُ أَمْرِ الإِمَامَةِ الْقِرَاءَةَ، وَجَعَلَهَا مُقَدَّمَةً عَلَى سَائِرِ الْخِصَالِ الْمَذْكُورِ مَعَهَا، وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا أُمِّيِّينَ لا يَقْرَءُونَ، فَمَنْ تَعَلَّمَ مِنْهُمْ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَانَ أَحَقَّ بِالْإِمَامَةِ مِمَّنْ لَمْ يَتَعَلَّمْهُ، لِأَنَّهُ لا صَلاةَ إِلَّا بِقِرَاءَةٍ، وَإِذَا كَانَتِ الْقِرَاءَةُ مِنْ ضَرُورَةِ الصَّلَاةِ وَكَانَتْ رُكْنًا مِنَ أَرْكَانِهَا صَارَتْ مُقَدَّمَةً فِي التَّرْتِيبِ عَلَى الْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنْهَا، ثُمَّ تَلَا الْقِرَاءَةَ بِالسُّنَّةِ؛ وَهِيَ الْفِقْهُ وَمَعْرِفَةُ أَحْكَامِ الصَّلَاةِ وَمَا سَنَّهُ رَسُولِ الله ﷺ فِيهَا وَبَيَّنَهُ مِنْ أَمْرِهَا، وَأَنَّ الْإِمَامَ إِذَا كَانَ جَاهِلًا بِأَحْكَامِ الصَّلَاةِ رُبَّمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنْ سَهْوٍ وَيَقَعُ مِنْ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ أَفْسَدَهَا وَأَخْدَجَهَا، فَكَانَ الْعَالِمُ بِهَا الْفَقِيهُ فِيهَا مُقَدَّمًا عَلَى مَنْ لَمْ يَجْمَعْ عِلْمَهَا وَلَمْ يَعْرِفْ أَحْكَامَهَا، وَمَعْرِفَةُ السُّنَّةِ وَإِنْ كَانَتْ مُؤَخَّرَةً فِي الذِّكْرِ وَكَانَتِ الْقِرَاءَةُ مُبْتَدَأَةً بِذِكْرِهَا فَإِنَّ الْفَقِيهَ الْعَالِمَ بِالسُّنَّةِ إِذَا كَانَ يَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا تَجُوزُ بِهِ الصَّلَاةُ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ مِنَ الْمَاهِرِ بِالْقِرَاءَةِ إِذَا كَانَ مُخْتَلِفًا عَنْ دَرَجَتِهِ فِي عِلْمِ الْفِقْهِ وَمَعْرِفَتِهِ السُّنَّةَ، وَإِنَّمَا قُدِّمَ الْقَارِئُ فِي الذِّكْرِ لِأَنَّ عَامَّةَ الصَّحَابَةِ إِذَا اعْتَبَرْتَ أَحْوَالَهُمْ وَجَدْتَ أَقْرَأَهُمْ أَفْقَهَهُمْ بِهِ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كَانَ أَحَدُنَا إِذَا حَفِظَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ يَخْرُجْ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا حَتَّى يُحْكِمَ عِلْمَهَا وَيَعْرِفَ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا. أَوْ كَمَا قَالَ، فَأَمَّا غَيْرُهُمْ مِمَّنْ تَأَخَّرَ بِهِمُ الزَّمَانُ فإن أكثرهم يقرءون وَلَا يَفْقَهُونَ، فَقُرَّاؤُهُمْ كَثِيرٌ وَالْفُقَهَاءُ مِنْهُمْ قَلِيلٌ»[٣]. وعلى مثل هذا القول هناك عدد آخر من العلماء[٤].

والواقع أنني أرى أن رأي أبي حنيفة وأحمد بن حنبل هو الأنسب في هذه المسألة، وهو تقديم الأقرأ للقرآن على الأفقه في الدين، والأعلم بالسُّنَّة؛ وذلك لأسباب عديدة؛ منها أن

---

(١) مثل سفيان الثوري وأحمد وإسحاق. انظر: النووي: المجموع شرح المهذب ٤/ ٢٨٢.

(٢) النووي: المنهاج ٥/ ١٧٢، ١٧٣، بتصرف.

(٣) انظر: الخطابي: معالم السنن ١/ ١٦٦، ١٦٧.

(٤) قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: يَؤُمُّهُمْ أَفْقَهُهُمْ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْفِقْهِ سَوَاءً فَأَقْرَؤُهُمْ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْفِقْهِ وَالْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَسَنُّهُمْ. وَقَالَ مَالِكٌ: يَتَقَدَّمُ الْقَوْمَ أَعْلَمُهُمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَقْرَؤُهُمْ؟ فَقَالَ: قَدْ يَقْرَأُ مَنْ لَا يُرْضَى. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: يَؤُمُّهُمْ أَفْقَهُهُمْ. وَقَالَ أَبُو ثَوْرٍ: يَؤُمُّهُمْ أَفْقَهُهُمْ إِذَا كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَإِنْ لَمْ يَقْرَأْهُ كُلَّهُ. انظر: الخطابي: معالم السنن ١/ ١٦٨.



نصّ الحديث واضح، والرسول ﷺ أعلم بما يُصْلِح حال الأُمَّة، سواء في زمانه أو في الأزمان التي ستأتي إلى يوم القيامة، وقد جعل رسول الله ﷺ الأعلم بالسُّنَّة في المرتبة الثانية نَصًا، وهذا دليل مباشر على أن الأقرأ للقرآن مُقَدَّمٌ بشكل مُطْلَق، ولو كانت مسألة العلم بالسُّنَّة هي الأهم لقدَّمها دون عناء، أو على الأقل كان من الممكن أن يُغْفِلها ويترك للمسلمين أن يتأوَّلوا الأقرأ للقرآن على أنه الأفقه في الدين؛ لكنه ﷺ لم يفعل ذلك، إنما صَرَّح بأن الأولى بالإمامة هو الأقرأ لكتاب الله ﷻ.

والأقرأ للقرآن هو الأكثر حفظًا كما بيَّنتُ قبل ذلك، وهذا المدلول لكلمة «الأقرأ» سيُؤَدِّي إلى نتيجتين إيجابيتين يصبَّان في صلب الموضوع؛ أما الأُولى فهي أن «قياس» الأقرأ بين المُصَلِّينَ أسهل بكثير من قياس الأعلم بالسُّنَّة، فالأكثر حفظًا للقرآن سيُقَدَّم للإمامة دون عناء كبير، فهذا يحفظ عشرين جزءًا مثلًا، وغيره أقل من ذلك؛ فقد حُسِمَت المسألة ببساطة، وقلَّت فرصة الاختلاف والنزاع، وأُغْلِق الباب أمام الشيطان؛ لأن تحديد الأعلم بالسُّنَّة أصعب بكثير، والمقارنة بين المُصَلِّينَ على أساس حفظ الأحاديث، أو المعرفة بقواعد الفقه، أو أصول الشريعة، أمرٌ صعب لا يستطيعه الناس، فكان الرسول الحكيم ﷺ حريصًا على توفير وسيلة بسيطة يستطيع بها أغلب المسلمين في أغلب الظروف أن يختاروا إمامهم دون أدنى مشكلة، والحقُّ أن الخروج عن هذا النهج هو الذي يُورِث المشاكل ويُحْدِث الأزمات، فهذه نتيجةٌ أُولى. أما النتيجة الثانية فهي أن الأكثر حفظًا للقرآن غالبًا ما يكون مُتْقِنًا لأحكام الصلاة، فليس من المتوقَّع أن يكون الحافظ لعدد كبير من السور لا يعرف كيف يُصَلِّي، وعندما اختار الأئمة مالك والشافعي والخطابي تقديم الأعلم بالسُّنَّة على الأقرأ كانت حجَّتهم في ذلك أنه سيكون أعلم بأحكام الصلاة، وما قد يطرأ عليها من سهو، أو أحداث تحتاج إلى فقيه حتى لا تفسد، والواقع أن أحكام الصلاة محدودة، والدراية بها سهلة، وعلى الأغلب فالأحفظ للقرآن يعرفها، ولعلَّه من كثرة إمامته صار مُتْقِنًا لها أكثر من غيره؛ ومن ثَمَّ فتقديم الأقرأ للقرآن لن يؤثِّر على صحَّة الصلاة في معظم الظروف، وقد قدَّم الصحابةُ عمرَو بنَ سلمة ﷺ للإمامة وهو في السابعة من عمره، مع أن الأفقه والأقدر على معرفة الأحكام قد يكون الأكبر منه سِنًّا؛ لكنهم لم يبحثوا في هذه المسألة؛ إذ إن أحكام الصلاة بسيطة، ويتعلمها المسلم في أولى لحظات إسلامه.

ثم إن تقديم رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ للإمامة لا يتعارض مع ما قلناه واخترناه، فمَنِ الذي قال: إن رسول الله ﷺ قدَّم أبا بكر ﷺ لأنه الأفقه مع وجود الأقرأ للقرآن؟! فالحقُّ أن أبا بكر ﷺ كان الأقرأ للقرآن بين الصحابة، هذا إذا ما اعتبرنا أن الأقرأ هو الأكثر حفظًا، لأنه كان يحفظ القرآن كاملًا[1]، والقياس كما ذكرتُ قبل ذلك على كَمِّ القراءة وليس على المعرفة بعلوم القرآن المختلفة وقراءاته المتعددة، وعليه فلا يُؤخَذ هنا بما قاله رسول الله ﷺ في حقِّ بعض الصحابة من كونهم متخصِّصين في قراءة القرآن، مثل قوله ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ -فَبَدَأَ بِهِ- وَمِنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَمِنْ سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمِنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ**»[2]. ولا يؤخذ كذلك بجمال الصوت، وإن كان مهمًّا للغاية في القراءة، وقد قال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ: «**يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[3]. ومع ذلك فلم يُقَدِّم رسولُ الله ﷺ أبا موسى الأشعري ﷺ للصلاة بالناس، فإن قيل: إن أبا بكر ﷺ ليس الحافظ الوحيد للقرآن بين الصحابة. فإننا نقول: نعم ليس هو الحافظ الوحيد للقرآن؛ ولكنه أعلم الحافظين بالسُّنَّة، فإن رسول الله ﷺ قد قضى أنه لو تساوى المصلُّون في الحفظ يُقَدَّم الأعلم بالسُّنَّة، وهو أبو بكر ﷺ بلا جدال، وقد قال أبو سعيد الخدري ﷺ: «**.. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا..**»[4]. فلهذا قَدَّم رسول الله ﷺ أبا بكر ﷺ للصلاة.

ثم يأتي المعيار الثالث بعد كثرة القرآن، والعلم بالسُّنَّة، وهو قِدَمُ الهجرة، وهذا المعيار كان مستخدَمًا بشكل أوسع في زمان رسول الله ﷺ وبعده بقليل؛ وذلك عند وجود عدد من المهاجرين، وقد يتساوون في ما يحفظونه من القرآن وما يعلمونه من السُّنَّة، فيُلْجَأ حينئذٍ إلى معيار تاريخ الهجرة من مكة إلى المدينة، ولعلَّ العلَّة في ذلك ليست شرف الهجرة فقط، وإن كان هذا عظيمًا؛ ولكن لأن المهاجر الأقدم عاصر رسولَ الله ﷺ بشكل أكبر، وغالبًا ما كان

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٢٥٦، وابن حجر: فتح الباري ٩/ ٥٢، والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص: ٥٣، والإتقان في علوم القرآن ١/ ٢٤٧.

(٢) مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ﷺ، (٢٤٦٤).

(٣) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، (٤٧٦١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، (٧٩٣).

(٤) البخاري: أبواب المساجد، باب الخوخة والممر في المسجد، (٤٥٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، (٢٣٨٢).

إسلامه أسبق؛ لذلك ستجده على الأغلب أعلم من غيره، وإن بَدَا متساويًا مع أقرانه؛ لذلك قَدَّمه رسول الله ﷺ في حال تساويه مع غيره في القرآن والسُّنَّة، وقد استنبط بعضهم أن فضيلة قِدَم الهجرة يمكن أن تنسحب على أولاد وأحفاد المهاجر[1]، فيُقَدَّم حفيد المهاجر الأقدم على غيره في حال التساوي في القرآن والسُّنَّة، ولكني -في الحقيقة- أجد هذا تكلُّفًا، وتحميلًا للنصِّ فوق طاقته، والله أعلم.

أمَّا المعيار الرابع فهو سِنُّ المُصَلِّي، فلو تساوى الجميع في المعايير السابقة يُقَدَّم حينئذٍ الأكبر سِنًّا، وهذا سيحسم المسألة ليس فقط في حالة التساوي؛ ولكن -أيضًا- في حالة جهل الناس بحالة المُصَلِّين معها؛ فكثيرًا ما يجتمع بعض المسلمين الذين لا يعرف بعضهم بعضًا؛ سواء في جماعة ثانية في المسجد، أو في سفر، أو في سوق، أو نحو ذلك، وعندها لا يُوجد سبيل مناسب لسؤال الجميع عن كَمِّ ما يحفظون، أو عن مدى علمهم بالسُّنَّة، فهنا يُقَدَّم الأكبر سِنًّا، ويكون هذا واضحًا على الأغلب، فتُحْسَم بذلك مادَّة الخلاف، ويتقبَّل المُصَلُّون الوضع دون حساسية.

إن هذه المعايير التي وضعها رسول الله ﷺ لمن أروع الأمور التي تُوَحِّد صفَّ المسلمين، وتحفظ حُسن علاقتهم، كما أنها الأفضل بلا جدال لصلاة صحيحةِ الأركان، خاشعة الروح، نافعة للإمام والمأمومين، والحديث -كما هو واضح- من جوامع كلمه ﷺ.

أليس لهذه القواعد استثناء؟

بلى، هناك استثناء مهمٌّ! وقد ورد الاستثناء في الحديث نفسه الذي وضع فيه رسولُ الله ﷺ معايير اختيار الإمام، فقد قال الرسول ﷺ: «.. **وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**».

في هذا الحديث نهى رسولُ الله ﷺ المسلم عن التقدُّم للإمامة في سلطان أحد إخوانه؛ أي في بيته، أو متجره، أو أرضه، أو نحو ذلك من أملاكه؛ بل يؤمُّ صاحبُ المكان زوَّارَه، وهذا نوعٌ من الفضل أعطاه رسول الله ﷺ لصاحب البيت أو المحلِّ عِوضًا له عن استضافته للناس

(١) قال الخطابي: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «فَإِنِ اسْتَوَوْا فِي السُّنَّةِ فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً». فَإِنَّ الْهِجْرَةَ قَدِ انْقَطَعَتِ الْيَوْمَ إِلَّا أَنَّ فَضِيلَتَهَا مَوْرُوثَةٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُهَاجِرِينَ أَوْ كَانَ فِي آبَائِهِ وَأَسْلَافِهِ مَنْ لَهُ قَدَمٌ فِي الْإِسْلَامِ أَوْ سَابِقَةٌ فِيهِ، أَوْ كَانَ آبَاؤُهُ أَقْدَمَ إِسْلَامًا فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى مَنْ لا يُعَدُّ لِآبَائِهِ سَابِقَةٌ، أَوْ كَانُوا قَرِيبِي الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ. الخطابي: معالم السنن ١/ ١٦٧.

في سلطانه، وتكريمًا له أمامهم، واحترامًا لقيادته في ملكه، وقد كَرِه بعض العلماء أن يسمح صاحب البيت لأحد الزوَّار بإمامة الصلاة حتى لو كان أقرأ أو أعلم، وَقَالُوا: «السُّنَّةُ أَنْ يُصَلِّيَ صَاحِبُ الْبَيْتِ»(١). ولكن يرى آخرون أنه يجوز لصاحب البيت أن يأذن لزائرٍ بالإمامة، وسبب الخلاف أن الإذن في الحديث كان للجلوس على التكرمة، وليس للإمامة في الصلاة؛ ولكن فهمه بعضهم على أنه شامل للأمرين معًا؛ لهذا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يُؤَمُّ الرَّجُلُ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يُجْلَسُ عَلَى تَكْرِمَتِهِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ». فَإِذَا أَذِنَ فَأَرْجُو أَنَّ الإِذْنَ فِي الْكُلِّ(٢). وَلَمْ يَرَ بِهِ بَأْسًا إِذَا أَذِنَ لَهُ أَنْ يُصَلِّيَ بِهِ»(٣).

وعلى صاحب البيت إذا أخذ بهذا الرأي الأخير، وأَذِنَ لغيره أن يؤمَّ الزوَّار وأهلَ البيت أن يكون حريصًا على عدم إيغار صدر أحد بهذا الفعل؛ فقد يكون هناك أضداد، أو متنافسون، أو يكون هناك متخاصمون قد جاءوا للحكم في قضية ما، فيكون تقديم أحدهم أدعى لسوء الظنِّ عند الآخر، أو يكون هناك علماء قريبون في المقام، أو من مدارس فكرية أو فقهية مختلفة فيكون التقديم لأحد على حساب آخر فيه مفسدة، والأولى في كل هذه الحالات أن يتقدَّم صاحب البيت للإمامة، ويُغلق بذلك أبواب الشيطان، والله أعلم.

ويتفرَّع من هذه المسألة مسألة أخرى، وهي أنه إذا حضر سلطان البلاد نفسه، أو حضر نائبه، فإنهما يُصَلِّيَان بالناس حتى لو كانت الصلاة في بيت واحد من المسلمين؛ لأن سلطانه أشمل، ويدخل فيه بيت هذا الرجل وغيره؛ لهذا قال النووي: «فإن حضر السلطان أو نائبه قُدِّمَ على صاحب البيت وإمام المسجد وغيرهما؛ لأن ولايته وسلطنته عامَّة»(٤). ولعلَّه من هذا المنطلق فإن السلطان يؤمُّ المسلمين في الجُمَعِ والأعياد والاجتماعات، وكذلك يفعل والي المدينةِ في مدينته، ويفعل قائد الجيش في جيشه، وهكذا، ومن هذا المنطلق -أيضًا- تصحُّ إمامة الإمام المُعَيَّن من قِبَلِ الدولة لغيره من المُصَلِّين في المسجد مع احتمال وجود مَنْ هو أقرأ

---

(١) نقل ذلك الترمذي في سننه: أبواب الصلاة، باب من أحق بالإمامة (٢٣٥)، وانظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي ٢/ ٢٩، ٣٠، وقد قال ذلك إسحاق، انظر: المباركفوري: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤/ ٤٩.

(٢) أي في الإمامة والجلوس، وليس في الجلوس فقط.

(٣) نقل ذلك الترمذي في سننه: أبواب الصلاة، باب من أحق بالإمامة (٢٣٥)، وانظر: ابن قدامة: المغني ٢/ ١٥١، وشمس الدين ابن قدامة: الشرح الكبير على متن المقنع ٢/ ٢١، وانظر: الملا الهروي: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣/ ٨٦٣.

(٤) النووي: المنهاج ٥/ ١٧٣.



منه للقرآن، وأعلم منه بالسُّنَّة؛ لأن الذي أَذِنَ له هو رئيس الدولة، فسلطانه أو سلطان مَنْ ينوب عنه -مثل المحافظ، أو وزير الأوقاف، أو غيرهما- يصل إلى كلِّ المساجد، وبالتالي فهو أحقُّ بالإذن لمن يراه أصلح لهذه المهمَّة، والله أعلم.

ويتعلَّق بمسألة الإمامة كذلك ما قلناه سابقًا من أن المسلم ينبغي أن يهرب من الإمامة ولا يسعى لها أبدًا؛ فإنها بالإضافة إلى كونها مسئولية كبيرة فهي سببٌ للعُجْبِ والشهرة، ومَنْ تَشَوَّف لها ذهب إخلاصه، وصار يُجَمِّل في صلاته ويُحَسِّن لأجل الناس، وفي هذا خطر كبير على عقيدة المسلم، كما أن المُتَقَدِّم للإمامة مُعَرَّضٌ لكراهية الناس لإمامته، وفي هذا خطرٌ آخر على صلاة الإمام؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُرْفَعُ صَلَاتُهُمْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ شِبْرًا: رَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ، وَأَخَوَانِ مُتَصَارِمَانِ»[1].

والكراهية المقصودة ليست كراهية شخصية كالتي تحدث بين اثنين من المسلمين؛ إنما المقصود هي الكراهية الشرعية، بمعنى أن يكون المُتَقَدِّم للإمامة لا يحقُّ له ذلك، لقلَّة حفظه، أو ضعف علمه؛ ولكنه قدَّم نفسه عن طريق الغلبة أو الإحراج، أو يكون من أئمة الجور أو الظلم، فيكون المُصَلُّون كارهين له لظلمه وفساده، فيضيع خشوعهم لكونهم كارهين لإمامته، وعَنْ عَمْرِو بْنِ الحَارِثِ بْنِ المُصْطَلِقِ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ يُقَالُ[2]: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا اثْنَانِ: امْرَأَةٌ عَصَتْ زَوْجَهَا، وَإِمَامُ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ». قَالَ جَرِيرٌ[3]: قَالَ مَنْصُورٌ[4]: فَسَأَلْنَا عَنْ أَمْرِ الإِمَامِ؟ فَقِيلَ لَنَا: «إِنَّمَا عَنَى بِهَذَا الأَئِمَّةَ الظَّلَمَةَ، فَأَمَّا مَنْ أَقَامَ السُّنَّةَ فَإِنَّمَا الإِثْمُ

---

(١) ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب من أمَّ قومًا وهم له كارهون (٩٧١)، واللفظ له، وابن حبان (١٧٥٧)، وصححه البوصيري، انظر: مصباح الزجاجة ١/ ١١٩، وحسنه النووي، انظر: خلاصة الأحكام ٢/ ٧٠٣.

(٢) أي كان الصحابة يقولون؛ لأن عمرو بن الحارث رضي الله عنه صحابي جليل، وهو أخو أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها، أو أن القائل هو رسول الله ﷺ، فيكون الحديث بذلك مرفوعًا، وهو أولى والله أعلم؛ لأن معرفة أشد الناس عذابًا لا سبيل له إلا عن طريق الرسول ﷺ.

(٣) هو أحد رواة الحديث؛ وهو: جرير بن عبد الحميد بن قُرط أبو عبد الله الضبي الكوفي (١١٠ - ١٨٨ هـ = ٧٢٨ - ٨٠٤ م)، الإمام الحافظ القاضي، نزيل الري وقاضيها، ثقة، وقال أبو حاتم: صدوق تغير قبل موته. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩/ ٩-١٨، وبرهان الدين الحلبي: الاغتباط بمن رمي من الرواة بالاختلاط ص٧٦.

(٤) هو: منصور بن المعتمر السلمي، أبو عتاب الكوفي، الحافظ الثبت القدوة، أحد الأعلام، من عبَّاد أهل الكوفة، وفقهائهم، ومات سنة (١٣٢هـ = ٧٥٠م). انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٠٢- ٤١٢.

عَلَى مَنْ كَرِهَهُ»[١].

كانت هذه بعض الملامح لاختيار إمام الصلاة! وهناك تفصيلات وتفريعات أخرى كثيرة موجودة في كتب الفقه، وليس في منظور الكتاب أن يناقش كل هذه المسائل، ولكني اخترتُ هنا ما شعرتُ أن له علاقة بصورة أو أخرى بمسألة الخشوع في الصلاة.

وبعد أن اخترنا إمامنا في الصلاة، ورضينا به، أُوَجِّه في هذه السطور القادمة بعض النصائح إليه، وهي تساعد -بإذن الله- في زيادة خشوع المأمومين:

أولًا: أن يُوَجِّه الإمام بعض النصائح المختصرة للمُصَلِّين قبل الصلاة؛ منها:

١- الخشوع في الصلاة، والصلاة كمودِّع للدنيا.

٢- غلق الهاتف المحمول.

٣- رعاية المقتنيات الشخصية؛ خاصة إن اشتُهرت حوادث السرقة في المنطقة.

٤- رعاية الأطفال الصغار، لو كان يرى بعضهم في الصفوف.

ثانيًا: توجيه نصائح خاصة بصفوف الصلاة:

١- على الإمام أن يحرص على استواء الصفِّ تمامًا قبل الصلاة، فهذه إحدى مهامِّه، ويُسَنُّ له أن يقول لهم: «**اسْتَوُوا، وَلَا تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ**»[٢]. وينبغي للإمام أَلَّا يكتفي بالقول في ذلك؛ بل عليه أن يحرص على تسوية الصفِّ بنفسه، وقد مرَّ بنا في هذا الكتاب[٣] كيف كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك، وقال أَبُو مَسْعُودٍ ﷺ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ**[٤]. فكان الرسول ﷺ يمرُّ بين الصفوف يُسوِّيها، وقال عمرو بن ميمون ﷺ وهو يصف إمامة عمر بن الخطاب ﷺ للناس: «**وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، قَالَ: اسْتَوُوا، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلًا تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ**»[٥]. وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ**»[٦]. وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ، قَالَ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**

---

(١) الترمذي: أبواب الصلاة، باب فيمن أمَّ قومًا وهم له كارهون (٣٥٩)، وابن أبي شيبة: المصنف (٤١١٠)، وصحح إسناده الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ١/ ٢٠٩ (٣٥٩).

(٢) سبق تخريجه ص٢٤٥.

(٣) راجع «خشوع الملائكة» ص٢٢٢.

(٤) سبق تخريجه ص٢٤٥.

(٥) سبق تخريجه ص٢٤٠.

(٦) سبق تخريجه ص٢٢٥.

يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ[١] حَتَّى رَأَى أَنَّا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ، ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا فَقَامَ، حَتَّى كَادَ يُكَبِّرُ فَرَأَى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ مِنَ الصَّفِّ، فَقَالَ: «عِبَادَ الله لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ»[٢]. وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ﷺ: «رَأَيْتُ الرَّجُلَ مِنَّا يُلْزِقُ كَعْبَهُ بِكَعْبِ صَاحِبِهِ»[٣]. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: «وَكَانَ أَحَدُنَا يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ، وَقَدَمَهُ بِقَدَمِهِ»[٤]. فهذه كلها وسائل عملية تُساعد على تسوية الصفوف، وعلى الإمام أن يحرص عليها حتى لو كانت هناك خطوط مستقيمة في الأرض تُحدِّد الصفَّ وترسمه.

٢- على الإمام أن يتأكَّد من اكتمال الصفوف الأولى، والأول فالأول، وينبغي له ألَّا يدع في صفوف المُصلِّين فُرْجَة للشيطان؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَتِمُّوا الصَّفَّ الْأَوَّلَ ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، وَإِنْ كَانَ نَقْصٌ فَلْيَكُنْ فِي الصَّفِّ الْمُؤَخَّرِ»[٥]. وعَنْ أَنَسٍ ﷺ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «رُصُّوا صُفُوفَكُمْ وَقَارِبُوا بَيْنَهَا وَحَاذُوا بِالْأَعْنَاقِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرَى الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ كَأَنَّهَا الْحَذَفُ»[٦].

٣- ينبغي للإمام أن يبحث عن الحُفَّاظ والعلماء ويجعلهم خلفه في الصفِّ الأول؛ فقد يخجلون من اختراق الصفوف والوقوف في المقدمة، وكان رسول الله ﷺ يقول: «لِيَلِيَنِّي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ..»[٧]. وعلى الإمام أن يفعل ذلك برفق وأدب وكياسة؛ لئلَّا يُوغر صدور المُصلِّين في الصفِّ الأول حيث قد يأخذ العالِم أو الكبير مكانَ واحد منهم.

ثالثًا: توجيه نصائح خاصة بقراءة القرآن:

١- اقرأ قراءة خاشعة متدبِّرة، واعلم أن فاقد الشيء لا يُعطيه، وأن أجرك عظيم إن خَشَعْتَ فخَشَعَتْ جموعُ المُصلِّين بخشوعك، وتدبَّر في قول رَسُولِ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ

(١) سبق شرح المعنى ص٢٢٦.
(٢) سبق تخريجه ص٢٢٦.
(٣) سبق تخريجه ص٢٢٨.
(٤) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إلزاق المنكب بالمنكب والقدم بالقدم في الصف، (٦٩٢).
(٥) سبق تخريجه ص٢٣٢.
(٦) سبق تخريجه ص٢٣٤.
(٧) مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول والمسابقة إليها وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام، (٤٣٢)، وابن ماجه (٩٧٦)، واللفظ له، وابن حبان (٢١٧٢)، والحاكم (٢١٥٠).

النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَى اللهَ»[1].

٢- قف عند كل آية ومُدَّ صوتَك حتى يأخذ الناس فرصة للتدبُّر؛ فقد قال قَتَادَةُ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «كَانَ يَمُدُّ بِهَا صَوْتَهُ مَدًّا»[2].

٣- إياك من اعتياد قراءة سور معينة في الصلوات الجهرية؛ بل نوِّع فيها، حتى لا يُصيب المأمومين رتابة، وما أجمل أن يمرَّ عليك الشهر والشهران دون أن تُعيد ما قرأتَه في هذه الصلوات.

٤- حاول أن تُغيِّر من نغمة القراءة عند بعض الآيات التي تُريد للمأمومين أن يتدبَّروا فيها لكي تلفت نظرهم إليها، ويمكن -أيضًا- أن تقف وقفات تُنبِّه السامعين إلى المعنى المقصود، كما يمكن إعادة بعض الآيات؛ ولكن دون تكرار كثير حتى لا تُطيل على المُصَلِّين.

٥- احرص على التلاوة بالقراءة التي يعرفها أهل البلد، ومعظم الأقطار الإسلامية تقرأ بقراءة حفص، والبعض مثل الشمال الإفريقي يقرءون بقراءة ورش؛ لأن الاختلاف قد يُؤَدِّي إلى شرود المأموم في اللفظ الجديد الذي يسمعه، وقد يظنُّه خطأ فيُصَوِّبه، أو يبقى في ذهنه شكٌّ، وكل ذلك يُؤَثِّر على الخشوع.

٦- احرص على البكاء بلا تكلُّف، ودون رفع الصوت؛ وَقد قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ شَدَّادٍ ﵀: سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ ﷺ وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ [يوسف: ٨٦][3].

٧- من الأفضل أن يسكت الإمام قليلًا بعد قراءة الفاتحة ليُعطي المأمومين فرصة قراءة الفاتحة، والواقع أن قراءة الفاتحة للمأموم أمر فيه خلاف بين العلماء، فأبو حنيفة ومالك

---

(١) ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، بابٌ في حسن الصوت بالقرآن، (١٣٣٩)، وصححه الألباني، انظر: صحيح ابن ماجه، ١/ ٣٩٨ (١١٠٩).

(٢) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، (٤٧٥٨)، وأبو داود (١٤٦٥)، والنسائي (١٠٨٧)، واللفظ له، وابن ماجه (١٣٥٣)، وأحمد (١٢٢١٩).

(٣) رواه البخاري تعليقًا على باب إذا بكى الإمام في الصلاة، كتاب الجماعة والإمامة، وسعيد بن منصور في سننه، انظر: التفسير من سنن سعيد بن منصور ٥/ ٤٠٥، وقال د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد: سنده صحيح. وعبد الرزاق: المصنف، (٢٧١٦)، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٦/ ١٧٩، وقال عبد السلام بن محسن آل عيسى: صحيح من طريق ابن سعد. انظر: دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية ﷺ ١/ ٣٢٧.

وأحمد يقولون بعدم وجوبها على المأموم؛ بينما يقول الشافعي بوجوبها عليه، خاصَّة إذا لم يكن مسبوقًا[(١)] وكان عنده وقت للقراءة[(٢)]، فإذا كان المأموم شافعيًّا، أو كان معتقدًا لضرورة قراءة الفاتحة لسماعه ذلك من شيخ شافعي، فإنه سيقرؤها في أثناء قراءة الإمام للسورة التي تلي الفاتحة، ولا يخفى على أحد أن هذا سيمنع التدبُّر في القراءة حتمًا؛ ومن ثَمَّ فالأجدر بالإمام أن يُغْلِق هذه الأبواب بإعطاء المأمومين فرصة لقراءة الفاتحة؛ خاصة في البلاد التي ينتشر بها المذهب الشافعي كمصر، والشام (سوريا، والأردن، وفلسطين، ولبنان)، واليمن، والصومال، وأريتريا، وجيبوتي، وغيرها.

٨- نَبِّه المُصَلِّين من حين إلى آخر أن يمتنعوا عن القراءة مع الإمام، فبعض المُصَلِّين -خاصة الأطفال- قد يحلو له أن يقرأ مع الإمام في الصلوات الجهرية إذا قرأ الإمام في صورة يحفظونها، وهذا في الواقع مخالف للسُّنَّة، وقد يقود إلى تشتيت الإمام، وأيضًا قد يُذْهِب خشوعَ المُصَلِّين، وقد روى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ انْصَرَفَ مِنْ صَلَاةٍ جَهَرَ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ فَقَالَ: «هَلْ قَرَأَ مَعِي أَحَدٌ مِنْكُمْ آنِفًا؟» قَالَ رَجُلٌ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «إِنِّي أَقُولُ مَا لِي أُنَازَعُ الْقُرْآنَ». قَالَ: فَانْتَهَى النَّاسُ عَنِ الْقِرَاءَةِ فِيمَا جَهَرَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ بِالْقِرَاءَةِ مِنَ

(١) المسبوق: قال الجرجاني: هو الذي أدرك الإمام بعد ركعة أو أكثر. انظر: الجرجاني: التعريفات ص٢١٣، وقال السيوطي: المَسْبُوقُ: من لا يسع بين تكبيره وركوع إمامه قراءة فاتحة. انظر: السيوطي: معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم ص٥١، والمقصود هنا عند الشافعية: هو الذي لم يُدرك مع الإمام محل قراءة الفاتحة. انظر: الخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ١/ ٥٠٧، ٥٧١، والسنيكي: أسنى المطالب في شرح روض الطالب ١/ ٢٢٩، وشمس الدين الرملي: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٢/ ٢٢٧.

(٢) قال الشافعية: يفترض على المأموم قراءة الفاتحة خلف الإمام، إلا إن كان مسبوقًا بجميع الفاتحة أو بعضها، فإن الإمام يتحمَّل عنه ما سبق به إن كان الإمام أهلًا للتحمُّل. انظر: النووي: المجموع شرح المهذب ٣/ ٣٢٦-٣٣٠، وروضة الطالبين وعمدة المفتين ١/ ٢٤٢، والسنيكي: أسنى المطالب في شرح روض الطالب ١/ ١٥٠، وابن حجر الهيتمي: تحفة المحتاج في شرح المنهاج ٢/ ٣٥، والخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ١/ ٣٥٣، ٣٥٤، وقال الحنفية: إن قراءة المأموم خلف إمامه مكروهة تحريمًا في السرية والجهرية، انظر: الزيلعي: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي ١/ ١٣١، وبدر الدين العيني: البناية شرح الهداية ٢/ ٣١٤، وابن عابدين: رد المحتار ١/ ٤٨٨، ٤٨٩، ٥٤٤، وقال المالكية: لا تجب قراءة الفاتحة على المأموم، لكن تستحبُّ قراءتها في السر دون الجهر. انظر: السعدي: عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة ١/ ٩٩، وابن الحاجب: جامع الأمهات ص٩٤، والقرافي: الذخيرة ٢/ ١٨٤، وقال الحنابلة: القراءة خلف الإمام مستحبة في الصلاة السرية، وفي سكتات الإمام في الصلاة الجهرية، وتُكره حال قراءة الإمام في الصلاة الجهرية. انظر: ابن قدامة: المغني ١/ ٤٠٥-٤٠٨، وبهاء الدين المقدسي: العدة شرح العمدة ص٧٨، وابن مفلح: المبدع في شرح المقنع ١/ ٣٨٥-٣٩١، وانظر: الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٢٠٨، والموسوعة الفقهية الكويتية، ٤/ ١٧١، الموسوعة الفقهية الكويتية ١٠/ ٢٦٥، ٢٥/ ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٢/ ٨، ٩.

الصَّلَاةِ حِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ[1].

رابعًا: إياك وتطويل الصلاة!

قد يظنُّ بعض الأئمة أن صوتهم الجميل، أو قراءتهم الخاشعة، مبررات مقبولة لإطالة الصلاة! فإذا خالجهم هذا الشعور فليُدركوا أن رسول الله ﷺ، وهو أحسن الناس صوتًا[2]، وأخشعهم قراءةً، كان يُخَفِّف صلاته، وينهى نهيًا مباشرًا عن الإطالة؛ وذلك حتى لا ينصرف ذهن المُصَلِّي إلى حاجة يُريد قضاءها، أو يَصِلَ إلى حالة من التعب تصرفه عن التركيز، ومع ذلك فالموضوع نسبي للغاية، وما يراه بعضهم تخفيفًا هو في عُرف الآخرين تطويل، والعكس صحيح، وقد آثرتُ أن أفرد لهذه المسألة فصلًا منفردًا لأهميتها، وهو الفصل القادم في هذا الكتاب بإذن الله[3]، وهذه النصيحة خاصَّة بقراءة القرآن، أمَّا الركوع والسجود فينبغي الحرص على تمامهما، بل يُفَضَّل أن يُطيل الإمام الركوع نسبيًّا إذا شعر بقدوم مصلٍّ؛ وذلك حتى يُتِيح له أن يُدرك الركعة دون جهد، وبذلك يُساعد المأموم على هدوء النفس، وبالتالي الخشوع.

خامسًا: نصائح خاصة بصلاة التراويح:

١- وضِّح للمُصلِّين مَنِ الذي سيقوم بتصويب القراءة للإمام في حال الخطأ، ويُفَضَّل أن يكون حافظًا مُجِيدًا، فإن لم يكن فليحمل مصحفًا يُمَكِّنه من المتابعة بشكل جيد مستمرٍّ، ولا تسمح لجماهير المُصَلِّين أن يقوموا جميعًا بتصويب الإمام؛ فإن هذا يُحْدِث جلبة تُؤَدِّي إلى ذهاب الخشوع.

٢- تأكَّد من وضوح الصوت في مُكَبِّر الصوت، ومن جودة السماعات، وأنها تعمل عند النساء، فاختفاء الصوت أو ضَعْفُه سيَذهب بالخشوع لا محالة.

٣- نبِّه على وجود سجدة في الركعة الأولى أو الثانية لكي لا يضطرب الناس، وبالتالي

---

(١) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب من كره القراءة (٨٢٦)، والترمذي (٣١٢)، وقال: حديث حسن. والنسائي (٩٩١)، وابن ماجه (٨٤٨)، والموطأ (١٩٣)، وأحمد (٧٢٦٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٤٠٩ (٧٨١).

(٢) عن البَرَاءِ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ: «يَقْرَأُ: وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ فِي العِشَاءِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ أَوْ قِرَاءَةً». البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب القراءة في العشاء، (٧٣٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، (٤٦٤).

(٣) وهو بعنوان تخفيف في تمام ص٤٢٦.

يقلُّ الخشوع.

سادسًا: نصائح خاصة بعد الصلاة:

١- لا ينبغي للإمام أن ينصرف مسرعًا بعد الصلاة حتى لا يلفت أنظار المأمومين فيذهب بخشوعهم، وقد يُقَلِّده أحدهم فيقوم فتفوته أذكار ختام الصلاة؛ التي تساعده عادة على استثمار خشوع الصلاة وتثبيته.

٢- يُفَضَّل إعطاء درس عن الخشوع بين الحين والآخر.

سابعًا: أمور خارج الصلاة:

ينبغي للإمام أن يحرص على أن يكون مسجده سببًا من أسباب خشوع المُصَلِّين؛ وذلك بالحفاظ عليه في الصورة الجميلة التي تُوَفِّر أفضل الأجواء للخشوع، وقد فَصَّلنا في ذلك في صفحات سابقة من هذا الكتاب[1]، وكان من أهمها:

١- الحذر من الزخرفة الشديدة الجاذبة للانتباه سواء في الجدران أو السجاد.

٢- عدم وضع إعلانات في مواجهة المصلين.

٣- الاهتمام بنظافة المسجد.

٤- تطييب رائحة المسجد.

٥- تهوية المسجد بشكل صحي.

٦- الإضاءة الجيدة الهادئة.

كانت هذه نصائح للأئمة تُساعدهم على بثّ روح الخشوع في روّاد المسجد..

وإذا كنا نقول ذلك لأئمة الصلاة؛ فإننا نقول للمأمومين:

الإمام الخاشع تُقْطَع له المسافات!

فليس معنى أن هناك مسجدًا قريبًا من البيت أننا مضطرون إلى الصلاة فيه؛ بل لا مانع من السير قليلًا -أو كثيرًا- للوصول إلى مسجد نعلم أن إمامه يقرأ بخشوع، أو أن المسجد به من الأمور ما يُساعد على الصلاة الهادئة الخاشعة، فمسألة الصلاة مهمَّة وجليلة، وينبغي ألَّا نتعامل معها كأمرٍ قد كُلِّفْنَا به وأديناه على أيِّ نحو؛ بل ينبغي أن ننظر إليها على أنها إصلاح لديننا ودنيانا؛ ومن ثَمَّ فبذل الجهد، ولو كان بطول المشي إلى مسجدٍ أبعد، أمرٌ محمودٌ مأجورٌ

(١) راجع «المسجد الأول!» ص٢٠٠-٢١٦.

إن شاء الله، وكلُّ الخطوات المقطوعة للمسجد محسوبة في ميزان الحسنات؛ فقد روى أبو هُرَيْرَةَ ﷺ، أن رَسُول الله ﷺ قال: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً»(١). وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أيضًا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»(٢)..

ولو كنتَ لا تزال مترددًا في قطع المسافات إلى مسجد تَحْسُن فيه صلاتُك فإني أتركك مع هذه الروايات فإنها كفيلة -بإذن الله- بتشجيعك على المشي الطويل!

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْظَمُ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلَاةِ أَبْعَدُهُمْ، فَأَبْعَدُهُمْ مَمْشًى، وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ حَتَّى يُصَلِّيَهَا مَعَ الإِمَامِ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي يُصَلِّي ثُمَّ يَنَامُ»(٣).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ لَا أَعْلَمُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لَا تُخْطِئُهُ صَلَاةٌ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ أَوْ قُلْتُ لَهُ: لَوِ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ، وَفِي الرَّمْضَاءِ. قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَدْ جَمَعَ اللهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ»(٤).

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: أَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ فَكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُعْرَى(٥) الْمَدِينَةُ، وَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِمَةَ أَلَا تَحْتَسِبُونَ آثَارَكُمْ». فَأَقَامُوا(٦).

وفي رواية عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، قَالَ: خَلَتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ

---

(١) سبق تخريجه ص١٥٣.

(٢) سبق تخريجه ص٧١.

(٣) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل صلاة الفجر في جماعة، (٦٢٣)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، (٦٦٢).

(٤) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، (٦٦٣)، وأبو داود (٥٥٧)، وابن ماجه (٧٨٣)، وأحمد (٢١٢٥٢).

(٥) تعرى المدينة؛ أي: يَتْرُكُونَهَا خَالِيَةً، يُقَالُ: أَعْرَاهُ إِذَا أَخْلَاهُ، وَالْعَرَاءُ الأَرْضُ الْخَالِيَةُ، وَقِيلَ: الْوَاسِعَةُ. وَقِيلَ: الْمَكَانُ الَّذِي لَا يُسْتَتَرُ فِيهِ بِشَيْءٍ، وَنَبَّهَ بِهَذِهِ الْكَرَاهَةِ عَلَى السَّبَبِ فِي مَنْعِهِمْ مِنَ الْقُرْبِ مِنَ الْمَسْجِدِ لِتَبْقَى جِهَاتُ الْمَدِينَةِ عَامِرَةً بِسَاكِنِهَا. ابن حجر: فتح الباري ٢/ ١٤٠.

(٦) البخاري: أبواب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، (١٧٨٨)، وابن ماجه (٧٨٤)، وأحمد (١٢٠٥٢).

أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ». قَالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ. فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِمَةَ؛ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»(١).

وأخيرًا عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَتْ دِيَارُنَا نَائِيَةً عَنِ الْمَسْجِدِ، فَأَرَدْنَا أَنْ نَبِيعَ بُيُوتَنَا، فَنَقْتَرِبَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَنَهَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ خَطْوَةٍ دَرَجَةً»(٢).

فهل بعد هذا الفيض النبوي من تردُّد؟!

اللهمَّ لا!

* * *

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، (٦٦٥)، وأحمد (١٤٦٠٦).
(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، (٦٦٤).

تخفيفٌ في تمام!

قال مُصلٍّ:

أصلح اللهُ الإمامَ!

لقد طوَّل في صلاته حتى كدنا نتساقط!

رَدَّ عليه آخر:

بل أراه قد اختصر، وكان ينبغي أن يُطيل أكثر من ذلك!

ألست تقف بالساعات في أمور معاشك ولهوك؟

أكثيرٌ على الله أن تقف له هذه الدقائق؟!

قال ثالثٌ:

بل ما أروع ما فعل! إن قراءته ليست بالطويلة ولا بالقصيرة!

دخل في الحوار رابع يُؤَيِّد الأول:

لكن يا إخواننا ليس كلنا شباب يتحمَّل!

وأين نُصَلِّي إن طَوَّل بنا الإمام؟

دخل هنا خامس يُؤَيِّد الثاني:

يا أخوة يا كرام لماذا الاختلاف؟

كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي بالأعراف كلها، وما يتكلَّم أحد!

وجذب الحوارُ سادسًا، أتى ليدعم الثالث:

الحقُّ إن إمامنا يعرف السُّنَّة، وقراءته -فيما أرى- مناسبة!

هذا نموذج من حوار متكرِّر بشكل أو آخر في مساجدنا، فقَلَّ أن تجد المُصَلِّين متَّفقين على قراءة الإمام، وجُلُّهم يختلفون حول القدر المناسب في القراءة في الصلوات الجماعية؛ ففريق يرى التخفيف لأن الرسول ﷺ أمر به، وفريق يرى أن المسلمين يقضون أوقاتًا طويلة في عملٍ أو لهوٍ أو نومٍ، فإذا جاء وقت الصلاة حرصوا على التخفيف! فأين الصواب في ذلك؟

الصواب هو ما جاء عن رسول الله ﷺ، فاتباع سُنَّته كفيل بأن يُخرجنا من هذا الجدل، والتخفيف كما نعلم سُنَّة ثابتة، وله أدلَّة كثيرة؛ فمنها ما جاء عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله لَا أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلَاةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بِنَا فُلَانٌ. فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ، فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ»[١]. وعن عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ ﷺ، قَالَ: «آخِرُ مَا عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ: إِذَا أَمَمْتَ قَوْمًا، فَأَخِفَّ بِهِمُ الصَّلَاةَ»[٢].

وواضح من الروايات أن المقصود بالتخفيف هي صلوات الجماعة؛ أمَّا صلاة المسلم الفردية في بيته فليفعل فيها ما يشاء؛ فقد روى أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ»[٣].

فهذه الأنواع التي ذكرها رسول الله ﷺ من الذين يرغبون في التخفيف لا تخلو منهم صلاة، فهناك دومًا كبير في السن، أو مريض، أو امرأة ترعى أطفالًا، أو صاحب حاجة..

ولكن تبقى مشكلة! وهي أن مسألة التخفيف أمرٌ نسبي؛ فمعظم الناس لا يدرون ماذا يعني التخفيف؟! إن قراءة سورة الأنفال مثلًا في العشاء تخفيفٌ لمن كان يُريد القراءة بالبقرة أو آل عمران! وقراءة سورة الضحى تطويلٌ لمن كان يريد الصلاة بالإخلاص أو الكوثر! فما حلُّ المعضلة؟!

الحلُّ هو العودة إلى المقياس النبوي للتخفيف والتطويل، ولا ينبغي لنا هنا أن نعود إلى حديث واحد؛ إنما إلى أحاديث كثيرة، ومواقف متعدِّدة، ومجموع هذه المواقف يُعطينا انطباعًا عن الحدِّ المطلوب في القراءة؛ الذي يُحقِّق التخفيف دون الإخلال بخشوع المُصلِّين.

وعليه فإننا في هذا الفصل سنراجع معًا ما ورد عن قراءة الرسول ﷺ في الصلوات المختلفة، أو أوامره للصحابة الذين يَؤُمُّون الناس، وبعدها يمكن أن نتوقَّع المعيار النبوي المناسب.

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، (٩٠)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، (٤٦٦).

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، (٤٦٨).

(٣) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء، (٦٧١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، (٤٦٨).

أولًا: ما ورد عن قراءة الرسول ﷺ في صلاة الصبح:

تتَّفق معظم الروايات -كما سنرى- على أن أطول صلوات رسول الله ﷺ كانت صلاة الصبح؛ ولعل ذلك لأنها في أول اليوم، وقد أتى المـُصلِّي وهو في كامل نشاطه، آخذين في الاعتبار أن السُّنَّة النبوية تقضي بالنوم المبكر؛ فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ ﷺ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ العِشَاءِ، وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا»[1]. كما أن سكون الحال في هذا التوقيت الباكر يدعو للتدبُّر في القرآن، والخشوع في الصلاة، ولعلَّ صلاة الصبح جُعِلَت ركعتين فقط لتُعطِي الإمام فرصة الإطالة في القراءة دون إرهاقٍ للناس، والله أعلم بمراده.

أمَّا ما ورد عن قراءته ﷺ في هذه الصلاة فكثير..

فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ ﷺ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي الصُّبْحَ وَأَحَدُنَا يَعْرِفُ جَلِيسَهُ[2]، وَيَقْرَأُ فِيهَا مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى المِائَةِ»[3]. وأبو برزة ﷺ هنا لم يُحَدِّد سورًا معينة؛ إنما كان يَهدِف إلى تقدير وقت القراءة، كما إنه لم يُحَدِّد قدر طول الآيات التي ذكرها، ويُفْهَم من ذلك أنه يقصد -على الأغلب- الآيات المتوسطة في الطول، مع عِلْمِنا أن الرسول ﷺ كان يقرأ من القرآن كله؛ ولكن ما ذكره أبو برزة ﷺ هو متوسط القراءة.

ووردت تقديرات أخرى مهمَّة في رواية عَبْدِ الله بْنِ السَّائِبِ ﷺ، وهو صحابي جليل، وَصَفَ صلاة الصبح للنبي ﷺ، كما وصفها لبعض الصحابة الكبار؛ وذلك لتقريب الصورة للأجيال التي ستلحق بهم؛ قال عبد الله بن السائب ﷺ: «قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ المُؤْمِنُونَ فِي الصُّبْحِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ ذِكْرُ مُوسَى، وَهَارُونَ[4] -أَوْ ذِكْرُ عِيسَى[5]- أَخَذَتْهُ سَعْلَةٌ فَرَكَعَ». وَقَرَأَ عُمَرُ ﷺ

---

(١) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب ما يكره من النوم قبل العشاء، (٥٤٣)، واللفظ له، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها وهو التغليس، وبيان قدر القراءة فيها، (٦٤٧).

(٢) يَعْرِفُ جَلِيسَهُ؛ أَيِ الَّذِي بِجَنْبِهِ، فَفِي رِوَايَةِ الجَوْزَقِيِّ مِنْ طَرِيقِ وَهْبِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ شُعْبَةَ: «فَيَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى جَلِيسِهِ إِلَى جَنْبِهِ فَيَعْرِفُ وَجْهَهُ». وَلِأَحْمَدَ: «فَيَنْصَرِفُ الرَّجُلُ فَيَعْرِفُ وَجْهَ جَلِيسِهِ». وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «فَيَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ جَلِيسِهِ الَّذِي يَعْرِفُ فَيَعْرِفُهُ». وَلَهُ فِي أُخْرَى: «وَنَنْصَرِفُ حِينَ يَعْرِفُ بَعْضُنَا وَجْهَ بَعْضٍ». انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢٢، وكل هذا يعني أن القراءة كانت طويلة نسبيًّا حتى ظهر النور وصار سهلًا على كل رجل أن يتعرَّف على مَنْ يجاوره، ولا بد أن يؤخذ في الاعتبار أن المساجد والطرق كانت مظلمة في هذا التوقيت.

(٣) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت الظهر عند الزوال، (٥١٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها وهو التغليس، وبيان قدر القراءة فيها، (٦٤٧).

(٤) أي عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥].

(٥) أي عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى بِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ آيَةً مِنَ البَقَرَةِ[١]، وَفِي الثَّانِيَةِ بِسُورَةٍ مِنَ المَثَانِي، وَقَرَأَ الأَحْنَفُ ﷺ بِالكَهْفِ فِي الأُولَى، وَفِي الثَّانِيَةِ بِيُوسُفَ -أَوْ يُونُسَ- وَذَكَرَ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ عُمَرَ ﷺ الصُّبْحَ بِهِمَا، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: بِأَرْبَعِينَ آيَةً مِنَ الأَنْفَالِ، وَفِي الثَّانِيَةِ بِسُورَةٍ مِنَ المُفَصَّلِ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِيمَنْ يَقْرَأُ سُورَةً وَاحِدَةً فِي رَكْعَتَيْنِ أَوْ يُرَدِّدُ سُورَةً وَاحِدَةً فِي رَكْعَتَيْنِ: «كُلٌّ كِتَابُ الله»[٢].

في الرواية السابقة يظهر من كلام عبد الله بن السائب ﷺ أن الرسول ﷺ كان ينوي أن يُكمل في سورة «المؤمنون»؛ ولكنه توقَّف بسبب السعال، ولعلَّه كان سيتمُّها؛ لأن معظم ما ورد عن النبي ﷺ هو قراءة السورة كاملة، إمَّا في ركعة واحدة أو في الركعتين، وسورة المؤمنون ثلاثة أرباع، فهذا قياس كبير، وهو أكبر قليلًا مما ذكره أبو برزة ﷺ؛ حيث إن سورة «المؤمنون» مائة وثماني عشرة آية، ثم ذكر البخاري واحدةً من صلوات الصبح لعمر بن الخطاب ﷺ، فبيَّن أنه صلَّى في الركعة الأولى فقط بنحو سبعة أرباع من سورة البقرة! وفي الركعة الثانية بسورة من المثاني[٣]، والمثاني هي -على الأغلب- السور من يونس إلى الفتح؛ أي مثل يونس، أو يوسف، أو الشعراء، ومتوسطها من ثلاثة إلى أربعة أرباع، وجاء في رواية أخرى عَنْ أَبِي رَافِعٍ، قال: «**كَانَ عُمَرُ ﷺ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِمِائَةٍ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَيُتْبِعُهَا بِسُورَةٍ مِنَ المَثَانِي، أَوْ مِنْ صُدُورِ المُفَصَّلِ، وَيَقْرَأُ بِمِائَةٍ مِنْ آلِ عِمْرَانَ، وَيُتْبِعُهَا بِسُورَةٍ مِنَ المَثَانِي، أَوْ مِنْ**

---

(١) أي عند قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

(٢) ذكر البخاري كل ما سبق في ترجمة باب الجمع بين سورتين في ركعة، والقراءة بالخواتيم، وبسورة قبل سورة، وبأول سورة، في كتاب الأذان، وروى مسلم، حديث عبد الله بن السائب ﷺ مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، (٤٥٥)، وقال ابن حجر: وَقَرَأَ عُمَرُ إِلَخْ وَصله ابن أبي شَيْبَةَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ بِمِائَةٍ مِنَ الْبَقَرَةِ... قَوْلُهُ: «وَقَرَأَ الأَحْنَفُ». وَصَلَهُ جَعْفَرٌ الْفِرْيَابِيُّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ لَهُ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الله بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: «صَلَّى بِنَا الأَحْنَفُ» فَذَكَرَهُ... قَوْلُهُ: «وَقَالَ قَتَادَةُ» وَصَلَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَقَتَادَةُ تَابِعِيٌّ صَغِيرٌ يُسْتَدَلُّ لِقَوْلِهِ وَلَا يُسْتَدَلُّ بِهِ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ الْبُخَارِيُّ مِنْهُ قَوْلَهُ كُلٌّ كِتَابُ الله فَإِنَّهُ يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ جَوَازُ جَمِيعِ مَا ذُكِرَ فِي التَّرْجَمَةِ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢٥٧.

(٣) قال ابن حجر: المَثَانِي قِيلَ: مَا لَمْ يَبْلُغْ مِائَةَ آيَةٍ أَوْ بلغها. وَقِيلَ: مَا عَدَا السَّبْعَ الطِّوَالَ إِلَى المُفَصَّلِ. قِيلَ: سُمِّيَتْ مَثَانِيَ لِأَنَّهَا ثَنَّتِ السَّبْعَ، وَسُمِّيَتِ الْفَاتِحَةُ السَّبعَ المَثَانِيَ لِأَنَّهَا تُثنى فِي كُلِّ صَلَاةٍ. وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧] فَالمُرَادُ بِهَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢٥٧، وقيل: هِيَ الَّتِي تَزِيدُ آيَاتُهَا عَلَى المُفَصَّلِ وَتَنْقُصُ عَنِ المِئِينَ. وَالمِئُونَ: هِيَ السُّوَرُ الَّتِي تَزِيدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَلَى مِائَةِ آيَةٍ. انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ١١٤، وللمزيد انظر: الطبري: جامع البيان ١٧/ ١٢٩-١٤١، والماوردي: النكت والعيون ١/ ٢٦، والبغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن ٣/ ٦٤، ٦٥.

صُدُورِ الْمُفَصَّلِ»(١). والمفصل من أول الحجرات إلى آخر القرآن، وصدور المفصل أي السور الأُوَل فيه؛ مثل: الحجرات، وق، والذاريات، ثم ذكر البخاري تقديرات أخرى مُقارِبة لما سبق في صلاة الأحنف بن قيس ﷺ، وعبد الله بن مسعود ﷺ.

وقريبٌ مما سبق ما رواه أَبُو رَوْحٍ الْكَلَاعِيُّ ﷺ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ الصُّبْحَ فَقَرَأَ سُورَةَ الرُّومِ فَتَرَدَّدَ فِي آيَةٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «إِنَّهُ يَلْبِسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ أَنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ»(٢). وسورة الروم ستون آية، وهي قريبة في الحجم من سورة «المؤمنون».

وجاءت روايات أخرى بقياسات أقل؛ فعَنْ سِمَاكٍ قَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ ﷺ عَنْ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ يُخَفِّفُ الصَّلَاةَ وَلَا يُصَلِّي صَلَاةَ هَؤُلَاءِ». قَالَ: وَأَنْبَأَنِي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ بِـ﴿ق وَالْقُرْآنِ﴾ [ق: ١]، وَنَحْوِهَا(٣). وأكَّد ذلك قُطْبَةُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، فذكر أنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: ١٠](٤)، وكلام جابر بن سمرة ﷺ يُعطي الانطباع أنه اختار أن يذكر سماعه لسورة «ق» تحديدًا لأنها تُعتبَر المتوسط الذي أراد ذكره؛ فمن المؤكَّد أنه قد سمع رسول الله ﷺ كثيرًا في صلاة الصبح، وكان يقرأ أطول من ذلك وأقصر، فكان هذا هو متوسط قراءته ﷺ في رؤية جابر ﷺ، كما يُعطي كلام جابر ﷺ الانطباع الواضح أن الزيادة على هذا القدر من القراءة لم تكن معتادة في صلوات الرسول ﷺ.

ويبدو أن جابر بن سمرة ﷺ كان مستاءً من تطويل الأئمة في زمانه، بعد وفاة الرسول ﷺ، فكرَّر عدم رضاه عن فعلهم في موقف آخر؛ فقد قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ كَنَحْوٍ مِنْ صَلَاتِكُمُ الَّتِي تُصَلُّونَ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخَفِّفُ، كَانَتْ صَلَاتُهُ أَخَفَّ مِنْ

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ١/ ٣١٢ (٣٥٦٣).

(٢) النسائي: كتاب افتتاح الصلاة، القراءة في الصبح بالروم (١٠١٩)، وأحمد (١٥٩١٤)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن. وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ١/ ٢٤١، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «وهذا إسناد حسن، ومتن حسن». انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٢٩.

(٣) مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، (٤٥٨).

(٤) مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، (٤٥٧).

صَلَاتِكُمْ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ الْوَاقِعَةَ وَنَحْوَهَا مِنَ السُّوَرِ(١). فذكر جابر ﷺ إنه وإن كانت صلاةُ التابعين تُشْبه صلاةَ رسول الله ﷺ فإن صلاة الرسول ﷺ كانت أقصر وأخفَّ، وضرب هنا مثالًا آخر لقراءته ﷺ في صلاة الصبح غير مثال سورة «ق» ولكنه مقارِب؛ وهي سورة الواقعة.

وقريبًا من تقدير جابر بن سمرة ﷺ كان تقدير أُمِّ المؤمنين أم سلمة ﷺ؛ فعنها أنها قالت: شَكَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي قَالَ: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ». فَطُفْتُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ يَقْرَأُ ﷺ ﴿الطُّورِ ۞ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ [الطور: ١، ٢](٢). وفي رواية أخرى حدَّدت أم سلمة ﷺ الصلاة التي كان يُصلِّيها رسول الله ﷺ، فنقلت عنه أنه قال: «إِذَا أُقِيمَتْ صَلَاةُ الصُّبْحِ فَطُوفِي عَلَى بَعِيرِكِ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ»(٣). وسورة الطور قريبة في التقدير من سورتي ق والواقعة.

ثم تأتي تقديرات أصغر من ذلك بكثير؛ مثل ما جاء عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ ﷺ من «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧]»(٤). أي سورة التكوير؛ بل وأقل من ذلك روى مُعَاذُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْجُهَنِيُّ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ «يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ [الزلزلة: ١] فِي الرَّكْعَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا»، فَلَا أَدْرِي أَنَسِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمْ قَرَأَ ذَلِكَ عَمْدًا(٥). وسِرُّ تعليق الرجل أن الرسول ﷺ لم يعتد على تكرار السورة في الركعتين، وأقل من كل ذلك قرأ رسول الله بالمعوذتين فقط في إحدى صلوات الصبح؛ ولكن هذا كان في سَفَرٍ، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ، قَالَ: كُنْتُ أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ نَاقَتَهُ

---

(١) أحمد (٢١٠٣٣)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن. وابن حبان (١٨٢٣)، والحاكم (٨٧٥)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وابن خزيمة (٥٣١)، وحسنه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٣/ ٣١٦.

(٢) البخاري: كتاب التفسير، سورة والطور، (٤٥٧٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز الطواف على بعير وغيره واستلام الحجر بمحجن ونحوه للراكب، (١٢٧٦).

(٣) البخاري: كتاب الحج، باب من صلى ركعتي الطواف خارجًا من المسجد، (١٥٤٦).

(٤) مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، (٤٥٦)، والنسائي (١١٦٥١)، وأحمد (١٨٧٥٥).

(٥) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب الرجل يعيد سورة واحدة في الركعتين (٨١٦)، والبيهقي: السنن الكبرى، (٤١٩٢)، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٣٨٩، وقال ابن حجر: رواته موثقون. انظر: ابن حجر: نتائج الأفكار ١/ ٤٣٥، وصححه الألباني، انظر: أصل صفة صلاة النبي ﷺ ٢/ ٤٣٥.

فِي السَّفَرِ، فَقَالَ لِي: «يَا عُقْبَةُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا؟» فَعَلَّمَنِي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، قَالَ: فَلَمْ يَرَنِي سُرِرْتُ بِهِمَا جِدًّا، فَلَمَّا نَزَلَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ صَلَّى بِهِمَا صَلَاةَ الصُّبْحِ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ الْتَفَتَ إِلَيَّ، فَقَالَ: «يَا عُقْبَةُ، كَيْفَ رَأَيْتَ؟»(١).

وكل ما مرَّ بنا من روايات كان في صلاة الصبح في أيِّ يوم من أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة، والذي كانت له قراءة خاصة عند رسول الله ﷺ؛ فقد كان يقرأ في فجر هذا اليوم بالسجدة، والإنسان؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بـ﴿الم ۝ تَنْزِيلُ﴾ [السجدة: ١، ٢] فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى، وَفِي الثَّانِيَةِ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]»(٢).

هذا معظم ما ورد عن قراءة الرسول ﷺ في صلاة الصبح، وبعض ما كان يقرؤه الصحابة ﷺ، وهي تعطينا انطباعًا نسبيًّا عن مقدار ما كان يقرؤه في المتوسط.

ثانيًا: ما ورد عن مقدار قراءة الرسول ﷺ في صلاتي الظهر والعصر:

ورد تقدير قراءة الرسول ﷺ في صلاة الظهر في معظم الأحيان مع تقدير قراءته في صلاة العصر؛ ولذلك قمتُ بجمع الروايات الخاصَّة بالصلاتين معًا في هذه الفقرات التالية.

مدار هذه الروايات على الصحابيين الجليلين أبي سعيد الخدري، وجابر بن سمرة ﷺ، مع بعض الروايات الأخرى التي يمكن أن تُساعد في تقريب الصورة، وكعادة السُّنَّة النبوية فإنها دومًا تكون ذات مدًى واسعٍ لكي تُناسب عامَّة المسلمين؛ ففيها العمل الكثير الذي ينبغي ألَّا نزيد فوقه، وفيها كذلك العمل القليل الذي ينبغي ألَّا ننقص تحته، ويبدو أن أبا سعيد ﷺ كان يُمَثِّل مدرسة «الحدِّ الأقصى» في السُّنَّة النبوية؛ بينما كان جابر بن سمرة ﷺ يُمَثِّل الطرف الآخر من السُّنَّة النبوية، وهو «الحدُّ الأدنى»!

تأتي روايات أبي سعيد الخدري ﷺ مُشْعِرَةً بطول صلاتي الظهر والعصر! فقد ذكر في رواية «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ قَدْرَ ثَلَاثِينَ

---

(١) سبق تخريجه ص٣٩٩.

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة فجر الجمعة، (٨٥١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في الجمعة، (٨٨٠).

آيَةً، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ قَدْرَ خَمْسَ عَشْرَةَ آيَةً -أَوْ قَالَ: نِصْفَ ذَلِكَ- وَفِي الْعَصْرِ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ قَدْرَ قِرَاءَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ آيَةً، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ قَدْرَ نِصْفِ ذَلِكَ»[1]. وفي رواية أخرى قال: «كُنَّا نَحْزِرُ[2] قِيَامَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، فَحَزَرْنَا قِيَامَهُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ قَدْرَ قِرَاءَةِ الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةِ، وَحَزَرْنَا قِيَامَهُ فِي الْأُخْرَيَيْنِ قَدْرَ النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ، وَحَزَرْنَا قِيَامَهُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنَ الْعَصْرِ عَلَى قَدْرِ قِيَامِهِ فِي الْأُخْرَيَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ مِنَ الْعَصْرِ عَلَى النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ»[3]. والروايتان متفقتان في تحديد طول القراءة لأن سورة السجدة ثلاثون آية.

فهذه قراءة طويلة نسبيًّا؛ حيث يُؤَكِّد أبو سعيد ﷺ أن متوسط القراءة في كل ركعة هو قدر قراءة سورة السجدة؛ بل إنه ذكر أن رسول الله ﷺ كان يُطيل كذلك في الركعتين الأخيرتين من الظهر والعصر، وهذا ما دفع بعض الفقهاء[4] إلى القول بقراءة سورة بعد الفاتحة في هاتين الركعتين الأخيرتين؛ ولكن هذا خلاف الرأي المشهور؛ فقد ذهب «الْجُمْهُورُ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ: إِلَى أَنَّهُ لَا يُسَنُّ قِرَاءَةُ سُورَةٍ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، لأَنَّ عَامَّةَ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَا يَقْرَأُ فِيهَا شَيْئًا»[5].

ولقد كان أبو سعيد ﷺ يعلم أن الناس سَيَرَوْن هذه القراءة طويلة، فقال تصريحًا: «لَقَدْ

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، (٤٥٢).

(٢) نحزر؛ أي: نُقَدِّر. انظر: حاشية السندي على سنن النسائي ١/ ٢٣٧.

(٣) مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، (٤٥٢).

(٤) قال الشافعي عن القراءة في الركعتين الأخيرتين: وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ أُمَّ الْقُرْآنِ وَآيَةً، وَمَا زَادَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مَا لَمْ يَكُنْ إِمَامًا فَيَثْقُلُ عَلَيْهِ. انظر: الشافعي: الأم ١/ ١٣١، وقال الماوردي: قِرَاءَةُ السُّورَةِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ سُنَّةٌ فِي الْأُولَيَيْنِ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ. الماوردي: الحاوي الكبير ٢/ ٢٣٦. قال الجويني: هل تستحب قراءة السورة في الثالثة من المغرب، والركعتين الأخريين من الصلوات الرباعية؟ فعلى قولين منصوصين: أحدهما -وإليه ميل النصوص الجديدة- أنها مستحبة في كل ركعة على إثر الفاتحة... والقول الثاني -وعليه العمل- إن قراءة السورة لا تستحبُّ بعد الركعتين الأوليين؛ فإن بناء ما بعدهما من الركعات على التخفيف. انظر: الجويني: نهاية المطلب في دراية المذهب ٢/ ١٥٤، وقال الصنعاني: «وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ قَدْرَ النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ»، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى قِرَاءَةِ غَيْرِ الْفَاتِحَةِ مَعَهَا فِي الْأُخْرَيَيْنِ. انظر: الصنعاني: سبل السلام ١/ ٢٦٢، وذهب الحنفية إلى أن المصلي في الركعتين الأخريين لا يجب عليه شيء؛ إن شاء سكت، وإن شاء قرأ، وإن شاء سبح، وإن قرأ يقرأ الفاتحة على وجه الثناء والذِّكْر. انظر: علاء الدين السمرقندي: تحفة الفقهاء ١/ ١٢٩، والكاساني: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١/ ١١١، ١١٢، وبدر الدين العيني: البناية شرح الهداية ٢/ ٥٢٧، وابن نجيم: البحر الرائق شرح كنز الدقائق ١/ ٣٤٥.

(٥) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٥/ ٢٨٨، ٢٨٩.

كَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ تُقَامُ فَيَذْهَبُ الذَّاهِبُ إِلَى الْبَقِيعِ فَيَقْضِي حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَأْتِي وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى مِمَّا يُطَوِّلُهَا»[1].

وقال قَزَعَةُ[2] رحمه الله: أَتَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه، وَهُوَ مَكْثُورٌ عَلَيْهِ[3] فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ قُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ عَمَّا يَسْأَلُكَ هَؤُلَاءِ عَنْهُ، قُلْتُ: أَسْأَلُكَ عَنْ صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: مَا لَكَ فِي ذَاكَ مِنْ خَيْرٍ. فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «كَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ تُقَامُ فَيَنْطَلِقُ أَحَدُنَا إِلَى الْبَقِيعِ فَيَقْضِي حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَأْتِي أَهْلَهُ فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى»[4]!

لقد ردَّ أبو سعيد رضي الله عنه على قزعة ردًّا عجيبًا! فقد رفض في البداية أن يخبره عن سُنَّة رسول الله ﷺ في قدر القراءة في الصلاة؛ بل إنه قال له: «مَا لَكَ فِي ذَاكَ مِنْ خَيْرٍ»! أي إنه الأفضل لك ألا تعرفها، لأنك لن تستطيع الإتيان بمثلها لطولها وكمال خشوعها، وإن تكلَّفت ذلك شقَّ عليك ولم تُدْرِكه، فتكون قد علمتَ السُّنَّة وتركتَها، وكل هذا يُشير إلى قناعة أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بأن الأجيال الجديدة لن تستطيع الصبر على ما كان يصبر عليه الصحابة مع رسول الله ﷺ.

وعلى الناحية الأخرى كان جابر بن سمرة رضي الله عنه يروي ما يُشير إلى تخفيف رسول الله ﷺ لقراءته في صلاتي الظهر والعصر؛ فعنه رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ بِـ﴿اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، وَفِي الْعَصْرِ نَحْوَ ذَلِكَ، وَفِي الصُّبْحِ أَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ»[5]. وعنه أيضًا «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ بِـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وَفِي الصُّبْحِ بِأَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ»[6]. وذَكَرَ في رواية ثالثة، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَشِبْهِهِمَا»[7].

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، (٤٥٤).

(٢) هو: قزعة بن يحيى أبو الغادية البصري، مولى زياد بن أبي سفيان، وهو تابعي ثقة، انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب ٨/ ٣٧٧.

(٣) مَكْثُورٌ عَلَيْهِ؛ أي عِنْدَهُ نَاسٌ كَثِيرُونَ للاسْتِفَادَةِ مِنْهُ. انظر: النووي: المنهاج ٤/ ١٧٦.

(٤) مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، (٤٥٤)، وأحمد (١١٣٢٥).

(٥) مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، (٤٥٩)، واللفظ له، وأبو داود (٨٠٦)، والنسائي (١٠٥٢)، وأحمد (٢١٠٠٠).

(٦) مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، (٤٦٠).

(٧) الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في القراءة في الظهر والعصر (٣٠٧)، واللفظ له، وقال: حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه حسن صحيح. أبو داود (٨٠٥)، والنسائي، (١٠٥١)، وأحمد (٢١٠٢٠)، وقال شعيب الأرناءوط:=

وأكَّد أَنَسُ بنُ مالكٍ ﷺ كلام جابر ﷺ فذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْهُ -أي من النَّبيِّ ﷺ- فِي الظُّهْرِ النَّغْمَةَ بِـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١][١].

إذن هذان مقداران لتحديد طول القراءة في صلاتي الظهر والعصر. والمسلمُ مُخَيَّرٌ بينهما حسب ظروفه وطاقته، وحسب ظروف مسجده ورُوَّاده، وقال السيوطي تعليقًا على هذه المقادير: «وَقِيلَ: إِنَّمَا طوَّلَ فِي بعض الْأَوْقَات -وَهُوَ الْأَقَل- لبيَان جَوَاز الإطالة، وخفَّف فِي أكثر الْأَوْقَات لِأَنَّهُ الْأَفْضَل»[٢].

ومع هذه الاختلافات فإن الجميع متَّفِقٌ في عدَّة أمورٍ؛ منها أن الركعتين الأوليين أطول من الأخيرتين؛ فعَنْ أَبِي عَوْنٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ ﷺ لِسَعْدٍ ﷺ: قَدْ شَكَوْكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ[٣] حَتَّى فِي الصَّلَاةِ. قَالَ: «أَمَّا أَنَا فَأَمُدُّ فِي الْأُولَيَيْنِ وَأَحْذِفُ[٤] فِي الْأُخْرَيَيْنِ، وَمَا آلُو[٥] مَا اقْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». فَقَالَ -أي عمر ﷺ-: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ، أَوْ ذَاكَ ظَنِّي بِكَ[٦].

والجميع متَّفقٌ كذلك على أن الركعة الأولى في الظهر أو العصر أطول من الثانية؛ فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِنَا فَيَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِفَاتِحَةِ

= صحيح لغيره. والدارمي (١٢٩٠)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. وابن حبان (١٨٢٧)، وذكر النووي الحديث وقال قبله: وفي رواية صحيحة للثلاثة. خلاصة الأحكام ١/ ٣٨٤، وصححه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ١/ ٤٣٩، وصححه الألباني: انظر، صحيح أبي داود ٣/ ٣٩٠ (٧٦٧).

(١) ابن حبان: كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة (١٨٢٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن خزيمة (٥١٢)، وقال الأعظمي: إسناده صحيح. وصححه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ١/ ٤٣٨، ٤٣٩، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٣/ ٣١٧.

(٢) السيوطي: الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج ٢/ ١٦٥.

(٣) شَكَوك: يَعْنِي أَهْلَ الْكُوفَةِ. الشوكاني: نيل الأوطار ٢/ ٢٦٣، وَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ فِي كِتَابِ النَّسَبِ: رَفَعَ أَهْلُ الْكُوفَةِ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ كَشَفَهَا عُمَرُ فَوَجَدَهَا بَاطِلَةً. اهـ، وَيُقَوِّيهِ قَوْلُ عُمَرَ فِي وَصِيَّتِهِ: فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ مِنْ عَجْزٍ وَلَا خِيَانَةٍ. انظر: فتح الباري لابن حجر ٢/ ٢٣٨.

(٤) وَأَحذِفُ؛ يَعْنِي أُقَصِّرُهُمَا عَنِ الْأُولَيَيْنِ، لَا أَنَّهُ يُخِلُّهُ بِالْقِرَاءَةِ وَيَحْذِفُهَا كُلَّهَا. النووي: المنهاج ٤/ ١٧٦، وقال ابن حجر: وَالْمُرَادُ بِالْحَذْفِ حَذْفُ التَّطْوِيلِ لَا حَذْفُ أَصْلِ الْقِرَاءَةِ. ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢٣٩.

(٥) لا آلو: لا أُقَصِّر ولا أدَعُ جهدًا في الاقتداء بصلاة رسول الله ﷺ. ابن رجب: فتح الباري ٧/ ٤٩.

(٦) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب يطول في الأولين ويحذف في الأخريين، (٧٣٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، (٤٥٣).

الْكِتَابِ وَسُورَتَيْنِ، وَيُسْمِعُنَا الْآيَةَ أَحْيَانًا، وَكَانَ يُطَوِّلُ الرَّكْعَةَ الْأُولَى مِنَ الظُّهْرِ وَيُقَصِّرُ الثَّانِيَةَ، وَكَذَلِكَ فِي الصُّبْحِ[١].

والجميع متَّفِقٌ -أيضًا- على أن القراءة في الظهر أطول من القراءة في العصر، فظاهر الروايات أن صلاة الظهر ضِعْف صلاة العصر في الطول؛ بل قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: «تُضَاعَفُ صَلَاةُ الظُّهْرِ عَلَى صَلَاةِ العَصْرِ فِي القِرَاءَةِ أَرْبَعَ مِرَارٍ»[٢]. وعلَّل النووي هذا التباين بقوله: «قالوا: والحكمة في إطالة الصبح والظهر أنهما في وقت غفلة بالنوم آخر الليل وفي القائلة، فيُطَوِّلهما ليُدركهما المتأخر بغفلةٍ ونحوها، والعصر ليست كذلك؛ بل تُفْعَل في وقت تعبِ أهل الأعمال، فخُفِّفت عن ذلك»[٣]. وقد يكون التخفيف في العصر تحرُّزًا من الدخول في وقت الكراهة.

فهذا معظم ما وَرَدَ من روايات في هذه المسألة.

ثالثًا: ما وَرَدَ عن قدر قراءة الرسول ﷺ في صلاة المغرب:

المشهور عند العلماء أن القراءة في صلاة المغرب قصيرة؛ ولعلَّ العلَّة في تقليل القراءة فيها أن الوقت بين المغرب والعشاء قصير، فتكون هناك فرصة للمسلم أن يقضي بعض الأعمال بين الصلاتين، وأيضًا لكي لا تتَّصل هذه العبادة بعبادة صلاة العشاء فيطول الأمر على المسلم، وقد يُمِلُّه هذا ويُضجره، وكذلك كي لا يُطَوِّل الصيام على الصائمين، فيتمكَّنوا من الإفطار في وقت مناسب.

ودليل قِصَر القراءة في صلاة المغرب ما جاء في رواية أبي هريرة ﷺ: «.. وَيَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ الْمُفَصَّلِ..»[٤]. وكذلك ما ورد عن رَافع بن خَدِيج ﷺ قال: «كُنَّا نُصَلِّي الْمَغْرِبَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَنْصَرِفُ أَحَدُنَا وَإِنَّهُ لَيُبْصِرُ مَوَاقِعَ نَبْلِهِ»[٥]. ومواقع النبل هي كما قال ابن حجر:

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب القراءة في الظهر، (٧٢٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، (٤٥١).

(٢) ذكر ذلك الترمذي تعليقًا حديث جابر ﷺ: الترمذي: أبواب الصلاة، القراءة في الظهر والعصر (٣٠٧).

(٣) النووي: المنهاج ٤/ ١٧٤.

(٤) النسائي: كتاب صفة الصلاة، تخفيف القيام والقراءة (١٠٥٤)، وأحمد (٧٩٧٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي على شرط مسلم. وقال النووي: رواه النسائي بإسناد حسن. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٣٨٧، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي ١/ ٣٢٣ (٩٨٢).

(٥) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت المغرب، (٥٣٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب بيان أن أول وقت المغرب عند غروب الشمس، (٦٣٧).

«أي المَوَاضِعَ الَّتِي تَصِلُ إِلَيْهَا سِهَامُهُ إِذَا رَمَى بِهَا»(١). وهذا معناه أنهم كانوا يُمَيِّزون الرؤية لمسافة بعيدة، دلالة على وجود الضوء، وهذا يعني سرعة الصلاة.

ومع ذلك فقد قرأ رسول الله ﷺ في صلاة المغرب في بعض المرَّات بسُوَرٍ طويلة نسبيًّا؛ فعَنْ أُمِّ الفَضْلِ بِنْتِ الحَارِثِ ، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ «يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِـ﴿الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، ثُمَّ مَا صَلَّى لَنَا بَعْدَهَا حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ»(٢). وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ «قَرَأَ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ»(٣). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «قَرَأَ بِهِمْ فِي المَغْرِبِ بِـ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [محمد: ١]»(٤).

بل وردت روايات صحيحة تصف قراءة طويلة جدًّا في صلاة المغرب! فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ ، أَوْ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «قَرَأَ فِي المَغْرِبِ بِالْأَعْرَافِ فِي الرَّكْعَتَيْنِ»(٥). وفي رواية عَنْ عَائِشَةَ ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي صَلَاةِ المَغْرِبِ بِسُورَةِ الْأَعْرَافِ فَرَّقَهَا فِي رَكْعَتَيْنِ»(٦). وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ مِنَ المَغْرِبِ بِسُورَةِ الْأَنْفَالِ»(٧).

ويبدو أن هذه الإطالة في هذه المرَّات كانت لبيان جواز القراءة الطويلة، لئلا يُظَنَّ فرضيَّة القراءة القصيرة في المغرب، ولعلَّ هذا هو السبب الذي حدا ببعض الصحابة أن يُنْكِروا

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٤١.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (٤١٦٦).

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في المغرب، (٧٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في الصبح، (٤٦٣).

(٤) ابن حبان: كتاب الصلاة، باب صفة الصلاة (١٨٣٥)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والطبراني: المعجم الصغير (١١٧)، والمعجم الأوسط (١٧٤٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ١١٨، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٣/ ٣٢٢.

(٥) أحمد (٢٣٥٩٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. والحاكم (٨٦٦)، وابن خزيمة (٥١٧).

(٦) النسائي: كتاب صفة الصلاة، القراءة في المغرب بالمص (١٠٦٣)، والبيهقي: السنن الكبرى (٤٢٠٨)، وصححها البيهقي، وقال النووي: رواه النسائي بإسناد حسن. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٣٨٦، وصححها الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي ١/ ٣٢٥ (٩٩٠).

(٧) الطبراني: المعجم الكبير (٣٨٩٣)، وعنده أيضًا عن زيد بن ثابت الحديث رقم (٤٨٢٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ١١٨، وصحح إسناده الألباني، انظر: أصل صفة صلاة النبي ﷺ ٢/ ٤٨٧.

على مَنْ تعمَّد القراءة القصيرة في صلاة المغرب في كل المرَّات، فعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ، قَالَ: قَالَ لِي زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: مَا لَكَ تَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِقِصَارِ المُفَصَّلِ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ «يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِطُولَى الطُّولَيَيْنِ»؟ قَالَ: قُلْتُ: مَا طُولَى الطُّولَيَيْنِ؟ قَالَ: الأَعْرَافُ وَالأُخْرَى الأَنْعَامُ. قَالَ: وَسَأَلْتُ أَنَا ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ، فَقَالَ لِي -مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ-: المَائِدَةُ وَالأَعْرَافُ. وذكر عروة بن الزبير أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ، أَوْ أَبَا أَيُّوبَ ، قَالَ لِمَرْوَانَ: «أَلَمْ أَرَكَ قَصَّرْتَ سَجْدَتَيِ المَغْرِبِ؟ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِيهَا بِالأَعْرَافِ»(١).

وقال الترمذي تعليقًا على حديث أمِّ الفضل ؛ التي ذكرت فيه قراءة الرسول ﷺ للمرسلات في صلاة المغرب: «وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ فِي المَغْرِبِ بِالأَعْرَافِ فِي الرَّكْعَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا»، «وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ». وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى «أَنِ اقْرَأْ فِي المَغْرِبِ بِقِصَارِ المُفَصَّلِ». وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ «قَرَأَ فِي المَغْرِبِ بِقِصَارِ المُفَصَّلِ»، «وَعَلَى هَذَا العَمَلُ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ، وَبِهِ يَقُولُ ابْنُ المُبَارَكِ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ»، وقَالَ الشَّافِعِيُّ: وَذُكِرَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ: «كَرِهَ أَنْ يُقْرَأَ فِي صَلَاةِ المَغْرِبِ بِالسُّوَرِ الطِّوَالِ نَحْوَ الطُّورِ، وَالمُرْسَلَاتِ». قَالَ الشَّافِعِيُّ: «لَا أَكْرَهُ ذَلِكَ بَلْ أَسْتَحِبُّ أَنْ يُقْرَأَ بِهَذِهِ السُّوَرِ فِي صَلَاةِ المَغْرِبِ»(٢).

فهذا ما وَرَد بخصوص القراءة في صلاة المغرب.

رابعًا: ما ورد عن قراءة الرسول ﷺ في صلاة العشاء:

لم تَرِدْ إلا روايات قليلة للغاية تصف السور التي كان يقرأ بها رسول الله ﷺ في صلاة العشاء، ومن هذا القليل ما جاء عَنْ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ العَتَمَةَ(٣)، فَقَرَأَ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، فَسَجَدَ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: «سَجَدْتُ بِهَا خَلْفَ أَبِي القَاسِمِ ﷺ فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ»(٤). ورواية ثانية عن البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ : «أَنَّ النَّبِيَّ

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب قدر القراءة في المغرب (٨١٢)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٩٥، ٣٩٦ (٧٧٣).

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، (٤١٦٦).

(٣) أي صلاة العشاء.

(٤) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في العشاء، (٧٣٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، (٥٧٨).

ﷺ كَانَ فِي سَفَرٍ فَقَرَأَ فِي العِشَاءِ فِي إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ: بِـ﴿التِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]»[1]. ولكن هذه الرواية لا نستطيع أخذها كمقياس لأنها كانت في السفر؛ حيث كان رسول الله ﷺ يُخفِّف الصلاة بشكل عام عن المعتاد.

لكن بقيت رواية أوضح في تحديد المعيار؛ وهي برواية جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنهما، قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ[2] وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا رضي الله عنه يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ -أَوِ النِّسَاءِ- فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ» -أَوْ «أَفَاتِنٌ»- ثَلَاثَ مِرَارٍ: «فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الحَاجَةِ»[3]. ووردت القصة نفسها بألفاظ مختلفة قليلًا؛ حيث ذَكَرَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله رضي الله عنهما أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رضي الله عنه، كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ البَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً[4]، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا البَارِحَةَ، فَقَرَأَ البَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ». -ثَلَاثًا- «اقْرَأْ: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، وَنَحْوَهَا»[5].

فهذه القصة وضَّحت لنا المقدار الذي نصح به رسول الله ﷺ في قراءة صلاة العشاء، ويمكن أن يقول قائلٌ: إن هذا التحديد كان للظروف المعيَّنة التي حدثت فيها القصة؛ لأن قوم معاذ بن جبل رضي الله عنه ينتظرونه إلى أن يرجع من صلاته مع رسول الله ﷺ؛ فهذا يعني أنهم يبدءون صلاتهم متأخِّرين؛ لهذا أمر الرسولُ ﷺ معاذًا رضي الله عنه بالتخفيف لأجل حالتهم الخاصَّة. يمكن أن يُقال هذا، لولا أن هناك رواية أخرى تدعم كون هذا المقدار كان معتادًا في صلاة

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في العشاء، (٧٣٣).

(٢) النَّاضِحُ: مَا اسْتُعْمِلَ مِنَ الإِبِلِ فِي سَقْيِ النَّخْلِ وَالزَّرْعِ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٢٠٠.

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب إلى أين يرفع يديه. (٧٠٥).

(٤) فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ؛ أي انْحَازَ فصلى وحده. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٥١٦، وفي رواية مسلم: فانحرف رجل فسلَّم، ثم صلى وحده وانصرف. مسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، (٤٦٥).

(٥) البخاري: كتاب الأدب، باب مَنْ لم يَرَ إكفار من قال ذلك متأولًا أو جاهلًا، (٥٧٥٥)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، (٤٦٥).

العشاء للرسول ﷺ في الظروف العادية، فعَنْ بُرَيْدَةَ ﷺ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ «يَقْرَأُ فِي العِشَاءِ الآخِرَةِ بِالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَنَحْوِهَا مِنَ السُّوَرِ»(١). فبريدة ﷺ يحكي هنا عن عادة نبويَّة، ولا يتحدَّث عن ظرف معيَّن، بدليل قوله: «وَنَحْوِهَا مِنَ السُّوَرِ».

وقد عَلَّق الترمذي ﷺ على هذا الحديث بقوله: «حَدِيثُ بُرَيْدَةَ ﷺ حَدِيثٌ حَسَنٌ». وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ «قَرَأَ فِي العِشَاءِ الآخِرَةِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ»، وَرُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ أَنَّهُ «كَانَ يَقْرَأُ فِي العِشَاءِ بِسُوَرٍ مِنْ أَوْسَاطِ المُفَصَّلِ نَحْوِ سُورَةِ المُنَافِقِينَ، وَأَشْبَاهِهَا»، وَرُوِيَ عَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّابِعِينَ: أَنَّهُمْ قَرَءُوا بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا وَأَقَلَّ، كَأَنَّ الأَمْرَ عِنْدَهُمْ وَاسِعٌ فِي هَذَا، وَأَحْسَنُ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ بِالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ(٢). انتهى كلام الترمذي ﷺ.

فهذا هو ما ورد عن رسول الله ﷺ بخصوص القراءة في صلاة العشاء.

وختامًا لهذه التقديرات نذكر روايةً جامعة عرفنا منها تفصيلًا مهمًّا لصلوات اليوم الخمسة، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ أَشْبَهَ صَلَاةً بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ فُلَانٍ». قَالَ سُلَيْمَانُ: «كَانَ يُطِيلُ الرَّكْعَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ، وَيُخَفِّفُ الأُخْرَيَيْنِ، وَيُخَفِّفُ العَصْرَ، وَيَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِقِصَارِ المُفَصَّلِ، وَيَقْرَأُ فِي العِشَاء بِوَسَطِ المُفَصَّلِ، وَيَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ بِطُوَلِ المُفَصَّلِ»(٣).

في هذه الرواية عرفنا -بشكل غير مباشر- شكلًا إجماليًّا لصلاة الرسول ﷺ؛ فقد حَدَّد أبو هريرة ﷺ أكثرَ الأئمة شبهًا برسول الله ﷺ في صلاته، ولم تذكر الرواية اسم هذا الإمام العظيم، وذكر المجددي في شرحه لسنن ابن ماجه أن هذا الإمام هو عمر بن عبد العزيز ﷺ، ويحتمل أن يكون علي بن أبي طالب ﷺ، أو عمرو بن سلمة ﷺ(٤).

---

(١) الترمذي: أبواب الصلاة، القراءة في صلاة العشاء (٣٠٩)، وقال: حديث حسن. والنسائي (١٠٧١)، وأحمد (٢٣٠٤٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي. وحسنه النووي، انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٣٨٨، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ١/ ٤٦١، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ١/ ١٨٣.

(٢) الترمذي: أبواب الصلاة، القراءة في صلاة العشاء (٣٠٩).

(٣) النسائي: كتاب صفة الصلاة، تخفيف القيام والقراءة (١٠٥٤)، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي ١/ ٣٢٢ (٩٨١).

(٤) هذا الترجيح لمحمد عبد الغني المجددي الحنفي في شرحه لسنن ابن ماجه بعنوان: «إنجاح الحاجة»، انظر: شرح سنن ابن ماجه للسيوطي وغيره ص٥٩.

ويدعم كونه عمر بن عبد العزيز ﷺ ما رواه سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ، يَقُولُ: مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ، أَشْبَهَ صَلَاةً بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ هَذَا الْفَتَى. يَعْنِي عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ[١].

ويدعم كونه عليَّ بن أبي طالب ﷺ ما رواه مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ الله، قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَنَا وَعِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ ﷺ، «فَكَانَ إِذَا سَجَدَ كَبَّرَ، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ كَبَّرَ، وَإِذَا نَهَضَ مِنَ الرَّكْعَتَيْنِ كَبَّرَ». فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ أَخَذَ بِيَدِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ ﷺ، فَقَالَ: قَدْ ذَكَّرَنِي هَذَا صَلَاةَ مُحَمَّدٍ ﷺ- أَوْ قَالَ: لَقَدْ صَلَّى بِنَا صَلَاةَ مُحَمَّدٍ ﷺ[٢].

أما احتمال كونه عمرو بن سلمة ﷺ فلرواية أَبِي قِلَابَةَ، قَالَ: جَاءَنَا مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ ﷺ، فَصَلَّى بِنَا فِي مَسْجِدِنَا هَذَا، فَقَالَ: إِنِّي لَأُصَلِّي بِكُمْ وَمَا أُرِيدُ الصَّلَاةَ، وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ أُرِيَكُمْ كَيْفَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي، قَالَ أَيُّوبُ: فَقُلْتُ لِأَبِي قِلَابَةَ: وَكَيْفَ كَانَتْ صَلَاتُهُ؟ قَالَ: مِثْلَ صَلَاةِ شَيْخِنَا هَذَا -يَعْنِي عَمْرَو بْنَ سَلِمَةَ- قَالَ أَيُّوبُ: وَكَانَ ذَلِكَ الشَّيْخُ «يُتِمُّ التَّكْبِيرَ، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ عَنِ السَّجْدَةِ الثَّانِيَةِ جَلَسَ وَاعْتَمَدَ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ قَامَ»[٣].

ومع ذلك فالأقرب أن يكون الإمام المقصود هو عمر بن عبد العزيز ﷺ لورود رواية عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ صَلَاةً بِرَسُولِ الله ﷺ، مِنْ فُلَانٍ، لِإِمَامٍ كَانَ بِالْمَدِينَةِ..»[٤]. وفي رواية للبيهقي: «.. لِرَجُلٍ كَانَ أَمِيرًا عَلَى الْمَدِينَةِ..»[٥]. فالإمام كان أميرًا على المدينة المنورة تحديدًا، وهذا لم يكن إلا لعمر بن عبد العزيز ﷺ، فعلي بن أبي طالب ﷺ كان خليفة للمسلمين، ولم يكن أميرًا على المدينة وحدها، وعمرو بن سلمة لم يكن أميرًا قط، أما عمر بن عبد العزيز فكان أميرًا على المدينة قبل أن يُصبح خليفة للمسلمين.

وعمومًا فوصف صلاة هذا الإمام وضَّح لنا الرؤية إلى حدٍّ كبير بخصوص الصلوات

---

(١) أبو داود: باب تفريع أبواب الركوع والسجود، باب مقدار الركوع والسجود (٨٨٨)، واللفظ له، والنسائي (٧٢١)، وأحمد (٨٣٤٨)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث أنس بن مالك إسناده قوي. والبيهقي: السنن الكبرى (٢٧٩٥)، وحسنه النووي، انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٤١٤.

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب إتمام التكبير في السجود، (٧٥٣).

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب من استوى قاعدًا في الأرض إذا قام من الركعة، (٧٩٠).

(٤) أحمد (٨٣٤٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي.

(٥) البيهقي: السنن الكبرى (٤١٧٦).

الجهرية، حيث كانت كلها في المعتاد من سور «المُفَصَّل»، والمُفَصَّل عِبَارَة عَنِ السُّبْعِ الأَخِيرِ مِنَ الْقُرْآنِ، وأَوَّلُهُ سُورَةُ الْحُجُرَاتِ، ولقد سُمِّيَ مُفَصَّلًا لِأَنَّ سُوَره قِصَار، فكُلُّ سُورَة كَفَصْلٍ مِنَ الْكَلَام[1]. واختلف العلماء قليلًا في تحديد السور الطوال أو الوسط أو القصيرة فيه، وقال السندي رحمه الله: «قيل: طواله إِلَى سُورَة عَم، وأوساطه إِلَى الضُّحَى»[2]. فهذا يعني أن رسول الله ﷺ كان يُصَلِّي الصبح بالسور الطِوَال من المُفَصَّل، وهي من أول سورة الحجرات إِلَى سُورَة عَمَّ، وكان يُصَلِّي العشاء بالأواسط من المُفَصَّل: وهي من سورة النازعات إِلَى الضُّحَى، أمَّا المغرب فكان يُصَلِّي فيه بالقصار من المُفَصَّل: وهي من سورة الشرح إلى آخر المصحف.

ولاستكمال الصورة في مسألة قَدْر القراءة في الصلاة نذكر ما اعتاد رسول الله ﷺ أن يقرأه في صلاة الجمعة، وكذلك في صلاة العيد.

قَالَ أَبُو وَائِلٍ: خَطَبَنَا عَمَّارٌ رضي الله عنه، فَأَوْجَزَ وَأَبْلَغَ، فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ؛ لَقَدْ أَبْلَغْتَ وَأَوْجَزْتَ، فَلَوْ كُنْتَ تَنَفَّسْتَ[3]. فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا»[4].

ومع أن رسول الله ﷺ أمر بإطالة صلاة الجمعة؛ فإن الأمر نسبيٌّ كما ذكرنا قبل ذلك؛ لهذا كان الضابط لهذه الإطالة هو معرفة السور التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في هذه الصلاة.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ». قَالَ: «وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ، فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ»[5]. فصياغة هذه الرواية توحي أن الأمر لم يكن مرَّةً أو مرَّتين؛ إنما كان شيئًا متكرِّرًا.

---

(١) انظر: حاشية السندي على سنن النسائي ٢/ ١٦٧.

(٢) انظر: حاشية السندي على سنن النسائي ٢/ ١٦٧.

(٣) تَنَفَّسْت؛ أي أطلْت قَلِيلًا، وتوسَّعت في الكلام ومددت أنفاسك فيه، وهو مشبَّه بمد النفس. انظر: ابن قرقول: مطالع الأنوار على صحاح الآثار ٤/ ١٩٨، والنووي: المنهاج ٦/ ١٥٨، وابن الجوزي كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ٣٤٧.

(٤) مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، (٨٦٩).

(٥) مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، (٨٧٨).

وعَنِ ابْنِ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: اسْتَخْلَفَ مَرْوَانُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ عَلَى المَدِينَةِ، وَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ، فَصَلَّى لَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ الجُمُعَةَ، فَقَرَأَ بَعْدَ سُورَةِ الجُمُعَةِ، فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ: إِذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ. قَالَ: فَأَدْرَكْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ حِينَ انْصَرَفَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ قَرَأْتَ بِسُورَتَيْنِ كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ يَقْرَأُ بِهِمَا بِالْكُوفَةِ. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: «إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقْرَأُ بِهِمَا يَوْمَ الجُمُعَةِ»[١].

وعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كَتَبَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ ﷺ إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ يَسْأَلُهُ: أَيَّ شَيْءٍ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الجُمُعَةِ، سِوَى سُورَةِ الجُمُعَةِ؟ فَقَالَ: «كَانَ يَقْرَأُ هَلْ أَتَاكَ»[٢].

فهذه الروايات وَضَّحت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بالأعلى والغاشية، أو بالجمعة والمنافقون، أو بالجمعة والغاشية، فهذا هو المقياس، ومن المؤكَّد أن القراءة بغير هذه السور جائزة، ولكننا ذكرناها لكي نُكْثِر منها في صلاة الجمعة، وكذلك لكي نعرف القدر المناسب للقراءة فيها.

أمَّا بخصوص صلاة العيد فقد ذكرت إحدى الروايات السابقة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فيها بالأعلى والغاشية، ووردت رواية أخرى تُحدِّد سورتين غيرهما في بعض صلوات العيد الأخرى؛ فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ، قَالَ: سَأَلَنِي عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ عَمَّا قَرَأَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي يَوْمِ الْعِيدِ؟ فَقُلْتُ: «بِـ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وَ﴿ق وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ﴾ [ق: ١]»[٣].

ومن مجموع هذه الروايات نتبيَّن أن القراءة في الجمعة والعيدين كانت في الأغلب قصيرة، وأن الإطالة المقصودة في الصلاة ليست إطالة القراءة؛ ولكنها إطالة الركوع والسجود، أي إتمام الصلاة كما ينبغي، وقد مرَّ بنا الحديث عن هذا المعنى في فصل سابق[٤].

إن كل ما ذكرناه في الصفحات السابقة هو محاولة للوصول للقدر الحقيقي الذي كان

---

(١) مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، (٨٧٧)، وأبو داود (١١٢٤)، والترمذي (٥١٩)، وابن ماجه (١١١٨).

(٢) مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، (٨٧٨)، وأبو داود (١١٢٣)، والنسائي (١٧٣٧).

(٣) مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ به في صلاة العيدين، (٨٩١).

(٤) فصل غراس الجنة ص٣٤٤.

يقرؤه الرسول ﷺ في صلوات الجماعة؛ ولكن المؤكَّد أنه كان يُنَوِّع في القراءة، فيُطوِّل أحيانًا، ويُقَصِّر أخرى، ليُبيِّن للمسلمين الحدود التي يمكن أن يتحرَّكوا خلالها، وواضح أن الأمر فيه سعة، وأن مراعاة أحوال المُصَلِّين شيء ضروري للغاية، ولئن تحيَّر الإمام في طول الصلاة فبالغ في تقصير وقتْ القراءة فهذا أفضل له من مبالغته في التطويل؛ فالصلاة صحيحة في كل الأحوال؛ لكنها قد تكون مُنَفِّرة للبعض إذا زادت جدًّا عن توقعاتهم، ويحسن أن نختم هذا الفصل بذكر موقف من مواقف السيرة النبوية يُعَلِّمنا أن الإمام لا بُدَّ أن يحرص حرصًا بالغًا على المأمومين؛ فعن أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا. فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ**»[1]. ففي هذا الموقف دلالات كثيرة على أن الأَوْلَى بالإمام أن يميل إلى جانب التخفيف عنه إلى جانب التطويل إن لم يستطع تحديد الأنسب؛ فأولًا لم يسأل الرسول ﷺ عن قدر القراءة التي سَمَّاها الشاكي تطويلًا؛ إنما عَذَرَه وعَنَّفَ الإمامَ دون سؤال، دلالة على أهمية رعاية حال المأموم الضعيف، وثانيًا كانت الصلاة الموصوفة في الحديث هي صلاة الغداة؛ أي الصبح، وهي أكثر الصلوات طولًا في القراءة، فإذا كان الرسول ﷺ ينهى عن الإطالة حتى في صلاة الصبح فالنهي عن الإطالة في الصلوات الأخرى أَوْلَى، وثالثًا كان غضبُ رسول الله ﷺ شديدًا جدًّا عندما عَلِم بهذا الأمر، لدرجة أن أبا مسعودٍ ﷺ اعتبر أن هذه أشد درجات غضب رسول الله ﷺ، ولم تُنْقَل عنه -ﷺ- على الناحية الأخرى هذه الدرجة من الغضب لتخفيف أحد الأئمة للقراءة، فعُلِمَ أن التطويل في القراءة أخطر من التخفيف، ورابعًا بَيَّن رسول الله ﷺ العِلَّة من وراء التخفيف؛ فذكر صورًا من الناس قد تكون معذورة في عدم حضور صلاة الجماعة أصلًا، ومع ذلك فهو لم يأمر هؤلاء الضعفاء بتحمُّل تبعات رغبتهم في حضور صلاة الجماعة مع عذرهم، إنما ألزم الإمامَ باحترام وجودهم، والتخفيف لأجلهم، وحيث إنه لن يخلو مسجدٌ من شيخ كبير، أو مصلٍّ مريض، أو صاحب حاجة، لَزِمَ الإمام أن يُخَفِّف في كل أحواله، ولم يلزم المأموم أن يبحث عن مسجدٍ تُخَفَّفُ فيه الصلاة.

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود، (٦٧٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، (٤٦٦).

إن كل ما سبق يُؤَكِّد أن الأصل في الأمر هو التخفيف، وكانت هذه هي سُنَّة الرسول ﷺ حتى آخر أيام حياته؛ ولقد قال عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ رضي الله عنه: كَانَ آخِرُ مَا عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ أَمَّرَنِي عَلَى الطَّائِفِ قَالَ لِي: «يَا عُثْمَانُ تَجَاوَزْ فِي الصَّلَاةِ، وَاقْدِرِ النَّاسَ بِأَضْعَفِهِمْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْكَبِيرَ، وَالصَّغِيرَ، وَالسَّقِيمَ، وَالْبَعِيدَ، وَذَا الْحَاجَةِ»[1]..

حقًّا..

ما أرحم أن نَقْدِر الناس بأضعفهم!

ثم ما أجمل أن نختم هذا الفصل ونحن نقرأ توصيف عائشة رضي الله عنها لحياة رسول الله ﷺ:

«مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الْآخَرِ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»[2].

***

---

(١) ابن ماجه (٩٨٧)، وأحمد (١٧٩٣٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن خزيمة (١٦٠٨).

(٢) البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٣٦٧)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله، (٢٣٢٧).

خشوع بلا مبالغة!

أقيمت الصلاة..

خرج رسول الله ﷺ يحمل طفلًا: الحسن أو الحسين..

وضعه على الأرض، ثم كَبَّر ودخل في الصلاة، ومعه المسلمون..

الطفل يلهو صامتًا، والصلاة مستمرَّة..

قيامٌ، فركوع، فسجود..

ولكن طال السجود!

وطال!

وطال..!

وصمتٌ مريب!

وقلقٌ يغزو قلوب الصحابة!

أهو مرضٌ أصاب رسولَ الله ﷺ فلا يستطيع الحراك؟!

أم هو موتٌ -لا قدَّر الله- فاجأ النبي ﷺ والمؤمنين؟!

أو لعلَّه وحيٌ من السماء!

أو دعاءٌ ومناجاة!

وكلُّ الصحابة سجودٌ..

إلَّا واحدًا لم يصبر!

شَدَّادُ بنُ الهَادِ ﷺ..

رفع رأسه من سجوده ونظر إلى رسول الله ﷺ ليطمئن!

ما هذا؟!

لا مرضَ ولا موت..

ولا وحيَ ولا دعاء..

إنما فقط...

طفلٌ يركب على ظهر الرسول ﷺ يلهو!!

يظنُّ بعض المسلمين أن الخشوع في الصلاة يعني الذهول «التامَّ» عن أي شيء حولنا، وأن المسلم إذا سمع شيئًا فمَيَّزَه، أو رأى أمرًا فأدرك كنهه، أو جالت بخاطره فكرة عابرة، فإن كلَّ ذلك يعني غياب الخشوع، وساهم في وصول هذا الانطباع إلى المسلمين ما اعتاد بعض المؤلفين لكتب الرقائق من وصف حالات عجيبة لبعض السلف الصالح والزهَّاد والعُبَّاد يذهل فيها هؤلاء بشكل «غير مألوف» عن كل شيء إذا دخلوا في صلاتهم، وقد يُبالِغ الواصفون في الأمر، دون مراعاة للحقيقة، ويُبالِغ المؤلِّفون في الجمع، دون اهتمام بصحة سند القصة، سعيًا وراء تشجيع المسلمين على تقليد هؤلاء الخاشعين!

والواقع أن الأمر ليس كذلك!

إن الخشوع في الصلاة لا يعني خروج الإنسان عن بَشَرِيَّته؛ فالبشر لهم أحاسيس ومشاعر لا يمكن تجاهلها بحال، لهذا فلا يؤاخَذ المسلم إذا استجاب لهذه الأحاسيس والمشاعر بشكل غير مبالَغ فيه؛ ولكن تبقى المعضلة هي تحديد تقدير المبالغة من عدمها، فما يراه بعضهم خروجًا عن الخشوع يعتبره آخرون استجابةً طبيعية لحدث من الأحداث، وعلى العكس من ذلك فإن ما يراه بعضهم التزامًا بالخشوع يعتبره آخرون إهمالًا لأحاسيس بشريَّة ضرورية.

فما المخرَج من هذه المعضلة؟

المخرَج هو دراسة السُّنَّة النبوية واتِّباعها..

فحياة الرسول ﷺ واختياراته هي المعيار الأمثل لما ينبغي أن يفعله المؤمنون؛ لأن الله ﷻ خلق الإنسان بطاقات معينة، وقدرات محدودة، وعلى قَدْرِ هذه الطاقات والقدرات أنزل الشريعة المناسبة لها، وقال في كتابه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ثم علَّم رسوله ﷺ الأسلوب الأمثل في العبادة، وهذا الأسلوب الأمثل يستطيعه كل الناس، وهو أسلوبٌ مُيَسَّر ورفيق، ولا يتعارض بحالٍ مع الفطرة البشرية، وهو الذي ينبغي أن نلتزم به كمؤمنين.

وكان من الممكن أن يوضِّح الله ﷻ للمؤمنين عن طريق آيات قرآنية، أو أقوال نبويَّة، الأمور التي ليست من أعمال الصلاة؛ التي يمكن أن يَسمح للمُصَلِّي بفعلها أثناء صلاته، دون الإخلال بالخشوع؛ ولكنه لم يفعل ذلك؛ بل فعل ما هو أرحم وألطف! فقد يَسَّر لرسوله ﷺ

بعض الملابسات والأحوال في حياته حتى يقوم هو بنفسه ﷺ بتطبيق التشريع الذي يُخَفِّف على المسلمين، فيمنع بذلك رسولُ الله ﷺ المتشدِّدين في الدين من ادِّعاء أن هذه الأفعال مخالِفة للخشوع؛ لأنه لو كان الرسول ﷺ نفسه لا يستطيع إغفال بعض ردود الفعل البشرية أثناء صلاته فمن باب أَوْلَى أن المسلمين بشكل عامٍّ لن يستطيعوا ذلك أبدًا.

وليس هذا فقط؛ بل صار تطبيقنا لهذه التيسيرات أثناء الصلاة سُنَّةً نبوية نؤجَر عليها! لأننا فعلناها اتِّباعًا لرسول الله ﷺ، مع أن بعضهم يقدر على تركها، وقد يظنُّ ظانٌّ أن ترك الرخصة هنا زيادةُ تقرُّبٍ إلى الله ﷻ، وبالتالي زيادة أجر؛ ولكن الحقيقة أن الفاعل هنا للرخصة أعظم من التارك لها؛ لأن الفاعل طبَّق السُّنَّة، والتارك تَشَدَّد وخالف السُّنَّة، ولأضرب على هذا مثالًا من السيرة النبوية، مع كونه خارج موضوع الصلاة؛ ولكنه يُوَضِّح الصورة بشكل كبير..

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﭭ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ، فَصَامَ النَّاسُ، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ، حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، ثُمَّ شَرِبَ، فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ، فَقَالَ: «**أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ**»[1]. وفي ألفاظ أخرى مقاربة عَنْ جَابِرٍ ﷺ أيضًا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ عَامَ الفَتْحِ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الغَمِيمِ، وَصَامَ النَّاسُ مَعَهُ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ، وَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ فِيمَا فَعَلْتَ، فَدَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ بَعْدَ العَصْرِ، فَشَرِبَ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَأَفْطَرَ بَعْضُهُمْ، وَصَامَ بَعْضُهُمْ، فَبَلَغَهُ أَنَّ نَاسًا صَامُوا، فَقَالَ: «**أُولَئِكَ العُصَاةُ**»[2].

في هذا الموقف السابق عَلِم رسول الله ﷺ أن الصوم قد أرهق المسلمين، والفطر في السفر رخصة كما هو معلوم، فلم يُرِد رسولُ الله ﷺ أن يكتفي بالسماح اللفظي للناس أن يُفطروا؛ ولكنه «طبَّق» الرخصة بنفسه كي يُشَجِّع المسلمين على التطبيق، خاصَّة أنهم مُقْبِلون على جهاد، وكان هذا في فتح مكة، فهذا من التيسير العظيم الذي تحضُّ عليه الشريعة، ثم

---

(١) مسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كان سفره مرحلتين فأكثر، وأن الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم، ولمن يشق عليه أن يفطر، (١١١٤).

(٢) الترمذي: أبواب الصوم، باب ما جاء في كراهية الصوم في السفر (٧١٠)، وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ١/ ٣٨٠ (٧١٠).

لفت نظرنا إلى أمر آخر مهمٍّ، وهو اعتبار الصائمين بعد فطر رسول الله ﷺ عصاةً! مع أن المسافر إن كان قادرًا على الصيام فلا بأس من ذلك، وقد كان رسول الله ﷺ في أول اليوم صائمًا؛ ولكنه قال ذلك لأن إكمالهم للصيام يُعطي الانطباع أنهم غير قابلين بالرخصة، وقد يتحرَّج صائمٌ ضعيف من قطع صيامه بعد رؤية المصرِّين على الصيام، فيكون هذا تشدُّدًا يُؤذي المسلمين.

ومثل هذا الموقف السابق كانت هناك مواقف كثيرة في حياة رسول الله ﷺ، فهو لم يكتفِ بالأمر بالتيسير وتطبيق الرُّخَص الشرعية بل طبَّقها بنفسه، وهذا من رحمته ﷺ بأُمَّته، وهو قبل ذلك من رحمة ربِّ العالمين ولطفه بعباده؛ وقد قال تعالى: ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]، وسوف نقوم في هذا الفصل بجمع بعض المواقف اللطيفة من حياة رسول الله ﷺ؛ التي قام فيها ببعض الأعمال -وهو يُصَلِّي- لكي يُيَسِّر على المسلمين حياتهم.

أولاً: رعاية الأطفال:

لقد بدأنا هذا الفصلَ بتصوير موقفٍ حقيقي راعَى فيه رسولُ الله ﷺ حالَ طفلٍ صغير؛ فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ شَدَّادٍ، عَنْ أَبِيهِ شَدَّادِ بن الهاد ﷺ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي إِحْدَى صَلَاتَيِ الْعِشَاءِ[1] وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ، فَصَلَّى فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِهِ[2] سَجْدَةً أَطَالَهَا. قَالَ أَبِي: فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ الصَّلَاةَ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ الله؛ إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ. قَالَ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي؛ فَكَرِهْتُ أَنْ

(١) قال بدر الدين العيني: والمراد من صلاتي العشاء الظهر والعصر، ولا يبعد أن يقال: صلاتي العشاء بالمد، ويكون المراد: المغرب والعشاء. انظر: العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٦/ ٦، وقال محمد بن علي بن آدم: في إحدى صلاتي العشاء: أراد المغرب والعشاء، وفي نسخة: «في إحدى صلاتي العشي». و«العشي»: قيل: ما بين الزوال إلى غروب الشمس، ومنه يقال للظهر والعصر: صلاتا العَشِيِّ. وقيل: هو آخر النهار. وقيل: العشي من الزوال إلى الصباح. وقيل: العشي والعشاء من صلاة المغرب إلى العتمة. انظر: محمد بن علي: ذخيرة العقبى في شرح المجتبى ١٤/ ٣٧، وفي رواية أحمد (١٦٠٧٦) والحاكم (٤٧٧٥) بلفظ: «إِحْدَى صَلَاتَيِ الْعَشِيِّ الظُّهْرِ أَوِ الْعَصْرِ». وفي رواية للحاكم (٦٦٣١) والطبراني: المعجم الكبير (٧١٢٣) بلفظ: «فِي إِحْدَى صَلَاتَيِ النَّهَارِ الظُّهْرِ أَوِ الْعَصْرِ».

(٢) بين ظهراني صلاته؛ أي في أثناء صلاته. حاشية السندي على سنن النسائي ٢/ ٢٣٠.

أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»[١].

إنها الموازنة الحميدة التي أراد رسول الله ﷺ أن يُعَلِّمنا إياها؛ فالخشوع في الصلاة أمر مطلوب؛ ولكن في الوقت نفسه هناك أمور مهمَّة لا تُؤجَّل؛ منها رعاية الأطفال الصغار؛ فهؤلاء لا يصبرون على انتهاء الصلاة؛ فالشفقة عليهم تُوجب سرعة تلبية احتياجاتهم، ولو كنَّا في الصلاة، كما أن إهمالهم قد يُؤَدِّي إلى البكاء أو الصراخ، وهذا سيقود بنفسه إلى ضياع الخشوع، فيتحقَّق الشَّرَّان معًا: إهمال الطفل، وضياع الخشوع، أمَّا ترك الطفل يلعب على ظهر الرسول ﷺ برهة -ولو طالت- فهذا سيُسْعِد الطفل ويُطمئنه، وفي الوقت نفسه سيحفظ هدوء المسجد والمُصَلِّين، وبالتالي سيزيد من الخشوع.

وقد يقول قائل: فالأفضل إذن ألَّا يأتي الأطفال أصلًا إلى المسجد؛ لأن رعايتهم ستُقَلِّل حتمًا من خشوع الكبار؛ ولكن هذه في الواقع نظرة قاصرة؛ فقدوم الأطفال إلى المسجد شيء جميل؛ لأنه يُعَوِّدهم على الصلاة، ولم أجد في السُّنَّة النبوية قطُّ ما يدفع الآباء أو الأمهات إلى منع أولادهم -مهما كان سِنُّهم صغيرًا- من قدوم المسجد، كما أنه في كثير من الأحيان يكون قدومهم اضطراريًّا لعدم وجود مَنْ يرعى شئونهم أثناء قدوم الآباء إلى المسجد، فلو مُنِع الأطفال من المساجد فهذا قد يعني منع ذويهم كذلك من حضور الجماعة.

من هذا المنطلق يُمكن أن نفهم مواقف كثيرة في السُّنَّة النبوية تحمل كثيرًا من المعاني اللطيفة؛ التي أبرزت مدى شفقة الرسول ﷺ، وكذلك مدى حرصه على شهود الأطفال لصلاة المسلمين..

من هذه المواقف أن الرسول ﷺ لم يكن يكتفي بوضع الطفل أمامه كما في القصة التي ذكرناها منذ قليل؛ إنما كان يحمله أثناء الصلاة! فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلِأَبِي الْعَاصِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا[٢]. ولا شكَّ أن حَمْل الطفلة قد يُقَلِّل من الخشوع

---

(١) النسائي: كتاب التطبيق، هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة (٧٢٧)، وأحمد (١٦٠٧٦)، شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن صحابيه لم يخرج له سوى النسائي. والحاكم (٤٧٧٥)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن النسائي ١/ ٣٧١ (١١٤٠)، وصححه الصوياني، انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ٢/ ٢٨١.

(٢) البخاري: أبواب سترة المصلي، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، (٤٩٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة، (٥٤٣).

لحاملها؛ ولكنه يرحم الصغير، ويحفظ خشوع بقية المُصلِّين، وفي هذا الفعل من رسول الله ﷺ تنبيه للوالدين، وللأمهات خصوصًا، بعدم ترك أطفالهم يبكون أثناء الصلاة؛ سواء كان ذلك في البيت أو في المسجد، بل السُّنَّة تقضي بحملهم، وللوالدين أجر اتِّباع الرسول ﷺ في ذلك إن شاء الله.

ومن مواقف الرسول ﷺ ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَجَاءَتْ جَارِيَتَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ تَشْتَدَّانِ اقْتَتَلَتَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ فَنَزَعَ إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى، وَمَا بَالَى بِذَلِكَ»(١). وفي ألفاظ أخرى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أيضًا أَنَّهُ جَاءَتْ جَارِيَتَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَتَا بِرُكْبَتَي النَّبِيِّ ﷺ فَفَرَّعَ بَيْنَهُمَا -أَوْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا- وَلَمْ يَنْصَرِفْ(٢). فهذا رسول الله ﷺ يَفُضّ صراعًا بين طفلتين دون أن يخرج من صلاته!

وكان رسول الله ﷺ يُلاطف الأطفال إيناسًا لهم وهو يُصَلِّي، وهذا بطبيعة الحال دون كلام، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ مَيْمُونَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها -وَهِيَ خَالَتُهُ- قَالَ: فَاضْطَجَعْتُ عَلَى عَرْضِ الوِسَادَةِ، «وَاضْطَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَهْلُهُ فِي طُولِهَا، فَنَامَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى انْتَصَفَ اللَّيْلُ -أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ- ثُمَّ اسْتَيْقَظَ رَسُولُ الله ﷺ، فَجَلَسَ، فَمَسَحَ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ العَشْرَ آيَاتٍ خَوَاتِيمَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي». قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، «فَوَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ اليُمْنَى عَلَى رَأْسِي، وَأَخَذَ بِأُذُنِي اليُمْنَى يَفْتِلُهَا بِيَدِهِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ حَتَّى جَاءَهُ الْمُؤَذِّنُ، فَقَامَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَصَلَّى الصُّبْحَ»(٣). فهذا الذي فعله رسول الله ﷺ من وضعه ليده

---

(١) أبو داود: تفريع أبواب السترة، باب ما يقطع الصلاة (٧١٦)، وابن حبان (٢٣٥٦)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو يعلى (٢٧٤٩)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٤/ ١٤٧.

(٢) النسائي: كتاب المساجد، ذِكر مَنْ يقطع الصلاة ومَنْ لا يقطعها إذا لم يكن بين يدي المصلي سترة (٨٣٠)، وأحمد (٢٠٩٥)، (٣١٦٧)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن رجاله ثقات. وأبو يعلى (٢٥٤٨)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير، (١٢٩٢٤)، وابن خزيمة (٨٣٥).

(٣) البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب استعانة اليد في الصلاة إذا كان من أمر الصلاة، (١١٤٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (٧٦٣).

اليمنى على رأس ابن عباسٍ ﭬ، وفتله لأذنه، إنما كان في الصلاة، وقد فعل ذلك إيناسًا منه ﷺ لابن عباس ﭬ، وإعجابًا منه برغبة الطفل في الصلاة معه.

وكان رسول الله ﷺ يحرص على رعاية شأن الأطفال حتى لو لم يكونوا أحفاده أو من ذوي قرابته؛ فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﭬ أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي لأَقُومُ فِي الصَّلاَةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا؛ فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**»[1]. فلم يكن عند رسول الله ﷺ مانعٌ من تقليل قدر سماع القرآن لكلِّ المُصَلِّين من أجل طفلٍ واحد يبكي! والجميل أيضًا أنه ﷺ لم يكن يعتب بعد الصلاة على الأُمِّ التي أحضرت طفلًا صغيرًا إلى الصلاة الذي قد يُشَتِّت انتباه المُصَلِّين، إنما كان يرحمها، ويشعر بألمها، وهذه هي روعة السُّنَّة النبوية.

ثانيًا: تذكُّر شيء مهمٍّ:

من علامات الخشوع التركيز التام فيما يُقْرَأ من آيات، أو يُرَدَّد من أذكار؛ ومع ذلك فالإنسان لا يملك أن يمنع نفسه تمامًا من تذكُّر بعض الأمور، أو الانشغال بها، أثناء الصلاة، والشريعة تعطي مساحة لذلك؛ خاصة إذا لم يكن أمرًا متكرِّرًا، وأيضًا إذا كان الأمر الذي يتذكَّره المُصَلِّي أمرًا شرعيًّا فيه مصلحة للمسلمين.

وكمثال لذلك ما رواه عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ ﭬ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعَصْرَ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ سَرِيعًا دَخَلَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، ثُمَّ خَرَجَ وَرَأَى مَا فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ مِنْ تَعَجُّبِهِمْ لِسُرْعَتِهِ، فَقَالَ: «**ذَكَرْتُ وَأَنَا فِي الصَّلاَةِ تِبْرًا**[2] **عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يُمْسِيَ -أَوْ يَبِيتَ- عِنْدَنَا، فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ**»[3]. وقال في رواية: «**ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي**[4]**، فَأَمَرْتُ**

---

(١) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، (٦٧٥)، وأبو داود (٧٨٩)، والنسائي (٨٩٩)، وابن ماجه (٩٩١)، وأحمد (٢٢٦٥٥). وفي رواية عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﭬ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي لأَدْخُلُ الصَّلاَةَ أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأُخَفِّفُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ». البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، (٦٧٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، (٤٧٠)، واللفظ له.

(٢) التِّبْرُ: الذَّهَبُ الَّذِي لَمْ يُصَفَّ وَلَمْ يُضْرَبْ، وَقِيل: هُوَ الذَّهَبُ الْمَكْسُورُ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٣٣٧.

(٣) البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة، (١١٦٣)، واللفظ له، والنسائي (١٢٨٨)، وأحمد (١٦١٩٦).

(٤) يَحْبِسَنِي؛ أَيْ: يَشْغَلَنِي التَّفَكُّرُ فِيهِ عَنِ التَّوَجُّهِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الله تَعَالَى، وَفَهِمَ مِنْهُ ابْنُ بَطَّالٍ مَعْنًى آخَرَ؛ فَقَالَ فِيهِ: إِنَّ تَأْخِيرَ الصَّدَقَةِ تَحْبِسُ صَاحِبَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٣٣٧.

بِقِسْمَتِهِ»(١). وقال في رواية: «كُنْتُ خَلَّفْتُ فِي البَيْتِ تِبْرًا مِنَ الصَّدَقَةِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ، فَقَسَمْتُهُ»(٢). ففي هذا الموقف تذكَّر رسول الله ﷺ في صلاته أن عنده في البيت بعض الذهب من أموال الصدقة، فأسرع بمجرَّد انتهاء الصلاة إلى البيت لكي يُحضره ثم يأمر بتقسيمه، ونلحظ في الموقف أن الأمر لم يكن متكرِّرًا في حياة الرسول ﷺ بدليل تعجُّب القوم منه، كما نلحظ أن الأمر الذي تذكَّره الرسول ﷺ كان أمرًا شرعيًّا، وفيه مصلحة للمسلمين، ولم يكن أمرًا دنيويًّا خاصًّا بالرسول ﷺ؛ بل قال: «فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي». ومعنى الحبس هنا هو الانشغال به عن الذكر والعبادة وحُسن ختام الصلاة، فأسرع لإحضاره كي لا ينشغل به، أو يكون المقصود هو الحبس يوم القيامة حتى يُسأل عنه وعن سبب تأخيره، وكلا التفسيرين يحملان معنًى شرعيًّا مهمًّا، ولهذا لا يُعَدُّ تذكُّر مثل هذا الأمر بُعْدًا عن الخشوع في الصلاة.

ومثال آخر من هذا النوع ما رواه سَهْلُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ ﷺ قَالَ: ثُوِّبَ(٣) بِالصَّلَاةِ -يَعْنِي صَلَاةَ الصُّبْحِ- فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى الشِّعْبِ، قَالَ أَبُو دَاوُد: وَكَانَ أَرْسَلَ فَارِسًا إِلَى الشِّعْبِ مِنَ اللَّيْلِ يَحْرُسُ، فهذه قصة طويلة(٤)؛ مفادها أن رسول الله ﷺ أرسل فارسًا لحماية المسلمين ولتحسُّس الأخبار، فظلَّ مشغولًا به في صلاته، حتى إنه كان

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب من صلى بالناس فذكر حاجة فتخطاهم، (٨١٣).

(٢) البخاري: كتاب الزكاة، باب من أحب تعجيل الصدقة من يومها، (١٣٦٣).

(٣) ثُوِّبَ بالصلاة: يعني نادى بالإقامة مرة بعد مرة أخرى، وكل مُرَدِّد صوت فهو مُثَوِّب؛ وأصله من ثاب يثوب، إذا رَجَعَ إليه. انظر: ابن بطال: شرح صحيح البخاري ٢/ ٢٣٥.

(٤) عن سَهْلِ ابْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ، أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَأَطْنَبُوا السَّيْرَ، حَتَّى كَانَتْ عَشِيَّةً فَحَضَرْتُ الصَّلَاةَ، عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَارِسٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ آبَائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ، وَنَعَمِهِمْ، وَشَائِهِمْ، اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ». ثُمَّ، قَالَ: «مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟»، قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «فَارْكَبْ». فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلَاهُ، وَلَا نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيْلَةَ». فَلَمَّا أَصْبَحْنَا، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مُصَلَّاهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ؟»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَحْسَسْنَاهُ. فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي، وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى الشِّعْبِ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَبْشِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسُكُمْ». فَجَعَلْنَا نَنْظُرُ إِلَى خِلَالِ الشَّجَرِ فِي الشِّعْبِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ جَاءَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي انْطَلَقْتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى هَذَا الشِّعْبِ حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ اطَّلَعْتُ الشِّعْبَيْنِ كِلَيْهِمَا فَنَظَرْتُ، فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ نَزَلْتَ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: لَا، إِلَّا مُصَلِّيًا أَوْ قَاضِيًا حَاجَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ أَوْجَبْتَ فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْمَلَ بَعْدَهَا». أبو داود: تفريع أبواب العمل في الصلاة، باب الرخصة في النظر في الصلاة (٢٥٠١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٤/ ٧٢، (٨٥٠).

يلتفت أثناء الصلاة إلى الشِّعْبِ رغبةً في رؤية الفارس عند أول قدومه، ونلحظ في الرواية أن الأمر لم يكن متكرِّرًا بدليل تعليق الصحابي على التفات رسول الله ﷺ، ولو كان أمرًا عاديًا متكرِّرًا ما علَّق عليه، ونلحظ -أيضًا- شرعية الأمر وأهميته للمسلمين؛ ولذلك لا يُعَدُّ منافيًا للخشوع في الصلاة.

وقد رأينا الذي حدث مع رسول الله ﷺ في الموقف السابق يحدث مع عمر بن الخطاب ﷺ؛ وذلك في وقت إمرته للمؤمنين، فقد قال عمر ﷺ: «**إِنِّي لَأُجَهِّزُ جَيْشِي، وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ**»[1]. ويُفْهَم من كلام عمر ﷺ أنه يتحدَّث عن ظروف معينة تمرُّ بها الأُمَّة، مثل قرب دخولها في معركة حاسمة، أو وجود قلق كبير من مواجهة قادمة؛ فهذا الذي دفعه إلى مراجعة صفوف جيشه وقياداته في الصلاة، ولو كان أمرًا متكرِّرًا ما ذكره عمر ﷺ بهذه الصيغة، حيث قالها وهو يعلم أنها ستترك انطباعًا غريبًا عند السامعين، وحريٌّ بأمثال عمر ﷺ في خشوعهم ألا يتكرَّر منهم هذا الفِكْر إلا في مناسبات محدودة.

ثالثًا: فتح الباب المغلق:

أحيانًا يدقُّ البابَ زائرٌ أو فردٌ من أفراد البيت؛ بينما لا يُوجد في المنزل إلا واحدًا فقط يُصَلِّي! وإذا لم يفتح الباب أحدٌ فلعلَّ الطارق يقلق، أو يزيد من الدقِّ متوقِّعًا نوم أهل البيت، أو لعلَّه ينصرف فلا تنقضي مصلحة، أو غير ذلك من أمور قد تكون لها نتائج سلبيَّة، وتحت ظلِّ كل هذه التوقُّعات قد يذهب خشوع المصلي، فتضيع المصلحة والخشوع معًا! ولذلك شرع رسولُ الله ﷺ للمصلي أن يفتح باب البيت إذا كان بمفرده فيه، وكان الباب قريبًا من المصلي ولا يحتاج إلى عملٍ كثيرٍ ليفتحه؛ خاصَّة إذا كان الباب في اتجاه القبلة، ولن يُغَيِّر المصلي من اتجاهه وهو يفتح الباب، فعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: «**جِئْتُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي فِي الْبَيْتِ، وَالْبَابُ عَلَيْهِ مُغْلَقٌ، فَمَشَى حَتَّى فَتَحَ لِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ. وَوَصَفَتِ الْبَابَ فِي الْقِبْلَةِ**»[2].

---

(١) ذكره البخاري معلقًا مجزومًا به، في باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة، كتاب العمل في الصلاة، وابن أبي شيبة: المصنف (٧٩٥١)، وقال ابن حجر في فتح الباري، ٣/ ٩٠: «وصله ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن أبي عثمان النهدي عنه».

(٢) الترمذي: كتاب الصلاة، في أبواب السفر، باب ذكر ما يجوز من المشي والعمل في صلاة التطوع، (٦٠١)، وقال: هذا حديث حسن. وأبو داود (٩٢٢)، وأحمد (٢٤٠٧٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وحسنه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٤/ ٧٧ (٨٥٥).

وعنها أيضًا قَالَتْ: «اسْتَفْتَحْتُ الْبَابَ وَرَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي تَطَوُّعًا، وَالْبَابُ فِي الْقِبْلَةِ، فَمَشَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ يَسَارِهِ حَتَّى فَتَحَ الْبَابَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الصَّلَاةِ»[1].

رابعًا: ردُّ السلام بالإشارة:

من أجمل الأعمال التي كان رسول الله ﷺ يفعلها في الصلاة أنه كان يردُّ السلام بإشارة من يده، وأحيانًا برأسه على مَنْ ألقاه عليه، فهذا نوع من الإيناس والترحيب والمودَّة تسمح به الشريعة دون أن يُفسد الصلاة، وقد وردت في السُّنَّة قصة لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما توضِّح مدى الأثر النفسي لردِّ السلام من عدمه، فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَرْسَلَنِي رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يُصَلِّي عَلَى بَعِيرِهِ فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ لِي بِيَدِهِ هَكَذَا -وَأَوْمَأَ زُهَيْرٌ[2] بِيَدِهِ- ثُمَّ كَلَّمْتُهُ فَقَالَ لِي هَكَذَا -فَأَوْمَأَ زُهَيْرٌ أَيْضًا بِيَدِهِ نَحْوَ الْأَرْضِ- وَأَنَا أَسْمَعُهُ يَقْرَأُ، يُومِئُ بِرَأْسِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «مَا فَعَلْتَ فِي الَّذِي أَرْسَلْتُكَ لَهُ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُكَلِّمَكَ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أُصَلِّي»[3]. وجاءت القصة نفسها برواية ثانية وضَّحت بعض الجوانب الأخرى في المسألة؛ فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ فِي حَاجَةٍ لَهُ، فَانْطَلَقْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَقَدْ قَضَيْتُهَا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِي مَا اللهُ أَعْلَمُ بِهِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَعَلَّ رَسُولَ الله ﷺ وَجَدَ[4] عَلَيَّ أَنِّي أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِي أَشَدُّ مِنَ الْمَرَّةِ الأُولَى، ثُمَّ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ، فَقَالَ: «إِنَّمَا مَنَعَنِي أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ أَنِّي كُنْتُ أُصَلِّي». وَكَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ[5]. ففي هذه القصة بيَّن رسول الله ﷺ أن الردَّ على السلام في الصلاة يكون بالإشارة باليد دون الكلام؛ لأن الكلام بغير القرآن والذِّكْر يُفسِد الصلاة؛ ولكن جابر رضي الله عنه لم يكن يعرف أن الإشارة باليد تعني الردَّ عليه، فحزِن لذلك، وظنَّ أن الرسول ﷺ غاضب عليه، ومن أجل مَنْع هذه المشاعر السلبيَّة شَرَع رسول الله ﷺ ردَّ السلام في الصلاة بالإشارة.

---

(١) النسائي: كتاب السهو ذكر ما ينقض الصلاة وما لا ينقضها، المشي في الصلاة (٥٢٣)، وأحمد (٢٦٠١٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وابن حبان (٢٣٥٥)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وأبو يعلى (٤٤٠٦)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٧١٥).

(٢) هو: زهير بن معاوية بن حديج بن الرحيل، أبو خيثمة الجعفي الكوفي، أحد رواة الحديث.

(٣) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، (٥٤٠).

(٤) وَجَدَ؛ أيْ غَضِبَ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٣/ ٨٧.

(٥) البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب لا يرد السلام في الصلاة، (١١٥٩).

وقد تكرَّر من رسول الله ﷺ ردُّ السلام بالإشارة أثناء الصلاة في أكثر من موقف؛ فعن نابل عن ابن عمر رضي الله عنهما عن صُهَيْبٍ رضي الله عنه قال: «مَرَرْتُ بِرَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ إِشَارَةً، قَالَ(١): وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ(٢): إِشَارَةً بِأُصْبُعِهِ»(٣). وقال عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى قُبَاءَ يُصَلِّي فِيهِ»، قَالَ: «فَجَاءَتْهُ الْأَنْصَارُ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي»، قَالَ: «فَقُلْتُ لِبِلَالٍ: كَيْفَ رَأَيْتَ رَسُولَ الله ﷺ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ حِينَ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي؟»، قَالَ: «يَقُولُ هَكَذَا، وَبَسَطَ كَفَّهُ». وَبَسَطَ جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ كَفَّهُ، وَجَعَلَ بَطْنَهُ أَسْفَلَ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ إِلَى فَوْقٍ(٤). وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا قَدِمْتُ مِنَ الْحَبَشَةِ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ(٥).

خامسًا: تسبيح الرجال للفت نظر الإمام، وتصفيق النساء:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ أَنَّ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ، فَخَرَجَ يُصْلِحُ بَيْنَهُمْ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَحُبِسَ رَسُولُ الله ﷺ وَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَجَاءَ بِلَالٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ حُبِسَ، وَقَدْ حَانَتِ الصَّلَاةُ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَؤُمَّ النَّاسَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِنْ شِئْتَ. فَأَقَامَ بِلَالٌ رضي الله عنه الصَّلَاةَ وَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ

---

(١) قال الخطابي: قال قتيبة: ولا أعلمه إلاَّ قال إشارة بأُصْبُعِهِ. انظر: معالم السنن ١/ ٢١٩، وقال المباركفوري: (وَقَالَ) أي نابل. انظر: تحفة الأحوذي ٢/ ٣٠٣، وقال العظيم آبادي: (قَالَ)؛ أي نَابِلٌ... وَقَالَ النَّسَائِيُّ: نَابِلٌ لَيْسَ بِالْمَشْهُورِ. وَنَابِلٌ هُوَ صَاحِبُ الْعَبَاءِ، وَيُقَالُ: صَاحِبُ الشِّمَالِ. سمع من ابن عُمَرَ. انظر: عون المعبود وحاشية ابن القيم ٣/ ١٣٧، وقال محمد بن علي الإثيوبي: (ولا أَعْلَمُهُ) لم يتبين لي قائل «ولا أعلمه»، وصرَّح في «تحفة الأحوذي» بأنه نابل، وذكر صاحب «المنهل» أنه قتيبة، ولم يذكر كل منهما حجة لما قاله، فالله تعالى أعلم. انظر: ذخيرة العقبى في شرح المجتبى ١٤/ ١٦٣.

(٢) قال المباركفوري: (لا أَعْلَمُ إلاَّ أَنَّهُ) أي ابن عُمَرَ. انظر: تحفة الأحوذي ٢/ ٣٠٣، (وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ)؛ أي ابن عُمَرَ. عون المعبود وحاشية ابن القيم ٣/ ١٣٧.

(٣) أبو داود: كتاب الصلاة، باب رد السلام في الصلاة، (٩٢٥)، والترمذي (٣٦٨)، والنسائي (١١٠٩)، وأحمد (١٨٩٥١) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (٢٢٥٩)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود، ٤/ ٨١ (٨٥٨).

(٤) أبو داود: كتاب الصلاة، باب رد السلام في الصلاة، (٩٢٧)، والترمذي (٣٦٨)، وقال: حديث حسن صحيح. والبيهقي: السنن الكبرى (٣٥٣٦)، وقال النووي: صحيح، رواه أبو داود وغيره بهذا اللفظ. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٥٠٨، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٤/ ٨٣ (٨٦٠)، وفي رواية: «فَسَأَلْتُ صُهَيْبًا وَكَانَ مَعَهُ». ابن ماجه (١٠١٧)، والبيهقي: السنن الكبرى (٣٥٣٥)، والطبراني: المعجم الكبير (٧٣٠٨)، والدارمي (١٣٦٢)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وأبو يعلى (٥٦٣٨)، وفي رواية: «قَالَ: فَقُلْتُ لِبِلَالٍ أَوْ صُهَيْبٍ». البيهقي: السنن الكبرى (٣٥٣٧).

(٥) البيهقي: السنن الكبرى، (٣٥٤١)، وابن أبي شيبة: المصنف (٤٨١٩)، وأبو داود: المراسيل (٤٩).

ﷺ، فَكَبَّرَ لِلنَّاسِ، وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي فِي الصُّفُوفِ يَشُقُّهَا شَقًّا، حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ، فَأَخَذَ النَّاسُ فِي التَّصْفِيحِ -قَالَ سَهْلٌ: التَّصْفِيحُ: هُوَ التَّصْفِيقُ- قَالَ: وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، لَا يَلْتَفِتُ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ الْتَفَتَ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ «أَنْ يُصَلِّيَ»، فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، يَدَهُ فَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ رَجَعَ الْقَهْقَرَى وَرَاءَهُ حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ، وَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَصَلَّى لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا لَكُمْ حِينَ نَابَكُمْ شَيْءٌ فِي الصَّلَاةِ أَخَذْتُمْ بِالتَّصْفِيحِ؟ إِنَّمَا التَّصْفِيحُ لِلنِّسَاءِ، مَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَقُلْ: سُبْحَانَ اللهِ». ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ لِلنَّاسِ حِينَ أَشَرْتُ إِلَيْكَ؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ[(١)].

فهذه عدَّة أعمال في الصلاة كلها لا تُبطلها؛ لأن الرسول ﷺ أقرَّها، فكان منها تصفيق الصحابة للفت نظر أبي بكر ﷺ، وكان منها التفات أبي بكر ﷺ للمأمومين لرؤية سبب تصفيقهم، وكان منها كذلك رفع أبي بكر ﷺ ليديه للسماء للحمد، ثم كان منها أخيرًا تقهقر أبي بكر ﷺ للوراء وهو يُصَلِّي، وكان منها التسبيح للفت النظر كما أمر رسول الله ﷺ.

سادسًا: إيقاظ النائم بحركة خفيفة:

قد يحتاج المصلي لإيقاظ أحد النائمين جواره لمصلحة خاصة بالصلاة أو بغيرها، فيمكن له عندئذٍ أن يغمزه بيده غمزة خفيفة لتنبيهه؛ وذلك دون أن يخرج من الصلاة؛ فَعَنْ عَائِشَةَ ﷺ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَنَامُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِجْلَايَ فِي قِبْلَتِهِ، فَإِذَا سَجَدَ غَمَزَنِي فَقَبَضْتُ رِجْلَيَّ، فَإِذَا قَامَ بَسَطْتُهُمَا، قَالَتْ: وَالْبُيُوتُ يَوْمَئِذٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَابِيحُ[(٢)].

سابعًا: تهيئة مكان السجود بحركة بسيطة:

أحيانًا يبدأ المصلي في صلاته، ثم عند سجوده يكتشف أن مكان وضع الجبهة غير مهيأ لذلك، فإذا سجد عليه بهذه الصورة فقد لا يستطيع تمكين جبهته من الأرض، أو قد يفقد

---

(١) البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب رفع الأيدي في الصلاة لأمر ينزل به، (١١٦٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب تقديم الجماعة من يصلي بهم إذا تأخر الإمام ولم يخافوا مفسدة، (٤٢١).

(٢) البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة على الفراش. (٣٨٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الاعتراض بين يدي المصلي، (٥١٢).

خشوعه وتركيزه؛ لهذا كان من السُّنَّة النبوية أن تُهيِّئ المكان بحركة خفيفة حتى يصير ملائمًا؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: «كُنَّا نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَضَعُ أَحَدُنَا طَرَفَ الثَّوْبِ مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ فِي مَكَانِ السُّجُودِ»[١]. وعن مُعَيْقِيبٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الرَّجُلِ يُسَوِّي التُّرَابَ حَيْثُ يَسْجُدُ، قَالَ: «إِنْ كُنْتَ فَاعِلًا فَوَاحِدَةً»[٢]. فهاتان حركتان خفيفتان ساعدتا على تهيئة المكان تهيئة مناسبة؛ وهما؛ وضع الثوب، ومسح الحصى مرَّة واحدة، وهما يهدفان إلى توفير وضع أفضل للسجود فلا تعارض بينهما وبين الخشوع في الصلاة.

ثامنًا: قتل الحية أو العقرب:

إذا تعرَّضت حياة المسلم للخطر برؤية حيَّةٍ أو عقرب أثناء الصلاة جاز له أن يقتلهما وهو يُصَلِّي دون أن يخرج من صلاته؛ وذلك لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اقْتُلُوا الْأَسْوَدَيْنِ فِي الصَّلَاةِ: الحَيَّةَ، وَالْعَقْرَبَ»[٣]. وقال عَبْدُ الله بْنُ دِينَارٍ: «رَأَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ ﷺ رَأَى رِيشَةً وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَضَرَبَهَا بِرِجْلِهِ وَقَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهَا عَقْرَبٌ»[٤]. وذكر البغوي ﷺ أن هذا الحكم يلحق بكل الحشرات الضارة التي أُبيح قتلها، قال البغوي: «وَفِي مَعْنَى الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ كُلُّ ضَرَّارٍ مُبَاحِ الْقَتْلِ كَالزَّنَابِيرِ، وَالشِّبْثَانِ[٥]، وَنَحْوِهَا»[٦].

تاسعًا: منع الناس من المرور بين يدي المصلي:

مرَّ بنا في هذا الكتاب[٧] مسألة منع الناس من المرور بين يدي المصلي، ويكون هذا المنع

---

(١) البخاري: أبواب الصلاة في الثياب، باب السجود على الثوب في شدة الحر، (٣٧٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب تقديم الظهر في أول الوقت في غير شدة الحر، (٦٢٠).

(٢) البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب مسح الحصا في الصلاة، (١١٤٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة مسح الحصى وتسوية التراب في الصلاة، (٥٤٦).

(٣) أبو داود: تفريع أبواب العمل في الصلاة، باب العمل في الصلاة (٩٢١)، واللفظ له، والترمذي (٣٩٠)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٥٢٠)، وابن ماجه (١٢٤٥)، وأحمد (٧١٧٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات. والدارمي (١٥٠٤)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وابن حبان (٢٣٥٢)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٤/ ٧٦ (٨٥٤).

(٤) البيهقي: السنن الكبرى (٣٥٧٨)، واللفظ له، وبلفظ: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ دِينَارٍ، رَأَى ابْنُ عُمَرَ رِيشَةً وَهُوَ يُصَلِّي فَحَسِبَ أَنَّهَا عَقْرَبٌ فَضَرَبَهَا بِنَعْلِهِ. ابن أبي شيبة: المصنف (٤٩٧١)، وقال المباركفوري: رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ. تحفة الأحوذي ٢/ ٣٣٥.

(٥) نوع من العناكب.

(٦) البغوي: شرح السنة ٣/ ٢٦٨.

(٧) راجع الكلام عن المرور بين يدي المصلي ص١٩٦.

بمدِّ اليدِّ لتنبيهه بعدم المرور، فإن أصرَّ على المرور جاز دفعه باليد، أو «مقاتلته»؛ وذلك كله دون الخروج من الصلاة، فعن أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ، قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ ﷺ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ يُصَلِّي إِلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، فَأَرَادَ شَابٌّ مِنْ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَدَفَعَ أَبُو سَعِيدٍ فِي صَدْرِهِ، فَنَظَرَ الشَّابُّ فَلَمْ يَجِدْ مَسَاغًا إِلَّا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَعَادَ لِيَجْتَازَ، فَدَفَعَهُ أَبُو سَعِيدٍ أَشَدَّ مِنَ الأُولَى، فَنَالَ مِنْ أَبِي سَعِيدٍ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى مَرْوَانَ، فَشَكَا إِلَيْهِ مَا لَقِيَ مِنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَدَخَلَ أَبُو سَعِيدٍ خَلْفَهُ عَلَى مَرْوَانَ، فَقَالَ: مَا لَكَ وَلِابْنِ أَخِيكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ؟ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إِلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ فَأَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلْيَدْفَعْهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ»[1].

عاشرًا: خلع النعل إذا رأى به قذرًا:

قد يكتشف المصلِّي أن وسخًا في شيء من ثيابه يمكن له أن يتخلَّص منه، فلا بأس حينئذٍ من خلع الشيء المتسخ دون الخروج من الصلاة؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ إِذْ خَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْقَوْمُ أَلْقَوْا نِعَالَهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاتَهُ، قَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى إِلْقَاءِ نِعَالِكُمْ؟»، قَالُوا: رَأَيْنَاكَ أَلْقَيْتَ نَعْلَيْكَ فَأَلْقَيْنَا نِعَالَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ جِبْرِيلَ ﷺ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا قَذَرًا -أَوْ قَالَ: أَذًى-»، وَقَالَ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَنْظُرْ: فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَذَرًا أَوْ أَذًى فَلْيَمْسَحْهُ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا»[2]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلَا يَضَعْ نَعْلَيْهِ عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ يَسَارِهِ، فَتَكُونَ عَنْ يَمِينِ غَيْرِهِ، إِلَّا أَنْ لَا يَكُونَ عَنْ يَسَارِهِ أَحَدٌ، وَلْيَضَعْهُمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ»[3].

في هذه الأحاديث عرفنا أن خلع النعل أثناء الصلاة لا يُفسدها، وأنه ينبغي لنا أن نضع النعل بين أرجلنا لكي لا نُؤذِي به مَنْ يجاورنا في صلاة الجماعة، أما الإمام، وكذلك المنفرد في

---

(١) سبق تخريجه ص١٩٧.

(٢) أبو داود: كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعل (٦٥٠)، وأحمد (١١١٦٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والدارمي (١٣٧٨)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. وابن حبان (٢١٨٥)، والطبراني: المعجم الأوسط (٥٠١٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ٥٦، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٢٢٠ (٦٥٧).

(٣) أبو داود: كتاب الصلاة، باب المصلي إذا خلع نعليه أين يضعهما؟ (٦٥٤)، والحاكم (٩٥٤)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٢٢٦ (٦٦١).

الصلاة، أو الذي يُصَلِّي في أقصى يسار الصفِّ وليس على يساره أحد، فكلُّ هؤلاء يمكن لهم وضع النعل عن يسارهم، ويمتنع المسلم عن وضع النعل عن يمينه تكريمًا لليمين.

واستنبط الخَطَّابِيُّ من الحديث «أَنَّ مَنْ صَلَّى وَفِي ثَوْبِهِ نَجَاسَةٌ لَمْ يَعْلَمْ بِهَا فَإِنَّ صَلَاتَهُ مُجْزِيَةٌ وَلَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ»(١).

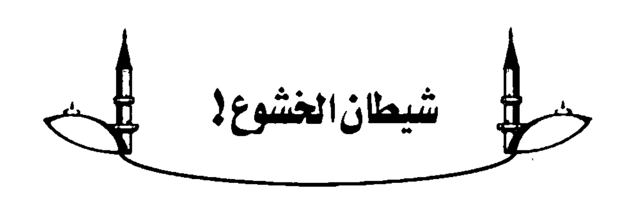
هذه إذن بعض الأعمال التي يمكن للمُصَلِّي أن يفعلها أثناء صلاته دون أن تفسد الصلاة أو تتعارض مع الخشوع، ويجمعها جميعًا أنها كلها من السُّنَّة النبوية التي فعلها رسول الله ﷺ أو أقرَّها، وأنها لم تكن تتكرَّر كثيرًا في الصلوات، وأنها تُؤَدِّي إلى مصلحة شرعية أراد الله ﷻ تحقيقها، وكان من الممكن أن تَقْضِي الشريعةُ بفساد الصلاة التي حدثت فيها مثل هذه الأعمال؛ ومن ثَمَّ إعادتها، لولا الروح السمحة لهذا الدين العظيم، وهذا اليُسر الذي نراه في كل تشريعاته، وصدق الله الرحيم إذ يقول: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

* * *

---

(١) الخطابي: معالم السنن ١/ ١٨١.





قصة الشيطان مع الإنسان قديمةٌ قديمة!

خَلَقَ اللهُ آدمَ عليه السلام من طين، ثم تركه فترة في الجنة قبل أن ينفخ فيه الروح..

ومرَّ إبليس على الخلق الجديد يتفحَّصه!

قال إبليس:

ما هذا؟!

إنه أجوف.. بلا أحشاء!

يغلب على ظنِّي أنه لن يتمالك نفسه عند الغضب..

وقد لا يتمالك نفسه إذا عُرِضَت له شهوات..

وقد لا يتمالك نفسه إذا وسوستُ له، أو أمرتُه بشيء..

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ»(١).

وَضَحَ لنا من هذا الموقف أن إبليس من البداية كان مستهترًا بآدم عليه السلام، وكان يشعر بتفوُّقه عليه، وقدرته على إغوائه وفتنته..

ثم نَفَخَ اللهُ عز وجل في آدم من روحه تعالى فدبَّت فيه الحياة..

ومن ثَمَّ أَمَرَ اللهُ الملائكةَ وإبليسَ بالسجود للخلق الجديد تكريمًا له..

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

ولكن حدثت مفاجأة مدوِّية!!

رفض إبليس السجود، وعصى ربَّ العالمين!

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، (٢٦١١)، وأحمد (١٣٤١٥).

الكلُّ سجودٌ، وإبليس وحده يقف!

ثم يدور حوار عجيب!

الله تعالى: يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ؟ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ؟

إبليس: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ!

الله تعالى: فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

إبليس: رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

الله تعالى: فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ.

إبليس: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ.

الله تعالى: فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ[1].

وانتهى الحوار!

ولم يندم إبليس، ولم يحاول التراجع، ولم يُبْدِ أيَّ بادرة اعتذار أو توبة؛ بل قرَّر أن يُنازِع اللهَ سلطانه، وأن يجعل آدمَ وذريته موطنَ التحدِّي، وأن يُسَخِّر مستقبله كله، وإمكاناته جميعًا، من أجل إغواء هذا الخلق الجديد وإضلاله! وهكذا قاده الكِبْرُ إلى الكُفْرِ، ومِن كارثة فادحة إلى كارثة أفدح، فكان الخسران المبين!

وهكذا كان لآدم عليه السلام في أولى لحظات حياته عدوٌّ!

وهو عدوٌّ شرسٌ بغيضٌ ليس في الإمكان مهادنته أو تحييده، فالحقد قد سَوَّد قلبه، والكفر قد أعمى بصيرته، فلا سبيل إلى السلام معه! وقد حذَّرنا الله من ديمومة عداوته فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وهو عدوٌّ ذو إمكانات واسعة، وله جنودٌ وسلاح؛ فقد قال الله له: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

(١) الحوار من سورة ص الآيات ٧٥-٨٥.

وهو عدوٌ لا ينسى عداوته؛ بل يبثُّها في أتباعه من الجنِّ بصورةٍ دوريَّةٍ لا انقطاع فيها، ويُقَرِّب من جنوده إليه أعظمهم غواية للإنسان؛ فعَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ»(١).

بل بلغ من اهتمام إبليس بالأمر أن جعل لكل إنسان على وجه الأرض جنديًا من جنوده يلازمه في مسيرة حياته بكاملها، حتى يضمن أنه لن يفلت واحدٌ من ذرية آدم ﷺ من الغواية، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ» قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»(٢).

ومع ذلك فالمؤمن من ذرية آدم ﷺ ليس مهيض الجناح في هذه المعركة!

فالله ﷻ وضَّح في كتبه وعلى لسان أنبيائه، كل الوسائل الناجحة في مقاومة هذا الشيطان الخبيث، وبيَّن بجلاء طرق الانتصار عليه، وأعلنها -سبحانه- صريحةً لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وأقرَّ ذلك الشيطانُ في خزيٍ فاستثنى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

وتبقى المهمة الكبرى لأبناء آدم ﷺ في الأرض هي التعرُّف على الوسائل الناجحة التي يمكن أن يُحَقِّقوا بها النصر على عدوِّهم الأبدي؛ وذلك من خلال دراسة الكتاب والسُّنَّة، ثم استخدام هذه الوسائل بدقَّة كما وَصَف اللهُ تعالى ورسلُه الكرام.

وقد وَجَدْتُ في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة وسائل كثيرة من هذا النوع؛ ولكن يأتي في مقدمتها ثلاثةَ أمور، جَمَعَتْها آية واحدة، وكلها لها علاقة وطيدة بموضوع الكتاب؛ لهذا جاءت مقدمة هذا الفصل على هذا النحو، وهذه الثلاثة هي: الذكر، والصلاة، والجماعة!

---

(١) مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينًا، (٢٨١٣)، وأحمد (١٤٤١٧).

(٢) مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينًا، (٢٨١٤)، وأحمد (٣٨٠٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

لقد وضَّحت الآية أن الشيطان يعرف الأسلحة الإيمانية القوية التي يمكن أن تدحر جنوده؛ ومن ثَمَّ فهو حريص على منع المؤمنين من استخدام هذه الأسلحة، وهذه الأسلحة -كما بيَّنت الآية- هي: ذكر الله، والصلاة، والألفة بين المسلمين، وبالتالي فالشيطان يسعى لصدِّ المؤمنين عن استخدام هذه الأسلحة، وله في ذلك طرق كثيرة ذكرت الآيةُ بعضها؛ وهي الخمر والميسر.

وعندنا الكثير من الآيات والأحاديث التي تدعم هذه الرؤية..

فبخصوص الذكر قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ [المجادلة: ١٩]؛ وعن الحارث الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ»(١). وبخصوص الصلاة قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وبهذا تمنع الصلاة من الشيء الذي يأمر الشيطان بفعله، وقد قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وبخصوص الجماعة روى عمرُ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ»(٢).

ومن الجميل أن نلحظ أن أداء الصلاة بالطريقة التي شرعها رسول الله ﷺ يُقَوِّي هذه الأسلحة الثلاثة؛ ومن ثَمَّ يُعِين المؤمن على دحر الشيطان؛ فالصلاة الخاشعة أقوى بلا جدال في حرب الشيطان، وأكثر قدرة على النهي عن الفحشاء والمنكر، وقد تعلَّمنا في الكتاب وسائل نبويَّة كثيرة لزيادة الخشوع، وذِكْرُ الله يُلازم الصلاة الخاشعة بشكل ملحوظ، فهناك ذِكْرٌ قَبْلَها، وذِكْرٌ في أثنائها، وذِكْرٌ بعدها، وكلما ازداد المؤمن خشوعًا كان للذكر أثرٌ أكبر على قلبه، وأخيرًا فإن الرسول ﷺ قد شرع لنا صلاة الجماعة وهي بذلك تُقَوِّي رابطتنا في مواجهة

---

(١) أحمد (١٧٢٠٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وقال البغوي: حديث حسن. انظر: البغوي: شرح السنة ١٠/ ٥١، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع ١/ ٣٥٦.

(٢) الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٥)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٩٢٢٥)، وأحمد (٢٣١٩٤)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١١١٦).



الشيطان؛ فالصلاة الخاشعة إذن تُحقِّق لنا الأمور الثلاثة.

ولأن إبليس مُدْرِكٌ لكل هذه الأبعاد فإنه لم يكتفِ في مسألة الصلاة بالقرين الذي وظَّفه لملازمة كل إنسان، إنما خَصَّص من جنوده فريقًا لا هَمَّ لهم ولا وظيفة إلا صرف خشوع المسلم إذا دخل في الصلاة! فواجب القرين الأساسي هو منع المسلم من الصلاة أصلًا، فإن تَغَلَّب المسلم عليه وصلَّى جاء دور هذا الشيطان الجديد، فيأتي إلى المصلي أثناء الصلاة ويحاول إلهاءه عن الخشوع فيها؛ ومن ثَمَّ لا تُحْدِث الصلاة أثرها المتوقَّع في حياة المؤمن، وبهذا فيمكن اعتبار هذا الشيطان شيطانًا خاصًّا بالخشوع في الصلاة، وقد عَرَّفَنا رسول الله ﷺ باسمه، وهو «خَنْزَب»!

عن عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ ﷺ أَنَّه أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِالله مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا». قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي[(١)].

فهذا -كما رأينا- شيطانٌ مُعيَّن، يأتي إلى المسلم أثناء الصلاة ليصرفه عن الخشوع فيها، ولا يمنع أن تكون هناك شياطين أخرى تُساعد في هذه المهمة؛ بل لا يمنع أن يكون إبليس مشاركًا بنفسه في بعض عمليات الإلهاء، فالواضح أن عبادة الصلاة من أكثر العبادات التي تغيظه وتكيد له، وهي من أكثر العبادات المُكَفِّرة عن الخطايا[(٢)]، فكأنها تنسف الأعمال التي اجتهد الشيطان في تحقيقها؛ لهذا أَوْلَى إبليس لها اهتمامًا خاصًّا.

وسوف نتعرَّف في هذا الفصل على بعض الأسلحة الشيطانية المستخدَمة في محاولة إلهاء المسلم عن خشوعه في الصلاة، ونتعرَّف كذلك على نصائح الرسول ﷺ في مواجهة هذه الحيل الخبيثة.

---

(١) مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، (٢٢٠٣)، وأحمد (١٧٩٢٨).

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ». مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات... (٢٣٣). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ». قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا». البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، (٥٠٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، (٦٦٧).

أولاً: سلاح السهو في الصلاة:

من أكبر وسائل الشيطان في إلهاء الإنسان دفعه إلى النسيان! فينسى العبدُ الأعمالَ الصالحة التي أراد فعلها، ولقد دفع الشيطانُ غلامَ موسى ﷺ إلى نسيان أمر الحوت لكي يمنعهما من بلوغ العلم؛ قال تعالى على لسان الغلام: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ودفع الشيطانُ صاحبَ يوسف ﷺ إلى نسيان الحديث مع الملِك في شأن يوسف ﷺ ليستمر بقاؤه في السجن سنوات طويلة؛ قال تعالى: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وهكذا يُنْسِي الشيطانُ الإنسانَ فيسهو عن فعل الصالحات، ويكون هذا النسيان عن طريق وسائل متعدِّدَة؛ أشهرها تذكيره بأمور أقل أهمية، وتعظيمها في عينه، فيذكرها الإنسانُ، وينسى الأهمَّ!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ[1]، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ النِّدَاءُ[2] أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ[3] بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ[4] بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»[5].

في هذا الحديث عَرَفْنَا قَدْرَ البُغْضِ الذي في نفس الشيطان من أمر الصلاة، وعرفنا كذلك شيئًا عن نفسه المتكبِّرة؛ التي تأبى أن تسمع أن «اللهَ أكبرُ»! فيُحْدِثُ الشيطانُ صوتًا عاليًا منكرًا يُغطي على صوت الأذان أو الإقامة، فإذا انتهت الإقامة أقبل الشيطان، فكان همُّه الأكبر

---

(١) لَهُ ضُرَاطٌ: قَالَ عِيَاضٌ: يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ لِأَنَّهُ جِسْمٌ مُتَغَذٍّ يَصِحُّ مِنْهُ خُرُوجُ الرِّيحِ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ شِدَّةِ نِفَارِهِ؛ وَيُقَوِّيهِ رِوَايَةُ لِمُسْلِم: «لَهُ حُصَاصٌ». بِمُهْمَلَاتٍ مَضْمُومُ الْأَوَّلِ؛ فَقَدْ فَسَّرَهُ الْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ بِشِدَّةِ الْعَدْوِ، قَالَ الطِّيبِيُّ: شَبَّهَ شُغْلَ الشَّيْطَانِ نَفْسَهُ عَنْ سَمَاعِ الْأَذَانِ بِالصَّوْتِ الَّذِي يَمْلَأُ السَّمْعَ وَيَمْنَعُهُ عَنْ سَمَاعِ غَيْرِهِ، ثُمَّ سَمَّاهُ ضُرَاطًا تَقْبِيحًا لَهُ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٨٥.

(٢) النِّدَاء، أي الأذان.

(٣) إِذَا ثُوِّبَ: قِيلَ: هُوَ مِنْ ثَابَ إِذَا رَجَعَ... وقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ إِذَا أُقِيمَتْ، وَأَصْلُهُ أَنَّهُ رَجَعَ إِلَى مَا يُشْبِهُ الْأَذَانَ، وَكُلُّ مَنْ رَدَّدَ صَوْتًا فَهُوَ مُثَوِّبٌ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٨٥.

(٤) يَخْطِرَ: بِضَمِّ الطَّاءِ، قَالَ عِيَاضٌ: كَذَا سَمِعْنَاهُ مِنْ أَكْثَرِ الرُّوَاةِ، وَضَبَطْنَاهُ عَنِ الْمُتْقِنِينَ بِالْكَسْرِ، وَهُوَ الْوَجْهُ، وَمَعْنَاهُ يُوَسْوِسُ؛ وَأَصْلُهُ مِنْ خَطَرَ الْبَعِيرُ بِذَنَبِهِ إِذَا حَرَّكَهُ فَضَرَبَ بِهِ فَخِذَيْهِ، وَأَمَّا بِالضَّمِّ فَمِنَ الْمُرُورِ أَيْ يَدْنُو مِنْهُ فَيَمُرُّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ فَيَشْغَلُهُ. وَضَعَّفَ الْحَجَرِيُّ فِي نَوَادِرِهِ الضَّمَّ مُطْلَقًا، وَقَالَ: هُوَ يَخْطِرُ بِالْكَسْرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٨٦.

(٥) البخاري: كتاب الأذان، باب فضل التأذين، (٥٨٣). ومسلم: كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، (٣٨٩).

أن يُذَكِّر الإنسان بأمور كثيرة في حياته من أمور المعاش، أو حتى من أمور الدِّين، حتى يصل الأمر إلى أن ينسى المصلِّي عددَ الركعات التي صلَّاها! وبدهيٌّ أن الذي نَسِي عددَ الركعات كان منشغلًا عن معاني الآيات والأذكار؛ أي أنه فَقَدَ الخشوع تمامًا في صلاته، فصارت مجرَّد حركات لا أثر لها في حياته أو سلوكه.

ما الحل في ذلك؟!

إذا شعر المسلم في لحظة من لحظات الصلاة أنه يُفَكِّر كثيرًا في أمورٍ خارج الصلاة فليعرف أن هذا من فِعْل شيطان الخشوع: خَنْزَب! ولْيفعل معه ما أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ بفعله: «فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلاثًا».

فالتعوُّذ يكون بصيغة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم يكون التَّفْلُ -وهو إخراج رذاذ خفيف للغاية- على الناحية اليسرى، وهي الناحية التي يدخل منها شيطان الصلاة؛ وذلك مع مراعاة عدم إيذاء المصلي الذي يُصَلِّي على الجانب الأيسر إن كانت صلاة جماعة، وأحسب أن المسلم لا يحتاج إلى تكرار هذا كثيرًا؛ لأن عثمان بن أبي العاص ﷺ -راوي الحديث- قال: «فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي». فأثر الاستعاذة والتفل كان دائمًا لفترة طويلة؛ لهذا أرى ألا يُفْعَل هذا مع كل بادرة شرود في الصلاة؛ ولكن فقط إذا لاحظ المصلي أن النسيان صار متكرِّرًا.

ثم إذا حدث النسيان بالفعل، ولم يُدْرِك المصلي عدد الركعات التي صلَّاها، فلْيَبْنِ على الأقل، ولْيُصَلِّ ركعة زائدة، ثم يسجد سجدتي سهو قبل التسليم من الصلاة؛ وذلك لما ورد من أحاديث في هذه المسألة، فعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا، فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ وَلْيَبْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ، فَإِنْ كَانَ صَلَّى خَمْسًا شَفَعْنَ لَهُ صَلَاتَهُ، وَإِنْ كَانَ صَلَّى إِتْمَامًا لِأَرْبَعٍ كَانَتَا تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ»[1].

وفي لفظ آخر عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ أيضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيُلْقِ الشَّكَّ، وَلْيَبْنِ عَلَى الْيَقِينِ، فَإِذَا اسْتَيْقَنَ التَّمَامَ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، فَإِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ تَامَّةً كَانَتِ الرَّكْعَةُ نَافِلَةً وَالسَّجْدَتَانِ، وَإِنْ كَانَتْ نَاقِصَةً كَانَتِ الرَّكْعَةُ تَمَامًا لِصَلَاتِهِ، وَكَانَتِ

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، (٥٧١).

السَّجْدَتَانِ مُرْغِمَتَيِ الشَّيْطَانِ»[(١)]. وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي صَلَّيْتُ فَلَمْ أَدْرِ أَشَفَعْتُ أَمْ أَوْتَرْتُ[(٢)]؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّايَ[(٣)] وَأَنْ يَتَلَعَّبَ بِكُمُ الشَّيْطَانُ فِي صَلاتِكُمْ، مَنْ صَلَّى مِنْكُمْ فَلَمْ يَدْرِ أَشَفَعَ أَوْ أَوْتَرَ، فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ، فَإِنَّهُمَا تَمَامُ صَلاتِهِ»[(٤)]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي جَاءَ الشَّيْطَانُ، فَلَبَسَ عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَدْرِيَ كَمْ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ»[(٥)].

فهذه الروايات توضِّح لنا أن الشيطان هو الذي يُنْسِي المصلي عدد الركعات التي صلَّاها، ومن هنا كان الرسول ﷺ حريصًا على لفت النظر إلى أن سجدتي السهو ما هما إلا ترغيم للشيطان، وإفحام له؛ حيث إن الشيطان كان قد ظنَّ في نفسه الغلبة بإخراج المصلي عن خشوعه، فإذا بالمصلي يقلب الأوضاع، ويستردُّ الغلبة على الشيطان؛ وذلك ببذل مجهودٍ أكبر، وهو صلاة ركعة زائدة، وهذه الركعة ستكون في ميزان حسنات العبد؛ حيث إنها إمَّا أن

---

(١) أبو داود: كتاب الصلاة، باب إذا شك في الثنتين والثلاث من قال يلقي الشك (١٠٢٤)، وأحمد (١١٨٤٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. وابن حبان (٢٦٦٤)، والحاكم (١٢٠٢)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٤/ ١٨١ (٩٣٩).

(٢) صلاة الشفع والوتر ثلاث ركعات؛ يُقرأ في الركعتين الأوليين، الفاتحة وسورة الأعلى في الركعة الأولى، وفي الثانية الفاتحة وسورة الكافرون، ثم يسلم، وهذه هي التي تسمى الشفع، والوتر ركعة واحدة يقرأ فيها بسورة الفاتحة والإخلاص ثم يركع، وإذا أراد المصلي أن يصلي هذه الركعات الثلاث متصلة فله ذلك، لكن لا يقعد فيها للتشهد الأوسط حتى لا تشبه صلاة المغرب، وإنما يقعد فيها قعودًا واحدًا وهو للتشهد الأخير. وله أن يوتر بخمس، أو سبع، أو تسع، أو إحدى عشرة. انظر: إسلام ويب، الفتوى رقم (٨٩٦): http://fatwa.islamweb.net.

(٣) قال السندي: «إِيَّايَ وَأَنْ يَتَلَعَّبَ»؛ أي احفظوني من ذِكْر التلعُّب بسبب تركِ العمل بما أقول لكم، فالمقصودُ: الأمرُ بالعمل بما يقولُ، لكونه يدفع عنهم التلعُّب. انظر: السندي: حاشية مسند الإمام أحمد ١/ ٢٥٩، والشائع في التحذير أن يُراد به المخاطب، وقد يكون للمتكلم، مثل: «إياي وأن...» وهو تحذير الإنسان نفسه، وهو بمنزلة أن يأمر نفسه. وقيل: التحذيرَ للمخاطبين لا له؛ وفي تقديره وجهان: أحدهما للزَّجاج؛ أن التقدير إيَّاي وإيَّاكم. فحذف إياكم للدلالة عليه. والثاني: أنه لا حاجة إلى تقدير إيَّاكم لأنه قد عُلِمَ أن التحذير للمخاطبين من السياق، وإنما ذكر نفسه وإن لم يكن داخلاً في التحذير مبالغة في زجرهم. انظر: السيوطي: عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد ٢/ ٤٧٠ بتصرف.

(٤) أحمد (٤٥٠)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن. والطبراني: المعجم الأوسط (٤٧٠٠)، وقال الهيثمي: رواه أحمد من طريق يزيد بن أبي كبشة عن عثمان، ويزيد لم يسمع من عثمان ورواه ابنه عبد الله عن يزيد بن أبي كبشة عن مروان عن عثمان قال مثله أو نحوه ورجال الطريقين ثقات. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ١٥٠.

(٥) البخاري: أبواب السهو، باب السهو في الفرض والتطوع، (١١٧٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، (٣٨٩).

تُحسَب مُتمِّمة للصلاة، وإمَّا أن تُحسَب نافلة إن كانت زائدة، هذا بالإضافة إلى السجدتين في نهاية الصلاة، فيكون المؤمن قد فعل جهدًا أكبرَ في الطاعة بينما كان الشيطان يُريد الجهدَ الأقلَّ، فهذا ترغيمٌ ودحرٌ له.

ويتعلَّق بهذه النقطة الحديث عن سهو الإمام، فإذا لم يُدْرِكْ الإمام أنه قد نَسِيَ، فجلس مثلًا في ثالثة الظهر أو العصر أو العشاء، أو قام في الخامسة، فإن على المأمومين أن يلفتوا انتباهه؛ وذلك بالطريقة التي شرعها رسول الله ﷺ، فعَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا أَنْسَانِي الشَّيْطَانُ شَيْئًا مِنْ صَلَاتِي، فَلْيُسَبِّحِ الرِّجَالُ، وَلْتُصَفِّقِ النِّسَاءُ»[1].

ثانيًا: سلاح التثاؤب:

التثاؤب من علامات الكسل، وإذا أكثر المصلي من التثاؤب فإن هذا يدفعه إلى الرغبة في النوم؛ ومن ثَمَّ عدم التركيز فيما يقرأ من قرآن أو أذكار، وقد ينتشر التثاؤب في المصلين إذا بدأه أحدهم، فتعمُّ البلوى المسلمين!

ولهذا الأثر البالغ للتثاؤب حَرِص الشيطان على دفع المسلم إليه، وخاصة في الصلاة، فهذا يصرف الخشوع بلا جدال، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ»[2]. وعَنِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ»[3].

وفي هذه الرواية الأخيرة رأينا نتيجة عجيبة لفتح المصلي فمه في التثاؤب، وهي دخول الشيطان في جوف الإنسان! ولا شكَّ أن هذا أبلغ في السيطرة عليه، أو الوسوسة له، وقد تكون علامة سُخْرِيَة من الإنسان تُعطي الشيطان دَفْعَةً نفسية في حربه لبني آدم، خاصَّة أن رسول الله ﷺ قد ذكر سرور الشيطان وضحكه عند رؤية المسلم يُصْدِر صوتًا عند التثاؤب! فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا

---

(١) أبو داود: كتاب النكاح، باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من إصابته أهله (٢١٧٤)، وأحمد (١٤٦٩٥)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره. والبيهقي: السنن الكبرى (١٤٤٧٩).

(٢) الترمذي: الصلاة، كراهية التثاؤب في الصلاة (٣٧٠)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني، صحيح الجامع ١/ ٥٧٨.

(٣) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب تشميت العاطس وكراهة التثاؤب، (٢٩٩٥).

اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَالَ: هَا، ضَحِكَ الشَّيْطَانُ»(١).

بل في لفظ آخر ذكر أن هذا الضحك يكون من جوف الإنسان بعد دخول الشيطان! فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «العُطَاسُ مِنَ الله، وَالتَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ، وَإِذَا قَالَ: آهْ آهْ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْحَكُ مِنْ جَوْفِهِ، وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ العُطَاسَ وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ، فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ: آهْ آهْ إِذَا تَثَاءَبَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْحَكُ فِي جَوْفِهِ»(٢)!

ثالثًا: سلاح الالتفات في الصلاة:

يُحدِث الشيطان أمورًا بجوار المصلي، أو يلفت انتباهه إلى أمورٍ تَحْدُث، فعندها يلتفت المصلي ليراها، فيذهب خشوعه وينشغل فيما يرى! وقد قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: «هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ العَبْدِ»(٣).

لذلك يُحذِّرنا الرسول ﷺ من الالتفات في الصلاة؛ فعن الحارث الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «.. وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ..»(٤).

رابعًا: سلاح الشَّكِّ في الوضوء:

يحاول الشيطان أن يصرف ذهن المصلي إلى أي شيء، فيُذَكِّر البعضَ بأمورٍ كما بيَّنا في النقاط السابقة، ويُشَكِّك آخرين في وضوئهم، فلا يكادون يُفَكِّرون في شيء إلا في هذا الشَّكِّ! وقد روى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ، عن رَسُولِ الله ﷺ قال: «إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِهِ شَيْئًا، فَأَشْكَلَ عَلَيْهِ أَخَرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ أَمْ لَا، فَلَا يَخْرُجَنَّ مِنَ المَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ

---

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، (٣١١٥).

(٢) الترمذي: الأدب، باب إن الله يحب العطاس (٢٧٤٦)، وقال: حسن صحيح. وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ٧٥٩.

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الالتفات في الصلاة، (٧١٨)، وأبو داود (٩١٠)، والترمذي (٥٩٠)، والنسائي (٥٢٦).

(٤) الترمذي: كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٣)، وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد (١٧٢٠٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وابن حبان (٦٢٣٣)، وأبو يعلى (١٥٧١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (٣٤٢٨)، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٩/ ٦٨.

رِيحًا»(١). ويُصرِّح رسول الله ﷺ بأن هذا التوهُّم من الشيطان؛ بل قد يقوم الشيطان بأفعال عجيبة حتى يُخرج المُصَلِّي عن خشوعه، فيروي ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ حَتَّى يَفْتَحَ مَقْعَدَتَهُ، فَيُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَحْدَثَ، وَلَمْ يُحْدِثْ، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلَا يَنْصَرِفَنَّ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتَ ذَلِكَ بأذنه، أَوْ يَجِدَ رِيحَ ذَلِكَ بِأَنْفِهِ»(٢). وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ جَاءَ الشَّيْطَانُ، فَأَبَسَّ(٣) بِهِ كَمَا يُبِسُّ الرَّجُلُ بِدَابَّتِهِ، فَإِذَا سَكَنَ لَهُ، أَضْرَطَ بَيْنَ أَلْيَتَيْهِ(٤) لِيَفْتِنَهُ عَنْ صَلَاتِهِ، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَلَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا لَا يُشَكُّ فِيهِ»(٥).

والحلُّ النبوي لهذه المسألة واضح، فهو يأمرنا بإكمال الصلاة دون شكٍّ لو لم نسمع صوتًا أو نشمّ رائحةً، ومع أن هذا يعني احتمال خروج الريح دون صوتٍ أو رائحة، فإنه سيُغْلِق أبواب الشيطان، والحمد لله الذي جعل هذا التيسير في الشريعة.

خامسًا: سلاح إفساد الوضوء:

في النقطة السابقة بيَّنَّا أن الشيطان قد «يخدع» المسلم بنقْضِه للوضوء بينما هو في الواقع لم ينقض؛ ولكنه قد يفعل ما هو أشنع من ذلك، فيشغل المسلم أثناء وضوئه، أو يُحفِّزه على الإسراع فيه، وتكون النتيجة في كل الأحوال هي نقص الوضوء! وإذا فسد الوضوء فسدت الصلاة، فيكون الشيطان قد حقَّق مراده تمامًا! فقد قال أَبُو رَوْحٍ الْكَلَاعِيِّ رضي الله عنه: صَلَّى بِنَا رَسُولُ

---

(١) مسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث فله أن يصلي، (٣٦٢)، واللفظ له، وأبو داود (١٧٧)، والترمذي (٧٥)، وأحمد (٨٣٥١).

(٢) الطبراني: المعجم الكبير، (١١٥٨١)، وأخرجه البزار كما في كشف الأستار، ١/ ١٤٧، (٢٨١)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والبزار بنحوه، ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ١/ ٢٤٢.

(٣) قال السندي: فأبسَّ بتشديد السين من الإبساس؛ وهو التلطُّف بالدابة بأن يقال لها: بَسْ بَسْ. تسكينًا لها. انظر: السندي: حاشية مسند الإمام أحمد ٦/ ١٨، وَالْإِبْسَاسُ مَأْخُوذٌ مِنْ إِبْسَاسِ الْحَلُوبَةِ عِنْدَ حِلَابِهَا كَيْ تَدِرَّ بِاللَّبَنِ، وَهُوَ أَنْ تُجْرِيَ يَدَكَ عَلَى وَجْهِهَا وَصَفْحَةِ عُنُقِهَا كَأَنَّكَ تُزَيِّنُ ذَلِكَ عِنْدَهَا وَتُحَسِّنُهُ لَهَا. انظر: ابن عبد البر: التمهيد ٢٢/ ٢٢٤، ومَعْنَاهُ أنه يزيِّنُ له الانشغال عن الصلاة ويحببه له ويسوقه لذلك كما يفعل الرجل بدابَّته.

(٤) أضْرط به فلان: هو أن يجمع شفتيه ويُخرج من بينهما صَوتًا يُشبه الضَّرْطة على سبيل الاستخفاف والاستهزاء. ابن منظور: لسان العرب، مادة (ضرط) ٧/ ٣٤١، وبين أليتيه: الألية: لحمة المؤخر من الحيوان، وهي من ابن آدم المقعدة. انظر: السندي: حاشية مسند الإمام أحمد ٦/ ١٨.

(٥) أحمد (٨٣٥١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي رجاله ثقات. وقال الهيثمي: رواه أحمد، وهو عن أبي داود باختصار، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ١/ ٢٤٢.

الله ﷺ صَلَاةً، فَقَرَأَ فِيهَا سُورَةَ الرُّوم، فَلَبَسَ[١] بَعْضُهَا، قَالَ: «إِنَّمَا لَبَسَ عَلَيْنَا الشَّيْطَانُ الْقِرَاءَةَ مِنْ أَجْلِ أَقْوَامٍ يَأْتُونَ الصَّلَاةَ بِغَيْرِ وُضُوءٍ، فَإِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَأَحْسِنُوا الْوُضُوءَ»[٢]. فإذا كان أثر الوضوء السيئ ينعكس على الإمام، ولو كان رسول الله ﷺ، فما بالنا بأثره على المصلي نفسه؟!

سادسًا: سلاح الالتهاء بتحريك شيء:

قد يُزَيِّن الشيطان للمصلي أن يستخدم يده في إصلاح أمرٍ أو ترتيبه، وبذلك يشغله عن صلاته، ومثال ذلك تحريك الحصى في الأرض إذا كانت الصلاة عليه؛ وذلك ليكون أكثر مناسبةً للسجود أو الجلوس؛ لهذا نهى رسول الله ﷺ عن مثل هذه الأعمال، أو على الأقل عدم الإكثار منها، فقد رأى عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما رَجُلًا يُحَرِّكُ الْحَصَى بِيَدِهِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ لَهُ عَبْدُ الله: لَا تُحَرِّكِ الْحَصَى وَأَنْتَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَكِنِ اصْنَعْ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصْنَعُ. قَالَ: وَكَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ؟ قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، وَأَشَارَ بِأُصْبُعِهِ الَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ فِي الْقِبْلَةِ، وَرَمَى بِبَصَرِهِ إِلَيْهَا أَوْ نَحْوِهَا. ثُمَّ قَالَ: «هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَصْنَعُ»[٣].

وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ: كَانَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما إِذَا جَلَسَ فِي الصَّلَاةِ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَأَشَارَ بِأُصْبُعِهِ وَأَتْبَعَهَا بَصَرَهُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَهِيَ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنَ الْحَدِيدِ». يَعْنِي السبابَةَ[٤]. ولعلَّ السبابة أشدُّ على الشيطانَ من الحديد لأنها شُغِلَت بذِكْرِ الله واتِّباع السُّنَّة، ولم تَلْتَهِ بتحريك الحصى والعبث به، ويلحق بتحريك الحصى أيُّ شيء يعبث المصلي به؛ كملابسه، أو مقتنياته، أو سجاد الصلاة، أو غير ذلك، مع التنبيه إلى أن الله ﷻ

---

(١) لَبَس بالتخفيف أو التشديد؛ أي: خَلَطَ. انظر السندي: حاشية مسند الإمام أحمد ٩/ ٧٥، ولبَسَ عليه الأمرَ يَلْبِسُه لَبْسًا فالْتَبَسَ إذا خَلَطَه عليه. ابن منظور: لسان العرب، مادة (لبس) ٦/ ٢٠٢.

(٢) النسائي: كتاب افتتاح الصلاة، القراءة في الصبح بالروم (١٠١٩)، وأحمد (١٥٩١٢)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن. وقال الهيثمي: رواه أحمد عن أبي روح نفسه، ورواه النسائي عن أبي روح عن رجل، ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ١/ ٢٤١.

(٣) النسائي: كتاب التطبيق، موضع البصر في التشهد (٧٤٧)، وابن حبان (١٩٤٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٣/ ٣٨٦.

(٤) أحمد (٦٠٠٠)، والبزار: البحر الزخار (٥٩١٧)، وقال الهيثمي: رواه البزار وأحمد وفيه كثير بن زيد وثقه ابن حبان وضعفه غيره. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ١٤٠، وقال الألباني: وهذا سند حسن أو قريب من الحسن. انظر: أصل صفة صلاة النبي ﷺ ٣/ ٨٣٩.

يعفو عن اليسير من ذلك، كما بيَّنا في الفصل السابق[١]، وكما روى مُعَيْقِيبٌ ﷺ من أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: فِي الرَّجُلِ يُسَوِّي التُّرَابَ حَيْثُ يَسْجُدُ: «إِنْ كُنْتَ فَاعِلًا فَوَاحِدَةً»[٢]. وهذا من التيسير في الشريعة.

سابعًا: سلاح الإلهاء عن طريق المرور بين يدي المصلي:

أحيانًا يلجأ الشيطان إلى حيلة خبيثة لكي يُخْرِج المصلي عن خشوعه، وهي أن يُزَيِّن لأحد أهل المسجد المرورَ بين يديه؛ أي قريبًا جدًّا منه، فيُحقِّق ضررين شرعيين في آنٍ واحدٍ! فهو أولًا يوقع المارَّ في إثم شرعي؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن المرور بين يدي المصلي، فعن أَبِي جُهَيْمٍ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ، لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ». وقَالَ أَبُو النَّضْرِ -أحد رواة الحديث-: لَا أَدْرِي، أَقَالَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ شَهْرًا، أَوْ سَنَةً[٣]. وثانيًا فإن المارَّ يشغل المصلي فيذهب خشوعه، وحلُّ ذلك أن يُصَلِّي المسلم إلى سترة، وقد مرَّ بنا تفصيل لهذا الأمر في فصل سابق[٤]، ويكفينا فيه هنا ما رواه عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ من «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُرْكَزُ لَهُ الْحَرْبَةُ فَيُصَلِّي إِلَيْهَا»[٥]. أما إذا حاول المارُّ أن يمرَّ بين المصلي والسُّتْرَة فعلى المصلي حينئذٍ أن يمنعه من المرور ولو قاتله؛ لأن الشيطان هو الذي يدفع هذا المارَّ للمرور! فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلَا يَدَعْ أَحَدًا يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلْيَدْرَأْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ»[٦].

ثامنًا: سلاح التطويل في الصلاة:

قد يلجأ الشيطان إلى حيلة عجيبة لا يلتفت إليها كثير من الناس؛ وهي حيلة التطويل في الصلاة! فالمسلم يعتقد أنه كلما طَوَّل في صلاته كان هذا أكثر تقرُّبًا إلى الله، وبالتالي أكثر حسنات؛ ولكن الواقع أن الإطالة الزائدة في الصلاة تقود إلى الشرود والنسيان، فيبدأ المصلي

---

(١) فصل "خشوع بلا مبالغة".
(٢) سبق تخريجه ص٤٥٨.
(٣) سبق تخريجه ص١٩٨.
(٤) راجع فصل "لا تكن عونًا للشيطان على نفسك"! ص١٨٦.
(٥) البخاري: أبواب سترة المصلي، باب الصلاة إلى الحربة، (٤٧٦).
(٦) سبق تخريجه ص١٩٧.

في الخروج تدريجيًّا من الخشوع، ويُصبح تحت سيطرة الشيطان، وقد انتبه لذلك عمار بن ياسر ﷺ في موقف مهمٍّ من مواقف حياته؛ فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَنَمَةَ قَالَ: رَأَيْتُ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى، فَأَخَفَّ الصَّلَاةَ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ قُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ لَقَدْ خَفَّفْتَ. قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتَنِي انْتَقَصْتُ مِنْ حُدُودِهَا شَيْئًا؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنِّي بَادَرْتُ بِهَا سَهْوَةَ الشَّيْطَانِ، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا نِصْفُهَا»[1]. فمعنى هذا أن الأفضل للمسلم أن يُصَلِّيَ صلاةً قصيرةً خاشعةً يُكْتَبُ له أجرها بالكامل من أن يُصَلِّيَ صلاةً طويلةً ساهيةً يُكْتَبُ له نصف أجرها أو ربعه!

تاسعًا: سلاح الخلل في صفوف الصلاة:

يُزَيِّن الشيطان للمسلمين أحيانًا أن يجعلوا بينهم في الصفوف فرجات، ويعطي لهم مبرِّرات لذلك؛ مثل الوقوف المريح دون ازدحام، أو تجنُّب الروائح، أو لدوافع صحيَّة، أو غير ذلك من مبرِّرات، ولم يُدركوا أن إبليس يستغلُّ هذه الفرجات ليبثَّ فيها أتباعه من الشياطين، فيقفون بين المسلم وأخيه؛ ومن ثَمَّ يكون أثرهم أعظم في الغواية والإلهاء! فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَعَلَى الثَّانِي؟ قَالَ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَعَلَى الثَّانِي؟ قَالَ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتِهِ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ». قَالُوا يَا رَسُولَ الله، وَعَلَى الثَّانِي؟ قَالَ: «وَعَلَى الثَّانِي». وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، وَحَاذُوا بَيْنَ مَنَاكِبِكُمْ، وَلِينُوا فِي أَيْدِي إِخْوَانِكُمْ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْحَذَفِ». يَعْنِي: أَوْلَادَ الضَّأْنِ الصِّغَارَ[2]. وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ، فَإِنَّمَا تَصُفُّونَ بِصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ، وَلِينُوا فِي أَيْدِي إِخْوَانِكُمْ، وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا، وَصَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ

---

(١) أحمد (١٨٩١٤)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح. وصححه الألباني، انظر: أصل صفة صلاة النبي ﷺ ١/ ١٥.

(٢) أحمد (٢٢٣١٧)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره. والطبراني: المعجم الكبير (٧٧٤٣)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد موثقون. انظر: مجمع الزوائد ٢/ ٩١.

وَتَعَالَى، وَمَنْ قَطَعَ صَفًا قَطَعَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(١).

عاشرًا: سلاح الابتداع في الصلاة:

من أخطر الأساليب الشيطانية في الصلاة دفع المسلم إلى «ابتكار» طريقة للخشوع، أو «ابتكار» وسيلة لزيادة الأجر، مع كون هذه الوسيلة لم تَرِدْ في السُّنَّة النبوية، وقد روت عَائِشَةُ ﵂، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»(٢). بل في شأن الصلاة تحديدًا روى مَالِكُ بْنُ الحُوَيْرِثِ ﵁، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «.. وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي..»(٣).

وانتبه لذلك عبد الله بن مسعودٍ ﵁ فقَالَ: لَا يَجْعَلْ أَحَدُكُمْ لِلشَّيْطَانِ شَيْئًا مِنْ صَلَاتِهِ يَرَى أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ لَا يَنْصَرِفَ إِلَّا عَنْ يَمِينِهِ؛ «لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ كَثِيرًا يَنْصَرِفُ عَنْ يَسَارِهِ»(٤).

وَكَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﵁ «يَنْفَتِلُ عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ يَسَارِهِ، وَيَعِيبُ عَلَى مَنْ يَتَوَخَّى -أَوْ مَنْ يَعْمِدُ- الِانْفِتَالَ عَنْ يَمِينِهِ»(٥). فهذا الابتداع في الانصراف من الصلاة غير صحيح، وهو من الشيطان كما صرَّح عبد الله بن مسعود ﵁، والذي يُريد للمسلم أن يعبد اللهَ على غير طريقة رسول الله ﷺ فيضلُّ بذلك، سواء بالنقص ليُريح نفسه، أو بالزيادة فيشقَّ عليها، وعليه فلا ينبغي لنا أن نضيف إلى الصلاة شيئًا نتوقَّع أن يزيد من خشوعنا إذا لم يكن له سندٌ من السُّنَّة، وأخطر هذه الإضافات ما كان منهيًّا عنه في سُنَّة الرسول ﷺ! فيكون الإثم مُرَكَّبًا؛ حيث لم يبتدع المسلم فقط، إنما ارتكب المنهيَّ عنه، ومثال ذلك مَن يسعى للخشوع عن طريق رفع الصوت بالقراءة في المسجد ليحافظ المصلي على تركيزه، فهذا قد نهى عنه رسول الله ﷺ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﵁ قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ الله ﷺ فِي المَسْجِدِ فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ فَكَشَفَ السِّتْرَ وَقَالَ: «أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي

---

(١) سبق تخريجه ص٢٣٣.

(٢) البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، (٢٥٥٠)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، (١٧١٨).

(٣) سبق تخريجه ص٢٤٨.

(٤) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الانفتال والانصراف عن اليمين والشمال، (٨١٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز الانصراف من الصلاة عن اليمين والشمال، (٧٠٧).

(٥) رواه البخاري تعليقًا البخاري على باب الانفتال والانصراف عن اليمين والشمال، كتاب صفة الصلاة.

الْقِرَاءَةِ. أَوْ قَالَ: فِي الصَّلَاةِ»[١]. ومثاله كذلك رفع البصر إلى السماء معتقدًا أن النظر إليها أفضل في مناجاة الله، وقد يأتي بالخشوع؛ ولكن الواقع أن الرسول ﷺ نهى عن ذلك؛ فعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ»[٢]. ومثاله أيضًا رفع الصوت جدًا عند التأمين على دعاء الإمام بُغية استجلاب الخشوع والتأثُّر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن رفع الصوت في الدعاء، فعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﵁، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا[٣] عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ»[٤].

حادي عشر: سلاح المنع من قيام الليل:

يعرف الشيطان أن صلاة الليل من أشرف العبادات؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «.. وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ»[٥]. لذلك يجتهد الشيطان في منع المسلم من الاستيقاظ للصلاة، وبيّن لنا رسول الله ﷺ أن هناك علاقة وطيدة بين إهمال المسلم لقيام الليل وعمل الشيطان معه؛ فعَنْ عَبْدِ الله بن مسعودٍ ﵁، قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَهُ حَتَّى أَصْبَحَ، قَالَ: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ»[٦]. فهذا رجل بلغ استهزاءُ الشيطان به أن بال في أذنه؛ وذلك أنه استطاع السيطرة عليه للدرجة التي منعته من القيام، ويُبيّن رسول الله ﷺ لنا أن أثر الشيطان على المسلم يستمرُّ طوال اليوم إن

---

(١) أبو داود: أبواب قيام الليل، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (١٣٣٢)، والنسائي (٨٠٩٢)، وأحمد (١١٩١٥)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن خزيمة (١١٦٢)، وقال النووي: رواه أبو داود بإسناد صحيح. انظر: خلاصة الأحكام ١/ ٣٩٣، وقال ابن حجر: ذا حديث صحيح أخرجه أبو داود والنسائي، وصححه ابن خزيمة والحاكم انظر: نتائج الأفكار ٢/ ١٦، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٩٧).

(٢) مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة، (٤٢٨)، وأبو داود (٩١٢)، وابن ماجه (١٠٤٥)، وأحمد (٢١٠٨٠).

(٣) ارْبَعُوا: ارْفُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ، وَاخْفِضُوا أَصْوَاتَكُمْ. انظر: النووي: المنهاج ١٧/ ٢٦، وهي من الفعل رَبَع يَرْبَعُ رَبْعًا كَفَّ، وربَعَ يَرْبَعُ إذا وقَفَ وتَحَبَّس واقتصر. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (ربع) ٨/ ٩٩.

(٤) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، (٢٨٣٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، (٢٧٠٤).

(٥) مسلم: كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، (١١٦٣).

(٦) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، (٣٠٩٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، (٧٧٤).

نجح الشيطان في إلهائه عن قيام الليل؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ؛ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»(١). فوضَّح لنا الحديث أن الخروج من سيطرة الشيطان يكون بذِكْرِ الله ﷻ، والوضوء، ثم الصلاة؛ ولذلك سيبذل الشيطان كل جهده ليمنع المسلم من هذا القيام؛ ولأن الرسول ﷺ يعرف كل ذلك فإنه كان حريصًا على الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل؛ نومه، فعَنْ عَائِشَةَ ﵂: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ؛ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»(٢). وكان رسول الله ﷺ إذا قام الليل تعوَّذ من الشيطان الرجيم بعد دعاء الاستفتاح؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ، ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ(٣)، وَلَا إِلَهَ غَيْرَكَ». ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا». ثَلَاثًا، «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ». ثُمَّ يَقْرَأُ»(٤).

ثاني عشر: سلاح المنع من ختام الصلاة:

مرَّ بنا في هذا الكتاب الحديث عن أهمية ختام الصلاة، والأجر الجزيل الذي يُحقِّقه المسلم بهذه الأذكار؛ ولذلك يحرص الشيطان على دفع المسلم إلى إهمال ختم الصلاة؛ وذلك عن طريق تذكيره بأمور أخرى، قد تكون فعلًا مهمة؛ ولكنها -بلا شكٍّ- أقل أهمية من أذكار الختام، فيقوم المسلم بسرعة لأداء ما عليه من أمور و«ينسى» ختام الصلاة! فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو ﵄، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «خَلَّتَانِ لَا يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، أَلَا

---

(١) البخاري: أبواب التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل، (١٠٩١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، (٧٧٦).

(٢) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، (٤٧٢٩).

(٣) الجَدُّ: العَظَمَةُ؛ أَيْ عَلَا وَرُفِعَ عَظَمَتُكَ عَلَى عَظَمَةِ غَيْرِكَ غَايَةَ الْعُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود ٢/ ٣٣٨.

(٤) أبو داود: أبواب تفريع استفتاح الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٣٦١ (٧٤٨).

وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ: يُسَبِّحُ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُهُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا». قَالَ: فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ، قَالَ: «فَتِلْكَ خَمْسُونَ، وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي المِيزَانِ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ تُسَبِّحُهُ وَتُكَبِّرُهُ وَتَحْمَدُهُ مِائَةً، فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي المِيزَانِ، فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَمِائَةِ سَيِّئَةٍ»؟ قَالُوا: فَكَيْفَ لَا نُحْصِيهَا؟ قَالَ: «يَأْتِي أَحَدَكُمُ الشَّيْطَانُ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، حَتَّى يَنْفَتِلَ، فَلَعَلَّهُ أَلَّا يَفْعَلَ، وَيَأْتِيهِ وَهُوَ فِي مَضْجَعِهِ، فَلَا يَزَالُ يُنَوِّمُهُ حَتَّى يَنَامَ»[1]. وحلُّ ذلك أن تُذَكِّر نفسك أن ختام الصلاة مهما طال فلن يزيد على دقائق معدودات، وأن ثوابه لا يُقارَن مع غيره من الأعمال، وأن الشيطان هو الذي يُذَكِّرنا بالأعمال الأخرى التي تصرفنا عن الختام، فلْندفع أنفسنا إلى تحدِّيه، ولْنمكث في مصلَّانا هذه الدقائق الغالية لله ﷻ.

هذه هي بعض أسلحة الشيطان في صرف المسلم عن خشوعه في الصلاة، وهي أسلحة تُستخدَم من أولى لحظات الصلاة؛ بل قبل أن تبدأ، وإلى نهايتها، بل بعد نهايتها! إنها حربٌ ضروس من عدوٍّ خفيٍّ لا نراه، وحيث إنه قد أوتي كل هذه القدرات والطاقات فإنه لا فرصة لنا في مقاومته إلا بالاستعانة بالله العظيم، والاستغاثة به، ولهذا فإن جمهور الفقهاء يرى أن يستعيذ المسلم في أول صلاته من الشيطان الرجيم[2]، فهذا يُعينه على مقاومته في سائر الصلاة بعد ذلك، وتكون الاستعاذة مرَّة واحدة بعد دعاء الاستفتاح، وقبل قراءة الفاتحة، وإن كان بعض الفقهاء يرون تكرار الاستعاذة في بداية كل ركعة[3]، وتكون صيغة الاستعاذة عند الجمهور: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، إلا بعض الحنابلة[4] فيرون الأفضل الاستعاذة

---

(١) سبق تخريجه ص٣٨٧.

(٢) الاسْتِعَاذَةُ فِي الصَّلَاةِ سُنَّةٌ عِنْدَ الحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ، وَهُوَ المَذْهَبُ عِنْدَ الحَنَابِلَةِ، وَعَنْ أَحْمَدَ رِوَايَةٌ أُخْرَى أَنَّهُ وَاجِبٌ، أَمَّا المَالِكِيَّةُ فَقَالُوا: إِنَّهَا جَائِزَةٌ فِي النَّفْلِ، مَكْرُوهَةٌ فِي الفَرْضِ. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤/ ١١.

(٣) يرى البعض اسْتِحْبَابَ تِكْرَارِ الاسْتِعَاذَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ حَبِيبٍ مِنَ المَالِكِيَّةِ، وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ خَالَفَهُ، وَهُوَ المَذْهَبُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ صَحَّحَهَا صَاحِبُ الإِنْصَافِ؛ بَلْ قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ: رِوَايَةٌ وَاحِدَةٌ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ عندهم قَوْلُ الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، وَقَدْ وَقَعَ الفَصْلُ بَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ، فَأَشْبَهَ مَا لَوْ قَطَعَ القِرَاءَةَ خَارِجَ الصَّلَاةِ بِشُغْلٍ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا يُسْتَحَبُّ لَهُ التَّعَوُّذُ، وَلِأَنَّ الأَمْرَ مُعَلَّقٌ عَلَى شَرْطٍ فَيَتَكَرَّرُ بِتَكَرُّرِهِ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦]، وَأَيْضًا إِنْ كَانَتْ مَشْرُوعَةً فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى فَهِيَ مَشْرُوعَةٌ فِي غَيْرِهَا مِنَ الرَّكَعَاتِ قِيَاسًا، لِلاشْتِرَاكِ فِي العِلَّةِ. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤/ ١٣، ١٤.

(٤) قال المرداوي: قَوْلُهُ (ثُمَّ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، وَكَيْفَمَا تَعَوَّذَ مِنَ الوَارِدِ كَانَ لَكِنَّ أَكْثَرَ الأَصْحَابِ عَلَى أَنَّهُ يَسْتَعِيذُ، كَمَا قَالَ المُصَنِّفُ، وَعَنْهُ يَقُولُ مَعَ ذَلِكَ «إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ» اخْتَارَهُ أَبُو بَكْرٍ فِي =

بلفظ: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

لقد جمعتُ في هذا الفصل معظم ما ورد من أحاديث خاصَّة بعلاقة الشيطان بالصلاة؛ وذلك لينتبه المسلم إلى خطورة المسألة، فإبليس لن يترك أحدًا يُصَلِّي مطلقًا دون أن يُوسوس له، ودليلي في ذلك أنه قد تجرَّأ على فعل ذلك مع سيد العابدين، وإمام المرسلين؛ رسول الله ﷺ، لولا أن الله أعان رسولَنا ﷺ على الشيطان الرجيم، فلم يُفلِح في معركته معه، فإذا كان إبليس طامعًا في حرب الرسول ﷺ فهو في حرب غيره من المؤمنين أطمع!

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ، لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، وَإِنَّ اللهَ أَمْكَنَنِي مِنْهُ فَذَعَتُّهُ[1]، فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ -أَوْ كُلُّكُمْ- ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، فَرَدَّهُ اللهُ خَاسِئًا»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: «اعْتَرَضَ الشَّيْطَانُ فِي مُصَلَّايَ، فَأَخَذْتُ بِحَلْقِهِ فَخَنَقْتُهُ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ لِسَانِهِ عَلَى كَفِّي، وَلَوْلَا مَا كَانَ مِنْ دَعْوَةِ أَخِي سُلَيْمَانَ، لَأَصْبَحَ مُوثَقًا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ»[3].

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ، قَالَ: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ». ثُمَّ قَالَ: «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ». ثَلَاثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ. قَالَ: «إِنَّ

=التَّنْبِيهِ، وَالْقَاضِي فِي الْمُجَرَّدِ، وَابْنُ عَقِيلٍ، وَعَنْهُ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». جَزَمَ بِهِ فِي الْبُلْغَةِ. وَالْمُحَرَّرِ وَقَدَّمَهُ فِي التَّلْخِيصِ، وَالرِّعَايَةِ الصُّغْرَى، وَالْفَائِقِ. وَعَنْهُ يَزِيدُ مَعَهُ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » جَزَمَ بِهِ فِي الْهِدَايَةِ، وَالْمُسْتَوْعِبِ، وَالْخُلَاصَةِ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ أَبِي مُوسَى. انظر: المرداوي: الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف ٢/ ٤٨، وابن قدامة: المغني ١/ ٣٤٣.

(١) فَذَعَتُّهُ: هُوَ بِذَالٍ مُعْجَمَةٍ وَتَخْفِيفِ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ؛ أَيْ خَنَقْتُهُ، قَالَ مُسْلِمٌ: وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ: «فَدَعَتُّهُ». يَعْنِي بِالدَّالِ الْمُهْمَلَةِ وَهُوَ صَحِيحٌ أَيْضًا، وَمَعْنَاهُ: دَفَعْتُهُ دَفْعًا شَدِيدًا وَالدَّعْتُ وَالدَّعُّ الدَّفْعُ الشَّدِيدُ. انظر: النووي: المنهاج ٥/ ٢٩.

(٢) البخاري: أبواب المساجد، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، (٤٤٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه وجواز العمل، (٥٤١)، واللفظ له.

(٣) ابن حبان (٢٣٤٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٤/ ١٤٤.

عَدُوَّ الله إِبْلِيسَ، جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِالله مِنْكَ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ الله التَّامَّةِ. فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَالله لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ المَدِينَةِ»(١).

هذه هي المعركة على حقيقتها!

ومع ضراوة المعركة فإنني أُبَشِّر المؤمنين بأن غلبتهم للشيطان قريبة، شريطة تحقيق أمرين: الإخلاص لله ﷻ، وبذل الجهد في مقاتلة الشيطان! ألم ترَ أن الله وَصَفَ كيدَ الشيطان بالضعف عند تَحَقُّق هذين الشرطين؛ فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، فضَعْفُ الشيطانِ يظهر إذا وُجِدَ المؤمنُ المقاتِلُ في سبيل الله، وهذا ليس في مسألة الجهاد في أرض المعارك فقط، إنما في كل الميادين، ومنها ميدان «الصلاة»، فهكذا كلما ازداد العبدُ إخلاصًا لله، وازداد جُهْدُه في التعرُّف على أسلحة الشيطان، ومعرفة كيفية مواجهتها، ازداد بالتبعيَّة قدرةً على دحر الشيطان وهزيمته، وازداد الشيطانُ ضَعْفًا أمامه..

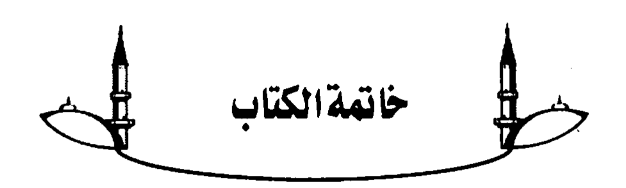
فالخلاصة: إخلاصٌ، وجُهْدٌ!

أما الإخلاص ففي القلب..

وأما الجهد ففي إعادة قراءة صفحات الكتاب كلها..!

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه وجواز العمل، (٥٤٢).



خاتمة الكتاب

كنتُ أنوي أن أناقش مسألة الخشوع في الصلاة في محاضرة سريعة، ثم فكَّرتُ في جعلها كُتيبًا، ثم عندما بحثتُ في الموضوع ترسَّخ لديَّ أن الخشوع لا يمكن تحقيقه ببعض النصائح؛ ولكنه يحتاج إلى تغيير كامل لحياة الإنسان، وأهدافه وطموحاته؛ ومن ثَمَّ كان لا بُدَّ من استيعاب الموضوع في كتاب، ولولا خشية الإطالة لكان هذا الكتاب أكبر.

والذي يقرأ الكتاب كله قد ينزعج من كثرة الأمور التي ينبغي له أن يفعلها حتى يصل إلى الخشوع، فكل فصل من فصوله يَطلب عَملًا قد يَستغرِق عُمُرًا! فهذا الفصل يطلب أن نقدر الله قدره، وذاك يطلب أن نتعلَّم كيف نشكره، وثالثٌ يطلب عِلْمًا، ورابعٌ يطلب فِقْهًا، وخامسٌ وسادس، وعاشرٌ وعشرون! إنها رحلة طويلة، وأعمالٌ كثيرة، وجهود مضنية، وأعباء مُرهِقة!

كل هذا من أجل الخشوع؟!

أقول: نعم!

إن القضية تحتاج كل هذا الجهد وأكثر؛ فعبادة الصلاة ليست مجرَّد أحد التكاليف التي أمرنا الله بها، وإنما هي العمود الذي يعتمد عليه الإسلامُ كلُّه، فعن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ»[1]. وكلما ازدادت الصلاةُ قوةً زادت قدرتها على حمل بنود الإسلام وأحكامه، وقوةُ الصلاة في خشوعها؛ فالذي يخشع في صلاته يُحسِن معاملة أهله وجيرانه، والذي يخشع في صلاته يحكم بين الناس بالعدل، والذي يخشع في صلاته يحرص على الرزق الحلال، والذي يخشع في صلاته يقدر على الجهاد في سبيل الله، والذي يخشع في صلاته يمتنع عن الفحشاء والمنكر، وهكذا في كل بنود الإسلام.

---

(١) الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢١٢١)، والحاكم (٣٥٤٨)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٥١٣٦).

وليس ما نراه من تناقضٍ عجيب في بعض الناس حيث نجدهم محافظين على الصلاة؛ بينما هم يتفحَّشون، ويكذبون، ويرتشون، إلا لأنهم لا يُصَلُّون صلاةً خاشعة، فصارت صلاتهم حركات باهتة بلا روح، لا تنهى عن فحشاء، ولا تأمر بمعروف، ولو فرَّغوا من أعمارهم وقتًا لإصلاح صلاتهم لصلحت كل حياتهم، ولسعدوا وسعدت بهم مجتمعاتهم.

وليس معنى هذا أن نقوم بتنفيذ كل ما تعلَّمناه من قواعد في الكتاب دَفْعَةً واحدة؛ بل أرى أنه من الأفضل أن نأخذ أنفسنا بالتدرُّج؛ فنحرص في أحد الأسابيع على تطبيق إحدى القواعد الموصِّلة إلى الخشوع، ثم في الأسبوع الثاني نحرص على قاعدة جديدة مع الحفاظ على القاعدة الأولى، وهكذا حتى نأتي على القواعد كلها، وقد يستغرق هذا شهورًا أو سنوات؛ لكنه أكثر ثباتًا، وأوقع في التطبيق، ومع ذلك فقد يمُنُّ الله علينا بالخشوع سريعًا إذا رأى الصدق الكامل في قلوبنا، وما أعمق الخشوع الذي سجد به سحرة فرعون، مع أنه جاء أسرع من الخيال! قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۞ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥-٤٨].

ومع إيماني بأهمية كل قاعدة من القواعد التي ذكرتُها في هذا الكتاب، ومع يقيني بجدوى الجدِّ والاجتهاد في الوصول إلى النتيجة المرجوة؛ فإنني وجدتُ أنه من الصعب جدًّا أن نصل إلى القمة التي نريدها دون أن نعالج مرضًا خطيرًا يُقَلِّل من الخشوع؛ بل قد يذهب به! ألا وهو مرض: قسوة القلب!

فأنَّى لقلبٍ قاسٍ أن يتدبَّر في آيات أو أذكار؟!

وأنَّى لقلبٍ قاسٍ أن يطمع في أجرٍ أو ثواب؟!

وأنَّى لقلبٍ قاسٍ أن يَوْجَل لذِكْرِ الله أو يخشى عقابه؟!

أنَّى ثم أنَّى لقلبٍ قاسٍ أن يخشع في صلاة، أو دعاء، أو مناجاة؟!

ألم يُرْجِع اللهُ مسألةَ ذهاب الخشوع برمَّتها إلى قسوة القلب؛ فقال في كتابه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]؟!

ألم ترَ أن الله قد عَلَّق الخير الذي يمكن أن يهبه للناس على قدر الخير الذي في قلوبهم،

فقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠]؟!

ألم تلحظ أن الله أرجع وقوع بني إسرائيل في المصيبة تلو المصيبة إلى قسوة قلوبهم؛ فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]؟!

هذه هي مكانة القلب..

ولهذا كان الرسول ﷺ يستعيذ بالله من قلبٍ قاسٍ لا يخشع ولا يتأثر، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ»[1].

فصارت مهمتنا إذن هي إصلاح قلوبنا!

وإصلاح القلوب ليس بالمهمة البسيطة! بل هو من جديد -كمسألة الخشوع- منهج حياة!

فالقلب لا يُصْلَحُ مِن فسادٍ، ولا يَلينُ مِن قسوةٍ، في يوم وليلة! بل هو مشروع كبير، ومهمَّة عظيمة، وقضية ضخمة؛ لكن يُخَفِّف من وطأة الأمر أن الطريق إلى لِين القلب ورِقَّته مرسومٌ بدِقَّة، ومُوَضَّحٌ بجلاء، في القرآن العظيم، وفي السُّنَّة المطهرة.

وما أكثر ما ذُكِرَ القلبُ في القرآن والسُّنَّة!

إن وسائل إصلاحه في هذين المصدرين العظيمين كثيرةٌ كثيرة!

وقد تلحظ أن هذه الوسائل ليست ذات علاقة مباشرة بالصلاة وخشوعها، ولكنَّ فعلها حتميٌّ للوصول إلى رِقَّة القلب، ورِقَّةُ القلب حتميَّةٌ للوصول إلى الخشوع، فصار إصلاح القلب بهذه الوسائل حتميًّا لمن أراد إصلاح صلاته.

فمن هذه الوسائل كثرة الصمت إلا مِنْ ذِكْرِ الله ﷻ! فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُكْثِرُوا الكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ الله، فإِنَّ كَثْرَةَ الكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ الله تعالى قَسْوَةٌ

---

(١) الترمذي: كتاب الدعوات (٣٤٨٢)، وقال: حديث حسن صحيح. واللفظ له، وأبو داود (١٥٤٨)، والنسائي (٧٨٦٩)، وأحمد (٦٨٦٥)، وقال شعيب الأرناءوط: مرفوعه صحيح. وصححه الألباني، انظر: صحيح أبي داود ٥/ ٢٧٢ (١٣٨٤).

لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الله تَعالى القَلْبُ القَاسِي»[١]. فبيَّن لنا كلامُ رسول الله ﷺ وسيلتين من وسائل رِقَّة القلب في آنٍ واحدٍ! أمَّا الأُولَى فهي التقليل من الكلام، وكانت هذه هي عادته ﷺ، وقد وصفه جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ ﷺ فقال: «.. وَكَانَ طَوِيلَ الصَّمْتِ، قَلِيلَ الضَّحِكِ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَذْكُرُونَ عِنْدَهُ الشِّعْرَ، وَأَشْيَاءَ مِنْ أُمُورِهِمْ، فَيَضْحَكُونَ، وَرُبَّمَا تَبَسَّمَ»[٢]. وأما الثانية فهي الإكثار من ذكر الله، وذِكْرُ الله من أكبر وسائل ترقيق القلب، وينبغي أن نُعطي له أهمية خاصَّة في موضوعنا..

لقد اعتبر رسولُ الله ﷺ الإنسان الذي لا يذكر اللهَ من الأموات! فعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[٣]. وكيف لميِّتٍ أن يخشع؟! لذا صار الذِّكْر من أكبر وسائل إحياء القلوب، ولو داوم عليه المسلم أفلح في فعل كل الصالحات، وانتهى عن كل المنكرات؛ لهذا عندما اختار رسولُ الله ﷺ وصيةً واحدةً أراد أن يُوصي بها مسلمًا في اختصار اختار الذِّكْرَ! فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله؛ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ. قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله»[٤]. فهذا اللسان الذاكر سيُرقِّق القلب، والقلب الرقيق سيقود المؤمن إلى كل خير.

وذِكْرُ الله له طرق كثيرة موصوفة في السُّنَّة النبوية؛ فعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى الله أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»[٥]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ الله

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، بابٌ منه، (٢٤١١)، وقال: حسن غريب. وحسَّن إسناده عبد القادر الأرناءوط في تحقيقه للأذكار للنووي، ص٢٨٥.

(٢) أحمد (٢٠٨٢٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن. والبيهقي: السنن الكبرى (١٣٧٢١)، وقال ابن حجر: هذا حديث حسن، أخرجه أحمد. انظر: نتائج الأفكار ١/ ٣٠٠، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الجامع ٢/ ٨٧٣ (٤٨٢٢).

(٣) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ، (٦٠٤٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، (٧٧٩).

(٤) الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٤)، وأحمد (١٧٧١٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والحاكم (١٨٢٢)، وقال: حديث صحيح الإسناد. وابن حبان (٨١٤)، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ١/ ٩٣، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٢/ ٢٠٢.

(٥) ذكره البخاري تعليقًا على باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد، كتاب الأيمان والنذور، ومسلم: كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، (٢١٣٧)، واللفظ له.

وَبِحَمْدِهِ. فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»(١). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»(٢). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ الله العَظِيمِ، سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ»(٣). وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»(٤). وعَنِ الْأَغَرِّ المُزَنِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ(٥) عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(٦).

فهذه كلها وغيرُها أذكار جميلة رقيقة حرص عليها رسولُ الله ﷺ، هذا بالإضافة إلى أذكار الصباح والمساء، والطعام، واللباس، ودخول البيت والخروج منه، والنوم والاستيقاظ، وغير ذلك مما لا يمكن استيعابه في هذه العجالة!

إنه بالفعل أسلوب حياة!

والسابقُ حقًّا هو المُكْثِر من الذِّكْر!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ، يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ: جُمْدَانُ. فَقَالَ: «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ الله قَالَ:

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، (٦٠٤٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٢٦٩١).

(٢) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التهليل، (٦٠٤٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٢٦٩١).

(٣) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، (٦٠٤٣)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٢٦٩٤).

(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، (٣٩٦٨) ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، (٢٧٠٤).

(٥) قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْغَيْنُ بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالْغَيْمُ بِمَعْنًى، وَالْمُرَادُ هُنَا مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ. قَالَ الْقَاضِي: قِيلَ: الْمُرَادُ الْفَتَرَاتُ وَالْغَفَلَاتُ عَنِ الذِّكْرِ الَّذِي كَانَ شَأْنُهُ الدَّوَامَ عَلَيْهِ؛ فَإِذَا فَتَرَ عَنْهُ أَوْ غَفَلَ عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا وَاسْتَغْفَرَ مِنْهُ. قَالَ: وَقِيلَ: هُوَ هَمُّهُ بِسَبَبِ أُمَّتِهِ وَمَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهَا بَعْدَهُ فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ. انظر: النووي: المنهاج ١٧/ ٢٣.

(٦) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٥)، والنسائي (١٠٢٧٦)، وأحمد (١٧٨٨١).

«الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ»[١].

ولا أشكُّ في أن هذا السابق رقيقُ القلب! ولا أشكُّ كذلك في أن هذا السابق خاشعُ الصلاة!

فالذِّكر إذن وسيلةٌ كبيرةٌ من وسائل إحياء القلوب..

وقراءة القرآن ربيعٌ للقلوب!

ألم ترَ إلى رسول الله ﷺ كيف استجمع كلَّ طاقته في التوسُّل إلى الله ﷻ كي يطلب منه أن يجعل القرآن العظيم ربيعَ قلبه؟!

فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ:، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ بَصَرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟، قَالَ: «أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»[٢].

فالقرآن حقيقةً هو ربيع القلب..

وأيُّ شيء أعظم من كلام الله نحيي به قلوبنا؟!

فالذي يقرأ القرآن هو خير الناس؛ فعَنْ عُثْمَانَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٣]. فهل لا يخشع خيرُ الناس؟! والذي لا يقرأ القرآن كالبيت الخراب؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ»[٤]. فهل تخشع البيوت الخَرِبة؟!

---

(١) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، (٢٦٧٦).

(٢) أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان (٩٧٢)، واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والحاكم (١٨٧٧)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٩٩).

(٣) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، (٤٧٣٩)، واللفظ له وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧)، والنسائي (٨٠٣٧)، وابن ماجه (٢١٢)، وأحمد (٤١٢).

(٤) الترمذي: كتاب فضائل القرآن (٢٩١٣)، وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد (١٩٤٧)، والدارمي (٣٣٠٦)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. والحاكم (٢٠٣٧)، وقال: حديث صحيح الإسناد.

فالمداومة على قراءة القرآن حياةٌ للقلوب..

وذِكْرُ الموت وأمور الآخرة يُحْيِي القلبَ بلا جدال!

فمن طبيعة الدنيا أن تُقَسِّي القلبَ، والقلب المنشغل بزهرة الدنيا وزينتها قلبٌ لا يخشع؛ لهذا كانت زهرة الدنيا من أشدِّ الأمور خطرًا على المؤمن؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا». قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا، يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «بَرَكَاتُ الْأَرْضِ»[1]. فهذه الدنيا هي أخطر الأشياء على قلب المؤمن، وعلاج ذلك كثرة ذِكْر الموت وما بعده من حياة أخروية، فهذا هو الذي ينجو بالعبد.

قال أبو هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ»[2]. يعني الموت، وفي لفظ آخر: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَه عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ»[3].

فالأمر هنا ليس بمجرَّد الذكر؛ ولكن «بالإكثار» منه، وهذا يحتاج في الواقع لبرامج ومناهج، وتحفيز وتحميس؛ لأن طبيعة الناس النفور من ذكر الموت، والخوف من الحديث عن الخاتمة، والقليلون منهم هم الأذكياء الذين يضعون نهايتهم نصب أعينهم دومًا؛ فعن ابن عمر ﷺ، قال: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ الله! أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ[4]؟ قَالَ: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ»[5].

ولا ينبغي هنا الاكتفاء بالقراءة عن الموت والآخرة؛ بل يُنْصَح لإصلاح القلب أن

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل النفقة في سبيل الله، (٢٦٨٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، (١٠٥٢).

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكر الموت، (٢٣٠٧)، وقال: حديث حسن. والنسائي (١٨٢٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وأحمد (٧٩١٢)، وابن حبان (٢٩٩٢)، وقال الألباني: حسن صحيح. انظر: صحيح الجامع (١٢١٠).

(٣) ابن حبان، (٢٩٩٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وحسنه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٥/ ٢٦.

(٤) أكيس: أعقل. انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ٤/ ٢١٧.

(٥) ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، (٤٢٥٩)، والحاكم (٨٦٢٣)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر، انظر: نتائج الأفكار ٤/ ١٦٥، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (١٣٨٤).

نذهب به إلى القبور لمعاينة الواقع الذي ينتظره بعد قليل! وليس الخبر كالمعاينة، وقد أكَّد رسول الله ﷺ أن زيارة القبور تؤثِّر في القلب والجوارح؛ فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا[1]»[2].

والتعامل مع الضعفاء يُحْيِي القلب كذلك!

فرؤية أحوال الضعفاء؛ كاليتامى، والمساكين، والأرامل، والمرضى، يستثير دوافع الرحمة في القلب؛ ومن ثَمَّ يَلِينُ ويَرِقُّ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ»[3]. فليس الذي يُلَيِّن القلب مجرَّد تذكُّرٍ لليتيم، أو إرسال نفقة له ما بين الحين والحين، إنما المخالطة والمعايشة، وتَفَقُّدُ أحواله، وتدبيرُ أموره، ومَسْحٌ لرأسه، وطعامٌ معه، فهذا الذي يبعث القلب ويُنَشِّطه.

وما قلناه عن اليتيم نقوله عن أمثاله من الضعفاء..

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ»[4]. وليس هذا الأجر الكبير لمجرَّد النفع المجتمعي الذي عاد على الفقراء والمحتاجين؛ ولكن للنفع القلبي كذلك الذي يعود على الساعي في حاجات الناس؛ لهذا كان النافعون للناس من أحب الخلق إلى الله؛ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله؛ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى الله تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ -يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ-

---

(١) الهُجر: الفحش، والكلام الباطل. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ٥/ ٢٤٥.

(٢) أحمد (١٣٥١٢)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح بطرقه وشواهده. وأبو يعلى (٣٧٠٧)، والحاكم (١٣٩٣)، والبيهقي: السنن الكبرى (٧٤٤٩)، وحسنه الألباني في أحكام الجنائز، ص١٨٠.

(٣) أحمد (٧٥٦٦)، والبيهقي: السنن الكبرى (٧٣٤٥)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ٨/ ١٦٠، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٨٥٣).

(٤) البخاري عن أبي هريرة: كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل (٥٠٣٨)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٢).

شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامِ»(١)..

فهذه أعمالٌ تحيي موات القلوب، وكيف لا يخشع قلبُ رجلٍ وصفه رسولُ الله ﷺ بأحبِّ الناس إلى الله تعالى؟!

وجِدِّيَّةُ الحياةِ، والوقار والسكينة، والبُعد عن الهزل والصخب، كلُّ ذلك إحياءٌ للقلب!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**»(٢). **فهذا تصريحٌ لا لبس فيه!**

فالذي يضحك كثيرًا إما غافلٌ، وإما جاهل!

فهو إما يغفل عن كبريات الأحداث التي تنتظره بعد الموت، وإما جاهلٌ بها..

ولذلك أنكر رسولُ الله ﷺ على الناس أن تعيش «للمتعة»!

تضحك، وتلعب، وتسهو، وتنام، فتقسو قلوبهم وتتحجر!

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ؛ فَخَطَبَ فَقَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**». قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ، قَالَ: غَطَّوْا رُءُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ(٣)، قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا(٤).

---

(١) الطبراني: المعجم الكبير (١٣٦٨٠)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، (٩٠٦).

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤١٩٣)، واللفظ له، وأحمد (٨٠٨١)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث جيد. وأبو يعلى (٦٢٤٠)، وحسنه ابن عساكر، انظر: معجم الشيوخ ٢/ ٧٩١، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٥٠٦).

(٣) قَوْلُهُ: «لَهُمْ خَنِينٌ» بِالْخَاءِ الْمُهْمَلَةِ لِلْأَكْثَرِ، وَلِلْكُشْمِيهَنِيِّ بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ، وَالْأَوَّلُ الصَّوْتُ الَّذِي يَرْتَفِعُ بِالْبُكَاءِ مِنَ الصَّدْرِ، وَالثَّانِي مِنَ الْأَنْفِ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْحَنِينُ بُكَاءٌ دُونَ الِانْتِحَابِ، وَقَدْ يَجْعَلُونَ الْحَنِينَ وَالْخَنِينَ وَاحِدًا؛ إِلَّا أَنَّ الْحَنِينَ مِنَ الصَّدْرِ؛ أي بِالْمُهْمَلَةِ، وَالْخَنِينَ مِنَ الْأَنْفِ بِالْمُعْجَمَةِ. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٢٨١.

(٤) البخاري: كتاب التفسير، سورة المائدة، (٤٣٤٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، (٢٣٥٩)، واللفظ له.

وفي موقف آخر عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، إِنَّ السَّمَاءَ أَطَّتْ(١) وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لله، وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ(٢) تَجْأَرُونَ إِلَى الله»(٣).

فليس لنا بُدٌّ من تَعَلُّم ما أراد رسولُ الله ﷺ أن يُعَلِّمنا إياه من علوم الآخرة، وهذا متاح للجميع، فالسُّنَّة محفوظة وموثَّقة، ولا نحتاج إلا لتفريغ وقت وجهد لدراستها، وعندها سنحيا الحياة الجادَّة التي أرادها الرسول ﷺ، وسيقلُّ الضحك دون عناء، وسيكثر البكاء دون تكلُّف!

وليس معنى هذا أن نشاط القلوب وحيويتها في الحياة الكئيبة التعيسة، فإن رسول الله ﷺ كان أكثر الناس تبسُّمًا؛ فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ ﷺ، قَالَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ»(٤). لكن شتَّان بين التبسُّم الرقيق الهادئ، والضحك الطويل الصاخب!! نعم، نجد رسول الله ﷺ في بعض المواقف يضحك حتى تبدو نواجذه؛ لكن تظلُّ هذه استثناءات متفرِّقة، ويبقى الأصل هو التبسُّم في وقار، وهذا هو الذي يُحيي القلب ويُصْلِحه.

وقد يفعل المسلم كلَّ ما سبق، ويبني، ثم يبني، ثم يبني..

ثم في لحظات يُدمِّر كلَّ ما بنى، ويُسَوِّدُ قلبًا اجتهد في تنقيته وتنظيفه!!

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢]..

---

(١) أطَّتْ، أَيْ: صَاحَتْ مِنْ ثِقَلِ مَا عَلَيْهَا وَأَطَّ مِنَ الأَطِيطِ: وَهُوَ صَوْتُ الرَّحْلِ وَالإِبِلِ مِنْ ثِقَلِ أَحْمَالِهَا وَهَا هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ ازْدِحَامِ سُكَّانِهَا وَكَثْرَةِ السَّاجِدِينَ عَلَيْهَا. البيضاوي: تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ٣/ ٣٠٧.

(٢) الصُّعُدَاتِ، أَيِ الطُّرُقِ؛ وَهِيَ جَمْعُ صُعُدٍ، وَصُعُدٌ جَمْعُ صَعِيدٍ كَطَرِيقٍ وَطُرُقٍ وَطُرُقَاتٍ، وَقِيلَ: هِيَ جَمْعُ صُعْدَةٍ كَظُلْمَةٍ وَهِيَ فِنَاءُ بَابِ الدَّارِ وَمَمَرُّ النَّاسِ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالصُّعُدَاتِ هُنَا الْبَرَارِيُّ وَالصَّحَارِي. انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي ٦/ ٤٩٦.

(٣) الترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا» (٢٣١٢)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٥٥٥)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. والحاكم (٨٦٣٣)، وقال: حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٧٢٢).

(٤) الترمذي: كتاب المناقب، باب في بشاشة النبي ﷺ (٣٦٤١)، وقال: حديث حسن. وأحمد (١٧٧٥٠)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن. وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٤٩٥ (٣٦٤١).

كيف يكون ذلك؟!

إنها الذنوب!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ[١] قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ[٢] الَّذِي ذَكَرَ اللهُ» ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][٣].

وعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ ﷺ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ. قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ؛ وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ. فَقُلْتُ: أَنَا. قَالَ: أَنْتَ لله أَبُوكَ. قَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا[٤]، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا[٥]، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا[٦] فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا[٧]

---

(١) وفي رواية ابن ماجه وأحمد والبيهقي: «صُقِلَ». السَّقَلُ هو الصَّقَلُ؛ وَصَقَلَهُ جَلَّاهُ، وَالْمَعْنَى نَظَّفَ وَصَفَّى مِرْآةَ قَلْبِهِ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَةِ الْمِصْقَلَةِ تَمْحُو وَسَخَ الْقَلْبِ وَسَوَادَهُ حَقِيقِيًّا أَوْ تَمْثِيلِيًّا. انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي ٩/ ١٧٨.

(٢) الرَّانُ: أَصْلُ الرَّانِ وَالرَّيْنِ الْغِشَاوَةُ؛ وَهُوَ كَالصَّدَإِ عَلَى الشَّيْءِ الصَّقِيلِ. انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي ٩/ ١٧٩. وقال القسطلاني: أَصْلُ الرَّيْنِ الْغَلَبَةُ؛ وَمِنْهُ رَانَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَقْلِ شَارِبِهَا، وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ الذُّنُوبَ غَلَبَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَحَاطَتْ بِهَا. انظر: القسطلاني: إرشاد الساري ٧/ ٤١٣.

(٣) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين (٣٣٣٤)، وقال: حديث حسن صحيح. واللفظ له، والنسائي (١١٦٥٨)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٧٩٣٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي. والبيهقي: السنن الكبرى (٢١٢٨٢)، والحاكم (٣٩٠٨)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني، انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٣٦٤ (٣٣٣٤).

(٤) عُودًا عُودًا: أَيْ كَمَا يُنْسَجُ الْحَصِيرُ عُودًا عُودًا وَشَظِيَّةً بَعْدَ أُخْرَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ نَاسِجَ الْحَصِيرِ كُلَّمَا صَنَعَ عُودًا أَخَذَ آخَرَ وَنَسَجَهُ؛ فَشَبَّهَ عَرْضَ الْفِتَنِ عَلَى الْقُلُوبِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى بِعَرْضِ قُضْبَانِ الْحَصِيرِ عَلَى صَانِعِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ. انظر: النووي: المنهاج ٢/ ١٧١، ١٧٢.

(٥) مَعْنَى أُشْرِبَهَا دَخَلَتْ فِيهِ دُخُولًا تَامًّا، وَأُلْزِمَهَا. وَحَلَّتْ مِنْهُ مَحَلَّ الشَّرَابِ. انظر: النووي: المنهاج ٢/ ١٧٢.

(٦) الصَّفَا: هُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ الَّذِي لَا يَعْلَقُ بِهِ شَيْءٌ. انظر: النووي: المنهاج ٢/ ١٧٢.

(٧) في رواية مسلم: قَالَ أَبُو خَالِدٍ (أحد رواه الحديث): فَقُلْتُ لِسَعْدٍ: يَا أَبَا مَالِكٍ، مَا أَسْوَدُ مُرْبَادٌّ؟ قَالَ: «شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ». قال النووي: فَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ ﷺ: كَانَ بَعْضُ شُيُوخِنَا يَقُولُ: إِنَّهُ تَصْحِيفٌ. وَهُوَ قَوْلُ الْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ الْكِنَانِيِّ قَالَ: أَرَى أَنَّ صَوَابَهُ شِبْهُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّ شِدَّةَ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ لَا يُسَمَّى رُبْدَةً؛ وَإِنَّمَا يُقَالُ لَهَا: بَلَقٌ. إِذَا كَانَ فِي الْجِسْمِ، وَحَوَرًا إِذَا كَانَ فِي الْعَيْنِ، وَالرُّبْدَةُ إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ مِنْ بَيَاضٍ يَسِيرٍ يُخَالِطُ السَّوَادَ كَلَوْنِ أَكْثَرِ النَّعَامِ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلنَّعَامَةِ: رَبْدَاءُ. فَصَوَابُهُ شِبْهُ الْبَيَاضِ لَا شِدَّةُ الْبَيَاضِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ عَنْ أَبِي عَمْرٍو=

كَالْكُوزِ[(١)]، مُجَخِّيًا[(٢)] لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ». قَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ: وَحَدَّثْتُهُ «أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ». قَالَ عُمَرُ ﷺ: أَكَسْرًا لَا أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ. قُلْتُ: «لَا بَلْ يُكْسَرُ». وَحَدَّثْتُهُ «أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ[(٣)] حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ»[(٤)].

فهذا سوادٌ في القلب من الذنوب والفتن..

وهذه أقفال على القلب تحجز عنه الآية والحديث، وتمنع عنه الموعظة والعبرة!

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]..

وليس بالضرورة أن تكون الذنوب من الكبائر العظام؛ بل إن الصغير المتراكم من الذنوب يُهلك المرء، ولعلَّ بداية هلاكه تكون في ذهاب خشوع صلاته! ولقد ذكر عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ! فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ». ثم قال عبدُ الله ﷺ: وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ[(٥)] الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا[(٦)].

=وَغَيْرِهِ: الرُّبْدَةُ لَوْنٌ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْغَبَرَةِ. وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: الرُّبْدَةُ لَوْنٌ أَكْدَرُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: هِيَ أَنْ يَخْتَلِطَ السَّوَادُ بِكُدْرَةٍ. وَقَالَ الْحَرْبِيُّ: لَوْنُ النَّعَامِ بَعْضُهُ أَسْوَدُ وَبَعْضُهُ أَبْيَضُ؛ وَمِنْهُ ارْبَدَّ لَوْنُهُ إِذَا تَغَيَّرَ وَدَخَلَهُ سَوَادٌ. وَقَالَ نَفْطَوَيْهِ: الْمُرْبَدُ الْمُلَمَّعُ بِسَوَادٍ وَبَيَاضٍ وَمِنْهُ تَرَبَّدَ لَوْنُهُ أَيْ تَلَوَّنَ. وَاللهُ أَعْلَمُ. انظر: النووي: المنهاج ٢/ ١٧٣، ١٧٤.

(١) الْكُوز، وجمعه: كيزان، هي آنية للشرب، وقال ابن قرقول: هي أوانٍ للشَّرَابِ إِذَا كَانَتْ لَهَا خَرَاطِيمُ وَآذَانٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا خَرَاطِيمُ وَلَا آذَانٌ فَهِيَ أَكْوَابٌ. انظر: ابن قرقول: مطالع الأنوار على صحاح الآثار ٣/ ٣٩٣.

(٢) مُجَخِّيًا: مَائِلًا، وَقِيلَ: مَنْكُوسًا. انظر: النووي: المنهاج ٢/ ١٧٣.

(٣) أَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي يُقْتَلُ فَقَدْ جَاءَ مُبَيَّنًا فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ، وَقَوْلُهُ: «يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ». يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حُذَيْفَةُ ﷺ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ هَكَذَا عَلَى الشَّكِّ؛ وَالْمُرَادُ بِهِ الْإِبْهَامُ عَلَى حُذَيْفَةَ وَغَيْرِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حُذَيْفَةُ عَلِمَ أَنَّهُ يُقْتَلُ؛ وَلَكِنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُخَاطِبَ عُمَرَ ﷺ بِالْقَتْلِ؛ فَإِنَّ عُمَرَ ﷺ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الْبَابُ كَمَا جَاءَ مُبَيَّنًا فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَعْلَمُ مَنِ الْبَابُ كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ قَبْلَ غَدٍ اللَّيْلَةَ. فَأَتَى حُذَيْفَةُ ﷺ بِكَلَامٍ يَحْصُلُ مِنْهُ الْغَرَضُ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ إِخْبَارًا لِعُمَرَ بِأَنَّهُ يُقْتَلُ. انظر: النووي: المنهاج ٢/ ١٧٤، ١٧٥.

(٤) البخاري: كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، (٦٦٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وإنه يأرز بين المسجدين، (١٤٤)، واللفظ له.

(٥) الصَّنِيع: الطَّعَامُ. انظر: ابن الأثير: النهاية ٣/ ٥٦.

(٦) أحمد (٣٨١٨)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. والبيهقي: السنن الكبرى (٢١٢٨١). والطبراني: المعجم الأوسط (٢٥٢٩)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجالها رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان، وقد وُثِّق. انظر: مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٩، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٨٩)، (٣١٠٢).

فهذه نظرةٌ حرام، وهذه كلمةٌ منكرة، وهذا مالٌ مشبوه، وهذا حقٌّ مسلوب!

والنتيجة؟!

نارٌ كبيرة تَحْرِقُ القلبَ وتُسَوِّدُه!

هذا هو القلب ومكانته في قصتنا!

إصلاح القلب عمل كبيرٌ كبير..

كثرةُ صمتٍ..

طُولُ ذِكْرٍ..

قرآنٌ يُتْلَى..

موتٌ يُتَذَكَّر..

زهدٌ في الدنيا..

رغبةٌ في الآخرة..

رحمةٌ باليتيم، والفقير، والأرملة، والمسكين..

وحياةٌ جادَّة..

ضحكُها قليل، وبكاؤها كثير!

ثم هجرٌ للذنوب وتوبة..

وثبات في الفتن وأوبة..

بهذا تحيا القلوب وتزدهر.. وتسمو الأرواح وتنتعش!

أرأيتم إنه منهجُ حياة؟!

هذا القلب الذي أحييناه بهذه الطاعات والقربات يُصبح مؤهَّلًا لتطبيق قواعد الخشوع التي ذكرناها في الكتاب، وسيكون قادرًا -بإذن الله- على التدبُّر في القرآن والأذكار، وعلى الطمع في ثواب الأعمال وجزائها، وعلى الوجل إذا ذُكِرَ اللهُ، وعلى الخشية من عذاب الله وعقابه؛ بل وسيكون قادرًا -بإذن الله- على الوصول إلى حالة الطمأنينة والسكينة؛ التي يُرَدِّد فيها بصدق ما قاله رسول الله ﷺ: «.. وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1]..

---

(١) سبق تخريجه ص٩٥.

ثم انظر إلى جميل الآثار!

إذا نجحت هذه الأعمال في إصلاح القلب وتنقيته، ثم نجح هذا القلب النقيُّ في الخشوع في الصلاة، فإن هذه الصلاة الخاشعة تدفع المؤمن -بدورها- إلى أداءِ مزيدٍ من الأعمال الصالحة، والقربات الطيبة؛ فالصلاة الخاشعة ستقود المؤمن إلى طول صمت، وإلى كثرةِ ذِكْر، وإلى تلاوة القرآن، وستقوده كذلك إلى الزهد في الدنيا، وإلى الرغبة في الآخرة، وستدفعه حتمًا إلى رحمة اليتيم، والفقير، والأرملة، والمسكين، وستمنعه من الذنوب، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر..

وهذا كله سيزيد قلبَه حياةً.. فيزداد خشوعًا!

إنها الدائرة «السعيدة» التي تُفرِح قلب المؤمن في الدنيا والآخرة..

وعكسها هي الدائرة «التعيسة»؛ التي تدفع فيها الأعمالُ الخبيثةُ، وكثرةُ الذنوب، وقلةُ الطاعات، العبدَ إلى قسوة القلب، فيذهب خشوعه في الصلاة، فلا تنهاه صلاتُه حينئذٍ عن فحشاء، ولا تمنعه من منكر، فيزداد قلبهُ قسوةً وغِلظةً حتى يهلك!

إذن كلمة السرّ في موضوعنا هي: القلب!

ولعلنا بهذا الكلام ازددنا فهمًا لكلام رسول الله ﷺ: «.. **أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»(١).

فصلاحُ القلبِ صلاحٌ لكل الجوارح، وفِعْلٌ لكل الطاعات، وبُعْدٌ عن كل المنكرات..

هذه هي قصة الخشوع في حياة المؤمن..

ليست أمرًا بسيطًا أو هيِّنًا..

إنما هي في الواقع قضية عمره الكبرى..

وبها تُصْلَحُ الدنيا والآخرة..

وإذا كان قد تبقَّى شيءٌ في المسألة فهو التوجُّه الخاشع الخاضع إلى الله تعالى أن يُصْلِح فساد قلوبنا، وأن يأخذ بأَزِمَّتِها إليه، فهي بين أصبعين من أصابعه سبحانه!

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (١٥٩٩).

كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»(١)..

فاللهمَّ إنَّا ندعوك بما دعاك به حبيبُك ﷺ فاستجب:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]..

«اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»(٢)..

«اللهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»(٣)..

«رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ»(٤)..

«اللَّهُمَّ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ، مُثْنِينَ بِهَا، قَابِلِيهَا وَأَتِمَّهَا عَلَيْنَا»(٥)..

فاللهمَّ آمين.. اللهمَّ آمين..

وصلِّ اللهمَّ وبارك على نبينا، وعلى آله وصحبه وسلِّم..

راغب السرجاني

القاهرة

٢٨ من ربيع الآخر ١٤٣٦

١٧ من فبراير ٢٠١٥

---

(١) مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، (٢٦٥٤)، والنسائي (٧٨٦١)، وأحمد (٦٥٦٩).

(٢) التخريج السابق نفسه.

(٣) الترمذي: كتاب الدعوات (٣٥٢٢)، عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها وقال: حديث حسن. والنسائي (٧٧٣٨)، عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه واللفظ له. وأحمد (١٧٦٦٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن حبان (٩٤٣)، والحاكم (١٩٢٦)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٠٩١).

(٤) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، (٢٧٢٢)، والترمذي (٣٤٨٢)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما واللفظ له، والنسائي (٧٨٦٤)، وابن ماجه (٢٥٠)، وأحمد (١٩٣٢٧).

(٥) أبو داود: كتاب الصلاة، باب التشهد (٩٦٩)، وابن حبان (٩٩٦)، والحاكم (٩٧٧)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانيًا: كتب تفاسير القرآن وعلومه

- إبراهيم محمد الجرمي: **معجم علوم القرآن**، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١ م.
- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي: **تفسير القرآن العظيم** (تفسير ابن أبي حاتم)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: **زاد المسير في علم التفسير**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي: **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس: **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ =٢٠٠٢م.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع - السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين: **البحر**

المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠ هـ.

- أحمد محمد شاكر: **عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير، (مختصر تفسير القرآن العظيم)**، أعدَّه: أنور الباز، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة - مصر، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود: **معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)**، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.
- الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي: **الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي)**، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر: **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.
- الجزري، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف: **منظومة المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه (الجزرية)**، دار المغني للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠١م.
- جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي: **تفسير الجلالين**، دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الأولى.
- الزحيلي، وهبة بن مصطفى: **التفسير الوسيط**، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى - ١٤٢٢هـ.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله: **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله: **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية

السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- سعيد بن منصور، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني: **التفسير من سنن سعيد بن منصور**، دراسة وتحقيق: د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم: **بحر العلوم (تفسير السمرقندي)**، تحقيق: الشيخ: علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤ م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **الدر المنثور في التأويل بالمأثور**، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٣م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **لباب النقول في أسباب النزول**، ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
- الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي: **التحرير والتنوير.. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (تفسير ابن عاشور)**، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس، ١٩٩٧م.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر: **جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.
- عبد الحليم عويس، وعلي عبد المحسن: **تفسير القرآن للناشئين**، دار الوفاء، المنصورة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ـ = ٢٠٠٦م.
- فريال زكريا العبد: **الميزان في أحكام تجويد القرآن**، دار الإيمان – القاهرة.
- القاري، ملا بن سلطان محمد: **المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- القاسم بن سلام، أبو عبيد الهروي البغدادي: **الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه**

من الفرائض والسنن، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر، مكتبه الرشد، شركة الرياض - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ= ١٩٦٤م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي: النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان.
- المباركفوري صفي الرحمن: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، إعداد جماعة من العلماء، بإشراف صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام، الرياض، ١٤٣٤ هـ = ٢٠١٣ م.
- محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي: تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس)، تحقيق: الدكتور محمد بلتاجي، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ١٩٩٨م.
- نخبة من أساتذة التفسير: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، الطبعة الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.
- نخبة من أساتذة التفسير: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، الطبعة الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.
- نخبة من علماء الأزهر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر، طبع مؤسسة الأهرام، الطبعة الثامنة عشر، ١٤١٦هـ= ١٩٩٥م.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف: التبيان في آداب حملة القرآن، حققه وعلق عليه: محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.

- النويري، محمد بن محمد بن محمد، أبو القاسم، محب الدين: **شرح طيبة النشر في القراءات العشر**، تقديم وتحقيق: الدكتور مجدي محمد سرور سعد باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

ثالثًا: العقائد والأديان

- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: **المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال**، وهو مختصر منهاج السنة، تأليف: شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، حققه وعلق حواشيه: محب الدين الخطيب، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، وكالة الطباعة والترجمة - الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.

رابعًا: الفقه العام وأصول الفقه والقواعد الفقهية

- ابن المنذر، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري: **الإجماع**، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.
- ابن المنذر، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري: **الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف**، تحقيق: أبو حماد صغير أحمد بن محمد حنيف، دار طيبة - الرياض - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.
- ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي: **فتح القدير**، دار الفكر، دون طبعة ودون تاريخ.
- ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله بن باز: **مجموع فتاوى ومقالات متنوعة**، دار القاسم، الرياض، الطبعة التاسعة عشرة.
- ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله: **كيفية صلاة النبي ﷺ**، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ١٤٢٣ هـ.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: **الفتاوى الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٧م.
- ابن فَرْح، أحمد بن فَرْح بن أحمد بن محمد بن فرح اللَّخمي الإشبيلي: **مختصر خلافيات البيهقي**، تحقيق: د. ذياب عبد الكريم ذياب عقل، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض،

الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

- أبو عبد الرحمن عادل بن سعد: **الجامع لأحكام الصلاة وصفة صلاة النبي ﷺ للأئمة الأعلام**، الكتاب العالمي للنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م.
- أبو مالك محمد بن حامد بن عبد الوهاب: **أحكام النساء (مستخلصًا من كتب الألباني)**، الناشر الدولي، مدينة نصر - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.
- التويجري، محمد بن إبراهيم بن عبد الله: **موسوعة الفقه الإسلامي**، بيت الأفكار الدولية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م.
- الجزيري، عبد الرحمن: **الفقه على المذاهب الأربعة**، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.
- حسام الدين بن موسى عفانة: **فتاوى يسألونك**، مكتبة دنديس، الضفة الغربية - فلسطين، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧-١٤٣٠هـ.
- الزحيلي، وهبة بن مصطفى: **الفقه الإسلامي وأدلته (الشامل للأدلة الشرعية والآراء المذهبية وأهم النظريات الفقهية وتحقيق الأحاديث النبوية وتخريجها)**، دار الفكر - سورية - دمشق، الطبعة الرابعة المنقحة المعدلة.
- سعيد بن علي بن وهف القحطاني: **أركان الصلاة.. وواجباتها، وسننها، ومكروهاتها، ومبطلاتها في ضوء الكتاب والسنة**، مطبعة سفير، الرياض، توزيع مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.
- سيد سابق: **فقه السنة**، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.
- عبد الرزاق عفيفي: **فتاوى ورسائل الشيخ عبد الرزاق عفيفي**، جمع مادته وأعدها للطبع: السعيد عبده ووليد منسي، دار ابن حزم، دار الفضيلة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- العوايشة، حسين بن عودة: **الموسوعة الفقهية الميسرة في فقه الكتاب والسنة المطهرة**، المكتبة الإسلامية (عمان - الأردن)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، الطبعة الأولى، ١٤٢٣=١٤٢٩هـ.

- القفال المروزي، أبو بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله: **فتاوى القفال**، تحقيق: مصطفى محمود الأزهري، دار ابن القيم - السعودية، ودار ابن عفان - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م.
- اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: **فتاوى اللجنة الدائمة**، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الإدارة العامة للطبع - الرياض.
- محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي: **أحكام الصلاة (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الثالث)**، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- محمد نعيم محمد هاني ساعي: **موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.
- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية: **الموسوعة الفقهية الكويتية**: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت.

الفقه الحنفي

- ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي: **رد المحتار على الدر المختار**، دار الفكر-بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.
- ابن نجيم المصري، زين الدين بن إبراهيم بن محمد: **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**، وفي آخره: تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري، وبالحاشية: منحة الخالق لابن عابدين، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية.
- بدر الدين العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى: **البناية شرح الهداية**، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.
- جمال الدين الحنفي، يوسف بن موسى بن محمد، أبو المحاسن جمال الدين المَلَطي: **المعتصر من المختصر من مشكل الآثار**، عالم الكتب - بيروت.
- الزيلعي، عثمان بن علي بن محجن البارعي، فخر الدين الحنفي: **تبيين الحقائق شرح كنز**

الدقائق وحاشية الشلبي، المطبعة الكبرى الأميرية - بولاق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣١٣هـ.

- السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة: **المبسوط**، دار المعرفة - بيروت، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
- الشرنبلالي، حسن بن عمار بن علي المصري الحنفي: **مراقي الفلاح شرح متن نور الإيضاح**، اعتنى به وراجعه: نعيم زرزور، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥م.
- الطحطاوي، أحمد بن محمد بن إسماعيل الحنفي: **حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح**، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
- علاء الدين السمرقندي، محمد بن أحمد بن أبي أحمد، أبو بكر: **تحفة الفقهاء**، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
- الكاساني، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي: **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.

الفقه المالكي

- ابن الحاجب، عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين المالكي: **جامع الأمهات**، تحقيق: أبو عبد الرحمن الأخضر الأخضري، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- أبو الوليد بن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي: **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة**، تحقيق: د. محمد حجي وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م.
- الحطاب الرعيني المالكي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي: **مواهب الجليل في شرح مختصر خليل**، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.
- الخرشي، محمد بن عبد الله المالكي أبو عبد الله: **شرح مختصر خليل**، دار الفكر للطباعة -

بيروت.

- الدسوقي المالكي، محمد بن أحمد بن عرفة: **الشرح الكبير للشيخ الدردير وحاشية الدسوقي**، دار الفكر.
- السعدي المالكي، أبو محمد جلال الدين عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار الجذامي: **عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة**، دراسة وتحقيق: أ. د. حميد بن محمد لحمر، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣ م.
- الصاوي المالكي، أبو العباس أحمد بن محمد الخلوتي: **بلغة السالك لأقرب المسالك**، المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير (الشرح الصغير هو شرح الشيخ الدردير لكتابه المسمى أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك)، دار المعارف.
- القرافي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي: **الذخيرة**، تحقيق: محمد حجي، وسعيد أعراب، ومحمد بو خبزة، دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
- المازري، أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المالكي: **شرح التلقين**، تحقيق: الشيخ محمد المختار السلامي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م.
- مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي: **المدونة**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

الفقه الشافعي

- الجويني إمام الحرمين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد، أبو المعالي، ركن الدين: **نهاية المطلب في دراية المذهب**، حققه وصنع فهارسه: أ. د. عبد العظيم محمود الديب، دار المنهاج للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، جدة - السعودية، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.
- الخطيب الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد الشافعي: **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.
- السنيكي، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى: **أسنى المطالب في شرح روض الطالب**، دار الكتاب الإسلامي.

- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي: **الأم**، دار المعرفة - بيروت، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م.
- شمس الدين الرملي، محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين: **نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج**، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.
- الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي: **المهذب في فقة الإمام الشافعي**، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الماوردى، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي: **الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي** (وهو شرح مختصر المزني)، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ=١٩٩٩م.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف: **المجموع شرح المهذب**، دار الفكر.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف: **روضة الطالبين وعمدة المفتين**، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٤٠٥هـ.
- الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس: **تحفة المحتاج في شرح المنهاج**، روجعت وصححت: على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء، المكتبة التجارية الكبرى بمصر لصاحبها مصطفى محمد، ١٣٥٧هـ = ١٩٨٣م.
- الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس: **المنهاج القويم (شرح المقدمة الحضرمية)**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.

الفقه الحنبلي

- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: **موسوعة فقه السنة.. فقه الصلاة وأحكامها**، دراسة وشرح وتعليق: السيد الجبيلي، دار الفكر العربي - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

- ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين: **الشرح الممتع على زاد المستقنع**، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢-١٤٢٨هـ.
- ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين: **مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين**، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن - دار الثريا، ١٤١٣هـ.
- ابن قاسم، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي النجدي: **حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع**، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.
- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد: **الشرح الكبير على متن المقنع**، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.
- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد: **الكافي في فقه الإمام أحمد**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤ م.
- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد: **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد: **المغني**، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ= ١٩٦٨م.
- ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح: **المبدع شرح المقنع**، دار عالم الكتب - الرياض، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م.
- ابن مفلح، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي: **الفروع وتصحيح الفروع** لعلاء الدين علي بن سليمان المرداوي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.
- أحمد بن حنبل: **مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله**، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.
- بهاء الدين المقدسي، عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد، أبو محمد: **العدة شرح العمدة**، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣ م.

- البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس الحنبلي: **الروض المربع شرح زاد المستنقع في اختصار المقنع**، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، لبنان.
- البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس الحنبلي: **دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات**، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ =١٩٩٣م.
- البهوتي، منصور بن يونس بن إدريس الحنبلي: **كشاف القناع عن متن الإقناع**، تحقيق: هلال مصيلحي، ومصطفى هلال، دار الفكر - بيروت، ١٤٠٢هـ.
- المرداوي، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان الحنبلي الدمشقي الصالحي: **الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف**، دار إحياء التراث العربي.
- مصطفى بن سعد: **مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى**، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

خامسًا: كتب السنن والآثار

- ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي: **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ابن أبي عاصم، أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني: **كتاب السنة (ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة بقلم: محمد ناصر الدين الألباني)**، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م.
- ابن الجعد، علي بن الجعد بن عبيد الجوهري البغدادي: **مسند ابن الجعد**، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
- ابن السني، أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط: **عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه ﷺ ومعاشرته مع العباد**، تحقيق: كوثر البرني، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن، جدة - بيروت.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين الزرعي ابن قيم الجوزية: **زاد المعاد في هدي خير العباد**، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٥هـ=١٩٩٤م.

- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: **منهاج السنة النبوية**، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.
- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ=١٩٩٣م.
- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري: **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠هـ=١٩٧٠م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي: **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي: **معجم الشيوخ**، قدم له: د. شاكر الفحام، وحققه ووضع فهارسه: د. وفاء تقي الدين، دارالبشائر للطباعة والنشر والتوزيع - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: **مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ وأقواله على أبواب العلم**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الوفاء - المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني: **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار الفكر - بيروت.
- أبو بكر بن الخلال، أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي: **السنة**، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ= ١٩٨٩م.
- أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث الأزدي: **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٦م.
- أبو داود الطيالسي، سليمان بن داود الفارسي البصري: **مسند أبي داود الطيالسي**، دار

المعرفة - بيروت.

- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني: المراسيل، تحقيق: شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله: **فضائل الخلفاء الأربعة وغيرهم**، تحقيق: صالح بن محمد العقيل، دار البخاري للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧ م.
- أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي: **مسند أبي يعلى**، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرناءوط عليها، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- الأصبهاني، أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل: **دلائل النبوة**، تحقيق: محمد محمد الحداد، دار طيبة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: **الأدب المفرد**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٩م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م.
- البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي: **مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار**، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر: **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر: **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر: **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي: **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، مع الكتاب: تعليقات الذهبي في التلخيص، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ= ١٩٩٠م.
- الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني: **سنن الدارقطني**، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارناءوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤ م.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد: **سنن الدارمي**، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، الأحاديث مذيلة بأحكام حسين سليم أسد عليها، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي: **مسند الشافعي**، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٠٠ هـ.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **الروض الداني (المعجم الصغير)**، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمري، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ.

- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ= ١٩٨٣م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **مسند الشاميين**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني: **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله: **مسند الشهاب**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٦م.
- مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي: **موطأ مالك - رواية يحيى الليثي**، دار إحياء التراث العربي - مصر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، **مشكاة المصابيح**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.
- مسلم، ابن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (صحيح مسلم)**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- المقريزي، أحمد بن علي: **مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر للمَرْوَزِي**، حديث أكادمي، فيصل آباد - باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن: **المجتبى من السنن (سنن النسائي الصغرى)**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.
- النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن: **سنن النسائي الكبرى**، دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، ط١: ١٤١١هـ= ١٩٩١م.
- الوادعي، مقبل بن هادي: **الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين**، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ=١٩٩٥م.

سادسًا: كتب التخريج

- ابن القطان، علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي، أبو الحسن: **بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام**، تحقيق: د. الحسين آيت سعيد، دار طيبة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ= ١٩٩٧م.
- ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري: **تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج**، تحقيق: عبد الله بن سعاف اللحياني، دار حراء - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري: **خلاصة البدر المنير في تخريج كتاب الشرح الكبير للرافعي**، تحقيق: حمدي عبد المجيد إسماعيل السلفي، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري: **البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير**، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض-السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م.
- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني: **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار ابن كثير، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م.
- أبو مالك كمال بن السيد سالم: **صحيح فقه السنة وأدلته وتوضيح مذاهب الأئمة، مع تعليقات فقهية معاصرة**: فضيلة الشيخ/ ناصر الدين الألباني، فضيلة الشيخ/ عبد العزيز بن باز، فضيلة الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر، ٢٠٠٣ م.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، دار المعارف - الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ= ١٩٩٢م.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه وشاذه**

من محفوظه، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.

- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **صحيح أبي داود**، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **صحيح الترغيب والترهيب**، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الخامسة.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، المكتب الإسلامي.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **صحيح السيرة النبوية**، المكتبة الإسلامية - عمان، الأردن، الطبعة الأولى.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **ضعيف سنن الترمذي**، أشرف على طباعته والتعليق عليه: زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض، توزيع: المكتب الاسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ=١٩٩١م.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، إشراف: زهير الشاويش،: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: تمام المنة في التعليق على فقه السنة، دار الراية، الطبعة الخامسة.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **صحيح سنن ابن ماجه**، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى،

١٤٠٧هـ.

- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **صحيح سنن النسائي**، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **صحيح سنن الترمذي**، زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- البوصيري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان الكناني الشافعي: **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية - بيروت، ١٤٠٣هـ.
- البوصيري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان الكناني الشافعي: **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**، تقديم: فضيلة الشيخ الدكتور أحمد معبد عبد الكريم، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- الداني، أبو عبد الله بن منير آل زهوي: **سلسلة الآثار الصحيحة أو الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين**، جمعها وخرجها وذكر بعض فوائدها: أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي، راجعه وقدم له: فضيلة الشيخ عبد الله بن صالح العبيلان، دار الفاروق للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.
- الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو، أبو شجاع الهمذاني: **الفردوس بمأثور الخطاب (مسند الفردوس)**، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
- الرباعي، الحسن بن أحمد بن يوسف بن محمد بن أحمد الصنعاني: **فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار**، تحقيق: مجموعة بإشراف الشيخ علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ.
- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد: **المقاصد الحسنة في بيان**

كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م.

- السقاف، علوي بن عبد القادر: **تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن**، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.
- الصوياني، أبو عمر، محمد بن حمد: **الصحيح من أحاديث السيرة النبوية**، مدار الوطن للنشر.
- المناوي، زين الدين محمد عبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي القاهري: **الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي**، تحقيق: أحمد مجتبى، دار العاصمة - الرياض.
- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان: **كشف الأستار عن زوائد البزار**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي - القاهرة، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.

سابعًا: الزهد والرقائق

- ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي: **محاسبة النفس**، تحقيق: المستعصم بالله أبي هريرة مصطفى بن علي بن عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦م.
- ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي: **اليقين**، حققه وعلق عليه: ياسين محمد السورس، دار البشائر الإسلامية.
- ابن الجزري: **الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١: ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج: **صفة الصفوة**، تحقيق: محمود فاخوري، ود. محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م.

- ابن الخراط، عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي، الأندلسي الأشبيلي: **العاقبة في ذكر الموت**، تحقيق: خضر محمد خضر، مكتبة دار الأقصى - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين الزرعي ابن قيم الجوزية: **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ= ١٩٧٣م.
- ابن المبارك، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله: **الزهد ويليه الرقائق**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.
- ابن رجب الحنبلي: **الخشوع في الصلاة**، المكتبة القيمة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.
- ابن عطاء السكندري: **حكم ابن عطاء الله السكندري**، شرح: الشيخ أحمد أبي العباس الفاسي المعروف بزروق، تحقيق: الإمام عبد الحليم محمود، طبعة دار الشعب، ١٩٨٥م، ص١٤١.
- أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث الأزدي: **كتاب الزهد** (رواية ابن الأعرابي عنه)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم بن محمد أبي تميم، وغنيم بن عباس بن غنيم أبي بلال، قدم له وراجعه: محمد عمرو بن عبد اللطيف، دار المشكاة للنشر والتوزيع - حلوان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.
- أبو طالب المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي: **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥ م.
- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني: **الزهد**، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.

- الأصبهاني، أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل: **الترغيب والترهيب**، اعتنى به: أيمن بن صالح بن شعبان، دار الحديث - القاهرة، الطبعة الأولى.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض.
- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **أصل صفة صلاة النبي ﷺ**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر: **كتاب الزهد الكبير**، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.
- الماوردى، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي: **أدب الدنيا والدين**، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، دار اقرأ - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي: **تعظيم قدر الصلاة**، تحقيق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري: **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١: ١٤١٧هـ.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف: **خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام**، حققه وخرج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت، ط١: ١٤١٨هـ= ١٩٩٧م.
- الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس: **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م.

ثامنًا: كتب شروح الحديث وعلومه

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج: **كشف المشكل من حديث الصحيحين**، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض، ١٤١٨هـ=١٩٩٧م.
- ابن العربي، محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، أبو بكر ابن العربي: **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك: **شرح صحيح البخاري**، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، وعليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن دقيق العيد، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري: **إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام**، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى ومدثر سندس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.
- ابن رجب، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي الدمشقي: **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، تحقيق: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن الجوزي - الدمام، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي: **الاستذكار**، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي: **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧هـ.
- ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين: **شرح رياض الصالحين**، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ.

- ابن قرقول، إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي، أبو إسحاق: **مطالع الأنوار على صحاح الآثار**، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م.
- بدر الدين العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى: **شرح سنن أبي داود**، حققه: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- بدر الدين العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى: **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ=٢٠٠١م.
- البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود: **شرح السنة**، تحقيق: شعيب الأرناءوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- البيضاوي، القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر: **تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة**، تحقيق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، ١٤٣٣هـ =٢٠١٢م.
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد: **معالم السنن** (شرح سنن أبي داود)، المطبعة العلمية - حلب، الطبعة الأولى، ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢م.
- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف المصري الأزهري: **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك**، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.
- زين الدين العراقي، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم: **طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد)**، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي، الطبعة المصرية القديمة - وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي).
- السندي، نور الدين محمد بن عبد الهادي التتوي أبو الحسن: **حاشية السندي على سنن النسائي**،

تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.

- السندي، نور الدين محمد بن عبد الهادي التتوي أبو الحسن: **حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)**، دار الجيل - بيروت.
- السندي، نور الدين محمد بن عبد الهادي التتوي أبو الحسن: **حاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل**، اعتنى به تحقيقًا وضبطًا وتخريجًا: نور الدين طالب، إصدارات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٨م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج**، حقق أصله، وعلق عليه: أبو إسحاق الحويني الأثري، دار ابن عفان للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - الخبر، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد**، حققه وقدم له: د. سلمان القضاة، دار الجيل، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **قوت المغتذي على جامع الترمذي**، رسالة دكتوراه إعداد الطالب: ناصر بن محمد بن حامد الغريبي، إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور: سعدي الهاشمي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، ١٤٢٤هـ.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، وغيره: **حاشية السيوطي على سنن النسائي**، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.
- الشنقيطي، محمد الخَضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني: **كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد اليمني: **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار**، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث - مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.
- الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني: **سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام**، دار الحديث.

- الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله: **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن)**، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م.
- العظيم آبادي، محمد شمس الحق أبو الطيب: **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية.
- عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، تحقيق: الدكتور يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.
- القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة السابعة، ١٣٢٣ هـ.
- الكشميري، محمد أنور شاه بن معظم شاه الهندي: **العرف الشذي شرح سنن الترمذي**، تصحيح: الشيخ محمود شاكر، دار التراث العربي -بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.
- الكشميري، محمد أنور شاه بن معظم شاه الهندي: **فيض الباري على صحيح البخاري** (أمالي الكشميري)، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، (جمع الأمالي وحررها ووضع حاشية البدر الساري إلى فيض الباري)، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- المباركفوري، أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني: **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤ هـ= ١٩٨٤م.
- المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم أبو العلا: **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- محمد بن علي بن آدم، الإثيوبي الوَلَّوِي: **ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (شرح سنن النسائي)**، دار المعراج الدولية للنشر، دار آل بروم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،

١٤١٦-١٤٢٤هـ = ١٩٩٦-٢٠٠٣م.

- مغلطاي، ابن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبد الله، علاء الدين: **شرح سنن ابن ماجه - الإعلام بسنته عليه السلام**، تحقيق: كامل عويضة، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط١: ١٤١٩هـ=١٩٩٩م.
- ألملا الهروي القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين: **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م.
- المناوي، زين الدين محمد عبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي القاهري: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط١: ١٣٥٦هـ.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٢: ١٣٩٢هـ.

تاسعًا: كتب التاريخ والسيرة والشمائل

- ابن إسحاق: **السيرة النبوية**، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤٢٤هـ=٢٠٠٤م.
- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي: **السيرة النبوية وأخبار الخلفاء**، صحَّحه وعلق عليه: الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي: **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها**، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ =١٩٩٨م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ١٣٩٦هـ= ١٩٧١م.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي: **تاريخ بغداد**، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م.
- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد: **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، حققه وفصَّله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد المجيد، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **الخصائص الكبرى**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ= ١٩٦٧م.
- الصوياني، أبو عمر محمد بن حمد: **السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة**، (قراءة جديدة)، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م.
- ضياء الدين المقدسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد: **الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما**، دراسة وتحقيق: أ. د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر: **تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)**، دار التراث - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

عاشراً: كتب التراجم والطبقات

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري:

أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ=١٩٩٦م.

- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي: **الثقات**، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ= ١٩٧٥م.
- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي: **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**، حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق على إبراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ= ١٩٩١م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر: **تهذيب التهذيب**، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل: **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.
- ابن سعد أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي: **الطبقات الكبرى**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: **طبقات الشافعيين**، تحقيق: د. أحمد عمر هاشم، د. محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م.
- ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح: **المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**، تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد - الرياض، السعودية، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م.



- برهان الدين الحلبي، أبو الوفا إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الشافعي سبط ابن العجمي: **الاغتباط بمن رمي من الرواة بالاختلاط**، تحقيق: علاء الدين علي رضا، وسمى تحقيقه (نهاية الاغتباط بمن رمي من الرواة بالاختلاط) وهو دارسة وتحقيق وزيادات في التراجم على الكتاب. دار الحديث - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود: **جمل من أنساب الأشراف**، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م.
- الداوودي، محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين المالكي: **طبقات المفسرين**، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الدولابي، أبو بِشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي: **الكنى والأسماء**، حققه وقدَّم له: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز: **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ = ١٩٦٣ م.
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي: **الأعلام** (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين: **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي، أبو سعد: **الأنساب**، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - لبنان، صيدا.
- شمس الدين أبو المحاسن، محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني الدمشقي الشافعي: **الإكمال في ذكر من له رواية في مسند الإمام أحمد من الرجال سوى من ذكر في تهذيب الكمال**، حققه ووثقه: د. عبد المعطي أمين قلعجي، منشورات جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي - باكستان.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد اليمني: **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، دار المعرفة - بيروت.
- الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي: **طبقات الفقهاء**، هذبهُ: محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي - بيروت، - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناءوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.
- عبد السلام بن محسن آل عيسى: **دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية** ﷺ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م.
- محمد بن أحمد سيد أحمد: **الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي.. حياته العلمية وجهوده الدعوية وآثاره الحميدة**، تقديم وتقريظ: جماعة من كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، المكتب الإسلامي - بيروت، مكتبة السوادي - جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨-١٤١٩هـ.
- محمد محمد محمد سالم محيسن: **معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ**، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.
- المزي، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج: **تهذيب الكمال**، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م.

حادي عشر: كتب المعاجم والآداب

- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم

الشيباني الجزري: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ= ١٩٧٩م.

- ابن المعتز، أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي: **البديع في البديع**، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي: **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري: **لسان العرب**، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف: **التعريفات**، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.
- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض المرتضى: **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: **معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم**، تحقيق: أ. د. محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب - القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤ م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران: **الفروق اللغوية**، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.
- مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة.

ثاني عشر: كتب البلدان والرحلات

- أحمد بن عبد الحميد العباسي: **عمدة الأخبار في مدينة المختار**، تصحيح: محمد الطيب الأنصاري، الناشر: أسعد درابزوني الحسيني، الطبعة الثانية.

ثالث عشر: مراجع وكتب عامة

- راغب السرجاني: **ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية**،

شركة أقلام للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى للناشر، مصر، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.

- هارون يحيى: المعجزات القرآنية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

رابع عشر: المجلات ومواقع الإنترنت

- جريدة البيان الإمارتية: www.albayan.ae.
- مجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء - الرياض.
- مجلة همس الثقافية المنوعة www.hmselklob.com.
- مركز الدراسات والبحوث البيئية: www.aun.edu.eg.
- موقع إسلام ويب، www.islamweb.net.
- موقع الموسوعة العلمية: www.msoms-anime.net.
- موقع جريدة البيان الإمارتية: www.albayan.ae.
- موقع خيرية الشيخ ابن عثيمين: www.ibnothaimeen.com.
- موقع ستار تايمز: www.startimes.com.
- موقع ستار تايمز: www.startimes.com.
- موقع صحيفة الأنباء: www.alanba.com.kw.
- موقع معرفة: www.marefa.org.
- موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.
- موقع: www.3rbdr.net.

* * *



الفهـــــارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث





فهرس الآثار والأقوال المأثورة

فهرس المسائل الفقهية

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام المترجم لها

فهرس الأماكن

فهرس الغزوات والمعارك

فهرس اللغة والمصطلحات

فهرس الموضوعات

* * *